



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الجزائر 02

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية "1518-1830م"

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث

تحت إشراف الأستاذة الدكتورة:
فلة موساوي القشاعي

من إعداد الطالبة:
رشيدة شجري معمر

السنة الجامعية: 2017-2018



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ



السلطة الروحية والسلطة السياسية في الجزائر العثمانية "1518-1830م"

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة:

رشيدة شكري معمر

أعضاء اللجنة المناقشة

رئيسا	أ.د. شكيب بن حفري
مقررا	أ.د. فلة موساوي القشاعي
عضوا	أ.د. محمد بن شوش
عضوا	د. ليلي خيراني
عضوا	د. كمال بيم
عضوا	د. عبد القادر فكايير

السنة الجامعية: 2017-2018

شكر وزينة كتاب

قال الله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾

صدق الله العظيم

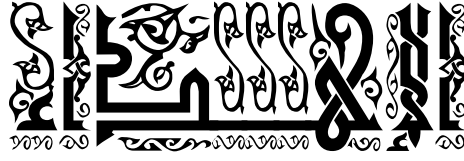
في البداية الشكر والحمد لله الذي أعانني على إنهاء هذا العمل.

وأشكر الأستاذة المشرفة أ/د فلة موساوي القشاعي التي كانت

مرشدا لي طيلة فترة انجاز هذا العمل ولم تبخل علي بنصائحها

القيمة، كما أشكر كل من ساعدني في هذا البحث خاصة الأستاذ

حسين محمد الشريف، والأستاذ ياسين بودريعة وصديقتي أنيسة ليمام.



أهدي ثمرة هذا الجهد:
إلى والدي الكريمين وإلى كل العائلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

التعريف بالموضوع ودوافع اختيار:

لقد عرفت الجزائر نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م ظاهرة بروز السلطة الروحية بشكل كبير في المجتمع، نتيجة الفراغ السياسي الذي خلفه ضعف الحفصيين شرقا والزيايين غربا، مما أدى بها إلى تولي تسيير أمور المجتمع في جميع المجالات، وهو ما جعلها تحظى بمكانة مميزة لدى السكان ولدى السلطة العثمانية فيما بعد. وبما أن العلاقة التي ربطت السلطة الروحية مع السياسة أو السلطة الروحية مع الحكام، عبر مختلف الفترات الإسلامية تأرجحت بين الاقتراب والتعاون تارة والنفور وصولا إلى العداء والتصادم تارة أخرى، وبما أن الجزائر لا تختلف في هذا عن بقية أقطار العالم الإسلامي، أردت أن أوضح جانبا من دور ومكانة السلطة الروحية بالمجتمع، وكذلك العلاقة التي ربطت بينها وبين السلطة العثمانية، وأهم المراحل التي مرت بها.

لذلك لم يكن اختياري لموضوع السلطة الروحية والسلطة السياسية وليد الصدفة، وإنما مطالعتي كشفت لي مدى أهمية هذا الموضوع الذي لم يحظ بنفس القسط من التعمق والبحث التاريخي الذي حظيت به الدراسات السياسية والعسكرية خلال الفترة العثمانية، اللهم إلا بعض الإشارات والتلميحات التي أفردتها مؤرخو هذه الفترة في مؤلفاتهم حول موضوع "السلطة الروحية وموقعها في المجتمع وعلاقاتها مع السلطة السياسية" وحتى هذه الإشارات لا تعطي لنا نظرة شاملة وعامة حول جوهر المكانة التي حظيت بها السلطة الروحية في المجتمع وحقيقة العلاقة التي ربطتها بالسلطة السياسية، من خلال دوافعها وأسبابها، وتحولاتها ونتائجها.

لهذا رأيت أن هذا الموضوع جدير بالدراسة والتعمق والتحليل التاريخي باعتباره حلقة ضائعة لاستكمال النظرة الشاملة للفترة العثمانية بالجزائر.

وقد حاولت قدر المستطاع أن أعالج الموضوع بأمانة علمية وفقا لما تتضمنه كل دراسة أكاديمية جامعية، إذ كان هدفي من وراء إنجاز هذا البحث محاولة الإلمام بالموضوعية قدر المستطاع، والالتزام بأساسيات المنهجية التاريخية.

- وقد حصرت بحثي هذا في الفترة الممتدة ما بين سنة 1518م إلى غاية 1830م

وهي فترة الحكم العثماني في الجزائر، وهذا لاعتبارات عدة، أهمها ما يلي:

- شهدت هذه الفترة ضعف الزيانيين والحفصيين وانتشار الفوضى والتطاحن في البلاد، مما أدى إلى وجود فراغ سياسي رهيب بالمنطقة، ومن ثم بروز السلطة الروحية لتملأ هذا الفراغ.
- كما أنّ هذه الفترة شهدت كذلك التحرش الإسباني بالجزائر خاصة والمغرب العربي عامة، وهذا منذ سنة 1505م أين احتل المرسى الكبير وبعدها جل المدن الساحل الجزائرية هذه المدن التي كانت اغلبها تمثل معقلا أساسيا للجهاد، الذي تزعمته السلطة الروحية بكل أقطابها خاصة شيوخ الزوايا والمرابطون. والذين تحالفوا مع العثمانيين بعد ظهورهم في البحر المتوسط ضد الوجود الاسباني.
- في هذه الفترة وبعد استرجاع المدن الساحلية باستثناء المرسى الكبير عاد أقطاب السلطة الروحية إلى قواعدهم، لتزداد صلتهم بالأهالي أكثر من صلتهم بالسلطة.
- لهذا تحالفت معهم السلطة أكثر واسترضتهم بالعطايا والهدايا لكونها الداعم لها في علاقتها مع الأهالي.
- لكن وبعد استرجاع مدينة وهران كان أحد الأسباب التي تحولت فيها العلاقة بين السلطتين، وشجعت على انتشار حركات التمرد والثورات الدينية وحتى القبلية، ليكون الدور البارز في هذا المجال للطرق التي فرضت نفسها على الساحة السياسية منذ القرن الثامن العاشر، فكانت المرأة التي تعكس لنا جوانب هامة من المجتمع الجزائري في تلك الفترة مستغلة في هذا الفراغ السياسي الذي كان موجودا بين الطبقة الحاكمة والمحكومة من جهة أخرى، هذه الأخيرة التي لم تكن ترى الأمور إلا من زاوية معينة صنعتها الطرق الصوفية.
- كما أن إيالة الجزائر في هذه الفترة خاصة الأخيرة منها عرفت أزمة اقتصادية ومالية حادة جدا، نتيجة لضعف الأسطول البحري الذي كان يعد العمود الفقري للحياة الاقتصادية حيث كانت موارد القرصنة من أتاوات غنائم تدر أرباحا على الخزينة العامة، وهذا التحول الاقتصادي المفاجئ دفع بالدايات إلى البحث عن مصادر دخل جديدة لتغطية العجز المالي الذي أصبحت تتخبط فيه البلاد فلم يجدوا بديلا إلا مضاعفة الضرائب التي لاقت رفضا كبيرا من طرف الرعية، وعلى رأسها أقطاب السلطة الروحية الذين قويت لديهم روح التمرد والثورة ضد السلطة.

- هذا دون أن ننسى التطور الذي شهدته الزاوية والطرق الصوفية نهاية القرن 18م حيث أنها أصبحت قوة مالية وعسكرية بإمكانها تهديد السلطة وزعزعة استقرارها.
- فبعد الدراسة الأولى الخاصة بالماجستير والتي قمت بها حول علاقة العلماء والسلطة السياسية في فترة الدايات 1671-1830م، ارتأيت مواصلة البحث ودراسة موقع السلطة الروحية في المجتمع من خلال الوظائف التي قامت بها والدعائم التي رسخت نفوذها في أوساط السكان وعلاقتها مع بعضها البعض، وموقفها من السلطة العثمانية في البداية ثم تطور العلاقة بينها.

الإشكالية:

ولهذا فالإشكالية المطروحة تتمحور حول الخلفية التاريخية والسياسية والدينية لمكانة السلطة الروحية في المجتمع، وحقيقة العلاقة التي ربطتها بالسلطة السياسية، ومدى تحقق واستمرار التوافق بين السلطتين.

وللإجابة عن هذه الإشكالية قمنا بطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية وهي:

- ما موقع السلطة الروحية في المجتمع، وإلى أي مدى أثرت في المجتمع سلبا وإيجابا؟ وما العلاقة التي جمعت بين كل أطرافها؟ وما هي وسائل ترسيخ نفوذها في المجتمع؟.
- ما موقف السلطة الروحية من الوجود العثماني خلال القرن 16م.
- هل كان لكل من السلطتين مجال معين ومحدد أم أنهما مارس السلطة جنبا إلى جنب؟.
- هل كانت مجرد وسيط إداري يربط الحكم المركزي بالرعية؟ وما العلاقة الحقيقية بينها وبين الحكم المركزي؟.
- ما هي التحولات التي طرأت على تلك العلاقة في المجتمع الجزائري أثناء العهد العثماني؟.
- هل خضع أفراد فئة السلطة الروحية لمعاملة مماثلة من طرف السلطة؟ أم أن بعضها كان يتميز بمعاملة وامتيازات خاصة فرضتها مكانتها ونفوذها في المجتمع خاصة المجتمع الريفي؟.

- وكيف لنا أن نعتبر قضية حكم العثمانيين للجزائر لمدة أكثر من ثلاثة قرون، فهل كان العامل الديني والخطر الخارجي عامل كاف لتقبل الجزائريين لهم؟ أو أن قضية علاقة أقطاب السلطة الروحية بالحكام كانت تركز على مصالح متبادلة تفسر لنا هذه العلاقة بين الطرفين. وهل ما كانت يقوم به بعض أقطاب السلطة الروحية من خدمة للحكام ومجارة لهم بدافع الحفاظ على امتيازاتها أم حفاظا على مصالح السكان وأمنهم؟.

- وهل استمرت هذه العلاقة بينهما أم أنها كانت متغيرة حسب الظروف؟ وهذا يدفعنا إلى التساؤل حول إذا ما شكلت السلطة الروحية قوة مضادة "contre pouvoir" للحكم العثماني بالجزائر؟.

التعامل مع المادة الأرشيفية والوثائقية:

وللإجابة على الإشكالية المطروحة قمنا بالاعتماد على مجموعة من الوثائق الأرشيفية من وثائق بقسم المخطوطات أو عقود سلسلة المحاكم الشرعية وسجلات البايلك التي تبرز لنا جانب من العلاقة بين السلطتين من خلال مساهمة الحكام في الأوقاف وبناء المؤسسات الدينية وإعفاء أقطاب السلطة الروحية من الضرائب ومنحهم الاقطاعات، وإظهار الاحترام لهم ولمراكزهم.

وتدعيما لما جاء في هذه الوثائق اعتمدنا على مجموعة من المخطوطات والمصادر منها:

"المنظومة القدسية" للأخضري و"منشور الهداية" للذان يقدمان لنا جانبا من التصوف وحال أهله وعلاقتهم مع بعضهم.

- تقييدات ابن المفتي التي ذكرت لنا جانبا من علاقة السلطة السياسية بالسلطة الروحية.

- "الشجر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني" لأحمد بن سحنون هذا المؤلف يعد مصدرا أساسيا يبين العلاقة التي كانت سائدة بين العلماء والسلطة خاصة حول مسألة الجهاد ضد الإسبان الذي كان يعد عاملا أساسيا للتحالف بينهما، وإن كان ابن سحنون يعتمد السرد إلا أنه أظهر جانبا من العلاقة الحسنة أو الإيجابية بين العلماء والسلطة ممثلة في شخص الباى محمد الكبير خاصة.

- "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي" لأحمد بن هطال التلمساني الذي عمل مستشارا لها الباي ومبعوثه الخاص في عدة مهام خارجية، فإن هطال ورغم كونه مقربا من الباي إلا أنه يذكر لنا شواهد عن تصرفات الحكام وجنودهم من سلب وفساد، خاصة أن هدف هذه الرحلة كان إخضاع القبائل الصحراوية البعيدة عن السلطة، وإرغامها على دفع الضرائب وقد تعكس الرحلة بعض الحقائق عن العلاقة بين الحكام والمحكومين.
- "دليل الحيران...." لمحمد بن يوسف الزياني الذي اعتمد في كتابه هذا على مصادر كثيرة "كدرء الشقاوة في فتنة درقاوة" لأبي راس الناصري، إضافة إلى الشعر الشعبي والروايات الشفهية ورغم أنه هو الآخر كان مقربا من الحكام إلا أنه كان يعطي رأيه في الأتراك، ولهذا لم يكتفي بالسرد التاريخي فقط.
- "طلوع سعد السعود" لإسماعيل بن عودة المزاري الذي تناول في كتابه حوادث حقيقية عاشها بنفسه خاصة ثورة درقاوة وما انتهجه الحكام ضد الثوار والمحرضين على الثورة. خاصة عهد الباي حسان الذي كان متعسفا في ردعه للثورة الدرقاوية.
- "أنيس الغريب والمسافر" لمسلم بن عبد القادر وهو الآخر بحكم قرب من السلطة هذا الأمر مكنه من أن يكون على علم بالأحداث التي كانت تجري في بايلك الغرب.
- "فريدة منسية" للعنتري، يعد مصدرا هاما لبايلك الشرق عالج فيه المؤلف تاريخ مدينة قسنطينة بالتفصيل اعتمادا على الروايات والمشاهدات والرجوع إلى وثائق العائلات العريقة بالمدينة.
- "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار" التي تعتبر سجل واقعي للأحداث التي عرفت الجزائر منذ النصف الثاني من القرن 18م إلى غاية وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي. وهذا فمن خلال ما قيده من أحداث وما أبداه من آراء وأحكام من أهم مؤرخي الفترة العثمانية، لما تميز به من صدق الرواية والابتعاد عن محاباة الحكام، كما أنه ومن خلال ذكره للدنوش التي كان يقدمها البايات للدايات يعطينا صورة واضحة لثقل الضرائب على الأهالي، خاصة إذا علمنا أن الجزائر عانت أواخر العهد العثماني من أزمة اقتصادية بعد نقص موارد القرصنة وتوجه

الحكام بأنظارهم نحو الداخل لهذا فما كتبه الزهار يعد مرآة صادقة وصورة حقيقية للأوضاع قبل الاحتلال الفرنسي.

- "تاريخ قسنطينة" للعطار تعرض فيه باختصار للأحداث التي عرفتتها مدينة قسنطينة في العهد العثماني كأعمال صالح باي العمرانية وظروف مقتله والتمردات التي حدثت بالمدينة من طرف الأعراب، وباي تونس حمودة باشا، والثائر ابن الأحرش. كما يقدم هنا هذا المصدر معلومات حول بايات بايلك الشرق معتمدا في هذا على ما سجله من المعاصرين للأحداث رغم إهماله للأحداث الثقافية وتركيزه على الاضطرابات والمظالم التي أزعجت السكان.

هذا بالإضافة إلى بعض المراجع مثل: وكذلك كتاب "صفحات في تاريخ مدينة الجزائر" لنور الدين عبد القادر وهو كتاب صدر في سلسلة نشرات كلية الآداب الجزائرية سنة 1965، أغلب معلوماته أخذت حرفيا من مخطوط "تقايد ابن المفتي" التي تبرز لنا جانب من علاقة العلماء بالحكام.

- كتاب سعد الله أبو القاسم "تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م"، وهو كتاب صدر عن دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ج1-2 هذا لكتاب يعطينا صورة واضحة عن الحياة الثقافية في الجزائر وعن مكانة العلماء وشيوخ الزوايا في المجتمع ومساهماتهم الجهاد.

- مجموعة من كتب ناصر الدين سعيدوني، التي تخص الوقف والأوضاع الاجتماعية والسياسة والاقتصادية في تلك الفترة منها كتاب "النظام المالي" الذي يبرز لنا جانبا من الضرائب التي كانت تفرض على السكان.

وبالإضافة إلى هذه المصادر اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر ومراجع باللغة الأجنبية ورغم أنها تمدنا ببعض المعلومات كعلاقة "الأقطاب السلطة الروحية بالسلطة السياسية" وبالأوضاع السياسية والاقتصادية إلا أننا نأخذها بحذر وخاصة المعاصرة للتواجد العثماني لما كان هناك من تأثيرات ونزاعات منها.

- Tacherifat: recueil de notice historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, pub par Devoulx imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.
- Devoulx, Les édifices religieux de l'ancien Alger, bastide, Alger, 1870.

- Rinn (L.), Marabouts et khouans, étude sur l'islam en Algérie, A.Jourdan, Alger, 1884.
- Depont (O.)- COPPOLANI (X.), les confréries religieuses musulmanes, A.Jourdan, Alger, 1897.

فهذه المصادر تقدم لنا وصفا دقيقا لوضعية المراكز الدينية والطرق الصوفية ودورها في المجتمع وحتى صلتها بالسلطة إضافة إلى ما أورده "فيرو" حول بايلك الشرق من خلال مقالاته في المجلة الإفريقية أو من خلال ما كتبه عن مدينة بجاية وجيجل.

- Feraud (CH): Histoire de Bougie, présentation de Nedjema Abd-El-Fatah, Ed. Bouchene, 2001.
- Feraud (CH.), histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, L.Arnault, 1869.
- Feraud, histoire des villes de la province de Constantine, Gigilli, L.Arnault, 1870.

فهي تعطينا وصفا دقيقا لأحداث الثورة الدرقاوية بالشرق الجزائري كما أنها تشير إلى مجموعة من المراسيم التي كان يحررها الحكام من دايات أو بايات من خلالها يضمنون حرمة مرابط أو عالم أو يقرون ويؤكدون فيها استمرار أحقيتهم في امتياز ما كالإعفاء من الضرائب أو غيرها.

هذا بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى باللغة العربية أو الفرنسية، واعتمدنا كذلك على مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات الحديثة الأكاديمية التي كان لها أهمية في إكمال هذه الدراسة، وتتمين أبعادها المختلفة.

الصعوبات التي اعترضت مراحل البحث:

هذا وكما هو معهود بالنسبة لكل دراسة تاريخية أكاديمية واجهتنا مجموعة من العراقيل والصعوبات كانت متصلة بالمادة الأولى الضرورية لإنجاز أي بحث علمي جامعي، ألا وهي الأرشفات والمصادر والمراجع المتعلقة بموضوع هذه الدراسة. لقلة الوثائق الرسمية التي تبرز هذه العلاقة، وحتى المصادر والمراجع حول هذه الفترة نجدها ركزت على مواضيع أخرى.

كما واجهتنا عراقيل في مؤسسة الأرشيف الوطني الجزائري بحيث منعونا من تصوير هذه الوثائق ولو كان بإمكاناتنا الخاصة مما جعلنا نستغرق وقتا طويلا من أجل إتمام هذه الدراسة.

ورغم هذا المشكل العويص الذي واجهني إلا أنني حاولت جمع وحصر أكبر قدر ممكن من معلومات حول هذه العلاقة من خلال المصادر التاريخية والمراجع التي رجعنا إليها قصد الوصول إلى مقاربات قد تساهم في توضيح الرؤية حول هذه العلاقة المركّبة. أما الخطة التي ارتكز عليها بحثي فهي مهيكلة على النحو التالي:

المدخل: تناولت فيه الأوضاع العامة للجزائر قبل الوجود العثماني.

القسم الأول: الذي يتعرض للسلطة الروحية والسلطة السياسية خلال العهد العثماني وتضمن:

الفصل الأول: السلطة الروحية ومميزاتها

- أ- التعريف بالسلطة الروحية وبأقطابها من فقهاء ومرابطين ومتصوفة ومراكزها وأهم الوظائف التي تولتها.
- ب- أهم مواردها الثابتة والمتغيرة من وقف وعشور وزكاة وما تدره عليها الطقوس والشعائر.

الفصل الثاني: السلطة السياسية

- أ- تناولت فيه أنظمة الحكم العثماني في الجزائر من البايكليات إلى غاية الدايات.
 - ب- أهم الركائز العسكرية المستحدثة التي اعتمدت عليها السلطة السياسية للبسط سلطتها. من قبائل المخزن والحاميات والأبراج والمشيوخات الوراثية المحلية.
- أما القسم الثاني:** والذي تعرضت فيه إلى موقع ودور السلطة الروحية والمجتمع.

الفصل الثالث: الأسس السوسيوثقافية للسلطة الروحية

حيث تطرقت فيه إلى:

- أ- الأسس التاريخية لبروز السلطة الروحية في المجتمع، مثل ملئها للفراغ السياسي الذي تركته السلطة السياسية الزيانية والحفصية، وتحملها عبء مواجهة الغزو الإسباني على السواحل، كما تطرقت لبعض المصطلحات الخاصة بالسلطة الروحية.
- ب- تناولت فيها التجربة الدينية للسلطة الروحية: من انتشار للتصوف في الجزائر، واعتناق الفقهاء له ثم العامة مما أدى إلى تحوله إلى تصوف عام مطعم بالمعتقدات والخرافات، وأيضا أسباب تفوق الصوفي والمرابط على الفقيه، والفرق بين المرابط والصوفي.

الفصل الرابع: تم فيه دراسة موقع السلطة الروحية في المجتمع من خلال مكانتها، وأهم الدعائم التي ارتكزت عليها لتدعم موقعها في الحقل الاجتماعي من نسب شريف وبركة ومعتقدات، إضافة إلى علاقة أقطاب هذه السلطة فيما بينهم. هذا بالإضافة لأهم الأدوار التي لعبتها في المجتمع من تعليم وإصلاح وقضاء وجهاد...

القسم الثالث: السلطة الروحية من التنظيم السوسيو ديني إلى العمل السياسي
تناولت فيه:

الفصل الخامس: تحول العلاقة من التعاون إلى التمرد

أ- أسباب التقارب بين السلطة الروحية والسياسية: من جهاد مشترك ومعتقدات.
ب- ازدواجية السلطة: تطرقت فيه إلى بداية الاتصال بين السلطتين وموقف السلطة الروحية من إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية.

الفصل السادس: ويتمحور حول الامتيازات العثمانية للسلطة الروحية سواء كانت مادية أو معنوية من منح للاقتطاعات وإعفاء من الضرائب أو التكليف بجبايتها المساهمة في الوقف وبناء مؤسسات السلطة الروحية، أو إظهار الاحترام لأقطابها ومصاهرتهم والتظاهر بالمشاركة في الطقوس والاعتقاد فيهم.

القسم الرابع: والذي تعكس فصوله مرحلة جديدة من العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة الحاكمة ألا وهي مرحلة التنافر والعداوة والتي طبعت الفترة الأخيرة من التواجد العثماني، وقد جاء هذا القسم تحت عنوان: **السلطة الروحية من العمل السياسي إلى العمل العسكري والثورة**، وقد تم التعرض له من خلال النقاط التالية:

الفصل السابع: التحول في العلاقة من الائتلاف والتعاون إلى التمرد والثورة

أ- أسباب القطيعة من زوال الغزو الإسباني الذي كان يشكل آخر حلقة من التحالف بينهما وهي استرجاع مدينة وهران من الأسبان والتعسف الضريبي بسبب نقص موارد الخزينة وتطور الزاوية أواخر العهد العثماني حيث أصبحت تشكل قوة مضادة للسلطة.
ب- تجليات ومظاهر التوتر والقطيعة بين السلطتين: من خلال الإجراءات والممارسات التي اتخذتها السلطة ضد السلطة الروحية من قتل ومن سجن ونفي، ومصادرة أملاكهم وحتى نزع الامتيازات التي كانوا يحظون من إثارة للفتن والصراعات بين القبائل (فرق تسد).

الفصل الثامن: رد فعل السلطة الروحية على تعسف السلطة السياسية

أ- التمرد والثورة: نتيجة لهذه الأسباب شهدت هذه الفترة عدة ثورات كالدقاوية والتيجانية.

ب- نتائج هذه الثورات وانعكاساتها على المجتمع.

وقد أنهيت بحثي هذا بخاتمة لما توصلت إليه من خلال استنتاجات من هذه الدراسة والتي أخصها في المقاربة الآتية:

- هو أن السلطة الروحية لعبت دورا في المجتمع نتيجة الأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر حيث ملأت الفراغ الذي تركته السلطة الحاكمة، وهذا جعلها المسير الفعلي للأهالي مما اجبر العثمانيين على التعامل والتحالف معها، لذلك سعى الحكام لكسبها بكل الطرق ، لذا تقربوا منهم ومنحهم امتيازات وصلاحيات عديدة لتكون في بداية تواجدهم قوة مساندة وعامل تهدئة واستقرار للأوضاع الداخلية لكن هذه العلاقة الودية لم تستمر إلى نهاية العهد العثماني بالجزائر بل تغيرت من التحالف إلى القطيعة والتمرد ضد السلطة، ليشكل بهذا العلماء قوة مضادة للسلطة، ساهمت ثوراتها التي قامت بداية القرن 19م في انهيار التواجد العثماني في الجزائر واضمحلال كيانه السياسي.

مع العلم أن هذه الدراسة تتخللها نقائص متعددة، فما توصلت إليه من استنتاجات ليست أحكاما نهائية لأن دراسة مثل هذه الإشكالية المهمة حول علاقة الحكام بالمحكومين بمختلف أطيافهم، ستعرف لا محالة تطور بفضل ظهور وثائق جديدة، وهذا ما يجعلني أؤكد بأن مساهمتي هذه رغم ما بذل فيها من جهد علمي وبحث لا يمكن أن تغلق الباب في هذا المجال فهي جهد علمي متواضع أتمنى أن يكون منطلقا لدراسات أخرى معمقة، وقد حاولت عبر مراحلها الشاقة أن التزم بقواعد الأمانة العلمية والمنهجية التاريخية الأكاديمية.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أشكر الأستاذة الفاضلة الدكتورة فلة موساوي القشاعي المشرفة على ما بذلته من نصح ومجهود من أجل إخراج هذا العمل في أحسن حلة، حيث لم تتوان في تقديم النصائح والتوجيهات طيلة مدة إنجازي لهذه الأطروحة.

المختصرات :

تر: ترجمة

تع: تعليق

تح: تحقيق

ج: الجزء

د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية

س.ب: سجلات البايك

ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع

ط: الطبعة

م.ش: المحاكم الشرعية

م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب

و: وثيقة

Abréviations :

Ann.Afr.N: Annuaire d'Afrique du Nord

B.S.G.A.O : Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran

Ed: Edition

J.A : journal Asiatique

Imp: Imprimerie

o.p.u: Office des publications universitaires

Pub : Publication/publié

R.A : Revue Africaine

R.H : Revue historique

R.H.M : Revue d'histoire Maghrébine

R.N. M.S.A.C : Recueil des notices de la société archéologique de Constantine

R.O.M : Revue de l'occident musulman et de la méditerranée

S.D : Sans date

S.M.E : Sans maison d'Edition

S.N.E.D: Société nationale d'édition et de distribution

T : Tome

Trad: Traduit/Traduction

الفصل التمهيدي

1- الأوضاع الجيوسياسية لمنطقة المغرب الإسلامي نهاية القرن 15م

2- أوضاع المغرب الأوسط مطلع القرن 16م

1- الأوضاع الجيوسياسية لمنطقة المغرب الإسلامي نهاية القرن 15م

1-1- انهيار دويلات المغرب الإسلامي وظهور الخطر الإسباني:

عرف المغرب الإسلامي أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م أحداثا سياسية هامة، حددت مستقبله السياسي، سواء كانت هذه الأحداث داخلية أو خارجية، فإنّها قد ساهمت بشكل كبير في رسم صورته خاصة المغرب الأوسط .

فالمغرب الإسلامي في هذه الفترة عاش جملة من الأحداث الداخلية والخارجية كالاضطرابات والانقسامات نتيجة التفسخ السياسي الذي أصاب الموحدين والدويلات التي ظهرت بعدهم من ناحية، والغزو الإسباني من ناحية ثانية.

داخليا: نجد ضعف الدولة الموحّدية في القرن 7هـ/13م، وانقسامها إلى ثلاث دويلات الحفصية (تونس)، الزيانية (المغرب الأوسط)، المرينية (المغرب الأقصى) هذه الدويلات كانت تعيش منازعات وتطاحن إقليمي وحتى عائلي على حد سواء، وهذا بسبب سعي كلا منها للسيطرة على كامل منطقة المغرب الإسلامي، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها في الكثير من المرات، وهو ما استنزف قدراتها العسكرية وحتى ثرواتها. الأمر الذي جعلنا لا نكاد نعرف مع نهاية القرن 15م تخوما ولا حدودا مرسومة لأي دولة منهم وهو ما أثر بالسلب على السكان جرّاء هذه المنازعات.⁽¹⁾

فبنو مرين اصطدموا بالحفصيين الذين اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين للدولة الموحّدية، أمّا بنو عبد الواد (الزيانيين) فقد اصطدموا بالمرينيين مرة وبالحفصيين مرة أخرى، وهذا بحكم موقعهم الوسطي، ممّا جعل حدودها لا تعرف الاستقرار.⁽²⁾

ففي الوقت الذي كان فيه السلطان المريني أبو سعيد عثمان يحارب الزيانيين من أجل إخضاعهم لسلطته، واستولى على تلمسان وطرّد ملكها أبا زيان ونصّب مكانه أبا محمد عبد الله، احتلّ الإسبان تيطوان سنة 1400م ودمروها وقتلوا نصف سكانها وسيقت

(1)- أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1965، ص 65.

(2)- أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح. وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1979م، الجزائر، ص 14. (المقدمة)

ينظر: غطاس عائشة وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007، ص 11.

البقية أسرى إلى إسبانيا، وحين احتل البرتغال سبتة سنة 1415م كان أبو سعيد عثمان يحارب أباحسون الزياني من أجل تلمسان كذلك.⁽¹⁾

وهذا دليل على أنّ الصراع الداخلي وحب التوسع أنساهم التصدي للخطر الإسباني والبرتغالي الذي بدأ يشتد منذ نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م.

والملاحظ أيضا على هذه الدويلات أن نفوذها لم يتعد عواصمها والمناطق المحيطة بها، أمّا بقية المناطق فقد تقاسمتها كيانات إمّا إقطاعية تركز على العصبية القبلية أو دول مدن على السواحل، سيطرت عليها أوليغارشيا^(*) (Oligarchie) حضرية.⁽²⁾ وهو ما جعلها تعيش انحطاطا سياسيا وعسكريا، واقتصاديا.

هذا التفسخ والانقسام أعجز الدولة الحفصية على السيطرة على القبائل القوية، وحتى على المدن، أمّا المغرب الأقصى فأقوى سلطة به تركزت بفاس،⁽³⁾ في حين أنّ المغرب الأوسط هو الآخر كان مقسما إلى كيانات تجاوز عددها خمسة عشرة كيانا،⁽⁴⁾ أهمّها الإمارة الزيانية التي مثلت أكبر ضعف للحكم المركزي.⁽⁵⁾ ويشير "المزاري" إلى حالة الضعف التي كان فيها حاكم تلمسان محمد بن محمد الثابتي (أبي قلمون) بقوله: «لم يهن له في الملك قرار... ولا استقرت في المملكة عمارة ولا دار، وقد عجز عجزا كليا عن الدفاع وصار غير نافذ الكلمة ولا مطاع...».⁽⁶⁾ فهذا الضعف الذي عانتها الدولة الزيانية والتفكك والتجزؤ لأقطار المغرب الإسلامي هو ما جعل "جوليان" (Ch.A.Jilien) يقول أنّ بلاد المغرب كانت عبارة عن فسيفساء سياسية.⁽⁷⁾

(1) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 66.

(*) - هي الأقلية التي تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية أو السياسية، تتحكم في الأقلية المدنية.

(2) - جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 16.

(3) - جون وولف، الجزائر وأوروبا، تر.تع، أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1986م، ص 23.

(4) - جمال قنان، المرجع السابق، ص 16.

(5) - Boyer (P), " Contribution à l'étude politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger" in ' R.O.M.M. N°01, 1966, P13.

(6) - المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا أواخر القرن 19م، تج. ودراسة يحي بوعزيز، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990م، ص 196.

(7) - Julien Charles (A), Histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe à 1830, T2, S.N.E.D, Alger, 1978, pp 625,626.

فهذه الدويلات انقسمت حتى على نفسها، فالدولة الحفصية التي كانت حدودها تمتد من تونس حتى نواحي بجاية فقدت كلّ أقاليمها في الجزائر، حيث انقسمت إلى إمارتين واحدة بتونس والأخرى بالشرق الجزائري تابعة لها اسمياً فقط، وهو ما أطلق عليه مملكتي قسنطينة وبجاية، أو ما عرف في العهد الحفصي باسم "بلاد الغرب"،⁽¹⁾ التي أشار إليها ابن قنفذ بقوله «أنّ الأمير أبو إسحاق الحفصي لمّا ملك بجاية سنة 678هـ هو "أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظاهر"...».⁽²⁾ وقد كان الصراع حاداً ودموياً بين المملكتين الحفصيتين في بجاية وقسنطينة منذ القرن 14م إلى غاية بداية القرن 16م،⁽³⁾ وهو نفس الصراع العائلي على الحكم الذي كان يعقر دار الدولة الحفصية بتونس.⁽⁴⁾

أمّا بالمغرب الأقصى وبعد سقوط الدولة المرينية وقيام الدولة الوطاسية سنة 879هـ-1471م، وبعد الصراع بين الشريف أبو عبد الله الجوطي المريني ومحمد الشيخ الوطاسي، الذي استقرّ بفاس أين أسّس الدولة الوطاسية وبسط نفوذه من شمال المغرب الأقصى من نهر أم الربيع جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً، ومن تلمسان شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.⁽⁵⁾ ورغم هذا فإنّ الوطاسيين مع نهاية القرن 15م لم يختلف وضعهم عن باقي أقطار المغرب الإسلامي في الفترة الحديثة حيث أنهم لم ينجحوا في توفير الأمن والاستقرار، وهو ما أدّى إلى تفكك المغرب الأقصى إلى وحدات سياسية تحت زعامة دينية أو قبلية أو قيادات محلية أخرى تابعة لها اسمياً فقط، ففي الشمال والجنوب الشرقي ظهرت إمارة بني راشد وشفشاون وآل المنظري بتيطوان، وآل عبد الحميد في القصر الكبير، وآل رحو في دبدو، أمّا في الوسط والغرب نجد إمارة حدو وأخيه أبي فارس في الجبل الأخضر، وبني عامر وآل فرحون في آسفي أمّا في الجنوب فنجد إمارة

(1) - جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق في القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، د.م.ج، الجزائر، 2001، ص 13.

(2) - ابن قنفذ أحمد أبو العباسي، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، نق.تح. محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص 139.

(3) - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، ط3، دار هومة، الجزائر، 2011، ص 08.

(4) - ينظر حول هذا، ابن قنفذ، المصدر السابق.

(5) - الناصري أبو العباس بن أحمد السلاوي، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، تح. تع جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ج4، ص 117 وما بعدها.

آل شنتوف بمراكش، ومولاي الإدريس الهنتاتي في الأطلس الكبير، وشيخ عرب أولاد زرقان في تافيلالت وغيرها من الإمارات المتصارعة فيما بينها للإنفراد بالحكم.⁽¹⁾

أما المغرب الأوسط (الجزائر) وهو الذي يهمننا في هذا الإطار الجيوسياسي فقد كثرت فيه الفتن والنزاع على النفوذ، أين وصل الوضع في النصف الثاني من القرن 15م إلى درجة لم يعد بمقدور الزيانيين بتلمسان حماية المناطق الموالية لهم،⁽²⁾ فقد كانوا في موقع أسال لعاب جيرانهم غربا وشرقا. فالمرينيون هاجموا واحتلوا تلمسان أما الحفصيون فقد أخذوا قسنطينة، لهذا لم تظهر دولة قوية بالمغرب الأوسط ولا سلطة مركزية حقيقية، بل كان عبارة عن قبائل ومدن مستقلة تحت زعامات مختلفة دينية أو غيرها.⁽³⁾

لهذا يجمع معظم المؤرخين على أن المغرب الأوسط في هذه الفترة لم يكن سوى كيان تتجاذبه الانقسامات الداخلية وهو ما سيجعله عرضة للغزو الإسباني، "فنيقولاوي إيفانوف" يصف المغرب الأوسط على أنه «لوحة محزنة لبلد مدمر»، حيث كان مقسما ومجزءا إلى إقطاعات وإمارات للبدو ومدن يحكمها الطغاة. فتلمسان يحكمها الزيانيون، والشلف والمدية ومليانة يسيطر عليها حاكم دلس، أما شرق البلاد فتابع للسلطة الحفصية اسميا حيث تشكلت إمارة عاصمتها بجاية^(*) وقسنطينة، في حين أن إمارة كوكو وبنو عباس لم يعترفوا بسلطة أحد عليهم إلا نادرا ما اعترفوا بسلطة شكلية للحفصيين عليهم، وفي الجنوب فقد خضع الزاب والحضنة لحكم البدو، أما مدينة الجزائر فقد ترأسها سالم التومي، إضافة إلى مدن أخرى خضعت للمرابطين أو المغامرين، وهو ما جعلها فريسة سهلة للإسبان.⁽⁴⁾

(1) - عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2006، ص 46.

(2) - Boyer, Op. Cit, P13.

(3) - جون وولف، المرجع السابق، ص 23.

(*) - انفصلت عن الحفصيين مطلع القرن 16م خاصة عهد أبو العباس عبد العزيز، أما مدينة الجزائر فانفصلت عن الزيانيين، وبايعت حاكم بجاية ودفعت الخراج له، لقربها وخوفها منه لعدم قدرة حاكم تلمسان على حمايتهم.

- صالح عباد، المرجع السابق، ص 10.

(4) - نيقولاوي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، تر. يوسف عطا الله، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 97، 98.

أما "برودال" (Braudel) و"أحمد توفيق المدني" فيشيران إلى أنه بعد انغماس كلا من الدولة الحفصية والزّيانية في حروب طويلة وما أصابهما من ضعف تشكّلت مدن وقبائل مستقلة لا تعترف بسلطة أحد عليهما، فمدينة وهران شكلت أواخر القرن 15م جمهورية تجارية مستقلة عن الزّيانيين تكسب ثروة طائلة، وبجاية هي الأخرى كانت لها تجارة مستقلة مع مدن إيطاليا مما اكسبها ثروة طائلة، أما تلمسان فقد وجدت بها السلطة الزّيانية صعوبة في ضبط الأمر إلى حد وصل الأمر بالأبناء إلى محاربة وخلق آبائهم عن الحكم، كما كانوا يحاربون بعضهم ويتنازعون لاقتسام ملك أبيهم.⁽¹⁾

أما في مقدمة "الشعر الجماني" فقد جاء فيها أن الجزائر كانت مجزأة إلى خمسة عشر جزءا كل جزء خاضع لقبيلة عربية أو بربرية، فسويد^(*) وبني عامر^(**) سيطروا على معظم سهول وهران، وآل مقران يتصرفون في القبائل الصغرى (بجاية) وإمارتهم بني عباس ثم نقلت إلى مجانة، والقبائل الكبرى كانت تحت سيطرة آل القاضي (إمارة كوكو)، أما مدينة الجزائر وضواحيها فكانت تحت تصرّف الثعالبة (آل بن التومي)^(***) إضافة إلى عدة قبائل^(****) مثل الذواودة، الأحرار... سيطرت على مناطق لم تتلها في تصرفاتها أحكام الملوك.⁽²⁾ في حين مدينة القل تمتعت بنوع من الاستقلال عن الحفصيين أو ممثليهم في قسنطينة.⁽³⁾

في حين هناك من يشير إلى أنّ المغرب الأوسط كان يعيش حالة من التفكك فمدينة الجزائر سيطرت عليها طبقة أرستقراطية تجارية من أصل أندلسي تحت حماية

(1) - Braudel (F), "Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577", **R.A.**, N°69, 1928, pp 212-213.

ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 67، 69.

(*) - **السويد**: تقطن القفار الممتدة نحو مملكة تنس، هم شرفاء، شجعان لهم صيت وسيطرة تتقاضون أجور من حاكم تنس. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ط2، تر. محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ج1، ص 52.

(**) - ينظر حول قبائل بني عامر: عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان من الأعراب كبني عامر، تح. وتق. محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.

(***) - ينظر القسم الثاني.

(****) - حول هذه القبائل ينظر القسم الأول

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، المقدمة، ص 12.

(3) - الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 54.

وحكم قبيلة الثعالبة يرأسها سالم التومي، أمّا الشلف فحاكمها مولاي عبد الله أخذ لقب الملك وخضع للإسبان، أمّا قسنطينة فكانت تابعة للحفصيين اسمياً فقط، في حين شكلت القبائل خارج المدن تجمعات أو كونفدراليات على رأسها قبيلة أو عائلة كبرى، أهمها عائلة الذواودة (النمامشة) بتبسة، والحصنة يحكمها الشيخ بوعكاز، بن جلاب في توقرت، آل مقران بالقبائل الصغرى والبييان بن الفكون بقسنطينة مع عائلة بن قانة، وابن القاضي بالقبائل الكبرى.⁽¹⁾

هذه الأوضاع الداخلية كان لها الأثر السلبي على المنطقة عموماً، يضاف إليها الأحداث الخارجية الجيوسياسية (Geopolitiques)، التي عرفها حوض البحر المتوسط نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م والتي غيرت موازين القوى حيث برزت إسبانيا كقوة مسيحية مهددة للقوى الإسلامية بالمغرب الإسلامي بعد توحيدها ومطاردتها للأندلسيين بعد سقوط غرناطة عام 1492م إضافة إلى رغبتها في مد وتوسيع مجالها الحيوي، خاصة وأنّ العالم كان يعيش فترة الكشوفات الجغرافية وتكوين الإمبراطوريات.

خارجياً: ففي الوقت الذي كانت فيه منطقة المغرب الإسلامي تشهد الأيام الأخيرة لبني مرين وبني زيان وبني حفص، الذين قضت عليهم الصراعات فيما بينهم من أجل الزعامة، إضافة إلى تمرد السكان على السلطة المركزية وعدم ثقتهم في الحكام العاجزين عن تلبية حاجياتهم والدفاع عنهم،⁽²⁾ كانت شبه الجزيرة الإيبيرية تشهد توحيد^(*) مملكتي قشتالة وأراغون (Castille et Aragon)، بعد الزواج السياسي بين إيزابيلا (Isabelle) ملكة قشتالة وفرديناند (Ferdinand) ملك أراغون، الأمر الذي وحد جهودهم لطرد الأندلسيين من غرناطة سنة 1492م.⁽³⁾

بعدها اندفعت إسبانيا في محاولة منها لتصفية المسلمين والقضاء على كل مظاهر الإسلام بالأندلس فارضة عليهم أقصى الإجراءات وإرغامهم على التنصير، لذلك خيرتهم بين التنصير أو الرق والعبودية مدى الحياة، كما صادرت أملاكهم وحرّم عليهم التكلم بالعربية، والتردد على الحمامات وفتح أبواب منازلهم أيام الاحتفالات والجمعة والسبت،

(1)- Kaddache (M), l'Algérie Durant la période ottomane, O.P.U, Alger, 1991, P 54.

(2)- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، مطبعة بن بولعيد، الجزائر، 1976م، ص 17.

(*)- كان هذا سنة 1479م.

(3)- جون وولف، المرجع السابق، ص 24.

ومنعهم من إقامة الشعائر الدينية، وعدم تسمية أبنائهم بأسماء عربية، كما حوّلت المساجد إلى كنائس، وحرّمت عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأمرُوا بالسجود عند مرور كبير الأبحار في الشارع،⁽¹⁾ حتى صار الناس يتعبدون في مساجد سرية تحت الأرض، لأنّ الإسبان كانوا يعذبون كل مسلم يقوم بشعائره الدينية هو وأولاده.⁽²⁾

ونتيجة لهذا الاضطهاد والإرهاب المسيحي استنجد الأندلسيون بغيرهم من المسلمين خاصة الدولة العثمانية بصفتها حامية المسلمين في تلك الفترة، منها سفارة أهالي غرناطة سنة 1477م للسلطان محمد الفاتح (1466م-1481م) طالبين منه التدخل لإنقاذهم، كما وجهوا سفارة أخرى أواخر القرن 15م للسلطان الأشرف سلطان مصر، الذي بعث وفوداً إلى البابا وملوك أوروبا يذكرهم بما يتمتع به النصارى من حريات تحت حكمه، في حين أنّ أبناء دينه يضطهدون في مدن إسبانيا، مهدداً بإتباع نفس سياسة التتكيل المتبعة ضدّ مسلمي الأندلس ضدّ المسيحيين بمصر إذا لم يكف الإسبان عن أعمالهم ضد مسلمي الأندلس.⁽³⁾

ثم تلتها عدّة سفارات ورسائل استنجد للدولة العثمانية مثل الرسالة التي وجهها أحد الأندلسيين إلى السلطان بايزيد الثاني (1481-1512م) جاءت على شكل قصيدة بعد ديباجة قصيرة شرح له فيها حال الأندلسيين وما يتعرضون له جاء فيها:

أخص به مولاي خير خليفة	سلام كريم متجدد
بأندلس بالغرب في أرض غربة	سلام عليكم من عبيد تخلفوا
وبحر عميق ذو ظلام ولجة ⁽⁴⁾	أحاط بهم بحر من الروم زاهر

(1) - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين، مركز الدراسات والبحوث العثمانية، والمورسكية والتوثيق والمعلومات زغوان، تونس، 1989، ص 27، 28.

- ينظر: عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني 1541م"، المجلة التاريخية المغربية، ع 03، 1975م، تونس، ص 38.

(2) - مذكرات خير الدين خير الدين بربروس، تر، محمد دراج، ط1، الأمانة للنشر، الجزائر، 2010م، ص 54.
- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، ج4، ص 527، 528.

(3) - التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين، ص 28.

(4) - شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1939م، ج3، ص 108 وما بعدها.

ورغم الظروف(*) التي كان يواجهها بايزيد الثاني بداية حكمه إلا أنه أرسل أسطولا بقيادة كمال رايس سنة 1487م، الذي ضرب عدة سواحل أوروبية ونقل أول فوج أندلسي إلى إسطنبول، كما شجع التجار العثمانيين على مساعدة إخوتهم.⁽¹⁾

وبعد انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية وجه مسلمي غرناطة رسالة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، شرحوا له فيها وضعهم ودور خير الدين بربروس في مساعدتهم جاء فيها «وقد كان بجوارنا الوزير المكرم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين... فاستغثنا به، وأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من المسلمين... ونقلهم إلى أرض الإسلام تحت إيالة طاعة السلطان ولعمارة مدينة برشك، شرشال ونواحي تلمسان...».⁽²⁾

كما وجدت كذلك عدة أوامر (فرمانات) من السلاطين العثمانيين لبايلريات الجزائر من أجل إعانة الأندلسيين منها ما جاء في دفتر مهم، أمر من السلطان سليم الثاني (1566-1574م) مؤرخ في 24 شوال 977هـ/1569م جاء كرد على استغاثة الأندلسيين، يأمر فيه بايلرباي الجزائر بتقديم الإعانة لهم بالعساكر أو العتاد والعدة، ومما ورد فيه أيضا وصف لأحوال الأندلسيين جاء فيه: «وصل إلى أستانة سعادتنا عرض حاكم الذي جاء فيه بأن الكفار أصابهم الدمار... وقد سلبوكم أسلحتكم ومنعوكم من تحدث العربية وأنهم يتعرضون لنسائكم ويمارسون كل أنواع الظلم والتعدي عليكم... وقد أرسل أمري

(*) - بعد وفاة والده محمد الفاتح 1481م حدث صراع بينه وبين أخيه الأمير "جم" على السلطة هذا الأخير فرّ إلى الماليك بمصر ثم عاد بعد سنة يحرض الأمراء ضد أخيه، ثم اتصل بفرسان القديس يوحنا لمساعدته لكنهم اتصلوا ببازيد الثاني الذي دفع لهم جزية مقابل الإبقاء عليه عندهم هذا بالإضافة إلى صراعه مع البندقية وفتوحاته في أوروبا وتحالف أوروبا ضده. - محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2012، ص 138 وما بعدها.

(1) - مذكرات خير الدين، ص 63. (هامش) - إيفانوف، المرجع السابق، ص 95.

- التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين، ص 11. - عبد الجليل التميمي، "الدولة العثمانية وقضية المورسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، ع 23-24، 1981، تونس، ص 191.

(2) - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين...، ص 35-38.

ينظر: عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م"، المجلة التاريخية المغربية، ع 3، 1975م، تونس، ص 43 وما بعدها.

الهمايوني إلى أمير أمراء الجزائر الذي تتجه أنظاره وأفئدته نحوكم لإرسال النجدة والمعونة لكم إما بإرسال العساكر المظفرة أو بإرسال العدة والعتاد....»⁽¹⁾.

ونجد أيضا رسالة من السلطان العثماني إلى البايبراي العلي مؤرخه في 23 شوال 977هـ-1570/69م يأمره بمساعدة الأندلسيين: «عليك أن تعاون وتظاهر أهل الإسلام المذكورين بكل ما تسير تقديمه لهم»⁽²⁾.

كما نجد أن السلطان أحمد الأول (1603-1617م) راسل دوق البندقية سنة 1023هـ/1614م طلب منه إعانة أهل الأندلس، وعدم التدخل في أمورهم أو التعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم عند مرورهم على المنازل والمعابر التي تحرسها البندقية وهذا وفقا للمعاهدة التي كانت تربط الدولة العثمانية مع البندقية،⁽³⁾ وهذا بعد مراسلة المورسكيين له طلبا لحمايتهم من اعتداء البندقية عليهم.

1- 2- الهجرة الأندلسية إلى سواحل المغرب الأوسط:

نتيجة للاضطهاد الذي مورس على الأندلسيين، خاصة بعد سقوط غرناطة وإصدار فرديناند قرار منع الديانة الإسلامية بالأندلس وإرغامهم على اعتناق المسيحية اشتدت الهجرات^(*) الأندلسية إلى بلدان المغرب الإسلامي.⁽⁴⁾

وفي هذا يقول المقري: «خرجوا في الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر.... إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألاف بفاس وألاف أخرى بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات»⁽⁵⁾.

(1)- دفتر مهم، رقم 09، صفحة 89 حكم رقم 231، الأرشيف الوطني الجزائري.

(2)- دفتر مهم، رقم 09، صفحة 77 حكم رقم 204.

(3)- عبد الجليل التميمي، "رسالة السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، 1977م، ص 13-14. ينظر: التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين....، ص 47، 48.

(*)- الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط كانت قبل سقوط غرناطة حيث نجد أن التجار الأندلسيين هم من أسس وهران ق 10م، بعدها اشتدت الهجرات بصورة جماعية بعد سقوط قرطبة، طليطلة، إشبيلية، وخاصة بعد سقوط غرناطة. صالح عباد، المرجع السابق، ص 19.

-لكن عبد الرحمن الجيلالي يذكر أن الهجرات الأندلسية كانت ابتداء من سنة 1452/856م. - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م، ج2، ص 193.

(4)- عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر ونشأتها وتطورها قبل 1830م، المطبعة العربية، الجزائر، 1972م، ص 162.

(5)- المقري، نفح الطيب...، ص 527، 528.

لقد بلغ عدد المهاجرين الأندلسيين سنة 1611م 275 ألف مهاجر نحو سواحل المغرب الأوسط كمدينة الجزائر، وهران، شرشال، بجاية وهذا بعد ثلاث سنوات من صدور قرار الطرد الجماعي من طرف فليب الثالث سنة 1609م،⁽¹⁾ أما فاي (Fey) فيذكر أنه تم طرد ما بين 200 إلى 500 ألف أندلسي،⁽²⁾ مدينة الجزائر وحدها بلغ عدد المهاجرين إليها سنة 1609م 25 ألف أندلسي،⁽³⁾ أما مدينة وهران وصل إليها نحو 28 ألف.⁽⁴⁾

هؤلاء المهاجرين كانوا يقومون بالدعوة للجهاد ضد الإسبان، ومنهم من قام بهجمات على السواحل الإسبانية،⁽⁵⁾ لهذا رأت إسبانيا أن غزو بلاد المغرب يعدّ أمراً ضرورياً واستراتيجياً، حتى تضرب الخناق على الأندلسيين، خوفاً من عودتهم لفتح الأندلس انطلاقاً من بلاد المغرب الإسلامي التي كانت منطلقاً لفتحها سابقاً على يد طارق بن زياد.⁽⁶⁾

وهذا يبرز لنا أنّ الحقد المسيحي الإسباني على الأندلسيين لم يقف عند طردهم من الأندلس بل دفعهم إلى ملاحقتهم أينما حلوا،⁽⁷⁾ لهذا أرسلت إيزابيلا جاسوساً للتعرف على المنطقة، وجاء في تقريره: «إنّ كل البلاد في حالة يبدو أنّ الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة».⁽⁸⁾ وكان هذا خطوة أولى لاستكشاف المنطقة والإعداد لغزوها، للحد من الهجمات المعاكسة التي كان يقوم بها الأندلسيون، الأمر الذي جعل الملكة إيزابيلا ترسل عرائض الاستغاثة للملوك الكاثوليك، ولولا وفاتها لاحتل كامل المغرب العربي بسبب هذه العرائض.⁽⁹⁾

(1) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 19.

(2) - Henri Léon Fey (H-L), Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole, Adolphe Perrier, Oran, 1858, P 55.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، ص 23.

(4) - نفسه، ص 44.

(5) - وولف جون، المرجع السابق، ص 25.

(6) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 13، 14.

(7) - محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 15، 16.

(8) - جون وولف، المرجع السابق، ص 24.

(9) - نفسه، ص 25.

وبما أن إسبانيا كانت في حالة تنافس مع البرتغال للسيطرة على الطرق التجارية بعد قيامهم بعملية الكشوفات الجغرافية، الأمر الذي جعلهم يمدون نظرهم إلى السواحل المغربية، لذلك وقبل البدء في تنفيذ المشروع التوسعي عليها، طلبت إيزابيلا من البابا ألكسندر السادس التدخل لعقد الصلح بين إسبانيا والبرتغال، هذا الأخير قام بتقسيم مناطق النفوذ(*) بينهما حسب ما جاء في معاهدة طورديسلاس سنة 1494م. (***) ثم طلب من ملوك أوروبا عقد هدنة لمدة خمس سنوات حتى تتفرغ إسبانيا لاحتلال السواحل المغربية.(1)

بعدها بدأ الإنزال الإسباني على السواحل عملا بوصية إيزابيلا وقد تولى تطبيق هذا المشروع الكاردينال خمينس (Ximénis) الذي شارك في إعداد الحملات ومهاجمة وتتبع الأندلسيين خوفا من جمع شتاتهم ومحاولة العودة للأندلس.(2)

فما كاد يصل القرن 16م حتى احتل الإسبان والبرتغال تقريبا كل المدن الساحلية للبلاد المغربية،(3) ولولا جنون جوهانا ابنة إيزابيلا ووفاة زوجها فليب الثالث سنة 1506م، ورفض مجلس قشتالة لفرديناند القيام بأي حركة لاحتلال السواحل المغربية ينتج عنها حرمان أحفاد إيزابيلا شارل وفرديناند (فون هابسبورغ Von-Habsburg)، لأن فرديناند حاكم أراغون بإمكانه أن يلد وريثا لعرش أراغون لا علاقة له بقشتالة، هذا الأمر منع من غزو بقية المدن.(4)

(*) - قبلها كانت معاهدة طليطلة سنة 1480م، ثم معاهدة طورديسلاس وبعدها معاهدة سنترال 1509م وبموجب هاتين المعاهدتين التي حددت مناطق النفوذ لكل طرف الإسبان من حجر بادس إلى الشرق والبرتغال من حجر بادس إلى المحيط. - عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 47، 48.

(**) - عقدت المعاهدة نتيجة التنافس الإسباني البرتغالي على مناطق النفوذ المكتشفة في إطار الكشوفات الجغرافية، وبموجبها تم تقسيم العالم بين إسبانيا والبرتغال وفق خط وهمي يمر على جزر الرأس الأخضر، حيث أن المناطق الواقعة غرب الخط تعود لإسبانيا، أما الواقعة شرق الخط فتعود إلى البرتغال.

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، (المقدمة)، ص 10، 11.

- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ج3، ص 493.

(2) - حليمي عبد القادر، مدينة المرجع السابق، ص 163.

- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1977م، ص 78.

(3) - محمد العربي الزبير، المرجع السابق، ص 16.

(4) - جون وولف، المرجع السابق، ص 25.

بالإضافة إلى هذا فإن ظهور العثمانيين على ساحة الأحداث كقوة بحرية ورفعهم لراية الدفاع عن البلاد الإسلامية حال دون استمرار مشروع الغزو، ثم سعيهم وتحريرهم للمناطق الساحلية خاصة سواحل المغرب الأوسط.

2- أوضاع المغرب الأوسط مطلع القرن 16م

2-1- الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط:

بعد سقوط غرناطة سنة 1492م والقضاء على الحكم الإسلامي بالأندلس وجه الإسبان نشاطهم لغزو بلدان المغرب الإسلامي،(*) وهذا من أجل منع محاولات الأندلسيين من أجل استرجاع الأندلس، ورغبة منهم في استغلال موارد المنطقة الاقتصادية وموانئها الإستراتيجية عسكريا، مستغلين في ذلك ضعف الدويلات القائمة في المنطقة نتيجة التطاحن بينهما من جهة، وبين الأمراء الطامحين للحكم من جهة أخرى.

فبعد وصول آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزعل إلى تلمسان بدأت التهديدات الإسبانية ضدها، مما اضطر أميرها الزياني محمد السابع إلى الذهاب بنفسه إلى إسبانيا، لطمأنة فرديناند الخامس وقدم له الهدايا استرضاءً له.(1) ليأتي بعدها الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية مستغلين التنافس حول العرش الزياني بين أبو زيان الثالث (المسعود) وأبو حمو الثالث (أبو قلمون) الذي أدخل أخاه السجن، وأثناء هذه الاضطرابات احتل الإسبان المرسى الكبير(**) عام 1505م،(2) لكونه موقعا هادئا وصالحا لرسو السفن، كما أنه كان مأوى للتجار المسلمين الذين كانوا

(*)- الغزو الإسباني والبرتغال للسواحل المغاربية كان في البداية يعتمد على الغزو ثم العودة حيث دخل الإسبان تطوان وخريبوها عام 1600م ثم دخل البرتغال سبتة عام 1415م وطنجة عام 1437م والقصر الصغير عام 1458م وأصيلا وطنجة عام 1471م، ونتيجة الصراع بينهما حول مناطق النفوذ عقدت معاهدة طليطلة 1480م ثم معاهدة طوديسيلاس عام 1494م ثم معاهدة سنترام عام 1409م. وبعد معاهدة طوديسيلاس كانت أول منطقة يحتلها الإسبان هي مليلة 1497م وغساسة عام 1504م حجر بادم عام 1508م أما البرتغال فاحتلوا ماسا عام 1497م، ثم مزان عام 1502م، وأغادير عام 1508م وآسفي عام 1508م. - عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 47، 48.

(1)- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001م، ج 1، ص 81، 82. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 196.

(**) - سماه الرومان المرسى الرياني (الإلهي). - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 114.

(2)- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 82.

يغيرون على السفن الأوروبية،⁽¹⁾ وقد تبرع الكاردينال خمينيس بماله الخاص، كما ساعدته الكنيسة بالمال من أجل الغزو الذي دام قرابة ثلاثمائة سنة.⁽²⁾

بعد هذا شجعوا الأمير يحيى بن الثابت أخو أبا زيان المخلوع بتلمسان على الاستقلال بتتس وضواحيها عام 1506م تحت حمايتهم، هذا الأمر أدى إلى حدوث حروب طاحنة بين عرش تلمسان وعرش تتس، راح ضحيتها المذهب والبريء وكان المستفيد الوحيد من هذا الأمر الإسبان الذين احتلوا وهران 1509م،⁽³⁾ بقيادة بيدرو نافرو (Pedro Navarro) وإشراف الكاردينال خمينيس دائما.⁽⁴⁾ وكان هذا بمساعدة وخيانة أحد يهود الأندلس يدعى "اشطورا" مع بعض الخونة الذين عملوا على فتح أبواب مدينة وهران للإسبان بعدما كان الناس يستعدون للمواجهة على الأسوار ووراء الأبواب،⁽⁵⁾ بعدها دخلت عدة قبائل في خدمتهم كقبائل بني عامر، التي خاطبها الشيخ عبد الله بن أبي المحلي السجلماسي على سبيل المعاييرة والسخرية من فعلهم، ومستنفرا السكان للدفاع على المدينة:

فمن مبلغ عني بني عامر	ولاسيما ممن قد ثوى تحت كافر
يا معشر الإسلام في كل موطن	وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا معشر الترك يا كل عالم	وكل ولي حافظ للأوامر
أنا شدكم بالله ما عذر جمعكم	لدى الله في وهران ذات الخنازير
أذلكم الجبار كيف رضيتم	بسبي العذارى من بنات الأكابر ⁽⁶⁾

خلف الغزو الإسباني للمرسى الكبير وهران آثارا سلبية على السكان دامت القرنين ونصف وفي جميع المجالات الاقتصادية والثقافية... الخ، حيث قام الإسبان بأعمال مخزية وتخريبية، فحولوا بعض المساجد إلى كنائس وهدموا الآخر منها، واجبروا السكان

(1) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 79.

(2) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 96.

(3) - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 82.

(4) - Laugier (de.T), Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville en 1816, piltan librairie, Paris, 1830, P 21. - Julien, Op. Cit, P 223. - Braudel, Op. Cit, P 223.

-Dr Monnerau, "des inscriptions d'Oran et de Mers-Elkebir "par le général C.X de sandoval, trad, de l'espagnol, in R.A., N°15, 1871, P 173,176.

(5) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 111. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 198.

- Fey, Op. Cit, P 68 et suite

(6) - المشرفي، المصدر السابق، ص 34، 35. - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 117، 118.

على ترك دينهم، وتنصيرهم، وحرقت الكتب والمكتبات والنهب والقتل الجماعي دون التمييز في السن والجنس،⁽¹⁾ حيث تم ذبح ما يزيد عن أربعة آلاف شخص وأسر ثمانية آلاف آخرين،⁽²⁾ الأمر الذي اضطر السكان إلى الفرار من المدن نحو الأرياف والجبال، وهو حال كل سكان المغرب الإسلامي الذين تعرضوا للغزو الإسباني أو البرتغالي، حيث يقول "السلوي": «حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية من السواحل».⁽³⁾

بعدها جاء الدور على بجاية سنة 1510م،^(*) التي احتلها القائد "بيدرو نافرو" بحملة قوامها عشرة آلاف رجل تعززهم المدفعية وآلات وسلاح وفير، وارتكبوا مجزرة رهيبة فيها على غرار وهران، حيث ذبحوا أربعة آلاف ومائة شخص وخربوا المدينة ونهبوا ثرواتها، وتهجير أهلها للجبال بعدما استماتوا في الدفاع عنها.⁽⁴⁾

وقد أشار الكثير من المؤرخين إلى تأثير الأعمال المخزية الهمجية التي قام بها الإسبان في المدن على نفسية الأهالي "فالجامعي" يشير إلى قول المرابط علي أبا حسون العبدلي أنهم في أحواز تلمسان لم يهدأ بالهم، ولا نومهم حتى يجعلوا من يحرس عليهم وإذا نام أحدهم تجده يهذي بإغارة إسبانية عليه، كما أن الشيخ محمد مصطفى الرماصي القلعي كان يترك بيته ليلا ويسكن بيوت الشَّعر مع أهله في الغابة حتى يسهل عليهم الفرار عند إغارة الإسبان.⁽⁵⁾

ونتيجة العنف الذي اتسمت به الهجمات الإسبانية خضعت عدّة مدن طواعية فأقام بها الإسبان الحصون والقلاع لرصد حركات السكان،⁽⁶⁾ مثل تلمسان التي كانت تعمّها

(1) - قنان، المرجع السابق، ص 17، 18.

(2) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 111. - حليمي، المرجع السابق، ص 163.

(3) - السلوي الناصري، المصدر السابق، ج 4، ص 111.

(*) - في نفس السنة احتلت طرابلس الغرب، غنابة، وقبل حاكم تونس أبو عبد الله الحفصي، دفع الأتاوة وخضوعه، يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، د.م. ج، الجزائر، 2009م، ج 2، ص 09.

(4) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 120 و 123. - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 15، 18.

- جلال يحي، المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981م، ص 16.

(5) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500، 1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008م، ج 1، ص 202، 203.

(6) - جون وولف، المرجع السابق، ص 26.

الفوضى والضعف، ممّا اضطر حاكمها لعقد الصلح مع الإسبان سنة 1512م واعترف بوجودهم في وهران،⁽¹⁾ وقبلها خضعت تنس وشرشال ومستغانم سنة 1511م⁽²⁾ حيث قبلت هي الأخرى دفع الجزية والتخلي عن النشاط البحري (القرصنة) وذلك لتفادي نهاية مماثلة للمدن الأخرى،⁽³⁾ إضافة إلى عدّة قبائل دخلت في خدمة الإسبان مثل بنو زيان الونازرة، قيزة، غمرة، حميان، نافع، أولاد عبد الله، بني عامر،... فهؤلاء كانوا جواسيس للإسبان ومرشدين لهم في الطرق ليلا ونهارا.⁽⁴⁾

بعد هذا اقترب الإسبان من مدينة الجزائر التي ذهب حاكمها "سالم التومي" بنفسه إلى الإسبان ببجاية أين اجتمع مع القائد "بيدرو ونافرو"، واتفق معه على إطلاق الأسرى المسيحيين وعدم التعرّض للسفن الإسبانية، وأن يدفع الجزية لحاكم بجاية الإسباني اعترافا بالتبعية، وعلى أن يذهب وفد إلى ملك إسبانيا لترسيم الاتفاق،⁽⁵⁾ وفي عام 1510م سار سالم التومي بنفسه رفقة حاكم تنس أبو عبد الله إلى ملك إسبانيا، محملا بالهدايا والأسرى المسيحيين،^(*) وقد انتهى اللقاء بإقرار دفع الجزية السنوية وإنشاء حصن البنيون سنة 1510م على بعد 300 متر عن مدينة الجزائر.⁽⁶⁾ وهي نفس الشروط التي فرضت على مستغانم سنة 1511م من استرجاع للأسرى ودفع الجزية السنوية.⁽⁷⁾

(1) - جلال يحي، المرجع السابق ص 16.

(2) - حليمي، المرجع السابق، ص 163.

(3) - وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وت، عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م، ص 27.

(4) - المزاري المصدر السابق، ص 212.

(5) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 127.

(*) - قدر عدد الأسرى بـ 130 أسير. - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، تر. جمال حمادنة، د.م.ج، الجزائر، 2007م، ص 23.

(6) - حليمي، المرجع السابق، ص 163-164، عطا الله الحمل، المرجع السابق، ص 84، 85.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 203.

(7) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 146، 147. - صالح عباد، المرجع السابق، ص 35.

- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 23، 24.

2-2- ظهور الإخوة بربروس وإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

ارتبط الوجود العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط بالمحنة التي تعرّض لها الأندلسيون، حيث جعلوا أنفسهم فداء للدفاع عن الإسلام ونقل الأندلسيين إلى سواحل المغرب الإسلامي، خاصة بعدما اتخذوا من جزيرة جربة التونسية مركزاً لنشاطهم البحري منذ 1504م، بعدها أهدى عروج لحاكمها أبو عبد الله الحفصي التحف والجواري التي استحسناها هذا الأخير، واتفق معه على خمس الغنائم،⁽¹⁾ وفي هذا يشير خير الدين في مذكراته ما خاطب به أخوه السلطان الحفصي: «نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمل فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس، فيستفيد المسلمون من ذلك، وتنتعش التجارة، كما سندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم»،⁽²⁾ بعدها نقلوا نشاطهم إلى حلق الواد (La Goulette)،⁽³⁾ أين قضوا الشتاء ولما حل الربيع عادوا لنشاطهم البحري.⁽⁴⁾

ونظراً للسمعة والشهرة التي اكتسبها الإخوة بربروس بتصديهم للإسبان وإنقاذ الأندلسيين، أصبحوا محط أنظار وأمل كل المسلمين، حتى جاءتهم طلبات الاستغاثة من أهل بجاية من طرف علمائها وأعيانها، وأميرها الحفصي أبو بكر أمير قسنطينة.⁽⁵⁾ أما "الأفرائي" فيذكر أن من اتصل بعروج هو الشيخ أحمد بن القاضي بقوله: «لما رأى أبو العباس... شوكة النصارى والكفار، وانتشارهم في بلاد المغرب وضعف المسلمين عن مقاومتهم، كاتب الترك وعرفهم عزّة هذه البلاد لما سمع من شدّة الأتراك في المعارك، ونجدتهم في الحروب والمضايق، وإرهابهم للكفرة، فقصد بحسن نيته أن يرفعوا عزّة الإسلام ما انخفض، وبقوا من أمره من ضعف وقال: "إنّ بلادنا بقيت لك ولأخيك أو

(1) - قنان، المرجع السابق، ص 20. يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ...، ص 11.

(*) - يذكر هايدو أنّ عروج اتفق مع السلطان الحفصي على عشر الغنائم. لكن خير الدين في مذكراته يذكر أنهما اتفقا على ثمن الغنائم فقط ينظر: مذكرات خير الدين، ص 46.

Haedo (F.D.de), Histoire des rois d'Alger, trad, H. de grammont, adolphe, Jourdan, Alger 1881, p 06.

(2) - نفسه، ص 46.

(3) - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ...، ص 11.

(4) - مذكرات خير الدين...، ص 46.

(5) - المدني، المرجع السابق، ص 162. - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ، ص 11.

(**) - يذكر هايدو أنه لما احتلت بجاية عام 1510م استنجد حاكمها بعروج سنة 1512م لإنقاذ بلده لكنها فشلت

وأصيب عروج في ذراعه. - Haedo, Op. Cit, P 10, 11.

للذئب فأقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحض الناس على إتباعهم والانخراط في صفهم والسمع والطاعة لأمرهم عروج التركماني»⁽¹⁾.

لكن خير الدين في مذكراته لا يذكر هذا بل يذكر أنّ دخولهم لبجاية سنة 1512م كان بسبب الرياح التي أجبرتهم على التوجّه إلى بجاية بدل جنوة، وبسبب مطاردة السفن الإسبانية لهم، اضطر عروج لمواجهتها في قلعة بجاية رغم معارضة خير الدين، وفي هذه المواجهة ورغم فشلها وإصابة عروج في ذراعه إلا أنهم غنموا عشرة سفن إسبانية بعدما خرجوا بأربعة سفن فقط وانسحب عروج إلى تونس للعلاج أين قطعت ذراعه بعدما استعصى علاجها.⁽²⁾

بعد هذه المحاولة الفاشلة أدرك عروج أنّ استقرارهم في حلق الواد لن يساعدهم على تحرير بجاية، لبعد المسافة لذا وجب عليهم الاستقرار في مكان أقرب فاستقرّ أمرهم على جيجل كأحسن مكان للتمركز، فانتزعها من الجنوبيين سنة 1514م بعدما كانت خاضعة لهم منذ عام 1260م، وجعلوها مركزا لنشاطهم بدل حلق الواد.⁽³⁾

وخلال إقامته بجيجل عمل عروج على كسب الأهالي فلم يفرض عليهم ضريبة بل أظهر لهم سخاءً، بتوزيعه جزءا من الغنائم عليهم،⁽⁴⁾ و يذكر هايدو (Haedo) أنّ عروج عند إقامته في جيجل صادف وقت مجاعة كبيرة لذلك كان يغير على السفن المسيحية، ويجلب القمح والشعير ويوزعه على السكان مما زاد في شعبيته.⁽⁵⁾ فبايعه أهلها أميرا عليهم،⁽⁶⁾ ليستمر بعدها بنقل الأندلسيين إلى السواحل الجزائرية.⁽⁷⁾

وبعد استقرار الإخوة بربروس بجيجل انطلقوا لمحاولة تحرير بجاية للمرة الثانية سنة 1514م وهذا عندما راسلهم علماؤها وصلحاؤها عندما كانوا في طريقهم إلى أحواز الأندلس لإنقاذ الأندلسيين ومما جاء في رسالتهم: «إنّ الله تعالى تكفل بنصركما حيثما

(1) - محمد الصغير الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة إنجي، د.ب، 1888م، ص 17.

- الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 4، ص 162.

(2) - مذكرات خير الدين ... ص 50-54.

(3) - احمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 166. - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ، ص 12.

(4) - Feraud (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Gigilli, L.Arnolat, Paris, 1870,p123.

(5) - Haedo, Op. Cit, P 15.

(6) - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ...، ص 12.

(7) - مجهول، غزوات عروج وخير الدين تصحيح وتعليل. نورالدين عبد القادر، مطبعة الثعالبة، الجزائر، 1934م،

توجهتما لم ينكس لكما راية قط في الجهاد. فكيف تدعونا في أيدي الكافر، لا نعبد الله إلا خفية ولا نقدر على إشهار ديننا، وأنتم يا معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم»⁽¹⁾ وفي رواية أخرى: «إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم، لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار».⁽²⁾

فسار عروج لتحرير المدينة للمرة الثانية سنة 1514م على رأس جيش مكوّن من عشرين ألف مجاهد وحاصر المدينة، لكن تحصيناتها منعتهم من اقتحامها فعاد أدراجه إلى جبل لقضاء الشتاء وترتيب جيشه⁽³⁾. ومع نهاية عام 1515م أعاد عروج المحاولة للمرة الثالثة فتوجه بجيش قوامه ألف وثلاثة وثلاثون بحارا وعشرة سفن قاذرة^(*) ومئة وخمسون مدفعا وآلاف الأسرى للتجديف، لكنه فشل في هذه المحاولة لعدم امتلاكه المدافع المخصصة لضرب الحصون، فانسحب إلى جبل أين استولى على عشرة سفن إسبانية كانت قادمة من ميورقة لدعم الحامية ببجاية، ثم عاد وتتكروا على أنهم إسبان برفع الرايات الإسبانية على السفن ففتحت لهم أبواب القلعة ببجاية التي دخلوها وهنئه شيوخ المناطق المجاورة على هذا⁽⁴⁾ وفي هذه المحاولة فتحوا قلعة بجاية وليس المدينة وهو ما أشار إليه خير الدين في مذكراته بقوله: «بعد فتح القلعة.... انتصبت أنا وأخي عروج ملكا على هذه البلاد».⁽⁵⁾

بعدها حاصر الاخوة بربروس المدينة بمساعدة القبائل لكن نقص الذخيرة، ورفض السلطان الحفصي مساعدتهم، اضطرهم للانسحاب مرة أخرى إلى جبل.^{(6)(**)} إضافة إلى أن

(1) - غزوات عروج...، ص 25.

(2) - مذكرات خير الدين، ص 67.

(3) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 168، 169. للمزيد ينظر: Haedo, Op. Cit, p15 et suit.

(*) - قاذرة، سفينة شراعية حربية طويلة وخفيفة بها 25 مقعدا كل مجداف به 4 أو 5 مجدفين، تحمل 35 بحارا و196 جدافا و100 بحارا و13 مدفعا. - مذكرات خير الدين ص 50. (هامش). للمزيد ينظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 38.

(4) - مذكرات خير الدين، ص 70، 73.

(5) - نفسه، ص 72.

(6) - نفسه، ص 74. - غزوات عروج...، ص 26. - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 38 و51.

- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 168. - يحي بوعزيز، الموجز في التاريخ، ص 12.

القبائل الجبلية التي دعمته ذهبت لخدمة حقولها دون استئذانه وتبعها العديد من الأتراك.⁽¹⁾ ليفشل بهذا في ثالث محاولة لتحرير المدينة، لكن هذا الفشل لم يمنع سكان مدينة الجزائر في طلب مساعدة العثمانيين، خاصة بعدما حرروا قلعة بجاية واستماتة الإخوة بربروس من أجل تحرير المدينة، وهو ما شجع سكان مدينة الجزائر وعلى رأسهم حاكمها سالم التومي لطلب نجدة الأخوين بربروس سنة 1516م وهي نفس السنة التي توفي فيها فرديناند ملك إسبانيا.^{(*) (2)}

وقد أشار صاحب "الزهرة النيرة" إلى ما جاء في رسالة أهالي الجزائر إلى الاخوة بربروس قولهم: «سمعنا أنكم أناس تحبون الجهاد، وأخذتم بجاية وجبل من أيدي النصارى، ونصرتم الدين فهنيئاً لكم أيها المجاهدون لابد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي هؤلاء المداعين الكفرة لأننا في محنة عظيمة وذلة شديدة».⁽³⁾

بعدها سار عروج نحو مدينة الجزائر سنة 1516م، بعدما ترك تعليمات لابن القاضي للحاق به برا،⁽⁴⁾ فحاصر المدينة بـ16 غليوطة (سفينة) وعليها 500 فرد بحرا والتحق به نحو 800 تركي وألف شخص من أهالي جبل مسلحين بالبنادق.⁽⁵⁾ كما ترك مع سكان جبل وصية لأخيه خير الدين الذي كان يغزو في البحر للحاق به.⁽⁶⁾ وفي طريقه إلى مدينة الجزائر فتح شرشال التي كان على رأسها حسن قارة التركي، الذي خضع لعروج بمساعدة ابن القاضي بعدها دخل الجزائر،⁽⁷⁾ التي بايعها أهلها أميراً للجهاد، لكن هذا

(**) - يذكر "قيرو" أن عروج في طريق عودته إلى جبل انخفض مستوى واد الصومام الذي فيه سفنهم، مما صعب عليهم إخراجها فقام بإحراقها حتى لا يستولي عليها الإسبان. (Feraud, Histoire des villes de, Gigilli, p122, C.H).

- وحسب الوزان فقد أحرق 12 سفينة. - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص38.

(1) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص38.

(*) - يبدو أنه بوفاة فرديناد ظن سالم التومي أن المعاهدة التي كانت تربطه به انتهت صلاحيتها والتي كان يدفع له بموجبها جزية سنوية كما رأينا سابقاً.

(2) - Haedo, Op. Cit, P 16.

(3) - محمد بن عبد الرحمن بن رقية التلمساني، الزهرة النيرة بما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جند الكفرة، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع03، 1967م، ص04.

(4) - محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى 1954م، منشورات زرياب، الجزائر، 2002م، ص25، 26.

(5) - Haedo, Op. Cit, P 17.

(6) - غزوات عروج....، ص27، 28.

(7) - Ismail Hame, Histoire du Maghreb, Ed Ernest leroux, Paris, 1923, P 280.

لم يرق للبعض سواء الحكام المحليين أو الإسبان الذين تحالف معهم سالم التومي،⁽¹⁾ وهو الأمر الذي دفع بعروج إلى قتله خاصة بعد ما فشل في تحرير قلعة البنيون وعبث جنده في المدينة مدة 20 يوما، مما أدى إلى تذمر السكان وإخبار سالم التومي عروج بذلك، إضافة إلى أن هذا الأخير كشف أسرار عروج^(*) للإسبان، وهو ما كلفه حياته حيث خنقه عروج في الحمام، ونصب نفسه حاكما في المدينة.⁽²⁾ وبإيعه أهلها ودفعوا له الخراج تعبيرا عن ولائهم له لتخليصه لهم من الإسبان.⁽³⁾

بعد مقتل سالم التومي، فرّ ابنه إلى الإسبان لطلب المساعدة من أجل استرجاع ملك أبيه،⁽⁴⁾ فأرسلت إسبانيا حملة بقيادة ديبغودي فيرا (Diego de vera) سنة 1516م مؤلفة من 35 سفينة تحمل ثمانية آلاف رجل مع السلاح والمدافع ونزلت في باب الواد، لكن الحملة فشلت بعد المقاومة التي لقيتها الحملة، إضافة إلى هبوب عاصفة حطمت الأسطول الإسباني.⁽⁵⁾

كما أنّ حاكم تنس ومستغانم راسلا الإسبان لطلب المساعدة، ومما جاء في مراسلة حاكم مستغانم للإسبان بوهرا: «الحمد لله إلى مدبر المملكة القشتالية... فالذي نعرفكم به بأن ابن سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم، ومحسوب عليكم وكذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر، انذبح عليكم وعلى خدمتكم وغفلتم عليه.... فإن كنتم تعملون على همتكم اعزموا إلى الجزيرة قبل لا تجي عمارة التركي فيستولي على هذا البر». كتب لكم من مستغانم.⁽⁶⁾

(1) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 175.

(*) - يذكر أحمد توفيق المدني أن سالم التومي قتل من أجل الإسبان. ولديه نسخة من وثيقة موجودة بالأرشيف الإسباني "سيمانكاس" تدين سالم التومي أرسلها أحد شيوخ العشائر للإسبان.

ينظر الرسالة كاملة في أحمد توفيق المدني، نفسه، ص 175، 176.

(2) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 39. - كورين، المرجع السابق، ص 29، 30.

- Head, Op. Cit, P 20, 21.

(3) - أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين، حراك في التناقض، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص194، 195.

(4) - Haedo, Op. Cit, P 22, 23.

- مارمول كرخال، إفريقيا، تر، من الفرنسية، محمد حجي وآخرون، المعرفة، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ج3، ص 306، 307. - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 180، 183.

- Haedo, Op. Cit, p 16, 17. - Hamet, Op. Cit, P 261.

(6) - Feraud (CH), " lettres arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie", in R.A, N°17, 1873, p314.

أما حاكم تنس أبو عبد الله (ابن أخ سلطان تلمسان) الموالي للإسبان فقد راسل قائد الحملة ديبغو دي فيرا من أجل حمايته: «مولاي الفاضل.... اطلعنا بفائق الارتياح لخبر مجيئكم قائدا على أسطول الحملة التي تهمنا وتهمكم، وأنتم تعرفون أن أبي عند وفاته أوصى بي إلى ملك إسبانيا رحمه الله الملك فرديناند والذي توفي سنة 1516م، والآن أنا تحت حماية سيدي.... دوكارلوس (حاكم وهران) يفعل بي ما يشاء لأنني دائما في خدمته ولا أرجو من سيادتكم إلا المحافظة على مملكتي الممتدة من الشلف إلى قبر الرومية».⁽¹⁾

كما أنه كان يردد أنّ الإسبان سينتقمون من الأتراك، لذلك سار عروج بنفسه إليه، بعدما استقتى العلماء الذين أباحوا دمه،⁽²⁾ فجهز جيشا سنة 1517م قوامه ألف تركي وفرق من الأندلسيين،⁽³⁾ تاركا خلفه خير الدين مع حامية على مدينة الجزائر،⁽⁴⁾ ولما دخل تنس ضرب عنق حاكمها الزياني وعاقب القبائل التي اختبأ عندها.⁽⁵⁾

بعد تحرير تنس، قسم عروج المنطقة إلى شرقية ومقرها دلس يشرف عليها خير الدين، وغربية ومقرها مدينة الجزائر ويشرف عليها هو بنفسه،⁽⁶⁾ لكن عروج كان يدرك أنه ما لم تفتح تلمسان لن يحدث استقرار في الجزائر، لكون حاكمها أبو حمو الثالث موالي للإسبان، والذي عانى من ظلمه السكان كثيرا لذلك راسلوا عروج لإنقاذهم، وبإيعوه سلطانا عليهم،⁽⁷⁾ فاندفع عروج لنجدة حاكم تلمسان أبا زيان السجين^(*) وأتباعه وفي طريقه وضع حامية بقلعة سيدي راشد^(**) تحت إمرة أخيه إسحاق لتحمي ظهره، ثم توجه إلى تلمسان أين اعترضه أبو حمو الثالث على رأس جيش مكون من ستة آلاف فارس وثلاثة آلاف

(1) - حليمي، المرجع السابق، ص 166.

(2) - مذكرات خير الدين ...، ص 83.

(3) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 185.

(4) - Haedo, Op. Cit, pp 25,26.

(5) - مذكرات خير الدين...، ص 83.

(6) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 07. - أحمد توفيق المدني، نفس المرجع، ص 186.

(7) - مذكرات خير الدين ...، ص 86.

(*) - بعدما أعاده عروج إلى منصبه تأمر عليه مما دفع عروج إلى قتله. - يحي بوعزيز، موجز تاريخ، ص 15.

(**) - تبعد 26 كلم عن معسكر.

من المشاة، لكنه هزم وفرّ إلى فاس ثم إلى وهران، أين طلب المساعدة من حاكمها الإسباني.⁽¹⁾

لما أعاد عروج أبا زيان المسعود إلى الحكم بدل أبو حمو الثالث، رغب في توحيد البلاد تحت حكم مركزي لكن هذا كان مستحيلا في ظل التحريض الإسباني وتمرد أبو حمو الثالث، وحتى أبو زيان تأمر على عروج الذي اضطر إلى الخروج من تلمسان، ليعود إليها بعد فترة ويقتل أبا زيان وجماعة من أتباعه وأقربائه.⁽²⁾

وبعدها قدم القائد الإسباني بوهران لأبي حمو الثالث عشرين ألف دينار ووعد به بإعداد جيش ضد عروج، في حين جمع أبو حمو حوله 20 ألفا من الأعراب ثم التحقت به 10 آلاف جندي إسباني من وهران،⁽³⁾ سار نحو قلعة بني راشد وحاصرها وقتلوا إسحاق في جانفي 1518م، ثم سار نحو تلمسان وفرضوا حصارا عليها. مما اضطر عروج إلى مغادرتها والتحصن بقلعة المشور في انتظار مساعدة سلطان فاس لكنها تأخرت، فغادرها عروج ليلا نحو بني يزناسن فتتبعته فرقة إسبانية واغتالته في واد المالح، بعدها أخذوا رأسه وطاقوا به في المدن الإسبانية.⁽⁴⁾

بعد استشهاد عروج طلب خير الدين من سكان تلمسان عدم مواجهة أبو حمو الثالث حتى لا يلحق بهم الضرر «إذا أقدم إليكم سلطان تلمسان أظهروا له و صانعون بالهدايا لئلا يلحقكم من ضرر».⁽⁵⁾

وفي سنة 1518م شنت إسبانيا حملة ضد الجزائر بقيادة دييغو دو منكادا (Diego de Moncada) بطلب من سلطان تلمسان، لكنها هزمت أمام صمود خير الدين وأتباعه وهبوب عاصفة بحرية دمرت الأسطول.⁽⁶⁾

(1) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 187.

(2) - نفسه، ص 189.

(3) - مذكرات خير الدين، ص 88.

(4) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 191، 192. - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 14، 15.

- قنان، المرجع السابق، ص 23، 24.

-Haedo, Op. Cit, p 26-28 -Fey, Op. Cit, P 82.

(5) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 10.

(6) - نفسه، ص 10، 11. - مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 310، 311.

ونتيجة لهذا الوضع وجد خير الدين نفسه محاطا بعدة مؤامرات ودسائس، وثورات بالمدن التي أخضعها عروج،⁽¹⁾ كثورة الزيانيين والقبائل الواقعة بين تنس وزواوة إضافة إلى الخطر الإسباني والحفصي،⁽²⁾ لهذا قرر ترك الجزائر ومواصلة عمله الجهادي، وربما يرجع قراره إلى موت أخويه على يد الإسبان وبمساعدة بني جلدته.⁽³⁾

لذا جمع علماء وصلحاء الجزائر وخاطبهم: «إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وأمنت بلادكم من العدو... إني تركت في بلادكم أكثر من أربعة مئة مدفع ولم يكن في بلادكم مدفع واحد...»⁽⁴⁾ فكان لهذا الكلام وقع شديد على فقهاء وأعيان الجزائر الذين طلبوا منه البقاء وأفتوا بحرمة ترك بلاد المسلمين للكفار، وقالوا له: «أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بالذهاب... فإن الله يسألك عنهم... وأنه يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها، والذب عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذهاب وتركهم عرضة للعدو».⁽⁵⁾

وأمام تذرع علماء وأعيان الجزائر لخير الدين، من أجل البقاء اقترح عليهم وضع أيديهم بيد السلطان سليم الأول (1512-1520م) وأمرهم أن يكتبوا له،⁽⁶⁾ قائلا لهم: «أنا بقيت في بلادكم منفردا غريبا لا ناصر لي ولا معين إلا الله عز وجل، وقد رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان وما أجلب به علينا من النصارى... وكذلك سلطان تونس لم يمدنا على جهادنا للعدو، أنا لم اغتصب هذه المدينة من يد واحد منهما.... وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم فيمدنا بالمال والرجال...».⁽⁷⁾

إن ما قام به خير الدين بربطه الجزائر بالدولة العثمانية، كان نتيجة إدراكه أن استقرار البلاد والحفاظ على ما اكتسبه العثمانيون، لا يكون إلا بحماية الدولة العثمانية

(1) - عطا الله، المرجع السابق، ص 97.

(2) - غزوات عروج ...، ص 11.

(3) - قنان، المرجع السابق، ص 25.

(4) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 13.

(5) - نفسه، ص 14. - غزوات عروج ...، ص 41.

(6) - محمد بن رقية التلمساني، نفسه، ص 14.

(7) - نفسه، ص 14. - غزوات عروج ...، ص 42.

خاصة في ظل وجود الخونة والإسبان⁽¹⁾ رغم أنّ نشاط الإخوة بربروس سابقا لم يكن يخضع للسلطان العثماني بل كان نشاطا فرديا في إطار الجهاد ضد ما كان يقوم به فرسان القديس يوحنا،⁽²⁾ كما يبدو وأنه استخلص الدروس من تجارب أخيه وفشله، لذلك لم يتردد في طلب حماية السلطان العثماني بعدما أقنع أعيان و شيوخ الجزائر بذلك.⁽³⁾

بعدها أرسل خير الدين وفدا إلى السلطان سليم يحمل معه رسالة أهالي الجزائر طالبين فيها الانضمام للدولة العثمانية ومما جاء فيها: «...نحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي...».⁽⁴⁾

لما وصلت الرسالة إلى السلطان سليم الأول قبل طلب أهالي الجزائر ووجه لهم سنجقا وكتابا، يقبل بموجبه انضمامهم إلى الدولة العثمانية وأنهم ممن تشملهم حماية السلطان.⁽⁵⁾ لتصبح بهذا الجزائر إيالة عثمانية منذ 1519م يحكمها خير الدين الذي عين بايلربايا، وقدم له مساعدة عسكرية تقدر بحوالي 2000 جندي،⁽⁶⁾ وعدد من المتطوعين وبعض المدافع، كما أمّن مصاريف نقل الراغبين بالذهاب إلى الجزائر للانضمام لصفوف الإنكشارية.⁽⁷⁾

بعدها استمر خير الدين في تحرير السواحل الجزائرية ومواجهة الهجمات الإسبانية التي وضع لها العثمانيون حدا، وبهذا فالوجود العثماني أخفق المشروع الإسباني التوسعي بالمنطقة،⁽⁸⁾ الذي كان يهدف إلى تنصير منطقة المغرب الإسلامي، التي حافظت على هويتها الإسلامية.

(1) - حليمي، المرجع السابق، ص 162، 163.

(2) - محمد سي يوسف، "من خصائص النظام الإداري ببايلك التيطري خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، ع05-06، فيفري 1992م، تونس، ص 268.

(3) - دلندا الأرقش وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، ميدياكوم، تونس، 2003، ص 39.

(4) - عبد الجليل التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م"، المجلة التاريخية المغربية، ع06، 1976م، تونس، ص 119.

(5) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 14. - غزاوت عروج...، ص 42، 43.

(6) - Haedo, Op. Cit, P 36.

(7) - عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر، د. محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص 72، 73.

(8) - Julien, Op. Cit, P 629.

القسم الأول

السلطة الروحية والسلطة السياسية

الفصل الأول: السلطة الروحية مميزات وصلاحياتها

الفصل الثاني: السلطة السياسية مراحلها وأهم دعائمها

الفصل الأول

السلطة الروحية مميزاتها

وصلاحياتها

1- السلطة الروحية مفهومها، أقطابها ووظائفهم، مراكزها:

1-1- مفهوم السلطة الروحية:

تعتبر السلطة الزمنية المنظم والمهيكل لعلاقة الإنسان بالإنسان انطلاقاً من رسم حدود المعاملات في شتى المجالات معتمدة في ذلك على السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية عكس السلطة الروحية (الدينية) التي تعتبر المنظم لعلاقة الإنسان بربه في عباداته ومعاملاته الظاهرة والباطنة.

فهذه السلطة مع مرور الوقت نجدها فرضت نفسها على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية، ليس كونها شكلاً من أشكال الحركة النضالية فحسب، بل كونها كذلك نشاطاً فكرياً ومرجعياً دينية فرضت نفسها بإلحاح، حيث نجد أنّ الدين يعبر عن الضمير الجمعي من خلال ممارسة مجموعة من الوظائف الاجتماعية باعتباره أداة للضبط الاجتماعي. فضلاً عن وظيفته التضامنية من خلال إيجاد روابط قوية بين أفراد المجتمع اعتماداً على مجموعة من القيم المرجعية التي تحدد سلوكياتهم وتنظم علاقة الخالق والمخلوق.⁽¹⁾

وهي من السلطات الوسيطة التي عرفها "خالد زيادة" بأنها: «تلك الهيئات التي تربط بين الحاكم الشرعي بالحكام، وتقود الأهالي في ذات الوقت سواء كانت رؤساء دينيون ومشايخ حرف ومشايخ حارات...».⁽²⁾

وقد عرّفها "ريمون" (Raymond): «أنّها تجمع بشري واسع وغامض غير متحد في نشاطاته، يضم فئة العلماء أو رجال الدين أو رجال القانون، التي تضم أعضاء الهيئة القضائية والدينية والتعليمية (مساجد، مدارس،.....) وطلبة المساجد الكبرى والمدارس وشيوخ الطرق الصوفية والإشراف،⁽³⁾ فهذا التجمع البشري الواسع لم يشكل تلاحماً اجتماعياً، بل شكّل تنظيماً تمثل في مختلف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية. أقلّ انفتاحاً على المجتمع، حيث كانوا مجرد وسطاء بين الحاكم والرعية».⁽⁴⁾

(1)- محمد حلمي عبد الوهاب، ولاية وأولياء السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط، تقديم رضوان السيد، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2001م، ص 202، 203.

(2)- خالد زيادة، "السلطة المدنية من خلال وثائق المحاكم الشرعية"، المجلة التاريخية المغربية، ع 39، 40، 1980م، تونس، ص 513.

(3)- André Raymond, Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, Paris, 1985, p 79.

(4)- Tall Shuval, la ville d'Alger vers la fin du 18^{ème} siècle, C.N.R.S, Paris, 1988, p 119.

أما "كوثراني" فيشير إلى أنها: «مجموعة واسعة من الأفراد الذين يشكلون المؤسسة الدينية، من خطباء المساجد والأئمة والمؤذنين، والقائمين عليها والقراء والوعاظ والمؤدبين، وخدام الأضرحة والمزارات والمقابر...»⁽¹⁾.

وقد تشكلت السلطة الروحية في الجزائر خلال العهد العثماني أساسا من رجال الدين الذين ينقسمون إلى ثلاثة أصناف: العلماء الموظفون والفقهاء المستقلون لا صلة لهم بالتصوف، ثم العلماء المتصوفة، ثم المتصوفة دعاة العلم والولاية،⁽²⁾ في حين هناك من قسم أقطاب السلطة الروحية إلى أهل الظاهر وأهل الباطن، فالصنف الأول هم أهل الرسوم (الوظائف)، الفقهاء، القراء...، الذين يمثلون المرجعية الدينية لاشتغالهم بالفتوى وعلوم الشريعة، أما أهل الباطن فعملوا على التعبد عن طريق الوجدان والتعاليم الروحية من خلال وسيط يتجسد فيه الصلاح والكرامات.⁽³⁾

هذا من الناحية العلمية أما من الناحية الوظيفية فهم طبقتين: الطبقة الرسمية التي تشمل القضاة والمفتاي، والمدرسين، ثم الطبقة الملحقة لها من خلال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف،⁽⁴⁾ المنحدرة من سلالة الرسول (ص) الذين يشكلون مجموعات في كل الأحياء تحت رئاسة "نقيب الأشراف"،⁽⁵⁾ أي أن الصنف الأول رسمي والثاني غير رسمي، فالأول يستند إلى الأصول والنصوص ويمارس مهامه من خلال مؤسسات الدولة الرسمية، أما الصنف الثاني فيتشكل من خلال الطقوس الشعائرية الشعبية ورموزها الخاصة.⁽⁶⁾

أما "رين" (Rinn) فقد قسّم أفراد السلطة الروحية إلى ثلاثة أصناف: العلماء الموظفون من يتلقون راتب، والمرابطون المحليون و العلماء الأحرار من يشتغلون في أمور الدين

(1) - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988م، ص 44.

- هاملتون جيب وهارولد باون، المجتمع لإسلامي والغرب، تر. أحمد عبد الكريم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1971م، ج1، ص 48.

(2) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 481.

(3) - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 305.

(4) - المهدي البوعبدلي، "عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988-1075م)، والتعريف بكتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، الأصالة، ع51، 1977م، الجزائر، ص 19.

(5) - André Raymond, Op. Cit, p 85.

(6) - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 305.

والتعليم، وغير المرتبطين براتب رسمي ويكونوا في الزاوية، المعمرة، القبة،... أما الصنف الثالث فهم أتباع الطرق الصوفية.⁽¹⁾

وقد استخدم أفراد السلطة الروحية المراكز الدينية المنتشرة في كل الأحياء وفي أوساط السكان والطرق الصوفية من أجل نشر نفوذهم،⁽²⁾ فكانوا مرشدين دينيين واجتماعيين ومصلحين ارتبطوا بالمجتمع عن طريق التوعية الفكرية والدينية، وأحيانا وقفوا في وجه الانحراف السياسي والتقاعس عن الجهاد والتعسف الضريبي، وهو ما زاد من قوتهم ومكانتهم.⁽³⁾

لهذا مثلوا الرأي العام أمام السلطة، كما اعتبرت هذه المؤسسة الدينية جزءا من جهاز السلطة العثمانية، ففي الواقع فقد شكلت المؤسسة الدينية نافذة المؤسسة الحاكمة على المجتمع وهذا من خلال مراتب الوظائف التي مارسنها، التعليمية والدينية والتي اعتبرت أحد مجالات التعبير عن السلطة المحلية في الولايات العربية، وهو ما سمح بقيام تنظيم يوازن بين المؤسسة العسكرية للحكم العثماني والمجتمع الأهلي المدني،⁽⁴⁾ وهو ما جعل أفرادها يشكلون الفئة المميزة من أصحاب النفوذ الديني والتأثير السياسي في المجتمع. ثم إن الطابع الثيوقراطي للسلطة الحاكمة، وتداخل القانون الروحي بالقانون المدني والسياسة بالفقيه، كل هذا حدد ملامح هذه الفئة الاجتماعية التي عملت على توضيح الطريق الواجب سلوكه لإرضاء الإرادة الإلهية والتوجيه الديني والدنيوي السليم للمسلمين.⁽⁵⁾

لقد ظهرت السلطة الروحية في الجزائر قبيل الوجود العثماني، أين استمرت واتسعت لعدة عوامل وتطورات سياسية واجتماعية، كتردي الأوضاع السياسية بالجزائر وظهور العثمانيين، الذين كان حكمهم في الأرياف غير مباشر وتشجيعهم غير المحدود

(1)- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p 06.

(2)- إيرينا سميليا نسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، تر. يوسف عطا الله، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1989م، ص 268.

(3)- إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 48.

(4)- وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص 42، 43.

(5)- إيرينا سميليا نسكايا، المرجع السابق، ص 259.

للمرابطين خاصة،⁽¹⁾ الذين سيكون لهم الدور الفعال في إرساء الحكم العثماني بالجزائر الذي استمر من عام 1519م إلى غاية 1830م.

فالعثمانيون ورغم طول فترة حكمهم للجزائر إلا أنّ سلطتهم حسب جل المؤرخين لم تتجاوز سدس البلاد، حيث بقيت عدة قبائل مستقلة، استقلالا تاما وأخرى تربطها بها روابط واهية،⁽²⁾ فهذه القبائل التي استعصت على العثمانيين شكلت قوة مضادة (Contre/pouvoir) مستقلة لها حكامها وأنظمتها السياسية وهيكلتها الاجتماعية والاقتصادية خاصة في المناطق البعيدة عن السلطة والمناطق الجبلية التي يقول عنها "الزهار": «...كلهم عصاة لا يتصرف فيهم إلاّ أباي، بل يتصرف فيهم المرباط»،⁽³⁾ الذي كانت تركز سلطته على الاحترام والوقار والوازع الديني والأخلاقي عكس القيادة والسلطة المركزية التي تعتمد على القوة.⁽⁴⁾ لهذا وضعت هذه القبائل ثقنها التامة في السلطة الروحية التي وجدت ضالتها فيها لاستتاب الأمن.⁽⁵⁾ وخاصة في فئة المرباطين حيث يقول "حمدان خوجة": «أنّ هذه القبائل وضعت ثقنها التامة بالمرباطين».⁽⁶⁾

ومن هذا المنطلق سعى العثمانيون إلى ربط علاقات مع السلطة الدينية وحكم البلاد بواسطة أهلها أنفسهم، وهو ما أطلق عليه «حكم الجزائريين بواسطة الجزائريين»، وسبب هذا قلة عددهم وقوتهم وأصولهم، فكلها لم تسمح لهم بحكم البلاد بطريقة مباشرة،⁽⁷⁾ فحاولوا خلق إطار للتواصل مع الأهالي عن طريق زعماء القبائل والسلطة الروحية.⁽⁸⁾ فأوجدوا طريقة إدارية محكمة تمثلت في حكم الجزائريين بالجزائريين،⁽¹⁾ عن

(1) - علي خنوف، السلطة في الأرياف الشمالية لبابك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مطبعة العناصر، الجزائر، 1999م، ص 20.

(2) - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تع. محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م، ص 378.

(3) - أحمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب أشرف الجزائر، تقديم أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1972م، ص 48.

(4) - خنوف، المرجع السابق، ص 52.

(5) - Boulifa (S.A), Le djurdjura à travers l'histoire depuis l'antiquité jusqu'à 1830, J.Bringou, Alger, 1925, pp 193, 194.

(6) - عثمان بن حمدان خوجة، المرأة، لمحة تاريخية وإحصائية لإيالة الجزائر، تع. وت. محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975م، ص 110.

(7) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 210.

(8) - محفوظ قداش، "الجزائر في العهد التركي"، الأصالة، ع52، 1977م، الجزائر، ص 10، 11.

طريق وسائط وقوى محلية دينية روحية أو قبلية، والتي ظهرت في الجزائر بعد ضعف الزينانيين غربا والحفصيين شرقا. وهذا من خلال التقرب من شيوخها ومرابطيها بالهدايا وإسقاط الضرائب عنهم، ومنحهم بعض المناصب كجباية الضرائب ووسطاء أثناء التمردات المحلية، وسفراء ومفاوضين أثناء الحروب مع جيرانهم...الخ

وقد تمثلت هذه القوى الروحية في الأسر العلمية والشريفة المتنفذة بالمدن مثل أسرة الفكون وعبد المؤمن وابن باديس والوزان وغيرها، أما بالأرياف فقد تمثلت في الإقطاعية الدينية كآل القاضي وابن علي الشريف وآث أورابح بالزاوية الغربية والشرقية وآل مقران بمجانة والتيجانيين وأولاد سيدي الشيخ ببابيك الغرب.⁽²⁾ وأسرة بن عرار أعالي خليج بجاية، مولاي الشقفة^(*) شرق جيجل، بن فيالا والعايد غرب الميلية بجيجل، زاوية سيدي بغديش وسيدي إدريس جنوب القل، أما زاوية فلا يكاد يخلو عرش من زاوية يكون مقدمها الحاكم الفعلي للعرش.⁽³⁾

لكن الملاحظ على السلطة الروحية وبالرغم من الدور الذي اضطلعت به خلال الوجود العثماني لم تلعب بالمدن نفس الدور الذي لعبته بالريف، خاصة أشرف المدن الذين كان باستطاعتهم ممارسة نوع من الضغط على الحكام لأن في أيديهم مشروعية الحكم.⁽⁴⁾

كما أن تأثيرها اختلف من منطقة لأخرى ومن بيئة إلى أخرى، رغم تشابهها، فتأثيرها على غرب البلاد كان أكثر من الشرق، وهذا لوجود الطرق الصوفية بالقرب من مركزها المغرب،⁽⁵⁾ كما أن التركيبة السياسية والعائلات الارستقراطية المتحكمة في منطقة الشرق الجزائري، جعلت الحركة المرابطية والصوفية تتركز في المرتفعات كجبال الأوراس

(1) - عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830م-1862م) د.م.ج، الجزائر، 1995، ص 16.

(2) - أرزقي شويتام، "دور القوى المحلية في الجزائر في ظل الحكم العثماني"، الملتقى الدولي حول ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي، بسكرة، 1-2 سبتمبر 2010م، الجزائر، ص 161.

(*) - مولاي الشقفة، حسب الروايات فقد قدم من الساقية الحمراء على شقفة من لوح سفينة كانت تحمل المهاجرين الأندلسيين في ق 15م، كونت أسرة توارثت النفوذ والسلطة بسهولة جيجل.

- خنوف، المرجع السابق، ص 50. (هامش). - معاشي، المرجع السابق، ص 25.

(3) - خنوف، نفسه، ص 47.

(4) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م مقارنة إجتماعية إقتصادية، ANEP، الجزائر، 2012م، ص 88.

(5) - أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين...، ص 200.

والقبائل والحصنة وبالجنوب أحيانا، لأن المناطق التي توجد بها قبيلة قوية لم تكن تحتاج لحماية المرباط.⁽¹⁾ ولهذا انتشرت وسيطرت المشيخات القبلية الوراثية على الشرق الجزائري أكثر من المرباطين والطرق الصوفية.

1-2- أقطاب ووظائف السلطة الروحية بالمدينة والريف:

لم يكن من اليسير في الفترة العثمانية التمييز بين العلم والدين والفصل بينهما، فحسب ثقافة العصر كاد يكون للعلم والدين مدلول واحد، لأن الطابع الغالب هو الطابع الديني العلمي، فلم يكن يفصل بين العلم والدين لأن كلاهما يكمل الآخر، فحسب معيار العصر فالعالم الحق كان عليه أن يكون عالما وفقها في دينه قبل دراسة أمور دنياه،⁽²⁾ فالحياة الفكرية كانت دينية صوفية في آن واحد،⁽³⁾ وكلمة علماء تعني رجال الدين كذلك،⁽⁴⁾ الذين كانوا يمثلون السلطة الدينية أو الروحية في المجتمع، والتي يمكن أن نقسمها حسب المدلول العلمي والوظيفي إلى قسمين: أهل الظاهر والذي يمثل الفقهاء، وأهل الباطن وهم المرباطون والمتصوفة.

1-2-1- السلطة الروحية مميزاتها ووظائفها بالمدينة (الفقهاء):

أ- مميزات السلطة الروحية بالمدينة:

هم مجموعة تنتمي إلى فئة الحضر بالمدن والتي تأتي في المرتبة الثالثة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني،⁽⁵⁾ وهي فئة لم تطمح للمناصب السياسية بل اكتفت بالوظائف الدينية والعلمية،⁽⁶⁾ وبعض الصلاحيات المرتبطة بها، وقد ضمت هذه الفئة المفتون، الأئمة، الخطباء، الوعاظ، المؤذنون، المؤدبون، والقائمون بشؤون المساجد.⁽⁷⁾

(1) - Babes (L), Saints, tribus, et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination Turque, Université d'Oran, S.D, p11.

(2) - عمار هلال، المرجع السابق، ص 381.

(3) - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص 47.

(4) - Tall. Shuval, Op. Cit, p 120.

(5) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص 22.

(6) - ناصر الدين سعيديوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م، ص 45.

(7) - على المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914م، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1978م، ص 13.

ويعتبر الفقهاء الممثلون لسكان الحضر حيث شكلوا في مدينة الجزائر وحدها نسبة 6% من مجموع السكان المقدر بـ 30.000 نسمة،(*) لكن وظائفهم وحماية الطبقة الحاكمة لهم جعلهم وسطاء بين الحكام والسكان، وهو ما وضعهم في مستويات مختلفة أو طبقات حسب دورهم في المجتمع وعلاقتهم بالسلطة، لذلك نجدهم قد شكلوا مجموعات غير متلاحمة.⁽¹⁾ أي أنهم شكلوا تنظيمًا فيه مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية^(*)، وأقل انفتاحًا على المجتمع حيث احتكرت فيه بعض العائلات الوظائف من أجل الارتقاء في السلم الاجتماعي⁽²⁾ اعتمادًا على علاقة البنوة أو الأخوة أو المصاهرة.⁽³⁾

وهذا الاحتكار للمعرفة والوظائف كان مدعومًا بعلاقاتهم مع الفئة الحاكمة كما أن انغلاقها على نفسها كان بدافع الحفاظ على امتيازاتها، فأغلبية أفراد هذه الفئة لهم أملاك عقارية ومصالح تجارية وحرفية، وهو ما سمح لهم بتشكيل نخبة دينية ذات امتيازات واسعة، وهو الأمر الذي جعل "فاطمة الزهراء قشي" تقول أن قسنطينة تميزت بتركيبية مخزنية لفئة العلماء، وهو ما جعلها تصمد أمام الضربات.⁽⁴⁾

ويأتي دور الفقهاء في المجتمع من خلال تأطيرهم لشؤون الناس في مجال العبادات والمعاملات،⁽⁵⁾ وتوليهم للوظائف الدينية والاقتصادية والإدارية.⁽⁶⁾ أي أنهم تولوا

(*) - يذكر "طال شوفال" أنه كان بمدينة الجزائر وحدها 500 عالم. Tall Shuval, Op. Cit, p 119.

(1) - Raymond (A), Op. Cit, pp 78,81.

(*) - يعطينا الوزان تجسيدا لهذا الاختلاف الطبقي في تلمسان بقوله، «أن الطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئسة في المدارس، لكن عندما يرتقون إلى درجة الفقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما. أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن»، الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 21.

(2) - Tall. Shuval, Op. Cit, p 119.

(3) - Raymond (A), Op. Cit, p 80.

(4) - فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة (من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر)، دكتوراه دولة، جامعة تونس، 1998م، ص 64.

(5) - ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح. عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار البلخي، دمشق، سوريا، 2006م، ج2، ص 226.

(6) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان من الفقيه إلى المنقذ، ط1، الدار المصرية للسانية، القاهرة، مصر، 2013م،

الخطط الرسمية أو الدينية كالخطابة والإمامة والقضاء، والتدريس والسفارة والكتابة... الخ. فهم المشتغلون بالفتوى وعلوم الشريعة، وهم عند المتصوفة أهل الرسوم (الرواتب).⁽¹⁾ ولهذا لم يكن في وسع السلطة الاستغناء عنهم في مجالات الحكم والإدارة والرأي وضمان ولاء الأمة لأنهم هم المؤدبون، والوعاظ والمرشدون، والقضاة والموثقون والمستشارون في قرارات الأمة، والحرب، وهم تحت تصرف الفئات الاجتماعية للرد على استفساراتها الشخصية، لذا فقد تجاذبتهم الأمة والسلطة، لذلك نجد منهم من كرس ولاءه للسلطة ومنهم من نذر نفسه للعلم.⁽²⁾

ورغم أنهم يختصون بالعلوم الشرعية إلا أنه لم يكن هناك مانع من أن يكون العالم فقيها ومتصوفا في آن واحد،⁽³⁾ حيث نجد أن عددا منهم كان ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية.⁽⁴⁾

ب- وظائف السلطة الروحية بالمدينة:

بما أن العثمانيين استأثروا بالمناصب العليا في السلطة سواء كانت سياسية أو عسكرية، فإنهم تركوا القضايا ذات الصلة بالدين والثقافة لأفراد السلطة الروحية، واكتفوا بالحكام بتعيينهم أو بعزلهم في تلك المناصب، تبعا لرأي أو شكاوي الأهالي أو بسبب فضائح مختلفة تكون سببا في عزلهم.⁽⁵⁾

ومن أهم الوظائف التي تولوها أقطاب الفقهاء بالمدينة نجد:

❖ **الإفتاء:** يعد الإفتاء أعلى الوظائف الدينية الرسمية،⁽⁶⁾ التي يتولاها العالم فهي تحتاج إلى العلم والتعمق في المسائل الدينية، إضافة إلى قوة الشخصية والنزاهة والصلاح والشجاعة في الرأي والثبات على الحق، وهذه الشروط من بين العوامل التي ترشحه لتولي هذا المنصب،⁽⁷⁾ الذي يعد لقبا شرفيا وأعلى درجة من القاضي

(1) - ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، التصوف، تر. إبراهيم خورشيد وآخرون، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1984م، ص 66.

(2) - إبراهيم حركات، التيارات السياسية، ص 95، 96.

(3) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان....، ص 59.

(4) - ألبيرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م، تر. كريم عزقول، دار النهار، بيروت، لبنان، 1968، ص 42.

(5) - Boyer, la vie quotidienne à Alger a la veille de l'intervention française, Imp, nationale Monaco, 1964, p 78.

(6) - Rin, Marabouts, p 07.

(7) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 391.

في الدول الإسلامية، فالمفتي هو المترجم للشريعة من خلال إصداره للفتاوي والأحكام في المسائل الدينية أو القانونية.⁽¹⁾

وتجدر الإشارة إلى أن الإفتاء لم تكن وظيفة رسمية بالجزائر قبل مجيء العثمانيين حيث كان العلماء قبلهم يستشارون في المسائل الفقهية كعلماء وليس كموظفين تابعين للدولة. فكان العالم إذا اشتهر بين الناس علما ونزاهة وورعا، توافدت عليه الأسئلة من العامة ومن السلطة فيجيب عليها ويسجلها فيما يعرف بكتب "النوازل والفتاوي"^(*) كمرجع للفتوى في عهدهم.⁽²⁾ وهو الأمر نفسه الذي كان موجودا في الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى النصف الأول من القرن 15م، حيث كانت السلطة خلال هذه الفترة تسفتي العلماء المشهورين من آسيا وبلاد العرب.^{(3)(**)}

ولما استقر العثمانيون بالجزائر جعلوا الإفتاء وظيفة رسمية على مذهبين، المذهب المالكي مذهب أهل الجزائر، والمذهب الحنفي الذي جعلوه المذهب الرسمي لكونهم أحنافا، وكان المفتي الحنفي يعين من اسطنبول رفقة الباشا والقاضي الحنفي لعدم وجود علماء أحناف بالجزائر، ولقبوه "شيخ الإسلام"^(***) كما كان يلقب نظيره في اسطنبول،⁽¹⁾

(1) - Rin, Marabouts, p 07. (Marge).

(*) - مثل الدور المكونة في نوازل مازونة، فتاوي الونشريسي المعيار المعرب والجامع، المغرب في فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نوازل الفكون، نوازل المغيلي....

(2) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 392.

(3) - حسن الضيقة، الدولة العثمانية، الثقافة، المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1997م، ص 116، 117.

(**) - مثل، استفتاء السلطان العثماني مراد الثاني (1421-1451م) مجموعة من العلماء بمصر الفقيه الشافعي ابن حجر العسقلاني والقاضي الحنفي سعد الدين الديري، والقاضي، المالكي بدر الدين التونسي، والقاضي الحنبلي بدر الدين بغدادى والقاضي الحنفي عبد الرحمن مصلحي (قاضي آماسيا) الذين أفتوا بوجوب قتل أمير إمارة قرمان إبراهيم الثاني بعد خيانتة له. - أكرم كيدو، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، تر. هاشم الأيوبي، ط1، منشورات جروس هو لقب استخدم منذ نهاية ق17م كان منصب المفتي أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية حيث أسندت له مسؤولية تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على المدارس والتدريس، إضافة إلى وظيفته الأساسية إصدار الفتوى.

- سهيل صبان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 2000م، ص 142 برس، طرابلس، لبنان، 1992م، ص 35، 36.

(***) - هو لقب استخدم منذ نهاية ق17م كان منصب المفتي أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية حيث أسندت له مسؤولية تعيين القضاة وعزلهم والإشراف على المدارس والتدريس، إضافة إلى وظيفته الأساسية إصدار الفتوى.

- سهيل صبان، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية،

أين لعبت مشيخة الإسلام دوراً أساسياً في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وممن يستقر منهم بالجزائر بعد انتهاء مهمته يدخل ضمن قائمة الخوجات أو يعمل خطيباً أو مشرفاً على سبل الخيرات،⁽²⁾ بعدها أصبح المفتي الحنفي يعين من الجزائر مثل الباشا، ويعد حسين بن رجب شاوش^(*) أول مفتي حنفي يعين من أبناء العثمانيين (الکراغلة) بالجزائر عام 1102هـ-1690م.⁽³⁾

وهذه الثنائية في الإفتاء لم تقتصر على مدينة الجزائر فقط، بل كان في كل عاصمة من البيالك أو مدينة كبيرة مفتي مالكي وآخر حنفي يعينهما الباي، وبما أن العثمانيين أحناف فقد قدموا المفتي الحنفي على المفتي المالكي -الذي يمثل غالبية السكان- في الحظوة والاعتبار والرأي،⁽⁴⁾ و"لقبوه بأفندي" وهو لقب كان يطلق على الداي فقط،⁽⁵⁾ وجعلوا منه المسؤول الديني المطلق وثاني شخصية بعد الباشا،⁽⁶⁾ حيث كان الديوان لا يصدر حكماً إلا إذا أعطى المفتي رأيه ليصبح ساري المفعول،⁽⁷⁾ وهذا ما خلق تنافساً بين العلماء المالكية والعلماء الحنفية حتى بدى كأنه تنافس مذهبي.⁽⁸⁾ رغم أن هذا الترتيب في الأهمية لا يعكس نسبة انتشار كل منهما بالجزائر فمدينة الجزائر مقابل أكثر من 100 مسجد مالكي نجد 07 مساجد حنفية.⁽⁹⁾

(1) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 392، 393.

(2) - Devoulx, Les edifices, p 144.

(*) - كان هذا وهو في سن الثلاثين أين مكث اثنتي عشر سنة وعزله الداي مصطفى أهشي.

- حسين بن رجب بن المفتي، تقييدات بن المفتي، تح. فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2009م، ص 88، 89.

(3) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 258، 259.

- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965م، ص 271.

(4) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 393.

Nacereddine Saidouni, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001p311,

(5) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 129.

(6) - ناصر الدين سعيدوني/ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، م.و.ك، 1984م، ص 137.

(7) - مصطفى بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام "تموذج الجزائر في العهد العثماني"، ط1، دار البشائر، دمشق، سوريا، 1999م، ص 84، 85.

(8) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 404.

(9) - مصطفى بن حموش، المدينة والسلطة، ص 88.

بلغت مكانة المفتي الروحية والقانونية ما جعل استئناف الحكم الصادر عن القاضي مسموحاً به لديه،⁽¹⁾ وحكمه نهائي لا رجعة في الاستئناف به، لكن ورغم مكانته العالية لم يكن له أي سلطة سياسية من أي نوع كان،⁽²⁾ وأي نفوذ وتأثير في الأمور السياسية.⁽³⁾

لكن المفتي فقد مصداقيته أواخر العهد العثماني، عندما أصبح المنصب محل مزايدات ومناقشات بين العلماء، وذوي الجاه والسلطة بدل الكفاءة العلمية والنزاهة الأخلاقية،⁽⁴⁾ خلافاً لما كان عليه سابقاً حيث كان من يتولى المنصب يجب أن يتصف بالعلم والورع والتقوى ولا يخاف من أحد عند إصدار فتواه. مثلما فعل الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد) عندما أصدر فتوى بقتل اليهودي الذي سبّ الرسول "ص" رغم أنه كان مقرباً من باي قسنطينة.⁽⁵⁾

كان كلا المفتين المالكي والحنفي ضمن الهيئة المشكلة للمجلس العلمي أو المجلس الشريف رفقة القاضيين المالكي والحنفي وموظفين آخرين ومقرّه الجامع الكبير. يعقد جلساته كل يوم خميس للنظر في الخصومات التي لم تفصل فيها المحكمة⁽⁶⁾، أي هو بمثابة ديوان المظالم.⁽⁷⁾

إضافة إلى الإفتاء تولى المفتي وظائف أخرى كالتدريس ووكالة الأوقاف والإمامة والخطابة،⁽⁸⁾ وتحديد أيام العيدين رفقة القاضي،⁽⁹⁾ وكان مقر المفتي المالكي الجامع

(1) - وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تر. عبد القادر زيادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م، ص 108.

(2) - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م، تع. إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982م، ص 49.

(3) - Rinn, Marabouts, p 10.

(4) - خليفة حمّاش، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798-1830م، ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر، 1988م، ص 77.

(5) - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية، تح. وت. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص 64، 66.

(6) - Venture de paradis: Alger au XVIII^e siècle (1788-1790), E. Fagnan, 1898, p 157 et 11.

(7) - عائشة غطاس، "القضاة الأحناف بمدينة الجزائر"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع17-18، 1998م، تونس، ص 372.

(8) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 393.

(9) - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 101.

الكبير، وأشهر عائلة تولت الإفتاء المالكي بمدينة الجزائر عائلة قدورة، أمّا المفتي الحنفي فمقرّه الجامع الجديد وأشهر عائلة تولت الإفتاء الحنفي هي عائلة ابن العنابي.⁽¹⁾ أما في قسنطينة فكان يعقد كل يوم جمعة وبحضور الباي،⁽²⁾ وما كان يميّز المفتي رفقة القاضي عن البقية قفاطينهم الناصعة البياض،⁽³⁾ مثلما كان الأمر في عاصمة الباب العالي، حيث اختلف لون قفطانهم لتمييزهم عن بقية رجال الدين.

❖ **القضاء المهام والصلاحيات:** تأتي وظيفة القضاء بعد الفتوى من حيث الأولوية، فهي وظيفة سياسية دينية، لذا كان وضع القاضي أخطر من وضع المفتي، وهو الأمر الذي جعل بعض الفقهاء يعتذرون عنها خوفا من عدم القدرة على ممارستها أو تقديرا منهم لخطورتها،⁽⁴⁾ فنجد أن "ابن الفكون" كان متحفظا من هذه الوظيفة لأنها وظيفة تخدم الحكام وأوليائهم، وقد رفضها قبله حسن الوزان،⁽⁵⁾ وكذلك "عبد الله بن عبد القادر المشرفي" الذي عرضت عليه مرارا لكنه رفضها،⁽⁶⁾ إلا أنّ هذا لم يمنع أن تكون الوظيفة مدعاة للتنافس بين العلماء لأن فيها النفوذ والجاه.⁽⁷⁾

وبما أن العثمانيين أحناف فبديهي أن يتخذوا لهم قاضيا من أهل مذهبهم بعدما أخذوا مقاليد الحكم،⁽⁸⁾ تكون ولايته غير محددة،⁽⁹⁾ وهو الذي كان يرافق المفتي من اسطنبول،⁽¹⁰⁾ خشية أن يتولى من لا يعرفونه، حتى نشأ الكراغلة بالجزائر أين بدأ يعين

(1) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 258، 259.

(2) - شعيب محمد المهدي، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980م، ص215.

(3) - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 107.

(4) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 394.

(5) - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص132.

(6) - محمد أبو راس الناصري، فتح الاله ومنته في التحدث بفصل ربي نعمته، تح، محمد بن عبد الكريم، م.و.ك، الجزائر، 1986 ص 53.

(7) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 394.

(8) - حسين خوجة، صفحات في تاريخ تونس، تق. وتح. حمادي الساحلي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص 185.

(9) - غطاس عائشة، القضاة الأحناف...، ص 374.

(10) - Dr Shaw, voyage dans la régence d'Alger bouslama Tunis, 1980, p 1666.

من بينهم.⁽¹⁾ هذا إضافة إلى قضاء أهل البلد والذي يتولاه قاضي مالكي، في حين أن الإباضية كان لهم قضاتهم وللعسكر قضاء خاص به،⁽²⁾ كان يتولاه آغا العسكر وينفذ أحكامه في الديوان وفق القوانين العسكرية وليس المدنية،⁽³⁾ ولا يسمح بحضور أي أجنبي عند المحاكمة.⁽⁴⁾

وبهذا أصبح في الجزائر قاضيين في كل مدينة رئيسية واحد للمذهب الحنفي والآخر للمذهب المالكي يشرف كلا منهما على مجموعة من القضاة في أنحاء الأقاليم،⁽⁵⁾ وقد اخضع العثمانيون القضاة المالكية للقضاة الأحناف، حيث كان القاضي الحنفي هو من يحدد الغرامات والعقوبات، أثناء المحاكمات،⁽⁶⁾ ليصبح القاضي المالكي الذي كان من قبل الوجود العثماني بالجزائر، مجرد موظف عادي مقارنة بالقاضي الحنفي، الذي لم يكن له وجود إلا بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية،⁽⁷⁾ أما بالريف والمناطق البعيدة فقد كانت تخضع في نظامها القضائي إلى شيوخها أو مرابطيها أو إلى الجماعة.⁽⁸⁾

كان تعيين القضاة يتم من طرف الداوي أو الباي فقد عثرنا على وثيقة مؤرخة بأواخر رمضان 1201هـ/1787م أرسلها الداوي محمد باشا إلى سكان بجاية حيث عين بموجبها السيد محمد بن السيد الحسين قاضيا على بجاية جاء فيها: «ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم النافذ أمره..... فإن حامله المكرم الأجل..... ابننا السيد محمد بن السيد الحسين..... وولينا قاضيا مرضيا وثقة محضيا ببلد بجاية يحكم بين الناس فيما لهم وعليهم.....».⁽⁹⁾

-Laugier de Tassy, Op. Cit, p 227.

(1)- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 275.

(2)- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 394.

(3)- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 121، 122. كوثراني، السلطة...، ص 66.

(4)- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972م، ص140.

(5)- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 394.

(6)- Touati (H), Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorciers au Maghreb (17e siècle), Paris, Ed, E.H.E.S.S, Paris, 1994, p 102.

(7)- Delphin (G), " Histoire des pachas d'Alger de 1515-1749", in **JA**, Avril. Juin, 1922, p220.

(8)- Nacereddine Saidouni, Op. Cit, pp 314, 315. سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص23.

(9)- المكتبة الوطنية الحامة، المجموعة 3205، الملف 03، الوثيقة 44.

كان القاضيان ينظران يوميا في مختلف القضايا التي تعرض عليهما، حيث كانت المحكمتان متساويتان في الاختصاص، ورغم أن القضاء الحنفي كان خاصا بالأترك، إلا أن بعض الأهالي فضل المذهب الحنفي لما يتميز به من مرونة خاصة في الوقف.⁽¹⁾ من خلال إجازته للوقف الذري، الذي وجد فيه الأهالي وسيلة للحفاظ على بقاء واستمرار ممتلكاتهم ضمن العائلة، وحماية لها من التعرض للمصادرة من طرف السلطة.

رغم أهمية وظيفة القضاء إلا أنه لم يكن يسمح للقاضي بالتدخل في الأمور السياسية، ولا يسمح له بترك منصبه إلا بإذن من الداي، الذي كان يتدخل أحيانا في بعض القضايا الهامة التي هي من اختصاص القاضي، وهذا باستدعاء فقهاء المدينة للفصل في القضايا.⁽²⁾

اقتصر دور القاضي في البداية على الفصل في القضايا حسب ما تقتضيه الشريعة وبإمكانه إصدار الأحكام حتى بدون حضور المتخاصمين،⁽³⁾ ثم اتسعت مهامه (صلاحياته) من مجال إصدار الأحكام والمخالفات إلى مختلف مجالات الحياة، فهو قاضي الأحوال الشخصية (زواج، طلاق، الميراث) والمشرف على الأوقاف وعلى المعاملات التجارية من خلال تسجيل عقود البيع والشراء والقروض والإشراف على تعيين وعزل مشايخ الحرف، والسهر على شؤون اليتامى والأرامل والقصر،⁽⁴⁾ ويساعده في مهامه مجموعة من الموظفين مثل العدول أو الشهود، حيث كان لكلا القاضيين 12 عدلا بمحكمته يعملون على تحرير العقود.⁽⁵⁾

إضافة إلى قضاء أهل البلد وجد قضاء خاص بأهل الذمة، فالنصارى مثل التجار الأجانب والقناصل ورجال البعثات الدينية والإرساليات التبشيرية والأسرى،⁽⁶⁾ لا يخضعون في أحكامهم لقوانين البلاد إلا إذا حدثت مخالفات بينهم وبين المسلمين وهو ما سمح للقناصل بالتدخل في شؤون البلاد وتأكيد امتيازاتهم.⁽⁷⁾

(1) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون...، ص 77. - عائشة غطاس، القضاة الأحناف...، ص 374.

(2) - Shaw, Op. Cit, p 166. - Laugier, Op. Cit, p 235.

(3) - Laugier, Ibid. - Shaw, Ibid.

(4) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون...، ص 76. - خالد زيادة، السلطة المدنية...، ص 510.

- Raymond, Op. Cit, p 126.

(5) - Venture (D.P), Op. Cit, p 162.

- سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 23

(6) - نفسه، ص 104.

(7) - نفسه، ص 23.

وكان الفصل في الخصومات من اختصاص القناصل وهو شرط كانت تضعه الدول الأوروبية في معاهداتها مع الجزائر مثلما جاء في معاهدة إسبانيا الجزائر 1785م في البند 13: «في حال نشوب نزاع بين إسباني من جهة وتركّي أو أحد من السكان..... فإنه لن يفصل فيه القضاء العادي إنما يعرض أمام مجلس على مستوى الباشا في الديوان للبت فيه بمحضر القنصل...»⁽¹⁾.

وقبلها معاهدة الجزائر وبريطانيا سنة 1662م نص بندها 13 «أنّ القنصل البريطاني هو الذي يفصل في جميع النزاعات بين الرعايا البريطانيين»، وهو نفس الامتياز الذي حصل عليه السويديون بموجب معاهدة 1749م (البند 15).⁽²⁾

أما اليهود فكان يتولى قضاءهم الأحيار ومقدموهم،⁽³⁾ لكن لم يكن يسمح لمحاكم أهل الذمة معالجة بعض القضايا التي تتعلق بأمن البلاد والسياسة أو بعض قضايا القتل والزنا والاعتداء على الدين الإسلامي التي يكون الذمي طرفا فيها، حيث يذكر "شلوصر" أن الباي أحمد تدخل بإصدار الحكم عندما وجدوا مُسلماً يتعاطى الخمر في دار يهودي، فأمر بالفلكة للجزائري وقطع الرأس لليهودي،⁽⁴⁾ وهذا دون الرجوع لقضاء أهل الذمة ولا حتى للقضاء المدني.

ورغم خطورة المنصب إلا أنّ بعض العلماء كانوا يتنافسون عليه لأنه وسيلة للجاه والنفوذ،⁽⁵⁾ فمنهم من دفع مالا كثيرا من أجل الحصول عليه وجعله وسيلة لكسب الثروة،⁽⁶⁾ خاصة القضاة المرسلين من إسطنبول، فظاهرة شراء المناصب كانت شائعة في الجزائر خلال العهد العثماني، وربما هذا هو السبب الذي حال دون توريث المنصب في أسرة معينة عكس الوظائف الأخرى.⁽⁷⁾ ومن هؤلاء القضاة من استعمل المنصب للتعدي على أملاك الأوقاف وأموال اليتامى، وحتى أن بعضهم تصدى للقضاء وهو جاهل

(1) - قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1987، ص 217.

(2) - نفسه، ص 94 و 165.

(3) - سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 23.

(4) - شلوصر فندلين، قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837م، تر. أبو العيد دودو، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 82.

(5) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 394.

(6) - Dr. Shaw, Op. Cit, p 166. - Laugier, Op. Cit, p 235.

(7) - غطاس عائشة، القضاة الأحناف بمدينة الجزائر، ص 374.

بأحكامه،⁽¹⁾ ومنهم من كان يأخذ الرشوة،⁽²⁾ بسبب عدم تقاضيتهم أجورا محددة من عملهم.⁽³⁾ كما أنّ أحكام بعضهم تميزت ببساطة المرافعات وشدة العقوبات وسرعة التنفيذ،⁽⁴⁾ وهو ما قابلها فساد ضمائر القضاة وترديهم نحو مهاوي الرشوة.⁽⁵⁾

ورغم هذا فإنّ هذه ليست قاعدة يُسَلَّم بها فالوثائق أثبتت حالات قاوم فيها القضاة الضغوط التي مورست عليهم خاصة قرارات التراجع عن تحبيس الحكام لأملاكهم منها سبعة وثائق عهد مصطفى باشا وثلاثة عهد علي باشا وواحدة عهد إبراهيم باشا حيث تقدم نظار الأوقاف بشكوى لدى القاضي ضد الحكام مثال ذلك حبس مصطفى باشا حانوت عطر على نفسه ثم عقبة ثم ساقية ماء سنة 1214هـ/1799م ثم أراد التراجع لكن القاضي حكم بعدم إمكانية التراجع.⁽⁶⁾

❖ **الخطابة ومميزاته:** تأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية، فهي تستلزم شروط كالفصاحة وجودة الصوت وسعة الإطلاع والجرأة الأدبية،⁽⁷⁾ إلّا أنّه في الجزائر في العهد العثماني كان يكتفى بالبعض منها لتولي المنصب، حيث تولّاها البعض وهو جاهل بها مثال ذلك المفتي "عمار المستغانمي" الذي كان عاجزا عن الخطابة رغم علمه فيصل حتى يتصبب عرقا من شدة الخجل⁽⁸⁾ حيث يقول ابن المفتي: «أنّه نحوي أصولي متكلم فرائضي صالح جاهل بأحوال الدنيا..... كان عاجزا عن الخطبة لا صوت له عندها ويكتسيه الخجل إلى أن يعرق مع أنّه في تقريره للعلم جهير بالكلام».⁽⁹⁾ وهو ما جعله ينيب عنه صهره في الخطابة،⁽¹⁰⁾ كما

(1) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 394، 395.

- للمزيد ينظر: الفكون، المصدر السابق، الفصل الثاني.

(2) - شالر، المرجع السابق، ص 48.

(3) - سعيدوني، النظام المالي، ص 51.

(4) - سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 22، 23.

(5) - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر. نبيلة أمين فارس منير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968، ص 479.

(6) - مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص 96، 97.

(7) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 395.

(8) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 283.

(9) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 108، 109.

(10) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 396.

يذكر "الفكون" أن الحسن الغربي تولى إفتاء وخطابة جامع القصبية بقسنطينة رغم عدم علمه، بل شهرة عائلته هي من رشحته للمنصب،⁽¹⁾ أما ابنه أبو العباس بن الحسن الغربي المدعو "حميدة" فقد كان "أمي الخطابة والكتابة" ولا يعرف طريق الخط ولا يحسن الرسم وغالبا ما يتفقد جلسائه مكاتبه.⁽²⁾

والملاحظ كذلك هو أن الخطابة كانت محل تنافس بين العلماء شأنها شأن الإفتاء والقضاء، وأن للسكان دور في ترشيح الخطيب لدى الباشا عندما يستحسنوا صوته وفصاحته وعلمه وأخلاقه لكن جرأة بعضهم وفصاحتهم، وصلتهم بالناس كانت تثير مخاوف الحكام الذين يعملون على مراقبتهم أو عزلهم أو نقلهم انقاء شرهم.⁽³⁾ كان الخطيب يؤدي صلاة الجمعة والعيد وأحيانا يعمل إماما للصلوات الخمس، ومن الخطباء من اشتغل إماما في مسجد وخطيب في مسجد آخر، ومن عزل عاد إلى وظيفته الأصلية.⁽⁴⁾

❖ **الإمامة:** يقوم الإمام بأداء الصلوات ويعوضه علماء مشهورين أثناء غيابه⁽⁵⁾، كما يقوم رفقة المفتي بمسؤوليات المكان الذي يشرف عليه⁽⁶⁾، ففي المساجد الكبرى أين تنتزع المهام على أكثر من شخص يقتصر دوره على أداء الصلاة بالناس، أما بالمساجد الصغيرة فهو يقوم بجميع المهام الدينية،⁽⁷⁾ و بعد الصلاة غالبا ما كان يقوم بتدريس العلوم الدينية وتفسير القرآن.⁽⁸⁾

❖ **الكتاب:** اتضح اختصاصهم منذ القرن 18م، حيث أصبح لهم نفوذ شرفي وكلمة مسموعة، ومكانة مرموقة، لازدياد حاجة الدولة إليهم في المحاسبات المالية والقضايا الاقتصادية، فأغلب الدايات كانوا يستشيرونهم في أمور الدولة خاصة فيما يخص الأمور المالية للدولة، وهذا لمستواهم الثقافي الراقى وعدم ثقتهم في الموظفين

(1) - ابن الفكون عبد الكريم، المصدر السابق، ص 56.

(2) - نفسه، ص 75.

(3) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 395.

(4) - نفسه، ص 395.

(5) - Boyer, La vie quotidienne, p75.

(6) - Dr Shaw, Op. Cit p102

(7) - Rinn, Marabouts et Khouans, p8.

(8) - Boyer, La vie quotidienne..., p75.

- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص 480.

الساميين خاصة في المعاملات التجارية والمالية،⁽¹⁾ وقد كان للداي أربعة كتاب يجلسون على يمينه⁽²⁾، هو المعني بتعيينهم أولا يتصرفون إلا بإذنه⁽³⁾، وهؤلاء الكتاب هم:

■ **الكاتب الأول (المقطعجي):** يقول "حمدان خوجة" أن وظيفته "لا تقل أهمية عن وظيفة "شيخ الإسلام"، التي يضطلع بها المفتي الحنفي الذي يعتبر الشخصية الثانية بعد الداوي "فهو الذي يحفظ سجلات محاسبات الدولة الذي يضم سجلات للكتاب الثلاث، وتثبت فيه القوانين العسكرية وأسماء ورتب الجند أو أجورهم⁽⁴⁾، ويشترط فيه أن يكون عالما وفقهيا، ويلقب "بأفندي" نظرا لمكانته وثقافته، وهذا المنصب غالبا ما يكون من نصيب وجهاء وأعيان الجزائر من حضر وكراغلة.⁽⁵⁾

■ **الكاتب الثاني (الدفتردار):** مكلف بتسجيل مصادر أموال البلاد من ضرائب، ورسوم كما كان يراقب مخازن الدولة⁽⁶⁾.

■ **الكاتب الثالث (وكيل الخرج الصغير):** يقوم بتسجيل غنائم البحر وأمور الديوانة (الجمارك)، ويلقب أحيانا "بقبدان بالي" لكونه المشرف على أمور البحرية.⁽⁷⁾

■ **الكاتب الرابع (الرقمجي):** يحافظ على سجلات مصالح البايك المتعلقة بالشكاوي الصادرة من القناصل المقيمين بالجزائر أي مكلف بالشؤون الخارجية للبلاد.⁽⁸⁾

(1) - سعيدوني، "موظفو الإيالة الجزائرية أوائل القرن 19م وصلاحياتهم الإدارية، ومهامهم الاقتصادية والاجتماعية"، المؤرخ العربي، ع 31، 1987، العراق، ص 189.

(2) - بروكلمان، المرجع السابق، ص 480. - Dr Shaw, Op. Cit, P165. - Laugier, Op. Cit, P226.
(3) - Dr Shaw, Op. Cit, P166. - Laugier, Op. Cit, P227.

(4) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 129.

(5) - سعيدوني، موظفو الإيالة ...، ص 189.

(6) - نفسه، ص 190. - سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 17.

- Venture (D.P), Op. Cit, pp115, 116

(7) - سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق ص 17. - سعيدوني، موظفو الإيالة...، ص 190.

(8) - سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص 230، 231. - سعيدوني، موظفو الإيالة، ص 190.

إضافة إلى هؤلاء الكتاب الأربعة هناك كاتبان آخران لتحرير الرسائل العربية الموجهة للبايات وللمغرب وتونس أحدهما يسمى "كاتب السر" يتولى قراءة الرسائل الواردة للداي والرد عليها، والآخر يعمل مع خوجة الخيل الذي له صلة مع العرب،⁽¹⁾ كما كان لكل باي كاتب له بمدينة الجزائر قرب دار الإمارة يستقبل مكاتيبها ويحملها إلى الباي ويرافقه طيلة تواجده بمدينة الجزائر.⁽²⁾

هذا بالإضافة إلى ثمانية كاتبين لكل منهم عملا خاصا، فمنهم من يوزع الخبز على الجند ومنهم من يجمع ضرائب المحلات وآخر على البساتين، ومنهم من يستقبل المكوس التي تفرض على كل ما يدخل عبر البحر من جلود وشمع وزيت، إضافة إلى الكتاب الذين يرافقون الجند في الغزو،⁽³⁾ وكتاب الفحم الذين يأخذون مكوس على كل ما يدخل السوق من أنعام وكتاب الرحبة الذين يتلقون المكوس على كل ما يدخل المدينة من قمح وشعير وخضر.⁽⁴⁾

❖ **الترجمان:** بما أن التركية هي لغة التعامل الإداري، فقد تمت الاستعانة بترجمان لتسهيل اتصالات الداى بالأهالي،⁽⁵⁾ وكان الترجمان يختار غالبا من العرب أو الكراغلة،⁽⁶⁾ شرط أن يجيد القراءة والكتابة بالتركية والعربية،⁽⁷⁾ فيعمل على ترجمة الأوامر التي يصدرها الباشا، أو الرسائل التي تصله،⁽⁸⁾ من المغرب وتونس المكتوبة بالعربية كما أنه يوضع خاتم الداى على الوثائق والرسائل.⁽⁹⁾

❖ **الناظر:** يعتبر المشرف الرئيسي للأوقاف، حيث يعمل على مراقبة مداخيل الأوقاف وتنظيم نفقات المؤسسة الوقفية المشرف عليها،⁽¹⁰⁾ واستخلاص ما يعود

(1) - مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص184.

(2) - الزهار، المصدر السابق، ص36.

(3) - Laugier, Op. Cit, p230 - Venture (D.P), Op. Cit, p 169.

(4) - Venture (D.P), Op. Cit, p151. -

-Devoulx (A), Tachrifat, recueil de notice historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, pub par Devoulx imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, p21

(5) - Dr SHAW, Op. Cit, p170. - Laugier, Op. Cit, p230.

(6) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص155.

(7) - Laugier, Op. Cit, p230.

(8) - Devoulx, Tachrifat, p19.

(9) - Laugier, Op. Cit 239. - Morgan, Op. Cit, p556.

(10) - Boyer, La vie quotidienne, p78.

منها لبيت المال،⁽¹⁾ ويتم تعيينه بالمساجد من طرف الباشا، أما بالأضرحة فالمنصب وراثي في العائلة المرابطية ويكون مسؤولاً عن الهبات والعوائد.⁽²⁾ يساعد الناظر بالمدينة مجموعة من الوكلاء يجمعون المحاصيل ويصرفون المرتبات، كما يقومون بصيانة وضبط حسابات الحبس السنوية وتسجيلها في دفاتر تقدم للمجلس العلمي،⁽³⁾ وعدلين يعينهم القاضي لإعطاء الشرعية لعقود الحبس، إضافة إلى السايحي وباش شاوش...⁽⁴⁾ أما بالريف فدور الوكيل هو الإشراف على المخزن الذي تجلب إليه الفواكه المجففة والقمح...⁽⁵⁾ أما المقدم فهو المشرف الأساسي على إدارة الزاوية واستقبال الهدايا والهبات الموجهة لها.⁽⁶⁾

❖ **المدرّس:** كانت هذه الوظيفة تابعة أحياناً لوظائف أخرى فالمفتي والخطيب يمكنهما تولي التدريس والعكس غير صحيح، فالتنافس عليها كان أقل مقارنة بالوظائف الأخرى.

لقد كان هناك صنفان من المدرسين: معلمو المدن، ومعلمو الريف، وكلا الصنفين درجات، فهو مؤدب إذا درس الأطفال الصغار، أما إذا درس الفتيان فيعتبر معلم أو مدرّس، أما إذا درس الشبان فهو أستاذ أو شيخ، فالمؤدب بالمدينة كان يختاره أهل الحي،⁽⁷⁾ في حين يختار بالريف من طرف شيخ القبيلة أو الجماعة،⁽⁸⁾ أما المدرس بالمدن فكان يعين من طرف الباشا، باقتراح من ناظر الأوقاف الذي يمنح له سكن،⁽⁹⁾ فالمدرسون يدرسون في المدارس أو في المساجد،⁽¹⁰⁾ ورغم أنهم لا يتدخلون في، السياسية، إلا أن السلطة لا تجرأ على طردهم من المدارس خوفاً من ردة فعلهم.⁽¹¹⁾

(1) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص19.

(2) - Devoulx, Les édifices religieux de l'ancien Alger, bastide, Alger, 1870, p 9 .10

(3) - ضيف الله، "النظام القانوني ونظم تطبيق الشريعة في العهد العثماني" **بحوث**، ع4، 1997، الجزائر، ص40، 41.

(4) - Devoulx (A.), " Notes historiques sur les mosques et autres édifices religieux d'Alger", in **RA** N° 5, 1861, p59.

(5) - Delpech, la Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa ou Ali N' Founas", in **R.A**, N°18, 1874..., p88.

(6) - Ibid, p87.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص369.

(8) - Emerit (M), "L'état Intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 " in **R.T.A.S.M.P**, 2^{ème} semestre 1954, p5.

(9) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص397.

(10) - Boyer, la vie quotidienne..., p199.

(11) - Emerit, "L'état Intellectuel...., p 09.

وإضافة إلى هذه الوظائف الهامة هناك وظائف أقل أهمية كوظيفة المؤذن، الحزاب وغيرها، ولم يقتصر تولي العلماء هذه المناصب الثابتة فقط، بل إن البعض منهم عين كمستشار أو مبعوثاً ومفاوضاً، في مهامات خارجية.^(*)

وما يمكن أن نقوله في الأخير هو أن أقطاب السلطة الروحية بالمدن وحتى المرابطين كانوا في وضعية مريحة مقارنة بالأرياف، وهذا مقابل حيادهم عن الأمور السياسية إرضاء للسلطة وهو ما يفسر انعزالهم عن السياسة كلية،⁽¹⁾ لذلك من النادر جداً أن نجد فقيهاً أو مرابطاً بالمدينة وقف موقفاً من السلطة الحاكمة.

❖ **الأشراف:** تعني كلمة "شريف" الحسب بالآباء، وجمعها "أشراف" ويقال رجل شريف أي له آباء متقدمون في الشرف،⁽²⁾ وهو كل من كان من نسل الرسول "ص" من جهة فاطمة الزهراء، إضافة إلى شرفاء آخرين من نسل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، مثل أولاد سيدي الشيخ الذين ينحدرون من الخليفة أبي بكر الصديق،⁽³⁾ لذا فجميع الصلحاء^(**) يدعون النسب الشريف،⁽⁴⁾ وقد تشكلوا في شكل نقابات في كافة الولايات العربية العثمانية وانتظمت وفقاً لعلاقات القرى عملاً بالحديث النبوي الشريف «اعْرِفُوا أَنْسَابَكُمْ تَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّهُ لَا قُرْبَ لِرَحِمٍ إِذَا قُطِعَتْ، وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبَةً، وَلَا بُعْدَ لَهَا إِذَا وُصِلَتْ وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةً». وقد وقعت هذه النقابة لصيانة ذوي الأنساب الشريف عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف.⁽⁵⁾

وحسب "عائشة غطاس" فإن المعلومات عن أصول هذا التنظيم قبل الوجود العثماني قليلة،⁽⁶⁾ أما أثناء الوجود العثماني فقد حدد البعض ظهوره مطلع القرن 17م،⁽¹⁾

(*) - ينظر: القسم الثالث.

(1) - Boyer, Contribution...., p 27.

(2) - أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ج 09، ص 169.

(3) - إدموند دوتي، الصلحاء، تر، محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص 64، 66.

(**) - حسب "دوتي" فإن كلمة صالح تعني كل الأولياء والبلهاء والصرعى وحتى بقايا الأضرحة والأشجار وأكوام الحجارة والطيور. - دوتي، نفسه، ص 53، 54.

(4) - نفسه، ص 58.

(5) - أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولاية الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، ط 1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989م، ص 126.

(6) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص 85.

يرأسه "نقيب الأشراف" بمدينة الجزائر، أما بقسنطينة يدعى "مزوار الشرفاء"،⁽²⁾ فحسب "حمدان خوجة" فقد كان في كل مدينة حاكم ثاني يختار من بين الأسر الشريفة المنتمية إلى أحد المرابطين يسمى نقيب الأشراف".⁽³⁾ وقد ذكر "الفكون" أنّ جده لأّمه تولى المنصب،⁽⁴⁾ أما بمدينة الجزائر فقد كان من نصيب عائلة "الزهار" أواخر القرن 18م.⁽⁵⁾ بلغ عدد أفراد فئة الأشراف 300 أسرة بمدينة الجزائر حسب ما ذكره "سعيدوني"،⁽⁶⁾ أما "بن منصور" فيذكر أن عددهم بلغ 86 عائلة،⁽⁷⁾ ويتميزون عن غيرهم بارتدائهم العمامة الخضراء.⁽⁸⁾

لعبت نقابة الأشراف دورا هاما في تسيير المدينة وتأطير المجموعات السكانية، كما أن تولي بعض أفرادها مشيخة بعض الطوائف الحرفية أو ممارسة التجارة في الأسواق المحلية سمح لها بإيجاد نوع من القواعد الاجتماعية والسياسية، التي كانت أساسا عبارة عن ممارسة للسلطة المحلية التي قامت على علاقات الحماية والمناصرة والتعاون في إطار علاقات القرابة أو طوائف الحرف.⁽⁹⁾ كما أنهم شكلوا رموز القيادة للحركة الجهادية التي تبنتها الطرق الصوفية وآمنت بها مجموعات كبيرة في الأرياف والصحاري.⁽¹⁰⁾

كان نقيب الأشراف يجتمع مع شيخ البلد وسائر الأمناء التابعين له للبحث عن التدابير الواجب اتخاذها حال حدوث أمر ما،⁽¹¹⁾ كانت له مكانة مرموقة لدى السلطة حيث كان يحضر مراسيم تعيين الباشا رفقة المفتيين والقضاة والأعيان،⁽¹²⁾ كما كان

(1) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 242.

(2) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون ...، ص 86. - قشي فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 399.

(3) - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 125.

(4) - ابن الفكون عبد الكريم، المصدر السابق، ص 69.

(5) - قشي فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 399.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، موظفو مؤسسة، ص 182.

(7) - Ben Mensour Abd-El-Hadi, Alger au XVI^{ème} -XVII^{ème} siècle, Bastide, 1998, p 108.

(8) - Ibid, p 105. - Morgan, Op. Cit, p 151.

(9) - وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع، ص 47، 48.

(10) - دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 16.

(11) - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 121.

(12) - نفسه، ص 132. - الزهار الحاج أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 23. - نور الدين عبد القادر، المرجع

السابق، ص 111.

يحضر معهم جلسات الديوان رفقة خوجة الخيل ووكيل الخرج والخزناجي والآغا،⁽¹⁾ إلا أن هذا الموقع لم يجعل منهم قوة ضاغطة على السلطة في مختلف المدن العربية رغم أن في أيديهم مفاتيح مشروعية الحكم،⁽²⁾ واكتفى بذلك الأشراف بالحصول على بعض الامتيازات والتي غالبا ما كانت امتيازات معنوية أكثر منها مادية، وربما يرجع ضعف موقفهم لعدم اتحادهم في كتلة واحدة بل كانوا عبارة عن تجمعات منتشرة عبر الأحياء والمدن، مبعثرة الجهود مما حال دون اكتسابها مكانة حقيقية في المجتمع من جهة، وأمام السلطة الحاكمة من جهة أخرى.

1-2-2- السلطة الروحية مميزاتها ووظائفها بالريف (المرابطون والمتصوفة):

أ- المرابطون والمتصوفة:

تعني كلمة المرابطون حسب "دوتي" "الصلحاء" وهم رجال الدين المقاتلين وقد أصبح هذا الاسم متداولاً بكثرة بعد الحركة الدينية التي عرفها القرن 16م،⁽³⁾ أين انعزلوا للجهاد في الرباط التي فجرته الحملات الصليبية كبديل للسلطة، هذا الأخير أحدث مدرسة للعلوم الدينية موجهة للتحضير للجهاد وتجاوز التناقضات المعاشة،⁽⁴⁾ من فوضى وعدم الأمن وهذا منذ مطلع القرن 16م أين تأكد دور المرابط وشيخ الزاوية على دور الفقيه.⁽⁵⁾

فالمرابط هو شخص ارتبط بالله، ويمثل الصنف الثاني من العنصر الديني في الجزائر، ويطلق هذا الاسم على كل من هو ذو نسب شريف أو على ولي معروف بالبلاد، وهو رجل دين حر من أي ارتباط رسمي، قد يفوق نفوذه نفوذ الآغاوات والقياد، ومنهم الأغنياء ومنهم الفقراء ممن يعيش في كوخ على صدقات المحسنين، ومنهم من شكل قبائل مرابطية مثل أولاد سيدي الشيخ،⁽⁶⁾ وأولاد مقران وأولاد عبيد وغيرهم... مرجعيتها العصبية القبلية والدعوة الدينية، ونواتها الأولى الولي أو الشيخ الصوفي المرتكز على النسب الشريف.

(1) - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1984م، ص 36.

(2) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون....، ص 88.

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 52.

(4) - Berque (J), l'intérieur du Maghreb du 16^{ème} 19-^{ème} siècle, Gallimard, Paris, 1978, pp 48- 53.

(5) - سعيدوني ناصر الدين، "مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية لنموذج بلاد القبائل"، عمل نشر في:

International congression learning education in the ottomane world ,Istambul, April 1999, p 16.

(6) - Rinn, Marabouts, pp 14, 15.

فمنذ القرن 16م ظهرت عدة مفاهيم تخص الشرف والمرابط والقبيلة، التي لم تعد بمفهومها الخلدوني القائم على العصبية، أي علاقة الدم بل تطور مفهومها مع ظهور المرابطين والأشراف حيث كان في الجزائر وحدها أوائل القرن 20م حوالي 100 قبيلة من هذا النوع الذين ينعتون بأولاد سيدي فلان نسبة إلى المرابطين الذين غالبا ما يرجع أصلهم إلى الساقية الحمراء ووادي الذهب.⁽¹⁾

وحسب "دوبون وكوبولاني" (Depont/Coppolani)، فإن الإسبان هم من أطلق لقب "المرابطين" على سكان شمال إفريقيا.⁽²⁾ وقد اختلف في أصل المرابطين في الجزائر فمنهم من يرجعهم إلى الأدارسة أو إلى الساقية الحمراء أو إلى أصل أندلسي أو بربري وحتى روماني وتركي، والأغلب أنهم من الساقية الحمراء أين انطلقوا نحو شمال إفريقيا وشكلوا أسرا، وقبائل يقصدها الناس للزيارة، كأسرة سيدي أحمد بن يوسف، سيدي الهواري، وقبيلة أولاد سيدي الشيخ،⁽³⁾ وهناك من كان يمارس نفوذه على قرية واحدة وهناك من يمتد نفوذه على قبيلة أو عدة قبائل.⁽⁴⁾

ويرى البعض الحركة المرابطية على أنها مجرد غلاف تستتر وراءه بقايا المعتقدات السابقة لدى الأجداد في منطقة المغرب الإسلامي، رغم ما كان يشترط للارتقاء والحصول على لقب مرابط من تقوى وحفظ للقرآن والسيرة النبوية وأصول الدين...⁽⁵⁾ ففئة المرابطين تميزت بمجموعة من الممارسات الإسلامية من صلاة وصوم وصدقة وزكاة، وبممارسات قديمة مثل تقديس الشيخ، الشريف، وصانع المعجزات، وتقديس الأولياء وزيارتهم،⁽⁶⁾ قصد

(1) - سعد الله، على خطي...، ص 192.

(2) - Depont (O), Coppolani (X), Les confréries religieuses musulmanes, A.Jourdan, Alger, 1897, p 123 (Marge).

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 27.

(4) - نفسه، ص 37.

(5) - G.Andre (P.J), Contribution à l'étude des Confreries religieuses musulmanes, maison du livre, Alger, 1956, p73.

- ساجية بن تونس مخلوف، المواجهة الاجتماعية بين المرابطين والقبائل في منطقة القبائل، تحليل نفسي اجتماعي للعلاقات بين الفئتين، ماجستير علم النفس الاجتماعي، جامعة الجزائر، 1998م، ص 90، 91.

(6) - نفسه، ص 83.

التبرك بهم طلبا للحماية أو قضاء الحاجات، وأثناء الكوارث كانتشار الأوبئة الفتاكة والأمراض الخطيرة التي اجتاحت الجزائر خلال العهد العثماني.^(*)

وغالبا ما شكلت هذه الفئة طبقة أرستقراطية منغلقة على نفسها، ونساؤهم لا يعملن خارجا عكس باقي النسوة، وهم محترمون يلقبون "بسيدي للرجال" و"لالة للنساء"، ويتميزون بالبركة التي تجعلهم وسطاء روحانيين بين الناس والله.⁽¹⁾

اختار المرابطون الأرياف والمناطق النائية مجالا لنشاطهم لتوافق أفكارهم مع عقلية القبائل البسيطة التي تقدسهم وتعتقد أن لديهم قدرات إلهية، فحسب "حمدان خوجة" أن سلطة المرابطين الخارقة للعادة قد أثرت في أفكار القبائل الضيقة، إذ يبدو لهم أن الله هو بذاته يسوق هؤلاء المرابطين ويرشدهم،⁽²⁾ لذلك استغل الكثير من الدجالين سذاجة الناس، وتظاهروا بالزهد وأطلق عليهم أديائهم اسم "مرابط"،⁽³⁾ ووصل بالبعض إلى تقديم القرابين للمرابطين من أجل تحقيق أمنياته، معتقدا أن سعادته تتوقف على سخط أو بركة المرابط.⁽⁴⁾

لكن هذه الفئة بدأت تفقد مكانتها أمام الطرق الصوفية التي أخذت محلهم بعد أن تمكنت في دمج عدة قبائل في صفوفها وهو الشيء الذي عجز عنه المرابطون محدودي الانتشار،⁽⁵⁾ ولكونهم اكتفوا بالتمتع بالموارد التي اكتسبها أسلافهم، وأهملوا الإرشاد والدعوة إلى الله وتركوا الزهد وانغمسوا في حياة الترف، لذلك لم يعد أغلبهم يعبر عن مصالح

(*)- حول الواقع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني ينظر: فلة موساوي القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر من العهد العثماني إلى أوائل الاحتلال الفرنسي 1515-1870م، (دكتوراه دولة - منشورة)، جامعة الجزائر، 2004.
(1)- محمد نقروش، الظاهرة المرابطية في ظل التغيير السوسيوثقافي في منطقة القبائل، ماجستير علم الاجتماع الديني، جامعة الجزائر 02، 2008م، ص 138.

(2)- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 57، 58.

(3)- منى سي فوضيل، الزوايا والأولياء الصالحون في الجزائر، دراسة سوسيولوجية وصفية لسبيدي نايل، دكتوراه علم الاجتماع الثقافي، جامعة الجزائر 02، 2011م، ص 110.

(4)- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 57.

(5)- العيد مسعود، "المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني"، سريتا، ع10، 1988م، قسنطينة، الجزائر، ص 8، 9.

القبيلة بل أصبحوا ممثلين للسلطة التي أرهقت السكان بالضرائب خاصة أواخر العهد العثماني، أين وجدوا في الطرق الصوفية ملاذا وحاميا لها.⁽¹⁾

لكن الملاحظ أيضا حتى المتصوفة أنفسهم اعتمدوا على النسب الشريف والولاية والصلاح، لذلك حتى المتصوف أصبح يدعى مرابط أو ولي ويعطي البركة، وقد ارتكز وجودهم على عدة مبادئ وأسس وهي: الذكر، الوصية،^(*) الطريقة، الخلوة، الشيخ، الخليفة، المقدم الإخوان (ال دراويش).⁽²⁾

وبما أن الخلوة والكرامة ثم المشيخة أهم ما ميّز المتصوفة، فكل مرابط صوفي كان حقيقيا أو مدعيا يدخل الخلوة أياما في البراري والبوادي والأماكن المنعزلة، أو قد تكون مغارة في جبل أو سقيفة في خلاء أو خيمة. بعدها يتخذ زاوية لاستقبال المريدين وبث دعوته ويشاع عنه أنه صاحب كرامات ومكاشفات وأحوال، ليتجمع عنده الفقراء أو الأتباع لإقامة الحضرة للذكر لتتحول عند البعض إلى رقص وحركات وأصوات، وغيرها من الأعمال التي لا صلة لها بالدين، إضافة إلى زيارة القبور وتقديم الهدايا والذبايح للشيخ.⁽³⁾

لكن هذا لم يكن دأب كل المتصوفة بل هناك منهم المتصوفة الحقيقيون من تفرغ للعلم والعبادة، ولم يتخذ لا زاوية ولا طريقة ولم يعلن المشيخة، بل أتباعه من بالغ في ذلك وأسس له قبة أو زاوية ونسبوا له ما لم يقل ولو كان حيا لما قبل بهذا.⁽⁴⁾ فأغلبهم عاش متعبدا، يلقي الأذكار والأوراد لأتباعه بعيدا عن صخب الحياة الدنيا مؤثرا العزلة والعبادة، فإذا اشتهر أمره أسس له مركزا لاستقبال الأتباع والزوار وتعليم الطلبة، يأخذ اسمه فيدعى زاوية أو رباط سيدي فلان، وإذا توفي دفن فيه وبصبح ضريحا وترث عائلته مكانته وعمله ومع مرور الوقت تزداد قداسة المكان، ويزداد نفوذها إلى نواحي بعيدة.⁽⁵⁾

(1) - كمال دحومان الحسيني، أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، ط1، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 86.

(*) - الوصية: أحد المبادئ الأساسية للطريقة وتكون مكتوبة فيها تعاليم الطريقة.

-Depont, Coppolani, Op. Cit, p 88

(2) - Ibid, Op. Cit, pp69 et 195.

(3) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 489.

(4) - نفسه، ص 490.

(5) - نفسه، ص 262.

ب- وظائف السلطة الروحية بالريف:

ونتيجة للفراغ الذي تركته السلطة الحاكمة وعدم اهتمامها بالتعليم والتوجيه وارتكاز سياستها على جباية الضرائب فقط، جعل الجزائر تعيش فراغ ثقافي، عمل هؤلاء المرابطون والمتصوفة على ملء هذا الفراغ السياسي والثقافي، فكانوا البديل لهم عن السلطة رغم ما كانوا يقدمونه لهم من هدايا وعطايا أنقلت كاهلهم،⁽¹⁾ وهذا لأن المرابط في نظرهم هو حامي الشريعة.⁽²⁾

فهم حسب "أبو القاسم سعد الله" طبقات: المتصوفة العاملون (العلماء) أسسوا مدارس وزوايا وألفوا كتب وكانوا أقرب للفقهاء منهم للمتصوفة، ومنهم المتوسطون في العلم ومنهم الخاملون الذين لم يعرف منهم إلا الاسم،⁽³⁾ وقد نسجت حولهم الأساطير ووظفوا نسبهم لاستغلال الناس ونشر الخرافات والبدع.

لقد ظهر المرابطون كقوة روحية وفكرية حقيقية، تدعم مصالح العامة ضد الحكام المتعسفين، فالمرابط كان السلطة الأولى وسط القبائل، حيث يعمل على إحلال العدالة والدفاع عن الضعفاء،⁽⁴⁾ فقد أوكلت للمرابين سلطة ممارسة القضاء التي انتقلت من سلطة الجماعة إلى سلطة الكاريزما الدينية،⁽⁵⁾ خاصة في المجتمع الريفي، فهو المخول في تطبيق الحد في الجزائر، فهو الإمام والقاضي والمفتي، يدير أمور المسجد ويعقد القرآن والصلاة على الميت، وإذا غاب مرابط القرية يلجئون إلى مرابط من القرية المجاورة للقيام بالمهمة.⁽⁶⁾

ونظرا لغياب السلطة في الأرياف وحاجة الناس إلى من يعلمهم ويوجههم ويرشدهم في أمور دينهم، اختارها المرابطون مقرا لنشاطهم،⁽⁷⁾ حيث عمل المرابط على رعاية

(1) - مختار الطاهر الفيلاي، نشأة المرابطون والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الجغرافيكس، الجزائر، 1976م، ص 30.

(2) - Mercier (E), Etude sur la confrérie des Khouans de sidi Abd-El-Kader El-Djellani, L.Arnolet, Constantine, 1869, p14.

(3) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 462.

(4) - Boulifa, Op. Cit, pp187, 188.

(5) - Babes (L), Saints, tribus, et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination Turque, Université d'Oran, S.D, p15.

(6) - زروق جيجيك، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر من خلال كتابات الفرنسيين، ماجستير تاريخ حديث ومعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2001م، ص 102.

(7) - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 488.

التعليم وإقامة الصلاة وحتى أداء الآذان،⁽¹⁾ كما عمل إماما ووكيلا لمسجد القرية أين يستلم الودائع والأمانات ويسدد النفقات.⁽²⁾

كما ساهم هؤلاء المرابطون في بناء المساجد والزوايا خاصة في أرياف القبائل (جرجرة) التي تخرج منها الكثير من الطلبة،⁽³⁾ حيث كانت زواياهم مقصدا للطلبة من كل النواحي ومقرا للصلاة والضيافة،⁽⁴⁾ وأغلبهم كان لا يتلقى أجرا مقابل عملهم بل كانوا متطوعون لحماية البلاد والحصول على الأجر والتواب من الله.⁽⁵⁾

كما يرجع الفضل للمرابطين والمتصوفة كذلك في نشر الإسلام والثقافة بين القبائل،⁽⁶⁾ وفي المناطق الصحراوية، خاصة على يد الطريقة التيجانية،⁽⁷⁾ وتوعية السكان وتوجيههم الروحي والثقافي والإصلاح بينهم، فحسب "حمدان خوجة" أن نفوذ المرابطين كان نعمة على المجتمع حيث "يسكتون أسلحة الخصوم ويمنعون إراقة الدماء".⁽⁸⁾ لذلك كان النفوذ الروحي للمرابط على الناس وللشيخ الصوفي على مريديه لم يعرف حدودا بعد أن ضمن لهم الحماية.⁽⁹⁾

ولم يقتصر دور المرابط أو شيخ الزاوية على أمور الدين والشريعة والتصوف فقط، بل تعدى حتى التكوين الحربي،⁽¹⁰⁾ بعد إنشائهم للعديد من الرباطات على الثغور لمواجهة الخطر الصليبي وهذا منذ القرن 11م.⁽¹¹⁾

ولهذا فإن حياة الناس خلال العهد العثماني خضعت لتأثير المرابطين والمتصوفة أكثر ما خضعت لرجال الدين الرسميين مثل القاضي المفتي، الإمام،⁽¹²⁾ لأن المرابط في نظرهم هو حامي الشريعة وأوامره مطاعة،⁽¹³⁾ طاعة عمياء ويحظى باحترام يستمر حتى

(1)- Liorel (J), Kabylie du jurjura, Ed. Leroux, Paris, 1982, p451.

(2)- Alain (M), Histoire de la grande Kabylie XIX^{ème} - XX^{ème} siècle, anthropologie, historique du lien social dans les communautés villageoises, Ed. Bouchene, Alger, 2001, p107.

(3)- نقروش، المرجع السابق، ص 138.

(4)- Kaddache (M), Op. Cit, p168.

(5)- سعيدوني ناصر الدين، في الهوية والانتماء، ص 133.

(6)- Gsel S. Marçais .G et G. Yver, Histoire d'Algérie, Bovin, Paris, 1927, p175.

(7)- Depont, Coppolani, Op. Cit, p424.

(8)- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 57.

(9)- إيرينا سيمليا سكايا، المرجع السابق، ص 268.

(10)- Benachenhou (A.H), Connaissance du Maghreb, Nations d'éthnographie d'histoire et de sociologie, Ed. Populaire de l'année, Alger, 1971, p134.

(11)- Dhina atallah, les états de l'occident musulman au 13-14-15^{ème} siècle, Op. Cit, Algérie, S.D, p303.

(12)- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص 481.

(13)- Mercier, Etude sur la confrérie des Khouans de sidi Abd-El-Kader..., p14.

بعد مماته،⁽¹⁾ لهذا نجد هذه الفئة تحتل قمة الهرم الاجتماعي في المجتمع خاصة القبائلي،⁽²⁾ مشكلين طبقة «أرستقراطية دينية»،⁽³⁾ لها خصوصياتها ونفوذها الواسع على الأهالي، وهو ما جعل السلطة الحاكمة خلال العهد العثماني تقف إلى جانبهم، بغية استمالتهم واستخدامهم لتحقيق مصالحها وإخضاع السكان لها، دون أن تضطر إلى استعمال القوة واستنزاف إمكانياتها العسكرية، مشكلين بذلك همزة وصل بين الحكام والمحكومين خلال فترة التواجد العثماني بالجزائر.

1-3- مراكز السلطة الروحية:

أ- الكاتيب:

الكتاب أو المسيد، هو تصغير لكلمة مسجد،⁽⁴⁾ كانت بمثابة مرحلة التعليم الأولى أو المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر يسمى في الريف "الشرعية" لأنه تدرس به الشرعية أما في المدينة فيسمى "مسيد"⁽⁵⁾، وحسب "يحي بوعزيز" فإنها أسست لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال، والحفاظ على نقاوتها.⁽⁶⁾

وكانت هذه المؤسسة التعليمية منتشرة في كامل البلاد الأمر الذي أدهش الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، إذ كتب الجنرال "دوماس" (Daumas) تقريراً له: «أن التعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرًا أكثر مما يتصوره الإنسان عموماً، فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت أن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة»، كما علقت على ذلك الباحثة "إيفون ثوران" (Yvonne Turin) صاحبة كتاب "مجابهاة ثقافية" بقولها: «إن لم يكن كل الأطفال قد تعلموا القراءة و الكتابة فإنهم جميعاً قد مروا بالمدرسة الابتدائية "الكتاب" وكانوا يستطيعون استظهار الأدعية وبعض آيات قراءة القرآن».⁽⁷⁾

(1)- Liorel (J), Op. Cit, p228.

(2)- Boulifa, Op. Cit, p228.

- بن تونس ساجية، المرجع السابق، ص 31.

(3)- نفسه، ص 31. للمزيد حول دور المرابطين والمتصوفة ومكانهم في المجتمع، ينظر: القسم 02.

(4)- بونار رابح، "الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر"، الأصالة، ع 8، 1972، ص 84.

(5)- العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، سريتا، ع 03، 1980م، ص 61، 62.

(6)- بوعزيز يحي، "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، الثقافة، ع 63، 1981م، ص 15.

(7)- إيفون ثوران، المجابهاة الثقافية في الجزائر المستعمرة (1830-1880م)، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة، دار

القصبة، الجزائر، 2005م، ص 135.

وقد تحدث "الجامعي الفاسي" في رحلته عن الكتاتيب في مدينة الجزائر فقال: «... وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب مليء بالأولاد حيث أنّ المحل لا يسع للتلاميذ يجعلون فيه سدّة يصعدون عليه الدرج يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن العظيم»⁽¹⁾ ومن وظيفة هذه الكتاتيب أنّها خصّصت لنشر الدين والتّعليم الابتدائي، وهي أوّل محل يتلقّى فيه الطفل الحروف الهجائية عن طريق الألواح المصلصلة،^(*) وتكون هذه الكتاتيب في الغالب في أضرحة للأولياء والدكاكين وفي المساجد التي لا تقام فيها الصلوات الخمس.⁽²⁾

وقد كان لكل تلميذ لوحته الخاصة به، حتى تسهل عليه كتابة القرآن فيها، ومحو الحروف منها، وكانت تتم القراءة بصوت مرتفع للآيات القرآنية، والصور، وبعد أن يحفظ التلميذ ما في اللوحة، يقوم بترتيلها على مسامع شيخه المدرس له والجالس أمامه على حصيرة.⁽³⁾ وأقصى عقوبة للتلميذ في هذه المرحلة هي "الفلة" وأخفها التأنيب بالكلام.⁽⁴⁾ خصص الكتّاب لحفظ القرآن،⁽⁵⁾ وتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب،⁽⁶⁾ وكان عدد المتدربين في الكتاب الواحد ما بين 15 و 20 صبيا،⁽⁷⁾ يقضون في الكتاب ثلاثة أو أربعة أعوام،⁽⁸⁾ والذين يرغبون في مواصلة الدراسة يبقوا سنين أخرى لحفظ القرآن عن ظهر قلب أو يلتحقون بالمدرسة أين يتلقون تدريسهم في الفقه والتوحيد والنحو على يد العلماء من أئمة ومفتيين وقضاة،⁽⁹⁾ هذا في الحواضر أما بالريف فيلتحقون غالبا بالزوايا لإكمال دراستهم الثانوية.⁽¹⁰⁾

(1) - أشرف صالح محمّد السيد، "المراكز الثقافية في دار السلطان الجزائر أواخر العصر التركي" أمازيك، مجلة علمية عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، ع 07، 2013م، ص 68.

(*) - الصلصال، هو الطين اليابس الذي لم تصبه النار أي لم يصبح خزفاً.

- ابن منظور، المصدر السابق، ج 11، ص 382.

(2) - ابن الميمون، المصدر السابق، ص 58.

(3) - عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص 272.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي....، ج 1، ص 340. Boyer, La vie quotidienne..., p201.

(5) - محمد سي يوسف، "نظام التعليم في بلاد الزواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني"، الحياة الفكرية في الولايات العربية، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990، ج 1، ص 193.

(6) - Boyer, la vie quotidienne ..., p199.

(7) - Ibid, p201.

(8) - Dr Shaw, Op. Cit, p339.

(9) - Boyer, La vie quotidienne..., p202.

(10) - العيد مسعود حركة التعليم....، ص 62.

ب- المساجد:

كانت المهد الأول للتعليم⁽¹⁾، فمنذ العهود الأولى للإسلام كانت إلى جانب وظيفتها الدينية تقوم بوظيفة التعليم، واستمرت على هذا المنوال عبر مختلف الفترات الإسلامية، رغم ظهور المدارس في القرن 5هـ، وبالرغم من الانتشار الواسع لهذه الأخيرة لم تستطع الإنقاص من قيمة المساجد وإنما تعايشت معا في نشر رسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي.⁽²⁾

كانت المساجد أماكن لأداء الصلاة وتحفيظ القرآن والتعليم، ومعالجة مشاكل الناس،⁽³⁾ كما كانت مركزاً لحلقات الدروس اليومية والفنون والعلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد في المدن والقرى،⁽⁴⁾ إضافة إلى التحريض على الجهاد ضد العدو، حيث عملت على صهر التناقضات الداخلية في تيار الجهاد، فلا فرق بين تركي وعربي.⁽⁵⁾

وبما أن المساجد كانت بمثابة الرابطة بين الأهالي في الريف أو المدينة، كثرت العناية بها فلا نكاد نجد قرية أوحيا في المدينة من دون مسجد، ومن بين هذه المساجد ما كان يسمى "جامع الخطبة" لأنها كانت تؤدي فيها صلاة الجمعة والعديد من غيرها من المساجد التي غالبا ما تنسب إلى مؤسسيها من سياسيين أو عسكريين أو تجار، بخلاف الزاوية التي غالبا ما تنسب إلى الأولياء الصالحين.⁽⁶⁾

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن بناء المساجد كان نتيجة للمبادرات الفردية، لأن الدولة لم تكن تولي الاهتمام لبناء المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية، وما كان يقوم به الحكام من تشييد المساجد وحبس الأوقاف لها من مالهم وأملاكهم الخاصة، كان إلا تعبيراً عن واجبهم الديني،⁽⁷⁾ خاصة لما كثرت الغنائم البحرية التي أدت إلى كثرة المساجد في الجزائر.⁽⁸⁾

(1) - Encyclopédie de l'islam, T5, p400

(2) - العيد مسعود، حركة التعليم...، ص 64.

(3) - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات...، ص 12.

(4) - ابن الميمون، المصدر السابق، ص 59.

(5) - العسلي بسام، الجزائر والحملات الصليبية (1571-1791م)، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1986، ص 184.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245.

(7) - نفسه، ص 247.

(8) - مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح إلى الغزو الفرنسي، ط1، دار العصر الحديث، بيروت، لبنان، 1992، مج2، ج3، ص 351.

والملاحظ على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها التعليمية حيث، انفردت كل مدينة بجامعها الأعظم، الذي يمثل معهدا للتعليم،⁽¹⁾ كالجامع العظيم في قسنطينة وجامع بجاية وجامع تلمسان والجامع الأعظم في مدينة الجزائر الذي عرف خلال العهد العثماني نشاطا دينيا وقضائيا وتعليميا واجتماعيا وسياسيا، فاق أنشطة المساجد الحنفية الأخرى التي بناها العثمانيون،⁽²⁾ كجامع صفر، جامع شبارلية، جامع شعبان باشا، والجامع الجديد،⁽³⁾ حيث كان مقرا للمفتي المالكي والمجلس العلمي، ومنبرا للمناظرات بين العلماء، وكسب ود السلطة عند البعض،⁽⁴⁾ وللفضل في القضايا التي لم تفصل فيها المحاكم،⁽⁵⁾ كما مثل منبرا أساسيا معارضا للسلطة أواخر العهد العثماني،⁽⁶⁾ كما كان منبرا معارضا أواخر العهد العثماني، وحتى نتائج المعارك تقرأ على منبره.⁽⁷⁾

هذا ويعدّ الجامع الكبير من أشهر مساجد الجزائر وأكثرها أوقافا إلا أن هذا لم يؤهله هو وبقية المساجد الكبرى، ليصبح جامعة كالأزهر والزيتونة والقرويين، رغم أن الدروس التي كانت تقدم فيه وفي المساجد الكبرى تضاهي بل تفوق أحيانا ما كان يقدم من دروس في المشرق الحرمين الشريفين،⁽⁸⁾ وتعد عائلة قدورة أشهر من تولى الإفتاء به، كان يضم المفتي والوكيل وإمامان للصلوات الخمس وتسع عشرة أستاذ وثمانية عشر مؤذن وثلاثة وكلاء، واحد منهم نائب للمفتي، ليأتي بعده الجامع الجديد مقر المفتي الحنفي الذي يعد في مقام شيخ الإسلام⁽⁹⁾ ويذكر "فونتير دو بارادي" (Venture De. P.) أنه وجد بمدينة الجزائر^(*) وحدها 12 مسجد جامعا وعدد من المساجد الصغيرة، أشهرها الجامع الكبير مقر المجلس العلمي،⁽¹⁰⁾ في حين "دوفو" (Devoulx) يذكر أن عدد مساجد

(1) - العيد مسعود، حركة التعليم....، ص 64.

(2) - التميمي، من أجل كتابة...، ص 157.

(3) - Devoulx, Notes historiques...., p390.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 258.

(5) - مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص 91. - Venture (D. P), Op. Cit, p157.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 246.

(7) - عبد الجليل التميمي، "من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم"، المجلة التاريخية المغربية، ع 19-20، 1980، تونس، ص 158، 159.

(8) - نفسه، ص 158. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 273.

(9) - سعد الله، نفسه، ص 259.

(*) - بلغ عددها في القرن 16م 100 مسجد بين كبير وصغير. - أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 64.

(10) - Venture (D. P), Op. Cit, P157.

مدينة الجزائر سنة 1246هـ/1830م كان 13 جامع خطبة و 109 مسجدا و 32 ضريحا و 12 زاوية،⁽¹⁾ لكن "شوفال" (Shuval) يذكر أن بها 14 جامع خطية،⁽²⁾ أما د. شو (Shaw) فقد قدر عددها بـ 10 مساجد كبيرة و 50 مسجدا صغيرا،⁽³⁾ مخصصة لـ 30000 نسمة فقط.⁽⁴⁾

أما قسنطينة وحسب "الورثياني" الذي زارها في القرن 18م، يوجد بها خمسة جوامع خطبة⁽⁵⁾، في حين أحصى بها "فيرو" (Feraud) 75 مسجدا وجامعا إضافة إلى سبعة خارج المدينة وهذا الإحصاء كان عهد صالح باي،⁽⁶⁾ أما "قايد" (Gaid) فيذكر أن بها قرابة مائة مركز ديني بين مسجد وزاوية وجامع ومدرسة،⁽⁷⁾ وبلغت مساجد عنابة 37 مسجدا أشهرها مسجد "سيدي مروان" أما أشهر مساجد بجاية هو ذلك الذي بناه مصطفى باشا، إضافة إلى المسجد الذي بناه أحمد القلي بالقل سنة (1170هـ/1754م) اعترافا منه بمساعدة أهلها له عندما كان آغا.⁽⁸⁾

كما عرفت حواضر الغرب الجزائري مساجد متعددة بلغ عددها بتلمسان حسب "إيمريت" (Emerit) 50 مسجدا أغلبها صغيرة،⁽⁹⁾ لكن هناك من يقدم إحصاء آخر لعدد مساجد المدينة الذي بلغ 60 مسجدا،⁽¹⁰⁾ أما بمعسكر فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية: مسجد السوق والمسجد العتيق والمسجد الكبير، وقد استفادت هذه الحواضر من الإصلاحات العمرانية والثقافية التي بادر بها الباي محمد الكبير الذي شيد المسجد الكبير المعروف باسمه والذي يعتبر من أروع وأهم مساجد الإيالة.⁽¹¹⁾

لكن ورغم وفرة المساجد إلا أن بعضها كان في حالة متدهورة، ومنها من لم تكن له أوقاف لصيانته، فنجد مثلا أحمد بن قاسم ساسي البوني يشتكي خراب مساجد عنابة

(1)- Devoulx (A.), Les Édifices Religieux, P03.

(2)- Shuval, Op. Cit, p192.

(3)- Dr shaw, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis, 1980, p294.

(4)- Boyer, la vie quotidienne..., p74.

(5)- الحسين الورثياني، نزهة الأنظار في فصل علم التاريخ والخبار، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1908، ص685.

(6)- Feraud (CH.), "Les anciens établissements religieux Musulmans de Constantine", in **RA** N°12, 1868, p130.

(7)- Gaid (M.), Chronique des Beys de Constantine, O. P.U, Alger, S.D, p131.

(8)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص249.

(9)- Emerit (M.), l'Algerie à l'époque d'Abd-El Kader, la Rose, Paris, 1951, p82.

(10)- Canal (J.), " Monographie de L' Arrondissement de Tlemcen" in **B.S.G.A.O** N°VII 1887, p107

(11)- Gorguon (A.), "Notice sur le Bey d'Oran Mohamed El Kebir", in **RA**, N°1, 1856, p408.

للداي محمد بكداش، فقال: «خربت المساجد وقل فيها الساجد»،⁽¹⁾ كما قدم لنا "الورثياني" وصفا لحال بعض المساجد في القرن 18م بهذه العبارات "فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث بل ولا مهدما قد جدد ولا واهيا قد أصلح"،⁽²⁾ وهو يتكلم عن إهمال الحكام عن صيانة المساجد لكن في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي برزت محاولة البعض منهم النهوض بأمور المساجد مثل: صالح باي ومحمد الكبير اللذان عملا على صيانتها وحفظ أوقافها،⁽³⁾ التي يعود مردودها لصالح العلم وللقائمين عليها.

ج- الزوايا:

احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم خاصة بالأرياف،⁽⁴⁾ ويعود هذا الأمر إلى غياب المؤسسات الثقافية الأخرى وهو ما سمح لها بالقيام بوظيفة تعليمية إضافة إلى وظيفتها الدينية.

لقد مثلت الزاوية المسجد والمدرسة في آن واحد،⁽⁵⁾ فهي مقر للعبادة والدراسة، كتدريس علوم الدين والفقه، ومبادئ القراءة والكتابة، إضافة إلى كونها مأوى لعابري السبيل،⁽⁶⁾ كما عملت على دمج فئات المجتمع بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الجهوي أو حي الإقامة أو المهنة.⁽⁷⁾ وقد جمعت الزاوية في تعليمها بين التربية الروحية والعسكرية كونها مبنية على نشر الدعوة الصوفية والتحضير للجهاد،⁽⁸⁾ فهي بديل متطور للرباط.⁽⁹⁾ وبالتالي كان انتشارها كبيرا على مستوى الأرياف خاصة، حيث انعدمت المدارس، فلعبت دورا هاما في الحياة الثقافية والتعليمية.

وقد ظهرت في المغرب الإسلامي منذ القرن 13م لتحل محل الرباط تدريجيا واستمرت في التطور حتى استقرت وظائفها النهائية في العهد العثماني على يد الطرق

(1) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص115، 116.

(2) - الورثياني، المصدر السابق، ص 266.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص251.

(4) - محمد سي يوسف، نظام التعليم...، ص193.

(5) - Emerit (M.), L'état intellectuel..., p10.

(6) - Bodin (M), traditions indigenes sur Mostaghanem", in **B.S.G.A.O.**, 1925, p17.

(7) - Stambouli (F.)/Zghal (A.), « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », in **ANN.AFR.**, N°11, 1972, p207.

(8) - عبد الحميد مزيان، "المؤسسات الثقافية قبل الاستعمار"، **مجلة التاريخ**، ع 22، 1986، ص18.

(9) - العبد مسعود، حركة التعليم...، ص69.

الصوفية، والمرابطين، لهذا كان اسم "الزاوية" يطلق على مقر المرباط في حياته أو بعد مماته، وقد يكون أسسها بنفسه أو أسست على ضريحه.⁽¹⁾

شهدت الزاوية في القرن 15م نموا واسعا كان كرد فعل على ضياع الأندلس وعلى الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية، حيث عمل شيوخها على إحياء الرباط لتجمع بهذا بين العبادة والتعليم والجهاد، كما وأنها استطاعت كسب ثقة الناس وهذا يعود إلى تيسيرها التعليم للجميع، إضافة إلى دورها على مستوى العلاقات الاجتماعية من خلال التوسط في قضايا قضائية بين السكان.⁽²⁾

وقد قسمت الزوايا في الجزائر إلى نوعين: زوايا حرة لا تنتسب إلى ولي أو طريقة صوفية. يدير شؤونها مجلس يتكون من الطلبة، أما النوع الثاني فهو عكس النوع الأول يخضع في تسييره للشيخ المؤسس أو خلفه، كما نجد فيها النوع الخلواتي وغير الخلواتي، فالأول يدعي شيوخها المعرفة بالأسرار الغيبية لهم مريدن وورد خاص بهم، ويسمون بالطرقين ويقومون "بالحضرة" لهم فروع في كامل أنحاء البلاد، أما النوع غير الخلواتي لا يدعي شيوخه معرفة الغيب، وهم أيضا لهم ورد خاص.⁽³⁾

تتلمذ بهذه الزوايا غالبية علماء الجزائر في العهد العثماني أمثال سعيد قدورة، أبو راس الناصري، الأمير عبد القادر، محمد بن علي السنوسي،⁽⁴⁾ حيث كانت تجلب إليها العديد من الطلبة فزاوية سيدي التواتي ببجاية يدرس بها نحو 200 طالب، وهي مركز لتخريج القضاة والعلماء لكامل البلاد،⁽⁵⁾ في حين زاوية جماعة السحاريج، ببلاد القبائل والتي لازالت قائمة إلى يومنا هذا، كان يدرس 500 طالب و تقوم بالإنفاق عليهم كلهم، أما زاوية نقاوس فهي تنفق على 200 طالب⁽⁶⁾، أما زاوية سيدي منصور^(*) كان يقصدها من 100 إلى 150 طالب وزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي، والتي تميزت بمستوى تعليمي عالي يدرس بها 125 طالبا ويدرس بها 25 مدرسا،⁽⁷⁾ في حين زاوية أسرة

(1) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص27.

(2) - Bodin (M), Op. Cit, p25.

(3) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص16

(4) - العيد مسعود، حركة التعليم.....، ص 63.

(5) - Feraud (C.H), Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnault, Paris, 1869, p217.

- Feraud (CH), Histoire de Bougie, présentation de Nedjema Abd-El-Fatah, Ed. Bouchene, 2001, p129.

(6) - Dr SHAW, Op. Cit, p350 et 393.

(*) - أسست مع زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي في القرن 17م وهما تابعتان للطريقة الرحمانية.

(7) - SALHI (M. B), "Confreries religieuses et champs religieux en grande Kabylie au milieu du xxeme Siècle, La Rahmanyia", in ANN.AFr. N .N°33, 1994, p258.

المجاي (أبهلول) بتتس كان يقيم بها نحو 300 طالب ويدرسون مختلف العلوم الدينية من فقه وحديث تفسير وعلوم اللغة.⁽¹⁾

كانت الزاوية غالبا ما تضم غرفا لإيواء الطلبة وأخرى للدراسة، وتكون تحت إشراف المقدم أو الوكيل،⁽²⁾ وأما بعض الزوايا فكان الإشراف عليها متوارثا في العائلة، ويساعد خليفة المرابط الذي يتولى التعليم أو الإشراف على مدرسيها الوكيل وعدد من الخدم،⁽³⁾ كما وجدت بها مخازن للمؤن من أجل تمويل الطلبة والفقراء،⁽⁴⁾ والتكفل بالأرامل واليتامى وعابري السبيل.

كان من مميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الزوايا في كامل أنحاء البلاد، خاصة بالأرياف ويعود هذا إلى افتقارها للمؤسسات التعليمية الأخرى، إضافة إلى انتشار الطرق الصوفية التي كان مركزها الزوايا، فكانت مدينة الجزائر وحدها تضم عددا كبيرا من الزوايا والأضرحة، فقد أحصى بها "دوفو" (Devoulx) سنة 1830م، 32 ضريحا و12 زاوية،⁽⁵⁾ منها ما هو منسوب إلى الأفراد كزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي وزاوية الولي دادة، وزاوية عبد القادر الجيلاني وزاوية شيخ البلد، وزاوية القشاش ومنها ما هو منسوب إلى الجماعة كزاوية الأشرف وزاوية الأندلس.⁽⁶⁾ لكن أغلبها تعرض للهدم بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أما مدينة قسنطينة فقد وجد بها 16 زاوية، منها ما كان تابعا للعائلات الكبرى بالمدينة، مثل زاوية أولاد الفكون وزاوية بن نعمون وزاوية أولاد جلول،⁽⁷⁾ كما اشتهرت أيضا تلمسان بزواياها التي وصلت إلى أكثر من 30 زاوية أشهرها زاوية عين الحوت⁽⁸⁾، إضافة إلى عدة زوايا أخرى بالغرب الجزائري كالزاوية الموجودة في جبل بني راشد، والتي كان لها دور بارز في نشر العلم في الريف، وقد تخرج منها عدد من العلماء والفقهاء.⁽⁹⁾

(1) - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر من البدايات إلى الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2007م، ص342.

(2) - Delpech, "La Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa...., p87.

(3) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص27.

(4) - Laver (E), Confreries religieuses musulmanes et marabouts leur etat et leur influence en Algerie Imp, Cagniard 1916, p 23.

(5) - Devoulx, Les edifices ..., p03.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 263 و269.

(7) - نفسه، ص 264.

(8) - Emerit, L'Algérie à l'époque...., p13.

(9) - الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. مخطوط رقم 1632، ص105.

وتعد منطقة القبائل أغنى المناطق بالزوايا، حيث تصل حتى 50 زاوية أشهرها زاوية "تيزي راشد" المعروفة بزاوية "ابن أعراب"، وهي الزاوية التي درس بها الباي محمد الذباح، وزاوية سي علي الشريف بأقبو وزاوية آث منصور ببني جناد وزاوية الأزهرى بآيت إسماعيل⁽¹⁾، هذا دون أن نغفل الدور الذي قامت به زوايا الصحراء كزاوية عين ماضي التي وصل تأثيرها حتى الحدود الجزائرية المغربية. كما كانت هناك زوايا أخرى لها تأثير بارز على الحياة الثقافية والاجتماعية كزاوية القادرية بالقيطنة، وزاوية قرومة بمنطقة القبائل وزاوية طولقة⁽²⁾، وغيرها من الزوايا الأخرى التي استطاعت أن تحتوي مختلف فئات المجتمع وتشكل في نفس الوقت الملاذ الآمن ضد الغزو المسيحي ثم ضد السلطة العثمانية فيما بعد وهو ما سنراه لاحقا.

اعتمدت هذه الزوايا في الإنفاق على المتمدرسين وعلى العلماء المدرسين بها على الأوقاف والهبات وأموال الزكاة، والهدايا التي يقدمها أفراد القبيلة إضافة إلى ما يجمعه الطلبة من المناطق التي تخضع لنفوذها، دون أن ننسى تبرعات المسافرين والزوار الذين يقصدونها للتبرك بضريح مؤسسها⁽³⁾، كما كانت تخصص لها أراض يعود مردودها لصالح المدرسين والطلبة⁽⁴⁾، وغالبا ما تكون هذه الأراضي محيطة بها يشغل فيها رجال الزاوية⁽⁵⁾، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن حبوس الزوايا أماكن لا يجرو أحد على التعدي عليها⁽⁶⁾.

د - المدارس:

تأسست المدارس في المغرب الإسلامي من طرف الموحدين، حيث أدخلها يعقوب بن يوسف عام 580هـ/1184م،⁽⁷⁾ وكان ظهورها بعدما لم يستطع المسجد القيام بكل تلك المهام وغالبا ما أنت تشيد بجوار المساجد،⁽⁸⁾ التي ورغم ظهور المدارس إلا أنها استمرت في العمل كأماكن للتعليم حيث لا نجد فرقا كبيرا بينهما.⁽⁹⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 265، 266.

(2) - مسعود العيد، حركة التعليم...، ص63.

(3) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص78.

(4) - Emerit, L'état Intellectuel ..., p06.

(5) - Mercier (E.), Etude sur la confrerie des khouans de sidi Abd- El Kader, p17.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p303.

(7) - Encyclopédie de l'islam, T.5, p403.

(8) - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص19.

(9) - Encyclopédie..., p407

وقد عرف أبو راس الناصري المدرسة بقوله: «المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبني لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه»⁽¹⁾ فهي مؤسسة جمعت ما بين التعليم الثانوي والعالي وهذا لتعدد تخصصاتها حيث جمعت بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية وبعض العلوم العقلية،⁽²⁾ وغالبا ما كانت متصلة بالمساجد، تلقى فيها دروس الأدب، والفقه المالكي، والحنفي، والتوحيد،⁽³⁾ والحساب وطرق التداوي.⁽⁴⁾

فقد كان يتخرج منها المدرسين، والعلماء، والفقهاء والمفتين والقضاة، أين تمنح لهم الشهادات التي تثبت جدارتهم في تحصيل العلم والتي كانت تعرف بالإجازات.^(*)

لقد عرفت المدارس انتشارا واسعا خلال العهد العثماني حيث لا يكاد يخلو حي من أحياء المدن من هذه المدارس، الأمر الذي أذهل كل من زار الجزائر خلال العهد العثماني من كثرة مدارسها وقلة الأمية بين سكانها⁽⁵⁾ وفي هذا الصدد يقول شالر: «فإنّ مدينة الجزائر تمتلك كثيراً من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال ابتداء من السن الخامسة والسادسة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة».⁽⁶⁾

وقد لعبت هذه المدارس في المدن نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف، فهي التي كانت تزود الدولة بما تحتاج إليه من الموظفين، وكان تعيين المدرسين بها من طرف الداوي وباقتراح من مدير الأوقاف، وأغلبهم يجمعون بين التدريس والإفتاء والقضاء.⁽⁷⁾

وقد وجدت المدارس في مختلف حواضر الجزائر التي قدرت حسب إحصاء فرنسي عام 1851م بـ 229 مدرسة يدرس بها 5583 تلميذ، مدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي

(1) - أبو راس الناصري، عجائب الأسفار، ص 91.

(2) - عبد المجيد مزيان، المؤسسات الثقافية، ص 14.

(3) - أشرف محمد السيد، المرجع السابق، ص 68.

(4) - محمد سي يوسف، نظام التعليم، ص 193.

(*) - الإجازة العلمية، هي عبارة عن شهادة تسلم من المعلم للطالب إذا لازمه مدة طويلة أو قصيرة، وهي تركية علمية تجيز للطالب تلقين المعارف التي تلقاها من شيخه، وكلما كثر الشيوخ كثرت الإجازات وهي دليل لصاحبها على سعة علمه. - إبراهيم حركات، التيارات السياسية، ص 35.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 274.

(6) - شالر، المصدر السابق، ص 82.

(7) - العيد مسعود، حركة التعليم....، ص 65.

سنة 1840م على 24 مدرسة تستقبل أكثر من 600 تلميذ،⁽¹⁾ منها المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبو راس الناصري واعتبرها مركزا للتعليم العالي.⁽²⁾

أما مدارس قسنطينة فلم تكن تقل أهمية عن مدارس مدينة الجزائر، فقد عرفت هي الأخرى إشعاعا ثقافيا خاصة عهد صالح باي الذي أسس المدرسة الكتانية عام 1190هـ/1776م لتعليم مختلف العلوم، وقد جعل لها نظاما خاصا يخضع لقوانين صارمة،⁽³⁾ كما أنه أسس عدة مدارس في "عناية وجيجل" وكان يلحق بكل مدرسة مسجدا وكتابا ومكتبة،⁽⁴⁾ وقد قدر عدد مدارس قسنطينة عند دخول الفرنسيين بـ90 مدرسة،⁽⁵⁾ لكن "إيمريت" (Emerit) يذكر أن عددها كان 86 مدرسة، يدرس بها 1350 تلميذ.⁽⁶⁾

أما مدارس تلمسان فقد بلغ عددها حسب "إيمريت" 50 مدرسة صغيرة مخصصة لـ12000 أو 15000 نسمة،⁽⁷⁾ بالإضافة إلى مدرستين للتعليم العالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام⁽⁸⁾، يتردد عليها حوالي ألفي تلميذ وستة مائة طالب للمدرستين الأخيرتين.⁽⁹⁾

وقد استفادت مدارس الغرب الجزائري من إصلاحات الباي محمد الكبير، وهذا من خلال تدعيمه وتنشيطه للحياة الثقافية،⁽¹⁰⁾ بحيث أسس المدرسة المحمدية في معسكر لتصبح من أكبر مدارس بايلك الغرب وقد أشار إليها أبوراس الناصري في حديثه عن المدارس⁽¹¹⁾، وهي المدرسة التي قال عنها صاحب "الثغر الجمانى" كاد العلم أن يتفجر من جوانبها.⁽¹²⁾

(1) - إيفون توران، المرجع السابق، ص 137، 138.

(2) - أبو راس الناصري، عجائب الأسفار، ص 91.

(3) - نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965، ص 213.

(4) - العيد مسعود، المرجع السابق، ص 65.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 276.

(6) - Emerit, l'état Intellectuel..., p04.

(7) - Ibid, p04.

(8) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 276.

(9) - إيفون توران، المرجع السابق، ص 139.

(10) - Gorguon, "Notice sur le Bey d'Oran, p410.

(11) - أبو راس الناصري، عجائب الأسفار، ص 78.

(12) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 127.

أما مدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية والتي شيدت نهاية القرن 17م من طرف الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي،⁽¹⁾ حيث كانت ملتقى العلماء ومقرا للمبادرات الفكرية وقد درس بها عدة علماء بارزون أمثال أبوراس الناصري،⁽²⁾ وقد اشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه والحديث وعلم الكلام.⁽³⁾

وبالرغم من كثرة المدارس في الجزائر إلا أنها كانت تفتقر لمؤسسة للتعليم العالي، رغم أن "فونتير دو برادي" يشير إلى وجود ثلاث "جامعات" بها،⁽⁴⁾ إلا أنها في الواقع لم تكن بها جامعة بالمعنى الصحيح لأنه لم يكن يوجد بها مدرسة للتعليم العالي تضاهي الأزهر والقرويين والزيتونة،⁽⁵⁾ بمناهج أكاديمية شاملة لكل العلوم والمعارف المدرسة في الجامعات.

هـ- الرباط:

الرباط لغة: يطلق على الخمس من الخيل. وربما سميت الخيل نفسها رباطا، وهو المواظبة على الأمر والمرابطة هي لزوم ثغر العدو.⁽⁶⁾ عملا بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾،⁽⁷⁾ وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ﴾.⁽⁸⁾ وعملا بحديث الرسول (ص): «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».⁽⁹⁾

وقد جاء في "الزهرة النيرة" أن العلماء قالوا: «أنه إذا أغار العدو على موضع يكون ذلك الموضع رباطا لأربعين سنة، وإذا أغار مرتين يكون رباطا إلى مئة وعشرين،

(1) - Belhamissi, Histoire de Mazouna, Des origines à nos jours. Imp. Ahmed Zabana, Alger 1982, pp49, 50.

(2) - Ibid, p51.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص285.

(4) - Venture de paradis, Op. Cit, p158.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص273.

(6) - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص302.

(7) - سورة آل عمران، الآية 200.

(8) - سورة الأنفال، الآية 60.

(9) - رواه مسلم البخاري والترمذي.

وإذا أغار ثلاث مرات يكون رباطا إلى يوم القيامة»⁽¹⁾ وبهذا فكل موضع طرقه العدو ولو مرة فهو ثغر يصح فيه الرباط.⁽²⁾

إذا فالأربطة هي عبارة عن حصون أو قلاع تبنى على حدود الدولة الإسلامية ويرابط فيها المتطوعون للدفاع عن أرض الإسلام، مثلما كان يفعل المجندون المسيحيون في فرسان مالطا (القديس يوحنا) حسب قول "دوتي"⁽³⁾ وبهذا فالرباط عبارة عن الإقامة للجهاد ضد العدو بالحرب.⁽⁴⁾

لقد اشتهرت الأربطة بحراسة الثغور إثر الحروب الصليبية، وهذا منذ أوائل الفتح الإسلامي، وازدادت أهميتها عندما تكالبت الأطماع المسيحية على شواطئ المغرب الإسلامي والشمال الإفريقي،⁽⁵⁾ من طرف كل من صقلية وجنوبي إيطاليا وسردينيا، فأنشئت الأربطة والحصون لحراسة السواحل مثل رباط سوسة والمنستير وصفاقس وبنزرت وبونة وشرشال ورباط الفتح وغيرها.... كما أقيمت حتى في الصحراء على حدود بلاد السودان حيث أصبحت مراكز للغزو والتوسع ونشر الإسلام في بلاد السودان وإفريقيا الغربية.⁽⁶⁾

وبالإضافة إلى كون الرباط مركزا لحراسة الحدود والجهاد، كان يقوم مقام المؤسسات التعليمية من خلال الدروس التي كانت تقدم فيه، حيث كانت حياة المرابطين داخله مقسمة بين العمل العسكري والتعلم والتفقه في الدين تحت قيادة شيوخ وعلماء، ليصبح الرباط مع الزمن نظاما عسكريا ودينيا،⁽⁷⁾ لهذا عرفها كوثراني: «على أنها المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة»⁽⁸⁾ أما "عبد الرحمن الجليلي" فقال عنها أنها مسكن

(1) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 03.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 195.

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 51.

(4) - محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 3.

(5) - المهدي البوعبدلي، "الرباط والفداء في وهران والقبائل"، الأصالة، ع 13، 1973، الجزائر، ص 22.

(6) - عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 404.

(7) - مزيان عبد الحميد، "طريق الذهب وطريق الثقافة"، الأصالة، ع 3، 1971، الجزائر، ص 19.

Carret (J), Le maraboutisme et les confreries religieuses musulmanes en Alger. Impr.d' Alger, 1959, p08.

(8) - كوثراني، السلطة والمجتمع....، ص 49 (هامش).

العُباد وأهل الطرق الصوفية والمرابط فيه ينقطع لعبادة الله ويحبس نفسه عن مخالطة الناس ويدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد.⁽¹⁾

وبهذا أصبحت الأربطة معاهد ومؤسسات دينية⁽²⁾ تشبه الزوايا،^(*) غير أنها شكلت مواقع أمامية دفاعية في وجه العدو كان الهدف من تأسيسها هو الجهاد حيث يكون الطلبة جنودا وعلماء في نفس الوقت،⁽³⁾ لكنها لم تكن خاضعة لأي طريقة صوفية، بل كانت متفتحة على كل التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية،⁽⁴⁾ وجل مؤسسيها أو المشرفين عليها كانوا علماء دين.⁽⁵⁾

ونظرا لرغبة المسلمين عامة في الالتحاق بها والعلماء خاصة فإنها كانت عامرة دائمة الحركة، يقطنها ويقصدها الكثير من العلماء بغرض التعلم والتعليم، "فالورثياني" يقول: «كنت كل عام أصوم فيها رمضان (بجاية) ناويا للرباط، مع تعليمي الطلبة راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم...»⁽⁶⁾. كما أن روحها شغلت قبائل بأسرها فانضمت إليها.⁽⁷⁾

فهذه الأربطة كان لها دورا هاما في الحياة الدينية والعسكرية في المغرب وحتى الأندلس ضد التحرشات الإسبانية،⁽⁸⁾ التي لما اشتد خطرهما على السواحل اهتم بها العثمانيون كثيرا،⁽⁹⁾ خاصة بالغرب الجزائري لاستمرار التواجد الإسباني في وهران والمرسى الكبير،⁽¹⁰⁾ وقد كان لها دور كبير في تحرير وهران بعدما عملت على تضيق

(1) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج1، ص 303.

(2) - علي المحافظة، المرجع السابق، ص18.

(*) - رغم أنها تشبه الزوايا إلا أنها لم تكن تابعة لأي طريقة بل كانت متفتحة على كل التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية. - عبد المجيد مزيان، المؤسسات الثقافية...، ص18.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص272.

(4) - مزيان، طريق الذهب...، ص18.

(5) - البوعبدلي، الرباط والفداء...، ص 255.

(6) - الورثياني، المصدر السابق، ص18.

(7) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج1، ص404.

(8) - Dhina, Op. Cit, p 303.

(9) - المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء...، ص19.

(10) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 233. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص272.

الخنق على الإسبان، واستنزاف طاقتهم الحربية وإرغامهم على الاستسلام،⁽¹⁾ من خلال رباط جبل مرجاجو ورباط جبل المائدة ورباط الفتح الذي تجدد الاهتمام به عهد الباي محمد الكبير الذي أحياه خلال الفتح الثاني لوهراي عام 1792م، حيث جعل التعليم مقتصرًا على الرباط، وهذا تشجيعًا منه للالتحاق به من أجل الجهاد وقد وصفه ابن سحنون بقوله:

ورتب المرابطين في الجبل
وكل مقدم وهمام وبطل
مؤمرا شيخنا الجلال
محمد الأحق بالإجلال

وقد شارك في هذا الرباط عدة علماء منهم الطاهر بن حواء ومحمد المصطفى بن زرفة، والشيخ محمد بوجلل الذي كان يرأسه حيث كانوا يدرسون ويحاربون.⁽²⁾

فالأربطة لعبت دورا مهما في الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية، إلى جانب دورها الدفاعي العسكري، حيث برزت كمؤسسة عسكرية ودينية، تأسست بالدرجة الأولى من أجل الدفاع عن الحدود مع أداءها وظيفة التعليم، أين كان الطلبة جنودا وعلماء في نفس الوقت، ومكان للعبادة والخلوة والزهد. وبعد انتهاء الغزو الأجنبي تحول المرابطون إلى دعاة لنهضة دينية حديثة في شمال إفريقيا، وتحول معها الرباط إلى مؤسسة دينية حقيقية وهي الزاوية.⁽³⁾

و - المعمرات:

هي عبارة عن معاهد دينية لتعليم القرآن والعلوم عموما انتشرت في البوادي بمنطقة القبائل خاصة بعد الاحتلال الإسباني لها،⁽⁴⁾ وحسب "بوعزيز" فهي تشبه أحيانا الكتاتيب القرآنية وأحيانا تشبه الزوايا غير الخلواتية،⁽⁵⁾ وكثيرا ما آزرت الرباط في الحرب.⁽⁶⁾

(1) - صالح فركوس، الباي محمد الكبير ودوره في بعث الحركة الثقافية ببابك الغرب "الثقافة"، ع 71، 1982، الجزائر، ص 26.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 233.

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 53.

(4) - البوعبدلي، الرباط والفداء ...، ص 26، 27.

(5) - بوعزيز، أضاع المؤسسات، ص 20.

(6) - البوعبدلي، الرباط والفداء، ص 27.

كانت لها أحباس وقوانين داخلية محكمة تخضع لها، وهو الفرق بينها وبين الزاوية التي تخضع لشيخ الطريقة أو مقدمها، وفي حالة حدوث أي خلاف داخلي يتولى قدماء المتخرجين منها مهمة الإصلاح، وإرجاع الأمور إلى نصابها⁽¹⁾، فكانت المعمرة تسيّر ذاتيا وطلبتها ينقسمون إلى طبقات:

- القداش: هم التلاميذ الصغار.
- الطلبة: وهم فوق القداش سنا وثقافة.
- المقدمون والوكلاء والشيخ الكبار، وهي أعلى طبقة مهمتها تسيير المؤسسة التي يرأسها شيخ مسن يساعده عدد من كبار الطلبة والمقدمين والوكلاء، وبالإضافة إلى مهمة التعليم كانت تأوي المساكين وتقدم لهم المساعدات⁽²⁾، وقد انتشرت المعمرات في منطقة القبائل دون غيرها من المناطق مثل معمرة علي أو موسى^(*) بمعانة التي أنشأها سيدي محمد بن يوسف لتعليم أبناء المنطقة وبعد وفاته تولى إدارتها سيدي علي أوموسى وأخذت اسمه بعد ذلك⁽³⁾، ومعمرة سيدي عبد الرحمان اليلولي، معمرة سيدي يحي العيدلي، معمرة سيدي علي بن يحي ببني كوفي^(**)، معمرة فريحة ببني ورثيلان، معمرة الجعافرة ببني عيدل...⁽⁴⁾

2- الموارد المالية للسلطة الروحية:

تعددت مصادر دخل وعيش أفراد السلطة الروحية بين ما هو رسمي موثق كالوقف، وما هو غير موثق كالعشور والزكاة، ومداخل الشعائر والطقوس أو الإعانات التي تكون على شكل نقود أو بضائع أو مواد غذائية كالحبوب، الزيتون، والزيت، التين، حيوانات، ألبسة....⁽⁵⁾

فهذه المصادر كانت تتحصل عليها السلطة الروحية من الحكام أو من الأتباع والأهالي، والتي من خلالها يتم الإنفاق على القائمين عليها والموظفين والمتدربين بها،

(1) - نفسه، ص 27. - محمد سي يوسف، نظام التعليم...، ص 194.

(2) - محمد سي يوسف، نفسه، ص 194.

(*) - قدم من الساقية الحمراء من المغرب رفقة أخيه محمد الذي استقر ببني جعد.

Delpech, la Zaouia de Sidi Ali Ben Moussa, p81. (marge)

(3) - Ibid, pp81, 83.

(**) - تعرف حاليا باسم سيدي علي أويحي.

(4) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات.....، ص 21، 22.

(5) - يحي بوعزيز، "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، الثقافة، ع 63، 1981، ص 22.

من طلبة ومدرسين ومفاتي وقضاة وخطباء وأئمة، أو لصيانة مراكزها من مساجد وزوايا وأضرحة، وحسب المصادر فإن مداخلها كانت معتبرة وهو ما شكل ثروة طائلة للقائمين عليها.

2-1- الوقف:

يعتبر الوقف أحد مظاهر الحضارة الإسلامية، لأنه يستمد وجوده واستمراره من الأحكام الشرعية ومن تكافل أفراد المجتمع واستجابة لحاجة الفرد والجماعة.⁽¹⁾

الوقف لغة: جمع أوقاف، يعني الحبس والمنع، وعند الفقهاء هو حبس العين على ملك الواقف أو على ملك الله، والتصدق بالمنفعة.⁽²⁾ ويقال وقف الأرض على المساكين أي حبسها.⁽³⁾

الوقف اصطلاحاً: عرّفه أبي حنيفة على أنّه: «حبس العين على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعة على جهة الخير، وعليه لا يلزم زوال الموقوف عن ملك الواقف، ويجوز له بيعه أو الرجوع عنه» لأن الوقف عند أبي حنيفة جائز وليس لازم، ويصبح لازماً بشروط^(*) هي:

- أن يحكم الحاكم بلزوم الوقف: حيث لما يريد الواقف الرجوع عن الوقف ويختصم مع الناظر لأن الوقف جائز وليس لازم، فيتدخل الحاكم ويحكم بلزوم الوقف.
- أن يكون الوقف لمسجد، فإنّ الوقف يُصبح لازماً، ولا يجوز الرجوع فيه، ويلزم مؤبداً بالإجماع.
- أن يجعل الوقف ملزماً بوفاته، بأن قال: إذا مت فقد جعلت داري أو أرضي وقفاً على كذا، وفي هذه الحال يصبح الوقف لازماً، وتنطبق عليه أحكام الوصية.
- أمّا عند المالكية، فهو حبس العين عن أي تصرف تملكي، والتبرع بريعتها لجهة خيرية تبرعاً لازماً، مع بقاء العين على ملك الواقف مدة معينة من الزمان، فلا يشترط فيه

(1) - ناصر الدين سعيدوني، "الأوقاف بفحص مدينة الجزائر"، دراسات إنسانية، عدد خاص بالوقف، ماي 2001، ص30.

(2) - المنجد في اللغة والأعلام، (من حرف الباء إلى الصاد)، ط43، الطبعة المئوية الأولى، دار المشرق، بيروت، لبنان، د.ت، ص 914.

(3) - ابن منظور، المصدر السابق، ج09، ص 359.

(*) - وهناك من يضيف إلى هذا، أن يلزم الواقف نفسه بنفسه من خلال ذكره في وثيقة الحبس أنّ وقفه لايجوز بيه أو الرجوع فيه.

التأبيد، أما عند الشافعية والحنابلة فهو حبس العين للانتفاع به مع بقاء عينه وقطع التصرف في رقبة العين من الواقف وغيره، مع الانتفاع به وصرف ريعه على جهة بر وخير تقرباً إلى الله،⁽¹⁾ أي حبس الأصل وتسبيل المنفعة، عملاً بما قاله النبي "ص" لعمر بن الخطاب لما غنم مئة سهم بخبير، فأتى الرسول "ص" فقال يا رسول الله إني أصبت ما لا لم أصب منه قط، وقد أردت التقرب به إلى الله عز وجل، فقال له: «حَبَسِ الْأَصْلَ وَسَبَّلِ الثَّمَرَةَ».⁽²⁾ وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال: أصاب عمر أرضاً بخبير فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبت أرضاً بخبير لم أصب ما لا قط أنفس منها فكيف تأمرني به؟ قال: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا».⁽³⁾

فالوقف هو نوع من الصدقات الجارية بإجماع الفقهاء والعلماء المسلمين عملاً بالحديث النبوي: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».⁽⁴⁾

وللوقف شروط وأركان كالوقف الواقف، والموقف عليه، وصيغة الوقف كما له مقاصد كثيرة، كبقاء العقار والانتفاع به لمدة طويلة واستمرار النفع للواقف حياً وميتاً، والامتثال لأمر الله تعالى بقوله: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى»⁽⁵⁾ وقوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».⁽⁶⁾ فهو نوع من التكافل والتعاون بين الناس على البر والإحسان لكفالة الأيتام والفقراء، وهو يعبر عن إرادة الخير والتضامن عند الإنسان، كما أنّ الوقف على المؤسسات الدينية والثقافية والمرافق العامة يضمن استمرارها وبقائها من خلال صيانتها بأموال الوقف المستمرة.

فالأوقاف صدقة جارية تبقى أبدية لما عينت له لا يجوز التصرف فيها بالبيع أو المصادرة أو باسترجاعها، يسيرها مجموعة من الوكلاء تحت إشراف الشيخ الناظر،⁽⁷⁾

(1) - هبة الزحيلي، الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1998م، ص 135، 133.

(2) - رواه النسائي وابن ماجه، باب حبس المشاع.

(3) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوقف، والترمذي في سننه، كتاب الأحكام، باب في الوقف.

(4) - رواه مسلم في صحيحه، "باب الوصية".

(5) - سورة المائدة، الآية 02.

(6) - سور آل عمران، الآية 92.

(7) - Vayssettes (E), "Histoire des dernier beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Ahmed bey", in R.A., N°3, 1858, p116.

وغيرهم من الموظفين الذين يساعدونه في تسيير الوقف، والملاحظ هو أنّ القائمين على الوقف غالبا ما تحتكر عائلاتهم المنصب، خاصة بعدما وسع المجلس العلمي من صلاحياتهم.⁽¹⁾ حتى أصبحت إدارة الوقف متوارثة وإحدى وسائل القوة المادية لهم.⁽²⁾

لقد عرفت الجزائر ظاهرة الوقف قبل مجيء العثمانيين، لتشهد خلال فترة حكمهم تطورا كبيرا، وهذا لاعتبارات سياسية واقتصادية،⁽³⁾ ليصبح مؤسسة قائمة بذاتها لها هياكلها وتنظيماتها،⁽⁴⁾ تعتني بالخدمات العمومية، مثل الماء والطرق والتعليم، وأماكن رعاية الفقراء بهدف تحقيق التكافل الاجتماعي.⁽⁵⁾

كانت المؤسسات الدينية التابعة للسلطة الروحية تمّول من الوقف، فمن خلال عوائده تدفع مصاريف الصيانة ورواتب القائمين عليها.^{(6)(*)} لهذا اعتبر الوقف مصدر عيش الزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية ومصدر نمو للمساجد والمدارس والكتاتيب والقائمين عليها من علماء وطلبة.⁽⁷⁾

وتمثلت هذه الأوقاف في الأراضي الزراعية والأشجار المثمرة كأشجار الزيتون، التين، الخروب،.... ومحلات تجارية، وحمامات معدنية، والمساكن ومصانع النسيج والأفران....⁽⁸⁾ وحتى الكتب^(**) كانت توقف سواء من الحكام أو الأهالي، فهناك من يشتريها وهو جاهل لمحتواها، ويضعها في المساجد صدقة جارية تقربا من الله.⁽⁹⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2001م، ص 186، 187.

(2) - Raymond, Op. Cit, p84. - Devoulx, les édifices...p09.

(3) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 227.

(4) - Fella Moussaoui- El Kechai, Wakfs et Habous des Andalous à Alger durant la période ottomane, Rôle caritatif et humanitaire». Communication présentée lors du colloque International. "Sur le rôle des fondations Pieuses..." Aix. En-Provence. M.M.S.H C.N.R.S 13-15 Juin 2002.

(5) - Aumerat (F), "La propriété urbaine à Alger" in R.A, N°41, 1897, pp326, 327.

(6) - Devoulx (A), Les édifices..., pp1,2.

(*) - للمزيد حول أجور العلماء والواقع الثقافي ومساهمة الحكام في الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، ينظر: رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830م، ماجستير تاريخ حديث، جامعة بوزريعة، الجزائر، 2006.

(7) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 231.

(8) - أحمد مريوش وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص 23.

(**) - وجد في المساجد إضافة للمصاحف والكتب الدينية والصوفية، كتب مختلف العلوم (طب، أدب، تاريخ،....).

- سعد الله، نفسه، ص 256.

(9) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 298.

وكل هذه الأوقاف تتم وفق مبدأ شرعي وبصيغة قضائية وبحضور الواقف، والشهود، مع تحديد قيمة الوقف وأغراضه ونوعية الاستفادة منه وانتقاله، مع ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الشهود والقاضي عليه، وبهذا يلتزم كل من الواقف والمستفيد بما جاء في العقد (الوثيقة).⁽¹⁾

وحسب "أبو القاسم سعد الله" فالواقفون في الجزائر خلال العهد العثماني كان من كلا المذهبين الحنفي والمالكي، ومن كل الطبقات ومن كلا الجنسين،⁽²⁾ حيث لم يقتصر على الذكور فقط فحتى النساء كنّ يحبسن أملاكهنّ. وهذا إدراكا منهنّ لأهمية الوقف للفائدة العامة وتقربا من الله كذلك.

شهد الوقف خلال القرن 18م في الجزائر نموا كبيرا، ويرجع هذا إلى فتاوي العلماء التي شجعت على التحبيس خاصة على المذهب الحنفي، وتأثير رجال الدين والمرابطين وكذلك سياسية الحكام،⁽³⁾ الرامية إلى تحبيس أملاكهم فلا نكاد نجد باشا بقي في الحكم مدة طويلة نسبيا إلا ووضع أوقافا لما بناه من مسجد كان أو زاوية.⁽⁴⁾ أو بسبب تعسف هؤلاء الحكام ومدّ يدهم على ممتلكات الأهالي الذين اضطروا إلى تحبيس أملاكهم كوسيلة للحد من جور الحكام وأطماعهم بمصادرة ممتلكات الأهالي،⁽⁵⁾ لهذا فإن الأوقاف التي كانت بالمدن تتركز قرب المناطق التي يدين سكانها بالولاء للزوايا والطرق الصوفية وأغلبها وقف أهلي^(*) أو تنقاسمها المؤسسات الدينية.⁽⁶⁾

فالوقف الأهلي غالبا لما ينتهي عقب أو ذرية الموقوف عليها يرجع إلى جهة أخرى مثل المساجد أو الزوايا أو الأضرحة، مثلما جاء في وقفية السيد أحمد بن الحاج إبراهيم التي جاء فيها: «...أنّه حبس.... جلسة البيت المذكور ابتداء على نفسه... ثم

(1) - نفسه، ص 227، 228.

(2) - نفسه، ص 232.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، م.و.ك، الجزائر، 1985م، ص 192.

(4) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 233.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، ص 176.

- سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، ص 189.

(*) - الوقف الأهلي (الذري)، أو الخاص، مستمد من المذهب الحنفي ليسمح للواقف بالانتفاع بمردود الوقف هو وذريته، أما الوقف الخيري (العام) مستمد من المذهب المالكي يعود مردوده للجهة الموقوف عليها.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، ص 61، 62.

بعد وفاته يرجع ذلك على ذريته....ثم على ذريتهم وذرية ذريتهم...فإن انقرض الجميع فيرجع ذلك من يوم على ضريح عبد الرحمن الثعالبي.....»⁽¹⁾ أو ما جاء في وثيقة أخرى: «...أنّ السيد العالم أحمد بن الحسين.....قام بتحييس هذا الحانوت تحبيسا ذريا كان مرجعه لضريح عبد الرحمن الثعالبي»⁽²⁾.

كما وجدت أوقاف خيرية تعود لصالح المؤسسات الدينية والتعليمية والمرافق العمومية كالعيون والطرق أو لفئة معينة كأوقاف الأشراف والأندلسيين والجند، فمدينة الجزائر وحدها بلغت عدد أوقافها عند الاحتلال الفرنسي للمدينة سنة 1830م 2756 وقفا منها 1717 وقفا أهليا و 1039 وقفا خيريا.⁽³⁾

ونتيجة لتكاثر عدد الأوقاف عمدت السلطة التركية إلى تنظيمها وهيكلتها، وهذا بإنشاء إدارة محلية، يتولاها المفتي وينظر في أمورها المجلس العلمي،⁽⁴⁾ أشهرها ما قام به صالح باي عملا بنصيحة رجال الدين بعد التقصير والضرر الذي لحق بها، وهو ما تبينه وثيقة أمضاها أواسط ربيع الأول 1190هـ (1776م) جاء فيها: «...ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة، ولم يكن لهم اعتناء بالأوقاف وفرطوا في ذلك غاية التقریط...»⁽⁵⁾، حيث وضع للأوقاف أربعة سجلات واحد عند صاحب بيت المال، والثاني عند شيخ البلد والثالث والرابع عند القاضيين الحنفي والمالكي، كما وضع قانون يحاسب الوكلاء كل ستة أشهر وفائض الأوقاف يتصرف به العلماء المنعقد بهم المجلس العلمي كل سنة لصرفه لشراء عقار آخر.⁽⁶⁾ وهدفه من هذه التنظيمات وضع حد للإهمال الذي طال الأوقاف والتحايل عليها.⁽⁷⁾

(1) - س.م.ش، علية 1، وثيقة رقم 16.

(2) - س.م.ش، علية 132-133، وثيقة رقم 04.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر، ص 35.

(4) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، م.و.ك، الجزائر، 1988م، ص 43.

(5) - Feraud, les anciens établissements..., p123.

(6) - Ibid, p124.

(7) - ناصر الدين سعيدوني، "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني"، دراسات تاريخية، ع05، 1981م، ص 60، 61. المقال منشور كذلك في مجلة الأصالة، ع89-90، 1981م.

وقد توزعت الأوقاف الخاصة بالسلطة الروحية بين المساجد والمدارس والزوايا والأضرحة.

أ- أوقاف المساجد والمدارس:

أشهرها أوقاف الجامع الكبير التي تحتل المرتبة الثانية بعد أوقاف الحرمين الشريفين وتضم أغلب المساجد المالكية.⁽¹⁾

بدأ التحسيس به منذ عام 947هـ/1541م حيث كان رصيده حيسا واحدا ليرتفع ما بين 1800-1841م إلى 227 حيسا حسبما يوضحه الجدول.⁽²⁾

السنة	1540	1605	1651	1571	1751	1800
عدد الأوقاف	13	33	48	65	157	227

بلغت عدد أملاك المسجد الأعظم حسب تقرير فرنسي عشية الاحتلال الفرنسي 125 منزلا و 31 دكانا و 3 أفران و 19 بستانا و 107 إيرادا.⁽³⁾ أي 285 وقفا، في حين "سعيدوني" يذكر أنها بلغت 550 وقفا خاصا بالمسجد الأعظم فقط، دون المساجد المالكية الأخرى، وهذا مقارنة بأوقاف المساجد الحنفية التي بلغت أملاكها 331 وقفا.⁽⁴⁾ منها 40 عقارا من الأراضي فقط، منتشرة في كل من باب عزون وباب الجديد وباب الواد وعقارات أخرى لم يتم تحديد موقعها، لكنه لا يعطينا أسباب هذه الزيادة الكبيرة وفي فترة وجيزة..⁽⁵⁾ أما مجموع الأوقاف التابعة لمؤسسة الجامع الأعظم، فقد بلغت 1558 وقفا بمردود سنوي قدر بـ 43222.70 فرنك.⁽⁶⁾

(1) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث.... العهد العثماني، ص 190. - سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر، ص 34.

(2) - عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، المجلة التاريخية المغربية، ع05، 1980م، ص 19.

(3) - عبد الجليل التميمي، من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم ...، ص 160.

(4) - سعيدوني البوعبدلي، المرجع السابق، ص 25.

(5) - سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر، ص 44، 45.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، ص 208.

- ناصر الدين سعيدوني، "موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغربية، ع05، 1980م، ص 176.

وله أوقاف مشتركة مع الحرمين الشريفين،(*) قدرت بـ69 وقفا،⁽¹⁾ فهذه الأوقاف يصرف مردودها على 92 مسجدا مالکيا بمدينة الجزائر⁽²⁾ ويستفيد من مداخيلها بالجامع الأعظم فقط إمامان و19 مدرسا و18 مؤذنا و8 حزابين و13 قیما إضافة إلى أعمال الصيانة.⁽³⁾ ومن فائض عائدات أوقافه بنيت بقره زواية المسجد الكبير سنة 1039هـ/1630م وفيها مسجد دون مئذنة ومدرسة وزاوية ذات طابقين للمدرسين والطلبة.⁽⁴⁾

أما مؤسسة سبل الخيرات(**) التي تعنتي بالمساجد الحنفية البالغ عددها 08 مساجد^{(5)(***)} من مجموع 14 مسجدا حنفيا لها 331 وقفا منها 119 عقارا و212 عناء،⁽⁶⁾ بمردود سنوي قدر بـ16000 فرنكا، ونفقات بلغت 14583 فرنكا،⁽⁷⁾ حيث تدفع مرتبات حوالي 88 طالبا ملحقا بالمساجد التابعة لها.⁽⁸⁾ وتعمل على صيانة المساجد ودفع مصاريف القائمين عليها وإغاثة المحتاجين الأحناف.⁽⁹⁾ ومن فائضها تم بناء المسجد

(*) - قدر عدد أوقافها سنة 1835 بـ1558 وقف أي ¼ مجموع العقارات المحبسة بالجزائر بمدخول سنوي، 43.222.70 فرنكا.

Devoulx(A), Notes historiques sur les mosquées et", in **R.A**, N°4, 1859, p471.

- Devoulx (A), Notice sur les corporations religieuses d'Alger, typographies et lithographies Bastide Alger, 1862 p05.

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، 1998، ص244.

(2) - سعيدوني، الوقف ومكانته...، ص 64.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني-، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص187.

(4) - Devoulx (A), Les édifices religieux , pp123,124. - Emerit, L'état intellectuel, p05.

- سعيدوني / البوعبدلي، المرجع السابق، ص25.

(**) - يعود تأسيسها إلى سنة 999هـ/83-1584م من طرف شعبان خوجة. - سعيدوني، دراسات تاريخية في

الملكية...، ص208. - سعيدوني، الوقف ومكانته، ص 64.

(***) - الجامع الجديد، جامع صفر، جامع دار القاضي، جامع الشبارلية، جامع القصبه، جامع شعبان خوجة، جامع كتشاوة، جامع السيدة.

- Devoulx (A), Notes historiques sur les mosquées et", in **R.A**, N°5, p390.

(5) - سعيدوني البوعبدلي، المرجع السابق، ص 25.

(6) - سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية.....، ص 190، 191.

(7) - سعيدوني، النظام المالي.....، ص145.

Devoulx (A), Notes historiques sur les mosquées et", in **R.A**, N°05, p390.

(8) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص237.

(9) - Devoulx (A), notes historiques sur les mosquées et....." **R.A**, n°5, p390.

الجديد سنة 1070هـ/1660م⁽¹⁾ وترجع كثرة أوقافها رغم قلة عدد المساجد الحنفية إلى غنى الأتراك والكراغلة.⁽²⁾

في حين وجدت مساجد حنفية لها أوقاف خاصة بها كجامع ميزومورطو الذي كان له 130 وقفا، جامع عبيدي باشا 134 وقفا، جامع علي باشا 142 وقفا، جامع خضر باشا 139 وقفا سنة 1184هـ/1767م.⁽³⁾ وأما بقية المساجد فكان لها أوقافا خاصة حسب إحصاء عام 1834م لدوفو:

المؤسسة وتاريخ	تاريخ البناء	نوع الوقف
مسجد سيدي جامع ⁽⁴⁾		17 دكان، 05 منازل، غرفة، مطحنة، قطعة أرض، مدخولها 202.90 فرنكا
مسجد سني ⁽⁵⁾ مريم		3 منازل، 14 حانوت، مدخولها 1610.05 فرنكا
مسجد علي ⁽⁶⁾ بتشين	1032هـ 1599م	أرض، 3 منازل، 17 دكان، 3 غرف، مخبزة، مطحنة، حمام، مدخولها 1610.15 فرنكا.
مسجد سيدي الرهبي (الرحبي) ⁽⁷⁾		05 منازل، 10 حوانيت، مزرعة، حقل، بمردود سنوي 586 فرنكا.

أما بقية المساجد فأملأها موضحة حسب الجدول الآتي:⁽⁸⁾

المؤسسة	أوقافها داخل مدينة الجزائر	أوقافها خارج مدينة الجزائر
الجامع الجديد	7 حوانيت، 7 ديار، 3 علوي، 3 أجزاء من دار، 3 غرفة، بيت، إسطنبول، فندق، 2 مقهى.	جنة
جامع صفر ^(*)	8 حوانيت، 3 أجزاء حانوت، دار، جزء من دار، 3 علويات، بيتان، كوشة، مخزنين.	3 جنات، 2 قطعة أرض.
جامع شعبان باشا	3 حوانيت، جزء من حانوت، مخزنين، دار، جزء من دارن علوي.	

(1)- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 156. Devoulx (A), Les édifices religieux p140.
(2)- سعيدوني، الوقف ومكانته...، ص 64.

(3)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 244.

(4)- Devoulx (A), Les édifices religieux p17.

(5)- Ibid, p55.

(6)- Ibid, p 60.

(7)- Ibid, p 63.

(8)- جميل عقيل، حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر، أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية، دراسات إنسانية، عدد خاص بالوقف، ماي 2000م، الجزائر، ص 127، 134.

(*)- جامع صفر له أوقاف أخرى مسجلة على سجل الجامع الأعظم منها 10 حوانيت، 3 ديار، كوشة، حوش، فرن داخل مدينة الجزائر، 39 جنات و 3 أجزاء من الجنات، ¼ بحيرة، و ¼ رحي. - نفسه، ص 128

جامع كنتاوة	42 جلسة حانوت، 4 حوانيت، 4 ديار، عاء، حمام، 2 علوي، قهوة.
جامع حسين داي	5 ديار، جزعين من دار، كوشة، حمام، علوي، مخزين، جلسة حانوت، حانوت.
جامع علي خوجة	8 ديار، 3 أجزاء دار، 8 حوانيت، نصف حانوت، نصف فندق، كوشة، بيت.

أما الأوقاف الخاصة بالمدارس فقد أشارت وثيقة مؤرخة سنة 906هـ/1500م أن أوقاف مسجد ومدرسة سيدي أبي مدين بتلمسان كانت 09 بساتين، 04 مزارع، 02 قطعة أرض، 04 طاحونات، وحمام بتلمسان ونصف الحمام القديم بالمنصورة، إضافة إلى نصف بستان، منزلين، قطعة أرض (100 هكتار) وأخرى تقدر مساحتها بعشرين زويجة^(*) (200 هكتار).⁽¹⁾ أما مدرسة مازونة^(**) التي خصصت لها عائلة سيدي هني وقفا تمثل في (أراضي، حقول،...)، ووهبت لها أبقارا مولت بعائداتها الطلبة والعلماء والفقهاء القائمين عليها.⁽²⁾

ب- أوقاف الزوايا والأضرحة:

كان لبعض الزوايا عقارات عن طريق الهبات أو الوقف من طرف الأثرياء ورجال الدولة إضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من مداخيل نتيجة تقربهم من السلطة،⁽³⁾ والشيء نفسه كان لأضرحة المرابطين التي كانت تملك هي الأخرى عقارات وقفية وهبات نقدية.⁽⁴⁾

ففي منطقة القبائل نسبة الأوقاف المخصصة للمرابطين والزوايا بلغت 65% من مجموع 83% أما بمدينة الجزائر بلغت 15% من مجموع 78% لصالح الطرق الصوفية و30% للزوايا أما بتلمسان فبلغت 40% من مجموع 76% لصالح المرابطين والأشراف.⁽⁵⁾ وحسب "العيد مسعود" فإنه لم يكن يوجد ضريح أو زاوية إلا ويحيط بها عدد

^(*) - زويجة (الجادة)، هي مساحة أرض تتراوح ما بين 08 إلى 10 هكتار، (بحرثها ثوران).

⁽¹⁾ - Brosselard(ch) "les inscription arabes de Tlemcen" in R.A,N°03,1858,pp413-415

^(**) - باع الشيخ 30 هكتارا من الأراضي التي يملكها من أجل تأسيسها.

- يحي بوعزيز، المساجد العتيقة بالغرب الجزائري، E.N.E.P، الجزائر، 2002م، ص 201.

⁽²⁾ - نفسه، ص 205.

⁽³⁾ - Saidouni, Op. Cit, p302.

⁽⁴⁾ - Aumerat, Op. Cit, p328.

⁽⁵⁾ - Filali (K), l'Algérie mystique des marabouts fondateurs aux khwan insurgés XV-XIX^e, ed publisud, Paris, 2002, pp126, 127.

كبير من الهكتارات من الأراضي الخصبة التي تم حبسها لصالح هذه المؤسسات الدينية كالأضرحة وزوايا المرابطين والطريقين.⁽¹⁾ وهذه الأراضي الفلاحية التابعة للزوايا والمرابطين كانت تحرث وتحصد عن طريق تجند الأتباع وسكان المنطقة لجني المحصول عن طريق "التوزيع"،^(*) رغبة في نيل بركة المرابط.⁽²⁾

فمدينة الجزائر وحدها كان بها 12 زاوية و32 ضريحا منها ضريح داخل المدينة،⁽³⁾ وبلغ عدد أوقافها 305 وفقا منها 214 خاص بالأضرحة و91 وفقا للزوايا موزعة على النحو التالي:⁽⁴⁾

الزوايا				الأضرحة									المؤسسة
الأشرف	القشاش	كجاجة	مولاي الحسن	علي بن منصور	سيدي عمار التنسي	سيدي أحمد بن عبد الله	سيدي عبد العزيز	سيدي رمضان	سيدي الجودي	سيدي منصور	سيدي هلال	عبد الرحمن الثعالبي	المؤسسة
17	15	12	47	11	36	10	10	40	21	10	13	69	عدد الأوقاف
91				214									المجموع

وأشهر هذه الزوايا زاوية الأشرف التي أسسها الداوي محمد بكداش سنة 1121هـ/1709م وخصص لها أوقافا،⁽⁵⁾ وتعود أقدم وقفية للزاوية إلى سنة 1612/1613م

(1) - العبد مسعود، المرابطون والطرق.....، ص 16.

(*) - التوزيع (المعونة)، التي مازال معمول بها إلى يومنا هذا في بعض المناطق - وهي عمل تطوعي لفائدة الغير (شخصي، مسجد، زاوية....) لا تلزم الطرف المستفيد إلا بتقديم الطعام إذا سمحت إمكانياته وتكون من أجل بناء منزل أو جني محصول. هانوتو-لوتورنو، منطقة القبائل والأعراف القبائلية، تر. مخلوف عبد الحميد، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ج2، ص 508.

(2) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 110، 111.

(3) - Devoulx (A), Les édifices religieux, p03.

(4) - بودريعة، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك، ماجستير، جامعة الجزائر، 2007، ص 211.

(5) - Devoulx (A), notes historiques sur les mosquées et " in R.A., n°6, 1862, p264.

حيث حبس محمد كاتب دار الإمارة علويا وحانوت بحومة كجاوة للزاوية،⁽¹⁾ تتراوح عدد أملاك الزاوية ما بين 14 وقفا ما بين سنة 1768م إلى غاية سنة 1807م بمردود سنوي متباين من سنة إلى أخرى تراوح ما بين أكثر من 291 ريال كأدنى دخل سنة 1780م إلى أكثر من 472 ريال كأعلى دخل سنة 1807م، أما من سنة 1808م إلى غاية 1825م فقد تراوح عدد أوقافها ما بين 15 إلى 17 وقفية بمردود سنوي قدر بأكثر من 512 ريال كأدنى دخل سنة 1808م إلى أكثر من 547 ريال سنة 1820م.⁽²⁾

وكانت مداخلها تصرف على الصيانة وشراء الحصير والزيت للإنارة ودفع أجور المشرفين عليها من إمام ومؤذن ومعلم وغيره من الموظفين، وما تبقى يصرف على الفقراء وأسرى الأشراف عند افتدائهم.⁽³⁾

ويرجع التفاوت في المردود السنوي للأوقاف إلى العوامل المتحركة في الوقف خاصة العقارات الفلاحية التي تتحكم فيها عدة عوامل وكوارث طبيعية كالجفاف والفيضانات والزلازل، الجراد التي كانت تتعرض لها الجزائر باستمرار.^(*)

أما زاوية سيدي مولاي الحسن فقدرت أوقافها سنة 1832م بـ47 وقفا بمردود سنوي قدر بـ1668 ريال دراهم صغار.⁽⁴⁾

ويذكر "دوفو" (Devoulx) في كتابه عدة زوايا وأهم الوقفيات التي كانت تملكها حسب إحصاء عام 1834م.⁽⁵⁾

الزوايا	أملأها
زاوية وضريح سيدي يعقوب	6 حوانيت، بستان، حقل (مزرعة)
زاوية سيدي السعدي	مزرعة، 3 منازل، دكانين، مصنعين للفخار، بمدخل سنوي 255.60 فرنكا.
زاوية عمار التنسي	مزرعة، 9 منازل، بستانين، 14 حانوت، دكان، 3 مخابز، بمردود سنوي 222.370 فرنكا.

(1) - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص 85.

(2) - سجلات البايلك، سجل 335.

(3) - ياسين بودريعة، "زاوية الشرفة 1769-1848م نموذجا للمؤسسات الاجتماعية بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني"، الدراسات التاريخية، ع15-16، 2013م، ص 181.

(*) - حول هذه الظواهر الطبيعية ينظر: سعيدوني /البوعبدلي، المرجع السابق، ص 89، 90.

-القشاعي، الصحة والسكان...

(4) - بودريعة، أوقاف الأضرحة.....، ص 204، 205.

(5) - Devoulx (A), Les édifices religieux، p23- 36.

أما بالأرياف وخارج مدينة الجزائر فكانت زوايا الريف لها أوقافا (أراضي) يحرثها الناس ويعتقوا بها ومردودها يستعمل لصيانة الزاوية ودفع أجور المدرسين ومعيشة الطلبة.⁽¹⁾ فنجد مثلا زاوية سيدي علي مبارك بالقليلة كانت تملك عقارات وأراضي، يديرها الإخوان والخدام ويشرف عليها المرابط أو الشيخ أو المقدم أو الوكيل، ومردودها موجه لأعمال الصيانة والإنفاق على الطلبة وعابري سبيل والقائمين عليها.⁽²⁾

ونجد بمنطقة القبائل عدة زوايا منها زاوية سيدي علي أوموسى، التي لها أوقاف كثيرة منها 480 شجرة زيتون و340 شجرة تين وعدد من الأراضي،⁽³⁾ أما زاوية الحداد بصدوق والتي كان يدرس بها ما بين 200 إلى 500 طالبا، كانت لها أراضي مساحتها 502.525 هكتار وأملك كثيرة منها: 52 ضيعة فلاحية، و6 بساتين و14528 شجرة مثمرة أغلبها زيتون، 06 أحواش بها 41 غرفة، 15 دكان ومخزن للتجار، 03 رحوات، 03 إسطبلات، 01 معصرة زيتون، 01 مسجد، في حين زاوية كرزاز بوهراي كانت تملك 2270 رأس غنم، 393 معزة، 340 جملا، 73 حمارا، 14 حصانا، 396 عبدا زنجيا بين ذكور وإناث، 10 نخلات، 08 بنادق.⁽⁴⁾

أما الأضرحة فهي الأخرى كانت تملك الكثير من الأوقاف، فمدينة الجزائر وحدها كان بها 19 ضريحا منها 18 ضريحا داخل المدينة، أشهرها ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي⁽⁵⁾ الذي كان يملك 69 وقفا منها 11 عقارا بمردود سنوي قدر بـ6000 فرنك ومنها 13 عقارا غير مستغلة ولا يستفاد بها بل ومنها ما تعرض للهدم.⁽⁶⁾

غير أن "سعيدوني" في مراجع أخرى يذكر أن عدد أوقافه عشية الاحتلال الفرنسي كان 82 وقفا.⁽⁷⁾ وينفق منها على القائمين عليه: الناظر، 03 أئمة، وشواش، حزابين وقرأء⁽⁸⁾ منها حوالي 40 ملكية موزعة على 21 حانوتا، 3 ديار نصف دار، 3 دويرات،

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص266.

(2) - Saidouni, Op, Cit, p303.

(3) - Delpech, "La Zaouia de sidi Ali Ben Moussa, p83.

(4) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات.....، ص 23، 24. - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 40.

(5) - سعيدوني، أبحاث ودراسات... الفترة الحديثة والمعاصرة، ص 190.

- سعيدوني، دراسات وأبحاث... العهد العثماني، ص 159.

(6) - Devoulx (A), Les édifices religieux,..... p42.

- سعيدوني، موظفو مؤسسة الأوقاف.....، ص 177.

(7) - سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية.....، ص 191. - سعيدوني، الوقف ومكانته.....، ص 60.

(8) - سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة...، ص 64 (هامش).

03 علويات، 05 جنات، حوشان، فرن، مخزن، بيت، بمردود سنوي 9970.5 ريال دراهم صغار، حسب سجل مؤرخ سنة 1191هـ/1777م،⁽¹⁾ أما سيدي هلال فله 13 وقفا بمردود قدر بأكثر من 100 ريال،⁽²⁾ أما سيدي الجودي فقد قدرت أملاكه بـ21 وقف⁽³⁾ بمردود سنوي بـ100 فرنك حسبما أشار إليه "حمدان خوجة" أن فرنسا استولت «على معبد المرابطيين المسمى سيدي الجودي للاستفادة من أجره المتواضع الذي يقدر بمائة فرنك...»،⁽⁴⁾ أما ضريح عمر التنسي فقد بلغت سنة 1834م فقد بلغت حسب "دوفو" 30 وقفية موزعة على: مزرعة، 9 منازل، بستانين، 14 حانوت، دكان، 3 مخابر، بمردود سنوي قدر بـ222.370 فرنكا،⁽⁵⁾ أما ضريح سيدي محمد الشريف الزهار كانت له عدة أوقاف منها بستان بالأبيار وآخر خارج باب الواد، أما الولي دادة فقد بلغت أوقافه 09 أوقاف بمردود سنوي 401.5 ريال بوجو.⁽⁶⁾

كانت هذه الأوقاف الخاصة بالمؤسسات الدينية بالمدينة أو بالريف تستغلن طريق "التوزيع" أو الخدام وطلبة الزاوية وأحيانا تستغل عن طريق الكراء أو العناء^(*) ويتم تقييد ذلك بالوثائق مثلما جاء في عقد مؤرخ في 1214هـ-1799م: «الحمد لله هذه نسخة رسم تحببس عناء... بعد أن كانت دار الحداد المحبسة على الحرمين...خرجت وصارت بقعة... الشاب محمد بن أحمد... أخذها بالعناء بحيث أبذل فيها نصف دينار كل سنة....»⁽⁷⁾ كما يذكر في الوثائق كذلك كيفية انتقال الحبس إلى العناء مثلما جاء في الوثيقة المؤرخة 1239هـ/1823م «الحمد لله هذه نسخة رسم عناء البيوت الكائنة

(1) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص 191.

(2) - نفسه، ص 193.

(3) - نفسه، ص 195.

(4) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 288.

(5) - Devoulx (A), Les édifices religieux , p36.

(6) - سعيدوني، الأوقاف بفحص مدينة الجزائر، ص 64. (هامش).

(*) - العناء، هو إيجار الحبس، ويقصد به دفع أجرة سنوية مقطوعة عن أرض الوقف، بعد خرابها للجهة المتصرفة في ذلك الوقف، مقابل السماح للذي يدفع عنائها بالبناء عليها وهو ما يعرف بالمشرك بالحكر.

- مصطفى بن حموش، فقه العمران الاسلامي

من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549م-1830م، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2000م، ص 273.

(7) - م.ش، علبة 76، وثيقة 92.

براس تافورة ينقل هنا للحاجة إليه...بعد أن كان المكرم مصطفى الحنفي...حبس ووقف...جميع بناء البيوت المذكورات...على نفسه وبعده تلميذه...عثمان التركي...وبعد وفاته يرجع الحبس على الحرمين الشريفين...رام الآن وكيل الحرمين... وهو المعظم السيد علي خوجة ابن السيد مصطفى...دفع ساحة الأبيات المذكورات بالعناء لمن تقوم بهم من بناء وغيره ويودي له في كل عام....وأخبره بأن المعظم السيد يحي آغا الصبايحية.....أبذل في عناء ساحة الثلاثة الأبيات المذكورة ما قدره خمسة عشر ريالاً دراهم صغار....»⁽¹⁾.

من خلال الوثيقة نستنتج أنها كانت تحبب ولما انتقل إلى الحرمين الشريفين عجزوا عن القيام بالبناء في الساحات الثلاث فدفعها وكيل الحرمين بالعناء لآغا الصبايحية، مثل الآغا يحي الذي كان يستغل حوش المرباط ولي داه بالحراش ويقدم مقابل ذلك 100 بوجو (80 فرنك) سنوياً لوكيله سيدي الحاج حميدو.⁽²⁾

2-2- العشور، الزكاة، السفارة:

أ-العشور والزكاة:

هي ضريبة شرعية نصّ عليها ديننا الحنيف، تؤخذ من المحاصيل الفلاحية بنسبة العشر 10/1 وقد ترتفع هذه النسبة لتصل إلى ثمن 8/1 بدل العشر 10/1.⁽³⁾ وهي من الضرائب الشرعية اللازمة على الفرد، وتخص الحبوب، أما الزكاة فكانت تؤخذ على المواشي (أغنام، ماعز، جمال، أبقار،...)، تقدمها القبائل أو العائلات التابعة للزاوية التي تمتد إليها حماية الولي.⁽⁴⁾

فالعشور والزكاة هو كسب تتلقاه الزاوية في موسم معين، بعد جني المحاصيل الزراعية من حبوب، تمر، تين، زيتون،....⁽⁵⁾ يتم تقديمها للشيخ أو المرباط مباشرة، وهي

(1) - م.ش، علبة 55، وثيقة 49.

(2) - Klein, Op, Cit, p234. - Saidouni, Op, Cit, p303.

(3) - سهيل صبان، المرجع السابق، ص 155.

(4) - هانوتو/أ.لوتورنو، المرجع السابق، ص 89.

(5) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 113. - بن تونس، المرجع السابق، ص 101.

واجبة ومن لا يدفعها يستحق العقاب، وأحيانا تقدم نقدا بدل العشور والزكاة بعد بيع الحبوب والمواشي.⁽¹⁾

أما في الجنوب فكانت تؤخذ من القبائل تحت ما يسمى "الغفارة"(*) كانت تدفع لأولاد سيدي الشيخ، حيث تقدم لهم بعض القبائل ¼ الجمال المولودة في السنة، أما قبيلة شعانية برازقة فتقدم لهم 200 كبش و12 برونسا وغيرها من العطايا، أي ما قيمته 1500 فرنك.⁽²⁾

في حين عائلة مولى الشقفة كانت القبائل تدفع لها العشور من حبوب وأنعام وزيت،⁽³⁾ وأسرة آل مقران كانت تتلقى العشور بصفة غير منتظمة، أي تخضع للمحصول، وتكون في شكل حبوب وزيت، من قبائل بنو عمران، بنو سيار، أولاد بلعفو، بنو لقايد، بنو أحمد، بنو محمد، أولاد ساعد، وكذلك أسرة قاسم بن هاني بقسنطينة كان الناس يؤدون لها العشور والزكاة،⁽⁴⁾ وكذلك المرابط محمد بن الحاج الصحراوي بامدوكال ببانتة هو الآخر كان يتلقى الزكاة والعشور حيث يذكر الفكون أنه "اتخذ زوايا ورعايا تزكي عليه ويأخذ منها الجبايا والأعشار"⁽⁵⁾ وكذلك أسرة الفكون التي استفادت من العشر من الزرابي والخشب المجلوب من الأوراس⁽⁶⁾ إضافة إلى حصولها على هدايا وهبات عقارية.

فالعشور لم يكن يقدمها الأهالي أو القبائل فقط فحتى البايك كان أحيانا يقدمها للسلطة الروحية مثلما جاء في إحدى الوثائق المؤرخة في 1057هـ/1647م الصادرة عن الباي فرحات جاء فيها: «الحمد لله ليعلم من يقف على كتابنا هذا من القياد والعمال

(1) - Depont, Coppolani, Op, Cit, pp240, 241.

- Saidouni, Op, Cit, p302.

(*) - الغفارة: حسب المفهوم الديني فإنها نوع من النذر، حيث يلتزم الفرد بأداء قيمة مالية كل سنة لمن اعتقد فيه جلب المنفعة أو دفع مضرة، وبطول المدة تصبح ضريبة لقبيلة ذات سمعة دينية فيقال هذه القبيلة يغفرها أولاد سيدي فلان، أي يأخذون منها الغفارة أو القابض والمعطي لصاحبه أنت غفيري، أي بمعنى "خديمي"، وتكون من الإبل أو البقر أو الغنم، الصوف، السمن، عسل... الخ.

- مبارك بن محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، تح. تع. أبي عبد الرحمن محمود طه، دار الزاوية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 2001م، ص 398، 399.

(2) - Depont, Coppolani, Op, Cit, p244. (Marge).

(3) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, p76.

(4) - Ibid, p182.

(5) - الفكون، المصدر السابق، ص 118 و142.

(6) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 74.

والخاص والعام ببلد قسنطينة.... أما بعد فإننا أدينا عشور ما يأتي من جبل الأوراس من الفراش والجزمة للجامع الأعظم كما جرت العادة السابقة في حياة أولنا البايلا...»⁽¹⁾
ب- السفرة:

فتتم في مواسم معينة حيث يتم تحصيل المستحق من الأفراد والجماعات بأمر من الشيخ أو المقدم للشواش والوكلاء⁽²⁾ والطلبة وتلاميذ الزوايا والمعمرات والمشرفين عليها للخروج إلى الأقاليم البعيدة بجمع الأموال والصدقات والزيارات والزكاة والعشور في موسم جني الزيتون والزيت في الشتاء وجني الحبوب في الصيف موسم القديد (اللحم المملح) والزبدة في الربيع والزكاة في عاشوراء أو محرم⁽³⁾ وغيرها من المواد الغذائية، (دجاج، بيض، عسل)، وأحيانا النقود، والتي بفضلها تقدم خدمات للمسافرين وعابري السبيل، وخاصة في موعد الزردة⁽⁴⁾ أين يتم جمع المواد التي غالبا لا تستطيع الزوايا توفيرها.⁽⁵⁾

2-3- الشعائر والطقوس:

أ- الزيارة:

هي إحدى الطقوس التي تقام من أجل الانتساب إلى الزاوية التي دفن بها الولي أو المرابط، وهي نوعان زيارة تخص أضرحة المرابطين المحليين في المنطقة، وزيارة تتم على مسافات بعيدة للأولياء المشهورين ذوي التأثير على السكان، وتتم هذه الزيارة على مدار السنة.⁽⁶⁾

وهي «قصد مواضع جلس فيها الصلحاء أو دفن عندها، أوسميت باسمه به من أجل التبرك»⁽⁷⁾ أي قصد الأضرحة، والشخصيات الدينية والأماكن المقدسة⁽⁸⁾ كما تطلق كلمة "الزيارة" على ما يقدمه «الزائر للمزور من عين أو حبٍ أو خشب....»⁽⁹⁾ أي ما يأتي به

(1)- Vayssette, Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837 présentation de Ouarda Siari Tengour, Ed Bouchene, Alger, 2002, p82.

(2)- أبو القاسم سعد الله، التاريخ الجزائري الثقافي 1830، ج2، ص 285.

(3)- ناصر الدين سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص133.

- بوعزيز، أوضاع المؤسسات....، ص 23.

(4)- Daumas (E), La vie arabe et la société musulmane, Michel Levy frères, 1869, Paris, p443.

(5)- إيفون توران، المرجع السابق، ص 133.

(6)- Saidouni, Op, Cit, p296.

(7)- مبارك الملي، رسالة الشرك....، ص 338.

(8)- Rinn, Marabouts....., p15. - Daumas, la vie arabe...., p443

- Louis petit (R.P), Les confréries musulmanes, librairie B. Bloud, Paris, 1902, p57.

(9)- مبارك الملي، رسالة الشرك، ص 338.

الزائر للضرّيح أو الزاوية وصاحبها من أجل التبرك أو السؤال أو زيارة قبر الشيخ، حيث يقدم مبلغا من المال أو ملابس، مواد غذائية، حيوانات.⁽¹⁾ وهناك الزيارة التي تقدم له طلبا للشفاء حيث يقوم المريض بوضع مبلغ من المال حسب قدرته على ضرّيح المرابط أين يقوم المقدم بجمعها فيما بعد.⁽²⁾ ونوع الزيارة وقيمتها تعبر عن مدى حب الزوار وتقديرهم للشيخ⁽³⁾ فهي تتم بصفة طوعية كل حسب إمكانياته وثرواته،⁽⁴⁾ ورغم هذا فإن لا أحد يقدر أن يرفض دفع الزيارة.⁽⁵⁾

إلا أنه في بعض المناطق وعند بعض المرابطين من يجبر أتباعه على الزيارة، خاصة زيارة الجد الأكبر، مرة كل سنة وتقديم الزيارة التي شكلت ثروتهم،⁽⁶⁾ والتي غالبا ما شكلت عبئا ثقيلًا على الأتباع، عندما لا تخضع لمدى ثرائهم بل لاحتياجات شيخهم الروحي،⁽⁷⁾ حيث كان الزوار يجلبون له التمور، القمح، الفواكه، الزبدة، الجاوي، الشموع، ملابس الصوف، النقود وحتى الإبل،⁽⁸⁾ لكن هناك من الزوايا من ترفض الهدايا والزيارات من الزوار مثل زاوية آيث إيراثن، ومرابطي آيت عامر في تمازيرت.⁽⁹⁾

إضافة إلى الزيارات الدورية هناك زيارات موسمية، تكون مرتين في السنة في الربيع والخريف، حيث يتوجه الزوار وفي أيديهم الأعطيات نقدا أو عينا،⁽¹⁰⁾ أو تكون في مواسم يحددها الشيخ والمقدمون كمواسم الأفراح والزواج، وفي هذه الحالة تكون جماعية حيث تحدد الزيارات لكل فرد أو عرش أو قبيلة.⁽¹¹⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.....، ج4، ص 288.

- Daumas, Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Intrd de Abd-delkader djeghloul, Ed. ENEP, Alger, 2006, p213.

(2) - Aboubekr abdesselam ben choaib, " les marabouts guérisseurs", in **R.A.N**51, 1907, p255.

(3) - مريوش، المرجع السابق، ص 40. - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات.....، ص 23.

(4) - Rinn, Marabouts, p16. - Depont/Coppolani, Op, Cit, p244.

- Trumelet, l'algérie légendaire, A. Jourdan, Alger, 1892, p08

(5) - Andrée (P.J), Op. Cit, p61.

(6) - Daumas, Mœurs et Coutumes, p320.

(7) - Depont/Coppolani, Op, Cit, p239.

(8) - Daumas, Mœurs et Coutumes, p322.

(9) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ص 90.

(10) - التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1881-1939م، ط2، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، 2009م، ص 53.

(11) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.....، ج4، ص 285.

وبما أنّ زوار الأضرحة والزوايا لا يتوانون في تقديم الصدقات للضريح والتي غالبا ما فاقت هذه الزيارات مصاريف الضيافة التي تتفقه الزاوية، والتي بدلا أن تكون عبئا عليها، على العكس أصبحت مصدرا لإيرادات معتبرة،⁽¹⁾ مكنت شيوخ الزوايا والطرق وخدام الأضرحة من جمع أموال طائلة زادت من نفوذهم على أتباعهم.⁽²⁾ فقد أشار بعض الفرنسيين في هذا الصدد إلى أن الزيارات التي كانت تقدم للزوايا بعد الاحتلال الفرنسي قدرت بـ 3000.000 فرنك،⁽³⁾ وهذا يعتبر مبلغا معتبرا، ويعبر كذلك عن مدى ارتباط واعتقاد الأهالي في هذه المراكز وفي القائمين عليها.

ب- الحضرة: (*)

هي اجتماع للمعتقدين ببركة شيخ الزاوية بهدف ذكر الله والثناء على نبيه، وذكر مناقب مؤسس الطريقة.⁽⁴⁾ إضافة إلى كونها اجتماع للذكر من طرف الطلبة والأتباع القادمين من كل المناطق البعيدة والقريبة.⁽⁵⁾ فهي تصب في المنفعة المالية للزاوية أو الطريقة. لأنهم كانوا يأتون محملين بهبات ووعدات تقام مرة في الأسبوع أو في المناسبات الدينية⁽⁶⁾ أو مرة في السنة أو أكثر، يحضرها الشيخ بنفسه، تجمع فيها الأموال والأعيان (حبوب، ملابس، مواد غذائية،...).⁽⁷⁾

وقد وصف "الفكون" الحضرة وطريقة جمع الأموال بها «...واتخذوا الحضرة، وهي لعبة... يراؤون بها الناس، ولا يستخفون من الله بها. يأكلون ومنها يتمولون، وعليها في قضاء أوطارهم يعولون...»⁽⁸⁾ وفيها حتى الاختلاط بالنساء وهو ما نهى عنه الدين.

(1) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ص 88.

(2) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 53.

(3) - Depont-Coppolani, Op. Cit, p243. - Layer Ernest, Op. Cit, p25

(*) - ينظر: تعريفها كأحد أنواع الطقوس الصوفية، القسم الثاني.

(4) - Saidouni, Op, Cit, p296.

(5) - ساحي، الزاوية من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، عهد إمارة كوكو 1512-1767م، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2015م، ص 216.

(6) - نفسه، ص 216.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.....، ج4، ص 285، 286.

(8) - الفكون، المصدر السابق، ص 119.

ج- الوعدة:

تعني ضرب موعد عند مكان مقدس،⁽¹⁾ وهي طقس يقام على شرف الولي الصالح من أجل إبعاد الشر وتحقيق الأمانى والشفاء والنجاح.⁽²⁾

فهي طقس أو احتفال ديني يقوم به أفراد من سلالة الولي الصالح وأتباعه حيث يأتون بلوازم الوعدة من طعام ولحم وغيرها من المواد، أما الحاضرين للوعدة فيقدمون القرابين للولي للتوسل إلى الله ونصر المظلوم وتحقيق الأمنيات.⁽³⁾

ويعرفها "أحمد ساحي" بأنها: «إسهام وتعبير روحي مادي للقائد وشيخ الطريقة وزاويته وأسرته، وصحبه وزواره وخدمه» وهي متوارثة، مفتوحة لكل الناس من زوار، ومسافرين وعابري سبيل والفقراء...⁽⁴⁾

فهي عبارة عن طعم سنوي يأتيه الناس من كل مكان، ويقام فيه سباق ولعب ورمي، ويقوم المريدون خلال الوعدة بترديد الأذكار والمدائح والتهاليل والتكبيرات.⁽⁵⁾ كما تعالج فيها الكثير من القضايا كالإصلاح بين الناس والإعانة والإكرام والتصدق لتختتم بأدعية متداولة من طرف الشيخ والمقدمين والأعيان،⁽⁶⁾ وفي مقابل هذا كانت تقام فيها أسواق محلية للتعريف بمنتجات المنطقة وتبادل السلع، وعادة ما كانت تقام الوعدة بالموازاة مع تاريخ وفاة الولي الصالح وتسمى باسمه "وعدة سيدي فلان".

وحسب "الفكون" فهناك من مدعي الولاية من كان يطلبها من الحكام لإعطائهم الوعدة أو يسيرون إليهم نقباءهم، ويتوعدون من يرفضها بالموت والخسران في الحرب وإن حدث ذلك اعتبروه من كرامتهم ومناقبهم،⁽⁷⁾ ومنهم من كان يأخذ الوعدة من الناس مثل رجل يدعى مخلوف حيث كان يهوم في الأسواق ويجعل له من يحمل ما جمعه من الجزارين وبياع الفواكه وغيرهم، كما يأتيه أهل البادية بوعائد مختلفة كل على قدره من

(1)- Daumas, la vie arabe....., p446.

(2)- Dermenghem (E), le culte des saints dans l'islam maghrebin, Gallimard, Paris, 1984, pp152, 153.

(3)- معاشو بوشمة، تراث وثقافة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2002م، ص 23.

(4)- ساحي، المرجع السابق، ص 223.

(5)- سي فوضيل، المرجع السابق، ص 369.

(6)- سي فوضيل، نفسه، ص 369.

(7)- الفكون، المصدر السابق، ص 124.

الخروف إلى الكبش ومن الدراهم إلى الريال ومن القمح إلى السمن، أما التجار فيجعلون له نصيباً من بيعهم.⁽¹⁾

هذه الوعدة تخص الأولياء والأضرحة ويحضر فيها جمع كبير من كل الجهات، إلا أنه هناك نوع آخر من الوعدة والتي تخص فرد أو أفراد معينين، حيث تعتبر نوعاً من النذر الذي يقدم فيه العطاء وفاءً بوعده قطع في ظروف صعبة ألزم صاحبه نفسه الوفاء به،⁽²⁾ كأمراة عاقر ترغب في الإنجاب أو مريض يرغب في الشفاء أو يقدم نذر بغرض قضاء حاجات متعددة،⁽³⁾ كأن يأخذ وعداً بإطعام 100 محتاج إذا وضعت زوجته صيباً.⁽⁴⁾ وهي من العادات والممارسات الأنثروبولوجية، التي مازالت شائعة إلى يومنا هذا في الأوساط الاجتماعية الجزائرية.

ويعرفها "مبارك الملي" على أنها نذر: «...لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات... معتقدين أن نذرهم يقربهم من المنذور له، وإن تحقق وحصلوا على غرضهم، بذلوا قصارى جهدهم للاحتفال والوفاء له».⁽⁵⁾

وهذه النذور أنواع كأن توضع أغراض على ضريح الولي أو داخله أو يقدم على شكل قربان (ذبيحة) جمل، كبش، ثور، حيث يذبح على الضريح⁽⁶⁾ أو ماعز ودجاج وكسكس، وتقدم لكل من يقصد الزاوية أو الضريح⁽⁷⁾ وهناك وعدات تقوم بها القبائل سنوياً أو في الموسم لبعض الأماكن المقدسة،⁽⁸⁾ حيث يقومون بها عند ضريح الولي من أجل إبعاد الشر وتحقيق الأمنيات والشفاء والنجاح.

وبالتالي فهذا النوع من الوعدة عبارة عن نذر أو تعهد بتقديم هدية في حالة تحقق طلب الزائر، ويكون ملزماً له بالعودة ثانية للضريح حاملاً معه ما وعد به في حال تحقق مراده، ويقدمه مرة واحدة أو يبقى مستمراً في وعده حتى وفاته.

(1) - نفسه، ص 174، 175.

(2) - Daumas, la vie arabe....., p446. - Saidouni, Op, Cit, p296.

(3) - سعيدوني، في الهوية والانتماء، ص 130.

(4) - سي فوضيل، المرجع السابق، ص 182.

(5) - مبارك الملي، رسالة الشرك، ص 397.

(6) - Rinn, Marabouts, p16, (marge). - Petit Louis, Op, Cit, p59.

(7) - Saidouni, Op, Cit, p296.

(8) - Rinn, Marabouts, p16. (marge).

د- الزردة:

«هي طعام يتخذ على ذبائح من بهيمة الأنعام عند مزارات الأولياء من يعتقد فيهم الصلاح» ولها وقتان فصل الخريف عند الاستعداد للحرث وفصل الربيع عند جمع الغلة، الغرض منها التقرب لذلك الولي كي يغنيهم بالمطر تسهيلا للحرث أو حفظا للغلة فيقولون زردة سيدي فلان أو طعام سيدي عبد القادر مثلا.⁽¹⁾ حيث يقوم فيها الوكلاء بالتجول بين القبائل لجمع ما تيسر من الأموال والمواد الغذائية، والمواشي لتحضير الوليمة.⁽²⁾ أما "رين" فيقول أنها تجمع ديني عند قبر أو قبة الولي في ذكرى مولده أو وفاته يكون مقرونا بوليمة⁽³⁾ وتكون بإشارة من الشيخ، أين يجتمع الناس لإقامة الولائم والأفراح.⁽⁴⁾ وتقام كل سنة مرة واحدة، حيث يجتمع فيها كل فئات المجتمع ومنهم من يقصدها في مجموعات من نساء ورجال وأطفال وخدم، وتقام بشكل احتفالي تستعمل فيه الطبول والغيطة.... وتشعل الشموع في الضريح والبخور وقراءة القرآن،⁽⁵⁾ وتجمع فيها الصدقات وتقام الصلوات ويقدم الأكل في شكل ولائم جماعية، وتباع فيها التمايم والأشياء التي باركها الشيخ.⁽⁶⁾

وكان لكل ولي زردة، خاصة به، مثل زردة سيدي يخلف تقام شهر سبتمبر وسيدي علي الشريف في أكتوبر وسيدي حمود في مارس وسيدي موسى بن ناصر شهر جويلية وسيدي الحبشي شهر أوت.⁽⁷⁾ وغالبا ما تقام هذه الزردة دفعا للكوارث كالطاعون والجفاف،⁽⁸⁾ فهي تخص غالبا كل ما يتعلق بالأرض وخدمتها، لأنها كانت مصدر عيشهم الوحيد لذلك كانوا حريصين على خدمتها، وعند حلول الكارثة يقيمون الزردة حتى تزول عنهم فيجمعون ما يلزمهم لها من مواد غذائية ومواشي ثم يقومون بتحضير الوليمة والصلاة والدعاء، حتى تزول نكستهم وحسب الميلي، فتلك الذبائح التي يذبحونها ويذكرون اسم الله عليها لكن نيتهم الذبح للولي الصالح، حيث يقومون بالزردة عند قبره أو

(1) - مبارك الميلي، رسالة في الشرك، ص 379، 380.

(2) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 40.

(3) - Rinn, Marabouts, p85. (marge)

(4) - فاطمة الزهراء سيدهم، "مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني"، المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، بلعباس، الجزائر، 2009، ص 24.

(5) - Daumas, la vie arabe....., pp 444, 445.

(6) - Rinn, Marabouts, p85.

(7) - Dermenghem, le culte..., pp196, 197.

(8) - مبارك الميلي، رسالة في الشرك، ص 380، 381.

ضريحه ولا يرضون مكانا آخر وتسمى باسمه، وإذا نزل المطر نسبوه إلى الولي وقوي اعتقادهم فيه.⁽¹⁾

2-4- الضرائب:

لقد كانت الضرائب إحدى المصادر المالية للسلطة الروحية فمثلا أشرف مليانة كانوا يفرضون المغارم على القبائل المجاورة،⁽²⁾ وأولاد مقران كذلك كانوا يأخذون الضرائب من القبائل حسب ما ذكره "الورثياني": "ولده هو الذي بنى قلعة بني عباس وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر... وأخذ المغارم في القرن العاشر".⁽³⁾ والشئ نفسه كان بالنسبة لعائلة المرابط مولى الشقفة التي كانت تفرض المغارم على القبائل كأولاد بوعافية، بنو سيار، بنو معمر، بني صالح وغيرها من القبائل الواقعة شرق جيجل،⁽⁴⁾ أما التيجانية فكانت هي الأخرى تقوم بجباية الضرائب على المناطق الجنوبية الشرقية لفائدتها.⁽⁵⁾ ومرابطي القنادسة كانوا يفرضون إتاوات على القبائل حتى يضمنوا سلامة مرورها.⁽⁶⁾ أما الذين كانوا يقومون بدور الوساطة بين السلطة والسكان فكانوا يأخذون نصيبا من الضرائب،⁽⁷⁾ التي كانوا يجمعونها لصالح البايلك، فمثلا أسرة الفكون كان لها جزءا من الضرائب المجباه على سوق الفواكه والخضر إضافة إلى فائض أوقاف الجامع الكبير.⁽⁸⁾ أما إمارة كوكو التي تزعمتها عائلة آل القاضي المرابطية فقد كانت لها أسواقا خاصة هي الأخرى تأخذ عليها الضرائب (المكوس) مثل: سوق السبت ببني يحي، سوق الخميس بإيلولة، سوق الأحد ببني بوشعايب الصوامع، جمعة الصهاريج وغيرها من الأسواق التي تقوم بكرائها أيضا.⁽⁹⁾

⁽¹⁾ - Saidouni, Op, Cit, p296, 297.

⁽²⁾ - مرمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 326.

⁽³⁾ - الورثياني، المصدر السابق، ص36.

⁽⁴⁾ - Babes, Op, Cit, p14.

⁽⁵⁾ - Filali(K), sainteté maraboutique et mysticisme, Contribution A L'étude du mouvement Maraboutique en Algérie sous La Domination Turque, in **Insanyyat**, N°3, 1997p139.

⁽⁶⁾ - دوتي، المرجع السابق، ص130.

⁽⁷⁾ - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم...، ج3، ص303.

⁽⁸⁾ - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 47، 66.

⁽⁹⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 139، 140.

أما بالجنوب فكان أتباع الزاوية يقدمون ما يسمى "الغفارة" وهي عبارة عن مزود مملوء بالقمح والتمر يكفي مؤونة طريق، تقدم على كل فرد من القبيلة بلغ سن 18 سنة.⁽¹⁾

كما كان بعض العلماء ورجال الدين بمدينة الجزائر يتحصلون على جزء من الضرائب (الجزية) المفروضة على اليهود في المناسبات. وكان المفتي الحنفي أكثر المستفيدين منها حيث يأخذ 80 صائمة والمفتي المالكي 50 صائمة.⁽²⁾

2-5- الهدايا والعطايا:

هي عطايا من أرزاق وكسب أهل البر والصلاح والملتزمين، للشخص المرجو بركته،⁽³⁾ أو هي مبالغ مالية تدفع بصفة دورية لبعض الزوايا⁽⁴⁾ أو إعانات سنوية تتألف من الزيت والشمع والبخور والسجاد،⁽⁵⁾ وحتى الأسرى فنجد الرايس حميدو لما أسر سفينة حربية برتغالية سنة 1799م قدم أسيرا هدية لضريح عبد الرحمن الثعالبي،⁽⁶⁾ كما قدم أيضا أسيرا لنفس الضريح سنة 1802م، عندما أسر سفينة حربية برتغالية.⁽⁷⁾

كما استفادت كذلك الزوايا بمنطقة القبائل من الهبات والعطايا التي يقدمها أحفاد الولي الصالح، والتلاميذ الذين يقصدونها أو من القبائل التي أعفتها السلطة من الضريبة مقابل خدمة،⁽⁸⁾ إضافة إلى الإعانات والهدايا المقدمة من الأثرياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية، وحيوانات وأدوات وألبسة، مفروشات وهذا بصفة دورية.⁽⁹⁾ التي قدرت بعد الاحتلال الفرنسي بـ300.000 فرنك.⁽¹⁰⁾

كما أن الطلبة المنتسبين للزوايا يدفعون المال حيث يقول الزواوي «ومن قواعد الانتساب إليها والسكن بها أن يدفع الطالب قدرا صغيرا من الدراهم، ثم هو لا يدفع شيئا

(1) - مريوشو آخرون ، المرجع السابق، ص 114.

(2) - Boyer, la vie quotidienne, pp79, 80. - Devoulx, Tachrifat, p51.

(3) - أبو يعلى الزواوي، تاريخ الزواوة، تع. سهيل الخالدي، ط2، وزارة الثقافة، الجزائر، 2005م، ص 118.

(4) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 53.

(5) - سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية.....، ص 246

بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة، 209 - Devoulx(A), le rais Hamidou; Adolphe Jourdan, Alger 1859, p85

(7) - Ibid, p76.

(8) - إيفون توران، المرجع السابق، ص 133.

(9) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات.....، ص 23.

(10) - Depont-Coppolani, Op. Cit, p243. - Layer ernest, Op. Cit, p25.

بعد ذلك إلا تطوعا، ولو مكث فيها عمره كله»⁽¹⁾ وقد قدر ما يدفعه الطلبة للزوايا بعد الاحتلال الفرنسي ما قيمته 1500.000 فرنك،⁽²⁾ أوقد يجلب معه الشعير أو القمح أو العسل، ثم لا يدفع شيئا طول مدة دراسته.⁽³⁾ أما المريد فيقدم هدية للزاوية عندما يتم حفظ القرآن أو عندما يرتكب خطأ بخرقه لقوانين الزاوية، أو عندما يقصر في واجباته يغرم ويسمى "بالغفار"،⁽⁴⁾ فهو ملزم بدفع التزاماته المالية للطريقة خوفا من عقاب الشيخ وغضبه أو بدافع وجداني روحي حبا في الطريقة.⁽⁵⁾

إضافة إلى هذه الهدايا والعطايا التي يقدمها الأثرياء من المسافرين والزائرين كانت تأتيها أحيانا هدايا من جهات بعيدة، وذات قيمة قدرت بداية الاحتلال الفرنسي ما بين 50 إلى 100^(*) دورو (ريال بوجو).⁽⁶⁾ فمثلا ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي كان يتلقى إعانة سنوية تأتيه من تونس تتمثل في حمولة زيت الزيتون،⁽⁷⁾ كما أن بعض أفراد السلطة الروحية كانوا يتلقون كذلك مبالغ مالية من تونس حسب ما جاء في وثائق الأرشيف التونسي، حيث منح حاكم تونس سنة 1172هـ/1758م 20 ريال للمرابط عبد القادر من أولاد سيدي بلغيث، لأنه وقف ضد باي قسنطينة في استخلاص ما له على القبائل التونسية ومنح في محرم 1173هـ/1759م المرابط علي بوعكاز وتلاميذه القادمون من الحجاز 20 ريال أما طلبة المرابط سيدي سليمان المجذوب فمنحهم 60 ريال، وفي رجب من عام 1173هـ/1759م منح 10 ريالات لكاتب باي قسنطينة أحمد بن طيبة.⁽⁸⁾

كما كان العلماء بالمدن يتلقون الكثير من الهدايا والعطايا العينية والنقدية في المناسبات فمثلا عند ختان ابن الداوي مصطفى وزع الأموال على الحاضرين وعلى أهل

(1) - الزواوي، المصدر السابق، ص 117.

(2) - Depont/Coppolani, Op. Cit, P243. - Layer Ernest, Op. Cit, p25.

(3) - Saidouni, Op. Cit, p317.

(4) - Petit Louis, Op. Cit, pp58, 59.

(5) - العيد مسعود، المرابطون.....، ص 14.

(*) - أي ما بين 250 فرنك إلى 500 فرنك. - Daumas, la vie arabe....., p452.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p302. - Daumas, la vie arabe....., p452.

(7) - سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية.....، ص 278. - سعيدوني، دراسات وأبحاث..العهد العثماني،

ص190. - Tableau de la situation....., p222.

(8) - الأرشيف التونسي، دفتر 2144، ورقة 156، 160، 176.

المدارس والزوايا حيث أعطى كل واحد 10 محبوب.^{(1)(*)} وفي المناسبات الدينية مثل المولد النبوي، وهو ما توضحه رسالة من المرابط سيدي علي بن عمر إلى الداوي حسين باشا، يخبره فيها بتلقي الصدقات التي أرسلها وتم توزيعها ليلة المولد النبوي على الفقراء والعلماء،⁽²⁾ أما في شهر رمضان والعديد من وكان الداوي يقدم للمساجد هدايا تتمثل في القمح، الزيت، الكباش،⁽³⁾ كما يحصل كتاب المجلس العلمي في شهر شعبان على ريالين،⁽⁴⁾ أما كاتب الباشا (الرقمجي) فقد كان يتحصل على:⁽⁵⁾

عوايد عيد الأضحى على من:	
الباشا	100 ريال (2) قنينتين عصير ليمون
آغا العسكر	50 ريال، كبش
خوجة الحبوب	25 ريال، قنينة عصير ليمون
آغا العرب	كباشين، قنينتين من عصير الليمون
من كل واحد من القياد الخمس	كباشين، صحنين حلوى (المقروط)، قنينتين من عصير الليمون 06 دجاجات 50 بيضة
خوجة الجلد	كبش
شيخ البلد	كبش وكذلك يحصل على كبش من كل من أمين الجواجلة والمحتسب ، أمين بني مزاب، قائد العبيد وقائد سيباو
قائد بن عزيز	4 كباش
عيد الفطر يتحصل على:	
الباشا	6 دجاجات، 50 بيضة
القياد	100 ريال وكباشين كل سنة
قائد سيبا	جرتين زيت زيتون

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 83.

(*) - عملة ذهبية وزنها 3 غرامات.

(2) - Devoulx(A), "lettres adressées par les marabouts arabes au pacha d'Alger," in R.A, N18, 1874. pp172, 174

(3) - Boyer, la vie quotidienne, p79.

(4) - Devoulx, Tachrifat, p36.

(5) - Ibid, p37.

وهذا النوع من الهدايا والعوائد يحصلون عليه حتى في غير المواسم مثلما تشير إليه إحدى الرسائل التي أرسلها المرابط علي بن عمر إلى الداي حسين يخبره بوصول المبلغ الذي أرسله للزاوية، وأنه تم توزيعه على الفقراء والطلبة وقراء الحزب الذين دعوا للباشا بالخير.⁽¹⁾

كما جاء في دفتر تشريفات حسب وثيقة مؤرخة 1170هـ/1757م تذكر بعض الهدايا والعوائد القادمة من المدينة لصالح كل من:⁽²⁾

الجهة المستفيدة	قمح (الصاع)	شعير (الصاع)
- إمام المسجد الكبير	6	6
- المؤذن	2	2
- المفتي	4	4
- إمام المسجد الحنفي والمؤذن	5	5
- مسجد سيدي رمضان	1	1
- مسجد عبدي باشا	1	1

أما مدرس مدرسة الآغا كان يحصل سنويا على 80 كيس شعير من غلة أرض تدعى "الخريبة" Khoriba.⁽³⁾ كما يحصل الطلبة كل شهرين على هدايا تقدر بـ102 محبوب،⁽⁴⁾ كما يحصل كتاب الباشا الثلاث على ريال واحد شهريا حسب وثيقة مؤرخة ما بين 1680-1707م،⁽⁵⁾ ولهم 1000 صائمة من فدية أربع كفار، والرقمجي يأخذ ¼ ريال عن فدية كل كافر أما كتاب البحرية فلهم ثمن 8/1 ريال، أما المكتابي والدفتر دار يحصلان من الفدية على ريال واحد،⁽⁶⁾ كما يتلقى الخوجات وخدام المحكمة هدايا أثناء زيارة البايات عند تأدية الدنوش، وما تبقى من الدراهم يقدمها البايات للباشا كاتب الكبير،⁽⁷⁾ وأثناء استقبال القناصل رفقة بقية الخوجات الآخرين.⁽⁸⁾ أما الإمام في القرية فكان يتلقى هدايا عينية مثل الشعير، القمح، التين، الزيت، و تقدم له نصف ½ أو ثلث

(1)- Devoulx, "lettres adressées...", pp267, 269.

(2)-Devoulx, Tachrifat, p57.

(3)- Boyer, la vie quotidienne, p79.

(4)-Devoulx, tachrifat, p39.

(5)- س.ب، سجل 68، علبة 12.

(6)-Devoulx, Tachrifat, pp58, 59.

(7)- الزهار، المصدر السابق، ص 43.

(8)- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص 232.

3/1 زكاة الفطر،⁽¹⁾ في حين المؤدب كان يحصل على هديته في كل عيد قدرت بـ5 فرنك.⁽²⁾

أما أضرحة المرابطين كسيدي عبد الرحمان الثعالبي والولي دادة وسيدي يعقوب بمدينة الجزائر فقد اقتطع لهم حصة من غنائم البحر توزع عليهم أثناء المولد النبوي من طرف الكاتب الأول، حيث تقسم على 36 مرابطا، فحسب وثيقة مؤرخة 04 ربيع الثاني 1114هـ/1702م منهم 18 مرابطا لهم حصتين منهم سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ولي دادة، سيدي يعقوب، سيدي عمار التنسي،... سيدي هلال... أما الأقل شهرة وهم 17 مرابطا لهم حصة واحدة مثل سيدي علي الفاسي، سيدي زواوي،.....⁽³⁾ وهذه الحصص يختلف مقدارها من سنة لأخرى حسب الجدول التالي:⁽⁴⁾

السنة الأضرحة	1743	1785	المجموع
الأضرحة ذات حصتين	25.4 ريال دراهم صغار	13.5 ريال دراهم صغار	648 ريال دراهم صغار
الأضرحة ذات حصة واحدة	12.7 ريال دراهم صغار	6.76 ريال دراهم صغار	345 ريال دراهم صغار

أما في الغرب الجزائري نجد الباي محمد الكبير أجزل العطايا والهدايا للعلماء، حيث كان يوزع على الأئمة والخطباء والمدرسين وغيرهم في الأعياد والمواسم المال ما بين دينار وثلاث دنانير لكل منهم.⁽⁵⁾ كما كان يكافئ من ينسخ أو يؤلف كتاب حيث يقول ابن سحنون: «كم من تأليف نشأ بأمره ونال به مؤلفه به وافر بره» فقد أمر بعض الطلبة بجمع فتاوي العلماء في حوائز الملوك وكافئهم بـ70 دينارا، كما أمر ابن سحنون باختصار كتاب الأغاني فاختره في 80 كراسة فجاز به 10 سلطاني وعلى جمعه لكتاب طب القاموس 50 سلطاني،⁽⁶⁾ كما يذكر أبي راس الناصري أنه أهداه 100 محبوب لما

(1) - هانوتو - أ. لوتورنو، المرجع السابق، ص 38.

(2) - Emerit, l'état....., p04.

(3) - Devoulx, Tachrifat, p47.

- Boyer, contribution, p21 . - Boyer, la vie quotidienne..., p81.

(4) - بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة....، ص 209.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 329.

(6) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 145.

رجع من الحج «لما أتيت من الحج سنة سبع وعشرين أعطاني مائة محبوب جعله الله يوم القيامة مقرباً ومحبوياً».⁽¹⁾

إضافة إلى هذه المصادر هناك مصادر دخل أخرى خاصة بأفراد السلطة الروحية فمنهم من كان يملك أملاكاً خاصة ويمارس أفرادها التجارة وبعضهم يملك عقارات وأراضي استطاعوا بفضلها تكوين ثروة⁽²⁾ وقاعدة اقتصادية مستقلة نسبياً عن السلطة،⁽³⁾ مثل عائلة سعيد قدورة التي كانت لها أرض ومشاركات تجارية مع أهل البلد حتى أنه لا ينفق على نفسه من دخل أوقاف الجامع الأعظم، ويدفع لمن كان ينوب عنه في الخطبة والصلوات من ماله الخاص،⁽⁴⁾ وكذلك عائلة الفكون التي كانت تملك أراضي بأولاد جبار⁽⁵⁾ التي تقدر مساحتها بـ13000 هكتار.⁽⁶⁾

كما نجد الشيخ أحمد بن علي بوعكاز منح سنة 1581م عدة إقطاعات للمرابطين كعائلة سيدي عيسى وعائلة سيدي سحنون وعائلة سيدي زكري، والمرابط سيدي دحو الذي كان يملك ثلث 3/1 أراضي أولاد سيف جنوب شرق قسنطينة.⁽⁷⁾ أما بغرب البلاد فقد ذكر "الوزان" أنه مكث ثلاث أيام عند أحد المرابطين^(*) بالبطحاء بتلمسان، وهو من عمر سهل البطحاء بعدما كان خالياً، وحرث أراضيهِ حتى وصلت عشور أراضيهِ 8000 كيل من القمح وله 500 من الخيل ذكورا وإناثا و10 آلاف رأس غنم و2000 من البقر، وتصل مقدار النذور والصدقات التي تصله ما بين 4 إلى 5 آلاف متقال.⁽⁸⁾

ومنهم من كان يمارس التجارة مثل ابن حمادوش الذي كان يتردد على المغرب للتجارة والعلم كما أشار في رحلته،⁽⁹⁾ وحتى التيجانية اعتمدت على التجارة كوسيلة

(1) - محمد أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 76.

(2) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان....، ص 82.

(3) - إيرينا سميليا، المرجع السابق، ص 260.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 97.

(5) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 196.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 174.

(7) - Feraud (CH), le sahara de constantine notes et souvenirs, adolphe jourdan, Alger, 1897, p363.

(*) - حسب مارمول كريخال فإن هذا المرابط يدعى سيدي سينا. - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص326.

(8) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 28، 29.

(9) - ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، تح. أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص 76 وما بعدها. - أبو القاسم سعد الله، "ابن حمادوش ورحلته لسان المقال"، الأصالة، ع38، 1976م، ص 19.

لانتشار في إفريقيا السوداء، وكانت تجارتهم مزدهرة أغرقت عليهم بالخيرات.⁽¹⁾ وكذلك أولاد سيدي الشيخ مارسوا تجارة المواد الغذائية من حبوب وزبدة وصوف ومواشي مع متليلي، المنيع، بني مزاب، فقيق، تميمون، فاس مقابل الأسلحة والتمور والألبسة، العبيد....⁽²⁾ وإضافة إلى الغفارة والزيارة كانوا يحصلون على غنائم من خلال غزوهم للقبائل التي ترفض دفع الغفارة.⁽³⁾ في حين زاوية الأشرف كانت تشترط على غير الأشرف الراغبين في الدفن فيها إعطاء جزء من أملاكهم للزاوية،⁽⁴⁾ وكذلك زاوية عمار التنسي كان جزء من مداخلها من عائدات بيع القبور⁽⁵⁾ ومنهم من كان يبيع الأحبة والطلاسم.⁽⁶⁾

وبهذا وبفضل هذه المداخل التي تحصل عليها السلطة الروحية، لم تر السلطة الحاكمة ضرورة لرعاية المؤسسات الدينية والتعليمية من مال الخزينة. لأن هذه المصادر كانت الممول لمؤسسات السلطة الروحية، وخاصة الأوقاف التي كان مردودها الممول الرئيسي لها وللقائمين عليها، سواء بالمدينة أو الريف فمثلا نجد في مدينة الجزائر التي كان بها 13 جامع خطبة، 109 مسجدا صغير، 32 ضريح، 12 زاوية، أي 166 مؤسسة، المسجد الكبير وحده يقوم بخدمته إمامان، 19 مدرسا، 18 مؤذنا، 8 حزايبين و 13 قيما،⁽⁷⁾ كلهم يتلقون أجورهم من الأوقاف والأمر نفسه في قسنطينة التي كان بها 35 مسجد و 169 زاوية، 7 مدارس يدرس بها 700 طالب منهم 150 من خارج المدينة (الريف)، لهم منحة سنوية من الأوقاف تقدر بـ 36 فرنكا للطالب.⁽⁸⁾

ومن خلال ما سبق نلاحظ تعدد مداخل المراكز التابعة للسلطة الروحية ما بين مداخل ثابتة ومتغيرة، خاصة الزوايا التي حظيت بأكثر هذه المداخل، التي أغرت البعض ممن ادعى الولاية والمشیخة من أجل استقبال الاتباع والزيارات.

(1) - عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، م. و.ك، للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1988م، ص 126.

(2) - Daumas, Mœurs et coutume, pp317, 318.

(3) - Rinn, marabouts..., pp357, 358.

(4) - Devoulx (A), Les édifices, p163.

(5) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص 93.

(6) - Tall shuvall, Op, Cit, p120. - Saidouni, Op, Cit, p326.

(7) - Devoulx (A), Les édifices, p03.

(8) - Emerit (M), l'état intellectuel..., p05.

الفصل الثاني

النظام السياسي مراحله وأهم

دعائمه

1- أنظمة الحكم العثماني في الجزائر:

شهدت الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية سنة 1519م أربع مراحل للحكم من بايلربايات إلى باشوات إلى آغوات ثم الدايات، وكل مرحلة من هذه المراحل طبعتها مميزات خاصة في طريقة الحكم التي كانت لها انعكاسات ترتبت عنها أبعاد اقتصادية واجتماعية ودينية تتضح من خلال علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة الحاكم بعالم الدين.

1-1- نظام البايالربايات (1519-1587م):

تبدأ هذه الفترة بتعيين خير الدين بربروس أول بايلرباي(*) للجزائر وتزويده بقوة عسكرية وأسلحة وذخائر،⁽¹⁾ متخذاً من مدينة الجزائر مقراً له.⁽²⁾

وكانت الفئة المسيطرة على الحكم في هذه المرحلة هم رياس البحر وهم فئة ذوي مآثر بحرية حيث اختاروا البحر مصدراً لرزقهم وميداناً لحياتهم ويمتازون بالشجاعة والذكاء، وحسن التسيير، وكان يتم تعيينهم لشهرتهم في مواجهة الأعداء كخير الدين بربروس أو حسن آغا بعد رده حملة شارلكان، أو لثقة السلطان العثماني فيهم كصالح رايس أو شهرة آبائهم كالحسن بن خير الدين ومحمد بن صالح رايس.⁽³⁾

كان السلطان العثماني هو من يعين البايالرباي مباشرة، وهو معرض للتنحية في أي وقت، له سلطة مطلقة بإيالة الجزائر. وفي عهدهم استطاعوا تحقيق وحدة إقليمية وسياسية للجزائر⁽⁴⁾ وصلت سلطتهم حتى تونس وطرابلس،⁽⁵⁾ فقد كانوا بمثابة ملوك مستقلين رغم اعترافهم بالسيادة العثمانية، حيث كانوا يمارسون سلطتهم بأنفسهم أو بواسطة خلفائهم في حال انشغالهم عن إيالة الجزائر في الحروب ضد الخطر الأوروبي إلى جانب الدولة العثمانية، إلا أنهم لم يكونوا يعملون لمصلحتهم الشخصية أو لحساب طائفتهم، ولم

(*)- أمير الأمراء وهو من أعلى المناصب في الدولة العثمانية.

(1)- التميمي، أول رسالة من أهالي الجزائر، ص 120. - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 72.

-Haedo, Op, Cit, p36

(2)- يحي بوعزيز، الموجز...، ص 17.

(3)- غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 17.

(4)- صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814ق.م إلى 1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 84.

(5)- غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 44. - عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص 70.

- الزبيري، مدخل إلى تاريخ...، ص 71، 72.

يعارضوا السلطان العثماني عند تعيينه بايلرباي جديد ، حتى وإن لم يكن من طائفة الرياس، ورغم أنهم من أصول متعددة أعلاج كحسن آغا وحسن قورصو، وأتراك كقائد صفا ومحمد باشا تكربي، وعرب كصالح رايس وعرب أحمد وكرغلي كحسن بن خير الدين.⁽¹⁾ فإنهم كانوا بعيدين عن فكرة التمرد على السلطان العثماني الذي كان يعتبر مرجعا روحيا لهم وبيبارك أعمالهم.⁽²⁾

دام حكم رياس البحر حوالي 70 سنة، حيث حكم حوالي 22 بايلربايا حسبما ذكره هايدو ومنهم من تولى أكثر من مرة،⁽³⁾ وقد طبع عهدهم التعاون بينهم وبين الدولة العثمانية في مواجهة الغزو الإسباني على الأراضي الجزائرية أو في البحر المتوسط.⁽⁴⁾ ويعتبر عصر البايبرايات أزهى عصور الحكم العثماني في الجزائر، حيث شهدت البلاد ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا بفضل تعاونهم مع أبناء البلد وتوظيف خبرة ومهارة مهاجري الأندلس في تقوية اقتصاد البلد،⁽⁵⁾ كما تمّ التصدي للاعتداءات الأوروبية وهجماتها المتكررة وذلك بتقوية دفاع الموانئ الساحلية وتصفية الوجود الإسباني أين تم إلحاق الإمارة الزيانية بالحكومة المركزية في مدينة الجزائر 1554م ثم بجاية سنة 1555م،⁽⁶⁾ والقضاء على الإمارات المحلية كقلعة بني العباس، وإمارة كوكو وقسنطينة وعنابة، ومد نفوذ الأتراك جنوبا من طرف صالح رايس.⁽⁷⁾

لقد عمل البايبرايات على إرساء أسس الدولة الجزائرية الحديثة، وهذا بتوحيد البلاد وطرده الإسبان من السواحل ما عدا المرسى الكبير، كما وضعوا نظام إداري محكم استمر حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث قاموا بتقسيم الإيالة إلى أربع مقاطعات أو بيايك وهي: دار السلطان، مقر الحكم، باييك الشرق وعاصمته قسنطينة وباييك الغرب وعاصمته مازونة 1710م ثم معسكر ثم وهران منذ 1792م، وباييك التيطري وعاصمته

(1) - غطاس وآخرون، المرجع السابق ص 45.

(2) - حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، 2008م، ص 128، 130.

(3) - Haedo, Histoire des Rois d'Alger

(4) - غطاس وآخرون، المرجع السابق ص 44.

(5) - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ص 57.

(6) - يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا.....، ص 317. - يحي بوعزيز، الموجز، ص 19، 20.

(7) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 22.

المدينة،⁽¹⁾ ولها مجلسان استشاريان إلى جانب الحاكم، مجلس الشورى والديوان، كما كانت الجزائر في هذه الفترة مستقلة بميزانياتها ولها سكة خاصة.⁽²⁾

كما تمّ في هذه الفترة تحرير حصن البنيون (Pegnon) من الإسبان سنة 1530م⁽³⁾ وبني خير الدين حصن جديد مكانه بعدما هُدمه وحصن مدينة الجزائر بالأسوار والأبراج والخنادق.⁽⁴⁾

هذا على الصعيد الداخلي أما على الصعيد الخارجي فقد تم صدّ عدة هجمات إسبانية كحملة شارلكان سنة 1541م⁽⁵⁾ وصد حملة السلطان السعدي محمد المهدي ضد تلمسان عهد الحسن بن خير الدين (1544-1552م) الذي هزمه قرب مستغانم واستعاد تلمسان ونصب عليها الحسن الزياني.⁽⁶⁾

كما شاركوا بأسطولهم إلى جانب الدولة العثمانية في حصار مالطا سنة 1565م وفي معركة ليبانت سنة 1571م⁽⁷⁾ وفي نجدة فرنسا عام 1543م ضد الهجمات الإسبانية على الجنوب الفرنسي.⁽⁸⁾

وبهذا يعتبر عهد البايكليات مرحلة إرساء وتثبيت لقواعد الدولة الجزائرية وتوحيد لمناطقها، ومرحلة لبروز قوة إسلامية جديدة في حوض البحر المتوسط.

1-2 - نظام الباشوات 1587-1659 مميزات وانعكاساته:

منذ سنة 976هـ/1569م تمّ تعيين العلي بايلربايا على الجزائر وظلت تونس وطرابلس تابعة لحكام الجزائر، فخافت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذ العلي علي فأصدر السلطان مراد الثالث فرمان بفصل الولايات الثلاث عن بعضها ووضعت على كل منها حاكم منفصل⁽⁹⁾ ففي الجزائر وبعد وفاة العلي علي سنة 1587م قام السلطان العثماني بتغيير نظام الحكم من البايكليات إلى الباشوات، وهذا خوفا من استقلالها عنها، خاصة

(1) - عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 63. - يحي بوعزيز، الموجز، ص 20.

(2) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 101.

(3) - نفسه، ص 98.

(4) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 46.

(5) - Haedo, Op, Cit, pp62, 63.

(6) - يحي بوعزيز، الموجز...، ص 18.

(7) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 48.

(8) - يحي بوعزيز، الموجز...، ص 23.

(9) - ألتر سامح، المرجع السابق، ص 276.

بعدما عقدت الدولة العثمانية معاهدة الصلح مع إسبانيا عام 1580م، وتحول سياستها نحو المشرق وهو ما يتطلب منها حضوراً أكثر في هذه المنطقة، مما قد يشجع بايلايات الجزائر على الانفصال وتشكيل وحدة سياسية تضم تونس وطرابلس والمغرب،⁽¹⁾ وبالتالي تمنع تركيز إدارة شمال إفريقيا في يد شخص واحد، لكن نتائج تغيير نظام البايلريات كانت عكسية، حيث أن نظام الباشوات أضعف الروابط بين أوجاق الجزائر والدولة العثمانية، بسبب اهتمام الباشوات بجمع الثروة، وهو ما جعل السلطة تنتقل تدريجياً للانكشارية.⁽²⁾ كما وأن من أسباب تغيير النظام الصراع القائم بين فئة الرياس وفئة اليولداش،⁽³⁾ خاصة وأن هذه الأخيرة كانت مستاءة من الامتيازات التي كان يتمتع بها الرياس.

ولهذا وللد من إمكانية انفصال الجزائر عنها تم تغيير نظام الحكم، وعيّن على رأسها حاكم جديد تحت لقب "الباشا" أولهم دالي أحمد باشا وآخرهم إبراهيم باشا، وهذا لمدة 03 سنوات،⁽⁴⁾ رغم أنه كان من النادر أن يكمل الباشا مدة حكمه،⁽⁵⁾ كما كان يمكن أن تجدد مدة حكمه، لكن قصر مدة حكمهم قلص امتيازاتهم مقارنة مع البايلريات،⁽⁶⁾ وأصبح دور الباشا مقتصرًا على توقيع المراسيم والاتفاقيات وتعيين القادة، لأن الديوان يتحكم فيه، ومجرد التفكير في استعادة السلطة سيكون المصير العزل أو القتل، وهو ما اضطر الباشوات إلى مسايرة الانكشارية.⁽⁷⁾

دامت مدة حكم الباشوات 72 سنة، تولى منهم 27 باشا منهم من تكررت ولايته كالخضر باشا، وأبو جمال يوسف ودالي أحمد باشا وحسين باشا،⁽⁸⁾ منهم 18 عين في الحكم عدة مرات مثل حسن باشا الذي حكم خمس مرات منها ما بقي لأشهر فقط في

(1) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 48. - فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، ص 90، 91.

(2) - أرجمند كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، تر. عبد الجليل التميمي، ط2، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1974، ص 25.

(3) - فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، ص 90، 91.

(4) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ....، ص 71، 72.

(5) - عطا الله، المرجع السابق، ص 102.

(6) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 49.

(7) - ألتر سامح، المرجع السابق، ص 277. - يحي بوعزيز، الموجز....، ص 34.

(8) - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا إلى الجزائر 1766-1791م، م.و.ك، الجزائر، 1986م، ص 32، 33.

الحكم مثل سنة 1613 و1622م،⁽¹⁾ فالقليل منهم من كان يكمل عهده أحيانا يضطرون للهروب نتيجة صراع الأوجاق والرياس.⁽²⁾

وبما أن هؤلاء الباشوات اشتروا منصب الباشوية عن طريق الرشوة والهدايا فعند تعيينهم في الجزائر كان همهم جمع المال لذا أصبحت مسألة تسيير الحكم مسألة ثانوية لا تهمهم، وفقدت بهذا السلطة عنصر التآلف والدفاع عن الإسلام وبات ولاء الإنكشارية للمال والنفوذ والسلطة، أما مبادئ التفاني والتضحية فهي مبادئ زالت بعد تخلي الحاكم عن مسؤوليته،⁽³⁾ وهو ما صعب عليه التحكم في الإنكشارية وتثبيت السلم.⁽⁴⁾

ولتعويض ما دفعوه من أجل شراء منصب الباشوية أثقلوا كاهل الأهالي بالضرائب المختلفة،⁽⁵⁾ من أجل دفع الالتزامات التي عليهم كرواتب الجند والهدايا للتقرب من السلطان وحاشيته،⁽⁶⁾ الأمر الذي أدى إلى الفوضى وتمرد القبائل بسبب كثرة الضرائب، وكثر الظلم وأهملت البلاد نتيجة انصرافهم لجمع المال والثروة، دون مراعاة ظروف السكان الذين تمردوا مرارا على السلطة الحاكمة تعبيرا عن غضبهم ورفضهم للسياسة الجبائية التعسفية المفروضة عليهم.⁽⁷⁾

ظهرت في فترة الباشوات عدة اضطرابات وتمردات مثل ثورة القبائل الذين رفضوا دفع الضرائب عهد خضر باشا (1589-1592م) وتجددت عهد شعبان باشا (1592/1595م)، ثم 1640م عهد أبو جمال يوسف باشا،⁽⁸⁾ ثم ثورة الكراغلة عام 1623 و1633،^(*) وثورات الجند في 1600/1650م،⁽⁹⁾ إضافة إلى الصراع بين الإنكشارية والرياس الذي اشتد في هذه الفترة، أين أصبح من الصعب السيطرة على الإنكشارية الذين بدؤوا يتطلعون إلى الحكم، رغم محاولة البايلىريايات التخلص منهم

(1) - Boyer (P), Introduction à une histoire interieure de la régence d'Alger, in **R.H.**, avril, juin 1966, p305.

(2) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 94.

(3) - فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، ص 90، 91.

(4) - Boyer, Introduction....., p305.

(5) - يحي بوعزيز، الموجز.....، ص 34.

(6) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 102.

(7) - Fella Moussaoui- El Kechai, "les insurrections dans l'Algérie ottomane 1515-1837, congrés international, Monastir, Tunisie, novembre, 2012.

(8) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 50.

(*) - حدثت إثرها مذبة كبيرة بسبب انفجار مخزن البارود.

(9) - Boyer, Introduction....., pp304, 305.

وتصفية وجودهم بإدماجهم مع الرياس، أو باستحداث فرقة من المشاة الجزائريين، ومنهم من حاول الاستعانة بالقبائل لكسر شوكة الإنكشارية.⁽¹⁾ مثل محاولة خضر باشا في ولايته الثانية(*) التخلّص منهم لأنهم أصبحوا خطراً يهدد البلاد وحتى الناس عانوا من ظلمهم، حيث قام سنة 1005هـ/1596م بتسليح الكراغلة ضد الإنكشارية الذين انتشرت الفوضى بين صفوفهم والسلب والنهب، فغرقت المدينة بالدماء،⁽²⁾ فثار الناس ضدها بمدينة الجزائر ثم في كل الجهات من أجل القضاء عليها، لكن المحاولة فشلت وعزل الخضر باشا فاستتجد الناس بإمارة بني عباس التي حاصرت المدينة قرابة نصف الشهر (11 يوماً) حتى تدخل السلطان العثماني وحل المشكل مؤقتاً.⁽³⁾

إضافة إلى صراعهم حتى مع الباشوات الذين فقدوا السيطرة عليها مما دفع بالأهالي إلى إرسال وفد إلى السلطان العثماني في قضية يوسف باشا (1634-1637م) وخصومه والنزاع بين الرياس والانكشارية. كان يرأسه العالم ابن آقوجيل الذي كتب قصيدة وضع فيها حالة الفوضى التي كانت تعيشها الجزائر جاء فيها:

أتينا لإنهاء الذي قد أصابنا	إلى الملك الخنكار من عدله أحيّا
شكايتنا مما دهانا بقطرنا	توالت علينا أعصر أورثت غيا
فساءت به حال الرعية وانتهى	بها الأمر بعضهم يسأم المحيا
فكم من أمير ظنّ يكشف ضرها	فلم يلفت ما قد ظنّ بل قد وهي وهيا
فمهما أتى منهم من أمير تشوفوا	إليه وظنوا أنه يحسن الرأيا
لم نمضي إلاّ برهة من مقامه	إذا هو آتيهم بداهية دهيا
فيا لهف مما نال قطر الجزائر من الضيم لكن أعقبت من بغى بغيا ⁽⁴⁾	

هذه الأحداث أضعفت السلطة وأفقدت الباشا السيطرة على الوضع خاصة بسبب تصاعد سلطة الديوان، الذي أصبحت السلطة في يده إلى غاية 1710م أين حاول الدايات استرجاع سلطتهم.

(1) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص، 103.

(*) - ولايته الأولى كانت عام 1589-1592م أما ولايته الثانية كانت عام 1595-1599م.

(2) - ألتر سامح، المرجع السابق، ص 277.

(3) - يحي بوعزيز، الموجز....، ص 38. - فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، ص 94.

(4) - ابن عمار، أشعار جزائرية، تح. تقديم. أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص 127، 128.

أما على الصعيد الخارجي فقد واجه الباشوات عدة تحديات مثل توتر العلاقات بين الجزائر والدولة العثمانية بعدما أمر خضر باشا سنة 1604م بتهديم المركز التجاري الفرنسي في الشرق الجزائري وأسر من فيه، سعيًا منه لوضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين، ومما زاد في حدة التوتر هو رفض الديوان تنفيذ أوامر السلطان العثماني بإعادة بناء المركز الفرنسي وإطلاق سراح الفرنسيين المحتجزين.^{(1)(*)}

وشهد عهدهم كذلك توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بسبب أعمال القرصنة والحروب البحرية التي كانت تقودها الجزائر، حيث لمع في هذه الفترة مجموعة من الرياس أمثال: مامي، قورصو، علي تبشين، وغيرهم من الرياس، كما أنه وبعد تحطيم حصن القالة من طرف خضر باشا وتقدم هنري الرابع إلى الباب العالي بشكوى ضد تصرفاته، ورغم عزله إلا أن خلفاء خضر باشا عجزوا عن إرضاء فرنسا نتيجة معارضة الديوان لذلك، وهو ما جعل الفرنسيين يهاجمون السفن الجزائرية، وكان رد الرياس أعنف حيث أسروا قنصل فرنسا التي أرغموها على إطلاق سراح الأسرى الجزائريين بمرسيليا سنة 1025هـ/1617م.⁽²⁾

ثم تجدد الصراع بعد سرقة مدفعين من البرونز من طرف الفرنسي "سيمون دانسا" فهاجم الرياس السفن الفرنسية التي ألحقت بها أضرار مما اضطر فرنسا إلى عقد معاهدة صلح سنة 1619م، لكن عدم احترام الفرنسيين لنصوصها سرعان ما أعاد التوتر إلى العلاقات.⁽³⁾

كما تعرضت الجزائر لهجوم إسباني على أزفون عهد محمد كوسة باشا (1603-1605م)، وعلى جيجل سنة 1610م وهجوم توسكاني على عنابة سنة 1607م وعقدت معاهدات تجارية مع هولندا ومع إنجلترا بعد مهاجمتها للجزائر في عهد أحمد باشا (1653/1655).⁽⁴⁾

(1) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 35

(*) - كان سبب الهدم هو إخلال المركز التجاري بالتزاماته، بعد تصدير الحبوب أثناء المجاعة، وتأخره في تسديد الاتاوات المفروضة عليه لمدة ثلاث سنوات والمقدرة بـ 1600 جنيه. - ناصر الدين سعيدوني، "وضعية المراكز الإقليمية بالجزائر نموذج حصن القالة"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع 09-10، 1994، ص 175.

(2) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 36.

(3) - نفسه، ص 36..

(4) - غطاس وآخرون، الدولة...، ص 51.

كما شهدت خلافا مع تونس بسبب مسألة الحدود التي رسمت في ولاية حسين باشا الثانية (1613-1617م)،⁽¹⁾ وانتهى الخلاف بعقد معاهدة بينهما سنة 1625م.⁽²⁾ كما أن الأسطول الجزائري تعرض لفقد نصفه بعد مساعدته للدولة العثمانية في حربها ضد البندقية في خليج "لافالون" سنة 1639م، وقتل الكثير من قاداته رغم محاولة علي بتشين إنقاذ الأسطول الذي قرر قاداته عدم مساعدة الدولة العثمانية مستقبلا لأنها لم تف بوعدها في تعويض الخسائر.⁽³⁾

1-3- نظام الآغوات 1659-1671 مميزات وتأثيراته السلبية:

تعد مرحلة الآغوات أقصر مراحل الحكم العثماني بالجزائر حيث عرفت البلاد خلالها اضطرابات سياسية من اغتيالات وفساد وفوضى واللائم، وهذه المرحلة يصفها جل المؤرخين بالفترة الدموية لكثرة الاغتيالات التي طالت الآغوات بسبب طبيعة تعيين الآغا ومدة حكمه التي لم تتجاوز الشهرين.

بدأت هذه المرحلة عندما أقدم الآوجاق على خلع الباشا المرسل من اسطنبول ونصبوا مكانه حاكما جديدا تحت اسم "الآغا". ففي سنة 1659م قرر الديوان إلغاء منصب الباشا وتولي السلطة من طرف الإنكشارية، وهذا بعد الاضطرابات التي حدثت عهد الباشوات وانصرافهم لجمع الأموال لصالحهم، من خلال فرض الضرائب خاصة عهد إبراهيم باشا (1656-1659م)، الذي أشعلت سياسته فتيل ثورة الجند بعد عجزه عن دفع أجورهم،⁽⁴⁾ وثورة رياس البحر بعد اقتطاعه جزءا،^(*) من المنحة السنوية المخصصة لهم من السلطان العثماني كمكافأة لهم على دعمهم للأسطول العثماني، ودفعها كرشوة لرجال الدولة باسطنبول لإبقائه في المنصب،⁽⁵⁾ وهو السبب الذي دفعهم لإلقاء القبض عليه ووضعه في السجن.⁽⁶⁾

(1) - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا.....، ص 34، 35.

(2) - يحي بوعزيز، الموجز...، ص 37.

(3) - نفسه، ص 40. - غطاس وآخرون، الدولة، ص 52.

(4) - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 73.

(*) - حسب سامح ألتر، فقد اقتطع 500.00 قرش وأرسلها إلى اسطنبول. - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 380.

(5) - بوعزيز، الموجز...، ص 42. - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 387.

(6) - De Grammont Henri, Histoire d'Algérie sous la domination Turque (1515-1830), E. Leroux, Paris, 1887, p208.

بعده عين السلطان باشا آخر، وهو علي باشا الذي وجد نفسه أمام وضع صعب، حيث كانت الإنكشارية في حالة غليان بسبب تأخر دفع رواتبهم وأمام هذا الوضع اجتمع الديوان لبحث أوضاع البلاد ومحاولة إيجاد حلول لها، خاصة مشكلة الأزمة المالية، وهذا بسبب تخلي الباشوات عن مهامهم الإدارية،⁽¹⁾ ونهبهم للأموال التي تجبى، لهذا نزع منهم صلاحية دفع الرواتب، وحسب "دلفان" (Delphin) فإنهم عندما كلفوا بدفع الرواتب استغلوا الأمر ونهبوا الأموال التي تدخل القصر من كل الجهات، وكان سكان الجزائر من ضحايا جشعهم، حتى أنهم أحيانا فرضوا على العلماء وعدول المحكمة دفع مبلغ معين، فتفطن العسكر لذلك وقرروا نزع دفع الرواتب من يد الباشوات وجباية الضرائب، وتسديد النفقات بصفة نهائية.⁽²⁾

لذلك قاموا بإعادة علي باشا وأتباعه إلى أزمير، لكن هذا الأخير أصدر في حقه الصدر الأعظم **كوبرلو محمد باشا** أمرا بالقتل لفشله في فرض الأمر السلطاني، ثم أرسل فرمان إلى الجزائريين جاء فيه: «أخيرا لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، الجزائر إن كانت أو لم تكن شيء واحد... إن اقتربت من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين».⁽³⁾ وهذا فرمان كان يعبر مدى غضب الصدر الأعظم من الخطوة الذي أقدم عليها الجزائريون، كما أنه حذرهم من عدم التطاول والتعدي على الممتلكات العثمانية، كما طلب من والي مصر وشريف مكة منع الجزائريين من الذهاب إلى الحج وعدم بيع السلاح لهم أو الاقتراب من السواحل العثمانية.⁽⁴⁾

فهذا التمرد يعد منعرجا للعلاقات العثمانية الجزائرية، التي تستمر إلى غاية عهد الدايات أين تم إلغاء منصب الباشا المرسل من اسطنبول، ولم يعد يربط الجزائر بالدولة العثمانية بعدها إلا التعاون في إطار الرابطة الدينية أو الصفقات التجارية.

(1) - بوعزيز، الموجز...، ص 44.

(2) - Delphin, Op. Cit, pp209, 210.

(3) - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 387.

(4) - نفسه، ص 387.

لقد اتفق أعضاء الديوان على تعيين الحاكم الجديد أو الآغا لمدة شهرين فقط وجعل السلطة التشريعية في يد الديوان (الأوجاق) الذي يتولى دفع رواتب الجند،⁽¹⁾ وبهذا كان الآغا مجرد لقب شرفي أما السلطة كانت في يد الديوان.⁽²⁾

كان خليل بولكباشي أول آغا يعين ذي القعدة/ جويلية - أوت 1070هـ/ 1660م، لكنه قتل آخر أيام 1071هـ/ 1660م،⁽³⁾ وهو نفس المصير الذي لقيه رمضان آغا الذي قتله الجند سنة 1661م،⁽⁴⁾ و كل الآغوات بسبب الصراع بين أنصار الآغا الجديد والآغا القائم،⁽⁵⁾ خاصة عند رفض بعضهم التخلي عن المنصب عند نهاية عهدهم.⁽⁶⁾ هذا الأمر أدى إلى حدوث الاضطرابات والفوضى وانعدام الأمن والاعتقالات للآغوات، مما جعل البعض يرفض المنصب.⁽⁷⁾

من خلال الفوضى واللامن والاعتقالات التي طالت الآغوات يمكن أن نقول أن هذا النظام حمل في طياته بذور فشله من البداية رغم أنه كان مبنيا على مبدأ التداول على السلطة حيث فسحوا المجال لكل اليولداش لتولي المنصب وأهم ما ميز هذه الفترة من أحداث:

- اضمحلال نفوذ السلطان العثماني في الجزائر.
- نجاح الأوجاق في أخذ الحكم من الرياس لكنهم فشلوا في وضع نظام سياسي ناجح، رغم اعتبارهم أن توليهم الحكم هو انتقام من فئة رياس البحر الذين كانوا ذو مكانة عهد الباشوات واستفحال الصراع بينهما،⁽⁸⁾ هذه الأخيرة التي كان لها دورا ومشاركة في إثارة الاضطرابات ضد الآغوات في محاولة منهم لاستعادة

(1) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 42. - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 102.

(2) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر القديم ...، ج 3، ص 171.

(3) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 54.

- Delphin, Op, Cit, p205.

(4) - عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/ 1695-1705م)، ط1، تح. ناصر الدين سعيدي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006، ص 146.

- Delphin, Op, Cit, p205.

(5) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 42. - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 102.

(6) - يحي بوعزيز، نفسه.

(7) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 102.

(8) - عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 59، 60.

السلطة، كما ثارت ضدهم بلاد القبائل عام 1668م، هذه الثورة جعلتهم عاجزين عن ضبط النظام والتحكم في المتمردين والسيطرة على زمام الأمور.⁽¹⁾

أما على الصعيد الخارجي، فقد طبعها رجوع العلاقات مع الدولة العثمانية حيث وبوفاة خليل آغا، خلفه رمضان بولوكباشي 1661/1071م الذي بادر إلى إعادة العلاقات مع الدولة العثمانية،⁽²⁾ حيث أرسل وفدا إلى اسطنبول لطلب العفو من السلطان العثماني وقالوا له «لو أرسلت لنا كلبا لقبلناه باشا علينا» لكن الصدر الأعظم محمد كوبرلو رفض اعتذارهم. وبوفاته وتعيين ابنه فاضل احمد باشا أرسلت الجزائر وفدا آخر أين قبل اعتذارهم بعدما تعهدوا بالالتزام بأوامر السلطان الذي أرسل الباشا إسماعيل سنة 1661م، الذي قبل به الجزائريون شرط أن تكون الإدارة الفعلية بيد الآغا،⁽³⁾ وقد وصل إلى الجزائر 17 رمضان 1072 / 6 ماي 1662م.⁽⁴⁾

أما فرنسا فقد بدأت أطماعها تتزايد في الجزائر إلى درجة أن طلب ملك فرنسا شارل التاسع من سفيره باسطنبول تضخيم الأخطار التي تتعرض لها الجزائر من جراء المحاولات الإسبانية،⁽⁵⁾ وقامت بتحريض بعض الجزائريين الذين تربطهم بها مصالح تجارية للمطالبة بملك فرنسي^(*) يحكمهم ويحميهم من الإسبان في محاولة منها للاستيلاء على الجزائر⁽⁶⁾، ولما فشلت مساعيها قررت سنة 1662م احتلال القل وجيجل لكنها لقيت فشلا ذريعا ربيع 1663م، ونفس المصير لقيتها عندما توجهت إلى مدينة الجزائر⁽⁷⁾ وفي جويلية 1664م^(**) أرسل لويس 14 حملة بقيادة "دوق دي بوفور" (Duc de beaufort) على جيجل لكنها فشلت،⁽⁸⁾ ولقيت هزيمة ساحقة أمام الجزائر، ومما زاد في فداحة

(1) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 43، 44.

(2) - غطاس وآخرون، الدولة، ص 53.

(3) - ألتر سامح، المرجع السابق، ص 388.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 55. - Delphin, Op, Cit, p 205.

(5) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر القديم...، ج3، ص 109.

(*) - Berbrugger (A), Les Algériens demandent un Roi français en 1572, R.A, N05, 1861,...

(6) - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 239.

(7) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 44. - مبارك الملي، تاريخ الجزائر القديم...، ج3، ص 174.

(**) - للمزيد ينظر:

Watbled (E), " Expédition du duc de Beaufort contre Djidjeli 1664", in R.A, N17, 1873, pp 287, 352.

(8) - Mercier (E), Histoire de l'Afrique septentrionale, T03, E.Leroux. Paris, 1868, p261, 262.

خسائرها غرق أكبر سفنها سفينة "القمر" وعلى متنها 1200 جندي،⁽¹⁾ مما اضطر فرنسا إلى عقد معاهدة صلح مع الجزائر في ماي 1666م.⁽²⁾

كما هاجم الإنجليز الجزائر منذ عام 1669م وخربوا بجاية 1671م ومدينة الجزائر، مما أدى إلى تدمير شعبي تحول إلى ثورة عارمة أدت إلى مقتل علي آغا 1671م⁽³⁾ وإنهاء عهد الآغوات وتعويضه بنظام آخر أكثر استقرارا.⁽⁴⁾

1-4- نظام الدايات 1671 - 1830م ومميزاته:

بعد استفحال تدخل الإنكشارية في الشؤون الداخلية والخارجية للإيالة، قررت طائفة رياس البحر التخلص من نظام الآغوات لإحساسها بالخطر الذي كان يهددها، فعوضت هذا النظام بنظام الدايات الذي دام من 1671م إلى 1830م، تحت لقب الداوي الذي حظي بسلطات واسعة إلا أنه كان دائما عرضة للقتل.⁽⁵⁾

أ- الداوي وطريقة تعيينه:

كان الداوي في البداية يختار من رياس البحر، الذين فقدوا مكانتهم أمام الأوجاق، حيث أصبح الداوي يختار من بينهم وهذا ابتداء من سنة 1695م بعدما تولى من الرياس كل من الداوي محمد 1670/1682م، الداوي بابا حسن (1682/1683م)، الداوي حسن ميزومورطو (1683/1688م)، الداوي شعبان (1688/1695م).⁽⁶⁾

كان يتم اختيار الداوي عن طريق الانتخابات إذا ما توفي على سريرته، أما إذا قتل فإن المنافسة هي التي تعرض المترشح الجديد.⁽⁷⁾

ففي حالة وفاته طبيعيا يعين الديوان خليفته أو يوصى بخليفة له، وقد تكرر هذا 11 مرة، وعادة ما يكون خليفته من أقربائه مثل الداوي بابا حسن (1682/1683م) أوصى بالمنصب لصهره محمد باشا التريكي وعبدي باشا أوصى بالمنصب لصهره الخزناجي الداوي إبراهيم (1732/1745م) الذي أوصى بالحكم إلى ابن أخته إبراهيم

(1) - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة.....، ص 424.

(2) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم.....، ص 176.

- يحي بوعزيز، الموجز، ص 44.
(3) - Mercier, Histoire de l'Afrique..., pp262, 263.

(4) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 44.

(5) - عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 104.

(6) - Kaddache, Op, cit, p94.

(7) - Ibid, p91.

كوجوك (1791-1798م) الذي أوصى بالحكم لابن أخته الداوي مصطفى (1798-1805م).⁽¹⁾

وكان تتصيب الداوي يتم في جوٍ من المؤامرات والدسائس غالبا ما تنتهي بمآسي دامية، أين يقتل الداوي وأتباعه وتتهب أموالهم أو يبعدونهم، وهو ما حال دون استتاب الأمن ويرجع هذا حسب وليام شالر إلى انحطاط المستوى الاجتماعي للدايات وسيطرة الإنكشارية عليهم، والتي رغم صلاحياته يبقى خاضعا لها.⁽²⁾

ومنذ عام 1710م انفرد الدايات بالحكم وجمعوا لقب الداوي والباشا المرسل من إسطنبول، وهذا بعد رفض الداوي علي شاوش الباشا المبعوث من إسطنبول.⁽³⁾

كان الداوي مستبدا ومطلق الصلاحيات، والقتل هو الوسيلة الوحيدة للحد من صلاحياته، فقد كان المسؤول العسكري والسياسي للبلاد، القاضي الأعلى في أمور الحرب والسلام، المسؤول عن الضرائب والتوظيف،⁽⁴⁾ ورغم احتكاره لكل الصلاحيات، إلا أنه كان يخضع لقواعد صارمة تمنعه حتى من الزواج فهو في نظرهم أب للجميع، وكذلك خشية أن يستعمل أموال الخزينة للإنفاق على عائلته مثلما فعل الداوي بابا علي (1754/1766م) الذي انفق أموال الخزينة على عائلته وتركها تقريبا فارغة عند وفاته.⁽⁵⁾ وإن كان متزوجا يعزل عن عائلته ولا يراها إلا مرة في الأسبوع^(*) فهو رغم صلاحياته يخضع لأوامر الإنكشارية.⁽⁶⁾ فنفوذه كان محددا من قبل الديوان الذي يعزله عن عائلته ولا يسمح له بالخروج من القصر إلا لحضور بعض المناسبات كالصلاة.⁽⁷⁾

وإذا اغتيل تعاد ثروته إلى الخزينة⁽⁸⁾ لذلك نجد ورثته يسرعون في تقاسم ثروته قبل أن تصادر. و نجد من الدايات من كان يستغل ثروته في بناء المساجد أو الحمامات أو

(1)- Bontems (C), Manuel des institutions Algériennes de la domination turque à l'indépendance, Cujas, Paris, 1976, pp40, 41.

(2)- شالر، المرجع السابق، ص 43، 44.

(3)- Ghalem (M), Histoire de l'Algérie de ses origines à 1830, in Algérie, Casbah, 2000, p28.

(4)- Laugier, Op, cit, p202.

- Peyssonnel et desfontaine, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, Librairie de Gide, Paris, 1838, To1, p411.

- BOUABBA (y.), Les Turcs au Maghreb Central du 16ème au 19ème Siècle, S.N.E.D, Alger, 1972, p43.

(5)- Venture (D.P), Op, cit, p101.

(*)- الداوي علي لما فتح بابا يربط بينه بالقصر، رفض الديوان الأمر وأغلق الباب. - Ibid, p106.

(6)- الغربي الغالي، الثورات الشعبية أثناء العهد التركي، ماجستير، جامعة دمشق، سوريا، 1985م، ص 41.

(7)- Dr Shaw, Op, cit, p156 - Laugier, Op, cit, p211.

(8)- جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص 375.

التحصينات حفاظا على تخليد اسمهم وسمعتهم⁽¹⁾ ولهذا وصف الكاتب الإسباني خوان كانوا (Juan Cano) الداوي على أنه: «رجل غني، لكنه ليس سيد ثروته، أب بدون أطفال، زوج بدون زوجة، طاغية بدون حرية، ملك لعبيد عبد لأتباعه».⁽²⁾

كما وأنه ورغم الامتيازات والثروة التي منحها له منصبه من خلال هدايا القناصل والبابات والقياد والتجار والجالية اليهودية وجزء من الغنائم البحرية، إلا أنه كان دائما معرضا للاغتيال،⁽³⁾ فتكون نهايته مأساوية إذا ما تعرض لغضب الجند وتصادر أمواله وتتعرض عائلته وأقربائه للانتقام.⁽⁴⁾

وقد تعاقب على حكم الجزائر من الدايات صنفان: الصنف الأول امتاز بحسن التسيير وإسهامه في الأعمال الخيرية، مثل الداوي محمد بن عثمان باشا (1766-1791م) الذي رفض الزواج وقدم مقدار الصداق، الذي ينفقه على زواجه للخرينة،⁽⁵⁾ (*)المقدر بـ200 ألف سكة جزائرية كما أنفق ماله الخاص لبناء الحصون وبناء المسجد المقابل لقصره، أين يصلي فيه كل جمعة،⁽⁶⁾ أما الصنف الثاني فقد كانوا غير قادرين على تسيير أمور الدولة وصلوا إلى مناصبهم بفضل تمرد الإنكشارية،⁽⁷⁾ وأغلبهم لا يملكون ثقافة وبعيدين عن العلم، تسلموا مقاليد الحكم بعدما كانوا يمارسون مهنة بسيطة مثل إسكافي، حمال، حارس، أو غسال الموتى،⁽⁸⁾ مثل الداوي أحمد باشا (1695-1698م) كان كبير السن، يعمل على ترقيع الأحذية، لذلك كانت مهنته تقتصر على الإمضاء والإنكشارية هي من تدير الحكم،⁽⁹⁾ والشيء نفسه يقال على الباشا علي الغسال (1808-1809م) هو الآخر كان طاعنا في السن وعمله هو تغسيل الموتى لذا لقب

(1)- وولف، المرجع السابق، ص 389.

(2)- نفسه، ص 389. - خير محمد فارس، المرجع السابق، ص 73. - De Grammont, Op, Cit, p231.

(3)- وولف، نفسه، ص 288.

(4)- شالر، المرجع السابق، ص 44. - سعيدوني، ورقات....، ص 219.

(5)- الزهار، المصدر السابق، ص 24. وبعد أيام تزوج العجلة التي خلفها علي باشا لليلة واحدة وطلقها، قائلا إنني تزوجت حتى لا أموت اعزيا وأحشر شيطاننا.

(6)- سعيدوني، النظام المالي، ص 25. - Venture (D.P), Op, cit, p101.

(7)- سعيدوني، ورقات....، ص 219.

(8)- شعيب محمد المهدي، المرجع السابق، ص 392. - سعيدوني، النظام المالي....، ص 25، 26.

(9)- ابن ميمون، المصدر السابق، ص 25. (مقدمة).

بالغسل،⁽¹⁾ ويضاف إلى هذا انتشار الفساد والرشوة والتبذير لأموال الخزينة مثل ما فعل الداوي محمد بكير الذي انفق أموال الخزينة على رفاهية أبناءه وزوجته، لذلك لما اعتلى الداوي بابا علي الحكم بعده وجد الخزينة تكاد تكون فارغة.⁽²⁾

كما أن بعضهم كان حاد الطبع سيء المعاملة مثل الداوي بابا علي (1754-1766م) مخاطبا أحد الدبلوماسيين الفرنسيين «أنا رئيس عصابة من السراق ومهنتي هي أن آخذ وليس أن أعطي»⁽³⁾ وكذلك نجد مرسى "Mercier" يصف الداوي الحاج علي على أنه رجل أبله، عتيق مدمن على تعاطي الأفيون.⁽⁴⁾

ب- الوضع الداخلي في عهد الدايات:

ونتيجة للفوضى وسيطرة الانكشارية في هذه الفترة انتشرت ظاهرة الرشوة والفساد، حيث كانت المناصب تباع وتشترى علنا وتسلم لمن يدفع أكثر خاصة المناصب المتعلقة بالرسوم والجباية فقد حددت أسعارها ويكون الدفع دفعة أو بالتقسيط،⁽⁵⁾ فمثلا شيخ قشتولة كان يدفع عند توليه المنصب ما بين 1000 إلى 1500 صايمة للخزينة و2200 صايمة للديوان و630 صايمة للجيش أما شيخ البلاد فقد كان يدفع 500 صايمة، والمحتسب بمدينة الجزائر يدفع سنويا 1300 صايمة....⁽⁶⁾ كما أنهم كانوا يستعملون الأعلاج في كل المناصب حتى المناصب العليا ويرفضون استخدام العرب والكراغلة فأغلبهم تجاهلوا حقيقة السلطة وأهدافها لخدمة المصلحة العامة فاهتموا بالتنظيمات الإدارية والعسكرية والمالية التي تضمن مداخيل للخزينة مهملين بذلك الجوانب الثقافية والاجتماعية التي تمس الأهالي مباشرة.⁽⁷⁾

ورغم هذه الظواهر السلبية إلا أنه لا يجب أن نعمم على كل الدايات فمنهم من كانت تهمه مصلحة البلد والدليل قول أحدهم لأحد الجنود: «...إننا لم نخضع هذا الشعب ولم نملك البلد لا بالقوة ولا بحد السيف، وإنما لم نصبح سادة إلا بالعدل والإحسان، وفي بلداننا لم نكن قادة، وإنما حصلنا على مناصبنا وألقابنا في هذه الأرض، ولذا فهو وطننا

— سعيدوني، النظام المالي....، ص 26. - Mercier, Histoire de constitution...., p336.

(2)- Venture de paradis, Op, cit, p101.

(3)- De Grammont, Op, cit, p309.

(4)- Mercier, Histoire de L'Afrique...., To3,p476.

(5)- Emerit (M), "l'Algérie Turque" in **Initiation à l'Algérie**, 1957, p59.

(6)-Devoulx, Tachrifat, p45.

(7)- De Grammont, Op, cit, p305.

وواجبنا ومصالحنا تتطلب منا أن نعمل على إسعاد هؤلاء السكان كما لو أننا نعمل من أجل أنفسنا».⁽¹⁾ ومنهم من كان يرفض الزواج حتى تبقى ثروته للخزينة.⁽²⁾ وأهم ما ميز نظام الدايات في الجانب الداخلي النزعة التمردية لدى الإنكشارية في السياسة والحكم، وتفشي ظاهرة قتل الدايات، حيث كانوا وراء كل الاغتيالات التي طالت الدايات وهم من يولي أو يعزل الداوي، خاصة بعد خضوع بعض الدايات لمطالبهم. وكانت أجورهم الدافع وراء تمردهم، فكل من يتأخر في دفع مستحقاتهم مصيره الموت أو الخنق أو العزل، وهذا ما حدث للداوي مصطفى عام 1705م حيث قتلته الحامية التركية بمدينة القل وهو في طريق عودته من حملته على تونس،⁽³⁾ أين تم مصادرة كل أملاكه وأمواله.⁽⁴⁾ وكذلك الداوي محمد بكداش الذي قتل سنة 1710م لأنه تأخر في دفع أجور الجند بعدما فر باي قسنطينة بالأموال التي كانت ستدفع لهم،⁽⁵⁾ كما قتل خلفه إبراهيم باشا لنفس السبب بعد خمسة أشهر فقط من توليه الحكم لأنه كان مبذرا واختلس أموال البايك مما تسبب في إفلاس الخزينة.⁽⁶⁾ وهو ما جعله عاجزا عن دفع رواتب الجند الذين اغتالوه.

وقد أدت الفوضى وتمردات الجند خاصة أواخر القرن 18م إلى مقتل العديد من الدايات خاصة في الفترة التي تلت أحمد عثمان باشا (1766-1791م) حيث تولى ستة دايات قتل جلهم منهم مصطفى باشا الذي اغتيل عام 1805م، أحمد باشا قتل عام 1808م، علي باشا بورسالي قتل شنقا عام 1800م ومحمد باشا قتل 1814م، عمر آغا قتل هو الآخر سنة 1817م،⁽⁷⁾ كما كان الدايات يقتلون البايات خوفا من امتداد سلطتهم ونفوذهم في أوساط الرعية، لذلك نجدهم نكلوا بالبايات إما بالسجن أو التعذيب أو القتل ومصادرة أملاكهم مدعين أن أموال البايات جمعت بطريقة غير شرعية،⁽⁸⁾ حيث اغتيل

(1) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 131.

(2) - نفسه، ص 135.

(3) - Mercier, Histoire de Constantine, J. Marle Et F. Biron, Imprimeurs-Editeurs, 1903 p243.

(4) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 25.

(5) - Delphin, Op, cit, p207.

(6) - Kaddache, Op, cit, p95.

- Boyer, la vie quotidienne..., p90.

(7) - سعيدوني، ورقات....، ص 215 (هامش).

(8) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 15.

صالح باي سنة 1792م وجلّ البايات الذين جاءوا بعده،⁽¹⁾ كما نجد الداوي أحمد خوجة (1805-1806م) الذي قتل الداوي مصطفى، لقي نفس مصيره حيث قتلته علي خوجة الذي لم يكن أهلا للحكم وتحكمت فيه الإنكشارية التي قتلتته خنقا عام 1808م، قد ارتكب عدة جرائم ضد البايات حيث كان يستولي على أملاكهم وأموالهم، ومن يرد أن يصبح بايا عليه دفع المال لأقرباء الداوي.⁽²⁾

وبالتالي فإن معظم الحكام استولوا على السلطة بالقوة وجمع المال والتظاهر بالتدين، فقد أسقطوا بنفس الطريقة. وبهذا فسلطة الاغتيالات سواء للحكام والوزراء والموظفين أنهكت النظام وقضت على ثقة الرعية به.⁽³⁾

فبالإضافة إلى احتكار الإنكشارية للحكم وتناحرهم عليه، إلا أنهم لم يكن في وسعهم الاستغناء عن خدمات الرياس في حماية البلاد من خلال الجهاد البحري، ورغم قوتها لم يكن بوسعها فرض إدارتها على الرياس لأنه بفضل الغنائم كانت تدفع رواتبهم،⁽⁴⁾ التي غالبا ما كانت سببا في ثورتهم ضد الدايات خاصة منذ 1750م حين بدأت الخزينة تعرف أزمة مالية دامت حتى القرن 19م،⁽⁵⁾ كانت لها آثار وانعكاسات سلبية على الوضع العام في الجزائر، وازداد بسببها تمرد الإنكشارية، وهو السبب الذي دفع بالداوي علي خوجة سنة 1817م لمحاولة التخلص منهم حيث نقل الخزينة من قصر الجنيينة إلى القصبة بمساعدة القبائل والكراغلة وقتل الإنكشارية المتمردين⁽⁶⁾ ونفى بعضهم بعدما نشر في أوساطهم جواسيس ينقلون له تحركاتهم، لكنه لم يتم مشروعه وتوفي سنة 1818م بدءا لطاعون.⁽⁷⁾

كما أن نقص موارد الخزينة أدى بالسلطة إلى التوجه نحو الداخل فأرهقت كاهل السكان بالضرائب وهو ما أدى إلى تدميرهم والثورة ضد الحكم المركزي الذي تحمل عبء هذه الثورات والتمردات مثل تمرد عام 1692م ضد مدينة الجزائر عند غياب الداوي في

(1) - سعيدوني، ورقات....، ص 205.

(2) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 150، 151.

(3) - مولاي بلحميسي، "الثورة على الأتراك على الأتراك في الجزائر"، شواهد مشتقات من رسائل إسبانية، الثقافة، ع48، 1978م، ص 38.

(4) - Emerit, l'Algérie.... Turque, pp109, 110.

(5) - Boyer, Introduction...., p309.

(6) - Boyer, La vie, p92. - Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, p499.

(7) - الزهار، المصدر السابق، ص 134 وما بعدها.

حملة على تونس وتمرد كراغلة تلمسان عهد إبراهيم كوجوك (1745-1748م)، وتمرد سكان البليدة والحضنة ويسر والنمامشة بالأوراس وبعض الواحات بالصحراء، كما تمردت قبائل فليسة عام 1767م الذي دام قرابة 07 سنوات بسبب كثرة الضرائب، وتتبع قوات الداوي في متيجة حتى وصلت إلى مشارف مدينة الجزائر،⁽¹⁾ ثم شهدت الثورات الدينية في بداية القرن 19م، كثرة ابن الأحرش والدرقاوي والتيجانية التي كادت أن تطيح بالحكم العثماني.

كما عرفت الجزائر في أواخر هذه الفترة تدهورا اقتصاديا أثر على الأهالي بسبب قلة موارد البحرية واتجاه السلطة للجباية الداخلية. إضافة إلى سيطرة اليهود على التجارة الخارجية خاصة تجارة الحبوب وتعامل الدايات معهم مثل الداوي مصطفى الذي قتل سنة 1805م.⁽²⁾ كما قام الداوي علي عام 1817م بأعمال خالف من سبقه، حيث أنقص من وزن العملة وقيمتها النقدية، فالريال دورو كان فيه 15 أوقية خفضه إلى 12 أوقية، والريال العادي خفضه من 08 أوراق إلى 06 أوراق.⁽³⁾

ج- العلاقات الجزائرية الخارجية في عهد الدايات:

أما على الصعيد الخارجي وفيما يخص علاقتها مع الدولة العثمانية التي تغيرت منذ عهد الآغوات وظهرت جليا ملامحها عهد الدايات منذ 1710م عندما رفض الداوي علي الباشا المبعوث من إسطنبول إبراهيم شركان وهدده بالقتل إن نزل إلى الجزائر⁽⁴⁾ لأنه رأى أن لا أهمية لوجوده، ويمكن أن يصبح وسيلة لإثارة الفتن، لهذا بعث برسالة إلى الباشا يشرح له فيها مخاطر السلطة المزدوجة.⁽⁵⁾

ومن هنا اتجهت الجزائر إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية.⁽⁶⁾ وأصبح داي الجزائر يلقب عند الأوروبيين "بالمك" وسلطته مطلقة رغم إرسالهم سنويا هدية للسلطان

(1) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 49.

(2) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 104.

(3) - الزباني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تج. وتقديم. المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص 237، 238.

(4) - Dr Shaw, Op, cit, p151.

- Ghalem, Op, cit, p25.

(5) - De Grammont, Op, cit, pp276, 277.

- Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Imp. Cresienzo, 1910, pp262, 263.

(6) - عمار هلال، أبحاث ودراسات.....، ص 19.

العثماني، ويحتفلون بتولية السلاطين العثمانيين،⁽¹⁾ الذين اكتفوا بإرسال القفطان والسيف وفرمان التولية، التي تعتبر تنصيباً رسمياً للداي. كما كانت الجزائر تقدم للسلطان هدية مرة كل ثلاث سنوات تقدر بما لا يقل عن 500.000 دولار وفي مقابلها ترسل الدولة العثمانية شحنة من الذخيرة مع السماح لها بتجنيد الجنود من أراضي الدولة العثمانية.⁽²⁾ وبهذا أصبحت العلاقات العثمانية الجزائرية علاقة السيد بالسيد ولا يتعاملون مع الدول الأوروبية باسم الدولة العثمانية، بل باسم الدولة الجزائرية+65.

كما تميزت العلاقات الخارجية الجزائرية في عهد الدايات بصراعها مع جيرانها تونس والمغرب، حيث شهدت هجوماً للمولاي إسماعيل سنة 1679م على الغرب الجزائري وهزيمته بعد انسحاب قبائل بني عامر من صفوفه خوفاً من العثمانيين،⁽³⁾ ثم تحالفه مع تونس سنة 1691م ضد الجزائر لكن الداي شعبان علم باتفاقهما فصار في حملة نحو تونس التي شكت الجزائر للسلطان العثماني الذي أصدر فرماناً يطلب من كلا الإيالتين بضرورة إيجاد حلول للمشكلة.⁽⁴⁾

ثم تأتي حملة مغربية ثانية على تلمسان سنة 1692م، حيث أرسل مولاي إسماعيل جيشاً قوامه 12 ألف رجل بقيادة ابنه زيدان، ودام القتال 03 أيام، ثم انسحب المغاربة الذين قتل منهم 1000 رجل و240 جندي من الترك، بعدها أرسل السلطان المغربي ابنه عبد الملك إلى الجزائر لطلب الصلح،⁽⁵⁾ ثم تجدد الصراع عند حملة المولى زيدان(*) على تلمسان سنة 1699م، والتي كانت سبباً في عزله عن الحكم من طرف والده، لأنه لم يستغل دخوله إلى تلمسان والتوغل أكثر في البلاد بل اكتفى بالغنائم وعاد إلى المغرب،⁽⁶⁾ ثم كانت حملة مؤامرة ثلاثية شاركت فيها تونس المغرب وطرابلس ضد الجزائر سنة 1700م لكن الداي مصطفى هزم باي تونس في قلعة سنان وطارده حتى

(1) - أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني. ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر تونس طرابلس 1145هـ/1732، تر. وتعليق

ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص 28.

(2) - شالر، المرجع السابق، ص 43، 44. - الزبيري، مدخل إلى تاريخ ص 80، 81.

(3) - الناصري، المصدر السابق، ج 7، ص 59، 60.

(4) - سامح ألتر، ص 433، 434.

(5) - Devoulx, Tachrifat, p 7et9.

(*) - رغم أن هذا التدخل ينقض معاهدة 1695م التي عقدها السلطان مصطفى الثاني مع المغرب للصلح مع الجزائر.

(6) - الناصري، المصدر السابق، ص 78، 87.

تونس، ثم اتجه نحو ملك المغرب أين واجهه في جديوية قرب الأصنام وهزمه.⁽¹⁾ وقد توالى الحملات التونسية المغربية، خاصة الحملات المغربية، على الجزائر حتى نهاية العهد العثماني، منها حملة ثلاثية لتونس والمغرب وطرابلس على الجزائر سنة 1206هـ/1792م، حسبما جاء في رسالة أرسلها الداوي حسن باشا إلى السلطان العثماني سليم الثالث (1789م-1808م) حول الحرب بين الجزائر وإسبانيا في وهران، والهجوم المزدوج لحاكم فاس مولاي إسماعيل الذي استغل خروج السفن الجزائرية للبحر، ودخل تلمسان، وهجوم باي تونس مراد باي على قسنطينة، والذي جهز 12 ألف جندي، و 04 آلاف فارس و 32 مدفع، و 1500 فارس أمدتهم بها باي طرابلس.⁽²⁾

أما علاقاتها مع الدول الأوروبية، فقد تعرضت الجزائر لعدة حملات أوروبية أهمها الحملات الإسبانية، كالحملة الإسبانية سنة 1775م بقيادة القائد أوريلي (Oreilly) التي صدها الأهالي ثم محاولة أخرى سنة 1783م وسنة 1784م وكلها كان نصيبها الفشل مما اضطر إسبانيا إلى إقرار الجلاء من مدينة وهران الذي كان سنة 1792م، وكذلك بريطانيا شنت عدة غارات على الجزائر سنوات 1622م، 1655م، 1671م بعدها عقدت معاهدة صلح مع الجزائر 1659م،⁽³⁾ أما فرنسا فهي الأخرى شنت عدة حملات على الجزائر منها حملة 1682م عهد الداوي بابا حسن وحملة سنة 1683م عند تولي الداوي حسن ميزومورطو، ثم حملة أخرى في عهده سنة 1686م،⁽⁴⁾ في حين أن بريطانيا كانت لها عدة حملات، ضد الجزائر أشهر حملة سنة 1816م بقيادة اللورد إكسموث،⁽⁵⁾ والتي قتل فيها أشهر بحارة الجزائر آنذاك الرئيس حميدو وتحطم سفينته مفتاح الجهاد. أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد دخلت هي الأخرى ميدان الصراع ضد الجزائر.^(*)

وما يمكن أن نقوله في الأخير هو أن نظام الدايات وبالرغم من الاضطرابات التي شهدتها إلا أنه أدى إلى استقرار البلد أكثر مقارنة بالأنظمة السابقة في الجزائر العثمانية.

(1) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 51.

- Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, pp319, 320. - Mercier, histoire de Constantine, pp239, 240.

(2) - المجموعة 3190، الملف 01، الوثيقة 53. قسم الأرشيف، مكتبة الحامة.

(3) - يحي بوعزيز، الموجز، ص 59، 60.

(4) - محمد الشويهد، المصدر السابق، ص 146. - ابن المفتي : المصدر السابق، ص 68.

(5) - ناصر الدين سعيدوني، "صفحات من ماضي الجزائر المجيد، البحرية الجزائرية ظروف نشأتها وعوامل وأسباب ضعفها" الدراسات التاريخية، الجزائر، ع10، 1997، ص 46.

(*) - بعدما زاد الداوي عمر في قيمة الجزية السنوية، التي كانت تدفعها منذ 1795م، فرفض الرئيس الأمريكي جيمس ماديسون وأرسل أسطولاً للمياه الجزائرية مما اضطر الداوي إلى تجديد معاهدة الصلح التي أبرمت عهد الداوي حسين باشا (1791-1798م)، كما تنازل الداوي عمر عن الجزية ودفع 10 آلاف دولار كتعويض لأمريكا. يحي بوعزيز، الموجز، ص 61.

2- دعائم السلطة السياسية:

عملت السلطة السياسية على إقرار نظام دفاعي خارج المدن الرئيسية، يقوم على ركائز أساسية مختلفة في تركيبها وطرق تسييرها منتشرة عبر النقاط الإستراتيجية لمراقبة القبائل خاصة المتمردة منها.

2-1- المحلة والأبراج:

2-1-1- المحلة:

هي عبارة عن فرقة عسكرية متنقلة تعتبر من أهم المؤسسات الإدارية في إيالة الجزائر وتونس، ظهرت معالمها الأولى منذ العهد الموحي لكنها تطورت في العهد العثماني وتتنوع في كل من الجزائر وتونس حسب تنوع التجارب والأنظمة السياسية. وقد اعتبرها المؤرخون مؤسسة عسكرية جبائية أو نمط لسلطة متجولة،⁽¹⁾ وهي نوعان محال تأديبية زجرية (ردعية)، تخرج بصفة استثنائية عند حدوث تمرد أو عصيان داخلي، أو وجود خطر خارجي يهدد البلاد وتسمى "محال الحرب" أما النوع الثاني فهي محال "جبائية" تخضع لتوقيت محدد ومسار معين وتتنحصر مهمتها في جباية الضرائب.⁽²⁾

كانت تخرج من مدينة الجزائر في فترتين الربيع والخريف^(*) من أجل جباية الضرائب في البيالك الثلاثة، وتكون مدعمة بفرق الزواوة،⁽³⁾ أو توجه لقمع تمردات القبائل. وحسب "ابن المفتي" فإنها أحيانا كانت توجه حتى لتونس «ما أعلمه جيدا أن محال الجزائر هاجمت تونس ثمان مرات وأول غزوة هي غزوة علي باشا».⁽⁴⁾

كانت تجتمع شهر أفريل من كل عام وتعسكر في واد الحراش قبل خروجها نحو البيالك حيث تستغرق مدة الخدمة أو الجباية 04 أشهر بكل من بايلك الشرق والтитيري و06 أشهر بايلك الغرب،⁽⁵⁾ وعند خروجها تأخذ شكل احتفالي كبير حيث تضرب فيه الطبول وموسيقى النوبة وترفع السناجق أين يتصدر الباي هذا الموكب أو السلطان.⁽⁶⁾

(1) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 129.

(2) - نفسه، ص 132، 134.

(*) - خروجها يتزامن مع عملية دفع الدنوش التي كان يقوم بها البايات أو خلفائهم في الأقاليم الثلاثة وعند عودتهم تخرج المحلات العسكرية. - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص 111.

(3) - Vayssettes, Histoire de Constantine, p36.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 71.

(5) - Venture (D.P), Op, cit, p69.

(6) - الأرقش وآخرون، ص 140.

وقد وصف "شلوصر" إحدى محلات الشرق الجزائري عهد الباي وطريقة تنقلها وما تحمله معها من جيوش ومرافقين إلى درجة تبدو أنها مدينة متنقلة بإدارتها وجيوشها ومؤسساتها.⁽¹⁾ وتتكون المحلة غالبا من مجموعة من الجنود والموظفين مثل الآغا أو خليفته الكاهية، البولوكباشي والأوده باشي وخوجة المحلة وشاويشين لدفع الرواتب وطباخ المحلة (أنشي باشي) ووكيل الخرج ومجموعة من الفرسان واليولداش،⁽²⁾ الذين يصل عددهم إلى 400 رجل منها 300 جندي،⁽³⁾ تحت رئاسة الآغا أو مساعده من بين البولوكباشية،⁽⁴⁾ الذين يرأسون الفرق المشكلة للمحلة، حيث نجد في المحلة من 20 إلى 30 بولوكباشيا وأحيانا أكثر.⁽⁵⁾

وتتشكل محلة الشرق من 60 خيمة ومحلة الغرب 80 خيمة، أما محلة التيطري فتتظم 20 خيمة،⁽⁶⁾ وتقسم المحلة إلى خيام، وكل خيمة فيها 19 جنديا،⁽⁷⁾ أو 20 جنديا،⁽⁸⁾ وأحيانا من 11 إلى 16 جنديا،⁽⁹⁾ حسب ما تقتضيه الضرورة. وقد ورد في دفتر التشريفات كيفية توزيع هذه المحلات والخيام لسنة 1829م حسب الجدول الآتي.⁽¹⁰⁾

المحلة	عدد الخيام	عدد الجند لكل خيمة	العدد الإجمالي
محلة التيطري	- 8 خيام - 3 خيام { 15 خيمة - 4 خيام	- 14 جنديا - 13 جنديا - 11 جنديا	- 112 - 39 { 195 جنديا - 44
محلة الشرق	- 60 خيمة - 16 خيمة { 80 خيمة - 04 خيم	- 14 جنديا - 13 جنديا - 11 جنديا	- 840 - 208 { 1092 جنديا - 44
محلة الغرب	- 01 خيمة - 40 خيمة { 60 خيمة - 15 خيمة - 04 خيمة	- 15 جنديا - 14 جنديا - 13 جنديا - 11 جنديا	- 15 - 560 { 814 جنديا - 195 - 44

(1) - شلوصر، قسنطينة....، ص 48، 49.

(2) - Venture (D.P), Op, cit, p70.

(3) - Haedo, Topographie et l'histoire general d'Alger, imprimé à Valladolid en 1612, Trad. de l'espagnol par: MM. le Dr. Monneret et A. Berbrugger, 1870, p62.

(4) - Laugier, Op, cit, p258.

(5) - Haedo, Topographie, p62.

(6) - Venture (D.P), Op, cit, p69.

(7) - Vayssette, Histoire de Constantine, p36.

(8) - Laugier, Op. Cit, p254.

(9) - Devoulx, Tachrifat, p26.

(10) - Ibid, p35.

من خلال الجدول نلاحظ أن عدد الخيام يختلف من بايلك لآخر وكذلك طاقة استيعاب كل خيمة، فمثلا عدد خيام بايلك الغرب نجده تراجع في أواخر العهد العثماني بعدما كان 80 خيمة أصبح 60 خيمة، في حين أن محلة الشرق بلغ عدد خيامها 80 خيمة بعدما كان 60 حسبما ذكره "فونتردي برادي" (Venture de Paradis) في القرن 18م، وربما يرجع هذا إلى جغرافية الإقليم الشاسعة، إضافة إلى طبيعة التنظيمات السائدة فيه من القبائل المتمردة أو المشيخات الوراثية المتعددة في البايك، والتي غالبا ما ترفض الوجود العثماني على أراضيها.

هذه المحلات غالبا ما كان الباي هو الذي ينتقل على رأسها وهو من يحدد نوعية وكمية الضرائب التي ستفرض على الرعية، أو تسند رئاسة المحلة للآغا أو الكاهية، اللذان كانا يشرفان على المسائل القضائية في المحلة،⁽¹⁾ بمساعدة شاويش يعينهم الداي لتسجيل المحاكمات.⁽²⁾

فإذا ارتكب جندي المحلة أي خطأ يعزل من منصبه أو يؤجل الحكم عليه إلى حين عودة المحلة إلى مدينة الجزائر⁽³⁾ وهو نفس الإجراء الذي يطبق على الآغا إذا أساء تسيير المحلة أين يتم التحقيق معه ومحاكمته.⁽⁴⁾

أما إذا غاب الجندي عن المحلة لمدة ثلاثة أيام يشطب اسمه من دفتر المحلة ويمنع عليه الانخراط مرة ثانية في الجيش،⁽⁵⁾ أما إذا أحدث الجندي الفوضى داخل المحلة يمنع عليه دخول مدينة الجزائر ونفس العقوبة تطبق إذا كانت الفوضى جماعية من طرف أفراد المحلة فتمنع من دخول مدينة الجزائر، ويتم تقييد كل هذا في السجل.⁽⁶⁾

(1) - Dr Shaw, Op, cit, p191. – Laugier, Op, cit, p255

(2) - Laugier, Op, cit, p255

(3) - غطاسو وآخرون، المرجع السابق ص 87.

(4) - Devoulx (A), "AHAD AMAN , règlement politique et militaire", in R.A., N°04, 1859/60, p216.

(5) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 87.

(6) - Devoulx (A), «AHAD AMAN»....., p215.

أثناء أداء الخدمة في المحلة يتلقى أفرادها مكافآت من الباي وتسمى "الكسور" فمثلا بايلك التيطري تحصل عام 1187هـ/1773م، كل من:⁽¹⁾

المبلغ بالريال	الموظف	المبلغ بالريال	الموظف	المبلغ بالريال	الموظف
5	وكيل حرج الكاهية	21 و 2/1	شاوش الكاهية	72	الآغا
5	وكيل حرج	25 و 2/1	أنيس سقاء الماء	39	الكاهية
5	بولوكباشي	15	السقايبس	27	بولوك باشي
5	حلاق الآغا	100	شاوش القصر	60	خوجة الآغا
5	قهوجي الآغا	9	وكيل الحرج الآغا	38	خوجة الكاهية
5	الجراح	5	قباقجي (حارس لكلاّب)	25	أتشي باشي
		5	صانع السلاح	12	طباخ الكاهية

أما الجند فبالإضافة إلى رواتبهم، كان كل واحد منهم يتحصل على علاوة تقدر بـ2 بوجو من الباي.⁽²⁾

لقد اقترن اسم المحلة غالبا بما تخلفه ورائها من خراب ودمار، خاصة في حال رفض القبائل الانصياع لها، إضافة إلى ما كانت تعود به من ضرائب متنوعة أضرت بالنظام الاجتماعي لبعض القبائل الذي كاد ينهار نتيجة تعرضها للحملات التي أفقدتها ثروتها.⁽³⁾

في الأخير يمكن أن نقول أن هذه المحلة كانت أداة أساسية في تثبيت هيمنة السلطة داخل البلاد، وبالتالي هيمنة المدينة على الريف بحكم أن المناطق التي دفعت الثمن لهذه المحلات هي المناطق الريفية إذ أن المحلة تعتبر أدوات من أدوات السلطة التعسفية، التي اتخذت شكل السلطة المتنقلة في بحثها المتواصل عن الشرعية في محيط اجتماعي يمتاز بالعصبية القبلية، فهي أكثر من كونها أداة ردعية تأديبية أو مجرد جولات جبائية بل هي تجسيد للإدارة المركزية.⁽⁴⁾

⁽¹⁾-Devoulx, Tachrifat, p54. - Federman(H) et Aucapitaine(H), "Notice sur l'histoire et l'administration du beylik de Titteri", **R.A** N°11, 1867, p293. (marge).

⁽²⁾- Federman et Aucapitaine, Note sur l'histoire....., N°11, 1867, p293.

⁽³⁾- صلاح العقاد، "الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية في الجزائر قبل الغزو الفرنسي"، المجلة التاريخية المصرية، العدد 12، 1965، مصر، ص 156، 157.

⁽⁴⁾- فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص 77، 78.

2-1-2- الأبراج العسكرية:

بما أن عدد أفراد الجيش الإنكشاري في الجزائر لم يكن مرتفعاً مقارنة بعدد السكان، وإضافة إلى أنه لم يكن متواجداً في جميع البلاد بل اقتصر على المدن وبعض المناطق الإستراتيجية،⁽¹⁾ وحتى تبقى السلطة المناطق المجاورة لدار السلطان، خاصة منطقة القبائل تحت نفوذها، وحتى تعزز دور قبائل المخزن في حماية طرق المواصلات، ومراقبة تحرك القبائل الجبلية نجدها أحاطت المنطقة بسلسلة من الأبراج العسكرية كبرج سيباو وبرج بوغني، برج منايل، برج حمزة، برج سور الغزلان،⁽²⁾ خاصة وأن سكان هذه المنطقة، ونظراً لطبيعة الزاوية الجبلية ساد الاعتقاد لديهم أن بلادهم منيعة، وهذا منذ العهد الروماني حتى الدخول العثماني في القرن 16م، وهذا الاعتقاد كان عامل رفض السكان للسلطة العثمانية، لهذا أحاطتهم بمجموعة من الأبراج.⁽³⁾

نُصبت هذه الأبراج في المناطق السهلية الفلاحية، وهي سياسة عثمانية تهدف إلى التحكم واستغلال الأراضي الزراعية التي كانت مصدر عيش السكان، رغم أن هذه السياسية لم تقلح مع القبائل القريبة من دار السلطان، التي فضلت التمرکز بالجزبال وترك السهل فرارا من دفع الضرائب، كما أن عدد أفراد الحامية الذي لم يكن يتجاوز 20 جنديا جعلها تتعرض للتخريب دوما.⁽⁴⁾

فهذه الحاميات كانت تستبدل كل ربيع لتخلفها حامية أخرى في البرج.⁽⁵⁾ الذي يديره مجموعة من الموظفين كقائد الشؤون القضائية وشاوش وخوجاين للمراسلات قائد الدار، قهواجي، 12 موسيقيا، 60 حارسا مسلحا، وقائد البرج الذي منحت له سلطات واسعة حتى سلطة الموت والحياة،⁽⁶⁾ وتجنيد قبائل المخزن المقيمة قرب البرج وجعلها على استعداد لحمل السلاح إذا طلب منها ذلك، من أجل تعزيز مراقبتها لطرق المواصلات

(1)- Bontems, Op, Cit, p36.

(2)- سعيدوني، ورقات...، ص 279. - ناصرالدين سعيدوني، "الإدارة العثمانية في الأرياف الجزائرية نموذج مقاطعة دار السلطان"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع05-06، فيفري 1992، ص 259.

(3)- محمد سي يوسف، القانون في بلاد القبائل خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع17-18، 1998م، ص 274.

(4)- أرزقي شويتام، "إمارة كوكو 1511-1767م" فعاليات إمارة كوكو، تيزي وزو، 30 سبتمبر 2010، ص 21، 22.

(5)- ابن ميمون، المصدر السابق، ص 37.

(6)- فرج محمد الصغير، المرجع السابق، ص 52، 53.

ونقاط العبور ولإبقاء ولأداء القبائل المتعاملة معها.⁽¹⁾ كما منحت له صلاحيات تقسيم الميراث في القبائل الخاضعة وتعيين شيوخها وجباية الضرائب وتنظيم الأسواق.⁽²⁾ ومن أشهر الأبراج التي أنشأها الأتراك بمنطقة القبائل برج سيباو وبوغني اللذان يعدان من الدعائم الأساسية للسلطة المركزية، واللذان كان يشرفان على مجموعة من المشيخات، التي يستخلصان منها الضرائب، فمثلا برج سيباو الذي توجد به قبيلة عمراوة التي تشرف على جباية الضرائب من 09 مشيخات.⁽³⁾

أ- برج سيباو:

يقع عند سطح جبل ذراع الكروش شمال واد سيباو، فهو يشكل نقطة التقاء بين عدة مواصلات الرابطة بين الجزائر ودلس وتيزي وزو ومختلف الطرق الفرعية داخل منطقة القبائل.⁽⁴⁾

أنشأ سنة 1090هـ/1679م من طرف علي خوجة قائد وطن سيباو،⁽⁵⁾ لكن هناك من يرجع تأسيسه إلى القائد محمد الذباح^(*) سنة 1131هـ/1718م،⁽⁶⁾ وقد ورد اسم البرج لأول مرة في الوثائق سنة 1133هـ/1720م.⁽⁷⁾ ألحقت إدارته لآغا العرب بدار السلطان بعد موت الباي محمد الذباح 1754م،⁽⁸⁾ لكن "صالح عباد" يرجع نقل إدارته من بايلك التيطري إلى دار السلطان سنة 1769م عند تمرد قبيلة فليسة.⁽⁹⁾

يعد البرج قاعدة عسكرية ومقرا إداريا تحفظ فيه المداخل العينية والنقدية التي تدفعها 20 قبيلة ببلاد القبائل، سواء أثناء الجباية الفصلية (الدنوش الصغرى) أو الجباية

(1) - سعيدوني، ورقات....، ص 268 و278.

(2) - Robin, "Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande kabylie" in **R.A.** N17 1873, p200.

(3) - Robin (J.N), La Grande Kabylie sous le régime turc, Ed, Bouchene, Alger, 1998, p117.

(4) - سعيدوني، "الشبكة الدفاعية العثمانية حول بلاد القبائل"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع20، أوت 2004، ص 204.

(5) - Robin, note sur l'organisation, p137.

(*) - عين قائد على برج سيباو عام 1737م خلفا لعمه حسين عثمان خوجة وسمي بالسفاح لتنفيذه حكم الإعدام في 200 شخص ذبحهم بيده بنظر: Robin (N.J), La grande Kabylie...

(6) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 205.

(7) - Robin, note sur l'organisation, p138.

(8) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 205.

(9) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 290.

السنوية (الدنوش الكبرى) التي يستخلصها الشيوخ التسعة⁽¹⁾ التابعين للبرج وهم بني ثور، بني خلفون، بني سليم، نزليوة، بني عريف، توارقة، أولاد خالفة، تيزي وزو، عبيد شمال. (2)

وبعد إلحاقه بدار السلطان أصبح لقياد البرج مكانة لا تقل عن مكانة البايات، حيث أصبحوا يتسلمون قفطان التولية ولهم نفس رسوم التولية وهدايا الزيارة كما كان قايد البرج يدفع الدنوش، التي تقدر بألفي قلة زيت للبايلك و 500 قلة لأصحاب العوايد، ألف قنطار التين الجاف، و 100 قنطار شمع و 500 صاع قمح ومثلها شعير. (3)

تخضع للبرج عدة قبائل مثل: فليسة أو مليل، دلس، آث واقنون، فليسة البحرية، آث جناد، آث الغبري، سيباو العليا، واد الحمام، آث عيسى، آث دواله، آث منزر، آث بطرون، آث خليفة وجزء من معاتقة. (4)

أما القبائل الخارجة عن إدارة البرج كانت تضطر إلى دفع ضريبة مقابل خدمة أرضها، مثل آيت إيراثن التي كانت تدفع 50 ريال من أجل السماح لها بالزراعة و 600 ريال من أجل الحصول على رخصة للتنقل إلى الجزائر، عنابة، وقسنطينة وغيرها من المدن لتجارة الحبوب، التين، الزيت. (5)

وبما أن البرج يعد أكبر قاعدة عسكرية بالمنطقة فقد كان به 08 مدافع⁽⁶⁾ و 60 جنديا يسمون بالمكاحلية وهم يشكلون زمالة البرج⁽⁷⁾ لكن عددهم انخفض مع مطلع القرن 19م⁽⁸⁾ ويتكون البرج من طابقين طابق أرضي به مخزن للحبوب والزيت، ومخزن للبارود وبه سجن وطابق علوي به مقر قائد البرج ومنه يباشر الفصل في شكاوي المتخاصمين الواقفين بالساحة، وبه أيضا غرف أخرى للأسلحة وغرف للحراس والكتاب والقهوجي، والبرج المحاط بكل المرافق الضرورية كالحداة، مخبره طاحونة، إسطل للخيول، ومدرسة تسع 40 تلميذا. (9)

(1) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 205.

(2) - Robin, note sur l'organisation..., p201.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 47.

(4) - Robin, note sur l'organisation, p197.

- Robin, La Grande Kabylie, p55.

(5) - Ibid, pp201, 202.

- Ibid, pp54, 55.

(6) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 205.

(7) - Robin, note sur l'organisation, p199.

(8) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 207.

(9) - Robin, La Grande Kabylie, pp55, 56.

- Robin, note sur l'organisation, p203.

كان للبرج دور كبير في إخضاع المناطق الصعبة بمنطقة القبائل وتصدى للكثير من التمردات التي قامت بها قبائل جرجرة، وهو ما جعله يتعرض للهدم عدة مرات والحصار والحرق، مثل تمرد سنة 1767/1181م عندما تمردت قبائل فليسة رفضا لدفع الضرائب وقتلت قائد البرج الحاج محمد آغا، بينما نجا قائد مخزن الزمول محمد بن كانون بأعجوبة، ووصل تهديد القبائل حتى سهل متيجة،⁽¹⁾ ولم تخدم الثورات إلا بعد عدة حملات أرسلها الداوي محمد عثمان باشا الذي أرسل لهم 07 أمحال بعدما هزموا المحلة الأولى والثانية وأرغمت بعدها القبائل على طلب الصلح،⁽²⁾ ثم تمردت مرة أخرى سنة 1819م حيث جند يحي آغا حملة مكونة من 2000 جندي و1500 من المخزن ضد القبائل المتمردة وعلى رأسها عمراوة التي اضطرت إلى طلب الأمان،⁽³⁾ تحت وساطة كل من الحاج محمد بن زعموم ممثل فليسة أولملي ومحمد بن كانون قائد يسر مقابل إطلاق الرهائن ودفع الغرامة.^{(*) (4)}

ثم تجدد الصراع سنة 1820م عندما قرر يحي آغا الانتقام لهزيمته أمام محمد أوقاسي سنة 1819م قرب مأكودة،^(**) فكلف قائد البرج بذلك، هذا الأخير أرسل في طلب محمد أوقاسي لقضية مستعجلة وسرية، فقدم إليه مع شيوخ قبائل فليسة "صف الفوافة" المتورطة في التمرد، فقام بقتلهم غدرا، وعلى رأسهم محمد أوقاسي شيخ عمراوة وزعيم التمرد الذي قتل قائد البرج الحاج اسماعيل بن مصطفى. بعدما استدرجهم داخل البرج وقضى عليهم. فثارت القبائل ضدهم للأخذ بثأر شيوخهم.⁽⁵⁾ لكن ثورتهم أخمدت بطريقة

(1) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 206.

- Berbrugger (A), Les époques militaires de la grande kabylie, bastide, Alger, 1857, pp123, 125.

(2) - الزهار، المصدر السابق، ص 28.

(3) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 207.

(*) - قدرت بـ3000 ريال لقبيلة عمراوة أما آيث وقنون فدفعوا غرامة أقل منها.

- Robin, "Note sur Yahia agh", in **R.A.**, 1874, p67.

(4) - Mercier, histoire de l'Afrique, p505. - Boulifa, Op. Cit, p304. - Ibid, p66.

(**) - سبب هذا التمرد هو إخلال يحي آغا سنة 1818م بالاتفاق القاضي باستعمال مخزن عمراوة في حدود قيادة

برج سيباو، عندما أمرهم بالسير لمحاربة سيدي أحمد التيجاني الذي ثار على السلطة ببايلك الغرب. وهو ما أدى إلى تمرد عمراوة الفوافة رفقة عرش آث وقنون على قيادة البرج.

- Robin, note sur l'organisation, p198. - Robin, La Grande Kabylie, p50 - Robin, Note sur yahia..., p63.

- De Grammont, Op. Cit, p 383.

(5) - Robin, note sur l'organisation, p198, 199. - Boulifa, Op. Cit, pp301, 306.

- Robin, "Note sur Yahia...", 70, 73. - Mercier, histoire de l'Afrique..., p 509.

عنيفة، حيث حوصرت قراهم وأحرقت منازلهم،⁽¹⁾ وهو ما جعلها تعلن خضوعها لتجدد بعدها تحصينات البرج ويزود بـ 10 مدافع.⁽²⁾

ب- برج بوغني:

كان تابعا لقيادة سيياو التي قدرت أراضيها بـ 3000 هكتار، تستغلها زمالة بوغني وعين الزاوية المشكلة من العبيد والقادرة على تجنيد 300 فارس. وهو يتكون من قبائل قشتولة وبني صدقة وعبد المؤمن وجزء من معاتقة، ويرابط به حوالي 100 فارس.⁽³⁾ أنشئ البرج على يد القائد محمد بن علي الذباح حوالي عام 1724/1136م،⁽⁴⁾ كان يتحكم في قبائل قشتولة، وبني صدقة ونزليوة، وبني خلفون التي حدّ من تحركاتها التي شكلت خطرا على البايك منذ منتصف ق 18م.⁽⁵⁾ به حامية عسكرية تقدر بـ 62 جندي مقسمة على صفرتين في كل صفرة 16 جنديا.⁽⁶⁾

يخضع قائد البرج لآغا العرب بمدينة الجزائر، وبسبب قلّة عدد أفراد الحامية العسكرية به، اعتمد في فرض سلطته على قبائل المخزن، التي قدر عدد أفرادها بـ 1200 نسمة. والتي تستغل الأراضي الزراعية الخصبة بواد بوغني، مقابل إسقاط المطالب المخزنية عليها، أما القبائل الأخرى فقد كانت تدفع مبلغ مالي عن طريق شيوخها قدر بـ 125 ريال.⁽⁷⁾

اعتبر البرج مركزا لمراقبة الطريق الجبلي لبلاد القبائل الذي تسلكه الحاميات العسكرية أوقات السلم، خاصة لمراقبة القبائل التي تدين بالولاء لزاوية علي بن يحيى.^{(8)(*)} تعرض البرج عدة مرات لهجمات القبائل، منها هجوم ما بين سنة 1746/45م بعدما قرر الداوي إبراهيم باشا إخضاع القبائل الواقعة بين واد عيسي وواد بوقدورة، وفصل قبيلة عمراوة المخزنية عن سهل بوغني، فأرسل حاميتين واحدة بقيادة أحمد آغا والأخرى

(1) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية...، ص 207. - Saidouni, Op. Cit, p349.

(2) - نفسه، ص 207.

(3) - Robin, note sur l'organisation, p196. - Robin, La Grande Kabylie, p48.

(4) - Robin, note sur l'organisation, p139.

(5) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 208.

(6) - Robin, note sur l'organisation, p199. - Devoulx, Tachrifat, p35.

(7) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 208، 209. - Robin, note sur l'organisation, p196.

(*) - أسسها الشيخ علي بن يحيى ق 9/15م بأعالي جرجرة نواحي آيت كوفي ببوغني.

(8) - محمد نسيب، زوايا....، ص 91.

بقيادة علي باي التيطري،⁽¹⁾ فثارت قبائل زواوة ضد القائد محمد الذباح وهاجمت برج بوغني وبرج حمزة،⁽²⁾ وقد وصف "ابن حمادوش" ما حدث بقوله: «فوافق ذلك نفوذ وعد الله بطائفة... من زواوة أن نافقوا على القائد محمد، قائد سيباو الذباح، فبعث إلى إبراهيم باشا فأمره آغا الصبايحية معه... نحو المئاتي يولادش. فلم يأت اجتماع الشمس والقمر... حتى هلكت دشور القبائل وبعث يوم الثلاثاء.... سبعين رأسا على الجمال وأردفها من الغد أربعة عشر رأسا، ونهبوا أمتعتهم وأموالهم وحرقوا دشورهم...»،⁽³⁾ ليعين على إثر هذا محمد الذباح بايا على التيطري، وتصبح منطقة زواوة تابعة للبايلك.⁽⁴⁾

ورغم هذا فإن تمردات القبائل وهجماتها على البرج استمرت، أين قتل في إحداها الباي محمد الذباح سنة 1754م من طرف قبائل بني إيراثن،⁽⁵⁾ بعدها توجه أحد المرابطين، وهو الشيخ "أعراب" إلى الداوي ووعده بأن لا يعترض سكان آيث إيراثن الحامية العثمانية بحوض سيباو وبمناطق تمركزها والأسواق التي تقصدها شرط أن لا تضايق السكان عند حرثهم لأراضيهم بسهل سيباو أو تعترضهم عند التوجه إلى سوق علي خوجة.⁽⁶⁾

ثم تمت مهاجمته مرة أخرى سنة 1169م/1756م من طرف قبائل فليسة التي قتلت قائد البرج أحمد. ثم أعيد بناؤه بعدما تمكن داي الجزائر من إخضاع القبائل الثائرة بمساعدة قوات من بايلك قسنطينة والتيطري،⁽⁷⁾ وفي نفس السنة باغتن القبائل حامية البرج واحتلته ولم تستطع السلطة العثمانية استرجاعه إلا في سنة 1757م.⁽⁸⁾

ثم تعرض للهدم مرة أخرى سنة 1234هـ/1818م من طرف قبائل قشتولة وبني صدقة وانسحبت منه الحامية التركية تحت حماية مرابطي،⁽⁹⁾ زاوية بوقبرين بأث اسماعيل الذين أخرجوا الحامية التركية إلى غاية بن هارون، ومحزن عبيد عين الزاوية أبعدهم إلى

(1)- Robin, le bey Mohamed..., p365.

(2)- Boyer, contribution, p39.

(3)- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 163.

(4)- Robin, le bey Mohamed..., p365.

(5)- Robin, Note sur l'organisation, p139. - Robin, lebey Mohamed, p270.

(6)- أرزقي شويتم، "إمارة كوكو"، ص 26.

(7)- سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 209. - Robin, Note sur l'organisation, p140.

(8)- نفسه، ص 209.

(9)- نفسه ص 209.

-Robin, Note sur yahia..., p62. - De Grammont, Op. Cit, p 383. -Mercier, histoire de l'Afrique...T03, p503.

واد القصاري بفليسة،⁽¹⁾ ثم أعاد بناءه يحي آغا نهاية سنة 1819م بمساعدة الشيخ محمد أوقاسي الذي عين قائد عمراوة الفوافة بحوض سيباو.⁽²⁾ وزود بعدة مدافع وعادت إليه الحامية مجددا سنة 1823م.⁽³⁾

ج- برج تيزي وزو:

إضافة إلى هذه الأبراج الرئيسية التي لعبت دورا في مراقبة القبائل نجد برج تيزي وزو، الذي أسس سنة 1640م وسط حوض سيباو، والذي يعد مقر مراقبة للمناطق الجبلية المحيطة بواد سيباو وعمل على توسيعه الداوي علي خوجة،⁽⁴⁾ ويطلق عليه كذلك برج تازاغارت. كان عرضة لهجمات القبائل لانفتاحه على السهل المحاذي لملتقى وادي عيسي بنهر سيباو، حيث تعرض سنة 1127هـ/1715-1716م للتخريب مما اضطر قائد سيباو للبحث عن مكان يكون أكثر حصانة، فوقع اختياره على موقع تميزار لغبار الذي وضع به الحصن الجديد غير بعيد على الموقع الأصلي.⁽⁵⁾ كانت به حامية عسكرية مكونة من حوالي 50 جنديا،⁽⁶⁾ يديره قائد تركي أو كرغلي⁽⁷⁾ مثله مثل بقية الأبراج.

لم تكن السلطة تهتم به كثيرا إلا بعدما صمد سنة 1767م ضد هجمات القبائل المجاورة، وهو ما شجع قائد سيباو على تجديده وتزويده بـ16 مدفع وتهيئته بالمرافق الضرورية من غرف للجند ورحى وبئر، وتزويده بحامية عسكرية مكونة من 70 جندي موزعين على 03 صفرات،⁽⁸⁾ لكن انخفض العدد سنة 1829م إلى 30 جندي مشكلا صفرتين بـ15 جندي لكل منهما.⁽⁹⁾

وفي سنة 1740م نقل علي خوجة السوق الأسبوعي المعروف باسمه إلى البرج. هذا السوق الذي أنشأه سنة 1730م على واد سيباو. كما أصبح منطلقا للحملات

(1) - Robin, Ibid, p62.

(2) - Boulifa, op.cit, p304.

- سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 209.

(3) - نفسه، ص 209.

(4) - Boulifa, Op, cit, p249.

- Robin, Note sur l'organisation, p137.

(5) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 212.

(6) - Robin, Note sur l'organisation, p197.

(7) - Ibid, p197 (Marge).

(8) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 211، 212.

(9) - Devoulx, Tachrifat, p35.

- Robin, Note sur l'organisation, p199.

العسكرية لدايات الجزائر ضد بلاد القبائل، بعد تصديه للعديد من تمرداتها مثل ارغام شيخ عمراوة الفواقة محمد أوقاسي على الخضوع سنة 1819م.⁽¹⁾

د- برج حمزة:

عرف بسوق حمزة (البويرة)، ويعد نقطة مراقبة للقبائل المنافسة للسطوح الجنوبية والغربية لجرجرة، ونواحي بني سليمان البرواقية، وهو الطريق المؤدي إلى واد الساحل ببجاية نحو سور الغزلان وسهول عريب وبني سليمان، وقد أصبح سوق حمزة مركزا للحراسة ومراقبة الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر وقسنطينة، ومراقبة قبائل جرجرة والبدو بسهول عريب وبني سليمان منذ القرن 16م.⁽²⁾

كانت بالبرج حامية عسكرية من المشاة،⁽³⁾ تتكون من حوالي 50 جنديا،⁽⁴⁾ في حين هناك من قدر عددها سنة 1785م بـ40 جندي وبعض المدافع،⁽⁵⁾ أما سنة 1829م قدرها "روبان" (Robin) بـ62 جنديا.⁽⁶⁾ في حين ورد في بعض المصادر أن عددهم في نفس السنة كان 15 جندي فقط.⁽⁷⁾

كان البرج مقرا لتجميع الضرائب والغرامات، ويراقب تحركات القبائل بين التيطري وقسنطينة، وهو ما جعله سوقا هاما منذ أواسط القرن 16م، تجتمع فيه القبائل من جرجرة والتيطري والبيبان، ديرة، وهو ما جعله مقرا لعدة تمردات ضد سلطة البايلك، لهذا دعم في القرن 17م بـ18 مدفعا من عيار 18 و24، لكن ورغم هذا فقد تعرض البرج إلى هجمات القبائل عام 1756م، ولم يرجع إليه الهدوء إلا بعد استرجاعه من طرف السلطة منتصف عام 1757م.⁽⁸⁾

(1) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 212.

(2) - نفسه، ص 196.

(3) - Dr Shaw, Op, cit, p322.

(4) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 197.

(5) - Peyssonnel et Desfontaines, Op. Cit, To2, p204.

(6) - Robin, Note sur l'organisation, p199.1

(7) - مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، حقيق. حساني مختار، منشورات، حلب الجزائر، 1999، 53.

Devoulx, Tachrifat, p35

(8) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 196، 198.

هـ - برج زمورة:

أسسه الحسن بن خير الدين باشا 966هـ/59-1560م به حوالي 100 جندي لحراسة الطريق نحو الشرق والتصدي لغارات قبائل بني عباس وأحلافهم بسهول مجابة وواد بوسلاح وجبال البابور.⁽¹⁾

لقد ساعد هذا البرج في الحد من توسعات بني عباس وحماية الطريق السلطاني بين مدينة الجزائر وقسنطينة وتأمين الاتصال ببجاية، وهو ما جعله سوقا أسبوعيا ومركزا لاستراحة محلة قسنطينة عند خروجها لاستخلاص الضرائب،⁽²⁾ بلغ عدد أفراد حامية البرج سنة 1829م/1245هـ 28 جنديا يشكلون صفرتين.⁽³⁾

هذه الحاميات العسكرية المتمركزة في الأبراج، ورغم الدور الذي قامت به في منطقة القبائل إلا أنها لم تكن تخرج إلا بمرافقة قبائل المخزن، وهذا لقلّة عدد أفرادها، الغير قادرين على حماية حتى أنفسهم حسب "روبان" (Robin).⁽⁴⁾

أما في المناطق الأخرى فقد وجدت عدة أبراج وحصون كانت موجهة أساسا لحماية المدن من الهجمات الأجنبية مثل برج مرسى الذبان، برج بوليلة، برج النجم، برج الكيفان، برج الفنار بمدينة الجزائر،⁽¹⁾ أما بمدينة وهران فقد كان يوجد بها عدة أبراج مجهزة بمدافع لحماية المدينة من الهجمات الإسبانية منها 05 حصون كبرى إضافة إلى أخرى صغيرة، مثل برج الفرنسي، البرج اليهودي (30 مدفعا)، البرج الجديد (100 مدفع)، برج العيون (16 مدفعا)، برج سانتا كروز، برج مرجاجو (30 مدفع)، البرج الأحمر (300 مدفع).⁽⁵⁾

2-2- قبائل المخزن هيكلتها وصلاحياتها:

لتعزيز نظامها الدفاعي لجأت السلطة إلى خلق نظام دفاعي جديد من أهل البلد أطلق عليه إسم "قبائل المخزن". فرجل المخزن تعني أداة وعون الخزينة أو الجباية، أي

(1) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 91، 92.

(2) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية....، ص 194.

(3) - Devoulx, Tachrifat, p34.

(4) - Robin, Note sur l'organisation, p134.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 200، 201. - بوعزيز، قضايا وموضوعات، ص 103. للمزيد ينظر:

Esterhazy (W), de La domination turque dans la régence d'Alger, Gosselin, Paris, 1840, pp194, 196.

الرجل الذي يساهم في الخدمة العمومية.⁽¹⁾ وكانت تعطى للمخزني، أحيانا أجره مثل يولداش الإنكشارية مقابل ما يقدمه من خدمات.⁽²⁾ أو أراضي وامتيازات.

لقد تشكلوا في البداية من الفرسان الأندلسيين، الذين شكلهم عروج بربروس من أجل فتح مدينة المديّة،⁽³⁾ بعدها ضم إليهم خير الدين عدة قبائل من الأجواد الذين شكلوا النواة الأولى لقبائل المخزن، كأولاد رحاب الذين كان يرأسهم بوبكر بن صاولة، ثم تطورت وضمت لها عدة قبائل مثل أولاد هديم أولاد سعيد، ومخزن العبيد،⁽⁴⁾ بعد عتقهم مشكلين الزمالة،^(*) التي قسمها بايلك التيطري إلى الزمالة الغربية والزمالة الشرقية،⁽⁵⁾ كما شكّلت فرقة منهم كذلك في منطقة القبائل لمساعدة الإنكشارية.⁽⁶⁾

كانت قبائل المخزن تتكون من مجموعات مختلفة، حتى من طبقة العبيد⁽⁷⁾ الذين أطلق عليهم الزمول أو الزمالة، كما كانت تضم قبائل مستحدثة والتي تتشكل من خليط من الأجناس، مثل قبيلة بني أحمد جنوب شرق مليانة التي كانت تضم عناصر من البربر والعرب والترك، فحسب تقرير فرنسي مؤرخ في 16 أكتوبر 1896م كان عددهم حوالي 3350 نسمة يملكون 12528 هكتار وأكثر من 30 ألف رأس غنم بها 149 منزل و 964 خيمة وهم مقربون من باي التيطري، حيث كانوا يجمعون الضرائب لحسابه.⁽⁸⁾

ويوجد منها من أقرها الأتراك في أراضيها، ومنها ما أقاموها على أراضي البايك (الدواير)، مثل مخزن واد الزيتون^(**) (الزواتة) في يسر المشكل من الكراغلة ومنها من أقامتها على الأراضي المصادرة مثل قبائل أولاد عيسى الذين نقلوا من البيض إلى بايلك

(1)- Federman (H)- Aucapitaine (H), Op. Cit, N°11, 1867, p359.

(2)- Federman- Aucapitaine, Op, Cit, N°11, p359.

(3)- Ibid, N°09, 1865, p280.

(4)- Ibid, N°11, pp357, 358.

(*)- الزمالة، هم أجناس مشردون من أوطانهم إلى الحدود الجزائرية سمح لهم الباشا المكوث شرط أن يمدوه بمشاة الجنود والفرسان إذا اقتضت الحاجة وقد وجد في وهران عدد كبير من الزمالة المكوّنة من العبيد (الزنج).

- ابن ميمون، المصدر السابق، ص 39.

(5)- Dermenghem (E), "les confréries noires en Algérie-diwan sidi blal", in R.A., N°97, 1953, p315.

(6)- Robin(M), "note sur le bey Mohammad dit ed-delah", in R.A., N°17, 1863, p294.

(7)- Alain Mahé Mahé, Op, Cit, p42.

(8)- علي خنوف، المرجع السابق، ص 31. - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 39.

(**)- تأسس بعد ثورة الكراغلة سنة 1633م ضد السلطة المركزية أين استقروا بعد طردهم من مدينة الجزائر إلى

Saidouni, Op, Cit, p349.

الخشنة وبني جعد على يسار واد يسر.

التيطري في القرن 18م لصد بني زقزوق وأولاد ميرة الذين كانوا يهاجمون مليانة وعريب شرق بايلك التيطري.⁽¹⁾

ولهذا نجد سعيدوني يعرفها على أنها: «عبارة عن تجمعات تعميرية اصطناعية متميزة في أصولها، مختلفة في أعراقها، فمنها من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم، ومنها من أعطيت لها أراضي تستقر عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين ومتطوعين من جهات مختلفة ليؤلفوا جماعة عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية...».⁽²⁾

كان مركزها الأرياف مستقلة في شؤونها الخاصة، رغم أنها تخضع لقائد تركي، وقد اعتبرت الوساطة بين الحكم المركزي وقبائل الرعية والمناطق الخارجة عن سلطة البايك في الجبال والمناطق الصحراوية.⁽³⁾

فطبيعتها الاصطناعية تظهر لنا من خلال التسميات والألقاب التي استمدتها من خدمتها للمخزن مثل مخزن الزواتنة الذي استقر بواد الزيتون ومخزن المكاحلية لاستخدام فرسانه لسلاح المكحلة.⁽⁴⁾

ففي بايلك التيطري نجد قبائل المخزن مكونة من الدواير وعبيد الزمول التي كانت تقدم للبايلك 600 فارس⁽⁵⁾ ومخزن عريب يقدم 1200 فارس وهو تحت إدارة الآغا مباشرة.⁽⁶⁾

أما بمنطقة القبائل وحتى تتحكم السلطة في المنطقة قامت بإقرارها حول الأسواق وفي طرق المواصلات مثل مخزن عمراوة بسيباو والزواتنة بيسر وهاشم بمجانة وعبيد شمال بقشتولة ومخزن حرشاوة ونزليوة نواحي بني خلفون، ومخزن حمزة وبني هارون بسهول عريب وبني سليمان، ومخزن بوغني وعين الزاوية الذي كان يقدم للبايلك 300 فارس،⁽⁷⁾ ويستغل الأراضي المحيطة ببرج بوغني والمقدرة بـ3000 هكتار، أما عمراوة

(1) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 367.

(2) - ناصر الدين سعيدوني، "وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار المترتبة عليها"، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، 1977م، تونس، ص 75.

(3) - Kaddache, op.cit, p115.

(4) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 147.

(5) - Federman- Aucapitaine, N°11, p357 et 361.

(6) - Robin, Note sur l'organisation, p197. (Marge).

(7) - ibid, p196. - Saidouni, Op, Cit, p348.

فكان بها 16 زمالة تستغل أراضي البايلك المقدرة بـ 20.000 هكتار وتقدم 500 فارس بشقيها عمراوة الفواقة (العليا) وعمراوة التحاتة (السفلى) التي كانت دائما حليفة للأتراك عكس "الفواقة" التي كانت مرة متحالفة ومرة نائرة ضد السلطة التركية.⁽¹⁾ وفق المصالح المشتركة، أما مخزن الزواتنة كان بإمكانه تقديم 3000 محارب مع بداية القرن 19م،⁽²⁾ والتي كانت تراقب جزءا من واد يسر أين يمر الطريق الرابط بين مدينة الجزائر وقسنطينة.⁽³⁾ في حين مخزن زمالة بوحلوان يقدم 2000 رجل،⁽⁴⁾ وهم لا يدفعون المطالب المخزنية وأعطيت لهم أراضي يحرقونها والخيول والسلاح مقابل القيام بالعسة.⁽⁵⁾ أما بايلك الشرق فقد كانت قبائل المخزن تدعمه بـ 23000 فارس،⁽⁶⁾ موزعة على عدة قبائل كالحراكتة التي تقدم 400 فارس، الزمول 500 فارس، أولاد عبد النور 100 فارس، التلاغمة 100 فارس، أولاد عطية 200 فارس، وغيرها من القبائل⁽⁷⁾ ومنها 30 مكاحلية و 50 فارس في خدمة الباي مباشرة. حيث ترافقه عند تأدية الدنوش.⁽⁸⁾

أما ببايلك الغرب نجد 17 قبيلة مخزنية مكونة من الدواير، الزمول الغرابية، البرجية، بني شقرون، المكاحلية، أولاد سلامة، أولاد أحمد عبيد شراقة، الحشم وغيرها⁽⁹⁾ وقد زاد عددها مطلع القرن 18م أين وصل إلى أزيد من 20 قبيلة⁽¹⁰⁾ تحت إدارة 4 أغوات تابعين للباي 02 الدواير و 02 للزمالة.⁽¹¹⁾

هذه القبائل منحت امتيازات كثيرة مثل الأراضي الخصبة بالقرب من مازونة ووهران، ولا تدفع الخراج. كما منحها البايلك الأسلحة والخيول وأدوات العمل مقابل خدمته وهذا نتيجة الوجود الإسباني بالمنطقة، لهذا اعتبرت وهران من أهم مخازن الإيالة من حيث القوة العسكرية التي اعتمد عليها الدايات كثيرا.⁽¹²⁾ هذه الامتيازات كان ينعم بها

(1)- Robin, Ibid, pp196, 198.

(2)- Saidouni, Op, Cit, p349.

(3)- Berbrugger (A), Les époques militaires, p138.

(4)- Saidouni, Op, Cit, p347.

(5)- الزهار، المصدر السابق، ص 48.

(6)- محمد الصالح العنتري، فريدة مؤنسة في حال دخول الأتراك بلد قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق د. يحي بوعزيز، د.م.ج، الجزائر، 1991م، ص 25.

(7)- Rinn, Le Royaume d'Alger sous le dernier dey, A.jourdan, Alger, 1900, pp83, 89.

(8)- Vayssettes, Histoire de Constantine, p90.

(9)- Esterhazy (W), de La domination turque p266.

(10)- فتيحة لواليش، الحياة الحضرية بببايلك الغرب، ماجستير جامعة الجزائر، 1992، ص 30.

(11)- Esterhazy, Op, Cit, p266.

(12)- لواليش، المرجع السابق، ص 30.

جميع أفراد القبيلة، خاصة الإعفاء من الضرائب أما الممتلكات الزراعية التي حولتها إلى ممتلكات خاصة،⁽¹⁾ منحت لآغا الدواير وآغا الزمالة فقط،⁽²⁾ خاصة بعد تحرير وهران من الإسبان عهد الباي محمد الكبير.

تواجدت قبائل المخزن في المناطق الحساسة حول الأبراج والحصون لدعم الحاميات التركية، وقرب الجسور والممرات وقرب الأسواق ومطامير البايك والمخازن ونقاط مرور المحلات على الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر وقسنطينة وفي المناطق المهددة بالهجمات الخارجية.⁽³⁾

وقد لجأت السلطة العثمانية إلى هذا النظام لسببين:

1- حتى تحافظ على امتيازات الأقلية التركية، لأن الاعتماد عليها يقلل جلب الجنود من الأناضول وبالتالي يضطر إلى صرف المزيد من المصاريف وهو ما ينقص من ثرواتهم ومواردهم.

2- وجدت السلطة في هذا النظام وسيلة لامتناع عدااء وتمرد بعض القبائل عليها وهذا بإعطائهم حق مراقبة المناطق التي تشهد انتفاضات في المناطق الجبلية والصحراوية.⁽⁴⁾

لقد لعبت القبائل المخزنية دورا فعالا في إدارة الإيالة حتى غدت أهم الوسائل التي تعتمد عليها السلطة، وحضور رجال المخزن ضروري عند عملية جباية الضرائب،⁽⁵⁾ فهم يشكلون جزءا هاما من المحلة⁽⁶⁾ التي توجه سنويا لجباية الضرائب نحو الشرق والغرب والتيطري وحفظ الأمن وحراسة الطرق ومعاقبة الجناة،⁽⁷⁾ الأمر الذي جعلها الساعد الأيمن في تطبيق الإجراءات الحربية والإدارية للبايك. إذ كانت بمثابة شرطة محلية ضد التحركات المعادية، تعمل على تطبيق أوامر البايك وحماية مصالحه وفرض احترام الرعية له، وتدعم الحاميات العسكرية بالجنود وتراقب الأماكن الإستراتيجية،⁽⁸⁾ كطرق

⁽¹⁾ - Esterhazy (W), Notice historique sur le maghzen d'Oran, perrier, Oran, Algérie, 1849, p12.

⁽²⁾ - لواليش، المرجع السابق، ص 30.

⁽³⁾ - سعيدوني، ورقات....، ص 268. - سعيدوني، دراسات وأبحاث العهد العثماني، ص 109، 110. Saidouni, Op, Cit, p346.

⁽⁴⁾ - سعيدوني، ورقات....، ص 264.

⁽⁵⁾ - Federman- Aucapitaine, Op. Cit, N°11, p359.

⁽⁶⁾ - Saidouni, Op, Cit, p347.

⁽⁷⁾ - سعيدوني، ورقات....، ص 262.

⁽⁸⁾ - Saidouni, Op, Cit, pp346, 347.

المواصلات ونقاط العبور الرئيسية وهذا للحد من تحركات القبائل واحتواء تمرداتها بين فترة وأخرى،⁽¹⁾ فمثلا قبائل عريب كانت تراقب ممر سور الغزلان والطرق الرابطة بين مدينة الجزائر وقسنطينة يراقبها، مخزن الزواتنة، وحرشاوة.⁽²⁾

كما عملت قبائل المخزن على إراحة قوات البايك لأوقات طويلة، والتي لم تكن تستعمل إلا للضرورة، ففي بايلك التيطري تولى مخزن الدواير وعبيد الزمول عملية جباية الضرائب وإخضاع القبائل بدلا من قوات البايك.⁽³⁾

كما نجد أنه سنة 1573م لما قامت ثورة بقسنطينة استنجد الباي رمضان تشولاق^(*) بها من أجل إخماد تمرد الحنانشة،⁽⁴⁾ وعند نقشي ظاهرة الإجماع من طرف الإنكشارية استعان بهم أحمد باي من أجل فرض النظام كما استعان بهم كذلك ضد أولاد نايل الذين كانوا يسرقون القوافل.⁽⁵⁾ ونجدها كذلك قدمت خدمات كبيرة للبايلك أيام حكم الباي مصطفى بوشلاغم عندما استقر بها.⁽⁶⁾ وقد اعتمد عليها بصورة كبيرة في بايلك الغرب ضد قبائل بني عامر الموالية للإسبان وضد هجمات المغاربة،⁽⁷⁾ كهجوم 1690م من طرف مولاي إسماعيل الذي وجه له جند جيش قوامه 22000 فارس ومئات منهم من المخزن،⁽⁸⁾ وشاركت كذلك في إخضاع تونس سنة 1569م على يد علي باشا⁽⁹⁾ واستمر الاعتماد عليها في صد هجمات المغاربة في بايلك الغرب وهو ما جعل "المزاري" يقول عنها: «أنّ المخزن هو الناصر للدولة فيما كانت وحيث ما وجدت وتمكنت وباتت...».⁽¹⁰⁾

(1) - سعيدوني، الإدارة العثمانية....، ص 259.

(2) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 149.

(3) - محمد سي يوسف، "من خصائص النظام الإداري في بايلك التيطري خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع05-06، فيفري 1992، ص 276.

(*) - حكم من 1567-1574م.

(4) - العنتري، فريدة مؤنسة....، ص 44.

(5) - سعيدوني، رقات....، ص 258، 260.

(6) - Esterhazy, Notice historique sur le maghzen d'Oran, p11.

(7) - Esterhazy, Histoire de la domination, pp171, 172.

(8) - سعيدوني، رقات....، ص 258 - Merad Boudia, Op, Cit, p336

(9) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق ص 153.

(10) - المزاري، المصدر السابق، ج1، ص 30.

ونتيجة للدور الذي كانت تقوم به كجهاز عسكري مع مرور الوقت أخذت تدريجيا مميزات وصفات الجهاز السياسي،⁽¹⁾ وقد تنامت قوة هذه القبائل المخزنية أكثر عندما اتجهت السلطة إلى داخل البلاد، لكن رغم هذا فإنها لم تتجاوز المرتبة التكميلية والاحتياطية.⁽²⁾

وكل هذه الخدمات التي كانت تقدمها للبايلك كانت مقابل حصولها على امتيازات كإعفاءها من المطالب المخزنية،^(*) ولا يدفع شيوخها للبايلك سوى العشور والزكاة،⁽³⁾ فمثلا شيخ قشتولة يدفع العشور التي يدفعه له أساسا شيوخ القبائل الخاضعة لهم، والتي يجمعها قائد العشور المعين كل سنة لهذا الغرض،⁽⁴⁾ ومنها من كان يدفع ضرائب قليلة كشيخ قشتولة الذي كان يدفع سنويا 2000 صايمة للخرينة وعندما ينصب يدفع ما بين 1000 إلى 1500 صايمة للخرينة و2200 صايمة للديوان أي ما يسمى "بالبشماق"⁽⁵⁾ وكذلك آغا الدواير يقدم للباي 40 ألف ريال بوجو أما آغا الزمالة 20 ألف ريال عند التعيين ومبلغ كل ستة أشهر للحفاظ على منصبهم.⁽⁶⁾

كما أن بعض هذه القبائل كانت تستفيد من نسبة الضرائب المفروضة على قبائل الرعية فمثلا أولاد خليف كانت تفرض ضريبة تسمى "العسة" على قبائل شعانة، بني عطية، أولاد يعقوب، الزرارة، المخادمة مقابل ترددهم على المراعي والأسواق المحروسة، من طرف شيخ قبيلة أولاد خليف.⁽⁷⁾

فهذه الامتيازات التي منحت للمخزني سمحت له بالانتفاع وتحقيق أرباح بوسائل شرعية وغير شرعية منحها له حمايته للبايلك.⁽⁸⁾

إن استحداث السلطة لركائز للحكم خلق نظام معين للتعامل مع الرعية حيث ظهرت فئة الامتيازات من قبائل المخزن الذين زودوا بالأسلحة والخيول وأعفوا من

(1) - Esterhazy, Notice historique, p12.

(2) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 47.

(*) - كاللزمة والغرامة والحكور.

(3) - Esterhazy, Histoire de la domination, p267. - Saidouni, Op, Cit, p347.

(4) - Guin(M), "notice sur le cheikh bel Gasseem des Guechtoula" in R.A., N05, 1861, p310.

(5) - Devoulx, Tachrifat, p43. - Robin, Note sur l'organisation, p137.

(6) - Esterhazy, Histoire de la domination, pp267, 268.

(7) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 150.

(8) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 293.

الضرائب، وملكوا أراضي البايك،⁽¹⁾ المستقرة بها لاستغلالها والتي عرفت باسم "الشاتي" التي حوّل جزء منها إلى ملكيات خاصة لبعض العائلات المخزنية فنجد 78% من سهول وهران كانت مستغلة من قبائل المخزن، وكذلك سهول عين مليلة التي منحها صالح باي لفرسان مخزن الزمول.⁽²⁾ لكن في حال تمرداها تنزع كل الامتيازات التي منحت لها،⁽³⁾ هذه الأراضي البايكية الشاسعة جعلتها ملكيات خاصة بها بعد ازدياد نفوذها وتجاوزها لصلاحياتها أمام تراجع السلطة المركزية.⁽⁴⁾

في مقابل الخدمات التي قدمها هذا التنظيم، فإنه خلف آثارا سلبية من خلال الأعمال التعسفية التي ارتكبها في حق الأهالي وتغاضى الحكام عنها، من نهب وسرقة ومصادرة أملاك لتصبح بهذا قوة حربية عازلة لا طبقة اجتماعية رابطة وعامل تفريق للأهالي بالريف لا وسيلة تأليف بين الأفراد،⁽⁵⁾ وهو ما دفع الأهالي للثورات والتمردات والتي غالبا ما كانت شعاراتها دينية متسترة في كثير من المرات وراء مطالب اقتصادية مثلما حدث سنة 1590م و1647م.⁽⁶⁾

وقد قسم بعضهم العلاقة بين قبائل المخزن والسلطة إلى ثلاث مراحل:

- **المرحلة الأولى:** من 1516 إلى غاية أواخر القرن 16م تميزت بتغيب تام للعناصر القبلية في المؤسسة العسكرية لاعتمادهم على إمكانياتهم الخاصة وأن عائدات الغزو البحري كانت تغنيهم عن التحالف مع القوى المحلية خاصة القبلية.⁽⁷⁾

لذلك وصفهم الورتيلاني عندما دخل إحدى قرى بسكرة بقوله: «فهم فريقان فريق في القرية وهو المتمكن المعتصم بأولي الولاية من الترك والمتمسك بجاههم إذ من تمسك بهم تفرعن على غيره».⁽⁸⁾

(1) - نفسه، ص 293.

(2) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 150.

(3) - لواليش، المرجع السابق، ص 30.

(4) - سعيدوني، دراسات وأبحاث-العهد العثماني، ص 115.

(5) - سعيدوني، وضعية عشائر المخزن، ص 79.

(6) - سعيدوني، ورقات....، ص 260.

(7) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 148.

(8) - الورتيلاني، المصدر السابق، ص 114.

- **المرحلة الثانية:** تنتهي في حدود القرن 17م عندما اتجهت أنظار السلطة للداخل لتوسيع نفوذها وقمع حركات التمرد والعصيان، ولم يكن توجهها لينجح لولا مساعدة هذه القوى التي ساعدت الحملات الردعية والجبائية التي كانت تقوم بها فرق الإنكشارية خاصة دعمها في قمع ثورات الريف ما بين 1590 و 1647م.

- **أما المرحلة الثالثة** والتي لم تعد فيها قبائل المخزن مجرد دعم للسلطة فبالإضافة إلى مشاركتها في الأمحال الموسمية أصبحت تتمركز في المناطق الإستراتيجية،⁽¹⁾ خاصة بعد أن أصبح عدد الجيش التركي قليلا في هذه الفترة حيث لم يتعد عدد أفرادها سنة 1769م 5000 جندي، أما عام 1817م لم يتجاوز 3200 جندي،⁽²⁾ وسنة 1829م بلغ عددهم 3661 جندي في المقابل كانت دواير ميلة وجميلة، وواد الزناتي قادرة كل منها على تجنيد 1000 فارس.⁽³⁾

في الأخير ما يمكن أن نقوله هو ونتيجة للدور الذي كانت تقوم به قبائل المخزن، كجهاز عسكري مع مرور الوقت أخذت تدريجيا مميزات وصفات الجهاز السياسي،⁽⁴⁾ كما أن السلطة اعتمدت على هذا التنظيم كوسيلة فعالة لتدعيم إجراءاتها الإدارية والعسكرية، لكونه عنصرا محليا بالدرجة الأولى، وحتى تتفادى الصدام المباشر مع الأهالي، حتى أصبح امتدادها ونفوذها داخل البلاد متوقفا على نشاط وقوة هذه القبائل المخزنية.

2-3- المشيخات الوراثية:

هم النبلاء الذين فرضوا سلطتهم بالقوة في منطقة ما، ولم يكن أمام الأتراك إلا الاعتراف بنفوذهم أو إعلان الحرب ضدهم وإذكاء الصراعات بين أفرادها. هذه المشيخات كانت ذات صبغة مرابطية أو عسكرية، فالمرابطية صاحبة النفوذ الديني كانت محل احترام وتبجيل من الأتراك والسكان أما الأجواد أو نبلاء السيف،^(*) فقد فرضوا سلطتهم بالقوة.⁽⁵⁾ وكان شيوخها يتصرفون باستقلالية في إدارة شؤون رعيته، لهم جيوش خاصة تحت إمرتهم، وحكم وراثي، وأتباع من القبائل الخاضعة لهم تلقائيا، والذين

(1) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 148، 149.

(2) - De Grammont, Op, Cit, p246.

(3) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 149.

(4) - Esterhaz, Notice historique, p12.

(*) - الأجواد أو نبلاء السيف، لقب أطلق بالمغرب الاسلامي على كل قبيلة إقطاعية حربية توارثت المشيخة والقوة العسكرية، وفي الغالب ينحدرون من إحدى بطون قريش. من عرب الفتح ثم من الأدارسة أو من القبائل الهلالية.

(5) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 362.

يعتبرونهم الحكام الشرعيين وليس الأتراك، الذين لا يعترفون بهم إلا طاعة لأوامر شيوخهم وسياستهم، الذين كانوا يلتفون حولهم عند إعلان الثورة^(*) على البايات لما يتدخلون في شؤونهم.⁽¹⁾

لكن ورغم تمتعهم بنوع من الاستقلال الذاتي إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء على الحكم التركي، لأنهم كانوا متفرقين،⁽²⁾ رغم كثرتهم وشاسعة المناطق الواقعة تحت نفوذهم. ففي دار السلطان وجدت 20 قبيلة متعاونة وحليفة و12 قبيلة ببايلك التيطري و25 ببايلك الشرق و29 ببايلك الغرب.⁽³⁾ كان لها حق جباية الضرائب بها وفرض أعمال السخرة وجمع الغنائم دون تدخل السلطة المركزية.⁽⁴⁾ وبإمكان شيوخها تجنيد من 4 إلى 5 آلاف فارس وعدد كبير من المشاة.⁽⁵⁾

ففي الغرب الجزائري ارتكزت على النسب الشريف والصالح والدعوة إلى الجهاد، في حين كان نفوذها السياسي والإداري بالشرق الجزائري يعتمد على المال والقوة.⁽⁶⁾ حيث انتشرت في الشمال القسنطيني وبالجنوب من توقرت حتى وادي سوف وأعالي جبال الأوراس،⁽⁷⁾ مثل مشيخة النمامشة، الحنانشة، الحراكطة، وقصر الطير جنوب سطيف، أولاد بوعزيز ببلزمة، أولاد مقران بمجانة، بني جلاب بتوقرت، بن قانة بالزيبان، أولاد بوضياف بالأوراس، أولاد عاشور بفرجيوة، أولاد قاسم جنوب شرق قسنطينة⁽⁸⁾ وأولاد سيدي الشيخ وشيوخ عمور وأولاد مختار، الذين يدفعون ضريبة (اللزمة) للبايلك مقابل استقلالهم الذاتي، فتارة يتحالفون مع البايلك وتارة يصطدمون معه.⁽⁹⁾ إذا حاول الحد من

(*) - مثل ثورة أحمد بن صخري ضد الباي مراد عام 1637م والتي كادت أن تطيح بالحكم العثماني بالبايلك.

حول هذه الثورة ينظر:

Berbrugger (A), « Notes relatives à la révolte de bensakhri », in R.A., N°10, 1866.

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 158.

(2) - مبارك الملي، تاريخ الجزائري في القديم...، ج3، ص 293.

(3) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 232.

(4) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 363.

(5) - Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, Librairie de Gide, Paris, 1838, T01, p292.

(6) - العروي، المرجع السابق، ص 487، 488.

(7) - معاشي، المرجع السابق، ص 193.

(8) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108. - سعيدوني، ورقات، ص 480.

(9) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر....، ج3، ص 293. - ناصر الدين سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 131.

نفوذهم، والملاحظ أن هذه المشيخات الوراثية سواء قبلية أو مرابطية انتشرت بالشرق الجزائري أكثر من الغرب، وربما يعود هذا إلى كثرة الزوايا بغرب البلاد، والتي عملت على صهر وإذابة الولاء القبلي،⁽¹⁾ أما بمنطقة القبائل كان تأثيرهم أقل مقارنة بجبال البابور والبيبان وفرجوية....⁽²⁾

كانت هذه المشيخات تتوارث امتيازاتها وثرواتها مقابل الإبقاء على علاقاتهم مع البايك، وهو ما سمح لهم أن يكونوا همزة وصل بين السلطة وسكان الأرياف خاصة فيما يخص استخلاص الضرائب، وجمع الغرامات وتجنيد الفلاحين (الخماسين) للخدمة في مزارع البايك مثل أراضي "العزل"^(*) بقسنطينة،⁽³⁾ أو للخدمة في إقطاعاتها الزراعية الكثيرة التي لا تستغلها لكونها قبائل رعوية فتخضعها لنظام الخماسة،⁽⁴⁾ أو تستخير القبائل في عمل التوزيع أثناء الحرث والحصاد، مقابل حمايتها عند حدوث الكوارث الطبيعية والقحط والحروب، مثل عائلة بن زعمون بدار السلطان والتي كان لها نفوذ على عدة قبائل كفليسة وسيباو، كان بإمكانه تجنيد 20 ألف متطوع من 19 قبيلة شرق الأطلس المنتججي وغرب بلاد القبائل لصالح البايك، كما أنها شاركت بحوالي 6000 إلى 7000 رجل عند الإنزال الفرنسي سنة 1830 بسيدي فرج،^(*)⁽⁵⁾ وأما شيخ المقرانيين فقد كان يتزعم 12000 كوخ وشيخ الحنانشة 9000 كوخ وشيخ الأوراس 5000 كوخ وقائد

(1) - العروي، المرجع السابق، ص 387، 388.

(2) - Alain Mahé, Op, Cit p49.

(*) - كانت أجود أراضي البايك تمنح لموظفي البايك أو شيوخ القبائل والأسر المحلية الموالية للسلطة مقابل خدمات عسكرية وإدارية بلغت 114 عزل بقسنطينة وهي 4 أنواع، عزل جبيري الأراضي المؤجرة مقابل ضريبة تعرف بالحكور" مقدرة بـ 12 صاع من الحبوب على كل جابدة (10 هكتار). وعزل العزيب تمنح للقبائل الرحل، المكلفة برعاية مواشي البايك للرعي مقابل إعفائها من الضرائب أو تخفيفها حيث لا تدفع إلا العشور أو حكور كراء الأرض المقدرة بـ 10 رياللات. عزل الجبل تمنح للأسر النافذة سياسيا ودينيا مقابل حفظ الأمن وعزل السهول تمنح لقبائل المخزن مقابل جمع الضرائب ومساعدة المحلة. - معاشي، المرجع السابق، ص 183، 185.

(3) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 152.

(4) - معاشي، المرجع السابق، ص 176.

(*) - Avant notre débarquement Ben Zamoun avait promis au dey de lui amener soixante dix mille hommes pour s'y opposer.

Genty de Bussy (P), De l'établissement des français dans la régence d'Alger, et des moyens d'en assurer la prospérité, T02, Fisman didot, Paris, 1839, p269.

(5) - Saidouni, Op, Cit, p351.

الحراكثة 6969 كوخ، وقائد البابور 8000 كوخ أي مجموع 40969 كوخ لا تدفع الضريبة للبايلك بل لشيخوخهم.⁽¹⁾

رغم أن هذه المشيخات لم يكن لها نفس النفوذ فبعضها حكم أقاليم واسعة بها عدد كبير من القبائل ومنها من لم تتجاوز سلطته منطقة صغيرة.⁽²⁾ إلا أن كثرتها وقوتها أجبرت البايلك على التعامل معها وفق مصالحهم خاصة، بالشرق الجزائري أين هيمنت هذه المشيخات منذ بداية الحكم التركي،^(*) مثل أولاد بوعزيز ببلزمة وأولاد عبيدي، وأولاد عبد النور ومشيجة بن زكري، أولاد قاسم بالشلية، وأولاد بوضياف وبن قانة.⁽³⁾

وبهذا ضمننت السلطة أمن البلاد بتفويض شيخو القبائل والأسر الحاكمة في تسيير قبائلهم مع الارتباط بالسلطة إداريا، حيث يصبح الشيخ مسيرا للقبيلة ومساهما في جمع الضرائب وشن الحملات على القبائل دون تدخل الحكم المركزي، مقابل إسقاط الضرائب عليها.⁽⁴⁾ كما عملت على مساعدة البايات على تقسيم إنتاج الأراضي الزراعية التابعة لهم، وحماية الأسواق،⁽⁵⁾ فمثلا شيخ بلزمة جنوب بريكة وشيخ الأوراس يوليهم الباي،^(**) على منطقتهم بعد دفع مبلغ مالي يقدر بـ3 آلاف بوجو (ريال فضة) ويكلفهم بجمع الضرائب لفائدة البايلك مع الاحتفاظ بجزء منها لهما مقابل خدماتها.⁽⁶⁾ كما كانت لهذه المشيخات امتيازات أخرى إلى جانب استغلالها كتصريف إنتاجها وشراء حاجياتها من السوق.⁽⁷⁾

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 193.

(2) - العنثري، فريدة مؤنسة....، ص 20.

(*) - كان عددها قليل في القرن 16م مثل دواودة بني عباس أحرار الحنانشة لكن في القرن 17م ظهرت مشيخات أخرى كأولاد بن عاشور بفرجيوة أولاد عز الدين في الزواغة والواد الكبير... - صالح عباد، المرجع السابق، ص 362، 363.

(3) - سعيدوني، رقات...، ص 480.

(4) - معاشي، المرجع السابق، ص 152، 153.

(5) - نفسه، ص 176.

(**) - غالبا ما يكون بصفة وراثية مثلما جاء في الوثائق الأرشيفية مجموعة 1641 - وثيقة 58، رسالة من صالح باي إلى وكيل الباستيون (Bastion) عام 89-1190هـ / 1776م) يمنعه من الاتصال بالشيخ عبد الله بالعباس لأن الباي عزله وعين ابنه مكانه وفي الوثيقة 61 عام 91-1192هـ / 1778م رسالة من صالح باي إلى وكيل الباستيون جاء فيها تعيين الشيخ علي باي مكان والده وطلب التعامل معه.

(6) - ناصر الدين سعيدوني، "ثلاث رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال" التاريخ، ع 07، 1977م، الجزائر، ص 51.

(7) - سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية....، ص 131.

لقد سعت السلطة منذ البداية إلى التعامل معها عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين توارثوا الحكم اعتماداً على كفاءتهم الحربية أو أصلهم الشريف وهذا عن طريق:

- التقرب من شيوخها ومرابطيها بإسقاط الضرائب عليهم وإصدار فرمانات التولية مقابل خدمات جمع الضرائب من المناطق الخاضعة لهم وتأمين الطرق.
- خلق تنافس وتناحر بين الأحلاف الكبرى وتشجيع الصراع العسكري القائم على العصبية القبلية، خاصة على مناطق الرعي والماء مثل الصراع بين الحراكشة وأولاد عبد النور بالهضاب العليا.
- شن حملات انتقامية مفاجئة عند رفضها دفع المطالب المخزنية أو محاولتها التخلص من رقابة البايلك.⁽¹⁾

انتهجت السلطة سياسة التقرب من هذه المشيخات، منذ بداية الوجود العثماني حيث نجد أن خير الدين لما دعى شيوخ الزوايا والمرابطين لتجنيد الأتباع للجهاد استجاب له شيوخ العرب المشرفين على عدد من القبائل شرط الإبقاء على امتيازاتهم مقابل الولاء، كما أنه اقترح على بعضهم مبلغ 1000 دوقة مقابل مساعدته ضد حاكم تونس الحفصي.⁽²⁾

كما كان البايات يتقدمون بعبارات الشكر إلى هؤلاء الشيوخ عند مساعدتهم مثلما جاء في وثيقة من صالح باي للشيخ عبد الله بالعباس بدون تاريخ نظير مساعدته لخليفة الباي في جمع مستحقات البايلك على منطقة مرداس من الفرنسيين والتي تقدر بألف ريال جاء فيها: «...حفظ الله تعالى... إبننا الشيخ عبد الله بالعباس...وما عرفتمونا فيه من أنكم وقفتم مع إبننا المعظم السيد مصطفى الخليفة... ولا انفصلتم عنه إلى أن كمل [كذا] جميع أشغاله وتوجه إلينا في أمان وعافية... تعلم إبننا بارك الله فيكم... وأنه ساعة وصول أمرنا إليكم تطلب النصرى [كذا] في شتوية مرداس الماضية وصيفيتهم هذه وتبعث لنا الألف ريال...».⁽³⁾

(1)- سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108، 109.

(2)- معاشي، المرجع السابق، ص 122، 123.

(3)- مجموعة 1641 وثيقة 125. مكتبة الحامة قسم المخطوطات.

وكما كانوا يمدونهم بالسيف والبرنس ويقطعون لهم الأراضي ويمدونهم ببعض الحاميات العسكرية لتأديب القبائل الناقمين عليهم.⁽¹⁾ فعند تعيين باي جديد يستدعي شيوخ العرب مثل رؤساء الذواودة (بوعكاز) وأحرار الحنانشة وأولاد مقران للبس القفطان الذي يرسله باشا الجزائر دليل اعتراف بسلطتهم وتجديدا لها.⁽²⁾ ومن أشهر المشيخات الوراثية التي وجدت خلال العهد العثماني المتعاونة مع البايك.

2-3-1- مشيخة الذواودة (بوعكاز):

هي قبيلة هلالية من فرع رياح، تعود أصولهم بالجزائر إلى مسعود بن سلطان بن داود بن مرداس الهلالي الملقب بالبلط،^(*) انتقلوا إلى الشرق الجزائري في العهد الموحيدي،⁽³⁾ منذ 572هـ/1176م أين شاركوا إلى جانبهم في الجهاد بالأندلس.⁽⁴⁾ ثم استقروا ببسكرة طولقة الأغواط.⁽⁵⁾

تعتبر أسرة بوعكاز من الأجواد أو الأرستقراطية الحربية أو نبلاء السيف مثل أسرة الحنانشة الذين كان لهم نفوذ بالشرق الجزائري أكبر من نفوذ المرابطين. وشرف الانتساب لها لا يقل عن شرف الانتساب للأشراف.⁽⁶⁾

كان زعيم الأسرة في العهد الحفصي يحمل لقب "أمير العرب" ثم لقب "شيخ العرب" في العهد العثماني عند تولية علي بوعكاز بن الصخري الذواودي عام 947هـ/1541م وألبس قفطان التولية المرسل من باشا الجزائر عن طريق الباي.⁽⁷⁾ فرضت الأسرة نفوذها بفضل قوتها العسكرية التي بلغت 10.000 فارس بمنطقة قسنطينة و1700 فارس بالصحراوي⁽⁸⁾ أما حرسه الخاص فقد شكله من مجموعة من القبائل قدر بـ1000 فارس.⁽¹⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 157.

(2) - Mercier, Histoire de constitution...., pp229, 230.

(*) - نظرا لشدة وصلابته.

(3) - عبد الرحمان بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تقديم، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000م، ج06، ص 44، 45.

(4) - معاشي، المرجع السابق، ص 32.

(5) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 558.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 38.

(7) - نفسه، ص 160.

(8) - الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 32. - معاشي، المرجع السابق، ص 39.

بعدما كانت تبلغ في العهد الحفصي 5000 فارس مجهزين أحسن تجهيز⁽²⁾ وقد اتسم أفرادها بالقوة والنفوذ وصل حد التدخل في شؤون الدولة الحفصية، وخلق التنافس بين الحكام،⁽³⁾ وهو ما دفع بالمستنصر الحاكم الحفصي إلى الخروج إليهم نحو المسيلة سنة 664هـ/1265م حيث يقول ابن قنفذ: «تحرك المستنصر حركته في للمسيلة وأذل فيها العرب» أما في سنة 666هـ/1267م قام بقتل جماعة من رؤساء رياح.⁽⁴⁾ كانت هذه المشيخة تتحكم في 11 قبيلة من قبائل الأوراس والقبائل الرحل،⁽⁵⁾ وقد امتد نفوذها من ضواحي قسنطينة وبجاية إلى الزاب وريغ وورقلة⁽⁶⁾ إلى سطيف والمسيلة غربا.⁽⁷⁾ في حين هناك من يذكر أن سلطتها وصلت حتى "منداس" أي تيهرت.⁽⁸⁾ وكل هذه الأراضي منحت لها من طرف الموحدين والحفصيين مقابل خدمات عسكرية.⁽⁹⁾ كما أنها أخذت الجنوب القسنطيني التابع لآل مقران بعد مقتل أمير بني عباس الشيخ عبد العزيز سنة 1559م.⁽¹⁰⁾ أول اتصال لها مع العثمانيين كان عهد خير الدين بربروس عندما قدمت أولاد يعقوب 928هـ/1522م المواد الغذائية للحامية التركية المرابطة قرب قسنطينة مقابل تزويدها بالسلاح.⁽¹¹⁾ ثم سنة 936هـ/1529م عندما نادى خير الدين بربروس القبائل إلى طاعة السلطان العثماني، لبت أسرة بوعكاز الأمر بشرط عدم المساس بأراضيها وامتيازاتها التي كانت لها منذ عهد الحفصيين، واحترام العثمانيين للأمراء الذين يختارونهم واحترام قوانين القبيلة وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية،⁽¹²⁾ ولما قبل خير الدين بشروط

(1) - Feraud, le Sahara de Constantine, p363.

(2) - Feraud (CH), "Les Harar, seigneurs des Hanencha. Études historiques sur la province de Constantine", in **R.A.**, T18, 1874, p140.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 32.

(4) - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 127، 129.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 161.

(6) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 45.

(7) - معاشي، المرجع السابق، ص 36.

(8) - محمد بن خير الدين، مذكرات، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985م، ج1، ص 436.

(9) - معاشي، المرجع السابق، ص 36.

(10) - Mercier, Histoire de constantine, p219.

(11) - Gaid Mouloud, Chronique des beys, p7, 8.

(12) - محمد بن خير الدين، المرجع السابق، ص 41، 42.

الشيخ بوعكاز دخلت القبيلة عهد جديدا مع العثمانيين حيث منحت لها "مشيخة العرب" سنة 1541م لعلّي بوعكاز(*) الذواذي وقد احتفظت العائلة باللقب حتى الاحتلال الفرنسي،⁽¹⁾ لكن نافستها على اللقب أسرة بن قانة التي ظهرت هي الأخرى خلال العهد العثماني بعد مصاهرة احمد القلي للعائلة.⁽²⁾

اعتمد عليها العثمانيون لحفظ الأمن بمناطق نفوذها، وجباية الضرائب للسلطة المركزية، وقمع التمردات وشن الحملات على القبائل الممتعة، مع دفع ضريبة سنوية تقدر بـ 20 ألف بوجو⁽³⁾ وكانوا يلجئون إليها كلما اقتضت الضرورة، كحمايتهم للحامية التركية المؤلفة من 20 جندي وضابط والتي دخلت قسنطينة عن طريق بونة،⁽⁴⁾ والاستعانة بها ضد قبيلة الحنانشة التي قطعت طريق المؤونة الذي يصل الحامية بأولاد يعقوب، وبعد معركة كبيرة انتهت بالصلح وضمان ولاء كلاً الأسرتين للعثمانيين.⁽⁵⁾

كما أنه حمت الحامية التركية التي توجهت إلى بسكرة سنة 957هـ/1550م وحامية أخرى إلى ورقلة وتوقرت سنة 959هـ/1552م بقيادة صالح رايس،⁽⁶⁾ و شاركت إلى جانب العثمانيين ضد الإسبان سنة 1581م بجيشين عظيمين الأول رابط ببرج منايل شرقا والثاني غرب مدينة الجزائر بقيادة الحاج محمد بن سليمان الذي سمي ابنه خير الدين تيمنا بخير الدين بربروس، الذي ربطتهم به علاقات تعاون وجهاد سابق.⁽⁷⁾

استمرت العلاقات بين السلطة والمشيخة على توافق إلى غاية سنة 1046هـ/1637م عندما قام مراد باي قسنطينة بقتل الشيخ محمد بن الصخري لشكه في ولائه، فقامت ثورة كادت أن تطيح بالحكم العثماني،⁽⁸⁾ فيما عدا هذه الثورة كانت الأسرة خير حليف للعثمانيين بالمنطقة ومثلتهم أحسن تمثيل.

(*) - أخذت الأسرة الاسم "بوعكاز" منه لأنه كان دائما يحمل عصا (عكاز).

(1) - Mercier, Histoire de Constantine, p197. - Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, p206.

(2) - Feraud, le sahara..., pp88,89.

القشاعي، النظام الضريبي، ص 125.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 162.

(4) - محمد بن خير الدين، المرجع السابق، ص 42.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 131.

(6) - محمد بن خير الدين، المرجع السابق، ص 42، 43.

(7) - نفسه، ص 44.

(8) - معاشي، المرجع السابق، ص 132.

2-3-2- مشيخة أحرار الحنانشة:

لقد اختلف في أصل الأسرة، "فابن خلدون" يرجعها إلى قبيلة هواره البربرية حكمت طرابلس وانتقلت مع الفاتحيين إلى أفريقيا،⁽¹⁾ وفقدت صفاتها البربرية باختلاطها مع القبائل العربية كبنو سليم، وأصبحت مثلهم في اللغة والزّي وسكن الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب» قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم». ⁽²⁾ أي أصبحت من العرب المستعربة بعد احتكاكهم بالعرب وأخذت عدة أسماء، الحنانشة، النمامشة والحراكتة. ⁽³⁾

حملت الأسرة اسم حناش بن بعرة الذي حارب ابن غانية إلى جانب الحفصيين،⁽⁴⁾ ويذكر ابن خلدون أن رئاسة العائلة في عهده كانت في ولد يفرن بنو حناش: «ورئاستهم (هواره) بهذا العهد في ولد يفرن بنو حناش لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن يفرن ثم لأولاد زيتون بن محمد بن يفرن، ولأولاد دحمان بن فلان بعده...». ⁽⁵⁾

ونفس الرأي الذي يذهب إليه الوزان عندما يذكر قائد هواره البربرية في عصره ويدعى "نسر" وأمير هواره في عصرنا هذا يدعى "النسر" وهو الذي قتل أمير قسنطينة الناصر ابن ملك تونس،⁽⁶⁾ وهذا نسر ماهو إلا نصر قائد الحنانشة بداية الحكم التركي. ⁽⁷⁾

في حين أن فيرو ينسب الأسرة إلى اليهودية بقوله: «أنها ترجع إلى حناش بن فناش بن فلاش بن حباش بن شالوم»،⁽⁸⁾ إلا أنه يذكر أنه وجد وثيقة عند العائلة ترجع أصلهم إلى عمر بن الخطاب. ⁽⁹⁾ لذلك أطلقوا على أنفسهم لقب الأحرار، وهو لقب خاص بالقبيلة الأصلية دون القبائل المنظمة إليها بعد انتصارهم على الحفصيين سنة

(1) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 184.

(2) - نفسه، ص 186.

(3) - Mercier, Histoire de constantine, p156.

(4) - معاشي، المرجع السابق، ص 41.

(5) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 186.

(6) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 63.

(7) - معاشي، المرجع السابق، ص 44.

(8) - Feraud, Les Harar,...., p30.

(9) - Ibid, p129.

915هـ/1510م.⁽¹⁾ أو القبائل الصحراوية التي خضعت لها، كما نجد زعيمها خالد بن علي الحناشي دخل في علاقات مع الشابية في جنوب قسنطينة بعد طردها من تونس.⁽²⁾ تقع أراضي الأسرة بين حدود تونس والجزائر حتى الصحراء،⁽³⁾ تقاسمت في القرن 16م الشرق الجزائري مع أسرة بوعكاز الذواودة، خاصة المناطق الحدودية الشرقية وبسطت نفوذها على كل من الشرق الجزائري من تبسة وسوق أهراس وقالمه إلى غاية حدود تونس الخمير ورغة وفراشيش وغيرها ومن الزيبان إلى نقطة.⁽⁴⁾ وهذه المساحة تتسع وتتقلص على حسب قوتها وضعف الحكم المركزي بتونس وقسنطينة، وهذا الاتساع أعطاهما صفة الإقطاعية، كما أنها كانت تتميز بقوتها العسكرية التي جعلتها تنثور مرارا على الحفصيين،⁽⁵⁾ حيث كانت تملك 8000 جندي مشاة.⁽⁶⁾ كانت الأسرة تشرف على 16 قبيلة، ولشيخها الحرية في إدارتها وحفظ الأمن بها، وجمع الضرائب، للسلطة ويأخذ العشر منها، وهذا مقابل إعفائه من الضرائب أو تخفيضها، وكانت له فرقة عسكرية تشكل حرسه الخاص تدعى "المزارقية" تشبه نوبات البايك.⁽⁷⁾ وقد وصف لنا الشعر الشعبي قوة هذه المشيخة من خلال معاركها في إخضاع القبائل.

نغني على الحناشي كيف التركي في المحلة ماشي
كيف يوصل ياخوتي تبرد الطياح
هذيك اليوم على مرجاجة والبارود العجاجة
البارود العجاجة والطياح كيف الريش
ثم تخلطت العساكر دي محمد وبورنان
هذيك اليوم على بو العقد رأيت النار توقد.⁽⁸⁾

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 46.

(2) - Feraud, Les Harar, ..., p227.

(3) - Vayssette, Histoire de Constantine, p100

(4) - Feraud, Les Harar, ..., p227

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 48.

(6) - Vayssette, Histoire de Constantine, p100.

(7) - معاشي، المرجع السابق، ص 156، 157.

(8) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp67, 68. - Grin, "Notes historiques sur les Nezloua," R.A., N°06, 1862, p434, 435

كان شيخ الأسرة هو الآخر يتلقى قفطان التولية من الباي باسم الباشا حيث يلبسه الباي ثم يبعث به لشيخ الذواودة (بوعكاز) ثم شيخ الحنانشة وهذا مساواة لهما مع الباي،⁽¹⁾ إلا أنه أواخر العهد العثماني كان يرسل مساعده للبس القفطان خوفا من غدر الأتراك بعد سوء العلاقة بينهما.⁽²⁾

كان شيخ الحنانشة يتمتع بامتيازات كثيرة لدى السلطة، فقد اعتبر حاميا للطريق الرابط بين تونس وقسنطينة، كما أُلِيس قفطان التولية مثل الباي واعترافا بسلطته سمح له باستعمال الطابع (الختم) الذهبي مثل الباي ورفع الأعلام وقرع الطبول أثناء سيره من قصر الباي إلى إقامته بعاصمة البايك، كلما حضر لتقديم الضرائب والتي تقدر بـ 10000 بوجو سنويا،⁽³⁾ رغم أن فيرو يشير أنه كان تارة يقدم الضرائب لتونس وتارة لقسنطينة.⁽⁴⁾

اتسمت العلاقة بين الأسرة والعثمانيين في البداية على الرفض التام باعتبار الأسرة حليفة للشابية الرافضة لأي سلطة مركزية، لكن سعي زعيمها خالد الكبير (936هـ/1530م) لإخضاع القبائل الحدودية، أدى إلى الاصطدام مع الذواودة حلفاء العثمانيين، وبعد صراع طويل مع الذواودة انتهى باقتسام المنطقة بينهم،⁽⁵⁾ ثلث لبوعكاز وثلث لأحرار الحنانشة وثلث للأتراك،⁽⁶⁾ حيث سيطر الذواودة على شرق قسنطينة والحنانشة على غربها أما قسنطينة وضواحيها فعادت للأتراك، ومن هنا كان الاعتراف الرسمي للحنانشة بالسلطة التركية.⁽⁷⁾

واستمرت العلاقات بينهما إلى غاية 1046هـ/1637م عندما قام خالد الصغير الحناشي بثورة ضد الأتراك رافضا دفع الضرائب، كما نجد الشيخ بوعزيز بن نصر هو الآخر رفض دفع الضرائب عام 1136هـ/1724م مما دفع بكل من باي تونس وباي

(1) - أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تح.ع. رابح بونار، ش.و.ن. ت. الجزائر، 1982، ص 57.

- Feraud, Les Harar, p205.

(2) - Feraud, Les Harar, p360.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 155.

(4) - Feraud, Les Harar, p346.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 134.

(6) - ابن العطار، المرجع السابق، ص 56، 57. - معاشي، نفسه، ص 135.

(7) - معاشي، نفسه، ص 134.

قسنطينة إلى شن حملة ضده في نفس السنة، أين استوليا على ماله وماشيته،⁽¹⁾ التي قدرت حسب بايصونال (Peyssonnel) بـ 8 آلاف جمل وأبقار وخيام⁽²⁾، كما قاد الباي حسين كلياني (بوكمية) سنة 1549هـ/1736م، حملة ضد شيخها بوعزيز الذي قادت ابنته علجية الدفاع عن القبيلة مع النساء بعدما تقاعس الرجال في مواجهة الأتراك.⁽³⁾

2-3-3- مشيخة بن قانة:

لقد اختلف في نسب هذه الأسرة فأفرادها يرجعون أصلهم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو الشيء الذي ينفيه الكثير من الباحثين الفرنسيين⁽⁴⁾ مثل "فيرو" الذي يرجع نسبهم إلى امرأة تدعى قانة من إحدى قرى جرجرة، طردت من القرية لتصارع الشباب عليها، واستقرت بقرية فليسة ببني عمران أين تزوجت برجل يدعى عبد العزيز الذي أنجبت منه ولد يدعى يحيى بن قانة الذي تفرق أولاده بعد وفاته واستقر أحدهم وهو محمود "برجاص".^(*)

وقد حالف الحظ أحد أحفاده وهو "قانة بن سليمان بن محمد" أن التقى الباش سيار "أحمد القلي" الذي كان ينزل عند قانة كلما احتاج أعمال الحدادة التي اشتهرت بها العائلة أو الاختباء عنده من قطاع الطرق. ونتيجة لهذا تكونت صداقة بينهما انتهت بزواج أحمد القلي بابنة قانة.⁽⁵⁾

وهذه المصاهرة هي التي سترفع أسرة بن قانة إلى مصاف الأسر النافذة ببابليك الشرق بعدما لم تكن يذكر لها أثر، وهذا بعدما يتولى أحمد القلي حكم بابليك الشرق (1756-1762م)، وهذا الأخير تصاهر مع عدة أسر نافذة بالبابليك، على غرار مصاهرة أسرة بن قانة،⁽⁶⁾ فنجد صاهر آل مقران، كما زوج أخت زوجته "مباركة" فرحات ابن شيخ العرب علي بوعكاز،⁽⁷⁾ كما نجد كذلك أحمد باي صاهر هو الآخر أسرة بن قانة.⁽⁸⁾

(1) - نفسه، ص 158.

- Peyssonnel/Desfontaine, Op, Cit, T01, p293.

(2) - Ibid.

(3) - Ibid, p294 et suite. - Mercier, Histoire de Constantine, pp245, 246.

(4) - معاشي، المرجع السابق، ص 82.

(*) - مدينة قرب ميلة شمال غرب قسنطينة.

(5) - Feraud, le Sahara de Constantine..., pp212- 217.

(6) - Mercier, Histoire de Constantine..., p266. - Mercier, Histoire de l'Afrique...T03, p388.

(7) - Mercier, Histoire de Constantine..., p267.

(8) - Feraud, Les Harar..., p391.

منح الباي أحمد القلي لشيخوخها لقب "شيخ العرب" (*) على غرار عائلة بوعكاز، محاولاً بذلك خلق التوازن، والحد من نفوذ أسرة بوعكاز زعماء الذواودة،⁽¹⁾ التي كانت تشكل خطراً على السلطة، لذلك خلقت منافساً لها في المنطقة ودعمته بكل قوة، وهو الأمر الذي ولد تنافس بين الأسرتين استمر حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر.⁽²⁾

تقلدت الأسرة عدة مناصب في العهد العثماني، كما منحت عدة إقطاعات، الأمر الذي جعل منها أسرة إقطاعية واسعة الثراء خاصة منصب شيخ العرب مكنها من الاستفادة بجزء من الضرائب التي تجمعها.⁽³⁾

وبعد أن كان موطنها الأصلي منطقة رجا،⁽⁴⁾ مدوا نفوذهم إلى بسكرة وتقرت والحضنة، لتنتقل الأسرة إلى الصحراء منذ 1175هـ/1762م،⁽⁵⁾ فالورتيلاي يذكر أنه لما زار الزاب 1175هـ/1762م التقى الحاج بن قانة شيخ العرب الذي قال عنه: «وفي هذا اليوم لقينا ولّد الشيخ الذي أزمة العرب في يده... كلمته مقبولة ومنفذة عند الترك الحاج بن قانة... وهو الحمد لله مقبول محبوب عند كل متولي».⁽⁶⁾

لقد سعى الأتراك إلى دعم الأسرة ليس سياسياً فقط بل عسكرياً، حيث كانوا يمدونها بقوات عسكرية رغم رفض السكان لحكمهم، حيث كانت تجند لها مجندين من مختلف القبائل الخاضعة للسلطة، كما ضمت لها قوات من القبائل التي اشتهرت باللصوصية وقطع الطرق.⁽⁷⁾ إضافة إلى قواتها التي كانت تبلغ 900 مشاة و210 فرسان، وهو ما جعلها تصبح قوة عسكرية وسياسية بالمنطقة،⁽⁸⁾ "فحمدان خوجة" يذكر أنه كان بإمكان الشيخ بن قانة أن يجند 10000 فارس أواخر العهد العثماني.⁽⁹⁾

(*) - كان هذا يجدد مع كل باي جديد، حيث نجد أحمد باي جدد ما قام به أحمد القلي فمنح لقب شيخ العرب للشيخ محمد بلحاج بن قانة. - Mercier, Histoire de l'Afrique...T03, p551.

(1) - Mercier, Histoire de Constantine..., p268. - Ibid, p388.

(2) - Mercier, Histoire de Constantine..., p268.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 85، 89.

(4) - Mercier, Histoire de Constantine..., p266. - Mercier, Histoire de l'Afrique...T03, p388.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 85.

(6) - الورتيلاي، المصدر السابق، ص 105.

(7) - معاشي، المرجع السابق، ص 88.

(8) - Mercier, Histoire de Constantine, pp308, 309.

(9) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 82.

رغم الدعم الذي قدمته السلطة لهذه الأسرة حيث جعلت منها أسرة نافذة تتحكم في مناطق واسعة من الصحراء، إلا أنّ هذه الأخيرة لم تكن في مستوى تطلعات السلطة، بسبب تنافسهم على منصب (مساعد الباي)، رغم أنه منصب شرفي. بحيث لما تولى محمد الصغير بن قانة المنصب، أثار هذا بقية أفراد الأسرة مثل بولخراس وإبراهيم بن قانة، اللذان احتجا لدى الباي، في الوقت الذي كان فيه شيخ العرب محمد الذباح بن بوعكاز كان يمارس مهامه بحرية بالصحراء، وبسبب التنافس بين أفراد الأسرة قام الباي انجليز سنة 1803م بدعوة "بولخراس" و"علي بلقيدوم" وألقي القبض عليها في الوقت الذي تم سجن إبراهيم بن قانة. بعدها قام بقتل إبراهيم وبولخراس في حين فرّ بلقيدوم إلى جبال متليلي وأعلن الثورة على الباي وهو الذي قتل ابن أخيه محمد الصغير بتهمة خيانتة للعائلة، وبقي علي بلقيدوم بعيدا عن الساحة السياسية حتى تولى صهر العائلة الباي عبد الله الحكم سنة 1803م فأعاد بلقيدوم لمشيخة العرب، لكن تم قتله من طرف الباي المملوك عندما تولى الحكم 1233هـ/1818م،⁽¹⁾ لتعود مشيخة العرب فعليا لعائلة بوعكاز، أما أسرة بن قانة فقد شهدت بعدها صراعات مع البايات بعدما أعادهم الحاج أحمد باي إلى الواجهة ضد عائلة بوعكاز لما كان خليفة للباي محمد الميلي (1819/1233م)، وهو ما تسبب في تمرد الشيخ ذباح بن بوعكاز ضد الباي لكنه، هزم وعيّن بلمسعي بن إبراهيم شيخا للعرب لكنه قتل بالسّم في طريقه لتولي منصبه في الصحراء وعيّن مكانه محمد بولخراس الذي طرده الباي إبراهيم لتجاوزه لمهامه لتعود المشيخة من جديد لعائلته بوعكاز.⁽²⁾

2-3-4- مشيخة أولاد سيدي الشيخ:

من بين القبائل المرابطية بالصحراء، والتي شكلت ما يسمى "الأجواد" ذات الطابع الحربي والأصل الديني.⁽³⁾ ظهرت في القرن 17م في الجنوب الوهراني،⁽⁴⁾ الأغلبية يرجع نسبهم إلى الخليفة أبو بكر الصديق، فهم من أصل عربي قريشي قدموا من الحجاز إلى

(1)- Feraud (CH), "Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine", in R.A., N°27, 1883, pp326, 327.

(2)- معاشي، المرجع السابق، ص 296، 297.

(3)- Daumas, Mœurs et Coutumes...., p314.

(4)- Boyer, Contribution...., p 15. - Cour, L'Etablissement des dynasties des Cherifs du Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger, Leroux, Paris, 1904, pp96, 97.

-سعد الله، على خطى....، ص 192.

تونس مروراً على مصر ثم الجزائر والمغرب، استقر جدهم ناحية البيض في العهد الزباني.⁽¹⁾

لكن في رسالة بعث بها الأمير عبد القادر إلى الجنرال دumas (Daumas) في عام 1271هـ/1854م، الذي طلب منه شجرة العائلة Vous m'avez demandé ma généalogie la voici !

أنا عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد..... بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن فاطمة وعلي بن أبي طالب،⁽²⁾ فهذه الرسالة وإن كانت صحيحة تثبت أن نسبهم يعود للنبي (ص) وليس لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أشهرهم جدهم الشيخ عبد القادر بوسماحة (ت 1024هـ/1615م) مؤسس الطريقة الشاذلية،⁽³⁾ وهو ما اكتسب سيدي الشيخ نفوذاً واسعاً على معظم قبائل الجنوب الوهراني، حيث أنه جمع بين العلم والصلاح. أسس زاوية بالبيض كان قادري الطريقة ثم تحول إلى الطريقة الشاذلية التي أوصى أبنائه، الذين توارثوا تراثه بإتباعها.⁽⁴⁾

ترك الشيخ ابناً يدعى سليمان الذي استقر بقيق أين أسس زاوية بقصر بني وسيف، وترك عدة أولاد ومنهم الشيخ بن الدين الذي أصبح شيخاً للقبيلة ولزاوية سيدي الشيخ،⁽⁵⁾ التابعة للطريقة الشاذلية القادرية، حيث كان سيدي الشيخ أحد تلامذة أحمد بن يوسف الملياني. وقد استغلوا نسبهم الشريف ونفوذهم الروحي لكسب الكثير من الأتباع⁽⁶⁾ فهم كانوا يرددون أن الرسول "ص" دعى لأبي بكر الذي يعود له نسبهم بقوله «الله يجعل ركوبك ساس (حصان) وركبتك تنباس، ذريتك تتعشى وذريتي تبقى بلاش».⁽⁷⁾

لقد سعى أولاد سيدي الشيخ لضم العديد من القبائل التي دخلت في خدمتهم وسميوا "بالخدام"، حتى بعضها كان يقصد الشيخ من أجل الدعاء للمواليد الجدد أو للمرأة العاقر أو لشفاء مريض أو من أجل طلب المطر وسلامة مواشيها،⁽⁸⁾ ويقدمون له

(1) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ج2، ص 179. - سعد الله، على خطى.....، ص 192.

(2) - Alex Bellemare, Abd-El-Kader Sa Vie Politique Et Militaire, librairie Hachette et Cie, Paris, 1863, p14.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 103.

(4) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 207.

(5) - Rinn, Marabouts et khouans ..., pp351, 355.

(6) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 180.

(7) - Daumas, Mœurs et Coutumes....., p319.

(8) - Ibid, p319.

الزيارات والغفارات(*) التي يفرضونها على أتباعهم حيث قدرت مداخلهم في القرن 19م 80 ألف فرنك.⁽¹⁾

حظيت الأسرة باحترام القبائل خاصة التابعة لها مثل الشعانية ورقلة، المخادمة، أولاد خليف، جزء من الأحرار، جعافرة، جبل عمور... كما حافظوا على نسلهم بعدم زواجهم(**) إلا فيما بينهم فقط.⁽²⁾

لها عدة زوايا تنتشر بوهران والجنوب الغربي (البيض وعين الصفراء)، فقد بلغ عدد زواياها 05 زوايا و 39 مقما و 2780 مريدا،⁽³⁾ لكن "كوبولاني" يذكر أن لهم 04 زوايا و 95 مقما و 10216 مريدا،⁽⁴⁾ ومنهم من يذكر أن لها 50.000 مريد.⁽⁵⁾

ونتيجة لكثرة موارد الزاوية الأم حدث خلاف بين أفراد العائلة، حيث كانت المداخل تسلم لأبناء الشيخ الحاج بوحفص الذي عارضته ذرية الحاج عبد الحكيم، فهاجم سليمان بن قدور أولاد عبد الحكيم ونهب قطعانهم في واد سوقر، بمساعدة أولاد حميان وأولاد بوحفص، فرد عليه الشيخ سي العربي بن الدين بهجوم في واد غربي، لهذا السبب انقسموا إلى صف الشراقة بالقصر الشرقي وصف الغرابة بالقصر الغربي.⁽⁶⁾ وكل منهم أسس زاوية خاصة به ليتوصلوا عام 1766م إلى اتفاق يقضي باقتسام المداخل على ثلاث أقسام:

- قسم للزاوية الأم جنوب وهران.
- قسم للزاوية الغربية.
- قسم للزاوية الشرقية التي استحوذت على ثلثي 3/2 لأن الزاوية الأم تقع في جهتها.⁽⁷⁾

(*) - كانوا يتلقون ضريبة الغفارات تقريبا من كل البدو بالصحراء، جنوب ورقلة، متليلي، جبل عمور، البيض، الشط

الشرقي والغربي، فقيق تيارت قوادر، تيدكليت. Rinn, Le Royaume d'Alger, p73.

(1) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج2... ص 180.

(**) - كانوا يختارون عند الزواج إلا الجميلات لذلك تتميز الأسرة بالجمال وحسن اللباس.

- Daumas, Mœurs et Coutumes....p326.

(2) - Ibid, pp321, 326.

(3) - Rinn, Marabouts ..., p368.

(4) - Depont-Coppolani, Op, Cit p475.

(5) - G.André (P.J), Op, Cit, p239.

(6) - Rinn, Marabouts..., pp356, 357. - Daumas, Mœurs et Coutumes...p316.

- صالح عباد، المرجع السابق، ص165.

(7) - Ibid, pp357, 358.

- نفسه، ص 165.

بسطة الزاوية نفوذها على كامل الصحراء الجزائرية حتى تافيلالت بالمغرب⁽¹⁾ من ورقلة شرقا إلى فقيق غربا وجنوب سعيدة شمالا إلى توات وقورارة جنوبا.⁽²⁾ وبما أن المشيخة اهتمت بالأمور الدينية لم تلق معادة من طرف العثمانيين بل حصلوا على امتيازات كإعفائهم من الضرائب،⁽³⁾ أو أنهم يدفعون مبالغ رمزية فقط فمثلا على كل حمولة جمل كانت تدفع 6 فرنك،⁽⁴⁾ أو يكتفون بتقديم بعض الهدايا كدليل على استمرار علاقاتهم وتحالفهم مع السلطة. رغم أنها لم تكن تمنح لهم الوجود الفعلي على أراضيها، وربما يرجع هذا الإجراء لكونهم تابعون للطريقة القادرية التي يحميها السلطان العثماني، أو لأن لها نفوذ كبير على المنطقة.

لقد شكل أولاد سيدي الشيخ سندا للسلطة المركزية ضد المتمردين عليها، حيث عملوا على إخضاعهم لها وجمع الضرائب باسمها في مناطق نفوذهم ونظرا لمكانتها بين القبائل لم يكن البايات يجلبون معهم لجمع الضرائب إلا 100 فارس مخزني كما أنها حظيت باحترام لدى البايات الذين كانوا عند قدوم شيخها إلى وهران يرسل الباي لاستقباله فرسا مسرجا والموسيقيين ويطلق سراح العبيد على شرفه واحتراما له،⁽⁵⁾ وهذا دليل على المكانة التي حظيت بها هذه الأسرة، رغم أنها لم تمنح الوجود الفعلي للسلطة على أراضيها. فقد شكلت أرستقراطية وطريقة شبه مستقلة تحظى بنفوذ واسع حتى كان شيوخها يجمعون الضرائب لصالحهم.

فحسب "رين" فهي ليست جماعة دينية أو طريقة أو حتى جمعية خيرية بالمعنى الحقيقي، إنها خلية من تأثيرات مرابطية في أيدي أشخاص غالبا ما يكونوا منقسمين، لكن أصلهم واحد ويضعون سلطتهم الدينية تحت إمرة مزدوجة.⁽⁶⁾

وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإن أسرة سيدي الشيخ مزجت بين الدين والسياسة، فمن يدرسها على أنها طريقة مع مرور الوقت يكتشف أنها إقطاعية اقتصادية وسياسية، واتحادية كبرى ضمت العديد من القبائل والأعراش والنفوذ، ومن يدرسها على أنها إمارة

(1)- Cour, Op, Cit, pp96, 97.

-G. André (P.J), Op, Cit, p238.

- Rinn, Marabouts ..., p158.

(2)- Rinn, Marabouts..., p368.

- Depont/Coppolani, Op. Cit, p499.

(3)- Cour, Op, Cit, p97.

(4)- Merad Boudia, Op, Cit, p365.

(5)- Esterhazy, de la domination, Op, Cit, p270.

(6)- Rinn, Marabouts ..., p350.

وسلطة حاکمة سيجد نفسه أمام قوة روحية وشخصيات مرابطة كبيرة،⁽¹⁾ فهي مزيج بين أهل الدنيا والدين.⁽²⁾

وما يمكن أن نقول في الأخير هو أن هذه المشيخات الوراثية الفرق بينها وبين قبائل المخزن أنه كان يسمح لها باختيار شيوخها، كما أن عدم تدخل السلطة في شؤونها الاقتصادية، خاصة بالشرق الجزائري كان سببا في ازدهار اقتصاد البايك، الذي سيطر عليه إقطاع السيف أو الأجواد، وهو ما جعل البايك أغنى البايالك، وهو من يقدم أكبر الدنوش من 80 إلى 100 ألف سكة مقابل 40 إلى 50 ألف لبايك الغرب و12 ألف لباي التيطري.⁽³⁾

كما أن الظروف الجيوسياسية المختلفة بين الشرق والغرب، جعلت هذه المشيخات تبرز في الشرق الجزائري أكثر من الغرب. الذي كان يتواجد به الخطر الاسباني أين نشطت فيه السلطة الروحية أكثر من السلطة القبلية، وتقاربت مع السلطة السياسية لمحاربة الخطر الخارجي وحتى القوى الداخلية المعادية للبايك. عكس بايك الشرق الذي سادت فيه المشيخات القبلية وحتى الدينية التي تعامل معها البايك كقوة حليفة لا تابعة.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 105.

(2) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 180.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 176.

القسم الثاني

السلطة الروحية والمجتمع

الفصل الثالث: الأسس التاريخية والسوسيولوجية للسلطة الروحية

الفصل الرابع: التنظيم الاجتماعي للسلطة الروحية

الفصل الثالث

الأسس التاريخية والسوسيوقافية
للسلطة الروحية

1- الأسس التاريخية والاجتماعية لبروز السلطة الروحية/أثر الأوضاع السائدة في بروز السلطة الروحية

1-1- الفراغ السياسي وظهور الزعامات المحلية مطلع القرن 16م:

مع مطلع القرن 10هـ/16م شهدت الجزائر وضعاً متدهوراً، حيث تعرضت للتهديدات الإسبانية على عدة مدن ساحلية. والذي تزامن مع عجز السلطة السياسية الحفصية والزيانية في صد هذه التهديدات، إضافة إلى الصراعات الداخلية التي أدت إلى الفوضى، لذلك ظهرت وحدات سياسية مستقلة تحت حكم قبلي يتزعمها شيوخ القبائل أو شيوخ الدين، ففي هذه الفترة ورغم وجود دول بمنطقة المغرب الاسلامي إلا أنها كانت دولا بالاسم فقط، حيث شهدت استقلال القبائل التي تصارعت فيما بينها. ولم ينج من هذه الظاهرة إلا المدن وما جاورها، فمثلا ضعف السلطة المركزية بتلمسان فسمح المجال للسلطة الروحية خاصة الطرق الصوفية والصالحين (مرابطيين)،⁽¹⁾ الذين كانوا أكبر المساهمين في ضعفها واسقاطها. مثل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي كان ضد الحكم الزياني وساهم في القضاء عليهم بتحالفه مع الأتراك فيما بعد.

وبهذا لم يعد للسلطة الزيانية أي نفوذ حتى على المناطق التابعة، وأصبحت الأرياف والمناطق الجبلية تحت وطأة شيوخ القبائل أو الطرق الصوفية أو العائلات المرابطية، التي عملت على حفظ الأمن والنظام، والسهر على تنفيذ القانون، والدفاع على الناس وحمايتهم مثلما قام به المرابط سيدي هجرس بالهضاب العليا نهاية القرن 15م، حيث جمع تحت قيادته 100 قبيلة، وهاجم السلطان الحفصي مولاي عثمان في طريقه من تونس نحو تلمسان.⁽²⁾ كما نجد أنه في سنة 916هـ/1510م القاضي والمرابط هما اللذان وقعا الاتفاق بين الإسبان والجزائريين بمستغانم،⁽³⁾ وهذا بسبب انعدام سلطة سياسية فعلية، فتولت السلطة الروحية الأمر.

لقد ظهر دور السلطة الروحية جليا خاصة بعد وصول الأسر المرابطية إلى الجزائر قادمة من المغرب الأقصى، والتي أطلقت أسمائها على قبائل بأكملها، هذه الأسر أسست زوايا وأصبحت مراكز استقطاب للقبائل بالمنطقة في ظل غياب سلطة مركزية

(1) - سعد الله، على خطى...، ص 189.

(2) - نفسه، ص 191. - Trumelet, l'Algérie légendaire, p300. - Boyer, Contribution...., p14.

(3) - نفسه ص 193.

قوية، حيث عملت على الوعظ والإرشاد والتعليم، وهو ما جعل القبائل تلتف حولها وتحمل أسماءها،⁽¹⁾ وقد سعت هذه الأسر لتكوين إمارات أو مشيخات ذات منشأ ديني، وبهذا ظهرت كيانات ومشيخات دينية شريفة، مثل مشيخة الثعالبة بمدينة الجزائر، إمارة كوكو غرب منطقة القبائل، ترأسها أسرة ابن القاضي وإمارة بني عباس تحت حكم أسلاف المقرانيين،⁽²⁾ وغيرها من الأسر المرابطية وحتى القبلية التي ملأت الفراغ الذي تركته السلطة المركزية، مثل الذواودة والحناشنة وابن قانة وأولاد سيدي الشيخ وغيرها كما رأينا سابقاً.

أ- مشيخة الثعالبة:

بطن من بطون قبائل المعقل الهلالية، وهم ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير، استوطنوا التيطري ثم أزيحوا إلى متيجة،⁽³⁾ تنقلت في الصحراء حتى تكديت، ثم سيطرت على مدينة الجزائر ودلس، وتعتبر المشيخة قبيلة ذات شرف وشجاعة بلغ عدد فرسانها ثلاثة آلاف رجل.⁽⁴⁾

دخل الثعالبة في البداية تحت حكم إمارة مليكش من صنهاجة، وبعد سقوطها على يد بني مرين استبدوا بحكمهم،⁽⁵⁾ أواخر القرن 7هـ/13م، رغم أنهم كانوا يؤدون المغارم للمرينيين وبني حفص.⁽⁶⁾ كانت رياستهم في ولد سباع بن ثعلب عهد الموحدين ثم في بني يعقوب بن سباع ثم انتقلت إلى عقب حنيش لتستقر في سالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي عبيد بن ثابت بن محمد بن سالم، الذي قتله أبو حمو الثاني عام 779هـ/1377م.⁽⁷⁾

ثم اختفى أفرادها الذين تمت إبادتهم أو استعبادهم على يد الزيانيين،⁽⁸⁾ وبعد تحالفه مع ابن عم أبو حمو أبا زيان بن عثمان، ومبايعته على مليانة والمدية وهو ما سمح له برفع المغارم على أهله، لكن سنة 771م/1369م سار إليه أبو حمو وأخضع

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 25، 26.

(2) - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة....، ص 93.

(3) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 77 و 84.

(4) - الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 56.

(5) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 84.

(6) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم...، ج 2، ص 370.

(7) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ....، ص 85.

(8) - Devoulx, Les édifices religieux..., p37.

الثعالبة، وأخذ عليهم جباية السنوات الماضية، ثم طلب سالم بن إبراهيم الأمان لنفسه وعاهده على مفارقة أبي زيان فمنحه إياه، لكن أبا حمو بقي يُذمر السوء لسالم لعدم احترامه للعهد، لذلك سار إليه في فصل الشتاء، ففر سالم إلى جبال بني خليل لكن أبو حمو تتبعه حتى قتله ثم تتبع قبيلته بالقتل والسبي.⁽¹⁾

وبعد مقتل حاكم مدينة الجزائر من طرف سكانها عام 842هـ/1438م، وضعوا أنفسهم تحت حكم الثعالبة المترعين على القسم الأكبر من متيجة تحت رئاسة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي،⁽²⁾ الذي حكم المدينة وسهول متيجة حكما ذاتيا،⁽³⁾ بعدما كانت المدينة محل نزاع بين الحفصيين والزيانيين.⁽⁴⁾ وبقي في حكمها حتى وفاته سنة 873هـ/1468م، أين تولى حكم مدينة الجزائر منافسيهم من أولاد سالم بن إبراهيم الذين كان حكمهم شديدا على السكان، ثم أعلنوا ولاءهم للأسبان سنة 1510م، حتى يتجنبوا احتلالهم للمدينة، ليتم القضاء عليهم بعد مقتل سالم التومي على يد عروج بربروس لما دخل المدينة سنة 1516م.⁽⁵⁾ التي أصبحت تحت حكم العثمانيين.

ب- إمارة بني العباس:

هي أسرة مرابطية إقطاعية تعتبر من المشيخات الوراثية أو الأجواد الذين برزوا بعد الضعف الذي آل إليه المغرب الأوسط نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م، حيث امتد نفوذهم غرب بايلك قسنطينة من جبال البابور شمالا حتى الزاب جنوبا مقسمة الزعامة مع أولاد بوعكاز جنوبا وأسرة أحرار الحنانشة شرقا.⁽⁶⁾

يرجع معظم الباحثين أصلهم إلى الأدارسة بالمغرب الذين نزح الكثير منهم واستقروا بالجزائر، أين كونوا أسراً وقبائل مرابطية، مرجعيتها العصبية القبلية أو الدعوة الدينية التي نواتها ومرجعها الولي الصالح أو الشيخ الصوفي المرتكز على النسب

(1) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم...، ج2، ص 371، 372.

(2) - نفسه، ج3، ص 43.

(3) - عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978م، ص 25.

(4) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم...، ج3، ص 443، 444.

(5) - نفسه، ج2، ص 43.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 54.

الشريف، فالورثيلاني يشير إلى نسبهم الشريف بقوله: «وقد رأيت في طبقات ابن فرحون أنه نص على شرفهم والله أعلم»⁽¹⁾.

وهناك من يرجع أصلهم إلى قبائل عياض أحد بطون قبائل الأتبع الهلالية اعتماداً على ما ذكره ابن خلدون والتي كانت تضم عدة قبائل منها أولاد عبد السلام وأولاد عبدوس أو غندوس،⁽²⁾ أو قندوز حسب ما ذكرته "معاشي" وهذان الاسمان عرفا بهما فرعان من أولاد مقران خلال العهد العثماني،⁽³⁾ و حسب ابن خلدون فإن قبائل عياض: "نزلوا بجبل القلعة قلعة بني حماد غلبوا قبائله وغلبوهم على أمرهم، وصاروا يتولون جبايتهم" ولهم عدة بطون منها أولاد حناش الذين كان يرأسهم أولاد عبد السلام وأولاد عبدوس ورئاستهم في بني صالح.⁽⁴⁾

أما صاحب الاستقصاء فيشير إلى أن جد بني عباس الشيخ عبد الرحمن الإدريسي نزح مع الشيخ عمر بن القاضي والد الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي حاكم إمارة كوكو، بقوله: «قد نزح من ناحية معسكر.... إلى بلاد جرجرة حيث أنشأ زاوية في قرية كوكو وذلك في أوائل القرن 10هـ/16م وهو الوقت الذي نزح فيه السيد عبد الرحمن الإدريسي رأس العائلة المقرانية من ناحية معسكر أيضا إلى بلاد زواوة لأخذ العلم على الشيخ عمر بن القاضي، ثم انتقل السيد عبد الرحمن الإدريسي من بلاد زواوة إلى بني عباس وأنشأ القلعة المسماة باسمهم وهناك ظهر أمره... وأقام دولة دامت ما يقرب مائة عام، ونافس آل القاضي خاصة أيام عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحمن...»⁽⁵⁾.

و هو ما يذهب إليه "فيرو" الذي يذكر أن سيدي عبد الرحمن دخل من المغرب واستقر بقرية "كوكو" أين أخذ العلم على الشيخ "سيدي عمر بن القاضي" ونظرا لسعة علمه قصده الناس من كل جهة وهو ما أثار غيرة شيخه، وخوفا على نفسه فرّ إلى ضفاف واد الساحل الذي يفصل جرجرة عن جبال بني عباس واستقر هناك وأسس زاوية (بالقربة "Korraba")^(*) أين التف حوله الكثير من المريدين. وفي يوم دخل سوق الأربعاء

(1) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 11.

(2) - الملي، المرجع السابق، ج2، ص 196.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 54.

(4) - ابن خلدون، ديوان المبتدأ ...، ص 30 و 33.

(5) - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ص 134.

(*) - وتسمى قرية تقربت تقع ببني عباس قرية اغيل علي ببجاية.

قرب جبل علي، وشاهد سوء المعاملة التي يتلقاها بنو عباس من طرف قبائل زاوأة التي كانت تجند 400 رجل من بني عباس أسبوعيا لحمل الخشب الذي تعلق عليها الغنم والماعز بعد ذبحها، ولما سأل مسؤول السوق عن الأمر أجابه أنها عادة السوق ولا يمكنه تغييرها، وكان هذا السبب في استدعائه لكبار بني عباس وحرضهم ضدهم، لكنهم أجابوه أن زاوأة أقوى منهم وليس عندهم من يحميهم لذلك اقترحوا عليه تخليصهم مقابل الولاء له ولذريته ودفع الضريبة لهم، فقبل الشيخ وأمرهم أن يحملوا معهم سلاحا تحت برانيسهم يوم السوق وعند إشارته يهجمون على زاوأة، وهو ما حصل فعلا ليتم طرد زاوأة من السوق، ويحصل بنو عباس على استقلالهم تحت حكم الشيخ عبد الرحمن إلى غاية وفاته⁽¹⁾ سنة 906هـ/1500م، أين دفن بالقرابة.⁽²⁾ ليصبح ضريحه مزاراً للعديد من القبائل، وبعد وفاته خلفه ابنه أحمد الذي سار على نهج والده، وبني مدرسة بزرروالة قرب "شواريح"، ونظرا للمضايقات التي يتعرض لها من زاوأة قرر نقل زاويته إلى قلعة بني عباس.⁽³⁾ أين أبن حصن نفسه من هجمات أمير كوكو المتتالية بهدف إعادة قبائل بني عباس إلى نفوذه لكنه فشل لحصانة المنطقة وشجاعة وحسن تسليح قبيلة بني عباس.⁽⁴⁾

بعدها توالى انهزامات أمير كوكو أمام شهرة الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الذي التفت حوله العديد من القبائل، واتسع نفوذه من واد الساحل حتى الحصنة واتخذ لنفسه لقب "سلطان"⁽⁵⁾ إلى غاية وفاته سنة 1510م حيث دام حكمه 10 سنوات ليخلفه ابنه عبد العزيز.⁽⁶⁾

ولهذا تعتبر الكثير من المصادر أن سيدي أحمد بن عبد الرحمن هو المؤسس الفعلي لإمارة بني عباس،⁽⁷⁾ التي ظهرت على أساس ديني بعد التقاف القبائل حول زاوأة

(1)- Feraud (CH), Histoire des villes de la province de Constantine, Setif, Bordj-Bouariridj, M'Sila et Boussaâda, L. Arnault, Constantine, 1872, pp204- 206.

(2)- معاشي، المرجع السابق، ص 50.

(3)- Feraud, Histoire des villes, Setif..., pp207-209.

(*)- تقع القلعة في موقع جبلي وعرة حيث بنيت في قمة صخرة ليس لها إلا مدخل واحد، مما سهل حراستها بعدد قليل من الجنود. يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر ميلادي، تر. سامية سعيدة عمارة، تق. محفوظ قداش، دار دحلب، الجزائر، 2009م، ص 52.

(4)- معاشي، المرجع السابق، ص 56.

(5)- Rinn, Histoire de l'instruction, p10.

(6)- Feraud, Histoire des villes, Setif..., pp210, 211.

(7)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص36. Fearud, histoire des villes..., Gigilli, p176.

- Boyer, contribution...p15.

الأسرة التي كانت مقصداً للطلبة والعلماء من مختلف الجهات. حيث يقول الورثياني: «ولعل جدهم... وهو من القرن التاسع (15م) وولده هو الذي بنى قلعة بني عباس وأقام المملكة فيها بأن أسس العساكر، وجيش الجيوش وأخذ المغرم في القرن العاشر (16م) بأن وصلت عساكره عمالة تونس وواد ريغ في الصحراء ومن جهة المغرب ميزاب وبلد الأغواط وهو كذلك في المملكة ثمانون سنة، كما سمعته من بعض الفضلاء».⁽¹⁾

لكن هذه الأسرة تخلت عن المنهج الديني للأجداد لتسلك طريق القوة العسكرية والعمل السياسي في المنطقة واتصف أبناؤها بالجور والتعدي على الناس وثورتهم ضد الحكم المركزي،⁽²⁾ وفي هذا يقول "الورثياني": «ومن هم الشيخ والولي الصالح... الشريف نسبا كما هو عند ابن فرحون في طبقات الشرفاء سيدي احمد بن عبد الرحمن... وأولاده الآن معلومون بالجور والتعدي والظلم في مجانة... أمراء ومحاربون...»⁽³⁾ كما أنه ذكر في موضع آخر أن جدهم أحمد بن عبد الرحمن أخبر شيخه يحي العبدلي أنه رأى في منامه النار تخرج من بوله، فعبره له الشيخ على أن من أولاده من يصير من أهل الظلم والجور وكان الأمر كذلك.⁽⁴⁾

وقد وصفهم "مارمول" (Marmol) بأنهم أغنياء يملكون مختلف أنواع الماشية، وفيهم عدد من المحاربين حملة البنادق والفرسان... وهم يتصفون بالشجاعة وبأيديهم كثير من أسلحة النارية.⁽⁵⁾

بعد وفاة أحمد بن عبد الرحمن خلفه ابنه عبد العزيز الذي أظهر المودة لجميع الناس الذين عاشوا في سلام معه حتى استولى عليها الإسبان سنة 916هـ/1510م،⁽⁶⁾ وفي عهده تزعموا منطقة مجانة وبني عباس وما جاورها من القبائل الغربية لبابلك الشرق مثل قبائل ونوغة المتكوّنة من 15 قبيلة، وأولاد خلوف والبابو، وفرجيوة وزواوة وبلزمة

-Feraud (CH), Histoire de Bougie..., p120. -Feraud (CH) "exploitation des forets de la karasta dans la kabylie orientale sous les turcs" in **R.A.**, N12, 1868, p383.

(1) - الورثياني، المصدر السابق، ص 36.

(2) - معاشي، المرجع السابق، ص 58.

(3) - الورثياني، المصدر السابق، ص 36.

(4) - نفسه، ص 11.

(5) - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 376.

(6) - نفسه، ص 376.

والزيبان وواد ريغ،⁽¹⁾ وأولاد ماضي، والمنصورة، سيدي موسى، ومزينة وحمزة وبني منصور وكل قبائل بني عباس،⁽²⁾ كما جعل من قبيلة "هاشم"(*) الحرس الخاص للأسرة حيث تعمل على حفظ الأمن بالمنطقة ومرافقة شيوخ بني عباس في تحركاتهم، وتزايدت عدد قواتها من 200 فارس بداية القرن 10هـ/16م إلى 1600 فارس في عهده أين قطعها أراضي تستقر عليها⁽³⁾ حيث استطاع تكوين جيش قدر بـ 10.000 جندي مشاة وعدد كبير من الفرسان الذين قسمهم على مجموعتين قسم في "تالة مزينة" وآخر في "تازلة" كما بنى برجين لإيواء الجند على كل منهم خليفة.⁽⁴⁾

بعد تولي عبد العزيز الحكم ظهرت عدة ثورات ضده من طرف أخيه أبي بكر الذي كان حاكما على قسنطينة بسبب طموحه للسيطرة على بجاية، التي حاصرها عدة مرات منها سنة 1503 و1504م، لكنه فشل أمام صمود بني عباس وكان كل مرة يحاصر المدينة يلحق بها أضرارا، حيث تهدم البيوت وتحرق المزروعات،⁽⁵⁾ مثلما حدث عام 1507م أين حاصرها 40 يوما وقبل مغادرته قطع الكثير من الأشجار، بعدها وفي سنة 1509م سار إليه عبد العزيز بنفسه وطرده من قسنطينة ونصب ابنه أبو فارس حاكما لها،⁽⁶⁾ وهو الذي حارب الإسبان وهزم أمامهم في نجدته لوهران سنة 1509م.⁽⁷⁾

وفي سنة 1510م استولى بيدرو نافرو (Pedro Navaro) على بجاية رغم مقاومة ابني الأمير عبد العزيز أبو فارس، وأبو عبد الله اللذان قتلا في المعركة، ورغم الدعم الذي وصل من قسنطينة، الجزائر، دلس، تنس، طرابلس إلا أن المدينة سقطت في يد الإسبان.⁽⁸⁾ فلما استولى بيدرو نافرو على بجاية تحالف قريب الأمير عبد الله مع الإسبان وأخبرهم بمكان عبد العزيز الذي فرّ إلى الجبال، وحسب "مارمول" أن عبد العزيز اغتصب الحكم من قريبه لما تركه خليفة له على المدينة لما خرج في حملة جمع المغارم

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 59، 60.

(2) - نفسه، ص 164.

(*) - هي قبيلة الحشم التي جلبت من بابلوك الغرب، بعد مشاركته العثمانيين في حملتهم نحو بابلوك الغرب.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 60.

(4) - Feraud, Histoire des villes, Setif..., p217. - معاشي، ص 61.

(5) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 34، 35.

(6) - Feraud (CH), la Conquête de Bougie par les espagnols" in **R.A.**, N°12, p248- 251.

(7) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 38.

(8) - Mercier, Histoire de Constantine..., p183. - Feraud, Conquête de Bougie..., pp254, 255.

ولما عاد وجد السكان قد بايعوا عبد العزيز، الذي ألقى القبض عليه وأعماه وسجنه ولما جاء الإسبان دلهم قريبه على مكان الأمير عبد العزيز بعدما عالجوه من عينه.⁽¹⁾(*)

بعدها انتقل عبد العزيز إلى قسنطينة ومنها سار لقتال أبي بكر الذي تمكن من قتله في منطقة "تكركات" بين سطيف وبجاية سنة 1510م،⁽²⁾ ولما عاد أبو بكر إلى قسنطينة وجد الناس قد بايعوا أبا العباس خلفا لوالده عبد العزيز، فتوجه إلى بجاية لاسترجاعها من الإسبان، لكنه وجد العباس قد عقد هدنة معهم من أجل القضاء على عمه والتأثر لأبيه، فعاد إلى قسنطينة لكنه فشل وهذا بعد شهر واحد فقط من وفاة أخيه عبد العزيز في جويلية 1510م.⁽³⁾

فالإسبان وبعد احتلالهم لبجاية استقروا في الساحل فقط وشرعوا في إقامة علاقات مع القوى المحلية لحماية خلفيتهم لذلك دخلوا في مفاوضات مع أبي العباس سنة 1511م تحت وساطة أبو محمد بن عبد الله أحمد بن القاضي الغبريني، حيث أبرمت معاهدة بين أبا العباس وحاكم بجاية أنطونيو دي رافادينا، اعترفت فيها إسبانيا لعبد الرحمن وأخوه أبا العباس بالسيادة على البلاد الداخلية دون السواحل وبهذا عيّنوا هذا الأخير أميرا للقلعة للوقوف ضد عمه أبي بكر،⁽⁴⁾ الذي حاصره في القلعة لكنه فشل في الوصول إليه بسبب تحصينات القلعة وبسبب تساقط الثلوج التي أعاقته في الوصول للقلعة،⁽⁵⁾ وحسب "هايدو" فإن أمير القلعة هو الذي استنجد بالأتراك عند دخول الإسبان إلى بجاية.⁽⁶⁾

(1) - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 377، 378.

(*) - لكن أحمد توفيق المدني يذكر أن عبد الرحمن بن عبد العزيز هو من اغتصب الحكم من مولاي عبد الله، بعد أن أعماه وسجنه، ولما وصل الإسبان إلى سواحل بجاية، أطلقوا سراحه وعالجوا عينه، ونصبوه أميرا على بجاية، مقابل ولائه لهم، لذلك دلهم على مكان الأمير عبد الرحمن الذي فر إلى الجبال، لكن لما رأت أن تحالفها مع عبد الله لم يجلب لها نفعاً، عقدت سنة 1511م معاهدة معه ومع الأمير عبد الرحمن، الذي اعترفت لها بسلطته على المناطق الجبلية، وتقديمه للجزية، إضافة إلى اعترافه بسلطة الإسبان على مدينة الجزائر ودلس وكل المناطق الساحلية الشرقية، وإطلاق الأسرى الإسبان وتقديم كلا الأميرين لابنيهما كرهينة، لضمان تنفيذ المعاهدة.... - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة...، ص 132، 135.

(2) - يوسف بنوجيت، ص74. - Feraud, Conquête de Bougie..., p338

(3) - Feraud, Ibid, p339 et suit. نفسه، ص 74.

(4) - نفسه، ص 95، 96، و110.

- Mercier, Histoire de l'Afrique, To2, p427. - Feraud, La conquête..., p342

(5) - Feraud, Ibid, p344.

(6) - Haedo, Histoire des Rois..., p10.

و بعد وفاته خلفه ابنه عبد العزيز (1512-1559م) الذي تقرب من الأتراك لما علم بكرههم لأمراء كوكو الذين كانت لهم معهم عدواة قديمة، وعقد مع الحسن بن خير الدين هدنة.⁽¹⁾ لكن ساءت فيما بعد العلاقات بين الطرفين، حيث تحالف مع الإسبان ضد العثمانيين الذين قتل على يدهم سنة 1559م.^(*)(2) ليخلفه أخاه أحمد أمقران ثم ابنه سيدي ناصر الذي تم قتله من طرف قبائل بني عباس سنة 1600م،⁽³⁾ وقد كان حسب "الورثياني" عالما زاهدا ومن شدة زهده يلبس الغرارة^(**) على لحمه، وقد قتله حساده من بني عباس غدرا بعدما رتب طلبه العلم نحو 80 طالبا وقد رثاه أحد علماء فاس بقوله:

فلعنة الله ثم الخلق قاطبة على المجوس بني عباس ما ذكروا
إن عاهدوك فقد خانوا ثقة أو خالفوك فأيقن أنهم فجرُوا⁽⁴⁾

لكن "فيرو" يشير أن مقتله كان بسبب إهماله لشؤون المملكة واهتمامه بالأمر الديني وهذا منذ صغره،⁽⁵⁾ فبعد مقتله تشتت الإمارة وتفرق أبناءه، حيث فرّ "محمد أمقران" إلى بجاية مع والدته وكوّن أسرة مرابطية⁽⁶⁾ بامدان ببني مسعود على الضفة الشرقية لواد الصومام والتي كان لها تأثير كبير في المنطقة ودخل في علاقات مع قائد الحامية التركية الذي منحه العديد من الامتيازات وطلب منه الرجوع إلى بجاية،⁽⁷⁾ ورحل "بوتميزين" إلى نواحي وهران لكن أسرته لم يكن لها تأثير، أما "بتقة" فقد حملته قبيلة هاشم أو الحشم حرس الأسرة إلى مجانية، أين أعاد بعث حكم أسرته مع اعترافه بالحكم العثماني، الذي لم يكن يتدخل في أمور مجانية الداخلية، ثم خاض عدة معارك ضد بني عباس انتقاما منهم لقتلهم والده،⁽⁸⁾ وهذا بمساعدة قبائل الحشم المنفصلة من بابلك الغرب، والتي وضعت

(1) - مرمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص285.

(*) - ينظر: القسم الثالث.

(2) - Feraud, Histoire de Bougie..., p120.

(3) - Ibid, p120.

(**) - كيس من الخيش يوضع فيه القمح.

(4) - الورثياني، المصدر السابق، ص 36.

(5) - Feraud, Histoire des villes.....Setif, ..., p235, 236.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 306.

(7) - Feraud, Histoire de Bougie..., p120.

(8) - معاشي، المرجع السابق، ص 306، 307.

نفسها في خدمته.⁽¹⁾ ورغم أنه أخضع بني عباس لحكمه إلا أنه رفض العودة إليها واستقر نهائياً بمجانة.⁽²⁾

وبعد وفاته خلفه ابنه "بوزيد" الذي حافظ على وحدة أسرته، رغم نزاعه مع إخوته عبد الله والقندوز وعبد العزيز، وفرض ضريبة على العثمانيين للمرور على أبواب الحديد، حيث كانت الحامية التركية لا تجرأ على المساس بممتلكات الشيخ حتى ولو كانوا بحاجة إليها، وهذا خوفاً من بطش الشيخ.⁽³⁾ كما منح لأخيه عبد الله إقطاعات وامتيازات حتى ينشغل بها ولا يزاحمه في الحكم، وعيّن عبد العزيز قائداً عسكرياً ومستشاراً له، أما القندوز فقد عينه قائداً على الحصنة، لكنه سرعان ما أعلن انفصاليته عن أخيه "بوزيد" الذي سجنه،⁽⁴⁾ وبعد وفاته سنة 1147هـ-1735م استمر الصراع بين أبنائه وهذا بتحريض من العثمانيين^(*) الذين بثوا الشقاق بين أفراد الأسرة التي فقدت مركزها القوي، لكنها ظلت إلى غاية 1871م أين سقطت نهائياً.

ج- إمارة أولاد القاضي (كوكو):

هي أسرة ذات أصل عريق في العلم والجاه والسياسة والجهاد ضد الكفار،⁽⁵⁾ يرجع أصلهم إلى عمر بن إدريس (المغرب) رحلوا بعد سقوط الأدارسة إلى منطقة كوكو،⁽⁶⁾ حيث نزح والد أحمد بن القاضي عمر بن القاضي مع الشيخ عبد الرحمن الإدريسي، من المغرب إلى معسكر ثم إلى جرجرة، أين أنشأ زاوية بكوكو أوائل القرن 10هـ/16م.⁽⁷⁾ لكن "بوليفة" يرجع نسبهم إلى الفقيه والمؤرخ أبو العباس الغبريني (1246هـ/1306م) من قبيلة بني الغبري^(*) بعزازقة، والذي قتله الحاكم الحفصي ببجاية

⁽¹⁾ - Mercier, Histoire de Constantine..., p266.

- Mercier, Histoire de l'Afrique..., p To3, p207.

⁽²⁾ - معاشي، المرجع السابق، ص 307.

⁽³⁾ - Peyssonnel et Desfontaines, Op, Cit, To1, p374.

⁽⁴⁾ - معاشي، المرجع السابق، ص 308. - Feraud, Histoire des villes..., Setif, pp249, 251.

^(*) - أنظر القسم الرابع.

⁽⁵⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 38.

⁽⁶⁾ - Feraud, histoire des villes ..Gigilli,p 122(marge).

- Genevois (H), Légende des Rois de Koukou, le fichier périodique, N°121, 1974, p03

⁽⁷⁾ - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ص

^(*) - أحد بطون القبائل الأمازيغية في أعالي سيباو.

- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980م، ص 248.

أبي البقاء خالد بن يحيى،⁽¹⁾ آخر الأمراء الحفصيين ببجاية ، والذي كان يعمل قاضيا لديه،⁽²⁾ بعدها فرت زوجته بابنه إلى تونس أين تربى في البلاط الحفصي.⁽³⁾

وبعد ثلاثة قرون ظهر أحد أحفاد الغبريني، وهو أحمد بن القاضي الذي استقر بكوكو (قرية) شرق عين الحمام^(*) أين ظهرت بوادر الإمارة منذ بداية القرن 10هـ/16م،⁽⁴⁾ وهو الذي عمل واليا على مدينة عنابة لصالح الحفصيين.⁽⁵⁾ كما عمل مفاوضا بين العباس أمير القلعة والإسبان سنة 1510م،⁽⁶⁾ وكان ضمن الوفد الذي ذهب إلى اسطنبول من أجل طلب الحماية والانضمام للدولة العثمانية.⁽⁷⁾ فعلاقة آل القاضي مع بني حفص سمحت لهم بتولي عدة مناصب في كل من بجاية وتونس، كالإفتاء والسفارة وكتابة الديوان وخاصة وظيفة القضاء،⁽⁸⁾ التي توارثتها لأجيال عديدة،⁽⁹⁾

تأسست الإمارة سنة 1510م على يد أحمد بن القاضي، بعد أن فرّ إلى قبائل آث الغبري بأورير،⁽¹⁰⁾ مع جمع من الأسر والعلماء إلى الجبال، بعدما احتلت بجاية من طرف الإسبان،⁽¹¹⁾ أين حملت الإمارة اسم أولاد القاضي أو إمارة كوكو نسبة لعاصمتها، وبعد عامل الجهاد ضد الاسبان المحرك الأساسي لانتفاف القبائل حوله،⁽¹²⁾ من أجل صد الكفار الذين احتلوا أرضهم.⁽¹³⁾

وحسب "مارمول" فإنه كان بإمكان ابن القاضي التحرك للقتال بـ5 آلاف من المشاة يحملون مختلف الأسلحة وكلهم شجعان متمرنون في الحرب.⁽¹⁴⁾ إضافة إلى قوة

(1) - Boulifa, Op, Cit, pp117, 118

- عادل نويهض، نفسه، ص 248.

(2) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 110. - كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 27.

- Rinn, Insurrection..., p10. (Marge)

(3) - Boulifa, Op, Cit, p119

(*) - ميشلي سابقا.

(4) - فرج محمد الصغير، المرجع السابق، ص 29.

(5) - Boulifa, Op, Cit, 85et 96 et 120.

(6) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 110.

- Feraud, la conquête..., p342.

(7) - التميمي، أول رسالة...، ص 119.

(8) - ساحي، المرجع السابق، ص 51.

(9) - بنوجيت، المرجع السابق، ص 122.

(10) - Rinn, Insurrection..., p10 (Marge).

(11) - أرزقي شونيام، "إمارة كوكو (1511-1767) فعاليات إمارة كوكو بتيزي وزو، 30 سبتمبر 2010م، ص 10.

(12) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 111، 115.

(13) - Robin, Note sur l'organisation..., p133.

(14) - مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 374.

شخصيته وعراقة وأصل أسرته الشريف،⁽¹⁾ وهو ما جعل خير الدين بربروس يعينه حاكما على الجهة الشرقية للبلاد بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية،⁽²⁾ خاصة وأنه هو الذي قدم المساعدة للإخوة بربروس في تحرير جيجل ومحاولة تحرير بجاية. وبهذا ارتقت الإمارة من المشيخة إلى القضاء ثم الجهاد ثم السياسة والإمارة.⁽³⁾

وعند تأسيسه للإمارة وزّع الأراضي على السكان، والوسائل لاستغلالها مقابل الحفاظ على الأمن العام وتقديم ضريبة له، وبهذه الطريقة استطاع القضاء على الفوضى التي سادت المنطقة.⁽⁴⁾ لكن وجود بني عباس في المنطقة، الذين كانوا يطمحون للتوسع، دفع بأولاد القاضي إلى خوض عدة معارك ضدهم منها ما حدث سنة 1515م.⁽⁵⁾ فهذه الصراعات التي كانت بين الامارتين غالبا ما كان العثمانيون وراءها أو المستفيد منها.

مرت الإمارة بمرحلتين المرحلة الأولى أين كان مركزها وعاصمتها "كوكو" بآيث يحي، والتي خضعت لها عدة أعراش كآث يحي وإقواف وعين الحمام، بنو جناد، أورير، الأربعاء ناث إيراثن، جمعة الصهرج، بنو بوشعايب، أين كان لعاصمتها "كوكو" الدور الكبير في الأحداث التي دارت بين العثمانيين وآل القاضي، والتي قتل في إحداها أحمد بن القاضي على يد خير الدين سنة 1527م.^(*)

وفي هذه المرحلة كانت الإمارة تسخر القبائل لخدمتها خاصة عهد عمر بن القاضي الذي كان يعتمد على تسخير القبائل لخدمته في فصل الصيف وهو ما عطل أعمالهم مما تسبب في كرههم للإمارة التي استغلت الإمكانات المتواضعة للقبائل لخدمة مصالحها الخاصة.⁽⁶⁾ وتأخذ منهم ضرائب وعوائد بحيث لم يبق لهم شيء يدفعونه للزوايا الأخرى، الأمر الذي أدى ببعض شيوخ الزوايا إلى محاولة الانفصال عن الإمارة كسيدي منصور الجنادي الذي تمرد ضد عمر بن القاضي،⁽⁷⁾ ومنع الناس من تقديم الضيافة لعمر بن القاضي كما جرت العادة، والمتمثلة في المنتجات الزراعية والعلف لخيّل جيشه،

(1) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص47.

(2) - غزوات عروج ...، ص56.

(3) - ساحي، المرجع السابق، ص50.

(4) - فرج محمد الصغير، المرجع السابق، ص34.

(5) - Haedo, Histoire des Rois..., pp15, 16.

(*) - للمزيد ينظر: ساحي، المرجع السابق.

(6) - Boulifa, Op, Cit, p201.

(7) - شوتيام، إمارة كوكو...، ص16، 17.

فمثلا عندما يقصد سوق الخميس، كان يلزم عرش بني جناد بالضيافة كما أنه كان يأخذ حميرهم وبغالهم لنقل المحاصيل في فصل الصيف وهو ما ألحق ضررا بمصالحهم.⁽¹⁾

هذا الصراع مع شيوخ الزوايا زاد من ضعف الإمارة، مما أدى ببعض القبائل الواقعة على حوض سيباو ويسر إلى الانضمام للإدارة العثمانية،⁽²⁾ وهو ما أدى إلى انحصار نفوذها في بعض القبائل، ومما زاد من ضعف الإمارة مقتل عمر بن القاضي سنة 1618م على يد أخيه من أجل السلطة، فانقسمت العائلة إلى فرعين فرع أولاد القاضي وفرع أولاد بوكتوش أو بوختوش^(*) الذين استقروا بتامودة جمعة السهاريج وواد الصومام⁽³⁾ وبكتوش هذا غير معروف إذا كان ينتمي إلى عائلة ابن القاضي أو أحد الموظفين الكبار في الإمارة، لينتقل فرع بوكتوش نهائيا من قرية كوكو إلى أورير مسقط عائلة آث غبري منذ سنة 1636 إلى غاية 1893م،⁽⁴⁾ وهذا بعد توجيه خسروف باشا لحملة ضد الامارة سنة 1624م، توغلت في جرجرة وصولا إلى عاصمة الإمارة كوكو،⁽⁵⁾ التي بقوا فيها أكثر من 10 سنوات، بعدها استغل علي بتشين الظروف التي تمر بها الامارة وعقد اتفاقا مع زواوة لضمان أمن القوافل وتزويد دار السلطان بالمواد الأولية، والقوات مفضلا التعاون معهم على غرار ما فعله سلفة الحسن بن خير الدين وعلي علي.⁽⁶⁾

وبهذا فالتفكك الذي عرفته الإمارة جعلها عاجزة وغير قادرة على فرض سلطتها محليا، وفي مواجهتها للعثمانيين، لذا تولى أحفاد ابن القاضي عن مشروع الإمارة القوية لأجدادهم، مما جعلهم يغيرون سياستهم تبعا للمعطيات التي طرأت على الإمارة، فمنهم من تحالف مع العثمانيين ضد عائلته، مما أدى إلى وصول السلطة العثمانية إلى غاية سيباو وجمعة السحاريج، ثم إن سياسة عمر بن القاضي الصارمة أدت إلى انفصال بعض المناطق عن الإمارة بتحريض من شيوخ الزوايا، الذين نافسوا الإمارة وأرادوا

(1)- Boulifa, Op, Cit, p201, 202.

(2)- شوتيام، إمارة كوكو...، ص 16.

(*)- تعني الرجل ذو الرمح.

(3)- Robin, Note sur l'organisation, p135 (marge). – Genevois, Op.Cit, p16 et22.

(4)- محمد الصغير فرج، المرجع السابق، ص 35.

(5)- Mercier, Histoire de l'Afrique, To3, p208. – Berbrugger Les époques militaires, p110

(6)- ساحي، المرجع السابق، ص 55 ، 56.

التخلص من سلطتها، مثل سيدي منصور الجنادي، سيدي أحمد أومالك، سيدي أحمد أودريس،⁽¹⁾ وهذا كله بسبب تحول الإمارة من صيغتها الدينية إلى صيغة سياسية.

بعد مقتل عمر بن القاضي دب الخلاف والضعف داخل الإمارة، وفرت زوجته بابنها إلى تونس الذي سمي "أحمد التونسي" الذي عاد سنة 1042هـ/1632م مع بعض الجنود واستقر بأورير.⁽²⁾ لاستعادة ما سماه حقه الشرعي وهو في سن 18،⁽³⁾ وهو ما ساهم في اشتداد الخلاف والتفكك فتفرعت الأسرة إلى فروع، وهو ما يفسر تعدد مقرات الإمارة،⁽⁴⁾ أين ظهر سنة (1636-1757م) مقر أورير وأوشلام ومقر بنو جناد تامقوت وتامدة وآيت عوانة سنة (1696-1757م) وبنو شعيب وجمعة السحاريج والصوامع (1696-1765م) والأربعاء آيث إيرتن (1696-1757م).⁽⁵⁾

بعد انقسام العائلة إلى فرعين، عائلة بوكتوش المنفصلة عن أسرة أولاد القاضي، والتي اختفى دورها على الساحة من 1630 إلى 1640م،⁽⁶⁾ ليتغير اسم الإمارة إلى أولاد بوكتوش.⁽⁷⁾ بعدها ثار شجار بين ورثة أحمد التونسي بوكتوش أو ما يسمى الصف "الفوقاني" وزعيمه أورخو والصف "التحتاني" وزعيمه سي علي الذي تولى عام 1696-1697م، أما أولاد القاضي الفرع الرئيسي فقد فقدوا نفوذهم على الساحل وسيباو ولم يعد يظهر دورهم إلا في مواجهة الأتراك بالمنطقة.⁽⁸⁾

بعدها تقلص نفوذ الإمارة منذ 1754م بعد حملة باي التيطري على منطقة الزواوة التي قتل على إثرها محمد بن علي بوكتوش. ونتيجة لهذه الخلافات الأسرية والسياسة الجائرة لبعض حكامها تمرد السكان ضدهم بتحريض من رجال الزوايا دائما، ثم إن مصاهرتها للعثمانيين أدى إلى تخلي الأعراس عنها، خاصة الأعراس المعادية للعثمانيين.⁽⁹⁾

وفي الأخير ما يمكن أن نقوله عن هذه الدويلات المرابطية أو هذه الزعمات الروحية، هو أنها ملأت الفراغ الذي خلفه ضعف السلطة المركزية، إلا أنها فشلت في

(1)- Boulifa, Op, Cit, pp202, 205.

(2)- Robin, "Note sur l'organisation...", **R.A.**, N°17, p135. - Mercier, Histoire de l'Afrique..., To3, p234.

(3)- Genevois, Op. Cit, p30.

(4)- Boulifa, Op, Cit, p222 et suit.

(5)- ساحي، المرجع السابق، ص 74، 75.

(6)- Mercier, Histoire de l'Afrique..., To3, p234.

(7)- Rinn, Insurrection..., p10 (Marge).

(8)- Robin, "Note sur l'organisation...", p136.

(9)- شوتيام، إمارة كوكو...، ص 27، 28.

جمع الناس خارج حدودها واستقطاب القوى المحلية الأخرى، كما أنها فشلت في جلب القبائل لها على عكس ما سيقوم به الإخوان أو الطرق الصوفية فيما بعد. والتي كان لها نفوذ روحي واسع، وعدد كبير من الأتباع، والتي شكلت بظهورها على الساحة عهد جديد في تحقيق التلاحم الاجتماعي تحت مظلة الدافع الديني الروحي.

1-2- السلطة الروحية ودورها في مواجهة الغزو الإسباني:

إنّ الغزو الصليبي الإسباني على بلاد المغرب الإسلامي ومأساة الأندلس خلال القرن 16م أدى إلى بعث الحياة الروحية الدينية من جديد، خاصة بعدما غرق المغرب الإسلامي في دوامة الضعف والتناحر على السلطة، فكان هذا إنذارا بعجز السلطة الزمنية عن القيام بواجبها لحماية أراضيها. وأمام هذا التآزم ظهرت ردة فعل معاكسة تحملت أعباء الدفاع عن الأرض الإسلامية تمثلت في تنظيمات شعبية أبطالها الطرق الصوفية والمرابطين الذين حلوا محل الدولة والنظام السياسي.⁽¹⁾

إن ظهور هذه التنظيمات كان كرد فعل على تخاذل الحكام وعدم تحملهم للمسؤولية الملقاة على عاتقهم، واهتمامهم بإشباع رغباتهم وإرضاء نزواتهم المادية وغير المادية،⁽²⁾ خاصة لما اتصل بعضهم بالإسبان، وهو ما جعل العلماء يحرضون على الجهاد ويعملون على إحياء الرباطات،⁽³⁾ التي كان أغلبها من تأسيس علماء الدين وتحت إشرافهم، خاصة بعد مؤتمر طورديسلاس سنة 1494م أين اتجهت أنظار الإسبان نحو السواحل الجزائرية واحتلت جل المدن الساحلية من عنابة شرقا إلى هنين غربا.⁽⁴⁾

فرجال الزوايا والطرق الصوفية هم أهل الرباط الذين تحملوا العبء الأكبر من الهجمات الأوروبية، وليس السلطة الزمنية التي كانت عاجزة عن مواجهة العدو، وكان همها محاربة بعضهم البعض بدل محاربة الأعداء، وهو دليل على ضعفها وسيادة

(1) - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الإسباني، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م، مج2، ج3، ص 61 و90.

(2) - عمار هلال، الطرق الصوفية...، ص 97.

(3) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 15 (المقدمة).

(4) - عبد القادر فكاير، "دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الإسباني على الجزائر"، المواقف، عدد خاص أبريل 2008م، معسكر، الجزائر، ص 281.

السلطة الروحية التي دافعت عن الإسلام وأهله، الذين انطوا تحت لوائها وأصبحوا تحت تأثيرها رغم وجود السلطة الزمنية،⁽¹⁾ لأنهم وجدوا ضالتهم فيها.

ورغم أن هذه التنظيمات (طرق صوفية ومرابطين) التي حلت محل السلطة السياسية، لم تكن منسجمة ولا موحدة، إلا أنها كانت قوة جامعة للسكان ضد الخطر الخارجي وحتى ضد السلطة العاجزة عن الدفاع عنهم، فكانوا يهاجمون العدو بأنفسهم منطلقين من زواياهم وربطاتهم،⁽²⁾ التي سارعوا إلى تشكيلها لتكون مراكز أمامية لحماية الشغور بعد ظهور الخطر الإسباني وضعف الحكم المركزي.⁽³⁾

إذ وأمام الضعف الذي أصاب الكيانات السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، والانقسامات الداخلية، لم تجد القاعدة الشعبية حلا إلا الالتفاف حول رجال التصوف والمرابطين،⁽⁴⁾ الذين وجدت الشعارات التي حملوها صدى في نفوس القاعدة الشعبية التي وجدت فيها سندا لها، خاصة وأن الغزو الإسباني كان مباركا من البابوية، وهو الأمر الذي أيقظ همم شيوخ التصوف والمرابطين لتولي القيادة بأنفسهم ضد العدو ومساعدة الأندلسيين، وقيادة المعارك وتوجيهها روحيا للدفاع عن العرض والنفس،⁽⁵⁾ بحيث نجد كل منطقة نصبت جماعة لتقوم بمهمة الدفاع، كجماعة الجزائر التي كانت تحت رئاسة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، الذي عانى كثيرا من الهجمات الإسبانية لما كان حاكما لإمارة الثعالبة.⁽⁶⁾

وقد عرف عن عبد الرحمن الثعالبي، إلى جانب كونه زاهدا وصوفيا، دوره في الجهاد ودعوة الناس لحمل السلاح ونلمس هذا من خلال حثه لسكان مدينة الجزائر على الجهاد، والذي كان له الأثر الكبير على العامة نساء ورجالا، علماء وعامة، حاضرة وبادية. وكذلك من خلال الرسائل التي كان يرسلها للشيوخ أمثاله، منها رسالته في الجهاد التي وجهها إلى الشيخ أحمد الكفيف ببجاية، وطلب منه فيها أن يكتب لعلمائها يستنهضهم للجهاد، وأنه واجب عليهم لأن الروم حسب قوله لن يهدأ لهم بال حتى يهجموا

(1) - سعد الله، على خطى...، ص 184، 185.

(2) - نفسه، ص 190.

(3) - سامح التر، المرجع السابق، ص 105.

(4) - Depont/Coppolani, Op, Cit, p127.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج 1، ص 465.

(6) - قسوم، المرجع السابق، ص 25.

على سواحل إفريقيا، لأنهم تلقوا الهزائم في القسطنطينية وغيرها، معتمدا في دعوته للجهاد على رؤيته للرسول "ص" يحثه على تحريض المسلمين.⁽¹⁾

«وقد قدمت إلى فضلائهم أن النبي "ص" أكد وأكد كثيرا، فحرضت الناس جهدي... وقد تكرر علي التحريض نحو سبع مرات، وقد وجدت أثر ذلك في الناس... وفي بعضها شد روحك يعني في التحريض، ... وانتم منصورين [كذا] ووفقكم الله تعالى» وقوله كذلك «ولو اطلعتهم على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا بشيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد، والله والله لو لم يكونوا (كذا) بنو الأصفر (الروم) على وجه الأرض لخلت أن ينبعوا من تحت الأرض، لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبي "ص"....»⁽²⁾

وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإن عبد الرحمن الثعالبي إستعمل الرؤيا لغرض نبيل وهو الجهاد عكس البعض الذي استعملها لتتويم العامة واستغلال أموالهم.⁽³⁾

فالثعالبي لم يكتفي بالتحريض على الجهاد، بل إنه شارك فيه بنفسه، ونلمس هذا من خلال درايته حتى بأنواع الأسلحة التي جربها بنفسه، وذكر بها أحمد الكفيف في رسالته بقوله: «أما درق الجلد من لمط... فلا يعتز بها لأن السهام نفذها (كذا) وتتجاوزها.... هذا مع القرب جربناه مرارا، ودرق العود لا ينفذ»...«والذي أحبه منهم أن ينهضوا ويسرعوا في عمل الدرق من الصفصاف وتكون كاسية، ولا يتكلوا على الطوارق ولا على درق اللط... فافعلوا بمن أعوزه درق العود، فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين... فاكذبك الله لإخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا، فهي أقرب مراما وأقل كلفة من بناء الأصوار [كذا] التي لا يرفعها إلا المال الكثير...»⁽⁴⁾

فمن خلال رسالة الثعالبي التي وجهها لأحمد الكفيف يمكن أن نلمس ذلك الفراغ السياسي، وعدم وجود سلطة تعمل على توحيد الأهالي، فاستصراخه لرؤساء القبائل يوضح أكثر مدى انقطاع التواصل والتعاون بين القبائل والسلطة الزمنية المتمثلة في

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج1، ص 203، 208.

(2) - نفسه، ص 209، 211.

(3) - نفسه، ص 206.

(4) - نفسه، ص 208 و 210.

الزيانيين غربا والحفصيين شرقا، فلهذا فالثعالبي لا تستصرخ سلطانا بعينه، بل وجهها إلى الأهالي وعلى رأسهم العلماء.

فالسطة الزمنية المنهارة هي من دفعت رجال التصوف والدين إلى تولي مهامها، فقاموا بإعادة الثقة بين الناس وإدارة شؤونهم العامة، وقيادتهم للجهاد.⁽¹⁾

ونتيجة للأحداث التي طبعت منطقة شمال المغرب الإسلامي، توقع الكثير من العلماء هجوم الإسبان على السواحل، خاصة بعد سقوط غرناطة واحتلال المدن مغربية، فعملوا على تحذير الناس من الخطر الذي يهددهم منهم العالم محمد التواتي (القرن 9هـ/15م) الذي خاطب أهل وهران بقصيدة يحثهم على الجهاد واستقدام الترك إلى بلادهم.

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة	لبلدتكم من قبل أن تتردى
المنشآت ببحرهما	وأبي قلوب عندها مستقرتي
ولا تكلوها غيركم ولئن يكن	فما غاب مثل المقيم ببلدة
وإن ضاع مرساكم فإن ضياعه	ضياع بلاد الله شرقا وقبلة
ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم	ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة (الترك)
فإن لهم بالطعن ولضرب خبرة	وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة ⁽²⁾

وحسب ما جاء في رحلة بيري رايس فإن الشيخ محمد التواتي كان يحمي بجاية ضد الإسبان، فكانت زاويته ملجأ للمجاهدين وغزة البحر ولما توفي سقطت بجاية في يد الإسبان.⁽³⁾ كما نجد كذلك زاوية المجاجي في تنس والتي كان من بين أهداف تأسيسها الجهاد وحماية البلاد من الغزو المسيحي، حيث كان علي بن أحمد المجاجي (أبهلول) ق10هـ/15-16م يستقبل بزوايته طلبة العلم والمجاهدين والأندلسيين الفارين من الإسبان، كما نجدها قدمت مساعدات للإخوة بربروس في صراعهم مع الإسبان.⁽⁴⁾ واستمر دورها الجهادي حتى الاحتلال الفرنسي وقبلها في العهد التركي حيث نجد أن محمد بن علي المجاجي (أبهلول) (ولد 945-1008هـ/1535-1589م) استقبل نحو 1300 مجاهد،

(1) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 117.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 439.

(3) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 304. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 460، 461.

(4) - عبد المنعم القاسمي، نفسه، ص 233. - البوعبدلي، الرباط والفداء...، ص 26.

خرجوا للجهاد بثغر تنس، حيث أطعمهم كلهم في زاويته طعام فيه 30 نوعا من الطعام واللحم والرغائف،⁽¹⁾

فهؤلاء العلماء والمرابطون نظروا للحملات الصليبية أنها خناجر توجه للإسلام، لذلك باركوا الجهاد وشاركوا فيه حيث كانوا يقودون السكان للجهاد،⁽²⁾ ولا يتلقون أجرا مقابل عملهم بل كانوا متطوعين لحماية البلاد والحصول على الأجر والتواب من الله عز وجل.⁽³⁾

فعند نزول الإسبان ببجاية سنة 1510م جند حاكم بني عباس جيشا بقيادة إبنه أبو فارس وأبو عبد الله ومعهم عدد من العلماء المشهورين،⁽⁴⁾ مثل أبو أحمد بن إسماعيل الكناني، أبو عيسى الهنتاني، أبو يوسف بن الحسن بن علي، أبو علي بن محمد، كما كان المرابطون والفقهاء والزهاد يجوبون صفوف المقاتلين لإلهاب الحماس فيهم، وقد سقط العديد منهم قتيلا منهم ابني السلطان عبد العزيز،⁽⁵⁾ الذي كان رافعا راية الجهاد في البداية لكنه تخلى عن ذلك وبدأ يدفع لهم ضريبة سنوية قدرت بـ10.000 دوقية و1000 مد قمح و1000 خروف و700 ثور، و14 حصان.⁽⁶⁾ كما نجد الفقيه عبد الله بن عبد الجليل ببونة، عمل على جهاد الإسبان لما دخلوا عنابة سنة 1510م.⁽⁷⁾

وبهذا فالحملات الإسبانية هي التي فجرّت البديل عن السلطة الزمنية لتوجيه الناس وتجاوز كل التناقضات، لذلك نجد الزوايا تجمعت باسم الإسلام ونادت كلها للجهاد، وغذت ما اصطلح عليه في وقتنا الحالي "بالروح الوطنية" التي كانت منعقدة في تلك الفترة اعتمادا على الحس الروحي الديني الممزوج بالتصوف الذي جمع القبائل تحت مظلة الجهاد والدفاع عن العرض والأرض.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 202. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 342.

(2) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 230، 204.

(3) - سعيدوني، في الهوية والانتماء الحضاري، ص 140.

(4) - Feraud, Histoire de Bougie..., pp94, 95.

(5) - Ibid, p95. - Feraud, Conquête de Bougie..., p253.

(6) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, p125. - معاشي، المرجع السابق، ص 61.

(7) - أحمد بن قاسم البوني، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح. سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، بونة، الجزائر، 2007، ص 144. - بنوجيت، المرجع السابق، ص 45، 46.

ويذكر "فيرو" كذلك أن بنو حفص لم يسعوا لاستعادة بجاية لما سقطت سنة 1510م، لذلك عمل المرابط أحمد بن القاضي على إعلان الجهاد،⁽¹⁾ فيقول عنه "الإفراني": «أنّ أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي كانت له همة شديدة في غزو الكفار، وقوة شكيمة عليهم وله مع ذلك شهرة عظيمة في بساط المغرب الأوسط وحب له». ⁽²⁾ كما نجده تحالف سنة 1513م مع عروج لتحرير جيجل. فهؤلاء الرؤساء الروحانيين لعبوا دورا كبيرا في صد الغزو الاسباني، وهم من سيعقد صلات مع البحارة العثمانيين لنفس السبب.⁽³⁾

وبهذا فإن سعي السلطة الروحية للدفاع عن الأرض والناس سمح لها أن تحتل مكانة لدى الأهالي الذين رأوا فيها بديلا عن السلطة السياسية.

1-3- مصطلحات متعلقة بالسلطة الروحية:

أ- الطريقة:

جمع طرائق، وتعني السيرة والحالة. فيقال طريقة قومهم أو هم طرائق قومهم⁽⁴⁾ وهي السيرة والحال، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال فلان ما زال على طريقة واحدة أي على حالة واحدة، وفلان حسن الطريقة أو على طريقة حسنة، طريقه بسيئة.⁽⁵⁾

وقد ورد لفظ الطريقة في عدة مواضع في القرآن الكريم مع اختلاف معناها من آية لأخرى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾،⁽⁶⁾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾،⁽⁷⁾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.⁽⁸⁾

(1) - نفسه، ص 97.

(2) - الأفراني، المصدر السابق، ص 17.

(3) - نيقولايفانوف، المرجع السابق، ص 99.

(4) - المنجد في اللغة والأعلام، ص 465.

(5) - أبو الفضل جمال الدين بن منظور، المصدر السابق، ج 10، ص 221.

(6) - سورة النساء، الآية 168.

(7) - سورة الجن، الآية 11 و الآية 16.

(8) - سورة طه، الآية 104.

فالطريقة حسب الإمام الرفاعي هي دين بلا بدعة وهمة، بلا كسل، عمل بلا رياء وقلب بلا شغل ونفس بلا شهوة.⁽¹⁾ وكذلك هي اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره.⁽²⁾ وقد عرّفها "رين" أنها: «مجموعة العقائد والممارسات والصلوات الخاصة بكل طريقة».⁽³⁾ أما ماسينيون فعرفها بقوله: «هي جملة مراسيم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة، إلى أن أصبحت الطريقة منهاجا وسلسلة من الوصايا الخاصة، لكي يصبح الإنسان مريدا، ويتلقى المريد البيعة أو التقليد.... من شيخ السجادة والمرشد والمقدم والنقيب والخليفة».⁽⁴⁾ وهي القاعدة والمبادئ الأساسية لكل تنظيم ديني الذي يخضع أتباعه للشيخ.⁽⁵⁾ وبهذا نستنتج أن الطريقة: هي منهج يسير عليه الفرد قصد الوصول إلى مرضاة الله متبعا في ذلك جملة من السلوكات والأخلاق والقواعد والعبادات.

ب- الشيخ:

هو المرجع الروحي للطريقة، يلقب بصاحب الطريقة أو شيخ الطريقة،⁽⁶⁾ يحتل قمة هرم التنظيم، يستمد سلطته ونفوذه من مكانته العلمية وتربيته وتعليمه المريد لطرق الوصول إلى الله،⁽⁷⁾ فعن ابن عطاء الله السكندري قال: "من لم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة المتابعة فهو في الطريق لقيط لا أب له وفي المعرفة دعي لا نسب له"⁽⁸⁾ لذلك شاع بين المتصوفة "أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه".

(1) - صلاح عزام، أقطاب التصوف الثلاثة، أحمد البدوي، أحمد الرفاعي، عبد الحليم القناوي، تقديم. عبد الحليم محمود، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، 1968م، ص 25.

(2) - أبو بكر جابر الجزائري، إلى التصوف يا عباد الله، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، 1990م، ص 23.

(3) - Rinn, Marabouts..., p64.

(4) - م. ث. هوشما وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، 1998م، ج22، ص 6847، 6848.

(5) - G. André (P.J), Op, Cit, p60.

(6) - Rinn, Marabouts..., p70.

(7) - عامر النجار، الطرق الصوفية في مهم نشأتها ونظمها وروادها، الرفاعي الجيلاني، البدوي، الشاذلي، الدسوقي، ط05، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص 24.

(8) - نفسه، ص 25.

فهو قدوة المريد ومرشده في مراحل ترقيه لأنه حسب الغزالي أن "المريد يحتاج إلى شيخ أو أستاذ يقتدي به لا محالة... إذ أن سبل الشيطان كثيرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة". (1)(*)

فهو العارف بالله والمالك للكرامات وكل مقومات الولاية والصلاح، (2) وعادة ما يكون هو المؤسس الفعلي للزاوية التي تدعى باسمه "زاوية سيدي فلان" يستقبل فيها الأتباع، المريدين والزوار وإذا مات دفن فيها وتصبح ضريحا ويرث أبناؤه وأحفاده مكانته. (3)

يتمتع الشيخ بمكانة علمية ودينية ونفوذ روحي وبركة، بفضلها يكون الوسيط بين الناس مع الله، وهذا لما يتمتع به من معرفة لأصول الشريعة، وهو العارف بأمراض النفوس وعلاجها، (4) ويحظى باحترام المريدين وحتى عامة الناس، حيث يعد خليفة الله في الأرض، وعلى الناس إتباعه وطاعته. (5)

والمشيخة درجات، الغوث، القطب، الوتد، الأخبار، الأبدال، الحبيب، النقيب،.... الولي. (6) ويعد القطب (ج. أقطاب) أعلى مرتبة في سلم القيادة الصوفية حيث يقول ابن خلدون: «هو رأس العارفين يزعمون أن لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله فيورث مقامه لأحد العارفين». (7)

وعندما تنتشر الطريقة يعين الشيخ من ينوب عليه في المناطق البعيدة، نائباً أو خليفة لتسيير الطريقة والأتباع، (8) ويعطيهم بعض صلاحياته في ذلك، (9) وقد يختار الشيخ خليفته من عامة الناس أو من الدراويش، ومن يريد الانضمام للطريقة عليه تلقي

(1) - أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2005، ص959.

(*) - لكن طريق الله لا تحتاج إلى أحد ولا تحتاج إلى قيود كي ينال الإنسان العلم ويصل إلى الجنة ومن الأدلة قوله تعالى، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَانًا*وَشَفَتَيْنِ*وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ*﴾ (البلد، الآية8، 11) وقوله تعالى، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل، الآية 99).

(2) - التللي العجلي، المرجع السابق، ص 31.

(3) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 263.

(4) - Depont (O)/ Coppolani (X), Op, Cit, p193, 194.

(5) - G. André P.J, Op, Cit, p58.

(6) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p194.

(7) - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، فصل 18، فصل علم التصوف، ط1، ص 238.

(8) - Petit Louis (R.P), Op, Cit, p61. - De Neveu, les khouans ordre religieux chez les musulmans de l'algerie 2^{ème} Ed, Imp.A.Guiyot, Paris 1846, p94.

(9) - Rinn, Marabouts..., p78.

الورد من الشيخ أو المقدم أو خليفته (نائبه).⁽¹⁾ ومنهم من يعين خليفة له لرئاسة الطريقة مثلما فعل سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي عين سيدي علي بن عيسى خليفة له قبل وفاته.⁽²⁾

ج- المرباط:

كلمة مشتقة من كلمة "ربط" "مربطة" وتعني ملازمة ثغر العدو،⁽³⁾ وحسب "حمدان خوجة" فهي كلمة تعني لغويا الالتزام والتعهد، حيث يعاهد المرباط الله على التصرف بما فيه خير البشرية.⁽⁴⁾ فالمعنى الفقهي لمرباط هو ربط النفس عن الشهوات، وهو المكلف بالتكوين الروحي لأعضاء النظام المقيمين بالحصون والأربطة.⁽⁵⁾

أما "عبد الرحمن الجيلالي" فيعرفه على أنه شخص يقيم في الرباط للعبادة والطاعات وخدمة الدين، فهو حابس نفسه فيه عن مخالطة الناس يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد فاستحق اسم المرباط.⁽⁶⁾

في حين "هانوتو ولوتورنو" فعرفا المرباط على أنه شخص نذر نفسه للعبادة والدراسة والحياة الروحية، لذلك اعتبر المرباطون ذوا مهابة وتقوى وعلم، رغم أن أغلبهم غير متعلمين.⁽⁷⁾

أما "دوتي" فيشير إلى أن المرباطيين هم المحاربون الذين يستमितون في الدفاع عن مواقفهم حتى الموت.⁽⁸⁾ فالمرباط هو رجل صالح متمكن من مبادئ الإسلام وزاهد يميل للعزلة والانصراف عن ملذات الدنيا،⁽⁹⁾ أي يربط نفسه عن شهوات الدنيا ويعمل على

(1) - أحمد ساحي، المرجع السابق، ص 214، 215.

(2) - Rinn, Marabouts..., p455.

(3) - ابن منظور، المصدر السابق، ج7، ص 302.

(4) - حمدان خوجة، المرأة، ص 57.

(5) - نقروش، المرجع السابق، ص 68.

(6) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج1، ص 403.

(7) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 85، 86.

(8) - دوتي، المرجع السابق، ص 50.

(9) - سعيدوني، في الهوية والانتماء...، ص 129.

التقرب إلى الله وخدمة العلم والدين.⁽¹⁾ ولقب المرباط هو لقب تشريفي مثل لقب (الشريف ولاله).⁽²⁾

ورغم أنّ هذه الكلمة كانت تطلق في بادئ الأمر على كل رجل اشتهر بالتقوى ولازم الرباط في الثغور لرد العدو من جهة والعبادة من جهة أخرى،⁽³⁾ عملا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.⁽⁴⁾

إلا أنّ مفهوم الكلمة تطور وأصبح يطلق على كل من يثير فضول الناس وإعجابهم من حيث المكانة العلمية، أو من خلال ما هو خارق للعادة ويذهل العقل، حيث تحول دور المرباط خاصة منذ القرن 16م من دوره العسكري والمصلح والداعية ليصبح ولها له كرامات ويقدم البركة، وبهذا تطور المصطلح ليطلق على كل ناسك وزاهد أو "ولي"، ليصبح المرباط في التعبير المغاربي، يعني شخصية مقدسة (المقدس، الولي...) متعلق بالزاوية أو الضريح، ويمنح عنايته وبركاته للمحتاجين.⁽⁵⁾

وحسب "كوبولاني" فأول من أطلق الاسم على سكان شمال إفريقيا كما أطلق على المشايخ ورجال الدين الذين ينتسبون إلى الرسول "ص" لهم مراكز خاصة بهم، زاوية، مسجد،... يعملون على الفتوى وإصلاح ذات البين،⁽⁶⁾ حتى أننا أصبحنا نجد قبيلة كاملة مرابطية،⁽⁷⁾ والملاحظ أنه قد اختلف في أصولهم فهناك من يرجعهم إلى الأدارسة الذي ينتمي نسبهم إلى فاطمة الزهراء، ومنهم من يرجع أصلهم إلى الساقية الحمراء بأقصى الجنوب المغربي وهاجر بعضهم إلى الجزائر ومنهم من يرجعهم إلى أصل أندلسي أتوا نتيجة الهجرة الأندلسية أو من أصل بربري أو روماني....⁽⁸⁾

لكن النسب الذي غلب هو النسب الشريف وهو ما أدى بالقبائل إلى التسابق للظفر بمرباط لاعتبارات سياسية ودينية، مما أدى إلى تكاثر القباب والأضرحة،⁽⁹⁾ لهذا يقول

(1) - زروق جيجيك، المرجع السابق، ص 76

(2) - دوتي، المرجع السابق، ص 58.

(3) - مسعود العيد، المرباطون والطرق الصوفية، ص 20، 21.

(4) - سورة آل عمران، الآية 200.

(5) - نقروش، المرجع السابق، ص 69.

(6) - Depont/ Coppolani, Op, Cit, p123.

(7) - Rinn, Marabouts, pp18, 18.

(8) - لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 91-96. - جيجيك زروق، المرجع السابق، ص 78-82.

للمزيد ينظر: Feraud (CH), "Les chorfas du Maroc", **R.A.**, N°21, 1877, pp294, 304.

(9) - جيجيك زروق، المرجع السابق، ص 85.

"بل" إن صفة الشريف في المغرب العربي صار لها سحر عند البربر، وأصبح إسم الشريف لقبا هاما يتلقب به رؤساء طرق الصوفية والصوفية العاديون.⁽¹⁾ ليصبح المرباط رجل شريف وصاحب مكانة دينية يعبر عنه بسيدي فلان له ولكل ذريته.

د- الولي:

من فعل "ولّى" وتعني القرب والدنو،⁽²⁾ ويستعمل مصطلح المرباط خاصة في المغرب العربي أما في المشرق فيستعمل الولي مرادفا للمرباط.⁽³⁾ وهو من أسماء الله الحسنی وتعني الناصر.⁽⁴⁾ ويوصف به الله والعبد، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾،⁽⁵⁾ وتستدل على ولاية العبد بقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.⁽⁶⁾

وحسب ابن تيمية "فولي الله من ولاه بالموافقة له في محبوباته ومريضاته وتقرب إليه بما أمره به من طاعاته"،⁽⁷⁾ فهو: «من يتولى الله رعايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه لحظة».⁽⁸⁾

وجاء في الرسالة القشيرية: أن النبي "ص" قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ آذَى لِي وَلِيَا، فَقَدْ اسْتَحَلَّ مَحَارِبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ فَرَائِضِي، وَإِنْ عَبْدِي لِيَتَقَرَّبَ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ﴾،⁽⁹⁾ في رواية أخرى ﴿مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا

(1) - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي إلى اليوم، تر. عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981م، ص422

(2) - ابن منظور، المصدر السابق، ج15، ص411.

(3) - Depont- Coppolani, Op, Cit, p143

(4) - نفسه، ص406.

(5) - سورة البقرة، الآية 257.

(6) - سورة يونس، الآية 62.

(7) - تقي الدين بن تيمية، مجموعة فتاوي، جمع عبد الرحمن بن محمد قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، 1415هـ، ج11، ص62.

(8) - محمد بن أبي بكر شمس الدين الرازي، حقائق الحقائق، تح. وتقديم، سعيد عبد الفتاح/ ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002م، ص213.

(9) - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح. عبد الحليم محمد، محمود بن الشريف، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1989م، ص436.

تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا،⁽¹⁾.

وجاء فيها أيضا عن الخراز أنه قال: «إذا أراد الله أن يوالي عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره».⁽²⁾ وهذا بمعنى أن الولاية تحصل بتقرب العبد من ربه بكثرة الطاعات وإخلاصه فيكون الله قريبا منه برحمته وفضله وإحسانه.⁽³⁾

وقد عرّفه الرازي بقوله: «الولي هو من تولى الله بالطاعة فتولاه بالكرامة»، ومن صفاته عدم الرياء والنفاق،⁽⁴⁾ فالولي هو العارف بالله حسب الإمكان، مواظب على الطاعات مجتنب المعاصي من شهوات الدنيا لذاتها.⁽⁵⁾ لأنه عندما يصل إلى درجة العرفان تتكشف له الحجب ويرى من علم الله ما لا يشهده سواه وأنّ على يده الكرامة.⁽⁶⁾ وجاء في دائرة المعارف "أنه كل شخص تجرد من علائق الدنيا وانقطع لعبادة الله وحده، وحدثت على يده الخوارق للعادة."⁽⁷⁾

فالولاية هي مرتبة من مراتب القرب الإلهي،⁽⁸⁾ وقد بدأت فكرة الولاية مع متصوفة القرن 02 و3هـ تتلمس طريقها إلى الظهور مع الفضل بن عياض، والجنيد، لتتأكد في كتابات الترمذي في كتابه "علم الأولياء"، و"ختم الأولياء"،⁽⁹⁾ أما عند ابن عربي فالولاية هي علم وعمل،⁽¹⁰⁾ ومن صفات الأولياء الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة من تلاوة القرآن ودراسة السنة النبوية وحفظهما، وكثرة صيامهم وقيامهم وإصلاح ذات البين

(1) - صحيح البخاري، باب التواضع.

(2) - أبو القاسم القشيري، المصدر السابق، ص 440.

(3) - يوسف بن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تح. إبراهيم عطوة عوض، ط1، مركز هلنسة، بركات رضاك معجزات الهند، ج1، 2001م، ص14. - ينظر: ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 83.

(4) - يحيى بن معاذ الرازي، المصدر السابق، ص 52.

(5) - مبارك الميلي، رسالة في الشرك...، ص 176.

(6) - ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 86.

(7) - محمد فريد وجدي، دائرة المعارف القرن العشرين، مج10، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1971م، ص 811.

(8) - سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ط1، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م، ص 1234.

(9) - نفسه، ص 1233.

(10) - نفسه، ص 1238.

ومساعدة المحتاجين، أي أن يكونوا "عبادا تسربلوا بالأنس بالله تعالى بعد المكابدة واعتنقوا الروح (الراحة) بعد المجاهد، بوصولهم إلى مقام الولاية".⁽¹⁾

فالولي حسب الاعتقاد المحلي البسيط لا يعيش في تجانس مع الطبيعة، فهو لا يتحكم في الحيوانات فقط بل حتى في الجن، لأن له قوة خفية روحية تتواجد حتى في الأماكن المقدسة،⁽²⁾ فهو شخص يحمل المعجزات حتى في قبره كحماية من يقدسونه ومعاينة المنتهكين لوصاياه،⁽³⁾ حيث وهو ميت يقصده الناس طلبا للبركة، فهو حسب المقولة الشعبية رجل في عالم الأحياء، ورجل في عالم الأموات،⁽⁴⁾ وليس قبره فقط من يوقر بل أحيانا حتى أفعاله والأماكن التي صلى أو استراح بها، حيث تعدّ زيارة ضريحه تقريبا بمثابة زيارة مكة، لأن المنحدرين من الرسول "ص" قد ورثوا حقيقة العفو الإلهي.⁽⁵⁾ في اعتقاد الناس.

فرغم أن هذه الممارسات التي تعتبر انحرافا عن الدين ومبادئه إلا أن بعض هؤلاء الأولياء استغل الدين والكثير من الممارسات الموروثة من عقائد سابقة، والدخيلة عن الإسلام لصالحه، إلى درجة أن وصل تقديس الولي حد العبادة، لذلك يقول أندري: «أن عبادة الأولياء هو غلاف تنتستر تحته بقايا المعتقدات السابقة لتبقى حية في الإسلام». ⁽⁶⁾ وبهذا أصبحت الولاية تشمل الكرامات والقدرات الخارقة والاعتقاد في قوة الولي. ⁽⁷⁾ كما أصبح مصطلح الولي أو الصالح أو المرابط يضم كل أنواع البلهاء والحمقى والمصروعين، وحتى بقايا أشجار وحيوانات أصبحوا من الصالحاء. ⁽⁸⁾

هـ- الورد:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾. ⁽⁹⁾ فالورد أو الحزب هو تلاوة جزء من القرآن في اليوم وترديد أسماء الله

(1) - القشيري، المصدر السابق، ص 438.

(2) - Dermenghem, Le culte des saints..., p29.

(3) - Deppont/Coppolani, Op, Cit, p143.

(4) - نقروش، المرجع السابق، ص 165.

(5) - نفسه، ص 166.

(6) - André(P.J.), Op, Cit, p73.

(7) - دوتي، المرجع السابق، ص 56.

(8) - نفسه، ص 54.

(9) - سورة الفرقان، الآية 62.

الحسنى، والصلاة على النبي "ص"،⁽¹⁾ أو الاستغفار بعدد معين،⁽²⁾ وتعظيم الله عن طريق تسبيحات وتكبيرات متكررة جهرا أو سرا.⁽³⁾ ولكل طريقة ورد خاص بها، يردده المريد صباحا أو مساء وبه يكون انضمامه إلى الطريقة.⁽⁴⁾

كان الورد في السابق أهم انشغالات المتصوفة الأوائل من دون أي بدعة كالرقص والتمايل... الخ،⁽⁵⁾ لأن الورد ينير الروح ويرفعها إلى أعلى المراتب التي تقوم على نقاء الروح، والعمل الصالح، والفضيلة.⁽⁶⁾

و- الذكر:

هي وصايا وتعاليم وإرشادات يقدمها شيخ الطريقة أو مقدمها.⁽⁷⁾ وهو عبارة عن ابتهالات أو كلمات يضعها الولي،⁽⁸⁾ ويعرضها على أتباعه وهذا بترديدها عدة مرات في اليوم صباحا ومساء وبصفة دورية باستعمال السبحة،⁽⁹⁾ حتى لا يغفل قلب المريد عن الله، فهو نوع من التقرب إلى الله، حيث يقول بعض المتصوفة أن الله ملائكة يطوفون ملتسمين أهل الذكر.⁽¹⁰⁾

وله صفات ثلاثة:

- حضور القلب.

- أن يكون الذكر بالقلب لا باللسان.

- أن يحذر الذاكر من الغفلة كالنوم إلا للضرورة لأنها تورث قسوة القلب.⁽¹¹⁾

كما أنه يقسم قسمين حسب الأداء وحسب الوقت:

- ذكر شفوي بدون حضور القلب ويكون جماعة.

- ذكر بحضور القلب وأجره عظيم^(*) ويكون منفردا.

⁽¹⁾ - Petit Louis, Op, Cit, pp55, 56.

⁽²⁾ - حسين الشرقاوي، معجم الفاظ الصوفية، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1978م، ص283.

⁽³⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 217.

⁽⁴⁾ - Deppont/Coppolani, Op, Cit, p86.

⁽⁵⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 217.

⁽⁶⁾ - Deppont/Coppolani, Op, Cit, p86.

⁽⁷⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 218.

⁽⁸⁾ - Daumas (E), La vie arabes..., p466.

⁽⁹⁾ - Daumas, Ibid, p466. - Daumas, Mœurs et cotumes, p320.

⁽¹⁰⁾ - حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 143.

⁽¹¹⁾ - نفسه، ص144.

^(*) - ذكر اللسان بـ10 حسنات وذكر القلب بـ700 حسنة. ينظر: نفس المرجع، ص 145.

- ذكر بالجوارح ويختص به أفراد معينون.⁽¹⁾
 - أما الذكر حسب الوقت فهو:
 - ذكر الأوقات (بعد كل صلاة).
 - ذكر الجلالة، يقال في المواسم ويوم الجمعة⁽²⁾ وفي الخلوة.^(*)
 - ذكر الحضرة، يقال عند تجمع المريدين حول الشيخ.⁽³⁾
 - أما جاسم إبراهيم فقسمه إلى:
 - **ذكر خفي**: ترديد ذكر الله في الذهن وبصوت منخفض.
 - **ذكر جلي**: إنشاد قصائد دينية وتراتيل صوفية وتوسلات لآل النبي "ص".⁽⁴⁾
- يقوم الأتباع أثناء الذكر بترديد مجموعة من الدعوات والتضرعات والتسبيحات عدة مرات من مائة إلى مائتان أو حتى ثلاثة آلاف مرة أحياناً،⁽⁵⁾ كالبسمة، التشهد، الحول (لا حول ولا قوة بالله) السبحنة (سبحان الله، الفاتحة،...) وهي تختلف من طريقة إلى أخرى، غير أن بعض الطرق يتم فيها الذكر في جو مليء بالصراخ والطبل والرقصات والشطحات وهي من البدع التي أنكرها الكثير من العلماء⁽⁶⁾ وأحياناً تكون بعض الأذكار سرّاً بين أتباع الطريقة والشيخ.⁽⁷⁾
- ي-المريد:**

(ج) المريدون، وهم الإخوان ويسمون بالدرأويش بالمشرق أو الفقراء عند القادرية وبالأصحاب عند التيجانية،⁽⁸⁾ وهم "الخونيات" (حسب المصطلح الشعبي) بالنسبة للنساء المنظمات للطرق الصوفية.⁽⁹⁾

فالإخوان هم أتباع متميزون يعينهم شيخ الزاوية يلتزمون بإتباع سيرة الشيخ الذي يكون له كل الاحترام، ويعتبرونه قدوة لهم ويعملون على اعتزال الناس والخلوة والقيام

⁽¹⁾- Deppont/Coppolani, Op, Cit, pp86, 87.

⁽²⁾- Ibid, p88. - Petit Louis, Op, Cit, p49.

^(*)- يكون بطريقة منتظمة وهو عبارة عن صلاة، ودعاء ومناجات لله.

⁽³⁾-Deppont/Coppolani, p88.

⁽⁴⁾- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1998م، ص 265.

⁽⁵⁾- هانوتو/ لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 102.

⁽⁶⁾- ساحي، المرجع السابق، ص 217.

⁽⁷⁾- Charles (R), Etude de l'insurrection du Dahra 1845-1864, typographie, Abesancenez, Alger, 1846, p128.

⁽⁸⁾-André (P.J.), Op, Cit, p61.

⁽⁹⁾- Ibid, p61.

والصيام والذكر،⁽¹⁾ والعمل على كسب أتباع جدد، وعلى المريد الراغب في الانضمام للطريقة حضور مجالس الذكر الطويلة التي تركز على تكرار عبارات وكلمات يملئها الشيخ أوالمقدم أو أحد الإخوان القدامى وزيارة أضرحة الأولياء سواء المحلية أو البعيدة.⁽²⁾ وبهذا فالمرید هو سالك لطريق يحدده له شيخه عن طريق التوبة، العهد، التلقين.⁽³⁾ كما يُلزم بأداء بعض الطقوس مثل^(*): القسم والتزام، الكتمان و الطاعة المطلقة لقوانين الطريقة، ويلقن الواجبات إزاء الطريقة وقادتها، وكذلك طقوس العبادة،⁽⁴⁾ كما يشترط عليه شيخه الصيام لثلاثة أيام، ويكون دائم الطاهرة والذكر قليل الطعام والنوم والاختلاط مع الناس،⁽⁵⁾ أي عليه ترك ما اعتاد عليه ويهجر الهوى ومطالب النفس والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وعليه بصدق النية والعمل حتى يتمكن من التحرر من قيود الهوى.⁽⁶⁾

كما يتوجب عليه تقديس شيخه والمبالغة في محبته، ومن يخالف هذا لا يفلح في حياته⁽⁷⁾ وطاعته طاعة عمياء، حيث يقول الغزالي: «على المريد التمسك بشيخه تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد... يفوض أمره له بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقى في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه من صواب نفسه لو أصاب».⁽⁸⁾

ولهذا كان على المريد طاعة شيخه وحسن الظن به دائم الاستعداد لخدمته⁽⁹⁾ فيصبح أداة طيعة في يد شيخه، يوجهه كيف ما يشاء. لذا ينطبق عليه المثل القائل: «مثل الميت في يد الغسال»، لكن هذه التربية الصوفية التي اتبعتها الشيوخ مع المريدين

(1)- Brosselard (H.), Les khouans, la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, H.Bourget, Alger, 1859, pp20, 21. - Saidouni, Op, Cit, p364.

(2)- Saidouni, Ibid, pp364, 365.

(3)- عامر النجار، المرجع السابق، ص 26.

(*)- للمزيرد حول هذا ينظر: الرسالة القشيرية باب وصية للمريدين، ص 621، 625.

(4)- هانوتو/ لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 99.

(5)- شهاب الدين محمود الألوسي، الفيض الوارد في شرح مرثية مولانا خالد، د.د، د.ت، ص 102.

-ساحي، المرجع السابق، ص 214.

(6)- حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 262.

(7)- التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 26.

(8)- أبو حامد الغزالي، المصدر السابق، ص 959.

(9)- عامر النجار، المرجع السابق، ص 28.

أدت إلى ذوبان شخصية المريد أمام شيخه، وعمقت فكرة التواكل لدى الأتباع الذين انصرفوا عن القضايا التي تمس حياتهم العامة،⁽¹⁾ وعمدوا على إرضاء الشيوخ ولو على حساب أنفسهم وحتى أحيانا على حساب الدين.

لكن وبالرغم من هذا إلا أنه لولا وجود المريدين لما قامت الطرق الصوفية،⁽²⁾ لأنه لولا المريدون لما اكتملت حلقات الطريقة التي يعد الشيخ عمادها والمريد أساسها.

ن - الخليفة:

وهو نائب الشيخ يرأس عدة شيوخ يسمون المقدمين،⁽³⁾ المنطوين تحت الطريقة ويلقن كذلك المريدين الورد وقواعد وطقوس الطريقة، كالطاعة العمياء للشيخ وحاشيته والامتثال لأوامرهم كما لو أن إرادتهم حكم من الله،⁽⁴⁾ وهو مساعد للشيخ، ويعوضه أثناء غيابه، وهو المسؤول على أموال الطريقة، كما يمكن أن يكون للطريقة عدة خلفاء إذا كان للطريقة نفوذ وانتشار واسع،⁽⁵⁾ فيعين الشيخ خلفاء له في المناطق البعيدة لتسيير أمور الطريقة والأتباع.⁽⁶⁾ يساعدهم في ذلك مجموعة من الوكلاء من أجل تنظيم أمور الزوايا الفرعية.⁽⁷⁾

ومن الشيوخ من يترك وصية يعين فيها خليفة له على الطريقة، بعد وفاته مثلما فعل سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي ترك وصية بموجبها سيدي علي بن عيسى خليفة له حيث منحه سلطته الكاملة وخاصة أسرارهِ وبركاته جاء فيها: «لقد عينت لكم خلفاء لي، رجلا اخلص لي طول حياتي... وأشهدكم جميعا أنني أضع في مكاني سيدي عيسى المغربي، مانحا إياه سلطتي وأودعته كافة أسراري وبركاتي...».⁽⁸⁾

م - المقدم:

هو مساعد الشيخ في كل تجمعات الأتباع، والمسؤول عن إدارة الزاوية،⁽⁹⁾ يتولى منصبه بتفويض من الشيخ لممارسة مهمته بالزاوية بحيث يختار من بين قدماء الطلبة،⁽¹⁾

(1) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 28.

(2) - عامر النجار، المرجع السابق، ص 26.

(3) - Brosselard, Les khouans, p09. - Rinn, Marabouts..., p78.

(4) - هانوتو - لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 98 و 103.

(5) - G. André(J.P), Op, Cit, p60.

(6) - Petit Louis, Op, Cit, p94.

(7) - Carette, Op, Cit, p263.

(8) - Rinn, Marabouts..., p455.

(9) - G. André (J.P), Op, Cit, pp60, 61.

- مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 42، 43.

يهتم بشؤون الطلبة والزواوية وإدارتها واستقبال الهدايا والهبات الممنوحة للزواوية والطلبة⁽²⁾ (*) والتتسيق بين الزاوية الأم والزوايا الفرعية التابعة لها، كما يتحمل كل الأعباء والمسؤوليات والإدارة التنظيمية للزواوية واستقبال الزوار قبل دخولهم للشيخ.⁽³⁾

وإذا كان على دراية بالعلوم الشرعية والتصوف يمنحه شيخه إجازة اعتراف بكفاءته وقدرته على التسيير والمسؤولية،⁽⁴⁾ يفوضه بموجبها لممارسة مهامه لدى أتباع الطريقة أو مع تلاميذ الزاوية،⁽⁵⁾ مثل الإجازة التي منحها الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن (بوقبرين) لتلميذه سيدي بلقاسم بن محمد من معاتقة مكتوبة بخط يده سنة 1177هـ - 1764م،⁽⁶⁾ وهؤلاء المقدمون أو نواب الشيخ هم أيضا مجازون من طرف الشيخ في مناطق انتشار الطريقة من أجل إعطاء الإجازات،^(*) التي بواسطتها يقبل الطالب كمريد في الطريقة.⁽⁷⁾

والملاحظ هو أن المقدم وعند وفاة الشيخ قد يصبح قيما على الضريح ويتوارث المنصب حتى يصبح نفوذ عائلته أكبر من نفوذ عائلة الولي نفسها، ومنهم من حل محل أسياده، خاصة في المؤسسات الدينية الصغيرة مثال زاوية سيدي بتقة التي تحول اسمها إلى أحد القيمين عليها وهو تركي يدعى **تشختون**،⁽⁸⁾ ومسجد سيدي بن العباس تحول اسمه إلى مسجد الركروك أو الرقروق.⁽⁹⁾

ز - العهد:

هو عقد يربط المريد بالطريقة وهي بيعة لله وفي الله وبالله،⁽¹⁰⁾ فهو يشبه البيعة للأمير التي عرفها ابن خلدون بقوله: «البيعة هي العهد على الطاعة، كان المبايع يعاهد

(1) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 33.

(2) - Delpeche (A), La zawia de Sidi Ali..., p87.

(*) - أما الوكيل فيهتم بالحبوس (الأوقاف) والمخزن الذي تجلب له الحبوب والفواكه الجافة. Ibid, p88.

(3) - G. André(J.P), Op, Cit, pp60, 61.

(4) - Petit Louis, Op, Cit, p64.

(5) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 33.

(6) - Delpech (A), "Un diplôme de Mokadem de la confrérie religieuse RAHMANIA" in **R.A.**, N°18, 1874 p419 et suite.

- Salhi (M.B), Op. Cit, p254.

(*) - الإجازة عند الصوفية، تمنح للطالب من أجل إعطاء الورد للأتباع.

(7) - Rinn, Marabouts..., p462.

(8) - Devoulx, Les édifices religieux..., p191 et suite.

- إدموند دوتي، المرجع السابق، ص 41، 42.

(9) - Ibid, p193 et suite.

(10) - عامر النجار، المرجع السابق، ص 28.

أميره أنه يسلم له أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر». فهي خضوع في التحية والالتزام والآداب ولوازم الطاعة وتوابعها،⁽¹⁾ يتعهد بموجبه المريد أمام شيخه بالالتزام بالعبادات وترك المعاصي وطاعة الشيخ وإتباعه، والمداومة على الورد والمشاركة في شعائر وطقوس الطريقة.⁽²⁾

تختلف كل طريقة في كيفية أخذ العهد لكنها كلها تتفق في وجوب طهارة المريد لأخذ العهد، والتوجه إلى الله وسؤاله القبول والتوسل بالنبّي "ص" ثم يصلي المريد ركعتين.⁽³⁾ بعدها يجلس على ركبتيه أمام شيخه الذي يضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى، ثم يلقي المريد بعض آيات القرآن التي تنص على حفظ العهود والمواثيق وبعض الأدعية والمريد يردد وراءه، ثم يقول المريد: «اللهم أني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وأوليائك أني قد قبلته شيخا في الله ومرشدا وداعيا» ليرد عليه الشيخ «اللهم أني أشهدك قد قبلته ولدا في الله تعالى فاقبله علي وكن له ولا تكن عليه وانظر غايتك إليه».⁽⁴⁾

وبما أن العهد رباط مقدس لا يستطيع المريد التحلل منه لأنه يمثل رمز المعاهدة مع الله، لذلك نجد الشيوخ يترددون في إعطاء العهد للمريد إلا بعد التأكد من عزمهم وصدقهم وإخلاصهم.⁽⁵⁾

ك - الخلوة:

هي الاعتزال وقطع التواصل مع الناس،⁽⁶⁾ وإن كان بينهم. وهي انقطاع من الخلق إلى الخالق، لأنه سفر النفس إلى القلب ومن القلب إلى الروح ومن الروح إلى السر ومن السر إلى الخالق فمسافة السفر بعيدة جدا بالنسبة للنفس قريبة جدا بالنسبة إلى الله.⁽⁷⁾

(1) - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، فصل 29 "البيعة"، تج. عبد الله محمد درويش، ط1، دار يعرب، دمشق، سوريا، 2004م، ج1، ص 390.

(2) - منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، منشأ المعارف، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص 227.

(3) - عامر النجار، المرجع السابق، ص 28، 29.

(4) - Rinn, Marabouts..., pp469, 470. - Petit Louis, Op, Cit, pp39, 40.

(5) - منال عبد المنعم جاد الله، المرجع السابق، ص 227. - زروق جيجيك، المرجع السابق، ص 114.

(6) - سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 434.

(7) - يحيى بن معاذ الرازي، المرجع السابق، ص 158.

وقيل هي الأنس بالذكر والاشتغال بالفكر، فهي خلوة عن جميع الأذكار إلا عن ذكر الله. (1)

فهي سلوك خاص بالمرابطين، حيث يختفون عن الأنظار مدة من الزمن في البوادي أو الصحاري، وفي الأماكن المعزولة عن الناس، ليعودوا بعد ذلك ويبرزوا للناس الكرامات والمكاشفات وأنهم يطلعون على ما لا يراه غيرهم. (2)

وتعتبر الخلوة من المستلزمات الروحية للمريد في الطريقة الصوفية، يهتم بها شيوخ الطرق لتربية وتزكية النفوس، والتقرب إلى الله بالاستغفار وإصلاح النفس، والهدف منها معرفة مدى استعداد المريد لتقبل مقامات وأحوال أخرى غير التي يعانيها في الخلوة وبها يتدرج من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام. (3)

أثناء الخلوة يتم القيام ببعض الابتهالات والعبادات كترديد قول "هو الحي القيوم" من 10.000 إلى 30.000 مرة وإضافة إلى القيام بالصلاة، والصيام وتدوم لمدة معينة، (4) هذه المدة تختلف من طريقة إلى أخرى فمثلا القادرية تدوم الخلوة عندها "أربعين يوما" وتكون لهم خلال الخلوة رؤى ومعتقدات كأن يرى المريد أطيافا تحدثه، أو ما يسمى بالتجليات والفتح الأكبر مثلما حدث للشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهرى والشيخ أحمد التيجاني في القرن 18م. (5)

ل- الضريح:

هو بناء يضم رفاة شخصية بارزة (6) أو هو مدفن لأمر أو سلطان أو شخصا له مكانة تستدعي تخليده، (7) والأضرحة نوعان: ضريح منفرد بسيط يتكون من غرفة واحدة مربعة ذات قبة، وضريح ملحق بالمسجد أو مدرسة أو زاوية وغيرها، ومنها ما عرف

(1) - عبد المنعم الحنفي، معجم المصطلحات الصوفية، ط2، دار المسيرة، بيروت، لبنان، 1987م، ص 92.

(2) - فاطمة الزهراء سيدهم، المرجع السابق، ص 24.

(3) - حسن الشرفاوي، المرجع السابق، ص 130، 131.

(4) - Petit Louis, Op, Cit, pp47, 48.

(5) - ساحي، المرجع السابق، ص 217.

(6) - محمد شفيق غريال وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 2001م، ج2، ص1143.

(7) - محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 2000م، ص175.

- عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، جروس برس، بيروت، لبنان، 1988م، ص 256.

بالمزار لاحتوائه على قبر لأحد العارفين والأولياء،(*) يقصده الناس للزيارة والتبرك،⁽¹⁾ فهو مكان لالتماس البركة والخير والدعاء المستجاب.⁽²⁾ رغم أن الإسلام نهى عن هذا لما فيه من البدعة.

يمتاز الضريح بقبة(*) تختلف عن باقي قباب الأبنية الدينية الأخرى، فهي تعتبر كرمز للدلالة عن بعد بوجود ولي بالمنطقة.⁽³⁾ فيصبح مزارا يقصده الناس مثل ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسيدي بوقبرين... وغيرهما من أجل طلب البركة أو لقضاء حاجة والدعاء، لاعتقاد الناس بأنه مكان تتحقق فيه مطالبهم لقداسته. وغالبا ما تعكس حالة الضريح مدى شهرة الولي المدفون فيه فكلما زاد قاصدوه زادت قيمته.⁽⁴⁾ وتعد زيارة أضرحة الأولياء في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة ظاهرة لا تخرج عن تقاليد وثقافة شعبية ترسخت بفعل ثقافات متعددة في التجربة الصوفية بتعدد طرائقها.⁽⁵⁾

م- الحضرة:

هي اجتماع يلتقي فيه الشيخ بمريديه⁽⁶⁾ أو هي احتفال تكريما لأحد المرابطين⁽⁷⁾ لأن الولي لا يكون وليا في اعتقاد الناس إلا بعقد الحضرة له.⁽⁸⁾

(*)- لأن الولي هو الذي يمثل الجانب المقدس في الضريح أي يمثل البعد الروحي المرتبط بصاحب الضريح. -نفسية دويدة، المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال العهد العثماني، إنسانيات، ع68، 2015م، وهران، الجزائر، ص 11.

(1)- محمد رزق عاصم، المرجع السابق، ص 175، 177.

(2)- نفسية دويدة، المرجع السابق، ص 11. - عطية شطة، البعد التربوي والروحي للزوايا، زاوية سيدي بولراح كنموذج للزوايا العلمية للطريقة الرحمانية، رسالة ماجستير (علم الاجتماع الديني)، جامعة الجزائر 2، 2008م، ص 68. (*)- القبة، هي بناء محدودب لها شكل بيضوي أو مخروطي، نصف كروي وقد تكون صغيرة أو كبيرة، كانت تبنى فوق الهياكل الوثنية والمعابد اليهودية والكنائس المسيحية والأضرحة الإسلامية.

-محمد رزق عاصم، المرجع السابق، ص 222.

(3)- زينب فراح، الزيارة النسوية للأضرحة، مقاربة أنثروبولوجية بضريح سيدي قادة بن المختار بولاية معسكر، رسالة ماجستير (علم اجتماع الأديان والممارسات الدينية)، جامعة وهران، الجزائر، 2011م، ص 29.

(4)- سعيدوني، في الهوية والانتماء...، ص 128.

(5)- زينب فراح، المرجع نفسه، ص 30.

(6)- حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 124.

(7)- Rinn, Marabouts..., p84 (Marge).

(8)- الفكون، المصدر السابق، ص 134.

وتعد الحضرة عند الصوفيين وسيلة لتربية النفس وتهذيبها، وتطهير الذات بالذكر الذي يتحول إلى رقص وحركات غير متوازنة،⁽¹⁾ فهي نوعان:

❖ **حضرة للذكر:** يلتقي فيها الشيخ مرديه بصفة أسبوعية أو يومية لمناقشة بعض كتب الفقه والتفسير،⁽²⁾ أو أداء شعائر مختلفة كترديد كلمات مثل التهليل والتكبير والصلاة على النبي "ص" وقراءة حزب من القرآن مع التمايل (تحريك الرأس أثناء القراءة).⁽³⁾

❖ **حضرة السماع:** حيث يكون المريد حاضر القلب مطرق الرأس متماسكا إلا إذا غلبه الوجد^(*) دون اختياره، ويباح فيها الرقص والبكاء والصياح⁽⁴⁾ والجذب حدّ الإغماء، وغرس السيوف والحديد الساخن في الأجسام دون أن يشعروا بشيء أو إشعال النار والدخول فيها، وأكل الزجاج واللّعب بالأفاعي،⁽⁵⁾ دون أن يتأثروا، مثل الطريقة العيساوية التي تدخل الأعمال السحرية في الحضرة.^{(6)(**)}

وقد وصف الفكون الحضرة وما يقوم بها من أعمال لا علاقة لها بالدين بقوله: «يجتمعون لذكر المولى جلّ جلاله فيغيرون إسمه، ويشطحون ويرقصون، وربما يتضاربون فتراهم ككلاب نابحة، ولعابهم كميّاه طافحة، وأنفاسهم كنيران نافحة، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ولا مكروه، ويعتقدون أنّ ما هم عليه هو الحق الواضح والطريق الأقوم الراجح، ولقد زُينَ لهم الشيطان أعمالهم وحبب إليهم أفعالهم».⁽⁷⁾

(1) - فاطمة الزهراء سيدهم، المرجع السابق، ص 24.

(2) - حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 124.

(3) - Dermenghem (Emille), "Essai sur le hadra, des aissaoua d'algerie", in **R.A.**, N°95, 1951, p291.

(*) - **الوجد:** هو أن يصل المريد إلى درجة يضرب بحرية أو يمزق ثيابه ولا يدري. - حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 177.

(4) - حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 176، 177.

(5) - جيجيك، المرجع السابق، ص 112، 113.

(6) - أنظر الفكون ووصفه لحضرة السماع، ص 119. وما فيها من مخالطة النساء، ص 160.

(**) - ينظر: حول وصف الحضرة، الفكون، المصدر السابق، ص 119، 120.

(7) - الفكون، منشور الهداية، ص 119.

ن - الكرامة:

هي ظهور الخوارق على يد الأولياء الذين خرقوا عادة الخلق على غير المؤلف والطبيعي، كالانتقال من مكان لآخر بعيد عنه بأميال في لمح البصر، المشي على الماء، الطيران في الهواء، استشفاء المرضى تحويل المعدن الرخيص إلى معدن نفيس...⁽¹⁾

لذا عرفها شمس الدين الرازي بقوله: "كرامات الأولياء ما يكرمهم الله به من الأمور الخارقة للعادة"،⁽²⁾ فهي الميزة الأساسية التي تحدد التاريخ الروحي للسالك إلى الله. حيث تجعل الولي يحمل سمات تختلف عن باقي البشر وتجعله أقرب إلى الله منه إلى الإنسان.⁽³⁾ وتكمن فائدتها في معرفة الولي الصادق من المدعي الكاذب وظهرها علامة صدق من ظهرت عليه، وبهذا فهي أمر خارق يؤد به الله أولياءه، وإن حصلت فهي دلالة على صدق عبادته وعلو مكانته بشرط إتباع الرسول "ص" حسب ما أورده ابن تيمية.⁽⁴⁾ وحسب "ابن معاذ" أن: «من يتولى الله بالطاعة يتولاه بالكرامة». ⁽⁵⁾ وهذه الأفعال الخارقة ليست محصورة على الأولياء فقط، فقد تصدر من قوة همة العبد وعلى علم منه.⁽⁶⁾ أو قد تكون لشخص غير صالح لذلك يقول ابن تيمية: «أن أولياء الله انفقوا على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعتة للرسول "ص" وموافقتة لأمره ونهيه». ⁽⁷⁾

تختلف الكرامة عن المعجزة في كونها للأنبياء والكرامة للأولياء فحسب ابن تيمية فإنّ "المعجزة للنبي والكرامة للولي"،⁽⁸⁾ والأولياء مجبرون على كتم كراماتهم عكس الأنبياء عليهم إظهار المعجزة للخلق للاحتجاج على الكفار والدلالة على الله عكس الكرامة،

(1) - حسن الشرفاوي، المرجع السابق، ص 240. - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 102، 103.

(2) - شمس الدين الرازي، حقائق وحقائق...، ص 256.

(3) - علي زغور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، ط1، الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979م، ص190، 193.

(4) - تقي الدين أحمد بن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، تح. عبد الرحمن عبد الكريم اليحي، دار الفضالة، الرياض، السعودية، دت، ص 292.

(5) - يحي بن معاذ الرازي، جواهر التصوف، شرح وتعليق، سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2002م، ص 52.

(6) - سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 962، 964.

(7) - ابن تيمية، الفرقان...، ص 168.

(8) - تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموعة فتاوي...، ص 311، 312.

فهي حجة الولي على نفسه حتى تطمئن ولا تضطرب، لأنّ النفوس مجبولة على الشك وأمانة السوء.⁽¹⁾ وبهذا فهي عون الولي على طاعته ومقوية ليقينه ودلالة على صدق دعواه.⁽²⁾

وفي رأي أهل السنة أنّ الولي الحقيقي من أخفى كراماته، لذلك نجد الفقهاء يحثون المتصوفة على طلب الاستقامة بدل الكرامة. فنجد محمد بن عليان النسوي يقول: «من أظهر كرامته فهو مدّع، ومن ظهرت عليه الكرامات فهو ولي»، أما عمرو الدمشقي فيقول: «كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات، كذلك فرض على الأولياء كتمان الكرامات حتى لا يفتن الخلق».⁽³⁾

ويجمع الصوفية على إثبات كرامات الأولياء ويرجعون في ذلك إلى القرآن والسنة. لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾⁽⁴⁾ وفي حديث الرسول "ص": ﴿أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ﴾.⁽⁵⁾

لذلك نجد ابن خلدون في المقدمة يذكر الحقيقة التاريخية للكرامات بدليل أنها وقعت للصحابه وأكابر السلف بقوله: "وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر... وهذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة".⁽⁶⁾

والكرامات نوعان حسية ومعنوية فالعامة تعرف الكرامة الحسية فقط مثل الكلام والإخبار بالمغيبات الماضية والآنية والآتية والمشي على الماء، وإجابة الدعاء، أما المعنوية فهي طهارة القلب ومراعاة حقوق الله، وإتيان مكارم الأخلاق.⁽⁷⁾

(1) - ماسينون ومصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 87. - سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 968.

(2) - ماسينون ومصطفى عبد الرزاق، نفسه، ص 86.

(3) - أبو عبد الرحمن السلمي، الطبقات الصوفية، ط2، تح. أحمد الشرباصي، مطبعة كتاب الشعب، د.ب، 1998م، ص 143 و 91.

(4) - سورة النمل، الآية 40.

(5) - أخرجه أحمد والشيخان وابن ماجة والنسائي.

(6) - ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 243 (باب التصوف).

(7) - النبهاني، المصدر السابق، ص 66.

بعدها تطورت الكرامة مع مرور الوقت للدلالة على قداسة الشيخ خاصة بعد وفاته لتصبح بذلك باباً ولج من خلاله أدعياء التصوف من أصحاب الدجل والخرافات، فساد الاعتقاد أنّ هذه الكرامة لا تزول بعد وفاة صاحبها، بل تلزم قبره وهي أداة التواصل بينه وبين الناس لذلك يتبركون بضريحه، وما فيه من خرقة معلقة وأعلام مزينة وشموع، وبخور...⁽¹⁾ والقيام بطقوس من أجله حتى يساعدكم في قضاء مبتغاهم.

2- التجربة الدينية للسلطة الروحية:

2-1- التصوف وانتشاره في الجزائر خلال العهد العثماني:

أ- نشأة ومفهوم التصوف:

❖ مفهوم التصوف: يذكر "القشيري" أن اسم "الصوفي" و"التصوف" فلا اشتقاق له في اللغة العربية، والظاهر أنه كاللقب، فيقال تقمص أي لبس قميصا وتصوف أي لبس الصوف.⁽²⁾

لذلك اختلفت الآراء حول أصل كلمة "صوفي" فقد أرجع البعض أصل الكلمة إلى الصوف الذي في نظرهم هو لباس الزهاد،⁽³⁾ لكن هناك من ينفي هذا، لأن أهل التصوف لم يختصوا بلبس الصوف حسب الكثير من العلماء منهم القشيري.⁽⁴⁾

في حين أرجعه بعضهم إلى أهل "الصفة"، وهم من زهاد المسلمين وفقرائهم الذين لم يكن لهم سكن، فسكنوا صفة المسجد،⁽⁵⁾ وهناك من قال أنهم سميوا "صوفية" لصفاء أسرارهم ونقاء آثارهم⁽⁶⁾ لكن حسب "القشيري" فإن الاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة العربية.⁽⁷⁾

(1)- محمد دحماني، حكايات كرامات الأولياء بمنطقة الشلف، ماجستير في الآداب، جامعة بن خدة الجزائر، 2006م، ص 10.

(2)- القشيري، المصدر السابق، ص 464.

(3)- ماسينيون/صطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 58.

(4)- القشيري، المصدر السابق، ص 464.

(5)- عبد الرحمن بن الجوزي، تلبس إبليس، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت، ص 157.

- ماسينيون/صطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 58. - عبد الكريم الخطيب، التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، ط1، دار القلم العربي، بيروت، لبنان، 1980، ص 78.

(6)- عبد الكريم الخطيب، نفسه، ص 76.

(7)- القشيري، المصدر السابق، ص 464.

أما البعض الآخر فيرجع أصل التسمية إلى "صوفة" وهو رجل تفرغ لعبادة الله بالحرم المكي، ويدعى "الغوث بن مر" المكنى "بصوفة" لأن والدته نذرت إن عاش لها تعلق له صوفة على رأسه،⁽¹⁾ وفي رواية أخرى أنها نذرت أن تربطه إلى الحرم فأصابه الحر وسقط فقالت أمه ما صار ولدي إلا "صوفة"، وسمي كل من اتبعه في اعتكافه "صوفي".⁽²⁾ ونتيجة لهذا الاختلاف في الأصل فقد أنشد العلامة "محمود الألوسي":

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الإسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي⁽³⁾

أما عن معنى كلمة التصوف فقد خصّه العلماء بالكثير من التعريفات منها قول "القشيري": «هو استرسال النفس مع الله على ما يريده»، وقال أيضا في موضع آخر: «هو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع».⁽⁴⁾

أما "سهيل التستري" فيقول: «التصوف ليس رسما ولا علما لكنه خلق». ومحمد الجبري يرى أنه: «الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق ديني»⁽⁵⁾ وقال كذلك: «هو مراقبة الأحوال ولزوم الأدب».⁽⁶⁾

في حين يعرفه "ابن خلدون": «على أنه علم من علوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل في سلف الأمة، وكبارها من الصحابة والتابعين... أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وحياة والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة».⁽⁷⁾

أما "عبد الرحمن الثعالبي" فيرى أن التصوف هو: «الأسف على الذنب والتوجه بالإخلاص لمرضاة الرب، والخروج من قبح التفسير والتوجه إلى الحق بالعقل والحس،

(1) - ابن الجوزي، المصدر السابق، ص 156. - ابن تيمية، الفرقان، ص 130 هامش.

(2) - ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص 156.

(3) - الألوسي، المصدر السابق، ص 100. - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002م، ج 1، ص 35.

(4) - القشيري، المصدر السابق ص 465، 466.

(5) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 115، 116.

(6) - القشيري، المصدر السابق، ص 467.

(7) - ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 225.

وهو الخروج من كل خلق دنيوي والتعلق بكل خلق سني» أما قوله على ما يجب على المتصوفة من جمهور العلماء والنقباء الذين استخرجوا خبايا النفوس «أنهم هم من بحثوا عن النقص، واستعدوا للمنازلة بالسياسة، والمعاملة بإخلاص والعزم على المجاهدة، فهدوا إلى سبيل الله ظاهرا وباطنا، ظاهرا بالأعمال الصالحة، وباطنا بالأخلاق الفاضلة».⁽¹⁾ وهناك بعض المتصوفة الذي قال أن «التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة، فالعلم للكشف عن المراد والعمل للعون على المطالب، والموهبة للتبليغ إلى الغاية».⁽²⁾

وبهذا فالتصوف ليس فرقة من الفرق المذهبية كالسنة والشيعية والمعتزلة بل هو مذهب روحي انتشر بين الشعوب منذ الحضارات القديمة كما أنه من الجائز أن يكون السني والشيعة والمعتزلي صوفيا،⁽³⁾ كما أنه علم من العلوم الإسلامية، وهو روح الإسلام وجوهره لأنه تصفية للقلب وتطهيره وإخلاص للعبودية لله، وتحرير للجسد ونبذ لدنيا وهجر الملذات.⁽⁴⁾

وللتصوف عدة خصائص: اليقظة، التوبة، المحاسبة، الإنابة، التفكير، الاعتصام، الرياضة، السماع والقرار والتعلق باسم التواب الغفور⁽⁵⁾ وهناك من جعل من خصائصه: الترقى الأخلاقي، الفناء في الحقيقة المطلقة، العرفان الذوقي المباشر، الطمأنينة، السعادة، الرمزية في التعبير، إضافة إلى الإرادة والحب الروحي.⁽⁶⁾

أما "الألوسي" الذي يميل إلى الصوفية فيقول أن للتصوف عشرة أركان، خمسة في الظاهر وخمسة في الباطن، فالظاهر تكون بالخدمة والخرقة والخلوة والصحبة والفتوة، أما الباطن فهي العلم والعمل والحال والقلب والمعرفة.⁽⁷⁾

(1) - عبد الرحمن الثعالبي، وصية الثعالبي، مخطوط رقم 13354، الخزانة الحسنية، الرباط، المغرب، ص 107.

(2) - الألوسي، المصدر السابق، ص 101.

(3) - عبد الله عبد الرزاق، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2004م، ص 12.

- عبد الرزاق محمد أسود، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ط1، الدار القومية للموسوعات، بيروت، لبنان، مج2، 1981، ص07.

(4) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 05.

(5) - الثعالبي، المصدر السابق، ص 107.

(6) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 118، 119.

(7) - الألوسي، المصدر السابق، ص 101.

❖ **تطور التصوف:** لقد مر التصوف بمراحل قبل أن يصل إلى ما هو عليه الآن، حيث كان في البداية عبارة عن الزهد، وترك للدنيا وملذاتها، أي أنه حسب القشيري "عمل بلا علاقة (بدون شهوات الدنيا) وقول بلا طمع وغز بلا رياسة.⁽¹⁾ أي هو إخلاص العبد لعمله وفي قوله لله وحده ولا يبغى بهما شيئاً من الدنيا أو من الخلق.⁽²⁾

وبهذا فقد كان يعني ترك كل ما يشغل العبد عن التقرب إلى الله وهو سلوك المتصوفة الأوائل عملاً بقول الرسول "ص" «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».⁽³⁾

بعدها انتقل هذا السلوك الزهدي مع الوقت إلى ما يسمى بالتصوف، بعد اختلاط المسلمين بشعوب وديانات أخرى، وانغمسوا في ملذات الدنيا خاصة منذ العصر العباس الأول (القرن 2هـ/3هـ). واختلاط المسلمين وامتزاجهم بثقافات الفرس والروم والهنود، والصينيين،⁽⁴⁾ لذلك يقول "ابن الجوزي" أن: «الصوفية طريقة كان ابتدؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إلى السماع، والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة لما يجدونه من زهد ومال إليهم طلاب الدنيا لما يجدون عندهم من الراحة واللعب».⁽⁵⁾

أما "ابن خلدون" فيشير إلى هذا التحول في الزهد إلى ما يسمى تصوفاً بقوله: «إن إقبال الناس على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة».⁽⁶⁾

وبهذا تطور التصوف الذي بدأ على شكل فردي ومارسه العديد مثل أبي الفيض ثوبان (نو النون المصري. ت 958م) ورابعة العدوية (801م)، ليتحول إلى مذهب قائم على أركان مدعمة بنصوص مدونة من القرآن، وسمي علم الباطن، ليتطور بعدها أكثر ويختص بتدوين أقوال المشايخ ومناقبهم وتعداد كراماتهم، لذلك ظهرت الكثير من المصنفات حول مناقب المشايخ.⁽⁷⁾

(1) - القشيري، المصدر السابق، ص 221.

(2) - بن معاذ الرازي، المصدر السابق، ص 137.

(3) - حديث حسن رواه ابن ماجه.

(4) - عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 74. - يحي بوعزيز، موضوعات ...، ص 216.

(5) - ابن الجوزي، المصدر السابق، ص 156.

(6) - ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 225.

(7) - التليبي العجيلي، المرجع السابق، ص 22.

فالتصوف مارسه في البداية المثقفون ورجال الدين الرسميون، الذين يرجعون إلى الشريعة والسنة، لكن لما تحول إلى تصوف شعبي اعتمد على التعبد الروحي وزيارة الأولياء والمزارات وعلى الوجدان، وعلى وسيط يتجسد في شخص صالح يساعدهم في حل مشاكلهم ونصرتهم. لهذا كثرت القباب والزوايا والمزارات والطرق الصوفية، خاصة في الأرياف أين تغيب السلطة المركزية،⁽¹⁾ لذلك يقول "ابن الجوزي" على المبتدعين في التصوف أن أمرهم تفاقم قرنا بعد قرن، فيما كان يعول سلفهم على الكتاب والسنة.

ومن هنا فالتصوف برز بشكل فردي ثم تطور إلى سلوك جماعي تربط بينهم علاقات وطيدة، تنظم حياتهم في مختلف الجوانب، وفق خصائص تميزها عن بقية التجمعات البشرية الأخرى،⁽²⁾ لينتقل بهذا من الجانب النظري الذي يتطلب معرفة بأحكام الشريعة إلى تصوف عملي يكتفي فيه المريد بممارسة بعض الطقوس الفردية أو الجماعية كالذكر والرقص والإنشاد.⁽³⁾ وهذا بعدما أخذ الصوفية أشكالاً تنظيمية، وتوزع رجالها في طرق وأخويات يدين كل واحد منهم لمؤسسها، وانتشروا في أوساط العامة واكتسبوا الأتباع.⁽⁴⁾

فمنذ القرن 3هـ/9هـ بدأ الناس ينتظمون في طوائف وطرق لكل منها نظامها الخاص الذي تلزم أتباعها ومريديها الذين كانوا قوام هذه الطوائف، ملازمين لشيخ يرشدهم ويوجههم، فظهرت على إثرها عدة طرق كالقادرية والأحمدية والرفاعية والشاذلية وغيرها من الطرق، التي وعلى الرغم من اختلافها في الأسباب والمناهج والوسائل إلا أنها تتفق في الهدف من ارشاد الناس وتوجيههم إلى أقوم السبيل.⁽⁵⁾

كما أن الصوفية وفي كامل البلاد الإسلامية يتفقون في مراتب التدرج في الولاية، أو في طبقات الأولياء الذين أطلقوا عليهم "رجال الغيب" وعددهم محدود وكل ما توفي

(1) - حليم بركات، المرجع السابق، ص 258، 259.

(2) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 24.

(3) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 25.

(4) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان، ص 60، 61.

(5) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 123، 124.

أحدهم خلفه آخرون وهم 300 نقيباً و 400 أبدالاً و 07 أمناء و 04 عمد وقطب⁽¹⁾ إلا أن هذا التعداد لرجال الغيب فيه اختلاف^(*).

(1) - ماسينيون/مصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 45، 46. للمزيد حول عددهم ومراتبهم ينظر: سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 517، 518.

(*) - مراتب التدرج في الولاية أو طبقات الأولياء كثيرة منها:

- **القطب**، ويسمى **الغوٲ** لالتجاء الملهوف إليه، وكذلك يسمى قطب الاقطاب وقطب المدار... (عبد المنعم الحنفي، المرجع السابق، ص 217).

وجمعهم، أقطاب، وهم الأقلون عدداً الأكثرون عند الله قدراً وهم الأمناء في العبادة، (حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 235).

وبعد القطب أعلى مرتبة في سلم القيادة عند الصوفية، (منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 147. Rinn, Marabouts, pp 55, 56)

فالغوٲ هو الرئيس الأعلى لكل المشايخ والخلفاء وليس بالضرورة أن يكون من آل البيت بل يتوقف على صلاحه وتقواه (نفسه، ص 147).

لذلك يقول عنه ابن خلدون «معناه رأس العارفين ويزعمون أن لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ليورث مقامه لآخر من أهل العرفان»، (ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 238). وهو الواحد في نظر موضع الله تعالى عن العالم في كل زمان، (ابن تيمية، الفرقان...، ص 72. / سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 517).

فالأقطاب هم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو النيابة، وهم لا يزيدون عن واحد في كل زمن، فيكون بذلك القطب قد تفرد عن بني جنسه فيكون أفضل أهل عصره. (النبهاني، المصدر السابق، ص 69).

- **الإمامان**، لا يزيدان عن اثنين، وهما وزير القطب واحد عبد الرب والآخر عبد الملك، والقطب عبد الله، الأول يقتصر على مشاهدة عالم الملكوت والآخر على عالم الملك، يخلفان القطب إذ مات. (حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص 238. - سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 109).

- **الأوتاد**، أو العمد وهم أربعة في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون (النبهاني، المصدر السابق، ص 69) وهم على الجهات الأربعة من العالم أي الشرق والغرب والشمال والجنوب بهم يحفظ الله هذه الجهات. (ابن تيمية، الفرقان...، ص 72. Rinn, Marabouts..., p56)

- **الأبدال**، مأخوذ من التبديل والتغير، حيث يسافر أحدهم إلى موضع ويترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فُقد، وهم سبعة عند الصوفية. (ابن تيمية، الفرقان، ص 71. - عبد المنعم الحنفي، المرجع السابق، ص 32) إلا أن هذا فيه اختلاف فمنهم من يقول عددهم 300 ومنهم من قال عددهم 70 ومنهم من قال 40 عددهم ومنهم من قال 07 فقط ومقرهم سوريا. (الشرقاوي، المرجع السابق، ص 25. Rinn, Marabouts..., p56 -)

ولهم أربع مظاهر، الصمت، الجوع، السهر والعزلة والإبدال. وترتيبهم كترتيب السموات بحيث يكون ارتباط البدل الأول بالسماء السابعة والثاني بالسادسة وهكذا أي لكل بدل إقليم له فيه ولاية الأول على قدم إبراهيم الخليل عليه السلام، والثاني على قدم موسى عليه السلام والثالث على قدم هارون والرابع على قدم إدريس والخامس على قدم يوسف والسادس على قدم عيسى والسابع على قدم آدم عليه السلام. (النبهاني، المصدر السابق، ص 69. - الشرقاوي، نفسه، ص 23، 24).

وقد كان يستغاث بهؤلاء الأولياء مثلما فعل أحمد البوني في شعره:

يا ربنا يا فاتح الأبواب	توسلي إليك بالأواب
محمد والأنبياء والمرسلين	وآلهم وصحبهم والتابعين
وكتب السماء والملائكة	وكل من له لديه بركة
كالقطب والأبدال ثم النقا	والأوتاد والأخيار نعم والنجبا
بالغوث المعد بالإفراد	توصل العبد إلى المراء ⁽¹⁾

كما نجد أن شيوخ هذه الطرق كل منهم يستند على شرعية طريقته على سلسلة من الصالحين الذين يتصلون بالرسول "ص" الذي تلقى بدوره الأذكار والأوراد عن جبريل عليه السلام عن رب العزة سبحانه وتعالى،⁽²⁾ وهي ما تسمى "سلسلة الذهب" والتي تعد شهادة على عمق عقيدة الطريقة ولا يمكن دحضها⁽³⁾، وهو ما تذهب إليه كل الطرق فمثلا

- الأخيار، وهم سبعة وهم مختارون يسافرون لنشر الإسلام وليسوا على بينة بتفوقهم الروحي ولا يعرفون إلا من طرف الغوث. (Rinn, Marabouts....., p56.)

- النقباء، ج: نقيب، مثل الأمين والكفيل وهم من أشرف على بواطن الناس واستخرج خفايا الضمائر (ابن تيمية، الفرقان...، ص71).

وعدهم 12 نقيباً كل نقيب له عالم به خاصية كل برج بما أودعه الله فيه من الأسرار، (النبهاني، المصدر السابق، ص70. - حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص269)

ومنهم من يقول أن عددهم 300 (ابن تيمية، الفرقان....، ص71. - Depont/Coppolani, Op. Cit, p81.) ولا يعرفون إلا من طرف من يساويهم مرتبة أو من طرف رؤسائهم يعيشون في إفريقيا باستثناء مصر. (Rinn, Marabouts, p57.)

- النجباء، ج: نجيب، وهو رجل كريم ذو حسب مستغلون يحمل أنقاد الخلق واختصاصهم بوفرة الشفقة والرحمة الفطرية ولا يتصرفون إلا بحق الغير وعددهم أربعون (ابن تيمية، الفرقان...، ص71) ومنهم من يقول ثمانية في كل زمان فقط (النبهاني، المصدر السابق، ص69). ومنهم من يقول أن عددهم 70 ويوجدون خاصة في مصر. (Rinn, Marabouts..., p57)

- خاتم الأولياء، وهو واحد في كل زمان وفي العالم. (النبهاني، المصدر السابق، ص72) يتميز بختم دائرة الولاية كما ختم الرسول "ص" دائرة الرسالة (عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص163). حيث نشأ قياساً على خاتم الأنبياء لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم وأفضلهم، وقد غلوا فيه المتصوفة أن جعلوا الولاية فوق النبوة. (ابن تيمية، مجموعة فتاوي...، ص363 و365). إضافة إلى هؤلاء، هناك الأئمة، الرحيون والرجبيون، الحواريون وغيرهم.

(1)- أحمد البوني، المصدر السابق، ص57.

(2)- التليبي العجلي، المرجع السابق، ص30.

(3)- Depont/coppolani, Op. Cit, p92.

القادرية تقول أنها تتصل الرسول "ص" الذي لقن الأسرار لعلي بن أبي طالب وهو بدوره لقنها لعمر بن الخطاب الذي لقنها لأبي بكر حتى وصلت إلى عبد القادر الجيلاني.⁽¹⁾ وبهذه الأفكار برز تصوف جديد في القرن 2هـ/8م وبلغ أوجه في القرن 9هـ/15م، اعتمد على إقامة الخلوات للتعبد وعلى نسب الصوفي، فبظهور ظاهرة الأشراف والنسب الشريف دعمت الطرق الصوفية ومشايخها مراكزهم. كما أشاع هؤلاء المتصوفة فكرة التوكل على الله بمعناها السلبي، مما أدى إلى الانحطاط العام في العلوم،⁽²⁾ وتحولوا مع مرور الزمن إلى مجرد مظاهر، بعدما كانوا يركزون على المجاهدات الروحية، والمعارف الدينية وأصبح لكل طائفة راية خاصة بها حمراء أو خضراء.⁽³⁾ واقتصرت حياة المريد على تلقي أوراد الطريقة ولبس الخرقة^(*) والقيام بطقوس وشعائر لاعلاقة لها بالدين كالحضرة وانغمسوا في السماع والإنشاد ونشر الخرافات وتعداد كرامات الأولياء لذلك أنشد بعضهم:

ليس التصوف ليس الصوف ترقعه	ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفوا بلا كدر	وتتبع الحق والقرآن والدنيا
وأن ترى الله خاشعا مكتئبا	على ذنوبك طول الدهر محزونا ⁽⁴⁾

كما يذكر ابن الجوزي على لسان أبي بكر العنبري قوله:

تأملت أكثر المدعين	بين الموالى والعبيد
فناديت يا قوم من تعبدون	فكل أشار بقدر الوجود
فبعضهم أشار إلى نفسه	وأقسم ما فوقها من مزيد
وبعض إلى خرقة رقت	وبعض إلى ركوة من جلود
وآخر يعبد أهواءه	وما عابد للهوى بالرشيد

⁽¹⁾ - Rinn, Marabouts..., p180.

⁽²⁾ - الفرد بل، المرجع السابق، ص 409 و 423.

⁽³⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 210.

^(*) - الخرقة، ثوب يقدم من الشيخ للمريد عند دخوله الطريقة⁽¹⁾ وهي تختلف من طريقة لأخرى فمنهم من يقدم عمامة أو قماش، ذات ألوان مختلفة، فالشاذلية مثلا تقدم قماش أبيض والرفاعية بمصر تقدم عمامة سوداء بخطوط حمراء، أما البدوية فعكس الرفاعية تقدم عمامة حمراء بخطوط سوداء.⁽²⁾

⁽¹⁾ - Depont/coppolani, Op. Cit, p93.

⁽²⁾ - Petit (L), Op. Cit, p44.

⁽⁴⁾ - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 35.

كما أنشد بعضهم واصفا ما آل إليه المتصوفة:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة
صار التصوف صيحة وتواجدًا ومطبعة⁽¹⁾

وبهذا يمكن القول أن المتصوفة الأوائل كانوا زهاداً منقطعين للعبادة والانعزال، لكن لما اعتنق الدراويش التصوف تغلغت إليه البدع والخرافات، وأصبح الصوفي ولي أو صالح يعطي البركة، التي يتوارثها خلفه، ولتصبح كذلك الطريقة ظاهرة بارزة في المجتمع الإسلامي عامة، والمجتمع الجزائري خاصة، وهذا منذ القرن 9هـ/15م خاصة بعد ظهور وانتشار الطريقة القادرية.⁽²⁾

ب- انتقال التصوف إلى الجزائر:

انتقل التصوف من المشرق إلى المغرب الإسلامي منذ القرن 5هـ/11م ولم يلق معارضة مثلما كان عليه الحال في المشرق لتوافقه مع أمور الشريعة⁽³⁾ خاصة من طرف السلطة وهو ما أدى إلى انتشاره بشكل سريع، بعدما تغلغل إلى الرباطات، مما أدى إلى تحول المرابطين من الزهد إلى التصوف منذ القرن 8هـ/11م على يد أبي مدين شعيب وأبي الحسن الشاذلي⁽⁴⁾ لكن منذ عهد هذا الأخير مال التصوف إلى الركود وأخذ شكل تنظيمات وطوائف وطرق، وإقامة الخلوات للعبادة الزائدة غير المفروضة، بل تعدى ذلك إلى استحداث الولاء والإخلاص للشيخ أو مرشد الطريقة والطائفة.⁽⁵⁾

ويكاد يجمع المؤرخون كلهم أنه منذ البدايات الأولى للتصوف بالمغرب الإسلامي وحتى القرن 9هـ/15م كان تصوفا فرديا، لم يشهد النظام المؤسساتي الجماعي المنظم المعروف باسم "الطرق الصوفية"، لذلك كان تصوفا ايجابيا فرديا شكل حركة فعالة ومؤثرة وشديدة الصلة بالحياة الاجتماعية، متفقة مع مبادئ الشريعة والزهد ومجاهدة النفس، لكن منذ القرن 9هـ/15م ظهر بشكل بناء مؤسساتي ديني محكم التنظيم انصب على الجانب العملي، والممارسات فاننسبت إليه كل الفئات الاجتماعية وهو ما شكل قوته وحضوره

(1)- ابن الجوزي، المصدر السابق، ص 363، 364.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 187.

(3)- منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 125.

(4)- التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 23.

(5)- منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 126.

الفعلي.⁽¹⁾ خاصة بعد ارتباط المتصوفة، ما بين القرن 7هـ/13م و13هـ/19م بالمرابطين والأولياء الصالحين المحليين وبالسكان خارج نطاق السلطة.⁽²⁾

ولما انتقل إلى الجزائر وتبناه الكثير من العلماء مثل أبي الحسن الشاذلي، وأبي مدين شعيب،⁽³⁾ الذي يعتبر أول من أدخل التصوف إلى الجزائر، حيث أخذ الطريقة القادرية والتصوف على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني أثناء رحلته إلى الحج، أين قرأ عليه علوم ولقنه الكثير من الأسرار الصوفية وألبسه الخرقة،⁽⁴⁾ لينتشر بعد ذلك التصوف في كامل الجزائر بفضل مدرسة عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي وأحمد الزروق وغيرهم، وبهذا تكون أفكار محي الدين بن عربي^(*) في التصوف قد انتشرت في الجزائر قبل وصول العثمانيين،⁽⁵⁾ إلا أن سياسة هؤلاء ساهمت في انتشاره بصورة أكبر خاصة التصوف الشعبي، وهذا لاعتبارات عقائدية وسياسية كما سنرى لاحقا.

انتقل التصوف إلى المغرب الإسلامي عموما والجزائر على وجه خاص عبر أربعة معابر أساسية: التجارة، الكتب، الحج وطلب العلم،⁽⁶⁾ ومن خلال الرحلات العلمية التي كان يقوم بها أهل الجزائر، فيأخذون مبادئ الطرق الصوفية التي نشروها في بلدهم بعد عودتهم. أو عن طريق بعض العلماء والمدرسين المشاركة والدراویش الذين قصدوا الجزائر،⁽⁷⁾ وكذلك عن طريق الأندلسيين الذين طردوا من أرضهم منذ أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م، نتيجة الاستعمار الأوربي البرتغالي والإسباني،⁽⁸⁾ فهؤلاء الأندلسيين هاجر معهم الكثير من العلماء والمتصوفة، نحو بلدان المغرب الإسلامي منها المغرب

(1) - Brosselard, les khouans, p22.

(2) - محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، تر. وت. هاشم صالح، م.و.ك، د.ت، الجزائر، ص 155.

(3) - بوعزيز، موضوعات...، ص 216.

(4) - محمد ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 108. - الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، 1906 الجزائر، ج2، ص 182.

(*) - أحد أشهر المتصوفة ولد بالأندلس سنة 558هـ/1164م له عدة مؤلفات أشهرها "الفتوحات المكية" في التصوف.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 187.

(6) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 24.

(7) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 96.

(8) - عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 24.

الأوسط خاصة بجاية وتلمسان،⁽¹⁾ لتكون بهذا الهجرة الأندلسية إحدى الروافد التي غذت حركة التصوف بالجزائر والمغرب الإسلامي عموماً.

إن تأزم الأوضاع السياسية بالجزائر وضعف السلطة المركزية، خاصة بعد سقوط الموحدين وكثرة الظلم والفساد، إضافة للغزو الخارجي، أدى هذا إلى بروز المرابطين والمتصوفة، وتطورت الحركة الصوفية تطوراً مفاجئاً، فاستغل أتباعها الوضع لتأسيس الزوايا خاصة بالريف، والتي سهلت على انتشار التصوف والطرق الصوفية، خاصة منذ القرن 16م أين شكلت هذه الزوايا مركزاً للإيواء والتعليم، واعتبر الشيخ والقائمين عليها الحاملين للدين والتقوى،⁽²⁾ لتأخذ بهذا شكلاً تثقيفياً وروحياً وتربوياً وجهادياً.⁽³⁾

ليبرز بهذا انتشار التصوف في الجزائر أكثر منذ القرن 10هـ/16م و13هـ/19م عندما تبنته كل الطبقات الاجتماعية من النخبة إلى العامة،⁽⁴⁾ ويصبح جزءاً من ممارسة العلم، حيث كان علماء الجزائر يأخذون العهد على شيوخ الطرق بالمغرب أو بالشرق خلال رحلاتهم العلمية أو في الحج، كما كانت زيارة ضريح عبد القادر الجيلاني، وتقديم الهدايا لحراسه تعد تكملة لحجهم، وأصبحوا يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرق والسبحة والأسودين (التمر والماء) والمصافحة (العهد)،⁽⁵⁾ إلى درجة لم يعد بالإمكان في ذلك الوقت الفصل بين الفقيه والصوفي، لأن الفقهاء انظموا للطرق ودرسوا التصوف، والصوفي هو الآخر نجده يدرس الفقه،⁽⁶⁾ رغم أن هذا الأخير لم يعمل به جل رؤساء الطرق الصوفية.

كما نجد أن الكثير من المدرسين المشهورين يدرسون التصوف في حلقات دروسهم ومجالسهم، وخصصوا له مصنفات كالفكون وسعيد قدورة والورتيلاني الذي كان يجتهد في دراسة التصوف مستنداً إلى قول الإمام مالك بن أنس: «من أن الصوفي الذي لا يتعلم الفقه يعتبر زنديقاً وأن عالم أصول الدين الذي لا يدرس التصوف يعتبر فاسقاً».⁽⁷⁾ لذلك نجده في رحلته يَخْصُّهم بالذكر كثيراً ويتبرك بهم معتقداً في كراماتهم.

(1) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 29.

(2) - Braudel, Les Espagnols..., p219.

(3) - عبد الحميد مزيان، المؤسسات الثقافية، ص 08.

(4) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 91.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 467.

(6) - إبراهيم حركات، التيارات السياسية، ص 56.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 472، 473.

وبهذا انتشر التصوف وكان في طليعته حفظة القرآن والفقهاء حتى أن أغلب المتصدرين للإفتاء والتدريس كانوا يجمعون بين علم الظاهر والباطن، وحتى أننا لا نكاد نجد خلال تلك الفترة إنتاجاً ثقافياً ناجاً من "حمى التصوف".

❖ **ظهور التصوف البدعي الخرافي:** كما وأنه ومنذ القرن 6هـ-7هـ/12م-13م وبعد انتقال التصوف من الخاصة بالمدن إلى العامة بالأرياف على يد تلاميذ كبار الأولياء أدى إلى ظهور حركة صوفية شعبية ابتداء من القرن 15م أين انتشرت معها الطرق الصوفية من الغرب إلى الشرق،⁽¹⁾ أين غلب على هذه التنظيمات الدينية أو الطرق الصوفية البعد الدنيوي على البعد الروحي، وهو ما أدى إلى ظهور نوعين من المتصوفة، متصوفة شعبيون اهتموا بالكرامات والمعجزات ومتصوفة عمليون منضبطون،⁽²⁾ تفرغوا للعبادة وهدفهم الخير وخدمة الناس، حتى أن بعضهم لم يتخذ زاوية ولم يدع المشيخة، بل أتباعه من نسبوا إليه ما لم يقل أو يفعل وبنوا قبة على قبره واعتقدوا فيه.⁽³⁾

ومن أجل جلب الناس حولها أشاعت هذه الطرق الخرافات والبدع، ورفضت الاجتهاد والتفكير حتى جعلت المريد أداة طيعة في يد شيوخه الذين اتخذوا شعاراً "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"^(*) و"اعتقد ولا تنتقد" وما يجسد خضوع المريد لشيخه قول أحدهم:

إتباع أمره القيام بحقه
وحفظ حرمة ميتا كان أو حيا⁽⁴⁾

ولهذا اقتصر دور المريد والطالب على الحفظ والتخزين لما يملئ عليه واخذ الخرقه والعهد والاعتقاد في شيخه وقد وصف لنا عبد القادر المشريقي هذه الحالة بقوله:

خبرا عني المريد أنني جاهل بما قضته العقول
ما قضته العقول ليس من الدين بل الدين ما حوته النقول⁽⁵⁾

(1) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 394.

(2) - Dermerghem, Le culte..., p27.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 490.

(*) - ومعناه وجود المرجع السليم عملاً بقوله تعالى، ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...﴾، سورة النحل، الآية 43. لكن خلال العهد العثماني ومع ظهور التصوف الشعبي أخذت المقولة منحى آخر وهو الركون والتوكل.

(4) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 61

(5) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 48. - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 90.

هذا الأمر أدى إلى ظهور التصوف العامي الذي اتجه إلى القدرية والتوكل على الله، فاعترض كل تقدم في كل الميادين خاصة العلوم،⁽¹⁾ خاصة بعدما نشر الصوفية فكرة تقديس الأولياء بما نسب إليهم من نفوذ خارق للعادة، وحل تقديسهم محل عبادة الله، وهو ما ساعد على الإبقاء على العادات الوثنية.⁽²⁾

كما أدى إلى ظهور ما يسمى "بالإسلام المربطي" أو الصوفي الذي هيمنت عليه عبادة الأولياء وتقديسهم خاصة بعد تنافس القبائل والأعراش في إقامة الطقوس والشعائر والاحتفالات التي تميزها عن الطائفة الأخرى،⁽³⁾ فكان الأتباع يستجدون بنفوذ الولي ويحاولون نيل بركته بالوعائد والطقوس، والاتصال بجسده مدة حياته وبقبره ومقامه بعد وفاته،⁽⁴⁾ وقد بالغوا في تقديس هؤلاء الأولياء إلى حد تفضيلهم عن النبي "ص" أو حتى تأليههم مثلما فعل أتباع الشيخ بوسماحة الذين اعتقدوا في كراماته حتى كادوا يدعونه إله.⁽⁵⁾

وقد لخص لنا "هويدي" هذا بقوله: "ففي القرون الوسطى التي أعقبت تفكك الموحدين وسقوط دولتهم...سرت في جميع أجزاء المغرب الإسلامي روح غريبة جعلت الشعب يقبل عليها إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور المجاهدة والكشف، وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء وكراماتهم.. وتشكلت بهذا الطرق التي انتشرت في كامل البلاد بكل ما عرف عنها من نظام كهنوتي دقيق ضم النقباء والنجباء والأبدال والمريدين....".⁽⁶⁾

وهذا كله نتيجة ابتعاد الناس عن تعاليم الإسلام، ونقص الوازع الديني في المجتمع، وسواد التخلف والركود الفكري، وهو ما سمح للمتصوفة بنشر أفكارهم في المجتمع عبر زواياهم، التي اتبعت في غالبيتها مناهج تجاوزها الزمن، إضافة إلى استعمال شيوخ الطرق الصوفية للخطاب العامي الذي اختصروا فيه مبادئ الطريقة،

(1) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 401، 402.

(2) - جوليان، إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر. سليم المنجي وآخرون الدار التونسية للنشر، 1976، ص 26.

(3) - محمد أركون، الفكر الإسلامي، ص 155.

(4) - جوليان، إفريقيا الشمالية، ص 26.

(5) - أبوراس الناصري، فتح الالة، ص 47.

(6) - يحي هويدي، تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966، ج 1، ص 343.

معتمدين على الأساطير والخرافات والكرامات والممارسات اللاعقلانية من أجل التغلغل في الأوساط الشعبية، لذلك اختلطت الأمور ولم يعد يفرق بين الإسلام الحقيقي والإسلام المبتدع، لكثرة مدعي التصوف والمتكسبين بالدين،⁽¹⁾ ذوي السرائر السيئة والعقيدة الرديئة، الذي انطوا تحت التصوف، الذي أصبح حيلة كل محتال ودجال.⁽²⁾

فهؤلاء الدجالين اتخذوا الانتساب للتصوف سببا للاسترزاق، لذا بهروا عقول العامة بالظواهر، وغمروهم بالخرافات فصدوا عن سبيل الهدى ولله در الاشبيلي عبد الحق (أستاذ بجاية) حين قال:

لا يخدعك عن دين الهدى نفر لم يرزقوا في التماس الحق تأييدا
عُمي القلوب عُرُوا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليدا⁽³⁾

وبهذا انحرف التصوف عن علوم الدين، وانحصر في الأذكار والأوراد والاعتقاد في المرباط، وتقديس الأولياء، حد العبادة،⁽⁴⁾ ويصبح تكريم أضرحة المرباطين ذو أبعاد لا متناهية في الأوساط الاجتماعية، حيث غدت القبور التي تضم رفاة مؤسسي الزوايا مزارا، كما أصبحت إطارا للعمل الديني والفكري، وهذا كله يرجع إلى انعدام الوعي الاجتماعي والفكري أو نقصه لدى العامة مما فسح المجال للزوايا والقائمين على الأضرحة في خداع الناس بكرامات مصطنعة تتبع الأولياء لأضرحتهم كما كانت تنسب لهم في حياتهم عن حق أو باطل.⁽⁵⁾

وعلى الرغم من أن مؤسسي الطرق يعلنون إتباعهم لكتاب الله، إلا أنهم لا يتوانون في نشر تعاليم خاصة بهم كثيرا ما انحرفت عن الدين، حتى وصل ببعضهم إلى استغلال العامة واتخاذ التصوف وسيلة للرشوة والفساد، أو وسيلة لإقامة الحضرة ونشر البدعة.⁽⁶⁾ والكسب والاسترزاق من خلال ممارسات وطقوس الطريقة، فمثلا الشيخ بو عكار بقسنطينة

(1) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 91.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ط1، مكتبة الغريب الأثرية، الجزائر، 2008م، ص34.

(3) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم، ج2، ص 348، 349.

(4) - يحي هويدي، المرجع السابق، ص 366، 367.

(5) - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ج3، ص 546، 545.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 478.

كان يقول لزمريه «من أتى بلا شيء يمشي بلا شيء»⁽¹⁾، وهذا عكس ما كانت عليه الطرق الرئيسية (الأم)، فهذه الطرق التي تفرعت جل رجالها أميون ينحدرون من أوساط شعبية نادرا ما اهتم أعضاؤها بالثقافة، خاصة في وقت كانت هذه الأخيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك اعتمدوا على السحر والشعوذة والخرافة لاستدراج الناس،⁽²⁾ خاصة الطرق الكبرى منها ذات النفوذ الواسع، التي عملت على نسج شبكات حقيقية عن طريق الإخوان، لنشر طقوسها والترويج لمعارفها، حيث ترسلهم للمناطق البعيدة من أجل كسب الأتباع.⁽³⁾

فهؤلاء المرابطون أو الصوفية هم من شهّروا بالمقامات والقبور والاعتقادات حتى في الطبيعة كالأشجار وتقديم الوعائد والقرايين وبيع الشموع المباركة، واستعمال السحر والطلاسم والتمائم، وكل هذا من الانحرافات التي حاربها الرسول "ص".⁽⁴⁾

لهذا انغمسوا في التصوف البدعي (الخرافي)، واكتفت زواياهم بالتقليد وحصر المريد في علوم الطريقة، وما يقدمه الشيخ من أوراد، عقب كل صلاة أو في الخلوات حتى لقبوا "بالطريقين"، لأن كل طريقة اتخذت لنفسها أورادا وطقوسا خاصة فرضتها على أتباعها، كالحضرة عند العلوية وحلقة البندير والسكاكين عند العيساوية والعمارية.⁽⁵⁾

فهذا التحول والتطور في التصوف ينطبق عليه قول أحدهم «أن التصوف كان حالا فصار مالا، وكان احتسابا وصار اكتسابا، كان استتارا فصار اشهارا، وكان اتباعا للسلف فصار اتباعا للعلف، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للقدور، وكان تعفقا فصار تكلفا، وكان تخلقا فصار تملقا، وكان سقما فصار لقما وكان قناعة فصار مجاعة، وكان تجريدا فصار ثريدا».⁽⁶⁾

هذا الانحراف في التصوف أدى بالكثير من العلماء إلى ذمه رغم أنهم كانوا متصوفة، مثل الفكون الذي ورغم كونه أخذ التصوف إلا أنه انتقد المتصوفة المبتدعين وسماهم "حزب الشيطان" ووصف أعمالهم بقوله: «صوفية سوء بأعراض الدنيا موسخون،

(1) - الفكون، منشور الهداية، ص 134.

(2) - عمار هلال، الطرق الصوفية، ص 97، 98.

(3) - Saidouni, Op, Cit, p298.

(4) - أندري جوليان، افريقيا الشمالية، ص 27.

(5) - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 16، 17. - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 202.

(6) - أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص 911.

عظمت الدنيا في قلوبهم، فأسرعوا إليها طلبا وصَغُرَ الحق في نفوسهم، فأعجلوا عنه هربا، لا علم عن الحرام يردهم ولا ورع عن الشبهات، يصددهم، ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصرفهم، حافظوا على السجادات المرقعة والعكاكز، واطهروا السبح المزيّنة كالعجائز واتخذوا ظاهر الدين شركا للحطام، ولازموا الخلوة والرياضات لما يأتي إليها من حلال وحرام... وسعوا آذانهم وسمنوا أيديهم»⁽¹⁾.

بهذا ونتيجة اختلاط التصوف بالبدع والشعوذة والخرافات والخروج عن التصوف الحقيقي، الذي كانت تتوفر فيه شروط أساسية من معرفة الكتاب والسنة والعمل بهما، والسعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته والتقوى والورع، والتجرد من هوى النفس والابتعاد عن السلطة، وعدم التعاون مع الظلمة،⁽²⁾ ليتحول إلى دجل ودروشة والتوسل بالأضرحة والقبور مما جعل "بوايي" (Boyer) يقول: «أن مرابطي الجزائر تحولت ديانتهم إلى الوثنية»⁽³⁾.

فهذه الأوضاع هي التي دفعت بالفكون إلى كتابة مؤلفه "منشور الهداية" وقد أشار إلى هذا بقول: «فلما رأيت سحائب الجهل قد أظلمت وأسواق العام قد كسدت فصار الجاهل رئيسا والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة... فموهوا على العامة بأسماء ذهبية مسمياتها... فشرح الله صدري في أن اعتكف على تقييد يدي عوارهم ويفضح أسرارهم...»⁽⁴⁾.

لكن هذا الانحراف في التصوف ومبادئه فقد كان شائعا في كل البلاد الإسلامية، ولم يقتصر على الجزائر فقط، ولا على الفترة العثمانية، بل استمر بها حتى بعد سقوط العثمانيين.^(*)

(1) - الفكون، منشور الهداية، ص 134، 135.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 481، 482.

(3) - Boyer, La vie quotidienne..., p80.

(4) - الفكون، منشور الهداية، ص 31، 32.

(*) - لقد وصف لنا الإبراهيمي حالة التصوف بعد الخروج العثماني (فترة الاحتلال) أين كان كل راقص أو ضارب للطلبل صوفي، وكل عابث بأحكام الله صوفي، وكل مسلوب العقل صوفي بقوله، « فقلّت جنابات النفوس، من الحارس اليقظ، ومكنوا فيها خلق الخوف منهم والرجا فيهم والطاعة والخضوع لهم، فأصبحت مقاليد العامة والدهماء في أيديهم بل بلغ الغلو ببعضهم كالتيجانية أن لا يصلوا خلف من لم يتصل معهم بحبل الشيخ، وعندهم أن حق الشيخ قبل حق الزوجة والأولاد والباء والأجداد وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير والمسكين»، محمد البشير الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 40، 41.

❖ **دعم السلطة العثمانية للمتصوفة:** ومما زاد في انتشار هذا التصوف الشعبي الملى بالخرافات، الذي نشره المتصوفة باسم الدين، كان بتواطئ من السلطة التي لم تهتم بالتعليم، وبجلت المتصوفة الحقيقي والكاذب منهم، وهم ما أدى إلى انحدار المجتمع إلى هوة الشعوذة،⁽¹⁾ وقد أشار "الفكون" إلى سكوت الحكام عن الممارسات البدعية للأولياء، بل شجعوها، حتى أصبح كل شيخ مجذوب يعتبر بركة وصالحا، وكل درويش مغفل وليا وصاحب كرامات، وكل مستغل للعامة باسم الدين ومقرب للسلطة باسم الطريقة يعتبر قطبا، وتأتيه الجبايات ويقصده الناس بالرشوة والقرايين والحكام بالعطايا والهدايا،⁽²⁾ وسمحوا بتجاوزاتهم حتى وإن ألحقوا الضرر بالنظام العام،⁽³⁾ حيث سكتوا عن ابتزازهم لأموال الناس والتعدي على الحرمات والأعراض،⁽⁴⁾ وهذا إما اعتقادا فيهم أو خدمة لمصالحهم بالدرجة الأولى، فشاع التحالف بينهما مما أدى إلى كثرة القبح والأضرحة، وكثرة الادعاء المزيفين والحقيقيين.

خاصة بعدما بجلهم الحكام العثمانيون، وما سكوتهم عن انحرافاتهم وتبادلهم الرشوة والهدايا بينهما، لدليل على ما أصاب الجزائر من انحطاط ديني وسياسي وأخلاقي.⁽⁵⁾ ونتيجة لهذه الهالة الكبيرة والاحترام الزائد الذي منحه الحكام للمتصوفة والمرابطين على حد سواء، وجد التصوف مجالا خصبا للنماء والانتشار بين مختلف الطبقات خاصة بين العامة أين تطعم بمعتقدات شعبية أدت به إلى غياهب الخرافة والشعوذة، كما انتشرت الطرق الصوفية في كامل الجزائر شرقا وغربا، وحسب سعد الله فإنه وجدت في الجزائر أكثر من 26 طريقة منها أربعة فقط أنشئت في العهد الاستعماري أما البقية فكلها معاصرة للوجود العثماني، ومنها من تأسس بها كالرحمانية والتيجانية أما خارجها فنجد القادرية من المشرق، والطيبية والدرقاوية والعيساوية من المغرب والشابية والشاذلية من تونس رغم أن منشأ هذه الأخيرة المشرق، والمدنية بطرابلس،⁽⁶⁾ وهناك من يذكر أنه وجدت بالجزائر ما لا يقل عن 23 طريقة لها 349 زاوية و189295 مريد،⁽⁷⁾ أكثرها

(1) - عبد القادر حلمي، المرجع السابق، ص 271. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 467.

(2) - الفكون، منشور الهداية، ص 134.

(3) - Boyer, Contribution..., p 28.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 470.

(5) - نفسه، ج1، ص 470.

(6) - نفسه، ج4، ص 28.

(7) - Simian (M), Les confréries islamiques en Algérie (Rahmaniya-Tidjaniya), A-Jourdan, Alger, 1910, p 51.

انتشاراً الرحمانية التي تضم 156000 مريد منهم 13 ألف امرأة،⁽¹⁾ لكن أندري قدرها بـ236000 مريد والقادرية لها 87000 مريد أما التيجانية فلها 60000 مريد،⁽²⁾ لكن الملاحظ أن هذه الإحصائيات تختلف حسب من المصدر لآخر.

2-2- الفرق بين المتصوف والمرابط:

إنّ الدارس للسلطة الروحية في الجزائر خلال العهد العثماني يلمس أنها تشكّلت من قطبين رئيسيين هما الفقه والتصوف، وهذا الأخير بدوره ينقسم إلى فئتين متشابهتين ومختلفتين في نفس الوقت، حيث نجد نقاط تشابه ونقاط اختلاف بينهما والتي يمكن حصرها فيما يلي:

- فكلاهما يمثلان هيئات دينية ارتكزت على العلم والنسب فالعلم سمح لهما بأداء دور المعلم، القاضي وشيخ الزاوية...الخ، أما النسب فضمن لهم الولاء والاحترام، ومخالفتهم تدخل ضمن المخالفات المعاقب عليها، وهو ما سمح لهما بتحقيق امتياز التقديس من طرف القبائل الذي لا يمكن أن يحظى به أحد لا يمتد نسبه للأشراف.⁽³⁾

فالمرابطون هم فئة دينية مارست شعائرها الدينية في مؤسسات حملت أسماءهم، واكتسبوا سلطتهم الروحية بين الناس لاشتهارهم بالنسب الشريف والكرامات،⁽⁴⁾ أمّا الصوفية التي تعد فرق دينية ظهرت منذ القرن 13م، واستندت إلى الورع والتقوى وتطوير القيم الروحية المستمدة من العقيدة،⁽⁵⁾ فكلاهما يجتمعان في وظيفة التعليم التي تمارسها كل من زوايا المرابطين وزوايا الصوفية.⁽⁶⁾

- كلاهما له شكل ديني يستند إلى الصلاة والورع والانطواء على النفس (الخلوة) وحماية المبادئ الشرعية،⁽⁷⁾ ويهتمان بالجانب الروحي والمادي معا لذا شكلا حركة اجتماعية واقتصادية.⁽⁸⁾

- Deneveu, Op, Cit, p 101.

(1)- الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 151.

(2)- G. André, Op, Cit, p210.

(3)- نقروش، المرجع السابق، ص 139، 141.

(4)- Rinn, Marabouts..., p14.

(5)- Carrette, Op. Cit, p08.

(6)- العيد مسعود، المرابطون....، ص 19، 24.

(7)- Berque, Op. Cit, p424.

(8)- بن تونس، المرجع السابق، ص 90.

- كلا من المرابط وشيخ الطريقة يعدان من الصالحين في نظر الناس ويعتمدان في نفوذهما على ما يظهرانه من القدرة الخارقة للطبيعة وإتيان لما يعجز عنه البشر في العادة وهو ما جعل أتباعهم يدينون بالولاء التام والانقياد المطلق لهما.⁽¹⁾

أما نقاط الاختلاف بين المرابط وشيخ الطريقة فيمكن حصرها في:

- أن كلاهما لم يلتزما بالجانب الروحي فقط، فالمرابطية تقوم بممارسات شعبية تقليدية واعتقادات محلية تجمع بين الإسلام وتقديس الأماكن والأشخاص،⁽²⁾ في حين أن الطرق الصوفية أصبحت تبحث عن الجانب المادي الدنيوي،⁽³⁾ إضافة إلى قيامها بطقوس بعيدة عن الدين كالحضرة، الزيارة والوعدة وغيرها.

المرابط له نفوذ لا يتعدى حدود القبيلة عكس الصوفي فالطريقة تتعدى القبيلة إلى العرش ثم إلى الإقليم والدولة،⁽⁴⁾ حيث استطاعت هذه الطرق وعن طريق الإخوان نسج الكثير من الشبكات الطرقية التي فشلت الإقطاعات المرابطية في تحقيقها مما أدى إلى توسع نفوذها وتأثيرها على مجالات جغرافية كبيرة، وهي أمور لا نجدها عند الأولياء والمرابطين الأحرار،⁽⁵⁾ معتمدين في ذلك على دعوة القبائل باستعمال مختلف الوسائل كالتجارة وغيرها،⁽⁶⁾ وتحويل زواياهم إلى مراكز إدارية للدعاية، وضم الناس على عكس المرابطين الذين انحصرت علاقتهم مع الناس بانتمائهم الشريف وببركة المرابط⁽⁷⁾ التي مثلت القدرة العجيبة لشخص الأولياء والمرابطين. المرابط ليس له ورد عكس الطريقة التي

(1) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 64. - دحومان، المرجع السابق، ص 87.

- نقروش، المرجع السابق، ص 98.

(2) - بن تونس، المرجع السابق، ص 86.

(3) - نقروش، المرجع السابق، ص 99.

(4) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 64. - العيد مسعود، المرابطون، ص 19.

- Berque, Op, Cit, p424.

(5) - عبد القادر صحراوي، "الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر"، الحوار المتوسطي، ع 3-4،

2012/2011م، سيدي بلعباس، الجزائر، ص 30.

(6) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 65. - نقروش، المرجع السابق، ص 100.

(7) - صحراوي، المرجع السابق، ص 31.

تربط مريديها بالأذكار والورد،⁽¹⁾ وبإعطاء الميثاق (العهد)، وعلى أكتافهم تقوم الزاوية والطريقة،⁽²⁾ وتفرض عليهم طاعة الشيخ وحاشيته ولا يجوز لهم الخروج عن أوامره.⁽³⁾ المرابط في الغالب يكون جدا حقيقيا للقبيلة أو بالولاء، في حين أن الطريقة لا تربطها بالقبيلة إلا الرابطة الروحية.⁽⁴⁾

الزعامة عند المرابطين بالوراثة على أساس انتقال البركة أبا عن جد عكس الطرق الصوفية فالرئاسة للأصلح من المريدين وطلبة الشيخ ومساعديه، خاصة من تولى منصبا في حياة الشيخ،⁽⁵⁾ مثلما حدث لدى التيجانية عندما أوصى الشيخ أحمد التيجاني بخلافة الطريقة للمقدم الحاج علي بن عيسى من "ينبع"،⁽⁶⁾ وشيخ الرحمانية محمد بن عبد الرحمن أوصى بها للمقدم الشيخ علي بن عيسى المغربي سنة 1208هـ/1794/93م.⁽⁷⁾ أتباع المرابطين يقدمون له الهدايا والوعادات بإرادتهم عكس الطريقة التي تجبر مريديها على دفع المعونة العينية والنقدية التي تحددها،⁽⁸⁾ وكل ما يدخل زوايا الطرق من إيرادات هي ملك لشيخ الطريقة، وله الحق المطلق في التصرف فيها، وهو المشرف على التدريس بها وحتى تحديد مواد التدريس، ودفع أجور المعلمين والمقرئين.⁽⁹⁾ هذا بالإضافة إلى أن الطرق الصوفية لها نظاما إداريا خاصا فيما يخص تولي المناصب كحماية المال، وتسخير الأتباع للعمل في أملاك الطريقة أو الزاوية من أراضي الوقف، وبها أسرار كأسرار الدولة، أما المرابطين فليس لديهم سنن من هذا القبيل.⁽¹⁰⁾

(1) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 64. - العيد مسعود، المرابطون...، ص 19. - دحومان، المرجع السابق، ص 88.

(2) - شطة عطية، المرجع السابق، ص 67.

(3) - جيجيك، المرجع السابق، ص 91.

(4) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 65. - العيد مسعود، المرابطون...، ص 19، 20.

(5) - الفيلاي، نفسه، ص 65. - دحومان، المرجع السابق، ص 88. - نقروش، المرجع السابق، ص 100. - العيد مسعود، المرابطون...، ص 20.

(6) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 65.

(7) - Rinn, Marabouts, p455. - Delpech, Un diplôme..., p421.

(8) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 68. - العيد مسعود، المرابطون...، ص 20.

(9) - محمد نسيب، زوايا العلم، ص 106. - عطية شطة، المرجع السابق، ص 67.

(10) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 65. - نقروش، المرجع السابق، ص 100.

أما زوايا المرابطين فتعتبر ملكية جماعية، العمل فيها يكون تطوعي لوجه الله خدمة للعلم وكتاب الله، ولا يحق للورثة أخذ أي شيء من مداخيل الزاوية من صدقات وأوقاف وغيرها،⁽¹⁾ فهي مخصصة لطلبة العلم والذكر فقط، وأفراد أسرة المرابط لا يحق لهم الميراث من أملاك الزاوية.⁽²⁾

لكن اعتماد السلطة العثمانية على المرابطين كوسطاء لإخضاع القبائل لسلطتها أفقد المرابطين هيبتهم، ونفوذهم، وهو ما ساعد الطرق الصوفية على الانتشار، وانطواء القبائل تحت لوائها، وحتى انضمام بعض المرابطين لها، بحيث ما كاد ينتهي العهد العثماني حتى كان أغلبهم يمثلون إحدى الطرق أو ينتسبون إلى طريقة ما،⁽³⁾ حيث اندمجوا في هذه الطرق الصوفية، مؤتمرين بأوامرها، وتحول الكثير منهم خاصة ذوي النسب الشريف كرمز للقداسة ومقدمين للطريقة،⁽⁴⁾ فمثلا كان أغلب مقدمي الطريقة الرحمانية أواخر العهد العثماني من النسب الشريف أو مرابطين،^(*) فهؤلاء المرابطون كان لهم دورا كبيرا في انتشار وازدهار الطريقة التي ينتمون إليها،⁽⁵⁾ وبهذا جمع المرابط بين المزايا الروحية للمرابط ولشيخ الطريقة.

في الأخير ما يمكن أن نقوله أن انتماء الفرد لزاوية المرابط أو الطريقة جعل الفرد لا يحس بالانتماء للوطن وإنما للقبيلة والطريقة وهو ما استغله العثمانيون لضمان ولاء الأهالي وإبقاء روح الفرقة بينهم مما حال دون قيام وحدة وطنية، وكرس ظاهرة التفكك الاجتماعي.

2-3- تأثير الفقهاء بالتصوف و بروز الصوفي على الفقيه:

أ- تأثير الفقهاء بالتصوف:

إن الظروف التي عاشتها الجزائر من فراغ سياسي وضعف داخلي، وغزو أجنبي أدى إلى ظهور روح جديدة سرت في كيائها جعلت الناس يقبلون عليها حتى أننا في العهد العثماني، لا نكاد نجد مدينة أو قرية بدون زوايا وأضرحة، وحولها الناس يتبركون

(1) - جيجيك، المرجع السابق، ص 91.

(2) - محمد نسيب، زوايا العلم، ص 108، 109. - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 155.

(3) - دحومان، المرجع السابق، ص 82.

(4) - عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 29.

(*) - ينظر: ... Rinn, Marabouts..., pp457, ... - Delpech, Un diplôme..., p421.

(5) - عبد القادر صحراوي، المرجع السابق، ص 30.

ويقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا والذبايح، فغرقت الجزائر في التصوف والدروشة، حتى أصبح الفقهاء يتباهون بأخذ الطرق والأذكار والخرقة والمصافحة والأسودين (التمر والماء)،⁽¹⁾ فانتقل الإسلام الصوفي من أوساط الجماهير الجاهلة البسيطة إلى أوساط الفقهاء بالمدن،⁽²⁾ حيث انطوى الكثير من الفقهاء تحت لواء الطرق الصوفية رغم الحساسية الموجودة بين المتصوفة والفقهاء، أين أصبح الأئمة والقضاء والكتاب تحت تأثير أهل التصوف، وبهذا خضعت المدن لتأثير المرابطين والمتصوفة الذين كان مجالهم الريف سابقا.⁽³⁾

والمعلوم أنه في الفترة العثمانية كان من الصعب الفصل بين العلم والدين، كما لم يكن هناك مانع من أن يكون العالم فقيها وصوفيا في الوقت ذاته، وهو ما جعل الفقهاء ينتسبون إلى الطرق الصوفية.⁽⁴⁾ وهي ظاهرة لم تشهدها الجزائر فقط، بل كل العالم الإسلامي، حيث ضرب المتصوفة عزلة على الفقهاء الذين عجزوا عن التصدي للتحديات التي أفرزتها المعتقدات الصوفية، حتى صار السؤال "متى تصير هاؤك راء" أي متى تتحول من فقيه إلى فقير (مريد)، سؤالا عاديا لذا أصبح الجمع بين الفقه والتصوف أمرا شائعا لا ينكره أحد حتى صار كبار الفقهاء مشايخ لطرق صوفية.⁽⁵⁾

كما أنّ المنافسة بين العالم والمرابط أو بين الجامع والزاوية أجبرت علماء المساجد والمدارس على تبسيط آرائهم وطرقهم في التعليم، لذلك لا نستغرب «أنه عندما كانت شمس المعرفة في أوروبا تطل من وراء السحاب، كانت المعرفة في الجزائر تفر غاربة وسط ضباب كثيف». (6)(*)

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 467.

(2) - الفرد بل، المرجع السابق، ص 408.

(3) - سعد الله، على خطى...، ص 193.

(4) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان، ص 60، 61.

(5) - نفسه، ص 99، 101.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 48، 49.

(*) - إن سيطرة التصوف والمبالغة في الاعتقاد وانتشار الأضرحة والزوايا جعل الحياة الفكرية تقتصر في اتجاهين إثنين تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد.

لقد تبنى الكثير من علماء الجزائر في العهد العثماني التصوف ومنهم من كان يفتخر بذلك فنجد منهم: الشيخ عبد الكريم الفكون (الحفيد) (988هـ-1073هـ/1580-1663م) الذي ينتمي إلى أسرة عريقة عرفت بالجاه والعلم والرياسة والصلاح، نجده هو الآخر جمع بين علم الظاهر والباطن،⁽¹⁾ حيث كان من كبار رجال الطريقة الشاذلية بالجزائر،⁽²⁾ وحتى جدّه عبد الكريم الفكون (ت988هـ/1850م) كان من أشهر علماء ومتصوفة قسنطينة،⁽³⁾ فالفكون ورغم أنه كان متبحرا في مختلف العلوم ، ورغم انتقاده للمتصوفة إلا أننا نجده في كتابه "منشور الهداية" يشيد ببعض العلماء المتصوفة ويذكر كراماتهم مثل جدّه وعمر الوزان الذي يقول عنه «أنه كان بحرا لا يجارى في العلوم فقها وأصولا ونحوا وحديثا، وله في طريق القوم (التصوف) اليد الطولى»⁽⁴⁾ وفي موضع آخر يقول عنه «كان معنيا بطريق التصوف» أما يحي الأوراسي (ت1009هـ/1600م) الذي تولى منصب الإفتاء بقسنطينة و مدينة الجزائر،⁽⁵⁾ فقد ثار ضد العثمانيين بعد وشاية من حساده ويقول عنه الفكون «كان مشاركا في العلوم.... منتهيا للتصوف، له من أصحابه سلسلة وخرقة... وتصدى للإفتاء بقسنطينة وحتى بدار سلطنتها الجزائر»،⁽⁶⁾ وكذلك عبد القادر مبارك القلعي الذي جمع بين العلم والصلاح،⁽⁷⁾ أما أحمد بن قاسم ساسي البوني (1063-1139هـ/1653-1726م) ،الذي ينتمي إلى إحدى الأسر العريقة في العلم والتصوف،⁽⁸⁾ فرغم كونه عالما وفقهيا يرجع له في الفتوى لحل المسائل العويصة، إلا أنه كان كوالده من أصحاب الطرق الصوفية يتبع الطريقة الشاذلية،⁽⁹⁾ وحسب قوله فإن حتى جدّه قد غلب عليه الفقه والتصوف حتى امتزجا فيه.⁽¹⁰⁾

(1)- عادل نويهض، المرجع السابق، ص 254.

(2)- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص214.

(3)- نفسه، ص 213.

(4)- الفكون، منشور الهداية، ص 35، 36.

(5)- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 423.

(6)- الفكون، منشور الهداية، ص 54.

(7)- عبد القادر نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة، ص 140.

(8)- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 91. - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 49.

(9)- سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص 49 (هامش).

(10)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج2، ص 62.

أما الحسين الورثيلاني (1125-1193هـ/1713-1779م) المؤرخ والفقير فقد مال إلى التصوف،⁽¹⁾ حيث يعد من مشايخ الطريقة الشاذلية، كما أخذ الطريقة الخلواتية عن الشيخ الحفناوي بالقاهرة،⁽²⁾ فرغم كونه عالماً إلا أنه أخذ التصوف وكان يفخر بذلك في رحلته التي ذكر فيها الكثير من المشايخ، الذين أخذ عنهم الصوفية بمصر، وحتى هو كان يعطي "العهد" حيث يذكر ذلك في رحلته إلى بسكرة لما التقى بعلمائها «وقد أخذ كثير منهم العهد عنا»،⁽³⁾ كما أنه كان يفخر كثيراً بزيارته للأولياء والتبرك بهم ويرجوا نفعهم له ببركاتهم، وهو القائل: «إن الوقوف عند أبواب الأولياء والسؤال منهم والاحتياج إليهم والنظر في وجوههم أو مشاهدة قبورهم والتضرع لله بين أيديهم.... والذل والمسكنة عندهم لقدر جليل عند الله...».⁽⁴⁾

أما مصطفى بن المختار الغريسي أو الكبريت الأحمر (ت 1212-1798م)، فقد أخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر المشرفي، رغم كونه فقيهاً، وجدد أخذها ببغداد عند ذهابه للحج حيث ألبسه مقدم الشيخ عبد القادر الجيلاني الخرقه، وتبرع بماله لتوسيع ضريح الشيخ الذي يعرف بزيادة الشيخ مصطفى المغربي، ولما عاد أسس قرية القيطنة وزاوية ومعهد بواد الحمام (1206هـ/1792م) أين تصدى للتعليم وإعطاء ورد الطريقة،⁽⁵⁾ أما حفيده الأمير عبد القادر فقد تبعه في ذلك، واختص بمشيخة الطريقة القادرية بالغرب الجزائري أين كان يلقي ورد الطريقة رغم أنه كان متبحراً في مختلف العلوم العقلية والدينية.

أما أبو راس الناصري (1165-1238هـ/1761-1823م) الذي تولى القضاء،⁽⁶⁾ ودرس الفقه المالكي على علماء الجزائر، والمذاهب الأخرى على شيوخ مصر وتونس والحجاز، والحديث والتفسير والأصول وعلوم اللغة، إلا أنه درس التصوف على كبار

(1) - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 340.

(2) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 143. - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخية والجغرافي في الجزائر، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999م، ص 418.

(3) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 87.

(4) - نفسه، ص 113.

(5) - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 136 و 442. - يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995م، ج2، ص 244، 245.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 378.

المتصوفة وعلماء مازونة مثل الشيخ الصباغ القلعي صاحب "بستان الأزهار" وأبي عبد الله المغوفل صاحب «الفلك الكواكبي»، وحتى على مشايخ تونس والمشرق، إلا أنه كان يرفض حضور مجالس المتصوفة الذين يقولون بالكرامات ويغرون بطلبتهم.⁽¹⁾

أما من العلماء المتأخرين فنجد "حمدان خوجة" الذي كان ملما بأصول الدين والفقه والطب والتاريخ والمنطق والفلسفة، إلا أنه كان متصوفا داعيا للإصلاح الديني نافيا ومحذرا من التزمت ولائما المتمسكين بالتقليد ويقشور التصوف.⁽²⁾

على الرغم من أن هناك نقاط تقارب بين الفقيه والمتصوف، بحيث كان الفقيه يتقصد شخصية الصوفي في نقشه ويشغل جزء من وقته في الذكر والعبادة، وقد يتعاطف مع طريقة أو ينتسب إليها،⁽³⁾ لأن طريق التصوف كان يتيح لأتباعه نفوذا معنويا لا يبلغه الفقهاء.⁽⁴⁾ في حين أن الصوفي فكان لابد له هو الآخر من أن ينطلق من علوم الشريعة، قبل علوم الباطن فله جانب من شخصية الفقيه، لكن ليس كل زاهد فقيه، وبهذا فرغم دراسة الفقهاء للتصوف أو الانتساب له، إلا أنهم لم ينجروا في ممارساته البعيدة عن الشريعة، وتصدوا لها سواء بالنسبة للطرق الصوفية أو لدى عامة الناس.⁽⁵⁾

وبهذا فغالبا ما كان الفقيه يتحول إلى محارب للصوفي عندما تظهر عليه الشعوذة المموهة بالصالح، وضد بعض الشعائر التي تعد انحرافا عن الشريعة كسلب أموال الناس واستغلالهم، وهو ما يثير الفقهاء الذين تركوا مصنفات حول إنحرافاتهم.⁽⁶⁾

ب- بروز الصوفي على الفقيه:

كان المتصوف أو المرابط يهتم بالأمر الروحية ويستعمل لغة شعرية روحية، أما الفقيه فانصب اهتمامه على قضايا الناس اليومية التي تحتاج إلى الفتوى وقياس وتأويلات مستمدة مسائله من النصوص والشواهد الحسية، ففي الوقت الذي اهتم فيه المرابطون

(1) - الناصري، فتح الإله....، ص 46، 73.

(2) - حمدان خوجة، اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تق وتح. محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 16، 24 (المقدمة).

(3) - إبراهيم حركات، التيارات السياسية....، ص 66.

(4) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان....، ص 102.

(5) - إبراهيم حركات، التيارات السياسية، ص 66.

(6) - نفس المرجع، ص 56.

والمتمصوفة بدراسة العقائد والفلسفة والتصوف حتى منهم من لا يدرس،(*) بل يأخذ الطريقة عن طريق الإجازة والتقليد والرؤيا والمكاشفة والفتح، اهتم الفقهاء بالعلوم العقلية ونحو ذلك،⁽¹⁾ إلا أن نفوذ هؤلاء لم يكن بالقدر الذي كان للطرق الصوفية، لأن تأثيرهم اقتصر على المدن أين التزموا بالنصوص والاعتماد على القضايا العلمية والفلسفية التي لا تفهمها العامة إضافة إلى كونهم يمثلون سلطة يكرها الأهالي.⁽²⁾

أي أنهم استعملوا لغة لا يفهمها العامة، ولم يأتوا بما يبهر عقولهم ويأسر قلوبهم من كرامات، وهو الأمر الشائع في ذلك الوقت، حتى أن المرابط بعد وفاته كانت تتسج حوله الأساطير فتزداد شهرته، لكن الفقيه إذا توفي تخمد شهرته إلا إذا ترك ما يخلده من تأليف. لذا أصبح الصوفي يحتل مرتبة المقدس بسبب وقوفه إلى جانب العامة لأن فقه التصوف عندهم يقوم على الأدب مع الله ومع الخلق، لذا وقفوا في صفهم ورأوا أن مخالطتهم والصبر على آذاهم أفضل لهم من اعتزالهم.⁽³⁾ لهذا فالعالم أوالفقيه اعتبر مجرد شخص على دراية بعلوم القرآن الكريم، قد كرس حياته لتعلمه وشرحه وتعليمه للناس، ولا ينظر له على أنه يملك كرامات، عكس المرابط والمتمصوف الذي حظي بمكانة كبيرة نتيجة اعتقاد الناس في كراماتهم.⁽⁴⁾

وبهذا نجد أن الفقهاء انتظموا في وظائف في المدن يمارسون نشاطا علميا ووظيفيا عكس المتمصوفة الذين انتشروا في أقاليم واسعة حتى في المدن،⁽⁵⁾ وبالرغم من أن الفقهاء يقومون بوظائف قريبة من الشعب إلا أنهم ابتعدوا عنه وأصبحوا ينظرون إليه نظرة فوقانية، لذا لم يختلفوا في نظرهم للأهالي عن نظرة العثمانيين، خاصة وأن مصلحتهم كانت إرضاء الحكام وكسب ودهم وليس خدمة الشعب والتقرب منه، وإضافة إلى

(*) - يذكر "يحي بوعزيز" أن شيوخ الزوايا كان عددهم كبير ومنهم الأميون، لكن نفوذهم كان كبيرا على أتباعهم ومريديهم الذين يفرضون عليهم الأوراد والتسابيح والأذكار ورغم هذا انضم إليهم الكثير من المثقفين.

- بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 17.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 492.

(2) - دحومان، المرجع السابق، ص 81، 82.

(3) - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 321، 323.

(4) - Hon-MRS. Greville. Nergent, Aland of mosquesand murabouts, chapman and Hall, London, 1894, pp77.

(5) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان....، ص 92.

احتكارهم وتوريثهم للوظائف في العائلة الواحدة، وعدم تصاهرهم إلا فيما بينهم،⁽¹⁾ حتى أن منهم من كان ينعت العامة بالهوام مثلما قال ابن عمار «أن العوام كالهوام».⁽²⁾ ولعل كذلك من بين أسباب ظهور المتصوفة والمرابطين على حساب الفقهاء، ربما يعود إلى كون هؤلاء الآخرين اهتموا بطلب المال والجاه بعلمهم عكس المتصوفة-خاصة الزهاد منهم- الذين احتكوا بالناس وسلكوا طريق الزهد والورع لذلك يقول التمعروطي: أن طلاب العلم بمدينة الجزائر لا بأس بهم إلا أن حب الدنيا، وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا».⁽³⁾

وبهذا انعزل الفقهاء عن الناس وشواغلهم على عكس الولي الذي كان قريبا منهم، فتوطدت علاقة المتصوفة بالعامة إلى حد أصبح المتصوفة الوعاء الذي يضم أرواحا غير نخبوية في صفوفهم، وبفضل تسامحهم ونزعتهم الإنسانية تسرب التصوف وتغلغل في نفوس الناس على نطاق واسع،⁽⁴⁾ ولم يستطع الفقهاء الحد من ذلك رغم انتقادهم للمعتقدات الصوفية، حتى أن بعضهم أظهر خضوعا للتصوف، ووصف رجاله بالصلاح والتقوى.⁽⁵⁾

إن انعزال الفقهاء في المدن سمح للمرابطين والمتصوفة في الريف أن يحتلوا مكانة محترمة، وأقرب إلى الأهالي، وهذا من خلال الخدمات التعليمية والاجتماعية التي يقدمونها لهم، فالمرابط كان يقوم بدور الوسيط والمعلم والمرشد والقاضي والمصلح بين الناس حيث نجده يستمع إلى شكاوي الناس ويعطي النصائح لهم،⁽⁶⁾ كما نجد الطرق الصوفية ساهمت بفعالية في مقاومة الحكم الطاعني المستبد، سواء كان محليا أو ممثلا في الاستعمار الأجنبي فنجد مثلا الدرقاوية والشابية والتيجانية قاومت العثمانيين والرحمانية والقادرية حاربت الاستعمار الفرنسي.⁽⁷⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 399.

(2) - نفس المرجع، ج2، ص234.

(3) - علي بن محمد الجازولي التمعروطي، النفحة المسكية في السفارة التركية 1589، تقديم سليمان الصيد، دار بوسلامة، تونس، 1988م، ص 90.

(4) - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 71.

(5) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان...، ص97، 98.

(6) - Boyer, La vie quotidienne..., p79.

(7) - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 224.

الفصل الرابع

التنظيم الاجتماعي

للسلطة الروحية بالجزائر

1- موقع السلطة الروحية في المجتمع:

1-1- السلطة الروحية ومكانتها في المجتمع:

حظي أقطاب السلطة الروحية بمكانة مرموقة في المجتمع، لأنهم في عرف الناس هم رجال الدين الصالحين المنقطعين للعبادة والعلم، فرجل الدين في نظرهم، كان يكفيهم أن يستظهر كتاب الله كَلِّه أو جزء منه حتى يحظى باحترام الناس، حتى وإن كان جاهلا بما يردده،⁽¹⁾ ولهذا فرجال الدين أو العلماء شكلوا بالجزائر طبقة مميزة، محترمة، موفورة الكرامة، وتقرب منهم رجال السلطة العثمانية وخشوا بأسهم،⁽²⁾ نتيجة نفوذهم ومكانتهم عند الأهالي، رغم عدم اختلاطها بهم إلا من خلال الدروس خاصة بالمدن.

ففي منطقة القبائل وحسب "الزواوي" أن كبارهم وأشرفهم وأهل العلم منهم لا يأكلون في الأسواق ولا في الشوارع،⁽³⁾ كما أن الأغنياء بمدينة الجزائر مثلا يقتدون بالعلماء ويقلدونهم في تصرفاتهم وسلوكهم ويسعون للتقرب منهم، ويعد شرفا لهم إذا استقبلوهم في بيوتهم،⁽⁴⁾ وهذا بحكم تواجدهم في مجتمع يسوده الفراغ الثقافي والركود الفكري.

هذا الاحترام والمكانة حظي بها أقطاب السلطة الروحية، سواء كانوا بالمدن أو بالأرياف التي سيطر عليها المرابطون وشيوخ الطرق الصوفية، الذين حضوا باحترام كبير خاصة من طرف طلبتهم ومريديهم، حيث كان الولي يلقب "سيدي" كدلالة على الاحترام، وحسب "دوتي" فهو لقب يطلق في الجزائر لكل من اسمه محمد تكريما لاسم الرسول "ص"، كما أن كلمة "سي" وهي اختصار لكلمة سيدي تخص المثقفين أو الفقهاء.⁽⁵⁾ فكل فقيه أو مفسر أو أصولي أو عقائدي يعد في نظر الناس "عالما" ويلقبونه "بسيدي" وإن جمع بين عدة علوم فهو عالم نحير وبحر غزير.⁽⁶⁾

أ- مكانة علماء المدن:

ففي المدن شكل العلماء هيئات محلية أخذت تترسخ في محيطها، خاصة خلال القرنين 16م و17م، مما أدى إلى تبلور ملامح عائلات محلية توارثت العلم ومارس

(1) - إيفون توران، المرجع السابق، ص 130.

(2) - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 37.

(3) - أبو يعلى الزواوي، المصدر السابق، ص 113.

(4) - Boyer, La vie quotidienne..., p73.

(5) - دوتي، المرجع السابق، ص 59.

(6) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 47.

أعضاؤها القضاء والإفتاء والإمامة والتدريس، والوعظ...⁽¹⁾ هذا التوارث في المناصب ترتب عليه احترام تلك العائلات العلمية، التي أصبح الناس يفضلون تولي أفرادها لهذه المناصب حتى ولو كانوا غير مؤهلين لذلك. مثال ذلك تولى حفيد سعيد قدورة الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد قدورة للإفتاء رغم عدم أهليته له بل نتيجة احترام سكان مدينة الجزائر لأسرة قدورة حيث يقول عنه "ابن المفتي": «كان أبلد مخلوقات الله تعالى... وكان خبيثا... وجاءت توليته لأن أهل البلد يبجلون آباءه وأسلافه ويستبشرون بهذه العائلة... بل حتى يتيقنون أن البركة تلتصق بالأبناء في سن الحداثة...»⁽²⁾.

ونلمس احترام ومكانة هذه الفئة خاصة لدى الطلبة عند ذكرهم لمشايخهم، حيث يصفونهم بعبارات التبجيل والتقدير والتعظيم والاحترام مثل ذلك ما ذكره "الفكون" على مشايخه كمحمد التواتي الذي يقول عنه: «وقرأنا على الشيخ الأستاذ النحرير... آخر المتكلمين لسان حجة المسلمين»،⁽³⁾ أما على الشيخ الوزان فيقول: «شيخ الزمان وياقوتة العصر والأوان العالم العارف باله الرياني أبي حفص عمر الوزان»⁽⁴⁾ وما ذكره كذلك محمد بن علي السنوسي عن شيخه أبوراس الناصري «ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام سيدي بوراس الناصري»⁽⁵⁾ وحتى العلماء في ما بينهم لا يذكر أحدهم عالما إلا وأقرنه بكلمة سيدي مثلما فعل ابن المفتي الذي كلما ذكر اسما لمفت أو قاض إلا وأقرنه بكلمة "سيدي" أما عند ذكره لولي، إلا ويذكر أمامه عبارات التبجيل والتعظيم مقرونا بكلمة "من الله علينا ببركاته" أو "نفعا الله به" وهو دأب كل كتاب ذلك العصر كالورثيلاني والفكون وغيرهما من أهل ذلك العصر.^(*)

إن هذا الاحترام الذي يكنه سكان الجزائر للعلماء لم يكن يقتصر على علماء الجزائر فقط، بل على كل العلماء حتى ممن كانوا من خارج الجزائر، فالحسن الوزان يصف معاملة سكان المدينة له عندما أقام بها شهرين: «وأكرمت أكثر من قبل أميرها، لأن الغريب إذا مرّ بالمدينة يكاد سكانها يحبسونه بالقوة. طالبين منه بتوسل وابتهاال أن

(1) - خالد زيادة، الكاتب والسلطان...، ص 71، 72.

(2) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 107.

(3) - الفكون، منشور الهداية، ص 57.

(4) - نفس المصدر، ص 35.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 53 (هامش).

(*) - للمزي ينظر: الفكون، منشور الهداية. الورثيلاني، المصدر السابق. ابن المفتي، المصدر السابق.

يفصل في قضاياهم ويحرر عقودهم ويفتيهم في نوازلهم» وقد تحصل في هذا الشهرين على بضائع ونقود وماشية، حتى جعله يفكر بالاستقرار بها لولا المهمة التي كلفه بها السلطان المغربي.⁽¹⁾

لقد حظي أقطاب السلطة الروحية بالاحترام في أي مكان يحلوا به، فابن حمادوش لما سافر إلى المغرب في تجارة لم يدفع الرسوم في مرسى تطوان، لإظهاره كتابا من أحد شيوخه لقائد المرسى، جاء فيه: «إنّ هذا الرجل اجتمعت فيه ثلاث خصال.... لأوجبت عليك أن لا تتعرض له في شيء، الأولى النسب فهو رجل شريف من بيت النبوة، الثانية أنه رجل عالم، الثالثة قلة ذات اليد...» فسمح له قائد المرسى بالمرور دون دفع شيء.⁽²⁾ والمعلوم كذلك أن هذه الفئة لم تكن تتصاهر مع بقية الأهالي، حيث انحصرت مصاهراتها فيما بينها أو مع العائلات الغنية، فمثلا في مدينة الجزائر أين كان الأشراف والعلماء يتميزون بمظهر الأبهة والرفاهية مثل الأسر الغنية ذات الجاه والمكانة، كانوا يشترطون عند تزويج بناتهم المصاغ خاصة الجوهر الذي تتراوح كميته ما بين نصف أو ربع أوقية، ويشترطون الجوّاري لخدمتهن، مثال ذلك عائلة الزهار وعائلة بن واضح وأُسرة المقرّي.⁽³⁾

ب- مكانة المرابطين في المجتمع الريفي:

أما فئة المرابطين والأشراف فقد كانوا في قمة الهرم الاجتماعي في الأرياف، خاصة بمنطقة القبائل،⁽⁴⁾ أين شكلوا طبقة ذات حظوة واحترام، ولا يختلطون مع عامة الناس،⁽⁵⁾ وقد نجح هؤلاء المرابطون وشيوخ الزوايا في إحلال الفرق في التعامل وترسيخه بين الأشراف وبقية السكان، فلا توجد قبيلة لا تضم أسرة أو عدة أسر مرابطية، لكنهم بقوا بمعزل عن الناس، خاصة في مسألة الزواج فهم يرفضون الاختلاط بالمجتمع عن طريق رفضهم لعلاقات المصاهرة إلا في الحالات النادرة، لأنهم يعتبرون أنفسهم متميزين عن غيرهم، لتبقى المرأة غير المرابطية غير مقبولة في وسطهم،⁽⁶⁾ فهم لا يتزوجون إلا فيما

(1) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 41، 42.

(2) - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 111، 112.

(3) - عائشة غطاس، "الصدّاق بمدينة الجزائر 1672-1854"، إنسانيات، ع4، جانفي/أفريل، 1998، وهران، الجزائر، ص 28، 29.

(4) - Boulifa, Op. Cit, p228.

(5) - دوتي، المرجع السابق، ص 123.

(6) - Babas, Op. Cit, p12.

بينهم ونادرا ما يتزوج صالح امرأة ليست ذات نسب شريف، كما أنه من النادر جدا أن تتزوج مرابطية برجل ليس شريف النسب،⁽¹⁾ لهذا حافظوا على صفاء نسبهم، كما أن زواج المرابط بالمرأة غير مرابطية كان يعد مكسبا وشرفا لأهلها،⁽²⁾ حتى منهم من يسعى لمصاهرة المرابطين، بأن يعرض الأمر عليهم مثلما فعل بدو أولاد ميمون بالبيض الذين عرضوا بناتهم على المرابط سيدي علي بوسعيد (ق 10هـ/16م) معتبرين هذا الزواج فخرا لهم.⁽³⁾

لقد عاش المرابط في دائرة ضيقة منعزلة عن الناس، رغم أنه يحظى بالاحترام من الحاكم حتى آخر فرد من الأهالي.⁽⁴⁾ فهو لم يكن يتقاسم الظروف الصعبة مع القبيلة،⁽⁵⁾ لذلك أعفيت فئة المرابطين من الأعمال الشاقة ومن الضرائب،⁽⁶⁾ بل أحيانا يحصلون على جزء منها، وحتى أنهم يعفون من الإنفاق العام على الضيافة،^{(7)(*)} وحتى أراضيهم لا يحرقونها بأنفسهم، بل الناس هم من يحرقها ويرعون حتى حيواناتهم، فسلطة المرابط خاصة في المجتمع القبائلي كانت أقوى من سلطة أمين القرية نفسه،⁽⁸⁾ ومكانته أعلى حتى من السلطان نظرا لنسبه الشريف، فكل قبيلة كانت تجعل وليها فوق كل الأولياء الآخرين بما فيهم القطب عبد القادر الجيلاني.⁽⁹⁾

إن اعتماد أقطاب السلطة الروحية غالبا على النسب الشريف أكسبهم نفوذا روحيا في المجتمع،⁽¹⁰⁾ خاصة المرابطين وشيوخ الزوايا مما جعلهم يتمتعون بسمعة عالية نافست أرباب السلطة، والأعيان التقليديين من رؤساء وزعماء القبائل، والعائلات النبيلة.⁽¹¹⁾ كما حظوا بالتقديس وهي ظاهرة كانت منتشرة في كامل المغرب العربي، حتى بالمدن التي اشتهرت بثقافة سكانها مثل تلمسان، تونس.⁽¹²⁾

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 95. - Liorel (J), Op, Cit, p451.

(2) - جيجيك، المرجع السابق، ص 88.

(3) - Trumelet, L'Algérie légendaire..., p186.

(4) - Chaillon (L), Algérie en 1781, mémoire du consul, C. Philipe vallièr, Imp, nouvelle, Toulon, 1974, pp28, 29.

(5) - Tumelet(C), Les saints de l'islam les saints de tell, Didier, Paris, 1881, p49.

(6) - دوتي، المرجع السابق، ص 95.

(7) - هانوتو/لوتونو، المرجع السابق، ج2، ص 86.

(*) - بمنطقة القبائل فيه تقليد يجبر العائلات على استضافة الغرباء عن المنطقة والسهر على راحتهم.

(8) - بن تونس، المواجهات، ص 98 و 106.

(9) - دوتي، المرجع السابق، ص 39.

(10) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p193.

(11) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 31.

(12) - دوتي، المرجع السابق، ص 20، 21.

فاعتمادهم على الدين الذي استمدوا منه قوتهم، جعل الجميع يخشاهم أهالي وحكاما، لذلك نجدهم ينتقلون في البلاد طولا وعرضا دون خوف من اللصوص أو قُطّاع الطرق،⁽¹⁾ ومما زاد من هيبتهم ومكانتهم تقربهم من السلطة التي زادت من نفوذهم،⁽²⁾ حتى يكونوا دعما وسندا لها في التحكم بالسكان.

ونتيجة لاعتقاد الناس من العامة والخاصة بكراماتهم وقدراتهم، خضعوا لأوامرهم، حيث يقول "حمدان خوجة": "فإن طاعتهم للمرابط لا يمكن تفسيرها،⁽³⁾ فهذا الاحترام وصل إلى الحد الذي لا يتراجع أحد على ذبح أبنائه إذا طلب منه المرابط ذلك، وإذا ارتكب أحد مخالفة لا أحد يقتص منه أو يوقفه في حضور المرابط، ولا أحد يجرؤ على مخالفة قرار وحكم المرابط في أي قضية كانت.⁽⁴⁾

هذه الطاعة العمياء للمرابط من طرف الأهالي تستمر حتى بعد مماته،⁽⁵⁾ أين يبقى محل توفير واحترام يفوق الذي كان يحظى به في حياته. حيث أن الابن لا يجراً على اقتحام ضريح المرابط لمطاردة قاتل أبيه، وهذا الاحترام يرثه أبنائه بعده، حتى ولو لم يتبعوا سلوك آبائهم ويطلق عليهم كذلك اسم "سيدي"،⁽⁶⁾ والملاحظ أيضا حتى النساء المنحدرات من العائلة المرابطية يلقبن "بلالة"،⁽⁷⁾ دون غيرها عن النساء، وإن تزوج المرابط امرأة غير مرابطية لا تلقب "بلالة"،⁽⁸⁾ ومن علامات احترامهم وتقديرهم للمرابط تقبيل يده،⁽⁹⁾ وحتى ملابسه اعتقادا في كراماتهم أو في معجزاتهم وهو ما يجعل المرابطين لا يتعرضون للإهانة في حياتهم أو بعد مماتهم.⁽¹⁰⁾

(1) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 363.

(2) - عمار هلال، أبحاث وآراء، ص 25.

(3) - حمدان خوجة ، المرأة، ص 56.

(4) - Daumas, Moeurs et coutumes .. , p210.

(5) - Liorel (J), Op. Cit, p449.

(6) - حمدان خوجة ، المرأة، ص 57.

(7) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 56.

(8) - دوتي، المرجع السابق، ص 61.

(9) - Morgan, Op. Cit, p93.

(10) - Hon-MRS. Greville. Nergent, Op. Cit, p78.

فهذه الظاهرة (التقديس) وصلت بالناس إلى حد التأليه وإسناد صفات وأفعال ربانية للمرابط، فمثلا قبيلة بني عمروس بالمغرب ونتيجة اعتقادهم في وليها عبد السلام بن مشيش يقولون عنه: «عبد السلام خلق الدنيا والدين والنبي، الله يرحمه مسكين».⁽¹⁾ هذا وتعد أضرحتهم مزارا لطلب الحوائج أو التوسل به حتى كادت هذه المزارات والأضرحة تعبد، حيث يقول "الفكون" عن قبر الولي علي العابد الشابي بعنابة "كاد أن يكون وثنا يعبد"،⁽²⁾ فزيارة ضريح المرابط تقريبا تعدّ بمثابة زيارة مكة، لأنه في معتقد الناس أنّ المنحدرين من الرسول "ص" قد ورثوا حقيقة العفو الإلهي، ولم يكن قبره فقط من يوقر بل أحيانا حتى أفعاله والأماكن التي صلّى أو استراح بها،⁽³⁾ والتي تسمى بالمقام أين تقام عليها قبة وهو ما يفسر لنا الانتشار الواسع للقباب لعدد من الأولياء خاصة المشهورين منهم.

وحتى عند القسم كان الناس يقسمون باسم هؤلاء المرابطين والأولياء فيقولون: حق سيدي فلان، وفي هذا يشير "الفكون" أنه إذا أردت أن تعرف أحدا من أي حزب أو أي فريق، وأي مرابط يتبع استحلفه فيتضح الأمر من حلفه،⁽⁴⁾ بل حتى الدعاء على الخصوم وطلب الصدقة يكون باسمهم، حيث كان الفقراء قرب المساجد وعند أبواب مدينة الجزائر وفي الأسواق والطرقات عند طلب الصدقة يتوسلون باسم سيدي عبد القادر الجيلاني بقولهم: صدقة بجاه سيدي عبد القادر أو حبا في سيدي القادر ومحبة له.⁽⁵⁾

ونظرا للمكانة التي احتلها هذه الفئة في المجتمع كانوا يستشارون في الكثير من القضايا،⁽⁶⁾ حتى في تنصيب شيخ القبيلة الذي يلعب المرابط دورا بارزا في اختياره،⁽⁷⁾ لهذا نجدهم فرضوا العديد من القواعد الاجتماعية سواء في ما يخص الزواج أو المعاملات اليومية في جل مناطق تواجدهم،⁽⁸⁾ مثلما حدث في مداولة 1749م ببلاد

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 41.

(2) - الفكون، منشور الهداية، ص 168.

(3) - نقروش، المرجع السابق، ص 166.

(4) - نفسه، ص 142.

(5) - Rinn, Marabouts...., p176 .

(6) - Kaddache, Op. Cit, p168.

(7) - Dumas, Moeurs et contume...., p200.

(8) - بن تونس، المواجهات...، ص 83.

القبائل التي تتعلق بحرمان المرأة من الميراث يبني بترون وتشاجر القبائل فيما بينها، وقد حضر الاجتماع الكثير من المرابطين والعلماء من قرى تجمونين وتروال.⁽¹⁾

وقد نصت المداولة على ضرورة احترام ما جاء فيها وكل من خالفها يصاب بالفقر والذل والجوع والإهانة. كما نجد أنه عند سن قانون الجماعة (تجمعت) بين جماعة ثوريرت عبد الله وجماعة اذغاغ أملاك بعرض واضية حضره الشرفاء أولاد سيدي السعيد بن الطالب، والذي يعتبر قانونا عاما يخص العقوبات لكل شخص يمس بالنظام الأخلاقي والأمني للقرية: كتحديد عقوبة للمتخاصمين حسب نوع الخصومة وما استعمل فيها من أدوات، وكذلك عقوبة السرقة، وفي الزواج والميراث ومعاملة اليتيم، وحكم المسافر إذا باع أملاكه وغادر وحكم زوجة المفقود....⁽²⁾ وجاء فيها كذلك أن كل من خالف ما جاء في العريضة، مما أقره المرابط سيدي السعيد بن طالب تلحقه دعوة الشر والهَم والذل وتتعرس عليه معيشتة هو وأولاده إلى الأبد.⁽³⁾

إضافة إلى هذا واحتراما للمرابطين كانوا يُقدّمون لرئاسة كل المناسبات الدينية داخل المسجد، وفي مناسبات الولادة والزواج وحتى الدفن،⁽⁴⁾ وإذا لم يكن مرابط القرية حاضرا يلجأ السكان إلى جلب مرابط من القرى المجاورة لينوب عليه،⁽⁵⁾ وهذا كله احتراماً وتقديراً لهم، وإيماناً بكراماتهم وبركتهم، حيث شكلوا مرجعية دينية وأخلاقية واجتماعية أساسية في حياة الحكام والمحكومين على حد سواء.

1-2- العلاقة بين أقطاب السلطة الروحية خلال العهد العثماني:

تميزت العلاقة بين أقطاب السلطة الروحية بثلاث أنماط تمثلت في:

أ- النمط الأول: علاقة الفقهاء بالمتصوفة والمرابطين.

ب- النمط الثاني: علاقة المتصوفة والمرابطين مع بعضهم.

ج- النمط الثالث: علاقة الفقهاء مع بعضهم.

⁽¹⁾ - Patorni (F), " De libération de l'année 1749 dans la grande kabylie ", in **R.A**, N39, 1895, pp315, 317.

- محمد سي يوسف ، القانون في بلاد القبائل... ، 286 ، 287.

⁽²⁾ - نفسه، 283، 284. هانوتو/ لوتورنو ، المرجع السابق، ج 3، ص 504-507.

⁽³⁾ - هانوتو/ لوتورنو ، نفسه، ص 504. -جمال قنان، نصوص ووثائق، ص 180، 181. - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 238، 239.

⁽⁴⁾ - هانوتو-لوتورنو، المرجع السابق، ج 2 ص 37.

⁽⁵⁾ - جيجيك، المرجع السابق، ص 102.

فيما يخص:

أ- النمط الأول: علاقة الفقهاء بالمتصوفة والمرابطين:

لقد عرفت العلاقة فتورًا ومشاحنات أحيانًا، وهذا منذ ظهور التصوف، خاصة التصوف العملي (الشعبي)، حيث أنكر الفقهاء على المتصوفة الكثير من السلوكيات والعقائد، غير أن هؤلاء المنتقدين للمتصوفة لا نجد عندهم رفضًا كليًا لهم بل غالبًا ما يؤكدون ضرورة التفريق بين التصوف السني الأصيل والتصوف الباطني.⁽¹⁾(*)

وقد استمر انتقاد العلماء للمتصوفة على مر العصور، وفي الجزائر وخلال العهد العثماني، نجد الفكون يعد أكثر المنتقدين للمتصوفة، فكتابه "منشور الهداية" يعد ثورة على المرابطين والمتصوفة المبتدعة، واستغلالهم للعامة بحيث أنه يذكر أن من أسباب تأليفه كتابه هو انتشار البدع ورغبة منه في فضح أصحابه حيث يقول: «فلما رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر وسحائب الجهل قد أظلت وأسواق العلم قد فسدت، فصار الجاهل رئيسا والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيس، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأس لائحة... فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأة الموت... فاغثروا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا... كل ذلك والقلب ميت يتقطع غيرة على حزب الله العلماء... وغيره على جناب الصوفية أن تكون أراذل العامة وأنزال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم... فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييد يدي عوارهم ويفضح أسرارهم». وهو يعتبر جهادًا أحدًا من السيف في نحور أعداء الله.⁽²⁾

فمن خلال هذا نستنتج أنه لم يكن ضد كل المتصوفة ولا ينكر التصوف كليًا، فهو أيضا صوفي شاذلي زروقي الطريقة، وقد أعلن ذلك وأنه أخذها عن شيخه يحيى الأوراسي،⁽³⁾ كما أنه كثيرًا ما كان يذكر كرامات الذين يعتبرهم من الصالحين منها ذكره

(1) - محمد حلمي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 348.

(*) - فمثلاً نجد ابن تيمية ألف "الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان" وله أيضًا "مجموعة فتاوي ج 11". وكذلك ابن الجوزية الذي ألف كتاب "تلبيس إبليس" الذي يذكر فيه أن المتصوفة المبتدعة تقاوم أمرهم قرنا بعد قرن، فيما كان سلفهم يعمل على الكتاب والسنة. - نفسه، ص 348.

(2) - الفكون، المصدر السابق، ص 31، 33.

(3) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 109، 110.

لكرامات الوزان وجدّه الذي يعد من الصالحين.⁽¹⁾ (*) لكنه ينكر على المتصوفة أعمالهم البدعية وانحذارهم إلى الدرك الأسفل من خلال أعمال الحضرة التي تطبعها المنكرات وسلب أموال الناس وتخدير عقولهم.⁽²⁾

وليس الفكون وحده من أخذ موقفاً من المتصوفة والمرابطين، بل سبقه شيخه محمد بن مرزوق التلمساني والشيخ أوالقاسم العبدوسي اللذان كانا ينكرون على المتصوفة البدع وخطتهم العمل الصالح بالسيء،⁽³⁾ وحسب "دوتي" فإنّ الفقهاء كانوا لا يستعملون كلمة "مرابط" في كتاباتهم بل في كلامهم اليومي وإن استعملوها في كتاباتهم،⁽⁴⁾ فبمعناها القديم أي "المحارب على الثغور"، في حين أنّ العلماء الموظفين كانوا يصفون المتصوفة بالزنادقة، رغم حماية السلطة لهم، فقد كانوا ينظرون إليهم نظرة ناقمة خاصة لأدعياء التصوف، رغم أنّ معظمهم كان ينتمي للطرق الصوفية، في حين أنّنا نجد أنّ المتصوفة أنفسهم كانوا يضيّقون ذرعاً من عقلانية العلماء وماديتهم وتزلفهم للسلطة.⁽⁵⁾

لقد ناصب العلماء المتصوفة العداء واتهموهم بالشعوذة والهرطقة،⁽⁶⁾ فمثلاً نجد أحمد بن يوسف الملياني قد اتهمه خصومه من علماء الجزائر وحتى من علماء المغرب بالإلحاد،⁽⁷⁾ وهذا نتيجة افراط الناس في محبته حتى نسبوا بعضهم إلى النبوة،⁽⁸⁾ وقد وصل ببعض العلماء إلى الافتاء بجواز قتلهم، منهم ابن العنابي الذي أفتى بقتل من سماهم الدراويش الزنادقة ودعى الحكام إلى محاربتهم واعتبر تصفيتهم جهاد.⁽⁹⁾

(1) - الفكون، المصدر السابق، ص 50، 51 و 35، 36.

(*) - مستنداً في هذا إلى قول الشافعي، «إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي، أما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبة». نفسه، ص 150. وإلى قول حديث الرسول "ص"، «ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذ له لعمه». حديث ضعيف لكن في معناه صحيح، - نفسه، ص 150.

(2) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 113.

(3) - الفكون، المصدر السابق، ص 144.

(4) - دوتي، المرجع السابق، ص 54.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 400.

(6) - علي المحافظة، المرجع السابق، ص 17.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 496، 497. هامش

(8) - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 125.

(9) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 400.

ومن جملة العلماء كذلك الذين انتقدوا المتصوفة وأعمالهم وسلوكاتهم، ونصح بتجنبهم عبد الرحمن الأخضرى (ت 983هـ/1575م)، الذي كتب منظومة من 346 بيتاً في التصوف وأحواله:

وقال بعض السادة الصوفية	مقالة جليلة صفية
إذا رأيت الرجل يطير	وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع	فإنه مستدرج يدعي
من ادعى مراتب الجمال	ولم يقم بأدب الجلال
فأرفضه إنه الفتى الدجال	ليس له التحقيق والكمال
ففر منه إنه الشيطان	مخادع ملبس الإخوان ⁽¹⁾

إنّ المنزلة التي منحها العثمانيون لرجال التصوف والمرابطين شجعت الكثيرين على ادعاء الشرف، وابتداع أمور تتنافى الدين حتى ينالوا القرب والتقدير من السلطة الحاكمة الأمر الذي أدى ببعض العلماء إلى انتقادهم، وفضح سلوكهم المنحرف عن حقيقة التصوف، فعبد الكريم الفكون يقول عنهم: «أنّهم أظهروا البدع الشنيعة، وطمسوا بترهاتهم، بصائر الناس... فيا الله وللمسلمين من عصابة جهلة، مرقوا على الدين... وهجموا على مناصب الأولياء الصالحين، فادّعوها لأنفسهم حالا، ودعوا إليها عباد الله نساء ورجالا... سول لهم الشيطان أقاويل مزخرفة وأخبار محرفة فيصيّدون بها العامة، وربّما سرى سحرهم إلى الخاصة، ولم يراقبوا مولاهم ولا علموا ما أمامهم ووراءهم». ⁽²⁾

كما نجد الأخضرى: يقول متأسف على حال التصوف وما أدخل عليه من بدع.

وأسفا على السابلة (الطريقة)	أفسدها طائفة الداجلة.
قد أحدثوا طرق بدعية	ورفضوا الطريقة الشرعية.
يا عجب لرافضة الشريعة	كيف ادعى درجة رفيعة.
فكيف يرقى لسلم الحقيقة مخالفاً لسيد الخليفة.	
واحسرتا على الطريق المستقيم	قد ادعاها كل أفاك أثيم.
يا ويلتا هذا زمان البدع	مات به أهل التقوى والورع.

(1) - عبد الرحمن الأخضرى، المنظومة القدسية أو منظومة سيد الرحمن الأخضرى في رد على المبتدعة، مكتبة جامعة الرياض، السعودية، رقم 2062، ص 10.

(2) - الفكون، المصدر السابق، ص 137، 138.

واحسرتاه على الكرام البررة قد أخلفوا بالمدّعين الفجرة.⁽¹⁾ أما "حمدان خوجة" ورغم أنّه نحى بالتصوف منحى الغزالي إلّا أنّه هاجم المتصوفة المتزمتين المزيفين من مدعي التصوف «...وهذا دأب المزيفين من مدعي التصوف، دائماً يتهمون على استخراج الأحكام الشرعية بجهلهم من الآيات والأحاديث الموضوعة، ويتغالون في الدين»⁽²⁾، متناسين في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾⁽³⁾، فهو يقصد هنا المتصوفة المتمسكين بالتقاليد وقشور التصوف، فقلّبوا الحقائق وظلّوا وأظّلوا، كما أنكر عليهم تكفيرهم لمن اتبع النصارى فيما فيه خير للمسلمين مثل إتباع الاحتراز من الوباء، لأنّهم جربوا كيفية الاحتراز منه وعرفوا كيف يقطعون أثره، وفي رفض إتباع العلوم والطب والصنائع والحرف المهمة، لأنّه لا بأس أن تستعين برأي الإفرنج إذا اقتضى الحال.⁽⁴⁾

ونتيجة لتأثيرهم على المجتمع بما نشره من بدع وخرافات حتى بين أرباب العلم، من الاعتقاد في القطب والغوث وفي ضر ونفع الأولياء، وانتشار الحضرات والإنشاد الصوفي واستغلالهم للناس، وأكل أموالهم بالباطل، وهو ما دفع بالفكون إلى تخصيص فصل من كتابه للحديث عنهم وعن أعمالهم التي أعابها عليهم من ادعاء الولاية والتصوّف واتخاذ الحضرة والوعدة وأكل الحشيش، والرقص والغناء بهدف الحصول على المال واستغلال العامة والتحالف مع السلطة.⁽⁵⁾

وبعد أكل الحشيش والمنبهات كنوع من الانتشاء، واستعمال الموسيقى والغناء من الأمور التي أنكرها كل الفقهاء على المتصوفة،⁽⁶⁾ فمثلاً الطريقة اليوسفية الشاذلية تعرضت لعدّة اتهامات من العلماء وحتى المتصوفة بالجزائر والمغرب،⁽⁷⁾ فقد اتهم أتباعها بالخروج عن السنة واتباع البدع، لأنّ شيخها الملياني كان يلقي أتباعه الأذكار باستعمال

(1) - الأخضري، المصدر السابق، ص 21، 23.

(2) - حمدان خوجة، اتحاد المنصفين، ص 150.

(3) - سورة المائدة، الآية 74.

(4) - حمدان خوجة، اتحاد المنصفين، ص 148، 149.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 523.

(6) - نفسه، ص 138، 173.

(7) - سعد الله، على خطى، ص 198.

الموسيقى والغناء،⁽¹⁾ كما لأمه الفقيه أبو عبد الله محمد الخروبي على تعليم الأسماء للنساء والعامّة حيث قال له: «أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامّة حتى النساء»، فرد عليه الشيخ أنّه دعى الخلق إلى الله فرفضوا فقرر شغل قلوبهم وجوارحهم بالذكر، فقال الخروبي «فوجدته أوسع من دائرة».⁽²⁾

وتعد الحضرة من أكثر الأمور التي انتُقد المتصوفة بسببها، ووصف من يقومون بها بأقبح الصفات، فنجد "الأخضري" يقول في هذا:

وقال بعض السادة المتبعة في رجل يهجو المبتدعة.

ويذكرون الله بالتغيير ويشطحون الشطح كالحمير.

وينبحون النبح كالكلاب طريقهم ليس على الصواب.⁽³⁾

ونتيجة لأعمالهم المخالفة للدين فقد وصل به الأمر إلى حد اعتبارهم خارجين عن الدين والكفر والإلحاد:

لم يقتدوا بسيّد الأنام فخرجوا عن ملّة الإسلام.

قد أشرفوا على كهوف الكفر وسترو بدعتهم بالفقر.

هدموا قواعد الإسلام واعتبروا خرائف الأوهام.

بعدا لقوم ألدوا في الدين واشتغلوا بطاعة اللعين.

وأولعوا بالإفك والتلبيس تأسيا بشيخهم إبليس.⁽⁴⁾

أما "الفكون" فقد أعاب على معاصريه الذين أساءوا للتصوف وحولوه إلى زردة وقرع للطبول والموسيقى، التي تعد من البدع والخرافات، التي سلبوا بها عقول وأموال الناس.⁽⁵⁾ منهم مرابط وعالم عنابة محمد ساسي البوني، الذي صنّفه مع الدجالين^(*)،

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 496.

(2) - السلاوي الناصر، المصدر السابق، ج5، ص 51. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 497.

(3) - الأخضري، المصدر السابق، ص 15.

(4) - نفسه، ص 9 و 22.

(5) - سعد الله، شيخ الاسلام...، ص 113.

(*) - وبسبب طعنه في صلاحه رد عليه حفيده أحمد بن قاسم البوني:

أخذ يقظة على الرياني الشيخ عبد القادر الجيلاني

طعن الفكون فيه صلح باطل إذ هو القطب عارف وكامل

فطعنه تحامل وظلم وعند ربنا تعالى العلم.

- البوني، المصدر السابق، ص 73، 74.

لاتباعه الشيخ طراد،^(*) المغالي في التصوف، واستقباله للشيخ البدعي علي خنجل المغربي، وبتهمه صراحة بالمبالغة في التصوف باستعماله الحضرة، وما يصاحبها من رقص مختلط وغناء داخل الجامع الأعظم وآلات موسيقية، وأخذ أموال الناس بالباطل، حيث جعل له الناس راتباً أسبوعياً وله وعدات صغيرة وكبيرة، ووصل إلى حد فرض ضريبة على فقراء الأندلس،⁽¹⁾ كما أنه جعل مستحماً له سماه حمام "أهل الصفا".⁽²⁾

ونجده يصف لنا حضرة إحدى مدعي الولاية، الشيخ قاسم ابن أم هاني الذي أظهر البدع لخداع الناس، ومنتقدا ما يحدث فيها من مخالفات شرعية، وحتى لاعقلانية بقوله: «واتخذوا الحضرة يراؤون بها الناس... بها يأكلون ويتمولون... يجتمعون لذكر المولى جلّ جلاله، فيغيرون اسمه ويشطحون ويرقصون وربما يتضاربون، فتراهم ككلاب نابحة، ولعابهم كمياه طافحة، وأنفاسهم كثيران ناطحة، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ولا مكروه...».⁽³⁾

أمّا "أبو راس الناصري" الذي كان يحترم الأولياء، والصالحين ويعترف بكراماتهم، إلّا المغالين^(*) منهم، فنجده أنكر على أنصار الطريقة الشيعية انغماسهم في البدع حيث قال: «لم يخافوا من الله، نسأل الله العافية وصفاء السريرة الصافية، التي ليست بمخولة، ولا منحلة ولا كافية ولا حافية...»، كما يعيب على شيخهم عبد القادر السماحي (بوسماحة)، اعتقاد الناس في ولايته ومكاشفته حتى كادوا يدعونه إله،⁽⁴⁾ وهذا الأخير انتقده كذلك الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي محلي،^(**) وطلب منه الرجوع عن

(**) - قال عنه أنه كان لص الظاهر وصار لص الباطن كان لصاً لأنه ادعى الولاية واستمر في استغلال الناس وأخذ أموالهم بالباطل، أغار على أهل قبيلته وأخذ أموالهم لرفضهم طاعته، وكان يتزوج المرأة في عدتها.

- الفكون، المصدر السابق، ص 161، 163.

(1) - نفسه، ص 165، 166. - سعد الله، "أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة"، الثقافة، ع 51، 1979م، الجزائر، ص 16.

(2) - الفكون، نفس المصدر، ص 165. - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 178.

(3) - الفكون، نفسه، ص 119.

(*) - ولكن رغم موقف أبي راس الناصري من المغالين في التصوف إلّا أنه لا يكفر أحدا منهم حتى من ادعى النبوة والألوهية بل نجده يعطف على من قتل منهم. - أبو راس الناصري، فتح الإله، ص 153، 154.

(4) - نفسه، ص 47.

(**) - ولد (967هـ-1022م/560هـ-1613م) هو من سجلماسة، قاد ثورة ضد المولى زيدان السعدي، استقر ببني عباس وأسس زاوية قصدتها الكثير من علماء الجزائر، كسعيد قدوري وغيرهم، حول ثورته ينظر: الناصري السلاوي، الاستقصا، ج 6، ص 30، 34.

أفعاله المبتدعة فألف فيه كتابين ضمنهما المواعظ والنصح، «الأصليت في قطع حلقوم العفريت النفريت» وكتاب «منجنيق الصخور في هدم بناء الشيخ الغرور».⁽¹⁾ إلا أن الشيخ أبو العباس بن أبي محلى بعد ما كان عالماً كبيراً، تحول عن مذهبه الرامي إلى القضاء على البدع والخرافات ليَدّعي أنه "المهدي المنتظر" حتى وصل به الأمر أن قال لأصحابه أنهم أفضل من الصحابة لأنهم نصروا الحق زمن الباطل أما الصحابة فنصروا الحق زمن الحق.⁽²⁾

ما يمكن أن نقوله هو أن علماء المدن أظهروا عداً واضحاً للطرق الصوفية واتهموا الزوايا بالبدع، ومخالفة الشرع لجعلها الأولياء وسطاء بين الناس والله، وهو الأمر استجابت له الذهنية الريفية البسيطة التي قدست الأولياء، والمعتقدات في كراماتهم. وأصدق مثال على العدا الصريح للعلماء اتجاه الطرق الصوفية، ما قام به علماء الجزائر اتجاه شيخ الطريقة الرحمانية، بعدما لم تجد فتاوى العلماء، ولا حتى غير مرابطي المدن الموالين للسلطة، من الحد من نشاط الطرق الصوفية باعتبارها بدعة،⁽³⁾ فنجد أنه عندما انتقل الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى الحامة للتدريس بها، أزعج صيته وشهرته علماء الجزائر والحكام واعتبروه خطراً عليهم، لذلك استصدر علماء الجزائر فتوى من المجلس العلمي برئاسة المفتي المالكي الحاج علي بن الأمين ضد الطريقة الرحمانية، واعتبرها بدعة وخارجة عن أصول الدين، لكن السلطة تراجع وتضغطت على المجلس العلمي لإصدار فتوى أخرى تبرئ الشيخ خوفاً من تمرد قبائل قشطولة⁽⁴⁾، وربما يعود موقفهم هذا من شيخ الرحمانية لأنه من الريف فطبيعي أن يلقى المعارضة من مرابطي وعلماء الحضر.⁽⁵⁾ فنظرة الاستعلاء لدى علماء المدن اتجاه علماء الريف لم تخص الجزائر فقط بل هي ظاهرة منتشرة في كل مكان وزمان.

فحسب "رين" فإن التأثير الواسع للطرق الصوفية في الجزائر دفع بالعلماء إلى مساعدة الحكام في محاصرة أتباعها ومريديها حتى يثبتوا تفوقهم الروحي والمادي وتأثيرهم

(1) - أبراس الناصري، فتح الإله، ص 47.

(2) - نفسه، ص 80، هامش (88).

(3) - صحراوي، الدور السياسي، ص 32.

(4) - محمد نسيب، زوايا العلم..... 153، 152. . Rinn, Marabouts....., p 452.

(5) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 42.

العلمي،⁽¹⁾ لذلك فعدم التواصل بين رجال الدين في المدن مع نظرائهم في الريف ساعد البايك على الحد من نشاط وتأثير الطرق الصوفية بالمدن.⁽²⁾

وبهذا فإن الصراع بين العلماء (الفقهاء) والمتصوفة والمرابطين، أي بين ممثلي الشريعة وممثلي الحقيقة أخذ طابع الخلاف العقائدي عبر العصور إلا أنه أثناء العهد العثماني، كان الصراع حول المصالح المالية والمنزلة الاجتماعية، لأن الفقهاء لم يكن لهم نفس نفوذ وهيبة الطرق الصوفية في المجتمع، لذلك لم ينجح العلماء ولا المرابطين الذين استعملتهم السلطة لمكافحتها، فلا العلماء استردوا هيبتهم أمامها، ولا المرابطين الأشراف حافظوا على قداسة مكانتهم.⁽³⁾

ب- أما النمط الثاني والمتمثل في العلاقة بين المتصوفة والمرابطين:

ف نجد أنّ الطرق الصوفية دخلت في صراع ديني وفكري فيما بينها حول بعض المفاهيم وإيديولوجية كل منها، ممّا دفع برجالها إلى الاتجاه نحو المشرق والتزود بروحانيته لتعزيز موقفها ضد الطرق الأخرى،⁽⁴⁾ ومثال ذلك الصراع الذي كان بين الشاذلية والقادرية، رغم أنه في الجزائر لم يكن بنفس الحدة التي كانت فيها بالمغرب،^(*) فالطريقة القادرية بالجزائر والتي تبنتها قبائل الحشم خاصة بالغرب الجزائري، كانت ترفض أي منافسة لها من الطرق الأخرى،⁽⁵⁾ أما الطريقة اليوسفية فقد لقيت معارضة وانتقادات شديدة حتى من طرف المتصوفة أنفسهم، فيذكر الصباغ أنّ سيدي علي الندرومي الذي كان يقصده الناس للتبرك محملين بالهدايا، كان ينافس الملياني ويسبه فأصيب بالجنون لاعتراضه للشيخ الملياني،⁽⁶⁾ الذي أخذ موقفاً معارضاً لطائفة الشراقة^(**) التي نسبت

(1)- G.André, Op. Cit, pp 265,266.

(2)- مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 102. - De Neveu, Op. Cit, p 103. - Rinn, Marabouts, p103.

(3)- دحومان، المرجع السابق، ص 81، 82.

(4)- عبد الرحيم عبد الرحمن، المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798م، دراسة تأثير الجاليات المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، د.م.ج، الجزائر، 1982، ص 26.
(*)- بالمغرب انتهى الصراع بين الشاذلية والقادرية بانتصار هذه الأخيرة مدعومة من طرف الوطاسيين والعثمانيين على حساب الشاذلية المدعومة من طرف الأدارسة. - صالح عباد، المرجع السابق، ص 25.

(5)- نفسه، ص 25

(6)- محمد بن علي الصباغ القلعي، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط رقم 1707، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر، ورقة (1)6.

(6)- ابن عسكر، المصدر السابق، ص 125. - الناصري السلاوي، نفس المصدر، ج 5، ص 50.

نفسها إليه، فلما وصله ما تدّعيه الشارقة من بدع قال: «من قال عنا ما لم نقل ابتلاه الله بالقلّة والعلة والموت على غير الملة». (1)

إن الصراع بين هذه الفئة لم يكن فقط حول المفاهيم والمعتقدات، بل إن حب المال وادعاء الولاية، كان سببا في التنافس بين الاولياء وصل حد المشاحنات والحروب والشتائم والضرب، مثلما وقع بين أتباع محمد ساسي البوني وأتباع علي العابد، الذي ضاع صيته على حساب محمد ساسي البوني، بعدما دخل عنابة، وأخذ يجمع المال الحرام والحلال ويقيم الحضرة، ولما توفي صار قبره "وثنا يعبد"، (2) أما الشيخ طراد الذي انتقده الفكون لإدعائه الولاية وإظهاره البدع، فقد ورث رئاسة الطريقة لابنه، الذي كان يقدم للحكام الخراج والجباية حتى يستعين بهم على خصومه (3)، وهو نفس الأمر الذي يشير إليه الورثيلاني لما دخل بسكرة أين وجد فتنة وخصومة بين الشرفاء واستعانتهم بالسلطة على بعضهم فيقول: «غير أنه أصابت الشرفاء حائجة الفتنة، وعوائق العداوة فهم فريقان، فريق في القرية وهو المتمكن المعتصم بأولي الولاية من الترك... إذن من تمسك بهم تفرعن على غيره». (4)

كما تعد مسألة النفوذ والزعامة وكسب الأتباع إحدى نقاط الخلاف بين الصوفية والمرابطين، وهو ما دفع "الفكون" للقول عنهم: «كانوا يبعثون أصحابهم في البلاد فيدعون الناس لإتباعهم... وصاروا يتغايبون تغاير الضرائر ويشتمون بعضهم بعضا، وترى كل فريق مبغض للفريق الآخر، فلا تجد منهم مؤادا لصاحبه ولا محبا لجانبه، يتضاربون ويتشاتمون، كل عصابة وأتباع مع العصابة الأخرى، أما الرؤساء فيكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا...». منها ما حدث بين محمد الحاج الصحراوي وقاسم بن أم هاني من شتم وقدح في ورع بعضهما، واتخاذ كل منهم فريقا. (5)

(**) - للمزيد حول طائفة الشارقة، ينظر: - الأفراني، المصدر السابق، ص 233، 236. - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 5، ص 50، 51. - عبد الله النجمي، التصوف والبدعة بالمغرب، طائفة العكاكزة ق 16-17م، كلة الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 2000، ص 311، 313.

(1) - ابن عكسر، المصدر السابق، ص 125. - الناصري السلاوي، نفس المصدر، ص 50. - الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص 99، 100.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 486.

(3) - الفكون، المصدر السابق، ص 164. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 486.

(4) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 114.

(5) - الفكون، المصدر السابق، ص 140-142.

فالطابع الأناني والتنافسي بين آل القاضي وآل مقران، والذي غذته دعوى أحقية وشرعية القيادة والزعامة والدعوى الدينية، أدت بجد بني العباس الشيخ عبد الرحمن إلى الانفصال^(*) عن شيخه والتتصل من نفوذه الروحي⁽¹⁾ ويؤسس زاوية خاصة به في القلعة، التي تحولت مع الوقت إلى إمارة، واستمر الصراع بينهما على النفوذ الروحي والزعامة في المنطقة، وهو الصراع الذي استغله العثمانيون فيما بعد.

كما نجد أنه بسبب النفوذ ثار المرباط سيدي عيسى على أحمد المقراني الذي ولاه على المناطق الواقعة جنوب القلعة، فأخذ يطلب المغارم لنفسه ثم ثار على أحمد أمقران الذي تذر منه وحاول قتله، لكنه عفى عنه بعد كرامة وقعت له معه.⁽²⁾

أما المرباط عبد الصمد الشابي، فقد أثاره نفوذ وشهرة عائلة بن ناصر بالصحراء، خاصة منهم الفقيه سيدي عبد الحميد⁽³⁾ الذي قتل مع 12 رجلا من عائلته، في احتفال رسمي عند الشابي، لأنّ صيته فاق نفوذ وصيت الشابي، فهو كان يملك خيمة كبيرة للفصل في خصومات البدو وهي ملجأ لاتنتهك حرمة لكل فار من العقاب⁽⁴⁾، ولم ينجو من المجزرة إلا الشيخ المبارك بن قاسم بن ناجي (ت 1031هـ/1622م) الذي فر في ما بعد من منطقة الزاب بعدما ألّب الأعراس ضده إلى خنقة سيدي ناجي سنة 1010هـ- 1602م أين أسس بلدة جديدة وعمرها بعدما كانت خالية من المباني وغرس النخيل والأشجار، وأسس زاوية توارث أبناؤه مشيختها.⁽⁵⁾ وهو نفسه الذي ضايق أخاه محمد المسعود الشابي (970هـ-1025هـ/1562-1618م)، لرفضه القتال ضد العثمانيين من أجل استرجاع القيروان، وهو ما جعل قبيلة الحنانشة تتخلى عنه ليبقى وحده يواجه العثمانيين إلى أن قتل سنة 1616م، فعبد الصمد الشابي لما اعتلى رئاسة الطريقة الشابية وصل تأثيره حتى الشرق الجزائري وكون حلقة مع الحنانشة والنمامشة والحراكتة ضد الحفصيين ثم ثار ضد العثمانيين.⁽⁶⁾

(*) - حول هذا ينظر: Feraud, histoire des villes...Setif....., p202 et suit

(1) - ساحي، المرجع السابق، ص 35.

(2) - Trumelet, l'Algerie légendaire...pp290, 291.

(3) - Mercier, histoire de l'Afrique...T03, p204.

(4) - Feraud, les harar....., p145,146.

(5) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 275.

(6) - علي الشابي، مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية، المجلة التاريخية المغاربية، ع 13-14، 1979، تونس

وحتى الأشراف أثار انتشار الطرق الصوفية عدائهم لها، خاصة بعدما لجأ الناس إلى شيخ الطريقة، وصاروا يتبركون به بعدما كانت هذه الأمور مقتصرة عليهم بصفته من أهل البيت،⁽¹⁾ فنجذ زاوية سيدي محمد بن علي الشريف (زاوية شلاطة)، بأقرب سنّت قانونا يطرد كل طالب يلتحق بالطرق الصوفية.⁽²⁾ ومن ذلك أيضا عدا بعض المرابطين الأحرار المتحالفين مع السلطة للطريقة الرحمانية التي تسببت في ضياع امتيازاتهم، وتراجع مكانتهم في أوساط القبائل، فمرابطي عائلة آث بوكوش (آل القاضي)، كانوا يرون في الرحمانية خطراً يهدد هيمنتهم، ومكانتهم⁽³⁾، لأنّه بعد ظهور الرحمانية لم تسمح لهم بأن يكون لهم أي تأثير في المناطق التي تتواجد بها، كبوغني وآث إسماعيل، وهذا راجع إلى حرص شيوخها. وأتباعها على ذلك حتى لا ينافسهم أحد في وجودهم،⁽⁴⁾ وحسب "الفيلاي" فإنّ انتقال سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى الحامة ربما فرارا من خصومه المرابطين، الذين ناصبوه العدا لنجاح دعوته، وتوسع نفوذه بالمنطقة، غير أنّ نشاطه بمدينة الجزائر أثار ضده علماء المدينة ومرابطيها.⁽⁵⁾ ورغم هذا العدا إلا أنّ الشيخ بوقبرين كانت له شهرة ونفوذ واسع بين القبائل.⁽⁶⁾

إنّ هذا الصراع الذي كان بين المتصوفة والمرابطين، لم يقتصر عليهم فقط فحتى الفقهاء والعلماء شاع بينهم الصراع، وهذا ما يمثل:

ج- النمط الثالث علاقة الفقهاء مع بعضهم:

لم يكن كل العلماء خلال العهد العثماني على قدر من النزاهة والمثالية فمنهم من كان غير ذلك، فكثيراً ما كانت تحدث بينهم خلافات إمّا بسبب الحسد طلباً للشهرة، أو التنافس على منصب،⁽⁷⁾ خاصة وأنّه خلال هذه الفترة عرف عن العثمانيين أنّهم كانوا يكثرّون الهدايا والعطايا لرجال الدين عامة. وهذا تقرّباً منهم وكسباً لهم،⁽⁸⁾ هذا الأمر ولد تنافساً كبيراً بينهم، وهو ما أدى ببعضهم إلى حياكة المكائد من أجل الحصول على

(1) - علي المحافظة، المرجع السابق، ص 17.

(2) - دحومان، المرجع السابق، ص 87.

(3) - Alai Maché, Op. Cit, pp 48,49.

(4) - Ibid, pp 52,53.

(5) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 41، 42.

(6) - G.Andrée (P.J), Op. Cit, pp 265,266.

(7) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 281.

(8) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 470.

مبتغاهم، لكن هذا التنافس كان في أغلبه من النوع الهادم، لأنه لم يكن في مجال العلم والمعرفة بقدر ما كان من أجل المناصب، والذي أخذ شكلين، إما فردياً أو عائلياً، وهذا الأخير كان أكثر ضرراً لأنه قد يستمر لزمن طويل ولأجيال وقد يؤدي إلى التناحر،⁽¹⁾ مثل الصراع الذي كان بين عائلة عبد المؤمن وعائلة الفكون، والذي ظهر جلياً عند الدخول العثماني لقسنطينة،^(*) واستمر هذا الصراع والتنافس لأجيال حتى أواخر العهد العثماني، فنجد أنه في عهد صالح باي سعت كلا العائلتين إلى إثبات مكانتها الاجتماعية والعلمية، ونلمس هذا التنافس من خلال إهمال عبد الكريم الفكون الحفيد، في مؤلفه دور عائلة عبد المؤمن العلمي والاجتماعي، في ترجمته لعلماء وصلحاء قسنطينة.⁽²⁾ إلا مرة واحدة أشار فيها إلى محمد بن عبد المؤمن على أنه كان أمير ركب الحج، عهد عبد الكريم الفكون الابن،⁽³⁾ الذي يشير كذلك إلى خلاف وقع بينه وبين أبو العباس محمد بن باديس بسبب الوشاية، وازداد الخلاف أكثر بينهما بسبب قضية عائلية، حتى صار هذا الأخير يتكلم عن الفكون في مجالسه.⁽⁴⁾

وقد ذكرت لنا المصادر الكثير من الأمثلة حول هذا التنافس الذي غالباً ما كان يؤدي إلى عزل أحد الطرفين أو كلاهما من منصبه وهذا إما عن طريق الخلاف العلني أو الوشاية لدى الحكام مثل الصراع الذي حدث بقسنطينة بين أبو العباس أحمد بن باديس المدعو حميدة مع أبي عبد الله بن نعمون ابن أخت جد الفكون حول وظيفة الإفتاء حيث تم التفريق بينهما بوشاية بعدما كانت تجمعهما أخوة وصداقة، أدت إلى عزل بن نعمون الذي قرر الثأر من أحمد بن باديس، فأغرى جماعة وشت بأحمد بن باديس لباي قسنطينة الذي غرّمه مالا وسجنه مدة من الزمن.⁽⁵⁾

أما يحي الأوراسي بقسنطينة فحسب الفكون كان عالماً ومدرساً تولى الإفتاء بقسنطينة، لكن لما وشى به حساده للسلطة بخلع البيعة عن الأتراك فر إلى جبل الأوراس مع أخيه أحمد، أين جرت حروب بينهم وبين الأتراك الذين فشلوا في القضاء

(1) - نفسه، ص 402.

(*) - ينظر القسم الثالث.

(2) - سعيديوني، ورقات...، ص 114.

(3) - الفكون، منشور الهداية...، ص 102.

(4) - نفسه، ص 111، 112.

(5) - نفسه، ص 80، 84.

عليه في الميدان فاغتالوه غدراً سنة (1009هـ/1600م) لتستمر الثورة على يد أخيه أحمد،⁽¹⁾ وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإنّ يحي الأوراسي كان يستعمل الصلاح والتصوف لأغراض وصولية إلى جانب التدريس والفتوى، لذلك ولما انكشف أمره لجأ إلى الثورة.⁽²⁾

كما تعرض سعيد قدورة بمدينة الجزائر للعزل والإبعاد إلى اسطنبول بسبب حساده، فغضب عليه حكام الجزائر لأسباب لم تذكر، لهذا نجد زميله أحمد المانجلاتي أرسل بقصيدة إلى مفتي اسطنبول يعرفه بالمفتي سعيد قدورة وأنّ ما حصل له اتهام باطل جاء فيها:

قدم أمام بابكم فقيه الجزائر بانّت فضائله لمن لم يحسد.
أستاذنا علامة العرب الذي بعلومه يحكي سراج المسجد.
قد كلفوه ركوب بحر غير من علمه بإشارة من حسد.⁽³⁾

لكن المصادر تشير إلى نوع التهمة التي وجهت إليه، ولا كم بقي في اسطنبول لكن المعروف أنّه عاد إلى منصبه ولم يعرف من كان نصيره ضد خصومه.⁽⁴⁾ وهو نفسه الذي أهين من طرف زميله العالم محمد القوجيلي، الذي كان منافسا له، فلما مر يوما على جد المفتي الحنفي بن علي ومعه سعيد قدورة، سلم على بن علي وانحرف بوجهه على سعيد قدورة وهذا بسبب المنافسة التي بينهما.⁽⁵⁾

فما حدث لسعيد قدورة حدث للكثير من العلماء الذين عزلوا بسبب الوشاية من طرف حسادهم للحكام، والتي تؤدي أحيانا حتى إلى النفي أو القتل.^(*) فالوشاية لعبت دورها أيضا ضد المفتي المالكي بتلمسان والمشرف على أوقافها، حيث اشتكاه علماء تلمسان للباشا، لكن هذا الأخير لما استقصى الأمر تبين له أنّها مجرد وشاية، وظهر بطلان دعوهم، فكتب لهم الباشا رسالة جاء فيها: «... وادّعوا أنّ السيد خالف الشريعة وأفسد الأوقاف... إذ هموا بعزله... فلما أن روجعت... ظهر أنّ ذلك كلّ زور وإتّما حملهم

(1) - نفسه، ص 54. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 218.

(2) - سعد الله، نفسه، ص 218. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 423.

(3) - ابن عمار، المصدر السابق، ص 135، 136.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 364.

(5) - نفسه، ج1، ص 365 / ج2، ص 301.

(*) - ينظر: القسم 04.

على ذلك الغبطة الفقهية، والمنافسة الأدبية فخيبت آمالهم... فلما ضاق عليهم الطوق... رغبوا في الصلح... وأقسموا أن لا ينافسوا بعدها الغير، ولا يعودوا لمثلها أصلاً فانعقد الصلح بينهم...». وهي رسالة مجهولة التاريخ لكن كاتبها يذكر الشيخ سعيد المقرئ عم أحمد المقرئ الذي حضر الصلح وبهذا فإن هذه الرسالة تعود إلى القرن 16م.⁽¹⁾

لقد أورد الفكون الكثير من النماذج في كتابه منشور الهداية حول العلاقة التي كانت تربط العلماء فيما بينهم وصراعهم حول المناصب مثل صراع عبد اللطيف بن بركات (ت 1636هـ/1620م)، وأبو العباس أحمد بن الغربي اللذان كانت تجمعهما أخوة وصداقة منذ الصغر لكن التنافس على منصب القضاء، خلق عداوة بينهما واحتفى كل واحد منهما بوال من الولاة يستعين به ضد خصمه.⁽²⁾

ويسبب هذه العلاقة التي كانت تربط العلماء خاصة علماء الحضر وقبولهم للرشوة والاستعانة على بعضهم بالحكام، نجد "الفكون" انتقد تضحيتهم بالعلم والأخلاق، وتزلفهم للحكام وتنافسهم لكسب رضاهم عن طريق الدسائس والفتنة والوشاية، وليس عن طريق التنافس في العلم،⁽³⁾ منها انتقاده لعائلة باشتارزي وبن نعمون اللتان تعدان من العائلات العلمية الحضرية بقسنطينة إذ يقول: «أنهم جبلوا على منابذة العلم وأهله ومعاداتهم واستهزائهم بهم، واتكالهم على شرف آبائهم، وعلى مرتبتهم، وما هم فيه من الرياسة التي شرفوا بها، وهو ما أدى بهم إلى الغرور والتكبر، إضافة إلى ما هم عليه من الحسد والبغضاء، وهتك أعراض المسلمين».⁽⁴⁾

وهذه الظواهر من التشاجر والتنافر بين العلماء لم تكن في قسنطينة فقط بل في كل الجزائر، حيث كاد العلماء يرمون بعضهم البعض بالخروج عن الدين والطعن في نسب بعضهم البعض، مثلما حدث لعبد القادر الراشدي الذي وقعت بينه وبين طلبة

(1) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 139، 141.

(2) - الفكون، المصدر السابق، ص 78، 79.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 523.

(4) - عبد الكريم الفكون، محدد السنان في نحر إخوان الدخان، مخطوط رقم 6929، الخزانة الحسنية، المغرب،

قسنطينة خصومه فاتهموه بالخروج عن الدين وبالقول بالتجسيم^(*) حتى وصل بالبعض منهم إلى تكفيره.⁽¹⁾

أما الشتم والتشهير أثناء الخصومات، فقد أخذ نصيباً من الخلافات بين العلماء حتى داخل المجلس العلمي، وخارجه حيث نجد المفتي الحنفي محمد بن علي شتم المفتي المالكي ابن النيقرو، وهذا بسبب رفض هذا الأخير أن ينوب عليه سيد محمد بن هدي في الخطابة بالجامع الكبير وأناب ابنه الصغير، ولما توسط الخزانجي لدى ابن النيقرو ترك نيابة الخطابة لابن هدي مدة شهر، وعزله رغم تدخل محمد بن ميمون قاضي بيت المال والمفتي الحنفي ابن علي الذي صار يقدر في ابن النيقرو ممّا أدى بخدام المسجد إلى إهانته.⁽²⁾

كما يشير "ابن حمادوش" كذلك أنّه كان في خلاف مع نفس المفتي الحنفي الذي غضب منه عندما رفض القيام له في بيت محمد بن ميمون بسبب تكبره وعجبه بنفسه، حيث يقول فيه: «مفتي الحنفية بالوقت بن علي المستحق المقت، فغضب إذ لم أتتصب ممثلاً بين يديه». وقد نضم قصيدة ذمه فيها لإهانته الأشراف⁽³⁾، لأنّه هو من الأعلاج. وما يؤكد ما جاء على لسان ابن حمادوش ما قاله المفتي ابن علي:

خرجت ذليلاً لا أعود لمتلها وهل يجمع السيفان وبحك غمد.
فإني من اللائي فوق الثرى ترى وأنفسنا في العرش تابعة لمجد.⁽⁴⁾
أما ابن عمار فنجدّه يرد على من وصفوه بالسفيه وطعنوا في نسبه بقوله:
وإذا نسوا فضلي فكم من فاضل قبلي سقوه السم في كيسان.
نصبوا حبائل مكرهم وتعرضوا بسهامهم للنجم في كيوان.
إذا نكروا فضلي لخبث طباعهم فالدر ليس يعز في أوطان.⁽⁵⁾

وبهذا نستنتج أنّ العلاقة بين أقطاب السلطة الروحية غالباً ما كانت تشوبها الخلافات سواء بسبب الانتقادات الموجهة إلى بعضهم البعض أو نتيجة بعض الممارسات

(*)- التجسيم، هو القول بأنّ لله جسم، وتشبيهه بالخلق أي له جسم مثل خلقه.

(1)- الورتيلاني، المصدر السابق، ص 697.

(2)- ابن المفتي، المصدر السابق، ص 111، 112. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 286.

(3)- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 256، 257.

(4)- أبو القاسم سعد الله، "أشعار ومقامات ابن حمادوش"، الثقافة، ع49، 1979م، الجزائر، ص 40.

(5)- أبو العباس أحمد بن عمار، نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا، 1903م، الجزائر، ص 43، 44.

التي لا صلة لها بالدين من طرف البعض منهم، أو بسبب التنافس على المناصب وما يطبعها من وشاية للحكام قد تصل حد القتل أحياناً أو القدح في الأعراض والأنساب، لكن هذه ليست هي العلاقة التي كانت غالبية على أقطاب السلطة الروحية حيث أننا نجد بينهم من يكن الاحترام لغيره سواء كانوا شيوخاً أو أساتذة له أو لسمعة ذلك العالم أو المرابط.

1-3- ركائز السلطة الروحية في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني:

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني العديد من المرابطين والطرق الصوفية الذين تجسدوا في عدة زوايا، والتي عادة ما يكون المؤسس هو المسؤول عنها، ويفرض نفوذه عن طريق معرفته الدينية بحسه السياسي لكن أكثر ما يفرض به نفوذه هو تلك المواهب الروحية التي تعترف بها الجماهير الساذجة المحرومة والخاضعة للظروف القاسية كالأوبئة والحروب، وهو ما أدى إلى كثرة أسر المرابطين الذين منحوا التقديس للاعتقادات والممارسات التعبدية لمؤسساتهم.⁽¹⁾

فهذا المقدس أو الزعيم الروحي كان يغذي آمال الجميع، على أنه الشفيع والوسيط المسموع الكلمة بين المتخاصمين، وهو ما أدى إلى انتشار المعتقدات الوثنية المفعمة بالشعائر والاحتفالات والممارسات اللامعقولة أو الخارقة للعادة، مما أدى إلى خلق مقاومة تقف ضد تدخل العقل.⁽²⁾

ومن هذا المنطلق كان الحرص على محبة أولياء الله الصالحين، واحترامهم والافتداء بهم والامتثال لأوامرهم والتبرك بهم وطلب شفاعتهم، و لما عرف عنهم من تقوى وصلاح ومكانة،⁽³⁾ وهذا ما جعل كذلك المرابط نفسه يسعى دائماً لإبراز شخصيته على أن لها قيمتها وعلى الآخرين احترامها وهذا عن طريق ما يسمى الولاية والبركة.

1-3-1- الولاية المتوارثة والمكتسبة:

أ- الولاية المتوارثة:

لقد اعتمد المرابطون في فرض مكانتهم وبسط نفوذهم في المجتمع انطلاقاً من نسبهم الشريف، حيث أنّ هؤلاء المرابطين الأشراف هم النبلاء الدينيون المنحدرون من سلالة النبي "ص" عن طريق فاطمة الزهراء،⁽⁴⁾ ويزعمون أنهم الخلفاء الروحيون

(1)- محمد أركون، الفكر العربي، ط2، تر. عادل العوّا، د.م.ج، الجزائر، 1982م، ص 126.

(2)- نفسه، ص 126.

(3)- منال عبد المنعم السيد جاد الله، المرجع السابق، ص 147.

(4)- Depont/coppolani, Op. Cit, p127.

والدنياويون للرسول "ص"، جدهم إدريس بن عبد الله الكمال بن محمد بن الحسين نسبة للرسول "ص" الذي انتقل إلى الساقية الحمراء جنوب المغرب بعد طرده من طرف الخليفة العباسي هارون الرشيد.⁽¹⁾

يضاف إلى هؤلاء الأشراف المنتمون إلى أشراف قريش^(*) الذين تمركزوا بالساقية الحمراء، ثم تعززوا بعدد من الهجرات من الحجاز انتهاءً إلى الأشراف الفاطميين.⁽²⁾ هؤلاء هم الأشراف بالولادة أو بالنسب حيث يتوارثون اللقب أبا عن جد وبعضهم يكتفي بانتسابه الشريف دون العمل على تثقيف نفسه،⁽³⁾ وحتى ولو كان الابن زنديقا أو جاهلا ويتعرض لسخرية الناس واحتقارهم، إلا أنه يبقى مرابطا وينتقل هذا لخلفه.⁽⁴⁾ وهناك من انتسب للمرابطين بالولاية والصلاح المزعوم، وروج للبدع والخرافات باسم الكرامات، وهذا لدوافع منفعية لها مبرراتها في مجتمع لا يتعامل بالمنطق بل بسذاجة، فاستغل هؤلاء سذاجة الناس وبساطة تفكيرهم وادعوا النسب الشريف،⁽⁵⁾ رغم سلوكهم السيئ حيث أغراهم الاحترام والتبجيل والامتيازات التي كان يتمتع بها الأشراف الحقيقيون وإقبال الناس عليهم واعتقادهم بولايتهم، رفع مكانتهم وزاد من نفوذهم وهو ما أدى بالدجالين، ومدعي الولاية إلى استغلال الوضع وتظاهروا بالزهد وأطلق عليهم دعائهم اسم المرابط،⁽⁶⁾ حتى أننا نجد منهم من هو زنجي الأصل أو تركي وآخرين من قبائلي البلد، أصبحوا صلحاء، وهم دون شجرة نسب، وحسب "دوتي" إذا أردت أن تخرج أحدهم أسأله عن نسبه فإنه يجيبك بطريقة ذكية "لا تخرج عالما"،⁽⁷⁾ وهذا الأمر كان شائعا بكثرة في الجزائر خلال العهد العثماني، خاصة بعدما دخلت الطرق الصوفية من المشرق والمغرب وجاء الدعاة الحقيقيون والأدعياء المزيفون الذين نشروا أفكارهم وأورادهم.⁽⁸⁾

(1) - Filali, L'Algérie mystique..., p21.

(*) - مثل أبي بكر الصديق الذي تتحدر منه سلالة أولاد سيدي الشيخ. - دوتي، المرجع السابق، ص 65.

(2) - Fillali, L'Algérie mytique..., p21.

(3) - عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1980، ج1، ص 439.

(4) - هانوتو-لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 84.

(5) - Rinn, Marabouts..., pp 127, 128.

(6) - عطية شطة، المرجع السابق، ص 53.

(7) - دوتي، المرجع السابق، ص 73 و 55.

(8) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 467.

وقد عمل هؤلاء الأولياء على توريث الولاية لخلفهم مثل مولاي الشقفة الذي أسس عرش بن يدر بجيجل، نجده ترك حكم العرش لأبنائه الذين احتفظوا بتأثير ونفوذ والدهم وتوارثوا هذا التأثير والنفوذ والسلطة واستمروا حتى عهد الاحتلال الفرنسي،⁽¹⁾ ونفس الشيء يقال على الكثير من الأشراف الذين توارثوا صفة المرابطية^(*) أبا عن جد اعتمادا على النسب الشريف الذي تنتقل معه البركة من أفراد الأسرة مثل أولاد سيدي الشيخ، وأولاد مقران وأولاد القاضي.

ب- الولاية المكتسبة:

إذا كانت الولاية البيولوجية شكلا من أشكال الحصول على الشرف فهناك الولاية الروحية والتي يكتسب من خلالها الشخص صفة المرابط (الشرف) عن طريق الوصية أي الوثيقة أو عن طريق لبس الخرقة بالنسبة للمريد.⁽²⁾

كما تخضع كذلك الولاية المكتسبة إلى أفعال الشخص فحسب دوتي أن تحول الفرد إلى مرابط (ولي) قد يعود إلى العلم والخصال الحميدة من السمعة الطيبة، الزهد والكرم والاستقامة ولا يحصل عليها إلا بعد وفاته.^{(3)(*)}

فكان إذا اشتهر أحد المتصوفة بهذه الأعمال أسسوا له مركزا لاستقبال الزوار والأتباع، والطلبة وتبرعوا له ليصبح اسمه "مرباط" بدل المتصوف، ويدعى مكانه بزاوية أو رباط سيدي فلان وعند وفاته يشيد له ضريح ويرث أبنائه مكانته وعمله وتزداد قداسة مكانه ونفوذه بين القبائل.⁽⁴⁾ مثل سلف آث عامر بتمازيرت (آيث إيراثن) يعود أصلهم إلى تركي أقام بواد الزيتون سنة 1638م ثم انتقل إلى مشراس (Mechtras) فبعدما درس بمعمر "عروس"، ليؤسس هو بنفسه مدرسة في إبيهلل، ولهذا فأصلهم ليس شريفا بل توارث أبنائه صفة المرابطين بعده، وحسب "هانوتو" دائما فإن آيت أوركاق وآيت سيدي علي وآيت أوقراو هم أصلا من قبائلي المنطقة، وصاروا مرابطين، ومن هؤلاء من هو من

(1) - علي خنوف، المرجع السابق، ص 50.

(*) - هذه الصفة لا تورثها المرأة لأبنائها لأن الإبن يتبع الأب.

(2) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p 93.

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 96.

(*) - وهذا عملا بقوله تعالى، «...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...» الحجرات، الآية 13. لقول الرسول "ص"، «لا فرق بين عربي ولا أعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى» رواه أحمد والطبراني.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 263.

أصول زنجية أو رومانية ولا علاقة لهم بالأشراف،⁽¹⁾ إلا أنّ أعمالهم الجليلة، هي التي جعلتهم يحظون بالاحترام والتبجيل وبعد موتهم يحصل الخلف على إرثهم بما في ذلك صفة المرابطية (الولاية) وما تحمله من مميزات كالبركة والكرامات.

وحسب "دوتي" من يريد الصلاح عليه أن يختلي في مغارة أو كوخ مهجور شرط أن يكون غريبا عن المنطقة لأنه "لا نبي في قومه"، فلما ينتشر خبر قدوم زاهد من بعيد يسارع الناس لخدمته، ثم يوظفونه للتحكيم بينهم، ومن هنا يبدأ انتشار صلاحه، فتقدم له الهدايا والزيارة وقطعة أرض، ويطلب منه مباركة منطقتهم ويتباهون به أمام القبائل.⁽²⁾

لذلك هناك من استقر بنفسه أو مع عائلته قرب قبيلة، أين يختلي بنفسه سنوات في مغارة ليقوم بعدها بتدريس الأطفال والذي ينتهي بتأسيس زاوية لتتشكل بعدها قبيلة مرابطية، وهذا استنادا للصلاح الذي أظهره مما أكسبه صفة الولي أو الصالح أو المرباط التي تقتزن بها البركة،⁽³⁾ لهذا نجد من هذه القبائل التي اقترنت بهؤلاء المرباطين قد غيرت أسماءها تبعا لاسم صالح ما، فظهرت القبائل المرباطية فأصبحوا يعرفون بأولاد سيدي فلان مثل: أولاد سيدي ابراهيم بوبكر بمجانة وأولاد سيدي أحمد الكبير بالبليدة وأولاد سيدي الهواري بوهران وأولاد سيدي عامر ببوسعادة وغيرهم، ومن القبائل ممن لم يتواجد مرابط على أراضيها، اقترنت بشريف تشابهه في الاسم مثل المخاليف بالأغواط ارتبطوا بسيدي مخلوف وغيرهم.⁽⁴⁾

ورغم أن لقب المرباط كان يشترط فيه عدة صفات إضافة إلى النسب الشريف والعلم والمعرفة والأعمال الحسنة والممارسات الروحية، إلا أنه مع مرور الوقت أصبحت البلاهة والحمق والغباء وحتى الصرع كلها صفات تقود إلى صفة المرباط أو الولي.⁽⁵⁾

1-3-2- البركة المتوارثة والمكتسبة:

البركة: «هي النماء والزيادة، والتبريك هو الدعاء بالبركة ويقال بارك الله لك وفيك وعليك»⁽⁶⁾، وتبركت بالشيء أي تيمنت به، «والبركة هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء،

(1) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 84، 85.

(2) - دوتي، المرجع السابق، ص 101، 102.

(3) - Babes (L), Op. Cit, pp03 et 12.

(4) - دوتي، المرجع السابق، ص 70، 71.

(5) - نفسه، ص 53.

(6) - ابن منظور، المصدر السابق، ج10، ص 395.

ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل من يشاهد منه زيادة غير محسوسة، هو مبارك وفيه بركة».⁽¹⁾

أما عند المتصوفة والمرابطين فهي ذات معنى آخر فهي هبة أو قوة إلهية توضع في الشخص وتنتقل من جيل لآخر⁽²⁾ «وهي ثمرة معنوية غيبية من ثمرات العمل الصالح، وهي سر إلهي وبها يحقق الله الآمال، ويدفع السوء... وبها تفتح مغالق الخير فهي لون من الرحمة والفضل الإلهي والخير الشامل، والفائدة واللفظ الخفي، وإنكارها إنكار الحقيقة الإلهية»⁽³⁾ أو «هي قوة خارقة للعادة والطبيعة، تسمح لهم بتحقيق المعجزات فهي نعمة إلهية تكون متمركزة داخل الشخص (الشرفاء)».⁽⁴⁾

وهذه الهبة قد تكون في الشخص كونه شريفا حيث يصبح الأمر كافيا للتبرك به، وقد تكون في شخص عرف عنه العلم الديني والمعرفة بالله فيلجأ إليه للاستشارة والتبرك،⁽⁵⁾ أو قد تنتقل من شخص إلى آخر من محيطه هو جدير بها من أفراد عائلته.⁽⁶⁾ قد توجد في شخص دون أن يعرف ذلك، وليست سببا حتى تعترف الجماعة بسلطته الدينية وتطيعوه وتشبعه.⁽⁷⁾

أ- البركة المتوارثة (بالولادة):

لقد فرض الشرفاء والأولياء وجودهم من خلال البركة المتوارثة التي تنتقل من الأب إلى الابن،⁽⁸⁾ والتي قد تشع حتى على العديد من الأتباع.⁽⁹⁾ فهذه البركة هي الأخرى أصبحت وراثية بعد ادعاء أبناء المرابطين وراثتهم للولاية، وأحقيتهم بها دون غيرهم، من هنا جاءت فكرة البركة المتوارثة التي تنتقل من الولي إلى ذريته، فيصبحون مرابطين يلتبس منهم البركة.⁽¹⁰⁾

(1) - مبارك الميلي، رسالة الشرك، ص 149.

(2) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p84.

(3) - من منال عبد المنعم السيد جاد الله، المرجع السابق، ص 146.

(4) - بن تونس، المرجع السابق، ص 93.

(5) - منال عبد المنعم السيد جاد الله، المرجع السابق، ص 146.

(6) - J. André, Op. Cit, p40.

(7) - منال عبد المنعم السيد جاد الله، المرجع السابق، ص 146.

(8) - J. André, Op. Cit, p40.

(9) - Daumas, Mœurs et coutumes..., p320.

(10) - عطية شطة، المرجع السابق، ص 54.

فهذا الإدعاء أدى إلى زيادة عدد المرابطين نتيجة ادعاء أبناء المرابط كل منهم أنه وارث للولاية، اعتمادا على أن البركة الإلهية تفيض على الولي وعلى ذريته فيصبحون جميعا مرابطين ذوي بركة،⁽¹⁾ كما أن ادعاء توريث البركة للفرد أو العائلة أدى إلى ظهور قوة روحية تبحث عن "الأوليغارشيا".^(*)(2)

ب- البركة المكتسبة:

إن العامل الحاسم في هذا ليس النسب الشريف، بل قيمة الأعمال المنجزة من طرف الشخص، ورغم أن الولي يحصل على البركة من الله إلا أن من ينسبها له عامة الناس حيث يقول غيلنر: «إن إرادة القبيلة معبر عنها بتمكين الشخص المختار من اكتساب الصفات التي تظهر فيما بعد على أنها علامات للاستقامة والتقوى والورع، وحفظ هذه البركة تتطلب المعرفة والأفعال الحسنة والاستقامة والتقوى والورع، وحفظ القرآن ومعرفة السيرة النبوية، فهذه المعارف وتجاريه الشخصية إذا وظفها في حل مشاكل قبيلته أو صد العدوان عليها أو إشفاء مريض يعد مرابطا له بركة، فتقصده القبائل للتبرك وتحقيق أمانهم،⁽⁴⁾ وهناك من يكتسب هذه البركة عن طريق شيخه، الذي يتركها له بعد وفاته أين تنتقل لخادمه⁽⁵⁾ أو أحد أتباعه، مثلما فعل الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الذي ترك وصية بخط يده نصب فيها الشيخ سيدي علي بن عيسى المغربي خلفا له في حالة وفاته، جاء فيها: «... أشهدكم أنني أعطيت سلطتي للشيخ سيدي علي بن عيسى المغربي، وأجعله خليفة لي، لقد أودعت فيه كل الأسرار ومنحته بركاتي لا يغض له أمر في أي شيء لأنه وجهي ولساني...»⁽⁶⁾.

وبهذا ونتيجة لهذه الهبة الربانية التي يحصل عليها المرابط وخلفه نجد الناس يتبركون بالأولياء وشيوخ الزوايا في جميع أمورهم تيمنا بهم، وحتى ذكر اسم أحد منهم يقولون "تفعنا الله ببركته"، وهذا ما يفسر لنا المكانة الاجتماعية التي يحتلها هؤلاء

(1) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 24.

(*) - هي الأقلية التي تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية أو السياسية.

(2) - بن تونس، المرجع السابق، ص 93.

(3) - إرنست غيلنر، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البرادي المغربية، تر. عبد اللطيف الفلق، ط2، توبقال للنشر،

الدر البيضاء، المغرب، 2007م، ص 51.

(4) - نقروش، المرجع السابق، ص 116.

(5) - Alain Mahé, Op. Cit, p108.

(6) - Rinn, Marabouts..., p455. - Delpech, Un diplôme..., p421.

المرابطون والأولياء، الذين يكرمون في حياتهم وبعد مماتهم، حيث يقام لهم ضريح يُتخذ مكانا تستمد منه البركة التي تجعله يتمتع بكرامات كالشفاء على يديه، ومساعدة الناس في كل المجالات الدينية والدنيوية، الروحية والمادية.⁽¹⁾

والملاحظ أن المجتمع المغاربي عامة والجزائري خاصة عرف البركة والولاية بنوعيهما المتوارث والمكتسب إلا أنه مجتمعٌ يميل أكثر إلى قضية النسب أكثر من قضية الأفعال.⁽²⁾

1-3-3- المعتقدات الشعبية في السلطة الروحية في الجزائر:

مثلَّ العهد العثماني خاصة نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م أكثر الفترات انتشارا للاعتقادات الشعبية الساذجة، والاحترام والولاء الراسخ للأولياء، باعتبارهم يمثلون الدين، وكذلك كونهم هم مؤسسي الزوايا والطرق الصوفية، والأسر المرابطية،⁽³⁾ فمال الناس إلى تمجيد الأولياء، لأنه في اعتقادهم أن قدرتهم مستمدة من القوة الإلهية، ويشير "حمدان خوجة" إلى هذا الإيمان الراسخ لدى القبائل حول المرابطين وسطوتهم الخارقة للعادة التي أثرت بأفكار البربر الضيقة، التي تؤمن بأن الله هو من يسوق ويرشد هؤلاء المرابطين ويأمرهم.⁽⁴⁾

فكانت جل الشرائح الاجتماعية تؤمن بمعجزات وكرامات وبركة المرابطين والأولياء، وظهر هذا في سلوكياتهم: كالدعاء والاستتجاد بهم في الأوقات الصعبة أو الاستبشار والتبرك بهم في الزواج والختان والخطوبة، وعند الإقدام على أي عمل، وطلب الشفاء من المرض وغيرها، وهذا الاعتقاد في الأولياء من امتلاكهم للخوارق والقيام بدور الوسيط بين الناس والله، جعل الناس يصفون عليهم عدة صفات "كحبيب الله" و"ولي الله"...⁽⁵⁾ مما أدى بهم إلى تقديم الهدايا للزوايا والأضرحة، وما يرافقها من طقوس للذكر والصلاة والرقص والمدائح،⁽⁶⁾ وكل هذا راجع إلى بساطة تفكير وجهل الناس، الذين كانوا يؤمنون بهذه المعتقدات اللاعقلانية، وعلى دهاء المرابطين الذين يلجؤون إلى هذه الممارسات

(1) - نقروش، المرجع السابق، ص 71، 72.

(2) - منال عبد المنعم السيد جاد الله، المرجع السابق، ص 147.

(3) - Saidouni, Op, Cit, p294.

(4) - حمدان، المرأة، ص 58.

(5) - Saidouni, Op, Cit, p298.

(6) - Bel, la religion musulmane en barbarie de XII au XX siècle, librairie To1, orientale, Paris, 1938, p399.

لترسيخ وجودهم ونفوذهم،⁽¹⁾ اعتمادا على اعتقاد العامة والخاصة بكراماتهم وقدراتهم على إدراك الغيب وكشف ما في الضمائر والقدرة على الحضور والغياب، وتحكّم خيارهم في أحوال الطبيعة.⁽²⁾

وقد انجرف وراء هذه الاعتقادات العامة، كما انجرف الخاصة من العلماء أنفسهم، واعتقدوا في قدرات الأولياء،⁽³⁾ منهم "الورثياني" الذي يقول: «إن الوقوف عند أبواب الأولياء، والسؤال منهم والاحتياج لهم، والنظر في وجوههم أو مشاهدة قبورهم والتضرع لله بين أيديهم... والذل والمسكنة عندهم لقدر جليل عند الله». ⁽⁴⁾

ومنهم من قال: «إذا غلت أسعاركم، وقلت أمطاركم، وضعفت ثماركم وتكرت قلوبكم وعميت عن الرشد مسامعكم، وكثرت النميمة والغيبة في خياركم، وجارت عليكم ملوككم فالتجئوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمنكم الله بما تخافون...». ⁽⁵⁾

لهذا نجد ظاهرة لجوء الناس إلى الشيخ أو الولي أو العارف بالله (حيا أو ميتا) لاعتقادهم في كراماته واعترافا ببركاته،⁽⁶⁾ في تذليل الصعاب وإصلاح الأضرار من (مرض، وضياح،...) أو سد الحوائج من (جوع، وقلة رزق، وديون...)،⁽⁷⁾ فالولي كان المرجع الأساسي لكل محتاج ومريض وجائع ومن يريد تحقيق دعاء أو أمنية ونيل بركة وتيسير علم.⁽⁸⁾

فهؤلاء الأولياء الذين عرفوا في حياتهم بالتقوى والكرم والحكمة والكرامات، كانوا ملجأ ومقصدا للناس لحل مشاكلهم الدنيوية والدينية، وبعد مماتهم أصبحت قبورهم مزارا للتبرك اعتقادا منهم أن جسد المرابط هو الذي يموت أما روحه فتظل تحوم لحماية الناس ومساعدتهم، لذلك شجعت عائلة ذلك المرابط الأمر عن طريق حث الناس لزيارته أو

⁽¹⁾ - Saidouni, Op, Cit, p298.

⁽²⁾ - خالد زيادة، الكاتب والسلطان، ص 90.

⁽³⁾ - نفسه، ص 92.

⁽⁴⁾ - الورثياني، المصدر السابق، ص 113.

⁽⁵⁾ - نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لأفريقية في العهد الحفصي، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2001، ص 305.

⁽⁶⁾ - صالح عبد المحسن، الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، مطابع الرسالة، الكويت، 1971م، ص 77.

⁽⁷⁾ - نورة عقاق، بنية النص في جامع كرامات الأولياء، ماجستير قسم اللغة والأدب العربي، تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص 117.

⁽⁸⁾ - نفسه، ص 132.

إحياء احتفالات سنوية داخل زاويته أو قريته،⁽¹⁾ فالزيارة نحو أضرحة الأولياء نشأت وظهرت بشكل ملفت للنظر في القرن 10هـ/16م وهي حسب "دوتي" استمرار لمعتقدات البربر السابقة وميلهم إلى تقديس السحرة.⁽²⁾

أ- الاعتقاد في بركة الأولياء وطرق الحصول عليها:

لقد كان ينظر للولي على أنه كائن سواء كان حيا أو ميتا، له قدرات خارقة يستمدّها من البركة الإلهية، أي أنه كائن يفوق كل الكائنات، بفضل هذه البركة التي كانت تفعل المعجزات في كل مكان،⁽³⁾ وهذا من أجل كسب ثقة السكان السذج بسبب الجهل المنتشر في صفوفهم وسبب غربتهم في الغالب عن اللغة العربية،⁽⁴⁾ التي تسمح لهم بتعلم القرآن وتدبر معانيه.

وحسب الاعتقاد الشائع فإنه وبفضل هذه البركة التي يتمتع بها الأولياء، سواء كانوا أحياء أو أمواتا تتحقق أمنيات ومطالب الناس من دعاء وشفاء من الأمراض وغيرها من الاعتقادات حول قدرة الولي على المدد أو المنح والعطاء والمساعدة التي يقدمها للمحتاج بفضل بركة مقامه.⁽⁵⁾ ولهذا يشير "الصباغ" أن كل من دخل قبة سيدي أحمد بن يوسف الملياني سواء كان عليلا شفي أو مريضا بريء أو خائفا أمن أو ملهوبا أغيث، وكل مكره إلا فرج كربه ببركة الولي.⁽⁶⁾ ومن طرق الحصول على بركة الأولياء:

❖ زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء: تعد زيارة الأضرحة من طرق الحصول على

بركة الولي، وأخذ كمية من التراب المحيط بالضريح، لكونه مقدس ومبارك،⁽⁷⁾ وتتم زيارة الضريح بعد موسم الحصاد وبداية موسم الزرع للتبرك، وفي المناسبات كالزواج والولادة لطلب بركة الولي من أجل حماية الزوجين والرضيع وأمه من العين ومن القوى الخفية. حيث يقومون بوضع الهدايا على الضريح والدوران حوله سبع مرات من اليمين إلى اليسار ثم الدوران سبع مرات من اليسار إلى اليمين وإشعال

(1) - بن تونس، المرجع السابق، ص 95.

(2) - دوتي، المرجع السابق، ص 25، 26.

(3) - نفسه، ص 36.

(4) - محمد أركون، الفكر الإسلامي، ص 155.

(5) - نورة عقاق، المرجع السابق، ص 116.

(6) - الصباغ، المصدر السابق، ورقة 32 (1).

(7) - فلة موساوي القشاعي، الصحة والسكان ...، ص 203.

الشموع، وتقديم الوعدة التي توضع على الضريح أو تقدم للشخص القائم عليه، ويطلبون منه مباركة أملاكهم وأولادهم وصحتهم، وتحقيق مطالبهم من شفاء أو زواج أو إنجاب، ووفرة محصول وإذا وفقوا في طلبهم قدموا له هدايا في المرة المقبلة.⁽¹⁾

لكن زيارة هؤلاء الأولياء والتبرك لم تكن مقتصرة على الناس السذج أو ذوي الثقافة المحدودة، بل حتى العلماء والمتصوفة يهتمون بزيارة قبور وأضرحة أسلافهم من المشايخ لا اعتقادهم في نيل البركة من الزيارة، وحتى في كتاباتهم نجدهم كلما ذكروا ولياً إلا وقالوا: "نفعا الله ببركته" ولنا في رحلة الورثيلاني خير دليل على ذلك، فلا نجده زار مدينة إلا وتبرك بأوليائها، وحتى العلماء من المشرق والمغرب ممن يقصد الجزائر كانوا يزورون الأضرحة-خاصة المشهورة منها-للتبرك، مثل "التمغروطي" الذي يذكر أنه زار عدة أضرحة لما دخل مدينة الجزائر في طريق عودته من اسطنبول نهاية القرن 16م حيث يقول: «وتبركنا بهم رحمهم الله، ونفعا بهم».⁽²⁾

ومن الأضرحة التي كان يزوره كل من يدخل مدينة الجزائر ضريح عبد الرحمن الثعالبي الذي كان مزارا لكل زائر للمدينة مثل المكناسي الذي قال: «واقمنا بظاهرها (مدينة الجزائر) يومين وزرنا تربة الأستاذ البركة سيدي عبد الرحمن... وتبركنا بتبرته المباركة، ودعونا الله هناك بما نرجو القبول».⁽³⁾ كما يشير في موضع آخر أنه زار ضريح أبي مدين شعيب: «وزرنا تربة الولي الصالح المستصرخ به جميع الأقطار القطب سيدي أبي مدين الغوث نفعا الله ببركاته».⁽⁴⁾ وهو الولي الذي كان يقصده كل من دخل لتلمسان للتبرك به، فالعبدري (ت720هـ/1320م) الذي زار تلمسان أواخر القرن 13م يذكر أنه تبرك بجملة من الأولياء منهم سيدي أبي مدين.⁽⁵⁾

(1) - بن تونس، المرجع السابق، ص 81.

(2) - التمرغوطي، المصدر السابق، ص 90.

(3) - محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي، تح. محمد بوكبوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2003م، ص 330.

(4) - نفسه، ص 331.

(5) - محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تق. سعيد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص 212.

وتعد زيارة الأولياء وطلب بركتهم وتقديم الصدقة لهم بغض النظر عن نوعها وقيمتها، كان شائعا في المجتمع المغربي ككل، وهي ظاهرة منتشرة بكثرة خاصة عند المعتقدين في بركة الأولياء،⁽¹⁾ الذين عمد بعضهم إلى حد تحبيس أملاكه على الأولياء، طلبا لبركتهم كسيدي عبد الرحمن الثعالبي، سيدي يعقوب، سيدي أحمد الزواوي بمدينة الجزائر، حيث أننا نجد في كل الوثائق المحبسة على الأضرحة نجد فيها: "نفعا الله ببركاته" أو "نفعا الله ببركاته وبركات أمثاله" منها وقفية الفقيه أحمد البرادعي الذي أوقف جلسة حانوت على ضريح الثعالبي جاء فيها: «....أشهد الآن السيد الحاج أحمد البرادعي المغفور لجريان العمل بذلك على ضريح الولي الصالح القطب ... سيدي عبد الرحمن الثعالبي نفعا الله ببركاته...».⁽²⁾

❖ طرق أخرى للحصول على بركة الولي: لقد تعددت أوجه الحصول على البركة من الولي حيا أو ميتا، منها الالتزام بقواعد السلوك المقررة اجتماعيا ابتغاء مرضاة هؤلاء الأولياء أو خشية منهم،⁽³⁾ خاصة إذا كان هؤلاء المرابطون هم من وضع هذه القواعد أو حضر الاتفاق والإجماع عليها، وفمنهم من كان يأكل من الصحن الذي أكل منه الولي اعتقادا في أن بركته تنتقل إلى الطعام الذي أكل منه،⁽⁴⁾ من ذلك ما ذكره الصباغ عن كرامات سيدي أحمد بن يوسف الملياني، أنه نزل مرة ضيفا مع جماعة على أحدهم بوهرا ن لهم فحضر هذا الأخير ما يفيهم، لكن في الطريق انضمت إليهم جماعة أخرى، فلما رآهم المضيف احتار كيف يفعل، فطلب منه الملياني أن يقدم ما حضره فقط، وقام هو بتذوق كل نوع من الطعام والدعاء عليه، وقدمه لذلك الجمع وكفاه.⁽⁵⁾ كما أنه في يوم قصده المرابط الفقيه محمد القلعي مع وفد من 25 رجلا أضر بهم الجوع فقدم لهم الشيخ قصعة بها أكل لا يكفي إلا

(1) - نفسه، ص 149.

(2) - س.م.ش، علة 132، 133، وثيقة 05.

(3) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 152.

(4) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص 88.

(5) - الصباغ، المصدر السابق، ص 19، 20. - محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د.م.ج،

بن عكنون، الجزائر، 1964، ص 94.

لاثنين لكنها كفت الوفد كاملا وهذا كرامة وبركة من الولي،⁽¹⁾ لأن الشيخ دعى في الصحن فحلت البركة في الأكل.

وللحصول على بركة الولي كان الناس يسمون أبناءهم على أسماء الأولياء مثل سكان تلمسان الذين يطلقون اسم بومدين على أبنائهم تبركا بوليها الشهير سيدي بومدين،⁽²⁾ ونفس الشيء عن سكان وهران الذين يتبركون باسم وليها سيدي الهواري.

كما أن الاحتكاك بالمقام والضريح من حيطان وخشب، وتقبيل الزرابي الموجودة داخله وإشعال الشموع والجاوي والبخور، تعد إحدى طرق الحصول على بركة الولي، وحتى عن طريق الدفن قرب ضريح أو مقام الولي.⁽³⁾ وهذا نظرا للأهمية التي يمتاز بها هؤلاء الأولياء في حياتهم وبعد مماتهم، لذا كان الناس يفضلون الدفن قرب أضرحة الأولياء، لاعتقادهم أنهم يشاركون الولي قداسته وبركته،⁽⁴⁾ لذا نجد منهم من كان يسعى لشراء قبر قرب ضريح ولي كضريح عمار التنسي،⁽⁵⁾ وزاوية الأشراف التي كانت تتبع المقابر لمن يريد الدفن داخلها من غير الأشراف،⁽⁶⁾ وهذا لم يكن مقتصرًا على العامة بل حتى على الخاصة من العلماء والحكام مثل المفتي المالكي أحمد الزروق بن عمار الذي دفن قرب ضريح الولي سيدي أحمد بن عبد الله وسيدي عبد الرحمن الثعالبي،⁽⁷⁾ والحاج أحمد باشا (قتل 1109هـ/1697م) دفن يمين سيدي عبد الرحمن الثعالبي⁽⁸⁾ وإبراهيم باشا (توفي 1122هـ/1720م) دفن قرب سيدي الكتاني وسيدي يعقوب.⁽⁹⁾

فالاعتقاد في بركة الولي وما يمكن أن تفعله في حياتهم جعل الناس يسعون للحصول عليها بشتى الطرق، حيث كانوا يضعون في الضريح أدوات خاصة بالحرث، أو الصوف أو الحلفاء لمدة معينة حتى تعمها بركة الولي، وتصبح مقدسة بعدها يأخذونها

(1) - الصباغ، نفسه، ص 32 (1).

(2) - دوتي، المرجع السابق، ص 85.

(3) - القشاعي، الصحة والسكان، ص 203.

(4) - هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ترجمة ابو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1973، ص 42.

(5) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص 93.

(6) - Devoulx, les édifices..., p163.

(7) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 58.

(8) - نفسه، ص 60.

(9) - نفسه، ص 96.

لتكون البركة مرافقة لها دائماً،⁽¹⁾ فمثلاً سكان جبل شنوة بتييازة، كانوا يضعون في الربيع محصول التين قرب الضريح محصول السنتين طوال الليل ليأكلوها بعد ذلك مع أسرهم، أما في الخريف عند جني الحبوب يضع كل فلاح مقدارا من الحبوب حسب ثروته وكرمه عند الضريح وفي الغد يخلط الكل ويتقاسمونه، وهذا طلبا لبركة الولي لمحصلهم.⁽²⁾

ب- الدعاء المستجاب وقضاء الحاجات:

كان الولي في نظر الناس هو الشخص المقدس والوسيط، مما جعله يحظى بتقدير وتبجيل، ومهابة، كما أن قربه من الله جعله صاحب كرامة وبركة لها تأثيرها على قوى الشر بفضل دعائهم مستجاب.

فاستجابة الدعاء كانت عند المتصوفة تعد علامة من علامات الولاية، لذلك اعتبر الدعاء أحد مقومات السيطرة والنفوذ أو الكاريزما التي اكتسبها الأولياء، حيث تحول الدعاء إلى سلاح بيد المرابطين والأولياء نتيجة اعتقاد الناس باستجابة دعائهم،⁽³⁾ لهذا يقول "حمدان خوجة" أن المرابطين دعاؤهم مقبول فعلى سخط أو بركة الولي (المرابط) تتوقف سعادة القبائل لذلك قدموا له القرابين حتى تتحقق أمانيتهم.⁽⁴⁾ لذلك كان الناس يقصدون هؤلاء الأولياء من أجل الدعاء، مثل زاوية سيدي الشيخ التي كانت تقصدها القبائل البعيدة من أجل أن يحصلوا على دعاء الشيخ لهم، بإنزال المطر أو للحصول الوفير أو الدعاء للمواليد الجدد وللمرأة العاقرة، وحتى الدعاء لهم لحماية مواشيهم وقطعانهم وإبعاد الأمراض.⁽⁵⁾

ومن أمثلة اعتقاد الناس في استجابة دعاء الأولياء، ما يذكره "الصباغ" أن الله استجاب لدعوة الملياني بسقوط بني زيان الذين أحدثوا ظلما كبيرا ضد السكان بوهران فدعى عليهم الشيخ بقوله: «شوشونا شوشهم الله من البر والبحر» فلم يكن إلا وقت قصير حتى أخذ الاسبان المرسى الكبير ثم وهران.⁽⁶⁾ وكذلك اعتقاد الناس أن مقتل عروج كان استجابة لدعاء الشيخ أحمد بن ملوكة، بحيث لما دخل تلمسان وأساء لأهلها اشتكوه إلى الشيخ الذي انتفض ثم ضرب الأرض بيده وقال: «والله لا يرجع تلمسان أبدا اعتمادا

(1) - القشاعي، الصحة والسكان، ص 202.

(2) - Saidouni, Op, Cit, p296.

(3) - نللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص 293.

(4) - حمدان، المرأة، ص 57.

(5) - Daumas, Mœurs et coutumes....., p212.

(6) - الصباغ، المصدر السابق، ص 11(2).

على الله» فكان كما قال، حيث مات عروج ولم يعد إليها.⁽¹⁾ ومن أشهر الاعتقادات الشائعة حول قبول دعاء الأولياء أثناء حملة شارلكان على مدينة الجزائر اجتمع عدة أولياء مثل الولي دادة، وبوقدور وأبي التقى يتضرعون بالدعاء إلى الله فنثرت زوبعة حطمت الأسطول الاسباني.⁽²⁾

لم يقتصر استجابة دعاء الأولياء وهم أحياء، بل حتى وهم أموات كان الناس يقصدون أضرحتهم للدعاء قريبا منها أن دعاءهم سيكون مستجابا، وهذا الاعتقاد كان سائدا وشائعا عند كل الأضرحة دون استثناء، أين يقوم الناس بالصلوات والدعاء بها تقربا إلى الله أن يشفيهم من الأمراض،⁽³⁾ ويقضي حاجاتهم العائلية والاقتصادية. منها زيارتهم لضريح بوقبرين، وتقديم الصدقات من نفود وخبز للفقراء، وتقديم القرابين حتى تتحقق أمانيتهم،⁽⁴⁾ خاصة من طرف النساء اللواتي كن يقصدن هذه الأضرحة للدعاء، إذا كانت عاقرا أو عانسا أو تتعرض للمضايقات والمشاكل، فتتوسل عند الزاوية أو الضريح لحل مشاكلها،⁽⁵⁾ وزيارة ضريح سيدي فليح بمدينة الجزائر الذي كانت تزوره البنات للدعاء وطلب الزواج عنده.⁽⁶⁾

ج- الاعتقاد في الإشفاء (العلاج):

كان الاعتقاد في قدرة المرابطين في علاج الأمراض شائعا جدا، حتى وهم أموات، لأنه من المعروف أن الولي بعد وفاته تكثر الأساطير حول كراماته وبركته التي تبقى متواصلة حتى بعد وفاته.

لذلك نجد الناس يلجؤون إليهم بهدف الشفاء، ويعلقون التمام سواء من القرآن أو الطلاس داخل أحجية جلدية مغطاة بالنحاس لحمايتها من التلف والمصنوعة من طرف المرابطين من أجل تيسير زواج أو الاستشفاء،⁽⁷⁾ أو استعمال خلطات مقدمة من طرف الشيخ (المرابط) أو أن يمسح بيده على رأس المريض،⁽⁸⁾ مع الدعاء أو بدونه، كنوع من

(1) - أبوراس، عجائب...، ص 81. - محمد ابن عسكر، دوحة، ص 135. - الأفراني، المصدر السابق، ص 17، 18.

(2) - سعد الله، على خطي، ص 199.

(3) - Saidouni, Op, Cit, p360.

(4) - حمدان، المرأة، ص 58.

(5) - بن تونس، المرجع السابق....، ص 97.

(6) - Dermenghem, Le culte..., p125.

(7) - Saidouni, Op, Cit, p326.

(8) - G. André (P.J), Op, Cit, p193.

الطقوس ذات الوظيفة الاستشفائية المعروفة بالمغرب الإسلامي منذ القرن 6هـ/10م،⁽¹⁾ مثل المرباط أحمد "تكروه"^(*) بمعسكر (ق16م) كان يعتقد في إبرائه للمرضى بمجرد اللمس أو التحدث مع المريض.⁽²⁾

ولم يكن الاعتقاد في قدرة المرباطين على العلاج في حياتهم بل حتى بعد وفاتهم، حيث تقصد أضرحتهم وزواياهم قصد العلاج، لاعتقاد الناس أن زيارتها يعد سبيلا للشفاء، لذلك اختص كل ضريح أو زاوية في إشفاء مرض معين كالحمى والشقيقة، أو للعلاج النفسي من أجل الحصول على الراحة والهدوء، وإبعاد العين والحسد، ونيل البركة وطلب العون والحماية والأمن وتقديم القرابين لإخراج الجن من المريض.⁽³⁾

لهذا السبب نجد عند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويقدمون الهدايا والذبائح، والوعدة وإشعال الشموع والبخور،⁽⁴⁾ أو استعمال تربة الضريح بنية الشفاء، لاعتقادهم في بركتها ونفعها عن طريق وضعها على الجروح أو بلعها مع الماء أو التبرك بمياه العيون الموجودة بالضريح،⁽⁵⁾ وحتى الأشجار التي تنمو قرب الضريح يعتقد في بركتها، مثال ذلك شجرة الخروب قرب ضريح الثعالبي بمدينة الجزائر يعتقد في شفاؤها للحمى،⁽⁶⁾ وزاوية سيدي علي الزاوي، هي الأخرى كان يعتقد أن ماءها يذهب الحمى ويحفظ العلاقات الزوجية، ويبري العقم،⁽⁷⁾ كما كان سكان تلمسان يشربون من ماء (عين ونزوتة) قرب مكان يدعى "سبع أولياء" لأنه في اعتقادهم أنها مباركة وتشفى العديد من الأمراض، كما يخلطون ماءها مع الزيت ويدهنون أجسامهم به بغية إدخال البركة لأجسادهم.⁽⁸⁾ وهذا اعتمادا على أن بركة المرباط التابعة له قد عمت كل شيء محيط بالزاوية أو الضريح، لهذا كان هذا الاعتقاد شائعا خاصة لدى النسوة اللواتي لا ينجبن.

(1) - نللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص 343، 340.

(*) - لأن والده أنكره ورماه في الغابة للحيوانات الضارية بسبب أنه ولد "أعرجا".

-Joly (A), "Saints de L'islam", in **R.A**, N52, 1908, p179.

(2) - Ibid, p179.

(3) - Ben choaib, Op, Cit, pp250, 252.

(4) - Dermenghem, Le culte..., pp121, 123.

(5) - الفشاعي، الصحة والسكان، ص 204 وما بعدها.

(6) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص85.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 270. - Haedo, Topographie..., p105 (marge).

(8) - الفشاعي، الصحة والسكان، ص 208.

كما كان كل ولي وضريح مختص في علاج مرض معين، فنجد سيدي يعقوب لعلاج مرض العيون عن طريق أكل ورق شجر زيتون موجودة على الضريح، ونجد كذلك سيدي بوراس لعلاج الشقيقة، وسيدي القصبي لعلاج الحمى، حيث على المريض زيارة الضريح ثلاثة أيام متتالية، وجمع ما سقط على الضريح من أوراق يحرقها ويستنشقها فيشفى من الحمى، وسيدي الداودي بن منصور لعلاج العقم، أما لعلاج الإصابة بالأرواح الشريرة والجنون فيقصد سيدي كانون حيث تقدم عند ضريحه ذبيحة (النشرة)، والطالب هو من يحدد لونها لأن لكل جني لون خاص به،⁽¹⁾ وعندما ترتوي هذه الأرواح (الجن) أو القوى الخفية من دم الذبيحة (القربان) تبتعد عن المريض بعد ذلك، وفي حالة لم يشف المريض يرجع الأمر إلى سوء نيته وليس لأن المرباط أو الولي فشل في شفائه،⁽²⁾ أو أن يقصد المريض ضريح سيدي الطيار بمدينة الجزائر الذي يشفي الحمى والمس، ويببت فيه ويغتسل بمائه بغية إخراج الجن منه.⁽³⁾ ولعلاج الجنون لم يكن يكتفي بزيارة واحدة فقط للضريح، وأحيانا ومن أجل إخراج الجن تستعمل للعلاج الحضرة والرقص، حتى يسقط المريض مغشيا عليه.⁽⁴⁾

إن الاعتقاد في القدرة على العلاج لم يقتصر على المرباطين أو أضرحتهم وزواياهم بل حتى كل من كان يعتقد فيه الصلاح كالأشجار والحيوان، كانت أيضا تقصد للتبرك وطلب الشفاء أو إبعاد الأمراض وتقدم لها القربان، عين "سبع عيون" أو "عيون الجن"،^(*) التي كانت تقدم لها القربان كل يوم أربعاء من الأسبوع على شكل دجاج بنية إبعاد الأرواح الخفية،⁽⁵⁾ أما بقسنطينة فقد وجدت عين فيها سلاحف، تعتقد النساء أنها شياطين، وإذا أصيبت إحداهن اعتقدت أن السلاحف هي السبب فتذبح دجاجة بيضاء وتضعها عند العين بريشها في إناء حوله الشموع بنية الشفاء، لكن حسب "الوزان" كم من الظرفاء "تبعوا المرأة وهي تتوجه إلى العين بالدجاجة فأخذوها بعد انصرافها وأكلوها."⁽⁶⁾

(1) - Ben choaib, Op, Cit, pp252, 253.

(2) - Ibid, p255.

(3) - Dermenghem, le culte...p125.

(4) - Haedo, topographie..., p135.

(*) - وهي عادة جلبها عبيد السودان الذين كانوا يخشون جن سبع العيون الكبير المعروف ببابا موسى أوباهان.

Saidouni, Op. Cit, p325.

(5) - Trumelet, L'Algérie légendaire..., p360.

- دوتي، المرجع السابق، ص 111.

(6) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 59.

فكل هذه الاعتقادات كانت مبنية على قدرة المرابط على المنح والعطاء سواء كان حيا أو ميتا.

د- الاعتقادات الشعبية في كرامات أقطاب السلطة الروحية:

رغم أن أكثر الصوفية يقولون بجواز إظهار الكرامات لأنها عون للولي على طاعته ومقوية ليقينه، ودلالة على صدق دعواه،⁽¹⁾ إلا أنه أثير جدل واسع حول جواز التصديق بها، خاصة بعدما كثر تداولها، وتوسع تأثيرها إلى أن شاع الاعتقاد كثيرا في كرامات الشيوخ والمرابطين، حتى عند بعض الذين عرفوا بالعلم^(*) واجتهدوا في نشره، فنجد في مؤلفاتهم ذكر الكثير من كرامات هؤلاء الأولياء.

إن مسألة الإيمان بالكرامات والخوارق جعلت الناس ينبهرون بهؤلاء الأولياء، مما دفعهم إلى الاعتقاد أنهم دائما بحاجة إلى بركاتهم وعنايتهم ليصبح الأولياء أبطالاً غير عاديين، وتتسبب إليهم من الصفات والأفعال الشيء الكثير والغريب في نفس الوقت، فالمجتمع لعب دورا كبيرا في نشر هذه الكرامات، وهذا بإضافته ميزة عجيبة على الولي، كالتكلم من قبره أو أذيته من يحاول سرقة ضريحه،⁽²⁾ وغيرها من الكرامات التي نسبت للأولياء حتى وهم أموات، كما تناقل الناس الكثير من القصص حول كرامات الأولياء فمنهم من أضعاف جملا فنادى على الولي ونذر له نذرا فوجد جملة حالا، ومن ظلمه أحد نادى جده الولي فانتقم له من ظالمه، ومن ظل طريقه استتجد بأحد الأولياء حضر الولي في صورة رجل ودله على الطريق، ومن طلب الشفاء من مرض شفي ودعى برجوع غائب عاد.⁽³⁾

فهذه الكرامات وإن اختلف أصحابها وأفعالها، فهي تدور حول محور واحد هو تقديس الذات وتأکید السلطة باستظهار الأولياء لقدراتهم، والحديث عنها يزيد من إعلاء مكانتهم بين مريديهم.⁽⁴⁾ وقد ازداد الحديث والاعتقاد حول هذه الكرامات، خاصة في عصر تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية وتفشي الأوبئة والمجاعات،⁽⁵⁾ لتأخذ بذلك

(1) - القشيري، المصدر السابق، ص 437. - ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 86.

(*) - كابن مريم، الصباغ، الفكون، الورثيلاني، البوني.

(2) - نورة عقاق، المرجع السابق، ص 131.

(3) - حليم بركات، المرجع السابق، ص 268.

(4) - نورة عقاق، المرجع السابق، ص 108.

(5) - نفس المرجع، ص 132.

الكرامات بعدا خطيرا، حيث زادت من قداسة الشيخ أو الولي، خاصة بعد وفاته أين تنتسج حوله الأساطير، مثلا سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي ظهرت عليه كرامات وضاع صيته، فكثر أتباعه الذين أفرطوا في محبته والاعتقاد في كراماته حتى نسبته بعضهم إلى النبوة مثلما فعلت طائفة اليوسفية،⁽¹⁾ أو مثل عبد القادر بن محمد السماحي (بوسماحة) المعروف "بالشيخ" الذي وصل بالناس إلى الاعتقاد في كراماته إلى حد كادوا يدعونه "إله".⁽²⁾ ومن الكرامات التي نسجت ونسبت للأولياء قدرتهم على التنبؤ بالمستقبل، وإلحاق الأذى (اللعنة) لكل من يتناول عليهم أو على ممتلكاتهم والإتيان بالخوارق، وقدرتهم على حماية المدينة والناس سواء كانوا أحياء أو أمواتا، لأنه في نظر المتصوفة أن: الجسد سجن الروح وبعد الموت تسري الروح في العوالم تتفقد الأهل والخلان وتساعدتهم إذا احتاجوا المساعدة، وهذا يعني أن الولي لا يمنعه موته من الحضور إلى الدنيا والعطاء فيها،⁽³⁾ وهو الأمر الذي سمح بانتشار معتقد الكرامة بعد وفاة الولي. ومن الأمور التي يعتقد أنها جرت على يد هؤلاء الأولياء وعدت من الكرامات التي حباها الله بها:

❖ **معرفة الغيب والتنبؤ:** كان الأولياء والمرابطين في نظر الناس أنهم أصحاب كرامات ومكاشفات، حيث شاع الاعتقاد في قدرتهم على معرفة الغيب أو ما يسمى "بالمكاشفة" والتي تعني أن الولي بإمكانه الاطلاع على الأسرار الإلهية أو على ما هو مستور.⁽⁴⁾

وبالتالي فالولي يمكنه معرفة ما يحدث مستقبلا وما يدور حوله من أفعال وحتى ما يجول في خواطر الناس، والتنبؤ بحادثة اجتماعية أو سياسية، وهذه الميزة تعتبر ملكة من ملكات الأولياء.⁽⁵⁾ من ذلك ما أورده الصباغ حول الولي سيدي أحمد بن يوسف الملياني عندما أطلق سراحه أبو حمو، وطلب منه الخروج من تلمسان، فرد عليه "لا أخرج حتى

(1) - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 125. - الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص 99.

(2) - أبوراس الناصري، فتح الاله...، ص 47.

(3) - نورة عقاق، نفس المرجع، ص 131.

(4) - سعاد الحكيم، المرجع السابق، ص 264، 265.

(5) - نورة عقاق، المرجع السابق، ص 64 و 106.

نخرج منها جميعاً"، وفعلاً هرب أبو حمو إلى وهران لما دخلها أخوه المسعود، أما الشيخ فغادرها فيما بعد.⁽¹⁾

أما سيدي محمد بن أحمد الشريف الزهار أحد تلامذة الملياني فقد تنبأ باحتلال تلمسان وبجاية، فكان يدخل المسجد، ويقول أدنسه قبل أن يدنسه الكفار، وأيضا يقول للناس "التواتي ما يواتي"⁽²⁾ ويقصد به مرابط بجاية محمد التواتي، أما صاحب البستان فيذكر أن الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي (10هـ/16م) قد تنبأ بفشل حملة الحسن بن خير الدين، وعلى الرغم من خلافه مع السلطة العثمانية إلا أنه طلب من الحسن بن خير الدين الرجوع عن مهاجمة فاس بقوله: «أقعد عن الحركة إلى فاس مالك بها من حاجة، ولا... يحصل لك شيء منها»، لكن الباشا لم يمتثل لقول الشيخ وسار نحوها لكنه عاد منها خائبا دون تحقيق نتيجة مثلما قال له الشيخ.⁽³⁾

في حين أن ولي البليدة سيدي محمد بورقعة، فقد تنبأ بخروج الأتراك من الجزائر وحذرهم من ذلك: «أيها الأتراك إني أحذركم أن مدينة الجزائر قريبا سيحكمها المسيحيون» وقبل الاحتلال بسنوات كان يحمل معولا، ويخط في الأرض أخاديد، وإذا سئل أجاب أنه يرسم للمسلمين الطريق التي ستسلكها المدافع الفرنسية عند احتلال مدينة الجزائر،⁽⁴⁾ وهو نفس الأمر الذي أشار إليه المرابط الزيوشي (ق18) الذي تنبأ بالاحتلال الفرنسي.⁽⁵⁾

فهذه النبؤات رغم أنها منافية لما جاء في الدين، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، إلا أنها غالبا ما كانت تتطابق مع الأحداث في الواقع، كما وأن الكثير منها أحدث أضرارا ونتائج سلبية مثل الذي قام به المرابط سيدي بلقاسم بن الحاج سعيد بأدوغ بقسنطينة الذي قام بقتل زوجة بوابه بحجة أنه تنبأ أنها سترتكب فاحشة.⁽⁶⁾

❖ **إلحاق الأذى (لعنة المرابط):** لم تقتصر استجابة دعوة الولي (المرباط) في جانبها الايجابي، بل أنّ الدعاء أصبح مصدر تخوف لدى الناس من أن تصيبهم لعنة الولي، التي تعد آلية من آليات فرض سيطرته، والتخويف منها أصبح عاملا لإثبات

(1) - الصباغ، المصدر السابق، ص 05 (1). - المزاري، المصدر السابق، ج1، ص 75.

(2) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 89.

(3) - ابن مريم، المصدر السابق، ص 135. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 196.

(4) - دوتي، المرجع السابق، ص 31. - Trumelet, Les saints..., p367.

(5) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, 213

(6) - دوتي، المرجع السابق، ص 31.

نفوذ الولي، حيث يقول أحدهم وهو شاذلي الطريقة لصاحبه: «لحم الولي سم فيأك وإياه» وقول آخر: «لا تجلس بين يديه (المرباط) إلا والرعب قد ملك قلبك»،⁽¹⁾ لذلك فلعنة الولي تعتبر سلاحا خطيرا يهدد الأفراد في أولادهم، وممتلكاتهم وصحتهم وهو ما دفع الناس إلى تفاديها بتجنبها أو بالتقرب للمرباط بالهدايا.⁽²⁾

وبهذا فالاحترام الذي حصل عليه المرباطون أو الأولياء لم يكن دائما مستمدا من وسائل مشروعة، بل أحيانا استعملوا لهذا الغرض الترهيب، وتهديد الناس بدعائهم في صحة أبدانهم، وضد عائلاتهم وسلالتهم، وعقم النساء وإتلاف المحاصيل، وهو ما أجبر السذج على تصديقهم،⁽³⁾ وهو ما شجع البعض على استغلال هذا الخوف لمصلحته، فكان منهم من يوفر طعامه من غير تعب، حيث يدخل البيوت يأكل ويشرب، ومنهم من يمشي في الأسواق ويأخذ ما يريد من طعام وفواكه دون أن يعترضه أحد، وإن حاول ذلك أحد ضربه الشيخ ضربا مبرحا أو دعا عليه دعاء مهلكا،⁽⁴⁾ حيث يذكر "الفكون" أن المرباط قاسم بن أم هاني كان إذا أعجبته فرس أو بغل لأحد أتباعه يضع يده عليها ويدعي أنها له ويحذره من بيعها، فلا يقدر صاحبها على بيعها حتى ولو كان بأمس الحاجة لذلك، ثم يأتي هو ويأخذها مجانا أو بثمان بخس.⁽⁵⁾ وهذا بسبب خوف من أن يلحق به الأذى إذا خالف رغبة المرباط. كما يذكر دوتي أن المرباط سيدي الشيخ وجد شخصا يحفر بئرا ليتقرب به إلى الله، ولما طلب منه الشيخ ماء للشرب، رفض فسخط عليه سيدي الشيخ فجفت البئر.⁽⁶⁾

وقد ورد هذا التخويف من لعنة المرباطين حتى في وثائق الصلح أو الوثائق الخاصة بقانون ينظم الجماعة ويحضره المرباطون، مثال ذلك ما جاء في في مداولة 1749م بمنطقة القبائل الخاصة بالميراث والإصلاح بين القبائل «من أراد هتك حرمة ما سطرنا أدقه الله بالذل والفقر والإهانة في الدنيا والآخرة في زماننا وزمان ذريتنا أو ذرية

(1) - نللي سلامة ، المرجع السابق، ص 389.

(2) - بن تونس، المرجع السابق، ص 100.

(3) - Ali Merad, La réforme musulmane en Algérie 1925-1940, essai d'histoire religieuse et sociale, ed; La Haye, Mouton & Co, France, 1967, p70.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 487.

(5) - الفكون منشور الهداية، ص120.

(6) - دوتي، المرجع السابق، ص 132.

ذريتنا خلفا عن سلف...»⁽¹⁾ وأيضا ما جاء في سن قانون الجماعة بين توريرت عبد الله وجماعة أذغاع أملاك وكل من خالف ما جاء في هذه الوثيقة ومن هدم ما بنوه أولاد سيدي سعيد بن الطالب فعليه دعوة التي تلحقهم أبدا يلحقه الشر والههم والفقر والذل وتعسر عليه معيشته هو وأولاده إلى أبد الأبد.⁽²⁾

فهذا التخويف من لعنة المرابطين الهدف منه هو إجبار المتخاصمين أو الأعراس على احترام القانون الذي ينظم العلاقات بينهم، ويهيكل الممارسات الاجتماعية والاقتصادية، ومن لا يحترم قرارهم تصيبه لعنة وسخط المرابط، وفي هذا يذكر صاحب البستان أن سيدي عبد الرحمن اليعقوبي ذهب للإصلاح بين متخاصمين نواحي تلمسان، لكن أحدهم رفض الصلح ولم يحترم قرار المرابط الذي دعا عليه بقوله "الله يحرقك بالنار" وفجأة أصيب الرفض للصلح بحروق توفي على إثرها.⁽³⁾

وكذلك عندما حدث صراع بين أولاد إبراهيم وأولاد داود وأولاد شايب بالصحراء ألقى المرابط سيدي محمد بن عالية نفسه وسطهم وتوسل إليه لإيقاف الحرب، وأمام رفضهم دعى عليهم باندثار رخائهم، ومنذ ذلك الحين وهم يعيشون في حالة بؤس.⁽⁴⁾ فتحقق دعوى وسخط الولي كان يعد كرامة من كراماته.

ومن الأمثلة كذلك التي وردت في الكثير من المصادر حول لعنة المرابطين بعد المساس بهم، ما حدث لوهران^(*) واحتلالها من طرف الأسبان، ما هي إلا لعنة أصابتها نتيجة دعاء وليها سيدي الهواري بعد مقتل ابنه الذي كان مريضا ولقبوه الناس "بالهائج"، وقتلوه زعما منهم أنهم طبقوا عليه الشريعة وحاججهم الشيخ في مقتل ابنه، بعد إلحاح من زوجته للأخذ بثأره، وبعد أن أثبت براءة ابنه، وإصرار قتلته على أنهم طبقوا الشرع فيه غضب منهم ودعى على وهران: «روحي يا وهران الفاسقة... إني بعثك بالبيعة الموافقة لنصارى مالقة والجالقة إلى يوم البعث والتالقة مهما ترجعي فأنت الطالقة» فرد عليه أحد

(1) - محمد سي يوسف، القانون بلاد القبائل في، ص 286.

- Patorni, Op, Cit, p316.

(2) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 239. - جمال قنان، نصوص ووثائق، ص 181.

(3) - ابن مريم، المصدر السابق، ص 132. - دوتي، المرجع السابق، ص 134.

- دوتي، نفس المرجع، ص 135. - Trumelet, l'Algérie légendaire..., pp224, 225. (4)

(*) - رغم أن المدينة لم تحتل إلا بعد 70 عاما من وفاته.

تلاميذه يا سيدي والفرج لاحقة فقال الشيخ "والفرج لاحقة"،⁽¹⁾ ورغم اعتقاد الناس أن سبب دعاء سخط الشيخ هو الذي كان سببا باحتلال المدينة إلا أنه لا يوجد ما يثبت هذا القول لأنه لا يمكن للشيخ أن يتمنى لوهران، أو أي مدينة إسلامية أن تقع تحت سيطرة الصليبيين.⁽²⁾

إن الخوف من التعرض للمرابطين وما قد ينجر عليها من لعنة وعقاب للمعتدي، أصبح عاملا لإثبات سيطرة المرابطين، خاصة أمام ميل الناس إلى التصديق بسذاجة بأنهم يملكون قدرات خارقة، وهذا الاعتقاد هو من كرس نفوذهم على السكان، فسكان القبائل يعتقدون أنه لا يمكن تجاوز أو عدم احترام المرابط لأنه بكلمة يمكن أن يحوله إلى امرأة أو ينزل الويل على محصوله الزراعي أو يسلط الأمراض عليه،⁽³⁾ أو قد تحدث له أمور أخرى كأن تبتلعه الأرض إذا تعرض لولي، وهي من الكرامات الغريبة التي نسبت إلى سيدي عبد الرحمن الثعالبي، عندما تعرضت له جماعة بالشتم فابتلعتهم الأرض بسبب دعائه عليهم،⁽⁴⁾ أما المرابط سيدي علي الندرومي الذي كان يقصده الناس بالهدايا والتبرك به، لما اعترض على سيدي احمد بن يوسف الملياني صار يتبول ويتغوط على نفسه لذلك قال الصباغ: «نعوذ بالله من التعرض للأولياء».⁽⁵⁾

ومن الكرامات التي حدثت على يد الأولياء ما ذكره كذلك "ابن مريم" عند تعرض أعرابي لعجول صغيرة للشيخ محمد بن عبد الرحمن الأدغم السويدي وجدها في زرعه فقتلها جميعا، ولما سمع الشيخ بالأمر بقي في بيته لم يكلم أحدا، حتى صار الأعرابي يصيح وبطنه ينتفخ «ارفعوني إلى الأدغم» حتى خرجت روحه.⁽⁶⁾

وهذا الأمر ينطبق حتى على الحكام، فكثيرا ما كان الناس يرجعون نجاح أو فشل البايع في حكمه إلى دعاء المرابط له أو عليه، وما حدث لصالح باي^(*) حسب الاعتقاد المحلي لدليل على أن التعرض للأولياء يجلب السوء، حيث يرجع الناس أن سبب مقتل

(1) - المزارعي، المصدر السابق، ص 73، 74. - الزباني، دليل الحيران، ص 61.

(2) - يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص 214.

(3) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 91.

(4) - Klein (H), Op, Cit, p39.

(5) - الصباغ، المصدر السابق، ورقة (1)06.

(6) - ابن مريم، المصدر السابق، ص 289.

(*) - ينظر: القسم 4.

الباي هو اعتدائه على المرابطين كسيدي عبيد الذي دعى عليه بزوال حكمه⁽¹⁾ وسيدي محمد (الغراب) الذي قتله.⁽²⁾

كذلك اعتقد الناس أن سبب وفاة للباي خليل الذي كان يكره العلماء والأولياء (توفي سنة 1192هـ/1779م)، هو تعرضه لهم ودعاء الشيوخ الثلاث عليه، سيدي المداني، سيدي الحاج الموفق بن سعيد الشقراني البوشيخي وسيدي بوترفاس محمد الساحلي، لأنه توعد الأولان بالقتل فدعى عليه سيدي المداني قائلا «الباي خليل لا ترده من ذي التغرابا يا الجيلاني بابا حلف في وقال من السور ناليك»، أما الثاني فقام الليل على رجل واحدة بكامل القرآن في ركعة واحدة، ولما ناما بُشرا بهلاك الباي، أما أبو ترفاس الذي غزا الباي زاويته وفرق طلبته وهو بقتله وقد دعا عليه «فضحتنا علانية بلا سبب فضحك الله وعجل بهلاكك، تستريح منك البلاد والعباد». ويقال أن الباي مرض مرضا شديدا في طريق عودته وتوفي عندما وصل تلمسان.⁽³⁾

إنّ هذه الكرامات المتعلقة بالدعاء أو بلعنة الولي أصبحت إحدى الروافد الأساسية للسيطرة الكاريزماتية للسلطة الروحية حتى بعد وفاة الولي، كان الاعتقاد سائدا لدى زوار الولي صاحب الضريح، أنّ له القدرة على القصاص من الظالم، وهذا اعتمادا على أن بركة الولي تمتد إلى قبره، فكانت حرمة القبور والتخويف من التعرض لها بسوء أو سرقة أو ارتكاب فاحشة، فمن أخذ شيئا يخص قبر الأولياء "لا يلوم إلا نفسه"،⁽⁴⁾ منها أن النصراني لما رأى مصابيح عند قبر سيدي الهواري نزلوا لأخذ من ظنوا أنه بات في ضريحه، ولما اقتربوا منه كسروا،⁽⁵⁾ كما أنه عهد الباي مصطفى بوشلاغم أمر أحد الجنود بالدخول إلى ضريح سيدي الهواري للقبض على أحد المتهمين بضريحه فانتفخت بطن الجندي.⁽⁶⁾

وشملت هذه الاعتقادات في كرامة وقدرة الأولياء الموتى، بإلحاق الضرر بمن يسيء إليهم، حتى بمن يحلف كذبا على قبر صالح فيكسر طرف من أطرافه أو يسقط

⁽¹⁾ - Feraud, Le sahara..., p224.

⁽²⁾ - فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة عهد صالح باي، ميديا بلوس، الجزائر، 2008م، ص 196. Filali, Sainteté..., p157.

⁽³⁾ - المزاري، المصدر السابق، ص 287، 288.

⁽⁴⁾ - نللي سلامة، المرجع السابق، ص 389.

⁽⁵⁾ - أحمد بن قاسم البوني، المصدر السابق، ص 142.

⁽⁶⁾ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 469.

أرضا ولا يفيق حتى ينتهي من أعماله السيئة، ومن لم يكن صادقا عندما يدخل إلى مغارة الصلحاء فإنها تضيق عليه ولا يستطيع الخروج بينما يعبرها من كان صادقا بسهولة.⁽¹⁾

❖ **الاعتقاد في الحماية:** تعتبر مسألة الحماية أو العناية التي يمنحها الولي للناس من المعتقدات التي كانت شائعة، ولا يمكن تجاوزها، ويجب احترامها، فالاعتقاد في حماية المرباط كان حقيقة مدركة من طرف الجميع حكما وأهالي، حيث كان لكل مدينة مرباط يحميها حيا كان أو ميتا.⁽²⁾

فالولي في نظر الناس كان يستطيع حمايتهم، والتوسل لفائدتهم، بفضل بركته،⁽³⁾ خاصة لدى الناس الذين عانوا الحروب، والتي ساهم المرباطون في إرجاع السلم إليها بفضل بركتهم، لذلك كل قبيلة وقرية تعتبر وجود مرباط أو عائلة مرباطية بينها شرف لها، وتفتخر بذلك وتتبرك به لحماية أراضيها،⁽⁴⁾ ومنهم من كان يطلب من المرباطين البقاء بينهم وتزويجهم بناتهم، وهذا للاحتماء بهم عند المصاعب والخلافات، لذلك وحسب درمنغام (Dermenghem) فإن فكرة القداسة اختلفت من وقت لآخر ومن مكان لآخر، لكنه لا يوجد شعب واحد لا يضع البطل أو الولي وراء أصل المدينة أو الساهر على حمايتها والحفاظ عليها.⁽⁵⁾

فالمرباطون كانوا دائما يسعون إلى منع الأذى قبل وقوعه، وبالتالي القضاء على احتمال حدوث صراع وخلاف في المجتمع، وإن حدث الأذى وفشل الولي في الحفاظ على الأمن، فإنه يوقع العقوبة بالمعتدي أو الدعاء عليه بتسليط الأمراض والأوبئة عليه لذلك اتخذت كل قرية ولي يتوقع منه الحماية ودفع الأذى.⁽⁶⁾ أما عند حدوث الكوارث الطبيعية كان الناس يلجئون للأولياء لحمايتهم ودفع البلاء عنهم فعندما ضرب جفاف بايلك الشرق سنة 1808م عهد الباي طوبال لجأ الناس بالزيارات للمرباطين المشهورين بكراماتهم لتخليصهم من هذه الكارثة،⁽⁷⁾ تبركا وتيمنا بهم حتى ينزل المطر.

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 31.

(2) - Filali, Saintité..., p 130.

(3) - جوليان، إفريقيا الشمالية...، ص 26.

(4) - Boulifa, Op, Cit, pp193, 194.

(5) - Dermenghem (E), Vie des saints musulmans, ed, Baconies, Alger, 1942, p07.

(6) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 151، 152.

(7) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, p212.

ونتيجة هذا الاعتقاد كان لكل مدينة ولي يحميها، ويسمون "مالين البلاد" وتتسب إليهم المدن، فيقال عن مدينة وهران "مدينة سيدي الهواري" وتلمسان "مدينة سيدي بومدين ومدينة الجزائر مدينة سيدي عبد الرحمن"،⁽¹⁾ وهي المدينة التي يتقاسم حمايتها الكثير من الأولياء كسيدي بوقدور والولي داوة وأبي التقى وسيدي يوسف الزنجي الذين دافعوا عنها ضد حملة شارلكان سنة 1541م.⁽²⁾ ومدينة البليدة تسمى "مدينة سيدي أحمد الكبير" ومدينة القليعة "مدينة سيدي مبارك الأندلسي".

كما يذكر ابن المفتي أن سكان الجزائر كانوا يعتقدون في بركة عائلة قدورة لأن وجودها وتوليها الإفتاء يحمي المدينة من الكوارث لذلك كانوا يقولون «إن المدينة ما لم يتول فيها مفتي ينتسب لذرية سعيد قدورة فإنه سينال المدينة وابل من البؤس كغلاء الأسعار، والزلزلة والصاعقة وأشياء أخرى»، لذلك عندما نزلت صاعقة على المنارة فترة تولي المفتي المهدي بن الحاج صالح الإفتاء استغل الأمر رجل يدعى يوسف الكريتلو وقصد الداوي أوزون علي باشا وقال له: «إن أهل المدينة يقولون لك أن المدينة لن تهناً مع مفت ليس من أبناء سعيد قدورة»،⁽³⁾ لذلك قام الداوي بعزل المفتي ونصب عبد الرحمن المرتضى للمرة الثالثة وهو حفيد سعيد قدورة.

هذه الحماية أو "العناية" يمكن لأي كان الحصول عليها من المرابط من أجل حمايته من أي خطر يواجهه، وقد تمنح لفرد أو لقبيلة، فمثلا عندما يريد المرابط أن يمنح حمايته لشخص ما يرمي برنوسه عليه،⁽⁴⁾ أو يتحصل على هذه العناية من خلال الزيارة والتبرك، فكان الحجاج قبل ذهابهم للحج يطوفون على مرابطي المنطقة ويقدمون الوعدة⁽⁵⁾ ويؤدون زيارات ووعدات للأضرحة قصد الحصول على بركتهم،⁽⁶⁾ لتسهيل سفرهم وحمايتهم في الطريق، وحتى النساء كن يضعن الشموع والزهور ويقدمن القرابين للضريح بنية إبعاد المصائب والحماية من المخاطر.⁽⁷⁾

(1) - قسوم، المرجع السابق، ص 26.

(2) - Devoulx, Les édifices..., p240.

(3) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 107، 108.

(4) - Layer, Op, Cit, p23.

(5) - Feraud, Histoire des villes... Bougie, p16.

(6) - Alain, Op, cit, p110.

(7) - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 105.

فهذه الحماية تزداد بعد وفاة الأولياء، لأن تصبح بركتهم خالدة حسب النعتقد الشائع، فيعتقد أنهم قادرون على حماية أحبائهم والدفاع عنهم، وتزداد هذه العلاقة قوة بين الناس والأولياء، عن طريق ارتباطهم بالأضرحة والتبرع لأعمال الخير والاحتفال بذكرى مولدهم، وإطعام الناس في هذه المناسبة وقد يشمل هذا الاعتقاد كل الجماعات الصوفية وما ينطوي فيها من أغنياء وفقراء وعلماء وأميين ومتقنين.⁽¹⁾

فبركة الأولياء يمكنها أن تحمي الناس حتى ضد الأخطار الخارجية، فلما تعرضت الجزائر لحملة الدانمارك 1770م صادف المولد النبوي، حيث أضيئت الشموع في كل مكان، فظن الدانماركيون أن الجزائر مستعدة للهجوم فرموها من بعيد بالمدفع حتى نفذت ذخيرتهم وعادوا خائبين، وقد اعتقد الناس أن بركة الأولياء السبع هي التي حمت المدينة وقد جسد لنا الشعر الشعبي هذه الواقعة وكيف حمى الأولياء المدينة.^(*)

(1) - منال عبد المنعم، المرجع السابق، ص 159.

(*) - جاء في القصيدة:

بسم الله نبدا على وفا	ذا القصة تعيانا
قصة البونبة المتلفة	كيف جابوها أعدانا
كيفاش الكفار يطمع	في البهجي سلطنة المدن
كل ولي يرمي بمدفع	ما يخطى من قابلو مطن
بعدها كانوا نزعوا	واتفق نصر لهاذا الوطن
أولهم سيدي الثعالبي	هو السيف وصور حرما
بحر العلم خليفة النبي	صاحب الأسرار وليها
بحديثه نفجي كرايبي	نوار الحضرة وسرها
صاحب الأسرار واليها	حاشا الله أن ينسانا
سيدي بوجمعة مساعفه	شيخه ما ينبغي يكلفه
ابن عبد الله صيد نعرفه	جاب في يدو زانة
من ضرب بها يتلف	ما يظهر للآن
سيدي الكتاني	نحقق دائما مدفع مالحقه
والرجال السبعة اتفقوا	جاوا في غيظ اشحان
سيدي السعدي ما يفارقوا	سيف لاهل الجوان
هادوهم صور حُرْمها	وَالْي فيها رجال قايمة
سيدي الفاسي ما يهونها	والجودي بحماه سالمة
ولي دادة صيد فدّها	واسا للكفار معظمة
هاج البحر كسر سفونهم	وابقات غير الواح عايمة
عبد القادر حرما الكفا	هو آلى يرهاها

❖ **الإتيان بالخوارق:** تعد مسألة القدرة على الإتيان بالخوارق، أي الأعمال الخارقة للطبيعة من الأمور التي صدقها الناس واعتقدوا أنها تعد من الولاية، خاصة بعدما لجأ الولي إلى إظهار هذه الخوارق وسردها كي يبهر الناس ويؤكد سلطته ويمرر خطابه وأهدافه دون مقاومة، فهذه الخوارق مررت لاعتقادات تخدم الأولياء وتؤكد حقهم في الاحترام والتبجيل لما وصلوا إليه من التصرف في الأكوان.⁽¹⁾

فقد كان يعتقد أنه بإمكان الولي القيام برحلات، أو السفر بطرق خارقة غير الطرق المعروفة للسفر، كالمشي على الماء والطيران في الهواء وطي الأرض،⁽²⁾ أو أنه يمكن للأولياء أن تجري معجزات على أيديهم كتحويل النحاس إلى فضة وذهب، والنقود المزيفة تحول إلى نقود حقيقية، وأن الزويجة تحرث بدون خمّاس إذا كانت في أرض الأولياء، وهذه الأعمال تكون للشيخ القطب ولأتباعه الذين يتلقون جزءاً من بركته وقوته الخارقة.⁽³⁾ ومن هذه الكرامات التي حظي بها الأولياء قدرتهم على إسقاط المطر وتحريض الأرض بالزلازل والزوابع، مثلما حدث في حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م، حيث عمل الولي دادة على إثارة البحر بعصاه فقضت الزوبعة على نصف الأسطول الإسباني الذي اضطر إلى الانسحاب،⁽⁴⁾ وحسب الأسطورة أنه دخل وسط البحر حتى وصل الماء إلى حوضه وأخذ يضرب الماء بعصاه مع الذكر والدعاء، فثارت الزوبعة التي أبادت جزءاً من أسطول شارلكان⁽⁵⁾ وكذلك المرابط سيدي بوقدور هو الآخر أثار زوبعة في البحر حطمت أسطول الحملة، حيث ضرب هو الآخر البحر بعصاه فحدثت عاصفة، فكان كل ما كسر صحن فخار تغرق سفينة، لذلك اعتبر حامي المدينة ويتبرك بضريحه وإشعال الشموع عنده.⁽⁶⁾

ومن كرامات الأولياء في صد الأخطار الخارجية، وحسب الأسطورة فإن الشيخ أحمد الزواوي الذي أرسل فرسه "الرقطاء" من دونه لصد حملة "أوريلي" على مدينة الجزائر سنة 1775م.⁽⁷⁾ والسؤال هنا كيف لفرس أن تشارك في معركة دون فارس؟!.

(1) - نورة عقاق، المرجع السابق، ص 114، 119.

(2) - نفس المرجع، ص 84.

(3) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 92، 93.

(4) - Dermenghem (E), Le culte..., p11. - Venture (D.P), Op, Cit, p160.

(5) - Devoulx, Les édifices..., p171.

(6) - Hon. MRS Griville, Op, Cit, p94. - شوفاليه، المرجع السابق، ص 99.

(7) - Vayssette, Histoire de Constantine..., p128. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 219، 220.

ومن كرامات الأولياء في إتيان هذه الخوارق ما قام به المرابط سيدي علي بن موسى عندما ذبح أهل القرية بقرة ولم يأخذ طلبته نصيبهم فضرب الجلد فعاد بقرة كما كانت وذبحوها، وهو سبب تسميته "بسيدي علي نفوناس"،⁽¹⁾ وهي نفس الكرامة التي كانت للشيخ يحي العيدلي ت (1476م)، والذي يعتقد الناس كثيرا في كراماته، منها أنه لما عاد من خلوته التي دامت 10 سنوات، وجد أن الوزيجة قد فاتته، لكن أمه لم تأخذ نصيبها منها، ولما عاد أظهر له أهل القرية ندما على فعلتهم فأمر بجلدها ورأسها مما تبقى منها، فأمسك بذيلها وقال له قم بإذن الله فقام الثور يمشي كما كان حيا،⁽²⁾ وهو نفسه الذي سمي عليه حمام معدني ببني عيدل بأقبو، وقربه توجد مغارة كانت خلوة للشيخ، وكان الطريق المؤدي إليها ضيقا ومنعرجا يؤدي إلى مكان متسع قليلا في الداخل، وله خاصية عجيبة حسب الاعتقاد السائد، فمن كان صالحا حسن النية دخلها وخرج منها سالما، أما من كان عكس ذلك فإن جانبي الطريق يضيق عليه، والحقيقة أن الممر منعرج فمن عرف الانسياب فيه لم يتأذ ولم يعرف صدمته المنعرجات.⁽³⁾

كما يذكر لنا "تريملي" (Trumelet) الكثير من كرامات لهؤلاء الأولياء مثل المرابط الحاج عيسى ولد 1079هـ/1668م قصد يوما الأغواط، وطلب الضيافة من منزلين فلم يفتحوا له الباب وشتموه فبات في العراء قرب عين ماء يستسقي منها الناس، وهو يدعو، ولما جاءت النسوة للعين وضع عصاه فيها فجفت، وحرّم سكان القصر الأبيض والأحمر من الماء،⁽⁴⁾ أما المرابط سيدي عيسى الذي ولّاه أحمد أمقران على المناطق الجنوبية للقلعة ناحية الصحراء لكنه ثار عليه، وحاول الانفراد بالمنطقة فعزله أحمد أمقران ووضعه في حبس وأمر بإطلاق النار عليه، لكن لم يصب المرابط واعتبرت هذه من كراماته، لذلك قال أحمد أمقران «المرابطون أشواك ونحن جمال وسيلسعوننا (يؤذوننا) إن أسأنا لهم».⁽⁵⁾ كما يذكر في موضع آخر أن سيدي الشيخ (من حكام الصحراء) مر يوما ببني ددوش شرق ندرومة بتلمسان، لما طلب ماء من السكان فقليل لا يوجد بسبب الجفاف،

⁽¹⁾ - Delpech, La Zaouia de sidi ali..., p82.

⁽²⁾ - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 10. - علي أمقران السحنوني، "المجهول أبو زكريا العيدلي"، مجلة الدراسات التاريخية، ع4، 1988م، الجزائر، ص 38.

⁽³⁾ - علي أمقران السحنوني، المرجع السابق، ص 31.

⁽⁴⁾ - Trumelet, l'Algérie légendaire..., p114.

⁽⁵⁾ - Trumelet, l'Algérie légendaire..., pp290, 291. - Feraud, histoire des ville..Setif., p231.

فترك بغلته تسير حتى وصلت قمة الجبل وضربت بحافرها، فانفجرت عين غزيرة لا زالت إلى يومنا بجمال الترامة.⁽¹⁾

أما "ابن عسكر" فيذكر أن الشيخ محمد الزيتوني بالغرب الجزائري، عندما يكون مع ركب الحج، لا يستطيع اللصوص الاقتراب بالقافلة لأنهم يجدون سورا عليها لا يقدر أحد على صعوده،⁽²⁾ أما مدرس القرآن سيدي أحمد الزواوي وعندما كان فارا من صالح باي اعترضه وأتباعه ثعبان كبير فنزل من جواده وسحقه برجله،⁽³⁾ ولعل لنا في قصة سيدي محمد بن عبد الرحمن أكبر دليل على الاعتقاد الكبير في كرامات المرابطين الذي يعتقد أن جسده انقسم إلى اثنين واحد في منطقة القبائل والآخر في الحامة بعد وفاته،⁽⁴⁾ والحقيقة أن السلطة العثمانية لما رأت ازدياد عدد أتباعه بعد وفاته، وخشية منه نقلت جثته إلى الحامة ووضعت جثة أخرى في منطقة القبائل، ولما سمع أهل المنطقة، ونظرا لأنهم وجدوا جثة بالقبر، فاعتبروا هذا كرامة ومعجزة خاصة بالمرابط أن يكون له قبران لذا سمي بوقبرين.

ما يمكن أن نقوله هو أن أقطاب السلطة الروحية حظوا بمكانة كبيرة في المجتمع لأنهم في عرف الناس هم رجال الدين الصالحين المتعبدين المتفرغين لعبادة الله، المالكيين للكرامات والبركة، لذلك أقيمت عليهم الأضرحة بعد وفاتهم، والتي صارت مزارات يقصدها الكثير من الناس ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، وهو ما جعل دوتي يقول أنه خلال السفر من مدينة الجزائر إلى وهران نرى تزايد عدد مزارات الأولياء باستمرار كما أن تلمسان وضواحيها كانت مزينة كلها بمقابر للأولياء كل 50 مترا.⁽⁵⁾

كما وأن بعض الأضرحة والمزارات كانت مفتعلة ولا وجود للدفين فيها، لأن من افتعلها يكون قصده جمع المال من تبرعات الناس،⁽⁶⁾ وقد تكون لشخص مجهول الاسم ولا يعرفون عنه شيئا ويطلق عليه باسم "سيدي المخفي" وهي ظاهرة كانت منتشرة بكثرة

⁽¹⁾-Trumelet, Ibid, pp163, 164.

⁽²⁾- ابن عسكر، المصدر السابق، ص 72.

⁽³⁾- Gaid, Chronique..., p41 (Marge).

⁽⁴⁾- Boyer, Contribution..., p40. - Rinn, Marabouts..., p456. - Deneveu, Op, Cit, pp90, 91.

- Berque, Op, Cit, p404.

⁽⁵⁾- دوتي، المرجع السابق، ص 22.

⁽⁶⁾- مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 172.

شمال إفريقيا،⁽¹⁾ ومنهم من جهل إسمه وسمي سيدي بوزيتونة لأنه نبتت عند قبره شجرة زيتون.⁽²⁾

وقد بلغ ببعض المستغلين لهذه المعتقدات التي لم تكن صحيحة ولا أساس لها منطقيا، أن قام صديقان بقتل جحش وبدأ الترويج لكراماته، وأنه ولي صالح مستغلين الإيمان الأعمى بالأولياء، فتوافد الناس عليه للزيارة والتبرك به،⁽³⁾ وهذا الاعتقاد كان حتى في الحجر والأشجار أنها صالحة أو مرابطية ويعتقد في نفعها أو ضررها، كما أنهم اعتقدوا في الحيوانات مثل أسود زاوية سيدي محمد بن عودة أنهم مرابطين وحتى الطيور يعتقد في صلاحهم ونفعهم وضرهم.⁽⁴⁾

فهذا التفكير السطحي والساذج لدى الناس لاعتقادهم في المرابطين والأولياء وأنهم يعلمون الغيب وأن الله يحارب من يحاربهم، أدى إلى ازدياد نفوذهم وسلطتهم، مما جعل الكثير من الدجالين يستغلون الوضع، وادعوا الولاية وتظاهروا بالزهد، فكثرت الزوايا والأضرحة والمرابطين وانتشرت الخرافات،⁽⁵⁾ وأصبحت زيارة هؤلاء الأولياء مشهدا يوميا مألوفًا لمختلف الفئات والمناطق ترعاه السلطة متى استطاعت ورغبت.⁽⁶⁾ والملاحظ أن بعض هذه المعتقدات لا زالت سارية إلى يومنا هذا في بعض الأوساط الشعبية، حتى في أوساط المتعلمين والمثقفين، وهي ظاهرة اجتماعية تعكس الذهنيات المتخلفة.

2- وظائف و أدوار السلطة الروحية في المجتمع:

إن الفراغ الذي تركته السلطة السياسية في المجتمع الجزائري قبل مجيء العثمانيين للجزائر، سمح للسلطة الروحية بملء هذا الفراغ في جميع الميادين الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية وحتى الجهادية. ولهذا تحمل أقطاب السلطة الروحية عبء ضعف السلطة المركزية، من خلال التكفل بمشاكل السكان، لهذا ظهرت سلطة المرابطين بالريف والفقهاء بالمدن، وحسب

– دوتي، المرجع السابق، ص 76. ⁽¹⁾-Trumelet, Les saints de l'islam...., p159.

⁽²⁾– نفسه، ص 77.

⁽³⁾– نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار قباء، مصر، 1992، ص 82، 83.

⁽⁴⁾– دوتي، المرجع السابق، ص 53، 54.

⁽⁵⁾– الفيلاي، المرجع السابق، ص 24.

⁽⁶⁾– حمدان، المرأة، ص 59.

سعد الله فإنّ برروز هذه الفئة في المجتمع الجزائري ليس وليد الفترة العثمانية وليس ميزة خاصة بالجزائر بل بالعالم الإسلامي ككل، وبدأ ظهورها لما استولى على الحكم حكام جهلة ليس لهم صلة بالحضارة الإسلامية واللغة العربية، ولا بأمور الدين وجهل الحكام مهد لظهور العلماء لسد الفراغ، كمستشارين ومشرعين ومفسرين، وأصبح شعارهم أنّهم حماة الدين، ومصاييح الظلام، بينما لم يكن الأمر كذلك لما كان الحكام علماء والعلماء حكام.⁽¹⁾

وبهذا احتل أفراد السلطة الروحية مواقع هامة في القيادة خاصة بالريف، كونهم كانوا أجهزة تنفيذية واستشارية ووصاية على السكان وهذا كله في غياب السلطة التي احتكروا نفوذها⁽²⁾، وأصبحت مراكزهم أماكن لتلقين العلوم الدينية واللغوية، ومدارس لتخريج العلماء، فهي مدرسة ومشفى وسوق تجارية ومسجد ومحكمة، ومكان لإيواء عابري السبيل⁽³⁾، وملأوا للمضطهدين ومن يريد الحماية والأمان، ومركزا لترسيخ المبادئ الإسلامية والتربية الروحية والإرشاد الديني والسلوكي والأخلاقي للمجتمع عن طريق المواعظ والإرشاد ومحاربة الرذيلة وسوء الأخلاق ونشر الفضيلة ومكارم الأخلاق والحفاظ على القيم الإنسانية.

2-1- الدور التعليمي والديني:

عملت السلطة الروحية عن طريق مؤسساتها الدينية على أن تأخذ على عاتقها تعليم الناس ونشر الوعي الديني بينهم، وسد حاجة السكان في تعليم أبنائهم في ظل غياب السلطة التي لم تهتم بالتعليم والتوجيه، لأنّ سياستها مع الأهالي كانت سلبية ارتكزت على جباية الضرائب فقط، فحسب "الفيلاي" إدارتها كانت إدارة استهلاك لا إدارة إنتاج، لهذا عملت السلطة الروحية خاصة المرابطين، على ملء الفراغ السياسي والثقافي في المجتمع الذي عاش في عزلة عن الحكومة التركية، بالرغم من ثقل كاهل سكان الأرياف بالهدايا والعطايا المقدمة للمرابطين إلا أنّهم كانوا بمثابة البديل لهم عن العثمانيين في التعليم والتوجيه.⁽⁴⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 388.

(2) - ساحي، المرجع السابق، ص 156.

(3) - عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 229، 230.

(4) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 30.

لذا نجد من أقطاب السلطة الروحية من انقطع للتعليم ووهب حياته لذلك مثل "أبو راس الناصري" الذي يقول: «فانتقلت إلى معسكر، وشمرت ساق الجد للتدريس ليلاً ونهاراً، وداومت على ذلك ستاً وثلاثين سنة، متصلة ما بطلت فيها يوماً واحداً إلا يوم الاثنين لأمر مهم رباني». (1) أما "الورثياني" فكان يرتحل في رمضان من كل عام من أجل الرباط وتعليم الطلبة: «كنت كل عام أصوم فيها رمضان ناويا الرباط مع تعليمي الطلبة...» (2) ومنهم من كان يرفض الوظائف الرسمية ليتفرغ للعلم مثل الشيخ أحمد بن حالة (ولد سنة 1780م) الذي رفض وظيفة عرضها عليه باي قسنطينة لما ذاع صيته فاعتذر له قائلاً: "من للزوايا التي أنشأتها"، فهو كان يشرف على نحو 80 إلى 100 طالب وينفق عليهم من الأراضي التي استصلحها. (3)

كما نجد الكثير من العلماء ممن أنفق ماله خدمة للعلم مثل الولي سيدي محمد بن عبد الجبار بن ميمون الفحيجي (ق16م)، الذي كانت له زاوية ثم بنى مسجداً وبيتاً للفقراء والمريدين، بحيث باع أرضه من أجل الإنفاق عليهم وعلى الذاكرين لله على الدوام، (4) والمتصوف بلقاسم بن موسى بن صابر، الذي وهب ماله للعلماء والإخوان والفقراء. (5)

ومنهم من عمل على نشر الإسلام بين الأسرى المسيحيين، وقد نجحوا في الكثير من الأحيان في ذلك، وهو ما يفسره العدد الكبير للأعلاج بالجزائر، وإن كان بعضهم اعتنق الإسلام ليعجل بعنته أو من أجل تولي مناصب عليا. (6)

وبفضل المؤسسات التعليمية التابعة للسلطة الروحية من مدارس ومساجد وزوايا، سواء بالريف أو المدينة انتشرت المعارف والثقافة الدينية، مما حدّ من انتشار الأمية، كما ساهمت في تخريج عدد من الكتاب والفقهاء الذين تولوا الخطط الدينية والعلمية (7)، فالمدارس كانت تزود الدولة بالقضاة والمفاتي وغيرهم من الموظفين الرسميين، كما أنّ أغلب علماء الجزائر في العهد العثماني تخرجوا من الزوايا مثل سعيد قدورة، أبوراس

(1) - أبوراس الناصري فتح الإله، ص 22.

(2) - الورثياني، المصدر السابق، ص 18.

(3) - بوعزيز، أعلام الفكر...، ج1، ص137.

(4) - ابن مريم، المصدر السابق، ص 287.

(5) - سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص223.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 464.

(7) - سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية...، ص 144، 145.

الناصرى، الأمير عبد القادر، ...⁽¹⁾ فمنهاج الدراسة في هذه المؤسسات التعليمية خلال العهد العثماني، لم يكن مختلفا بل كلهم كانوا يدرسون القرآن الكريم، الحديث، النحو، اللغة، الفقه، التوحيد، الفلك، الحساب...⁽²⁾

فالمساجد وإضافة إلى وظيفتها الدينية، كأماكن للصلاة، ومعالجة قضايا الناس كانت تقوم بوظيفة التعليم وتحفيظ القرآن وهذا منذ العهود الأولى للإسلام⁽³⁾، أما المدارس فهي الأخرى كانت تقوم بتعليم الدين وعلوم اللغة ومبادئ القرآن والكتابة⁽⁴⁾، إضافة إلى بعض العلوم كالحساب وطرق التدوي (الطب).⁽⁵⁾ وبالتالي كانت فضاءات تعليمية واجتماعية.

أما الزوايا وخاصة زوايا المرابطين فقد كانت منذ القرن 16م حتى القرن 18م أداة لتعميق الشعور الإسلامي في المناطق الجبلية، التي ظلت بعيدة عن تأثير الفقهاء وفتاويهم، فقد كانت الملجأ المعنوي والروحي والمؤطر الأساسي للسكان وعامل لنشر المعارف وغرس تعاليم الدين وتعميق الحس الديني في المجتمع الريفي⁽⁶⁾، أين عمل مرابطوها على إدخال القبائل إلى الإسلام وتعليمهم مكارم الأخلاق.⁽⁷⁾ وكان المرابط بهذه الزوايا يتولى التعليم بنفسه إن كان مثقفا، وفي حالة العكس يوظف من ينوب عليه في التعليم.⁽⁸⁾

فهذه الزوايا كانت الإطار العام للحياة الثقافية بالريف، حيث فتحت أبواب العلم والمعرفة للطلبة وأنفقت عليهم بسخاء،⁽⁹⁾ وهذا بعد تحول زوايا المرابطين الجهادية إلى مراكز للتعليم، فكانت المباني جاهزة، ولم تتطلب حركة التعليم إلا جلب الطلبة إليها فقط⁽¹⁰⁾، وأن تقدم لهم تعليمًا في العلوم الدينية واللغوية وتحفيظ القرآن والحساب⁽¹¹⁾،

(1) - العيد مسعود، حركة التعليم، ص 64، 65.

(2) - نفسه، ص 65.

(3) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 12.

(4) - Faure Biguet, "Notice sue le cheik-Abou-Ras-En-Nasiri" in **J.A**, 9ème série, 1894, p 418.

(5) - محمد سي يوسف، نظام التعليم في بلاد....، ص 193.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p 301 et 306.

(7) - Gesell, Op. Cit, p 175. - حمدان، المرأة، ص 57.

(8) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 15، 16.

(9) - نفسه، ص 18.

(10) - العيد مسعود، حركة التعليم، ص 61.

(11) - Haedo, Topographie....., p 100. - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 16.

لذلك كان التعليم الابتدائي خاصة منتشر في كل دوار أو قرية، وفي هذه الزوايا كان الطالب يستفيد من المبيت طول فترة دراسته⁽¹⁾، فمثلاً مدينة الجزائر كان بها 06 زوايا منها 05 مخصصة لإقامة الطلبة الوافدون وواحدة للطلبة المقيمين بالمدينة⁽²⁾، لتصبح الزوايا بهذا أماكن للتعبد ومدارس وحتى فنادق للإيواء خاصة لعابري السبيل⁽³⁾.

بعدما يتلقى الطالب تعليمه الابتدائي يمكنه أن يبقى لإكمال تعليمه العالي ما بين 03 إلى 06 سنوات، حسب رغبة الطالب في البقاء لنيل المزيد من المعارف التي تقدم بالزوايا التي بها معاهد عليا،⁽⁴⁾ أو يتوجه للمساجد الكبرى، فقد كان يقدر عدد الطلبة في التعليم العالي ما بين 600 إلى 800 طالب من كل بايلك⁽⁵⁾.

وهذا التعليم العالي يسمح للطلبة المتخرجين من هذه المؤسسات بفتح مدارس وتعليم الأطفال الصغار،⁽⁶⁾ أو تدريس القرآن بالمساجد أو العمل كخوجات أو مؤدب، وهذا بعد حصولهم على إجازة من الأستاذ تثبت إكمالهم لدراساتهم،⁽⁷⁾ وهذا القدر من العلم والمعرفة التي يحصل عليها الطلبة تمكن بعضهم من مواصلة مهمة نشر الدين والعلم في قراهم، ومناطق سكناهم،⁽⁸⁾ مثل زاوية سيدي علي بن يحيى التي تخرج منها العديد من الطلبة والعلماء الذين قاموا بدورهم بنشر التعليم استكمالاً لرسالة الزاوية⁽⁹⁾.

وبهذا فمؤسسات السلطة الروحية من مساجد ومدارس وزوايا، ومن خلال نشرها للمعارف والثقافة الدينية ساهمت في الحد من ظاهرة الأمية،⁽¹⁰⁾ وهو ما جعل الفرنسيين يجمعون عند احتلالهم للجزائر على انتشار التعليم بها خاصة التعليم الابتدائي.

والملاحظ أيضاً أنّ هذه المؤسسات التعليمية خاصة ذات التعليم العالي، والتي كانت تستقبل الطلبة لاستكمال دراستهم العليا خاصة الزوايا المشهورة منها كانت تستقطب الطلبة حتى من تونس، طرابلس، مصر، المغرب مقابل 4 بوجو ونصف، طول فترة مكوثهم بها.⁽¹¹⁾ فزاوية سيدي محمد بن أبهلول المجاجي بتنس، كانت تستقطب الطلبة

(1)- Saidouni, Op. Cit, p 317.

(2)- Emerit, l'état..., p 05.

(3)- شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية، ص 26.

(4)- Saidouni, Op. Cit, p 301 et 319.

(5)- Emerit, l'état..., p 06.

(6)- Dumas, Mœurs et Coutumes..., p 209.

(7)- Emerit, l'état..., p 06.

(8)- Ibid, p 12.

(9)- محمد نسيب، زوايا العلم، ص 91.

(10)- سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية، ص 144.

(11)- Dumas, Mœurs et Coutumes, pp 207,208.

الراغبين في المزيد من المعارف حتى من خارج مجالها الجغرافي، فمثلاً سعيد قدورة ارتحل من مدينة الجزائر للدراسة بها، وكما أنها كانت مقصداً للطلبة من مصر وتونس،⁽¹⁾ وهو ما جعل "رين" يشبهها بجامعة أوروبا في العصور الوسطى،⁽²⁾ أما مدرسة مازونة ومسجدها، فكان يقصدهما الطلبة من المغرب الأقصى، حتى من الأسرة العلوية الحاكمة⁽³⁾، وحتى المسجد الكبير بمدينة الجزائر، كان مقصداً للطلبة من مختلف الجهات من داخل الجزائر أواخرها، لأنّ دروسه كانت تفوق أحياناً المساجد المشرقية.⁽⁴⁾ إلا أنّ هذا لم يؤهله ليصبح مركزاً رئيسياً وتعليمياً يضاهي القرويين والأزهر والزيتونة.

أما زوايا الطرق الصوفية كالقادرية والرحمانية، فقد أعطت أهمية كبيرة لنشر التعليم، فهذه الأخيرة ربطت بين التربية الروحية والتعليمية، لهذا نجد كل شيوخها من العلماء، فهي تدرس العلوم الشرعية إضافة إلى تعاليم الطريقة، وقد تخرج على يد مؤسسها محمد بن عبد الرحمن الكثير من العلماء.⁽⁵⁾

فزوايا هذه الطرق، وإضافة إلى التعليم عملت على تزويد المريدين أو الإخوان بالشعائر الدينية والأوراد التي تمكنهم من الارتقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة⁽⁶⁾، وكغيرها من زوايا المرابطين عملت على ربط المعارف بالتربية الروحية، حيث يكسب الطالب الصبر وقهر الغرائز والترفع عن الماديات، واحترام الناس والتضحية في سبيل الجماعة⁽⁷⁾، وتهذيب سلوكهم وتربيتهم على احترام الوقت والمواعيد وأداء الفرائض، وتقديم الخدمات داخل الزاوية خارج أوقات الدراسة.⁽⁸⁾

وحسب كوثراني: «أنّ بعض الطرق الصوفية المرتبطة بالأوساط التجارية كانت القوة الدافعة للتطور الثقافي داخل حلقات المساجد وخارجها...». وأنّ وجود شبكات من الطرق الصوفية عبر المراكز التجارية في العالم الإسلامي سهل من التبادل الفكري

(1) - العيد مسعود، حركة التعليم، ص 61.

(2) - Rinn, Marabouts..., p18.

(3) - بوعزيز، المساجد العتيقة، ص 205.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 273.

(5) - Rinn, Marabouts....., p 461.

(6) - جوليان، إفريقيا الشمالية، ص 26.

(7) - عبد الحميد مزيان، المؤسسات، ص 19.

(8) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 173.

وتطوره،⁽¹⁾ وتحفيظ القرآن ونشر الإسلام وترسيخه بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وحتى في المناطق النائية،⁽²⁾ بين الجماعات البربرية، وتقريب عناصرها مشكلة وحدة متكاملة.⁽³⁾

وبالإضافة إلى هذا كانت زوايا هذه الطرق مخازن للكتب والمخططات في مختلف العلوم، وهذا راجع إلى اهتمام شيوخها وطلابها بالتعلم، والنسخ والنقل للكتب والجمع والشراء، رغم أنّ الكثير منها ضاع أو سرّب إلى أوروبا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر.⁽⁴⁾ إضافة إلى الدور الداخلي الذي لعبته هذه الطرق فإننا نجد أنّها كانت عامل مهم في نشر الإسلام، حيث ظهر شيوخها كدعاة وحاملي الإسلام والدعوة المحمدية في قلب الغابات الاستوائية،⁽⁵⁾ لإفريقيا جنوب الصحراء كتمبكتو، السودان الشرقي والغربي، السينغال النيجر الغابون،⁽⁶⁾ خاصة الطريقة التيجانية التي عملت على نشر الإسلام في هذه المناطق النائية التي لم ينلها الإسلام في العهود السابقة، انطلاقاً من القوافل التجارية،⁽⁷⁾ أما الطريقة القادرية فقد وصلت هي الأخرى حتى غرب إفريقيا السوداء، عن طريق القوافل التجارية الصحراوية، المنطلقة من مدن الشمال الإفريقي، والتي كانت تضم دعاة ووعاظ وعلماء متصوفة عملوا على نشر الإسلام ومحاربة الوثنية.⁽⁸⁾

2-2- الدور الاجتماعي والاقتصادي:

أ- الدور الاجتماعي:

عملت السلطة الروحية عن طريق الزوايا التي تعد مركزاً هاماً لها على دمج الشرائح الاجتماعية حيث كانت ملتقى كل الفئات بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الجهوي أو مكان الإقامة أو المهنة⁽⁹⁾، فقد كانت تضم الفقير والغني العالم والأمي،

(1) - كوثراني، السلطة والمجتمع، ص 38. هامش

(2) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 18. - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19-20، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 354، 354.

(3) - الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 250.

(4) - بوعزيز، موضوعات وقضايا، ص 223. - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 19.

(5) - صالح بوسليم، محمد الزين، «حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات»، الحوار المتوسطي، ع 05 مارس 2013، سيدي بالعباس، الجزائر، ص 48.

(6) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 169.

(7) - Rinn, Marabouts....., p 425. - Depont/coppolani, Op. Cit, p 424.

(8) - بوعزيز، موضوعات وقضايا، ص 447.

(9) - Stanbouli-Zghal, Op. Cit, p 207.

والشرفاء وغيرهم، وصهرتهم كلهم في بوتقة واحدة عملاً بالآية الكريمة ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾⁽¹⁾ كما أَنَّ المسجد كان ملتقى الجماعة بكل أطرافها من قادة وسياسيين وكبار الموظفين والعلماء وعامة الناس، فهو محل الشورى العامة ومنطلق كل سياسة ثقافية بالبلاد.⁽²⁾

لهذا عملت السلطة الروحية على توفير بعض احتياجات الناس والتخفيف من بؤسهم، وهذا من خلال نشاط مؤسساتها وأفرادها سواء في المدينة أو في الريف، خاصة من خلال دور الزوايا التي كانت تعد ملجأ للفقراء واليتامى والأرامل ومأوى لابن السبيل والزائرين، لكونها مركزاً للصدقات والهبات والعشور والزكاة الموجهة للفقراء والمحتاجين، مما جعلها تقلل من البؤس والحرمان والتشرد في المجتمع، فمثلاً بمدينة الجزائر كانت توفر مناصب للعمل والكسب والعيش الكريم لفئات عديدة من المجتمع.⁽³⁾

❖ الإيواء وتقديم الصدقات:

كانت هذه الزوايا تُموّل من طرف الأغنياء الذين يقدمون لها الإعانات المختلفة (حبوب، مواشي، ألبة...)، وكانت للفقراء وعابري السبيل الملجأ الذي يجدون فيه ما يحتاجون من أكل ولباس ومكان للراحة والنوم، لهذا فقد كانت بمثابة دار ضيافة للمسافرين والطلبة والزوار والمرضى، والميؤوس من شفائهم الذين وجدوا فيها المأوى والملبس والأكل، والملاذ من المجاعة ومن التشرد⁽⁴⁾، فمثلاً بمدينة الجزائر نجد زاوية الجامع الكبير تضم بيوتا للعلماء والغرباء والفقراء من لا مأوى لهم،⁽⁵⁾ في حين أن بعض زواياها كانت تستقبل نوعاً معيناً من الضيوف، مثل زاوية مولاي الحسن التي كانت دار سكن للعزاب، وزاوية سيدي أبي عتيقة تستقبل الفقراء والمرضى والعجزة.⁽⁶⁾ وزاوية الحاج محي الدين بن سيدي علي مبارك بالقليعة وزاوية سيدي الحبشي بأولاد منديل، وزاوية سيدي العيد ببني خليل وغيرها، كانت تعد مؤسسات خيرية ذات المنفعة العامة،⁽⁷⁾ وزاوية

(1) - سورة الحجرات، الآية 13.

(2) - عبد الحميد مزبان، المؤسسات الثقافية، ص 14.

(3) - غطاس وآخرون، ص 273.

(4) - Saidouni, Op. Cit, p 300.

(5) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 161. - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 25.
Devoulx, les édifices..., p 123.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 270.

(7) - Saidouni, Op. Cit, p 300.

أولاد سيدي الشيخ التي تحصل على موارد متنوعة من طرف الزوار لكنها كانت تصرف منها على الفقراء والمرضى والمعاقين والعميان الذين يأتون إليها طلباً للبركة،⁽¹⁾ أما بمنطقة زواوة، فكان المسافرون والزوار يأكلون ويشربون مجاناً بالزوايا، ويستثنى من هذا المصلين بها من الأهالي المقيمين حولها، إلا للفقراء منهم،⁽²⁾ وغالبيتها كان مأوى للمسافرين،⁽³⁾ كما نجد الشيخ سيدي سينا بالبطحاء (تلمسان)، كانت له 100 خيمة جزء منها مخصص لإيواء الغرباء وجزء لخدمه والباقي لأهله المقدر عددهم بـ150 نسمة.⁽⁴⁾

نجد من أفراد السلطة الروحية من وضع أملاكه في خدمة المجتمع مثل المرابط بن عيسى الذي يقول عنه حمدان خوجة: «وجدت فيه رجلاً بسيطاً ليس له غرور، وإنما ذو بصيرة تحدوه العواطف الإنسانية بلا تحيز لا يملك ثروة طائلة وذلك بعد أن يوزع الصدقات، لا يبقى له أكثر مما يقتات به، أمام بابه يوجد عدد كبير من الأجفان لإطعام ضيوفه وكذلك أكياس من الشعير والتبن للحيوانات التي رافقتهم وهو يستضيف كل شخص يقصده».⁽⁵⁾

ونظراً إلى الدور الذي كانت تقوم به شبهها محمد نسيب بدار الكرامة أو دار الضيافة،⁽⁶⁾ أما "أبو يعلى الزواوي" فشبهها بالجمعيات والشركات الخيرية بأوروبا وأمريكا.⁽⁷⁾

كما كانت بعض مراكز السلطة الروحية تخصص جزءاً من مداخيل أوقافها لخدمة المجتمع، عن طريق تقديم إعانات مالية ومساعدات عينية للفقراء والمحتاجين في شكل صدقات في المواسم أو في أيام محدودة، مثل تقديم وكيل أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي، إعانات للفقراء وزوار الضريح وعابري السبيل،⁽⁸⁾ ما مقداره فرنك أو 03 فرنكات للشخص الواحد،⁽⁹⁾ أما وكيل بيت المال يقدم كل خميس صدقة من الأوقاف توزع على

(1) - Daumas, Mœurs et coutumes, p 325.

(2) - أبو يعلى الزواوي، المرجع السابق، ص 118.

(3) - هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 88.

(4) - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 29. - عبد الله النجمي، المرجع السابق، ص92.

(5) - حمدان، المرأة، ص 59.

(6) - محمد نسيب، زوايا العلم...، ص 30.

(7) - أبو يعلى الزواوي، المرجع السابق، ص 118.

(8) - سعيدوتي، دراسات تاريخية في الملكية، ص 247.

(9) - سعيدوتي، النظام المالي، ص 142.

الفقراء المقدر عددهم بـ200 فقير، كما أنه يتكفل بمصاريف دفنهم،⁽¹⁾ هذه المصاريف ساهمت في مساعدة هؤلاء الفقراء ورفع الغبن عليهم.

كما أن بعض هذه المؤسسات الدينية كانت تقوم بإطعام الفقراء في المواسم كشهر رمضان والمولد النبوي الشريف، مثل زاوية عمار التنسي التي كانت تطعم الفقراء والمعوزين في المولد النبوي الشريف،⁽²⁾ وكذلك زاوية الثعالبي التي كانت هي تخصص صدقات، وتذبح ثور من بين 05 ثيران مخصصة للاحتفال بالمولد لصالح الزوار والفقراء،⁽³⁾ أما زاوية الأشرف فنجدها خصصت سنة 1186هـ/1770م ما مقداره 85.12 ريال من أجل الاحتفال بالمولد النبوي، منها صدقات نقدية للفقراء قدرت بـ35 ريال والباقي وجّه لشراء 03 ثيران وما يلزم لإعداد الوليمة،⁽⁴⁾ التي تقدم لفقراء الأشرف الذين يتلقون أيضاً صدقات من فائض أوقافها الموجهة للقائمين عليها وعلى صيانتها،⁽⁵⁾ أما زاوية محمد الشريف الزهار فهي الأخرى كانت تقدم الأكل للفقراء الذي يحضرون الاحتفال حيث تقوم بشراء ثورين، 6 مكابيل زيت، الخضر، 18 مكيل قمح و30 كيلة زبدة، 10 حمولات خشب والفحم.⁽⁶⁾

ومنها من استعمل فائض أوقافها لصيانة المرافق العمومية، مثل مؤسسة الجامع الأعظم التي تجاوزت العناية بالمرافق الدينية المالكية، إلى البنايات والعيون والسواقي حيث تشير إحدى الوثائق أنه خصص مبلغ 50 ريالاً لإصلاح بحيرة الحامة، وبناء فرن بباب عزون بـ63 ريالاً.⁽⁷⁾

❖ الدور العلاجي والتخفيف من حدة الكوارث والأزمات:

وإضافة إلى هذا كانت السلطة الروحية تشارك السلطة السياسية في تقديم الإعانات للمعوزين والفقراء خاصة أثناء الكوارث الطبيعية وانتشار الأمراض والأوبئة، التي تتغل غالباً كاهل السلطة السياسية، حيث يشير "سعد الله" إلى أن الشيخ عبد القادر بوسماحة

(1)- Aumerat, la propriétés..., p 323 -Tableau, p 244.

(2)- Devoulx, Les edifices, p 30.

(3)- Ibid, p 43. بودريعة، أوقاف الاضرحة...، ص158، 184.

(*)- ويذبح ثور لخدام الشيخ، كما يذبح ثور في اليوم الأول والثالث والسابع. - نفسه، ص158.

(4)- سجل 335، وثيقة رقم 13.

(5)- Devoulx, Les edifices, p 162.

(6)- Ibid, p 239.

(7)- غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 287.

صخر "99 بدنة" للضيوف دون الشياه، إضافة للتمر والطعام أيام القحط،⁽¹⁾ وعندما انتشرت الأمراض في سنة 1184هـ/1770م قامت الزاوية الرحمانية بإغيل علي بمنطقة القبائل بتزويد السكان بالحبوب من مطامرها الخاصة، كما قامت زاوية منعة الرحمانية بتزويد الفلاحين بالحبوب (البذور) أثناء فترات الجفاف،⁽²⁾ أمّا سنة 1200هـ/1786م عندما حدث وباء في مدينة الجزائر نجد أنّ العلماء بالمدينة عملوا جاهدين من أجل إيجاد الحلول والدواء،⁽³⁾ وفي سنة 1811م قدم المرابط سيدي بن عودة الغبريني بشرشال كل مخزونه أثناء المجاعة حيث وُزّع على البؤساء والفلاحين، وبهذا خفف من انتشار المجاعة⁽⁴⁾ وفي قسنطينة كانت العائلات الدينية الكبرى تنظم العلاقات العامة، وتتحرك أثناء الأزمات كالتطوع والكوارث الأخرى، بطريقة جماعية ومنسقة رغم أنّ المدينة كانت مقسمة إلى قسمين.⁽⁵⁾

إضافة إلى هذا كان بعض أفراد السلطة الروحية يقومون بدفع الدية لفك الخصومة التي غالبًا كانت تؤدي إلى الصراع،⁽⁶⁾ ومنهم من كان يقوم بافتداء أسرى المسلمين مثل الشيخ محمد عاشور الراشدي الذي كان يعتق رقاب المسلمين ويفدي الأسرة،⁽⁷⁾ بماله ويجاهد ويطعم المساكين ويحبس الأحباس أي أنّه قسم ماله نصفين، نصف للدنيا ونصف للأخرة، والشيخ بالغيث الذي بنى زاوية جديدة كان ينفق من ماله لتحرير الأسرى المسلمين إضافة إلى عمله على ترميم المساجد والنفقة على الفقراء.⁽⁸⁾

إضافة إلى هذه الخدمات التي كانت تقدمها السلطة الروحية للمجتمع، فقد كانت تعتبر كذلك مؤسسات علاجية يلجأ إليها الناس طلبًا للعلاج، حيث عمل الطلبة

(1) - سعد الله، على خطي، ص 206. - سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص 223.

(2) - صحراوي، المرجع السابق، ص31، 32.

(3) - Berque, Op. Cit, p 408.

(4) - Guin(L), " Notice sue la famille des Robrini de cherchel", **R.A**, N° 17, 1873, p 453.

(5) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 22.

(6) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 159.

(7) - سعد الله، على خطي، ص 206. - سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص 224.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 487.

(8) - سيدهم، المرجع السابق، ص 25.

والمرابطين على ممارسة التطبيب بطرق تقليدية تعلموها بالتجربة أو توارثوها إضافة إلى استعمالهم للسحر والشعوذة في العلاج.⁽¹⁾

حيث كان أحياناً المرابط يعالج ذوي العاهات، والنساء العقيمت،⁽²⁾ أو ينصح المرضى بالاستحمام في الحمامات المعدنية لعلاج أمراض الجلد والروماتيزم وغيرها من الأمراض،⁽³⁾ أو يعطيه تائم يعلقها لتقيه من الأمراض أو يأكل كمية من تراب المقام المبلل بالماء أو البخور بالأعشاب أعطاها المرابط للمريض،⁽⁴⁾ أو أن يطلب منه تقديم ذبيحة للضريح، أي ما يسمى "بالنشرة"⁽⁵⁾ أو عن طريق المسح باليد على المريض بدعاء أو بغير دعاء.

وبهذا فالسلطة الروحية متمثلة خاصة في الزوايا صهرت كل الفوارق الاجتماعية، حيث استمالت مختلف الشرائح الاجتماعية ونمت روح المحبة والتعارف بين الناس حيث أنّ الحضرات التي كانت تقام عند مقامات الأولياء والزردات والوعدات الموسمية كانت فرصة للتعارف وتبادل الأخبار بين الأهالي وحتى في ربط علاقات المصاهرات بين العائلات، بغض النظر عن ما يحدث فيها من مخالفات.

ب- الدور الاقتصادي:

فقد ساهمت السلطة الروحية في الحياة الاقتصادية بصورة مباشرة عن طريق ممارستهم لأنشطة اقتصادية كالتجارة والفلاحة أو بصورة غير مباشرة عن طريق حمايتهم للقوافل التجارية ومراقبة الأسواق.

ويشير "سعد الله" أنّ العائلات الدينية الكبرى في قسنطينة، كان لها دوراً فعالاً وناجحاً في تنظيم العلاقات العامة، ووضع شروط المعاملات، وتعمل على تنشيط الحياة الاقتصادية.⁽⁶⁾

ومن الأعمال التي قامت بها السلطة الروحية في الجانب الاقتصادي حمايتها للقوافل التجارية، مثلما فعل مرابط القليعة من عائلة سيدي علي مبارك الذي كان يشجع

(1) - القشاعي، الصحة والسكان، ص 182.

(2) - هانوتو/ لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 88.

(3) - القشاعي، الصحة والسكان، ص 199.

(4) - نفسه، ص 203، 204.

(5) - Ben Choaib, Op. Cit, p 255.

(6) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 22.

السكان البعيدين لجلب بضاعتهم، للمتاجرة تحت حمايته لهم من جميع المضايقات،⁽¹⁾ وبهذا أصبح دور المرابطين كحماة للأمن وسيلة ضرورية في الحياة الاقتصادية خاصة في الأرياف.⁽²⁾

فالأمن الذي فرضوه في مناطقهم سمح للتجار أن يكونوا في مأمن على تجارتهم، خاصة وأنّ منهم من عمل مرشداً للتجار والمسافرين وقدموا لهم كل وسائل الراحة في زواياهم، ممّا زاد في دخل الزاوية،⁽³⁾ ومنهم من جعل أضرحتهم وزواياهم مستودعات للسلع المختلفة لكونها أماكن محترمة ولا يجرأ أحد على سرقتها رغم بقائها مفتوحة دون حراسة مثل المرابط سيدي خالد قرب دلس، الذي جعل زاويته مستودعا لأهل دلس يضعون فيه الملح حتى تنزل قبائل أعالي الجبال لأخذه مقابل القمح والشعير.⁽⁴⁾

ومنهم من كانت له تجارة خاصة به مثل عبد الرزاق بن حمادوش الذي كان يتاجر مع المغرب، وأولاد سيدي الشيخ وأصحاب الطريقة الزيانية ببشار، والتيجانية⁽⁵⁾، التي حصلت على نصيب كبير من التجارة من خلال زواياها ببوسمعون، عين ماضي، غدامس، تماسين، توات... أين دخلت في تنافس مع الطرق الأخرى كالقادرية.⁽⁶⁾ فالتيجانية كانت تتحكم في طرق ومحطات القوافل والمخازن والمعاملات المالية بين الجزائر ودول إفريقيا الاستوائية، كما راقبت تسويق التمر بين بسكرة وتوقرت والأغواط،⁽⁷⁾ وراقبت وسيطرت على جزء من التجارة مع طرابلس.⁽⁸⁾

ومن الخدمات الجليلة التي قدمتها السلطة الروحية في الجانب الاقتصادي، قيام الطرق الصوفية بتوزيع الأراضي حول الزوايا لزراعتها من طرف الأهالي، ممّا حقّق الازدهار الاقتصادي الذي أدى إلى الاستقرار في هذه المناطق،⁽⁹⁾ ومنها من كانت لها أراض عبارة عن هبات يقدمها لها رجال الزاوية أو الناس المقيمين حول الزاوية وتساهم في التجارة من خلال مردود هذه الأراضي. ومنهم من اهتم بالفلاحة وتربية المواشي وحفر

(1) - حمدان، المرأة، ص 88. - Saidoni, Op, Cit, p299.

(2) - Saidouni, Op. Cit, p 299.

(3) - عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 229.

(4) - دوتي، المرجع السابق، ص 131.

(5) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 365.

(6) - عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 229.

(7) - Filali, Sainteté..., pp 138,139.

(8) - J.Andre, Op. Cit, p 200.

(9) - عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 229.

الآبار خاصة بالمناطق الصحراوية واستصلاح الأراضي،⁽¹⁾ مثلما فعل مرابط خنقة سيدي ناجي (جنوب شرق الأوراس)، سيدي مبارك بن ناصر الذي عمل على إنعاش القرية اقتصادياً من خلال شق قناة لسقي الأراضي الزراعية (ساقية موسى)، أو غرس النخيل والأشجار المثمرة وتعاونت الأسرة مع باي قسنطينة وشقت قناة "سيدي محرز" 1049هـ/1640م كما عمل مرابط العائلة "سيدي محمد" باستصلاح أراضي غرب الخنقة وغرس بها النخيل والأشجار.⁽²⁾

في حين نجد الرحمانية في منطقة زواوة قد عززت فكرة حب الأرض وخدمتها عند السكان خاصة بالريف والجبال، فالنشاط الاقتصادي في المناطق المرابطية كان بفضل النظام السياسي والاجتماعي الذي وضعه المرابطون، الذين فرضوا على الناس احترام القانون العرفي القبائلي في هذا المجال،⁽³⁾ حتى أن المرباط في بعض المناطق هو من كان يقوم بتحديد الضرائب وتوزيع الأراضي على أفراد القبيلة، ويحدد حصص الماء للسقي.⁽⁴⁾ وبهذا انتعش العمران وازدهرت التجارة في الأسواق الأسبوعية بالمنطقة وتحسنت حتى صارت تحقق الاكتفاء الذاتي بل أحياناً تحقق فائضاً في بعض المحاصيل.⁽⁵⁾

2-3- الدور الإصلاحي والقضائي:

أ- الدور الإصلاحي:

عملت السلطة الروحية على استتباب الأمن والسلم في المناطق البعيدة عن سلطة البايك، اعتماداً على سلطة ونفوذ المرابطين، فأنهت الخلافات بين الناس وفصت النزاعات بين القبائل المتناحرة أو حتى داخل القبيلة الواحدة، ومضفية على تدخلها قداسة خاصة، حيث أن المرابطين غالباً ما كانوا يحملون معهم القرآن الكريم للدعوة إلى الصلح والسلم لذلك يرضخ الجميع لهم.⁽⁶⁾

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 132، 133.

(2) - معاشي، المرجع السابق، ص 95، 97.

(3) - بن تونس، المواجهات، ص 98.

(4) - سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية...، ص 156.

(5) - محمد أرزقي فراد، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامي 1749 . 1949، أطروحة دكتوراه، تاريخ

حديث ومعاصر، جامعة الجزائر 2011، 2، ص 24.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p 301.

فقد كانوا يمثلون الصلح والعدل والتسامح وسط مجتمع دائم الصراعات والنزاع العشائري، معتمدين في ذلك على وقارهم ونفوذهم الذي يضمن لهم احترام قراراتهم،⁽¹⁾ أو على حكمتهم وحسن سلوكهم دينياً ودنيوياً وعلى نسبهم الشريف،⁽²⁾ خاصة وأنّ سكان الريف كانوا عصاة لا يعترفون بأيّ سلطة إلاّ سلطة المرابطين بما فيها سلطة الأغا أو الباي،⁽³⁾ فالمرابط هو من كان يتصرف فيهم، وطاعتهم له طاعة لا يمكن تفسيرها، إذا أخذنا بعين الاعتبار طبائعهم.⁽⁴⁾

كان المرابطون يحرمون إراقة الدماء، ويتدخلون لعقد السلم بين القبائل المتناحرة والإصلاح بينهم،⁽⁵⁾ فحسب "حمدان خوجة" «أنّ وجود المرابطين نعمة على المجتمع فبفضل نفوذهم يسكتون أسلحة الخصوم ويمنعون إراقة الدماء». ⁽⁶⁾ وأنّ السلم لم يكون يتم لولا وجود هؤلاء المرابطين «أما السلم فإنّه يتم دائماً بتدخل المرابطين». ⁽⁷⁾ لذلك يقول "سعيدوني": «إنّهم رجال السلم يحرصون على تقديم وساطتهم الخيرة لإخماد الصراع الذي أنهلك المجتمع القبلي». ⁽⁸⁾ لهذا نجد منهم من كان يتجول بين القبائل وفي الأسواق ويحث الناس على عدم التصارع، مثل سيد عبد القادر أمقران الذي كان يمر أيام الأسواق ويحث الناس على السلم وعدم التصارع. ⁽⁹⁾ رغم أن هذه الصراعات كانت بالنسبة للسلطة الروحية فرصة لإبراز هيبتها وشرعيتها ونفوذها.

أما أثناء حدوث الصراعات بين القبائل يلتزم المرابطون بالحياد، بعدها يقومون بمفاوضات ويسيرونها، ويحررون اتفاقيات الصلح مع حرصهم على الحفاظ على حقوق كل طرف دون خلق عداوات لأنفسهم⁽¹⁰⁾، لأنّه عند هذه الخلافات هم وحدهم من لهم حق التدخل والوساطة لفض النزاع، وإرجاع السلم بعقد هدنة قصيرة أو طويلة، فعند حدوث خلاف بين قبيلة قوية وأخرى ضعيفة تفضل القتال على الاستسلام، يجبر

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 128.

(2) - علي خنوف، المرجع السابق، ص 47.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 48.

(4) - حمدان، المرأة، ص 56.

(5) - Devoulx, les edifices, p 09.

(6) - حمدان، المرأة، ص 57.

(7) - نفسه، ص 56.

(8) - سعيدوني، في الهوية والانتماء، ص 154.

(9) - Feraud, Histoire de Bougie, p 122.

(10) - دوتي، المرجع السابق، ص 134.

المرابطون القبيلة القوية على وقف القتال حفاظاً على الأرواح وعلى عدم إبادة القبيلة الضعيفة.⁽¹⁾

فبفضل تدخلهم في الإصلاح وفك الصراعات بين القبائل والأعراش في منطقة القبائل كسيدي عبد الرحمن بوقبرين وسيدي أحمد أودريس وسيدي محند أومالك وسيدي منصور الجنادي، عاد السلم والازدهار والجاه إلى المنطقة.⁽²⁾ فسيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين أصلح بين آيث سعدان وآيث اليوسي⁽³⁾، أما سنة 1685م قام شيخ بني عباس بفضل بركته وحسن سيرته وحبه للسلم، بمنع حدوث حرب بين قبيلة منعة ونارة وأكثر من هذا قام بتوحيدهما، كما أنه وتحت رعايته تم توحيد أولاد عدي، أولاد مومن وأولاد عزوز وأولاد عداسة، ضد قبائل الشاوية طيلة التواجد العثماني.⁽⁴⁾

وفي سنة 1591م أجبر الشيخ أبو عبد الله بن مبارك من المخادمة قبيلتين على عقد هدنة⁽⁵⁾، فقد كان يبعث للقبائل إذا تصارعت بالكف عن القتال، كما وأنه وضع أياماً من كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن مبارك لا يحمل فيها سلاح ولا يتشاجر فيها، ومن يتعدى على هذا عجلت عقوبته.⁽⁶⁾ كما أن المرابط بمنطقة القبائل كان يجتمع دورياً مع شيخ القبيلة والقايد، خاصة أيام الأسواق الأسبوعية لتدارس القضايا العامة وحل المشاكل التي تقع بين الأعراش، وتتأقّل الأخبار التي وقعت داخل وخارج منطقتهم.⁽⁷⁾

أما إذا حدث خلاف كبير بين القبائل يستدعي المرابطون الجميع لعقد اجتماع بالسوق يحضره الجميع باستثناء النساء والأطفال والمرضى، ويتم الاستماع إلى كل الأطراف، بعدها يعلن المرابطون قرارهم، وإذا لم تكن هناك أي معارضة يطلب من الجميع المصافحة ووضع السلاح علامة على الموافقة على قرار المرابطين بالصلح،⁽⁸⁾ مثلما حدث سنة 1749م وبسبب الصراع الدائم بين القبائل اجتمع في سوق السبت التابع لبني واسيف كل من سادات بني بترون مع عدول وأهل قراهم وإمام مسجد "تحمامت" كل لعقد الصلح ووقف القتال بين القبيلتين وتم توثيق الصلح الذي أمضى عليها من جانب

(1)- Daumas, Mœurs et coutumes..., p 200.

(2)- Boulifa, Op. Cit, p 228.

(3)- Dermenghem, le culte..., p 167 (marge).

(4)- Filali, Sainteté..., pp 127,128. – Filali, L'Algérie Mystique, p 97.

(5)- Filali, L'Algérie Mystique, p 98.

(6)- ابن عسكر، المرجع السابق، ص 113-114.

(7)- علي خنوف، المرجع السابق، ص 47.

(8)- Daumas, Mœurs et coutumes..., pp 200,201.

بني بترون مرابطي ثقيميون ومن جانب بني واسيف مرابطي تيروال (Tiroual)، وقد نتج عن هذا إتحاد القبيلتين فيما بعد.⁽¹⁾

ومن العلماء من كان يقوم بالإصلاح أينما حل، ومنهم من كان إذا سمع بصراع بين القبائل والأعراش ارتحل إليهم طلباً للصلح والسلم بينهم مثلما فعل سيدي محمد بن عالية، الذي سمع بوجود صراع بين فرعين من صحاري أولاد إبراهيم، وهما أولاد داوود وأولاد ثابت تتصارعان، فسار نحوهما وألقى بنفسه بينهما وطلب منهم التوقف عن القتال بسبب تافه، لكنهما رفضا فحمل صخرة من جبل يعجز 100 رجل على حملها وهددهم بتهشيم رؤوسهم فتوقفوا عن القتال.⁽²⁾ أما "الورثياني" فقد ذكر عدة مرات في رحلته أنه قام بالإصلاح بين المتخاصمين في طريق رحلته نحو زواوة حيث يقول: «فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير...».⁽³⁾ وقوله: «ولما وصلنا قرية أولاد سيدي بهلول فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم».⁽⁴⁾

رغم أن المرابطين كانوا يلقون أحياناً رفضاً من كلا المتخاصمين مثل رفض أولاد طلحة الصلح، وكذلك الثارة الذين رفضوا الصلح بينهم عندما قصدهم الشيخ فصاح رجل مهم رافضاً الصلح فدعى عليه الشيخ "يعطيك الكي" فمرض الرجل وصار يكوى حتى مات.⁽⁵⁾ ومنهم من عرض حياته للخطر من أجل إقرار الصلح ففي سنة 1788م قتل سيدي عمار من طولقة عندما حاول فك الصراع بين قبيلتين أثناء المعركة.⁽⁶⁾

في الأخير ما يمكن قوله هو أن المرابط استطاع استغلال اعتقاد الناس في قوته الخارقة، وحاجتهم للصلح والسلم في التوسط لتحقيق الأمن أو هدنة مؤقتة بين القبائل، رغم أنه لم يكن ينجح دائماً في تحقيق السلم التام لعدم قدرته على تغيير طبائع القبائل

⁽¹⁾ - Filali, L'Algérie Mystique, p 100. - Patorni Op. Cit, pp315,317.

- هانوتو/لوتورنو، المرجع السابق، ج3، ص 504، 507.

- محمد سي يوسف، القانون في بلاد القبائل...، ص 286، 287.

⁽²⁾ - Trumelet, L'Algérie Légendaire, p 224.

- دوتي، المرجع السابق، ص 135.

⁽³⁾ - نفسه، ص 13.

⁽⁴⁾ - الورثياني، المصدر السابق، ص 7، 8.

⁽⁵⁾ - ابن مريم، المصدر السابق، ص 134.

⁽⁶⁾ - Filali, L'Algérie Mystique, p 99.

الميالة إلى العنف⁽¹⁾، كما أنّ قيامهم بدور المصلح في أثناء الحروب والنزاعات جعلهم يستغلون الوضع للرفع من نفوذهم ومنفعتهم في أوساط الأهالي.⁽²⁾

وبهذا فعمل السلطة الروحية على فض الخلافات والخصومات الداخلية بين أفراد المجتمع والقبائل أدى إلى نوع من الاستقرار ساعد على التفرغ لمواجهة الخطر الخارجي.

ب- الجانب القضائي:

لقد تولت السلطة الروحية وظيفة القضاء في المناطق الحضرية كالمدن والمناطق الخاضعة للسلطة عن طريق القضاة الرسميين الذين تعينهم السلطة، حيث يقومون بالفصل في الخصومات والنزاعات المدنية والجنائية طبقاً لكلا المذهبين المالكي والحنفي، أما بالريف ونتيجة ازدياد النفوذ الصوفي المرابطي سمح للمرابطين بممارسة القضاء وحتى الاشتراك في دواليب السياسة⁽³⁾، وهذا كلّ في ظل غياب السلطة الحاكمة بكل مؤسساتها المدنية، لذا تولى المرابطين وشيوخ الزوايا مهمة الفصل في الخصومات بعيداً عن نظام الحكم التركي أين خضع الناس لنظام قضائي خاص متأثر بالأعراف المحلية.⁽⁴⁾

لقد كان المرابط أو شيخ الزاوية أعظم مقاماً في النفوس من الحاكم الذي يمثل السلطة السياسية، لذلك كان إذا تخاصم الأفراد يلجئون إلى المرابط ويخضعون لحكمه، فقد كانوا يفضلون فك نزاعاتهم أمام المرابط أكثر من المثول أمام القاضي،⁽⁵⁾ ولأنّ مكانة المرابط في نظرهم تعلوا مكانة السلطة الممثلة في القاضي لإيمانهم واعتقادهم في كرامة الولي وحكمه.

إنّ قيام المرابط بدور الحكم والقاضي بين الناس في الشؤون الداخلية، جعله منافساً للأعيان والشيوخ والقياد، بحيث أنّه لم يكن يحد من مكانة المرابطين ونفوذهم المادي والمعنوي بدار السلطان سوى البايك،⁽⁶⁾ أو بعض القرارات غير الصائبة أحياناً، والتي كانت تمس بسوء سمعة بعض العائلات النافذة فتؤثر على حظوة ومكانة المرابطين.⁽⁷⁾

(1) - بن تونس، المواجهات، ص 106.

(2) - هانوتو/ لوتورنو، المرجع السابق، ج2، ص 86.

(3) - Filali, Saintité..., p 124.

(4) - Saidouni, Op. Cit, p 316.

(5) - دوتي، المرجع السابق، ص 126.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p 307.

(7) - دوتي، المرجع السابق، ص 126.

لقد كان المرباط مثله مثل القاضي لا يصدر الأحكام إلاّ بعد استتفاذ طرق ومحاولات الصلح، وإذا أصدر حكمه على الجميع تنفيذه وإذا احتج المحكوم عليه يتظاهر الولي بعدم سماعه⁽¹⁾، وقبل إصداره الحكم يستمع إلى كل المتخاصمين مثلما كان يفعل مرباطي أولاد سيدي الشيخ الذي كان يستقبل المتخاصمين وفق القانون ويستمع لكل الأطراف ثم يصدر حكمه.⁽²⁾

أما مريد الطريقة الرحمانية سيدي علي بن عيسى فقد كان يذهب إلى الأسواق ليقوم بدور القاضي في الأمور التجارية، وكانت كلمته مقدمة ومسموعة⁽³⁾، وكذلك أسرة مولاي الشقفة كانت لها محكمة قرب سوق الخميس للفصل في الخصومات،⁽⁴⁾ وحسب "دوماس" (Daumas) فإنّ تأثير المرباط في الأسواق وكلمتهم تفوق دور أمناء الأسواق.⁽⁵⁾ أما مرباطي خنقة سيدي ناجي فكانت لهم خيمة تسمى "ببيت الشريعة" وهي عبارة عن مقر للفصل في الخصومات بين البدو.⁽⁶⁾

2-4- الدور الأمني والجهادي:

أ- الدور الأمني:

إنّ الفراغ الذي تركته السلطة السياسية في المجتمع فصح المجال للسلطة الروحية لتولي مهامها، حيث عملت على توفير الأمن والحماية للسكان، وحتى للسلطة الحاكمة في تناقلاتها بالمناطق غير الخاضعة. فامتدت بهذا دائرة الولي (أوالمرباط) وشيخ الزاوية، إلى درجة أصبح دور الولي كحامي للبلاد وحارسها من أي خطر خارجي، إحدى مقومات المرباط وتأثيره⁽⁷⁾، وأصبحت الزاوية في المجتمع الريفي باعتبارها مركزاً للسلطة الروحية والفكرية والمادية، أداة ضرورية في المجتمع لضمان السلم والأمن الاجتماعي في المناطق البعيدة عن السلطة⁽⁸⁾، التي تميزت بهجمات اللصوص وقطاع الطرق على قوافل المسافرين، وهو دأبهم حتى قبل الوجود العثماني حيث يصف لنا "العبدري" في القرن 14م هذه الظاهرة عندما كان متوجهاً إلى تلمسان: «ولما انتهينا إلى المفازة التي على طريق

(1) - نفسه، ص 126.

(2) - Daumas, Mœurs..., p 323.

(3) - شلوصر، المرجع السابق، ص 20، 21.

(4) - علي خنوف، المرجع السابق، ص 51.

(5) - Daumas, Mœurs..., p 201.

(6) - Feraud, les harar....p145.

(7) - نيللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص 265.

(8) - Saidouni, Op. Cit, p 299.

تلمسان، وجدنا طريقاً لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد،... وتلك المفازة على قربها آخر بقاع الأرض على المسافرين، لأنّ المجاورين لها من أوضع خلق الله لا يسلم منهم صالح ولا طالح».⁽¹⁾ واستمرت هذه الظاهرة حتى العهد العثماني، لذلك عمل المرابطون على حماية المسافرين أفراد أو جماعة.⁽²⁾

فوجد مثلاً أبناء كل من سيدي علي مبارك وسيدي البركاني، وسيدي الغبريني يقومون بحماية المسافرين المارين على واد جر ومضايق الشفة، كما أنّ مرابطي القليعة من عائلة سيدي مبارك أعطوا ضمانات لكل القبائل السهلية أو الجبلية عند قدومها لسوق بوفاريك، الذي يعد نقطة التقاء هذه القبائل التي تحصل على حماية وعناية هؤلاء المرابطين.⁽³⁾ الذين حموا المسافرين وشجعوا التجار على الإتيان ببضاعتهم وهذا بالتزامهم بضمان سلامتهم، والدليل عند مجيء الفرنسيين وبعد اعتقال مرابط القليعة أصبح الطريق غير آمن و لم يعد يسلكه الناس.⁽⁴⁾

كما كان من غير الممكن لأيّ شخص أن يمر سالماً من حوض سيباو إلى يسر دون عناية شخصية من مرابطي المنطقة مثل آل الموهوب منذ 1600م وآل الإبراهيمي في ق 18م، ونايت محمد بن مالك لدى بني الغبريني وقبلهم محمد بن علي بن الحاج بتيفريت (ت 806هـ/1404م)،⁽⁵⁾ فالشيخ محمد بن الموهوب بالإضافة إلى كونه يقدم الطعام للناس ويرشدهم كان يرافق قوافل المسافرين والمارين ببلاد زواوة، لكي يحميهم من اللصوص الذين كانوا يهاجمون القوافل، وهو نفس العمل الذي كان يقوم به قبله والده الشيخ الموهوب بن محمد بن علي الزواوي.⁽⁶⁾

لذلك فإنّ توفير الأمن بالطرق كان من مهام السلطة الروحية مثلما هو الحال بمنطقة البابور، التي كانت بها العديد من الأسر المرابطة، التي تولت هذه المهمة، واعتمدت عليهم حتى السلطة التركية،⁽⁷⁾ وهذه المهمة اختصت بها السلطة الروحية في

(1) - محمد العبدري، المصدر السابق، ص 25.

(2) - Devoulx, les edifices, p 09.

(3) - Saidouni, Op. Cit, p 299.

(4) - حمدان، المرأة، ص 58.

(5) - ساحي، المرجع السابق، ص 56، 57.

(6) - ابن الفكون، المصدر السابق، ص 201. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 488.

- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 414.

(7) - Feraud (CH), "Epoque de l'établissement des turcs à Constantine", in **R.A.**, N° 10, 1866, p 195.

كامل الأرياف الجزائر خلال العهد العثماني، فشيخ المنطقة هم من كان يسهر على أمن الطرقات، وهذا باتخاذ أي شخص أوقافلة لمرباط لحمايتها، وحتى الحامية التركية لم يكن بإمكانها المرور براً نحو بجاية إلا إذا اصطحبت مرباطاً أو فعلها أخذ طريق البحر،⁽¹⁾ وقد أكد هذا "بايصونال" في رحلته من الجزائر إلى قسنطينة، حيث يذكر أنه كان بإمكانهم المرور دون خطر في المناطق غير الخاضعة لوجود مرباط معهم.⁽²⁾

وبهذا نستنتج أن وجود مرباط كان ضرورياً لحماية القوافل من قطاع الطرق حتى أصبح لكل قافلة مرباط يحميها^(*)، وهو ما سمح بمضاعفة مداخل المرباطين، فمنهم من كان يأخذ إتاوة مقابل حماية وضمان سلامة مرور القبائل أثناء تنقلاتها مثل صلحاء القنادسة (بشار)، التي كانت إتاوة حماية وضمان سلامة مرور القبائل إحدى مواردها.⁽³⁾ لم يقتصر دور المرباطين في حماية الطرق والحفاظ على سلامة أمن المسافرين، بل كانوا يسترجعون حتى ما سرق منهم من طرف اللصوص وقطاع الطرق، مثلما كان يفعل سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي كان يقوم بدور صاحب الشرطة ويسترجع ما سرق من ركب الحج ومن الأسواق لأصحابها،⁽⁴⁾ وكذلك شيخ زاوية القنادسة مولاي زيان، قضى حياته مسخراً بركته في طرد اللصوص المنتشرين بالصحراء، ولم يكن أحد يجرأ على السطو على القطعان والقوافل الموجودة في حمى صلحاء القنادسة،⁽⁵⁾ وكذلك نجد المرباط سيدي الحاج محي الدين بن علي مبارك بالقليلة استرجع قطعان ماشية مسروقة تخص قائد بني جعد أحمد بن شعبان،⁽⁶⁾ أما في البليدة وعند نشوب خلاف بين اليهود وبني مسعود من بني صالح الذين نهبوا عدة محلات لليهود، الذين احتموا بالمرباط سيدي بلقاسم أحد أحفاد سيدي أحمد الكبير الذي توسط لحل الخلاف، وحكم على قبائل بني مسعود بإرجاع بضاعة اليهود.⁽⁷⁾

(1) - حمدان، المرأة، ص 112. Robin, la grande kabyle....P57

(2) - Peyssonnel/ Desfontaine, Op. Cit, 502, p 198.

(*) - في المغرب سمي مرافق وحامي القافلة بالزطاط. - دوتي، المرجع السابق، ص 130.

(3) - دوتي، المرجع السابق، ص 130.

(4) - عبد الله نحوي، المرجع السابق، ص 96.

(5) - دوتي، المرجع السابق، ص 129.

(6) - Saidouni, Op. Cit, p 299.

(7) - Tumelet, Blida, 502, pp 392 et suit. - دوتي، المرجع السابق، ص 133، 134.

والجدير بالذكر أنّ دور السلطة الروحية في الحماية اتّسع باعتبار مراكزها خاصة الزوايا والأضرحة ملاذًا للفارين طلبًا للحماية في وقت تصاعد فيه العنف بين القبائل، وحتى داخل القبيلة الواحدة في ظل غياب السلطة السياسية، وهو ما وسع نفوذها بين الأهالي، حتى أنّها اعتبرت ملاذًا لأفراد السلطة الحاكمة نفسها،⁽¹⁾ كما أنّ أفرادها كانوا يتدخلون لدى السلطة لحماية الأهالي والتوسط للعفو عنهم مثل الشيخ محمد بن علي العبدلي (ت 1035هـ/1626م)، الذي كان يتدخل للتخفيف من جور القائد التركي محمد بن سوري ضد أهالي تلمسان ويأوي الناس من ظلمه رفقة العلماء والمرابطين⁽²⁾، كما يذكر "الجازولي" صاحب "كعبة الطائفين" أنّه كان مع شيخه العبدلي في داره فشاهد خلقًا كبيرًا فارين من جور الترك، فكان الشيخ يأويهم ويطعمهم ويسقيهم ويتشفع لهم لدى الترك، "فيقضي الله الحوائج على يده".⁽³⁾

وحماية للأهالي كان العلماء يتقدمون الأهالي لما تصل إليهم محلة الباي لجباية الضرائب، خاصة عندما يرفضون تأدية المغارم فيتقدم العلماء معلنين الولاء والطاعة ودفع الضريبة وطلب الأمان للسكان، مثلما حدث عندما توجه الباي محمد الكبير ناحية عين ماضي والأغواط أين تقدم العلماء حاملين صحيح البخاري طلبًا للأمان وإعلان الطاعة ودفعوا له 5 آلاف سلطاني ذهبي، و200 ثوب و4 جياذ.⁽⁴⁾

أما بمنطقة القبائل ونتيجة للصراعات والاضطرابات الداخلية التي شهدتها، إضافة إلى صراعها مع العثمانيين، جعلها تبحث عن يخرجها من هذه الأزمة، لذا لجأ الناس إلى السلطة الروحية ممثلة في شخص المرابط أو شيخ الزاوية، واحتتموا بها لذلك يقول "بوليفة": «أن منطقة القبائل لما شعرت أنّ حريتها مهددة من طرف الأتراك أو من طرف الحكام المحليين احتتمت تحت سلطة القرآن الكريم»،⁽⁵⁾ وهو يقصد هنا السلطة الروحية أي المرابطين، الذين وقفوا ضد أمراء كوكو سنة 1635م و1630م،⁽⁶⁾ مثل سيد أحمد أو مالك وسيد أحمد أودريس وسيدي منصور الجنادي الذي أصبح ملاذا لقبيلة بني جناد

(*)- ينظر القسم الثالث.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 218.

(3)- سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، ص 170.

(4)- Gorguos, "expedition de Mohammed el -kebir, bey de Mascara dans les contrées du sud", in **R.A** N°03, 1858, p 188.

(5)- Boulifa, Op. Cit, p 187.

(6)- ساحي، المرجع السابق، ص 130.

بأكملها، بسبب تسلط حاكم كوكو، عمر بن القاضي الذي كان يفرض عليهم ضريبة الضيافة واستغلال حيواناتهم لخدمته، فنجد الشيخ سيدي منصور الجنادي وقف ضده ومنع عليه جمع الضرائب بالقبيلة.⁽¹⁾

إضافة إلى هذه الحماية أو "العناية" كما تسمى في منطقة القبائل، فقد عملت السلطة الروحية على حماية المدن عند حدوث أخطار تهددها، حيث نجد أن علماء الجزائر لما رأوا إساءة ابن القاضي للسكان عندما حكم مدينة الجزائر منذ عام 1520م، شكل العلماء وفداً وأتوا إلى ابن القاضي ليخرج من المدينة ويعود خير الدين لها الذي تركها حفاظاً على أهلها وأمنها وطلبوا من ابن القاضي المغادرة فخاطبوه: «لقد جنناك راجين أن تسمح لنا بدعوة خير الدين من جيجل وتتسحب أنت إلى قبيلتك»، لكن ابن القاضي رفض طلبهم وقتل رئيس الوفد الذي هو عالم دين⁽²⁾، واستمر في حكم المدينة رغم تسلطه وإيذائه للناس، حتى سار إليه خير الدين وقتله سنة 1527م، كما نجد كذلك ابن الفكون وقف ضد هجوم باي تونس مراد باي سنة 1112هـ/1700م^(*) على مدينة قسنطينة،⁽³⁾ وقام بحمايتها كذلك عندما هاجمها ابن الأحرش سنة 1219هـ/1804م لما كان الباي عصمان في محلة نواحي سطيف لجمع الضرائب، فتولى الشيخ مهمة الدفاع عن المدينة رفقة قائد الدار الحاج أحمد بن الأبيض.⁽⁴⁾ كما نجد كلا من أحمد بن هطال التلمساني وأبو عبد الله محمد الغزلاوي ماتوا في معركة فرطاسة^(*) ضد ثورة درقاوة (1219هـ/1804م).⁽⁵⁾

أما أواخر العهد العثماني فنجد هذه السلطة الروحية شاركت وعملت على مقاومة الحكم العثماني ودافعت على الناس ضد تعسف الحكام، وإثقال كاهلهم بالضرائب بعدما تقلصت مداخيل الخزينة بسبب تراجع مداخيل البحرية التي كانت مصدراً أساسياً قاراً للخزينة كما سنرى في القسم الرابع.

⁽¹⁾ - Boulifa, Op. Cit, p 201 et suit.

⁽²⁾ - مذكرات خير الدين، ص 123.

^(*) - حول هذه الحملة ينظر:

-Mercier, histoire de Constantine, p239,241. -Mercier 'histoire de l'Afrique., T03, p319, 321.

⁽³⁾ - معاشي، المرجع السابق، ص 240.

⁽⁴⁾ - محمد الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح. رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص 30.

^(*) - ينظر: القسم 04.

⁽⁵⁾ - المزاري، المصدر السابق، ص 107.

ب- العمل الجهادي:

لم يقتصر دور السلطة الروحية على أعمال العبادة والتعليم والقضاء والإصلاح وتقديم الإعانة للناس بل تعدى ذلك إلى الجهاد في سبيل الله، حيث أنها كانت في مقدمة الصفوف للجهاد والدفاع عن الأرض، والتف الناس حولهم باعتبارهم السلطة القادرة على حمايتهم والدفاع عنهم، لذلك كان المرابطون والعلماء والفقهاء وطلبة العلم أكثر الفئات الاجتماعية استعداداً للتضحية والجهاد، ولهم القدرة على إقناع الناس على حمل السلاح والتطوع، بعدما يكونوا هم المثل لذلك.⁽¹⁾

فالغزو الخارجي هو الذي دفع ببعض العلماء إلى الانقطاع للجهاد والدعوة له، بدل الانقطاع للتعليم والتعلم،⁽²⁾ كما أن الجهاد في سبيل الله كان السبب الوحيد الذي يمكن أن يجعل المرابطين يحملون السلاح، وهو العامل الوحيد الذي تمكنوا من خلاله من جمع كل الأطراف تحت لواء واحد، متجاهلين كل الخلافات والظروف.⁽³⁾ وبهذا لم يقتصر دور المرابط أو شيخ الزاوية على نشر التعليم والدين بل تعدى إلى التكوين الحربي، بمحاربة أعداء الداخل والخارج.⁽⁴⁾

وبهذا تصدت السلطة الروحية للغزو الخارجي ممثلة في العلماء والمرابطين الذين كانوا ينشطون بشكل فردي أو تحت لواء الطرق الصوفية مثل أصحاب الطريقة القادرية بالغرب الجزائري التي قاومت الإسبان واعتبرت الجهاد وسيلة رئيسية للمسلم، ولهذا نجدها قدمت الدعم المادي والمعنوي للسكان.⁽⁵⁾

فهذه الطرق استطاعت ملأ الفراغ الثقافي والروحي وحتى السياسي، الذي كانت تعيشه الجزائر نتيجة انعزال الحكام وارتباطهم بالفقهاء، بالمدن، لتكون هذه الطرق وسيلة تأطير للسكان وحفظ مصالحهم، وتوجيههم للغزو باعتباره جهاداً مقدساً، وواجباً دينياً. لهذا نجدها قد برزت في الحركة الجهادية منذ بداية الغزو الأجنبي في بداية القرن 16م، أين ساهمت في الدفاع عن الأرض وتعبئة السكان، وإثارة الحماس فيهم للجهاد خاصة الغزو

(1) - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 121.

(2) - عبد الرحيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 25.

(3) - بن تونس، المرجع السابق، ص 106.

(4) - Benachenhou, Op. Cit, p 134.

(5) - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 106-107.

الإسباني⁽¹⁾. فالزوايا كانت مراكز للجهاد (رباطات)، وتكنات عسكرية لمواجهة العدو، وهو ما جعلها تساهم في البنية العسكرية للتاريخ الإسلامي حتى بداية العصر الحديث⁽²⁾، فهذه الرباطات كانت عامرة بالعلماء والزهاد الذين يقومون بالعبادات وحراسة الثغور، لأنّ المراقبة نوع من الجهاد⁽³⁾، لذلك نجد من العلماء من كان يرتحل إليها من مكان بعيد من أجل المراقبة فيها مثل الورثياني الذي كان يقصد بجاية كل رمضان للمراقبة بها حيث يقول: «كنت أصوم بها رمضان (بجاية) ناوياً الرباط»⁽⁴⁾.

ومنهم من نادى بإحياء الرباطات مثل الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي الذي نادى بإحياء رباط تلمسان حسب وثيقة بخط يده مؤرخة في سنة 954هـ/1548م، حيث عقد مؤتمراً وجمع فيه رؤساء قبائل أنقاد وبني سنوس وترارة ومطغرة، وبعض أعيان تلمسان من أجل إحياء الرباطات وتعهّدت بموجبها هذه القبائل على تقديم المساعدة للرباط بالمدد والرجال⁽⁵⁾، لهذا نجد أغلب الرباطات كان بالغرب الجزائري، لأنها المنطقة الوحيدة التي استمر فيها التواجد الإسباني إلى غاية سنة 1792م، منها رباط قصر الأمحال (القصر الأحمر) الذي يعود تأسيسه منذ العهد الفينيقي، ورباط الفتح الذي يعود إلى العهد الموحيدي، أما رباط إفري، ورباط جبل المائدة، ورباط سيدي معروف والبريدية، وتانسالت وواد مسرقين، فكلها استحدثت بعد الغزو الإسباني لمدينة وهران⁽⁶⁾.

ولقد ذكر لنا التاريخ الكثير من الأمثلة عن دور هؤلاء العلماء والمرابطين في الجهاد والدفاع عن الوطن، فمنهم من شارك بنفسه أو أتباعه، لأنّهم يرون أنّه من الدين محاربة الكفار، ولهم شرف التواجد في الصفوف الأولى ضدهم⁽⁷⁾، وهذا منذ بداية الغزو الإسباني على السواحل، ومن جملة من تولى الدفاع عن البلاد ضد الخطر المسيحي أحمد بن القاضي الذي كان يهاجم الإسبان عند جمعهم الحطب بـ100 رجل مشاه و300 فارس حسب وثيقة مؤرخة بـ08 أفريل 1534م موجودة بالأرشيف الإسباني الملكي⁽⁸⁾. أما

(1) - شارل أندري جولياني، إفريقيا الشمالية تسير، ص 25. - Merad Boudia, ... Op. Cit, p 339.

(2) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 152.

(3) - العجيلي التليي، المرجع السابق، ص 21.

(4) - الورثياني، المصدر السابق، ص 18.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 19، 20.

(6) - بوعزيز، موضوعات، ص 121.

(7) - Brosselard, Op. Cit, p 18.

(8) - ساحي، المرجع السابق، ص 123، 124.

أسرة المجاجي (أبهلول) بتتس فقد ساهمت في الجهاد والذي كان يعد أحد أسباب تأسيس زاويتها في ق 16م/10هـ، والتي كانت تستقبل الأندلسيين الفارين والمجاهدين خاصة عهد علي بن أحمد المجاجي⁽¹⁾، وابنه محمد الذي استقبل يومًا نحو 1300 مجاهد وأطعمهم طعاما يزيد عن 30 نوعا، واستمرت في الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي.⁽²⁾

أما عند الحملة الإسبانية على مستغانم سنة 965هـ/1558م، نجد المرابط عبد الرحمن أبي حميدة تولى الدفاع عن المدينة، بتجنيده للناس في وجه العدو إلى حين وصول المدد من الجزائر، وقد وقعت معركة بين الإسبان والعثمانيين سميت بمعركة مزهران^(*) في 22 أوت 1558م، وقد أُنشد بهذه المناسبة:

سلطانها سعيد وميتها شهيد وظالمها ما يموت كَيُريد.

أما الشاعر سيدي لخضر بن خلوف الذي شارك هو الآخر بنفسه في هذه المعركة وقد ترك لنا وصفاً دقيقاً لأحداثها وكيفية الإعداد لها.^(*)⁽³⁾

كما نجد كذلك الشيخ محمد بن علي العبدلي فقد كان يغزو ضد الإسبان بنفسه، وقد شاركه الجهاد عدّة مرات صهره محمد الجزولي، صاحب "كعبة الطائفين" الذي جاهد ووقف محذراً القبائل المتعاملة مع الإسبان، فقد كان جهاده حراً دون تنسيق مع

(1) - القاسمي، المرجع السابق، ص 233.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 202. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 432. - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 286. - الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص 432. - أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995، ص 471.

(*) - دول المعركة، ينظر. Haedo, Histoire des rois...P 117.

(*) - ياسيلني على طراد الروم قصة مزهران معلومة.

كيف ذا القصة بين النصراني وخير الدين.

ظل يسير بعشائره والقوم في وطن متيجة أولج الماء.

في أمره جاء العرب أطموم سلطان عادل طاعته الأمة.

جاوا شيوخ السويد للسلطان وفيهم أبوبكر ومحمد.

قالوا للأمير لا تليان لا دين إلا دين محمد.

الأمير حسان يوم مزهران اخلف الثار من العدو تحقيق.

رجع للبهجة روضة البلدان بغنائم شتى ونصر.

قصة مزهران معلومة

(3) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 23، 27. - قنان، نصوص ووثائق، ص 47، 49.

العثمانيين،⁽¹⁾ وهو نفس العمل الذي كان يقوم به محمد بن عاشور الراشدي فقد كان يشارك في الجهاد بنفسه ويطعم المجاهدين في سفنهم ويكسوهم من ماله الخاص.⁽²⁾

كما نجد كل من الولي العالم محمد السائح وولده، اللذي كانا يحاربان الإسبان وقد استشهد هو ومحمد بن ملوك العامري سنة 1053هـ/1643م في قتالهم مع الإسبان،⁽³⁾ أما الشيخ أحمد بن ثابت فقد قاد الطلبة والعلماء ضد الإسبان في وهران، والفقيه أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني، المعروف بمحمد بن توزينت العبادي الذي عرف عنه العلم والجهاد معاً، استشهد سنة 1118هـ/1708م أثناء الفتح الأول لوهران،⁽⁴⁾ وهو الذي قال عنه المدني: «أنّه كان أكثر الناس حرصاً على الظفر بالشهادة، والفوز بالسعادة... يبحث عنها في كمائن العدو... ويحرض الناس على طلبها».⁽⁵⁾

وقد استمر أقطاب السلطة الروحية في الدفاع عن الأرض والجهاد حتى القرن 18م ضد الهجمات الأوربية على الجزائر، مثل الحملة الدنماركية على الجزائر سنة 1184هـ/1770م، حيث كان المرابطون أكثر المدافعين عنها،⁽⁶⁾ وهم من أعلن الجهاد في منطقة القبائل، وشاركوا في رد حملة أوريلي سنة 1189هـ/1775م على جيجل⁽⁷⁾، مثل سيدي عبد الله مولاي الشقفة، الذي أظهر شجاعة في محاربة الإسبان أثناء الحملة وهو ما جعل العثمانيين يطلقون اسمه على أحد أحياء مدينة الجزائر.⁽⁸⁾

أما أثناء الفتح الأول لوهران سنة 1118هـ/1708م، فقد شارك فيه الكثير من العلماء مثل عبد القادر المشرفي، الذي ألف مؤلفاً شهراً فيه بالقبائل المتعاونة على الإسبان في احتلال وهران سماه: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان من الأعراب...».^{(9)(*)} أما في الفتح الثاني سنة (1207هـ/1792م)، نجد أنّ أبا راس

(1) - سعد الله، على خطي، ص 205، 206.

(2) - نفسه، ص 206.

(3) - سعد الله، على خطي، ص 205.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 22، 23.

(5) - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة، ص 456.

(6) - دوتي، المرجع السابق، ص 84.

(7) - De Grammont, Op. Cit, p 324.

(8) - علي خنوف، المرجع السابق، ص 51.

(*) - مثل قبائل، كريشئل، نافع حميان، غمرة، قيز، أولاد عبد الله، أولاد علي، الوزازرة، بني عامر.

(9) - المزابي، المصدر السابق، ص 100 (هامش). - بوعزيز، أعلام الفكر، ج1، ص 231.

الناصري لما سمع بالحرب ضد الإسبان وهو في تونس عائد من الحج، فأسرع للمشاركة فيها وبلغت حماسته حد التطلع إلى فتح الأندلس⁽¹⁾، وكان من الداعين للتخلص من الإسبان لذلك كتب عدة كتب في هذا منها: "نفيس الجمان فيما جرى بالأندلس ووهران"، وهو نفس التطلع الذي تطلع إليه الشيخ الحلفاوي لفتح الأندلس بعد فتح وهران سنة 1708م، حيث أنشد:

ففتحنا يوم العروبة فتحاً أرى في الأندلس مطمعاً.⁽²⁾

واستمر العلماء والمرابطون في هذا الدور حتى ضد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، حيث تزعم الجهاد في منطقة القبائل العائلات الكبرى مثل: عائلة ابن القاضي، وعائلة المقراني، وعائلة أوقاسي...⁽³⁾ أمّا حمدان خوجة فقد وجه رسالة مؤرخة في 29 ربيع الأول 1249هـ/16 أوت 1833م إلى السلطان محمود 02 جاء فيها: «إنّ عبدكم يترجاكم أن تتقذوا العباد من هاته المصيبة...».⁽⁴⁾

وفي رسالة أخرى مؤرخة في 23 محرم 1250هـ/1 جوان 1834م وجهها إلى صديقه محمود حتى يوصلها إلى الباب العالي جاء فيها: «وأنا في ديارهم لم أقصر فيها لأقدر عليه بلساني، وقلمي ولم أنّ الكفار يعلمون شطر ما فعلت من تحريرات وتأليف، ومراسلات مع الأجناس... كل ذلك لأجل إنقاذ البلاد، لأكلوا لحمي، وأوقعوا بي، والحمد لله سترني الله».⁽⁵⁾

وبهذا فإنّ تيار الجهاد الذي انطلق من المؤسسات التابعة للسلطة الروحية تحت رئاسة شيوخها ورؤسائها، هو الذي دفع العثمانيين عند دخولهم إلى الجزائر إلى ركوب أمواجه ليحدث تحالفا بين السلطة الروحية والحكام على صعيد الجهاد في سبيل الله، وهؤلاء الرؤساء الروحيون هم من أظهر الطريق الخلاص للسكان لذلك عقدوا صلات مع البحارة العثمانيين.⁽⁶⁾ الذين قاموا بتحرير المدن الساحلية من الغزو الاسباني.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 208، 209. - سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، ص 87.

(2) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 256. - مولاي بلحميسي، "تحرير مدينة وهران 1708م"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع9، 1970، المغرب، ص 55.

(3) - محمد سي يوسف، القانون في منطقة القبائل...، ص 279. - Bontems, Op. Cit, p 65.

(4) - التميمي، بحوث ووثائق...، ص 169.

(5) - نفسه، ص 179.

(6) - نيقولاي إيفانوف، المرجع السابق، ص 99.

في الأخير ما يمكن أن نشير إليه هو أنه ورغم الدور الإيجابي الذي لعبته السلطة الروحية في المجتمع، من تحفيظ للقرآن وتعليم اللغة العربية ونشر الإسلام في المناطق النائية، وقيامها بدور الشرطة والقاضي بالمجتمع وإنهاء الخلافات بين أفراد المجتمع، ومحاربتها السلطة المستبدة داخلياً وخارجياً، ومساعدتها للناس أيام الأزمات، إلا أن اعتمادها على المناهج التقليدية في التعليم خلّف جموداً فكرياً وركوداً ذهنياً، وانتشاراً كبيراً للدروشة والخرافات بين أتباعها وبين الناس ذوي الأفق الفكري الضيق مما أعجزهم عن فهم التطور والإصلاح القائم في بلدان المشرق الإسلامي،⁽¹⁾ مثال ذلك أنهم كانوا يرجعون كل الأمراض إلى الجن، وعليه يجب إيجاد الدواء عن طريق التعويذات.⁽²⁾

فانعدام الوعي الاجتماعي والفكري أو نقصه لدى العامة فسح المجال لأغلب الزوايا والقائمين على الأضرحة في خداع الناس بكرامات مصطنعة، تتبع الأولياء حتى بعد مماتهم مثلما كانت منسوبة لهم في حياتهم عن حق أو باطل.⁽³⁾

كما أن انحراف بعض الزوايا عن المسار الصحيح والنهج القويم، الذي أسست لأجله أثرت سلبياً على المجتمع وساهمت في تخلفه، رغم ما قدمته له من أعمال جليلة في جميع المجالات، وهذا بسبب طموح مؤسسيها وأحفادهم من أجل الزعامة، وحب الذات وتسخير المريدين والأتباع لخدمة الشيخ حتى صاروا عبيداً عندهم،⁽⁴⁾ حيث يجد الطلبة أنفسهم مجبرين على خدمة الزاوية وإن خالف طالب ذلك عرض نفسه للعقاب ويعد مروقاً عن الدين ويحرم من البركة، وهذا ما جعل الطالب في بعض الزوايا يفني عمره في حفظ القرآن الكريم دون تدبره، ولا يسمح له بحضور دروس الفقه حتى يصير عمره أكثر من 30 سنة، وأحياناً يصل حتى الكهولة ويعود إلى بلده،⁽⁵⁾ وهذا كله يعود في الغالب إلى سوء تصرف الخلف (الأبناء والأحفاد) وابتعادهم عن الهدف الأساسي الذي أسست لأجله الزاوية، فعوض أن يعملوا على نشر الدين والعلم حسب تطورات العصر، نجدهم تشبثوا بالتقليد ونشروا البدع حتى يسيطروا على الأذهان، ليحافظوا على امتيازاتهم ومكانتهم، وهذا كله يعود إلى ضعف الوازع الديني والرصيد العلمي لديهم.

(1) - بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 18، 19.

(2) - Boyer, la vie quotidienne, pp 206, 207.

(3) - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص 546.

(4) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 174.

(5) - نفسه، ص 174.

القسم الثالث

السلطة الروحية من التنظيم السوسيوثقافي
إلى العمل السياسي

الفصل الخامس: الاستراتيجية العثمانية اتجاه السلطة الروحية

الفصل السادس: امتيازات السلطة العثمانية للسلطة الروحية
ونتائجها

الفصل الخامس

الاستراتيجية العثمانية اتجاه

السلطة الروحية

1- دوافع التحالف العثماني مع السلطة الروحية:

لقد افتقرت الجزائر مطلع القرن 16م إلى سلطة مركزية، قادرة على التصدي للخطر الخارجي الذي كان يهددها، على الرغم من ظهور عدة زعامات محلية، لكن هذه الأخيرة لم تستطع لم شمل القبائل وتكوين سلطة وطنية تملأ الفراغ الذي تركته السلطة الزيانية، الأمر الذي دفع بها إلى الاستجداد بالعثمانيين.⁽¹⁾

فالفراغ السياسي الذي عرفته منطقة المغرب الأوسط، لعب دورا في بروز السلطة الروحية خاصة المرابطين، وتوليهم مسؤولية الدفاع عن الإسلام ومحاولة البحث عن قوى إسلامية جديدة للتحالف معها، وبظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث، وصراعها مع الاسبان ساهم في إحلال البديل العثماني مكان السلطات الزمنية القائمة، التي فقدت تأثيرها أمام الطرق الصوفية ورجالها.⁽²⁾ لذلك نتساءل هنا عن الأسباب والعوامل المشتركة التي أدت إلى التقارب العثماني مع السلطة الروحية.

1-1- العمل الجهادي أو الجهاد ضد العدو المشترك:

إذا تتبعنا مسار المقاومة التي خاضها الجزائريون ضد الوجود الإسباني نجد أن أول من عارض الاحتلال الإسباني في الجزائر هم العلماء ورجال الدين خاصة المرابطين،⁽³⁾ فالزوايا ومن خلال نشاط المرابطين والطرق الصوفية كانت العامل الوحيد القادر على تجنيد الأتباع وإثارة الحماس وتنظيم المقاومة،⁽⁴⁾ خاصة بالريف أين كان لها دورا إيجابيا منذ القرن 16م، حيث كانت عبارة عن رباطات أو نقاط أمامية ضد العدو، والتي غالبا ما كانت معبئة من طرف الحركة المرابطية التي عملت على تجنيد الناس وإلهاب مشاعر الحماسة لديهم للمقاومة،⁽⁵⁾ وهذا باسم الجهاد في سبيل الله ضد التواجد الإسباني،⁽⁶⁾ فقد قاد المرابطون أتباعهم للجهاد وتحالفوا مع الأمراء الرافضين للتواجد المسيحي، الذي سمح بدوره للعثمانيين بكسب مجد الجهاد المقدس، وناصروا المجاهدين

(1)- أرزقي شويتم، القوى المحلية...، ص 159.

(2)- سعد الله، على خطى...، ص 186، 187.

(3)- الجامعي عبد الرحمن، فتح مدينة وهران، تحقيق د.حساني مختار تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطين، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، 2003م، ص 14 و 17.

(2)- سعيدوني، مؤسسة الزوايا...، ص 26.

(5)- Merad Boudia, Op. Cit, p369. - Laroui (A.), Histoire du Maghreb, Maspero Paris, 2 vol, 1976 p56.

(4)- سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 38.

وأطعموهم بزواياهم، وخير مثال على ذلك زاوية محمد بن علي المجاجي المعروف بأبهلول التي كانت مركزا للمجاهدين، حيث أنه أطمع يوما نحو ألف وثلاثمائة مجاهد، وقد استمرت في عملها الجهادي حتى أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر.⁽¹⁾

فتيار الجهاد الذي انطلق من المسجد والزاوية حيث طلبة العلم وشيوخه، كان له صدى وقوة تأثير كبيرين، وهو ما دفع بالحكام إلى ركوب أمواجه وتنظيم مساراته، وتوجيه فعالياته، فكان اللقاء الخالد بين الحاكم والمحكومين على صعيد الجهاد،⁽²⁾ لهذا فمراكز السلطة الروحية وخاصة الزوايا والمساجد عملت على صهر كل التناقضات الداخلية في تيار الجهاد.⁽³⁾

فالسلطة الروحية ممثلة خاصة في المرابطين، عرفت أزهى فترات قوتها ونفوذها بعد انهيار الحكم المركزي نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م، وإغفاله للجهاد عند تكالب الحملات الاسبانية على السواحل، أين هب الناس للدفاع عن البلاد تحت راية وتوجيه السلطة الروحية، التي سعت إلى إيجاد سلطة مسلمة حازمة حتى ولو كانت مستبدة،⁽⁴⁾ لذلك لما ظهر العثمانيون ساندتهم الأهالي، ووقفوا إلى جانبهم للدفاع عن البلاد بحكم العدو المشترك المتمثل في الخطر المسيحي ومن ثم الاستقرار فيها، لأنهم نظروا إليهم على أنهم منقذين أكثر من كونهم حكاما مستبدين، لذلك أظهر العثمانيون أنفسهم على أنهم حماة الدين.⁽⁵⁾

فالعثمانيون ومنذ أن حلوا بالجزائر أدركوا أنهم غرباء عن البلاد، ولا تربطهم بالأهالي أي رابطة إلا رابطة الدين والجهاد ضد العدو، ومن هذا المنطلق سعوا للبحث عن حلفاء لهم ضمن فئات المجتمع يؤمنون أكثر بفكرتهم الجهادية، فوجدوا رجال الدين أو العلماء،⁽⁶⁾ الذين رأوا في هؤلاء الفاتحين الجدد قوة إسلامية منقذة للبلاد من حالة الفوضى التي عاشتها بعد تفكك المغرب الإسلامي. لذلك استغل العثمانيون عامل الروح

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 202. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 342

(2) - العسلي، الجزائر والحملات الصليبية....، ص 8، 9.

(3) - نفسه، ص 184.

(4) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 418.

(5) - حمدان، المرأة...، ص 111.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 190، 191.

الجهادية في الأوساط الشعبية والعداء المشترك للمسيحيين،⁽¹⁾ رغم أنهم كانوا يضمنون داخلهم أعلاجا ومسيحيين ومغامرين لا عقيدة لهم، إلا أن الإسلام كان الرابط الوحيد بينهم ظاهريا.⁽²⁾ فصراعهم ضد التواجد المسيحي، والذي ظهر كجهاد مقدس في نظر العلماء ورجال الدين،⁽³⁾ وانتصاراتهم التي تركت أثرا حسنا لدى الأهالي، هو الأمر الذي حتم على العلماء التعاون معهم ومساعدتهم،⁽⁴⁾ لذلك نجد السلطة الروحية وظفت نفوذها الروحي على الأهالي لمبايعة العثمانيين، والتعاون معهم ومباركة حركتهم الجهادية.

فالسلطة الروحية وثقت في العثمانيين وفي إسلامهم، ورأت أن أعمالهم تدخل في إطار الجهاد في سبيل الله، وما التحالف الذي كان بين عروج وابن القاضي سنة 1512م لتحرير بجاية إلا مثالا على ذلك التحالف، فأحمد بن القاضي دعم العثمانيين في جهادهم ضد الاسبان، فكان على رأس المرابطين والعلماء الذين دعوا إلى الجهاد، ومساعدة العثمانيين عندما استقروا بجيجل سنة 1514م، وقد استمر هذا التحالف طيلة تواجد العثمانيين بالجزائر وبصورة تلقائية غالبا، ليس من السلطة الروحية فقط، بل حتى من أمراء القبائل.⁽⁵⁾

وقد تجسدت رابطة الجهاد بين السلطة الروحية والعثمانيين، أكثر أثناء الفتح الأول 1118هـ/1708م والثاني لوهران 1206هـ/1792م، فأثناء الفتح الأول وبينما كان الداي محمد بكداش ينظم قواته كان رجال الدين والأئمة في المساجد يلهبون الحماس في قلوب الناس ويدفعونهم للقتال.⁽⁶⁾ كما قصدوا معسكره بكثرة، وقد ذكر أبو زيد عبد الرحمن الحلفاوي ذلك قوله: «جاء الناس إليه من كل فج عميق... وكان طلبة العلم، وحملة القرآن هم أشد الناس مسارعة لإجابة دعوى السلطان إلى هذا الجهاد المبارك». ⁽⁷⁾ مثل العالم أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني المعروف بأبي توزنيت، الذي استشهد أثناء

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص190، 191.

(2) - Boyer, Contribution ... p28.

(3) - Bel, OP. Cit, p388.

(4) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 431.

(5) - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص458 و461.

(6) - العسلي، الجزائر والحملات الصليبية، ص 120.

(7) - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة....، ص455.

الفتح،⁽¹⁾ وحسب ما ذكره "أحمد توفيق المدني" فإنه كان أكثر الناس حرصا على الشهادة ويحرض الناس على طلبها.⁽²⁾

وقد جسد لنا مفتي تلمسان محمد بن أحمد الحلفاوي دعم السلطة الروحية للحكام في الجهاد قوله في قصيدة:

لما أراد الله بالدين وهران جلاعن أرض وهران بني الكفر جلا	
هو دولة الحبر محمد بكدش	تاريخها طبق محمد بكدش
إذ جمع الأي بعزم حازم	على الجهاد لم يعقه جازم
فجهز جيشا حمى الدين فساد	إذ طهرت بقاع من فساد
ثم تتادى بالجهاد في الأفاق	فأعزم الحازم والغفل أفاق
فسارع الناس له من طلبه ^(*)	لأسيما جماعة من طلبه ⁽³⁾

فالتواجد الاسباني على سواحل الجزائر لعب دورا بارزا في تدعيم فكرة التحالف بين العثمانيين والسلطة الروحية، خاصة وأن السلطة بالجزائر لم يكن بإمكانها التغلب على تهديدات السفن الأوربية من دون مساعدة المرابطين، فبمجرد حدوث هجوم، صيحة واحدة من أحد المرابطين تكفي ليهب الناس لمواجهة العدو الأجنبي، فسلطتهم الروحية كانت كفيلة بتجنيد الناس ضد النصاري، خاصة وأن السلطة الحاكمة لم يكن بمقدورها التغلب على الحملات الأوربية، كحملة أوريلي سنة 1775م،⁽⁴⁾ التي شارك المرابطون إلى جانب العثمانيين في صدها، وهم من أعلن الجهاد في منطقة القبائل،⁽⁵⁾ مثل سيدي عبد الله مولاي الشقفة، الذي سمى العثمانيون حيا باسمه بمدينة الجزائر نظير ما أظهره من شجاعة وبطولة في صد هذه الحملة،⁽⁶⁾ وقد حدث الشيء نفسه قبلها بخمسة سنوات أي سنة 1184هـ/1770م أثناء الحملة الدنماركية على الجزائر، حيث نجد أن أكثر

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص22.

(2) - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة...، ص456.

(*) - إن عدد الطلبة قد وصل من الألف إلى السبعمائة، يرأسهم أبو عبد الله محمد الموفق التلمساني. - ابن ميمون،

المصدر السابق، ص 253. (هامش)

(3) - نفسه، ص 249، 253.

(4) - Saidouni, Op. Cit. p 403.

(5) - De grammont, Op. Cit. p 324.

(6) - علي خنوف، المرجع السابق، ص 50

المدافعين عن المدينة هم المرابطين،⁽¹⁾ وحسب "بروسلار" (Brosselard) فإن أقطاب السلطة الروحية كانوا يرون أنفسهم أنهم حماة الدين ، وأن الجهاد واجب على كل مسلم، ولهم شرف التواجد في الصفوف الأولى ضد الكفار، لذلك نجدهم يندفعون بحماس للجهاد.⁽²⁾ و قدموا دعمهم المطلق للعثمانيين، مثل المرابط سيدي بلاحة الذي قتله الإسبان عام 1098هـ-1696م، دعم الجيش العثماني المتكون من 700 جندي في صراعهم ضد الأسبان في وهران بـ300 جندي.⁽³⁾

وبما أن الجهاد كان يمثل القضية الأولى في اهتمامات العلماء الذين شاركوا في الجهاد أفراد وجماعات وخاضوا معارك، ونظموا أشعارا لإلهاب حماس الناس، وكانوا أكبر المحرضين للباشاوات والبايات على الجهاد،⁽⁴⁾ وتذكيرهم بواجبهم لتحرير الأرض المغتصبة، وهذا من خلال شعر "الاستصراخ"، ومن أكبر المحرضين للحكام على الجهاد الشاعر محمد آقوجيل الجزائري الذي خاطب الداي أحمد باشا (1695-1698م) وحثه على استرجاع مدينة وهران جاء فيها:

ولتلنتفت نحو الجهاد بقوة	والكفر اقطع أصله بذكور
جهز جيوشا كالأسود وسرحن	تلك الجواري في عباب بحور
أضرم على الكفار نار الحرب لا	تقلع ولا تمهلهم بفتور
وبقرنا وهران ضرر متوالم	سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم آذت من مسلمين وكم	سبت منهم بقهر أسيرة وأسير
فانهض بعزمك نحوها مستصرا	بالله في جد وفي تشمير
بادر بنا نغزو العدو وسرعن	في حسم شوكتهم وفي التدبير ⁽⁵⁾

وقبله ناشد العلامة أبي العباس أحمد بن أبي محلى السجلماسي (ت1613م) العثمانيين من أجل إنقاذ وهران قائلا:

(1) - دوتي، المرجع السابق، ص 84.

(2) - Brosselard, les khouans..., p18.

(4) - Touati (H.), Entre Dieu et les hommes (léttrés, Saints et sorciers au Maghreb, 17ème Siècle Ed.E.H.E.S.S, Paris, 1994, p179.

(4) - بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة...، ص230.

(5) - الجامعي، المصدر السابق، ص 43. - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة، ص 438.

- بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ص248. - العسلي، الجزائر والحملات الصليبية، ص 189.

فمن مبلغ عني كل ملوك الأقاليم وكل رئيس من رؤوس العمام
 فما لبني عثمان في سنة الكرى ووهرا تزهو نخوة بالمراغم
 وبأ معشر الأتراك ما بال سعيكم وكلكم أعماله بالخواتم⁽¹⁾
 كما كتب قصيدة "الراية" على سبيل المعايرة لقبائل بني عامر على تحالفهم مع
 الاسبان ضد إخوانهم ومستصرخا العثمانيين للجهاد لإنقاذ وهران: جاء فيها:
 فمن مبلغ عني قبائل عامر لاسيما من قد ثوى تحت كافر
 يا معشر الأتراك أيا كل عالم وكل ولي حافظ للأوامر
 أنا شدكم بالله ما عذر كلكم لدى الله في وهران أمر الخنازير
 أذلكم الله كيف رضيتم بسبي العذارى من بنات الأكابر
 وتحت اليهود عادة عربية يعاليها والخنزير فوق المزابر⁽²⁾
 وكذلك نجد العلامة سيدي محمد بن عبد المؤمن محرضا الداى حسين الشريف باشا:
 نادتك وهران فلبى نداها وانزل بها لا تقصد سواها
 واستدع طائفة العساكر نحوها يغزونها ولينزلوا بفناها
 أضحى الصليب مؤيدا والدين قد درست معالمه فلست تراها
 جرد ضباطك لمحق آثار العدا حتى ترى الإسلام في مغناها
 الآن أن الفتح إذ ظهرت به آثار تتبى أنه وافاها⁽³⁾
 أما ابن سحنون الذي كان يعتبر شاعر البلاط، هو الآخر كان له دور في حث
 الحكام على الجهاد حيث قال:
 يا أمة غابت عليها حلومها وأصبح داعي المشركين يسومها
 لها همم مقصورة عن سفالة وما وجدت من ناسها من يلومها
 كساها طلاب المال ثوب مذلة فصالت عليها واستجاشت خصومها
 ألا يقظة من رقدة طال وقتها فلا أحد في العالمين يلومها.
 إلى أن يقول:

(1) - الجامعي، المصدر السابق، ص 44، 45. - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 299، 301.

- أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة...، ص 442، 443.

(2) - المشرفي، المصدر السابق، ص 34.

(3) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 301، 304. - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة، ص 439، 440.

فكيف بأرض الشرك وهي منازل بدا حسننها عن ساكنيها وشومها
فلا ترهبوا من مانعات حصونها ففي عزمها ما لا تقاوم رومها.
وله أيضا: وبعد فالجهد أصل البر وقد غفا رسما بهذا البر
من عهد شعبان وبكداش سقى صداهما الغمام الناشئ
فلا يراع للعدة سرب ولا بأرضهم تقام حرب⁽¹⁾

وفي هذه الأبيات الشاعر يذكّر الحكام بضرورة مواصلة الجهاد، الذي بدأه من كان قبلهم مثل الداوي شعبان ومحمد بكداش.

لقد أصبح حث العلماء للباشاوات على الجهاد يعتبر تأييدا لهم، وهو كذلك منفذا لبعض العلماء للتعبير عما في داخلهم اتجاه السلطة، فمن خلال هذه القصائد كانت تطرح قضاياهم الخاصة، من انتشار للظلم وسوء أحوالهم المادية، ومنها قصيدة محمد أقوجيل للباشا حسين خوجة الشريف، والتي استهلها بتحريضه للباشا على القتال، ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن حاله وحال العلماء بالجزائر، وإهمال الحكام لهم وحرمانهم من حقوقهم من بيت المال والأوقاف، كما نصحه فيها بمشاورة العلماء كونهم حماة الدين جاء فيها:

شاور ذوي علم ودين ناصح ودع الغواة و كل ذي تزوير
كم في بلادك من نجيب حافظ ومشارك في النظم والمنثور
لكن فقدوا الإعانة واغتدوا ما أن يراعيهم ذوي التأخير
ضاعوا وجاعوا لا محالة وابتلوا في ذا الزمان الصعب بالتقير
لا ينبغي أن يحرم الأحماس من إن يعطيها يعرف بكل ضرور
والبعض يمنحها ويصرفها لدى شرب الدخان وخسة وخمور
إنني نصحتك والنصيحة ديننا فاقبل ولم ينصحك دوني خبير⁽²⁾

وحتى الشعر الذي قيل في مدح محمد بكداش والباي محمد الكبير كان يدور حول الجهاد والحث عليه، إلى درجة أنه أصبح بعض الشعراء هم ميزان الولاء أو التمرد ضد العثمانيين.⁽³⁾

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق ذكره، ص 62، 68. - بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ص 248.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 411.

(3) - نفسه، ص 203.

وبالإضافة إلى تحريض العلماء على الجهاد من خلال شعرهم الذي يسمى شعر "الاستصراخ"، الذي كان موجها في الغالب إلى الحكام، وجد بعض العلماء والمرابطين من شارك بنفسه في الجهاد أو ساهم أتباعه في الدفاع عن البلاد لأنهم يرون أن مصلحة الدين تقتضي محاربة الكفار، ولهم شرف التواجد في وجه العدو.⁽¹⁾

وبهذا يتضح لنا أنّ عامل الجهاد ضد العدو لعب دورا إيجابيا في تدعيم فكرة التحالف بين الطرفين، وقد حافظ الأتراك منذ بداية تواجدهم على هذا التحالف حتى يظهروا بمنظر المناصرين للدين، وحماته لذلك أعجب بهم الجزائريون الذين تخوفوا من تمكن الأسباب من توسيع نفوذهم بالداخل، وخاصة وأن صراعمهم ضد الأسباب اتخذ صبغة دينية، الأمر الذي أكسبهم دعم العلماء الذين أشادوا بهم في قصائدهم الحماسية إلى درجة أن أصبح الجهاد ضد الأسباب إحدى مظاهر التقارب والتحالف بين الحكام والعلماء، خاصة شيوخ الزوايا والمرابطين الذين نجح العثمانيون في كسب دعمهم ومساعدتهم أو على الأقل الحصول على حيادهم.⁽²⁾

وبهذا ففكرة الجهاد التي حملها العثمانيين، هي التي جعلت السكان وعلى رأسهم أقطاب السلطة الروحية يلتفون حولهم، ويربطون مصيرهم بهم وهذا منذ مطلع القرن 16م إلى غاية 1792م، أين شاركت القوى الدينية السلطة في الجهاد لاسترجاع وهران،^(**) ولم يحاولوا الانفصال عن الدولة العثمانية، باستثناء ما قام به أحمد بن القاضي سنة 1520م ضد خيرالدين، والتي تم قمعها بشدة سنة 1527م، ومقتل ابن القاضي في نفس السنة،⁽³⁾ أو ما قام به جد المقرانيين أمير قلعة بني عباس والتي انتهت بمقتله سنة 1559م.

ومنذ 1792م إلى غاية 1830م، ورغم الخلاف الذي حدث بين الطرفين، إلا أنه لما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي سنة 1830م، راهن الداوي حسين كثيرا على المرابطين وشيوخ الزوايا، حيث دعاهم إلى تجنيد الناس فلبوا ندائه وأشرفوا على تجنيد الناس للجهاد، منهم مرابط زاوية أعراب بآث إيراثن والمرابط الحاج صالح مرابط عرش

⁽³⁾ - Brosselard, Op. Cit, p18

⁽²⁾ - كورين شوفالييه، مرجع سابق، ص 86.

^(**) - ينظر القسم الرابع.

⁽³⁾ - أرزقي شويتام، القوى المحلية...، ص 162.

فراوسن ومرابط زاوية سيدي منصور ببني جناد العربي أوشريف وغيرهم من مرابطي منطقة القبائل.⁽¹⁾

إذا فالعاطفة والرابطة الدينية تعتبر أكبر عامل جمع بين الجزائريين والعثمانيين، حيث ساند الأهالي العثمانيين تلقائياً، فتسارعوا لتلبية نداءهم عند الجهاد وهذا من بداية تواجدهم في الجزائر إلى غاية خروجهم، أين تفاعل الحكام العثمانيون مع الحركة الجهادية، مما جعلهم يحظون بمساندة الفقهاء كلما حصلت مواجهة بينهم وبين السكان،⁽²⁾ فعامل الجهاد ربط بين السلطة الروحية والبايلك ووحد السكان حول الزوايا التي كانت تتدخل لصالح البايك حفاظاً على الأمن والاستقرار.⁽³⁾

لهذا فدور العلماء وخاصة المرابطين في التحريض على الجهاد، وتعبئة الأهالي سمح لنا بالقول أن توطّن العثمانيين تحقق بفضل العلماء خاصة المرابطين الذين هيئوا الأرضية لاستقبال أبطال الإسلام الذين حاربوا الأسبان. كما أنّ عامل الجهاد حدد العلاقة بين السلطتين في المرحلة الأولى من التواجد العثماني بالجزائر، فعامل الجهاد هو الذي أجل الصراع بينهما إلى غاية القرن 19م، أي إلى ما بعد استكمال عملية تحرير السواحل سنة 1792م.

1-2- المعتقدات والخلفية الدينية لدى العثمانيين:

لما حل العثمانيون بالجزائر تقربوا من العلماء والمرابطين، وبجلوهم وتبركوا بهم، ولا غرابة في هذا لأن تقربهم من السلطة الروحية، خاصة المرابطين والطرق الصوفية، ونظرتهم إليهم ليست جديدة عليهم، بل كانت راسخة فيهم، لأنهم قدموا من منطقة كانت الصوفية في المجتمع العثماني قائمة على قاعدة متينة ومتجذرة في الممارسات الاجتماعية والدينية امتدت لقرون.⁽⁴⁾ فال دراويش أو الطرق الصوفية كانت منتشرة بصورة واسعة في آسيا الصغرى كالنقشبندية والمولوية والبكداشية، التي خضعت لها الحياة الدينية

(1) - أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 50، 51.

(2) - العروي، المرجع السابق، ص 77.

(3) - Saidouni, Op. Cit, p403.

(4) - رايوند ليفشز، تكايا الدراويش الصوفية والفنون والعمارة في تركيا العثمانية، تر. عبلة عودة، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2011م، ص 33.

للقاعدة الشعبية أكثر مما خضعت لرجال الدين الرسميين.⁽¹⁾ كما أن الدراويش كانوا وراء تقدم العثمانيين في الأناضول، حيث كانوا الروح التي تحرك الجندي الإنكشاري للجهاد.⁽²⁾ لذلك لما قدموا إلى الجزائر حملوا معهم هذا الشعور والإحساس، بحيث كانت السلطة الروحية من مرابطين وطرق صوفية تقودهم وتؤثر فيهم وتحميهم، وتدفع بهم نحو الجهاد، أما هم فكانوا يدينون لرجالها بالولاء ويتبركون بهم، وينظرون إليهم نظرة المريد إلى شيخه والعبد إلى سيده.⁽³⁾ فإذا كانوا اعتمدوا باسطنبول على البكداشية، والمولوية فبالجزائر اعتمدوا على المرابطين ورجال الطرق الصوفية خاصة الشاذلية(*) والقادرية،⁽⁴⁾ حيث وجد العثمانيون فيهم ضالتهم، وسندا لهم في بلد هم غرباء عنه.

لهذا فلا غربة أن يتبعوا في إيالة الجزائر ما ألفوه في اسطنبول، أين بسط التصوف نفوذه شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، ويرجع له الفضل في رفع راية الجهاد ضد الغزو الصليبي، لذلك كان لزاما على العثمانيين اتباع سياسة دينية صوفية بالجزائر.

ومن الطبيعي أن العلاقة التي ربطت العثمانيين بعلماء وأولياء الجزائر تعكس لنا ما كان باسطنبول، حيث كان للعلماء حضوة لدى السلطان خاصة شيخ الاسلام الذي كانت له صلاحيات دينية وتأثير سياسي لدى السلطان، حتى كاد نفوذه السياسي يفوق نفوذه الروحي، نتيجة استشارة السلاطين لشيخو الاسلام في الأمور السياسية واعتبارهم أصحاب الفضل والبركة على السلطنة،⁽⁵⁾ كما كانت الإنكشارية على علاقة وطيدة بالدراويش خاصة المولوية، والبكداشية،⁽⁶⁾ التي اتخذت الإنكشارية من زعيمها "حاجي بكداش" حاميا ورمزا لهم،⁽⁷⁾ لأنه هو من أعطى الجنود اسمهم وألبسهم المميز، كما أن البكداشية لعبت دورا في المؤاخات بين الجنود دينيا وعسكريا في الأناضول،⁽⁸⁾

(1)- بروكلمان، المرجع السابق، ص 481.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 185.

(3)- نفسه، ص 460، 459.

(*)- نسبة إلى الشيخ أبي الحسن بن عبد الله الشاذلي، من قرية الشاذلة بتونس، ولد سنة 1175م.

(4)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 190، 191.

(5)- أكرم كيدو، المرجع السابق، ص 103، 104.

(6)- نفسه، ص 186.

(7)- نورس علاء موسى كاظم، "مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية" المجلة التاريخية المغربية،

ع25، 26، 1982م، ص 100، 101.

(8)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 186.

وارتبطوا ارتباطا وثيقا بها وأظهروا لشيخوها طاعة عمياء، وصلت حد الولاء، لذلك لقبوا بعدة ألقاب: جنود البكداشية وأوجاق البكداشية، وأبناء الحاج بكداش.⁽¹⁾

وبما أن العثمانيين كانوا مدركين أن الإسلام هو رصيدهم السياسي ومصدر قوتهم، ومرجعيتهم الأخلاقية، رغم أن إسلامهم كانت تشوبه تقاليد وعقائد ورثوها من معتقداتهم السابقة، إضافة إلى أنهم كانوا مزيج من مختلف العناصر الأوربية والبلقانية، لذلك لم يجدوا في الجزائر بديلا عن التعامل مع المرابطين والطرق الصوفية، فالجندي الإنكشاري لما يحل بالجزائر يحمل معه عقائد مارسها في موطنه الأصلي، وبالمقابل وجد مرابطين آخرين بالجزائر يزودونه بالبركات والدعوات كلما خرج إلى الغزو البحري، كما كان يفعل آباؤه في الأناضول، والبلقان.⁽²⁾ خاصة إذا عرفنا أن الدراويش الذين يرافقون الجيش لا يعودون إلى اسطنبول بل يلازمون الجيش، وبعد وفاتهم تتسج حولهم الأساطير، فيصبحون جزءا من التقاليد العامة، حيث لا يكاد يخرج الجند إلى المعركة إلا بعد تبركهم بولي سواء كان حيا أو ميتا.⁽³⁾ وبهذا فقد استمروا في ممارسة عقائدهم الدينية التي مارسوها في اسطنبول بعدما حلوا بالجزائر، فنجدهم يزورون الأولياء طلبا للنصر، والبركة، كما كانوا يطلقون طلقات مدفعية عند ذهابهم، وإيابهم تبركا واحتراما لهم، وقد بلغ اعتقاد العثمانيين في رجال الدين خاصة المرابطين إلى حد كانوا لا يلاحقون أي جان إذا فر إلى أحد الأضرحة، خوفا مما قد يلحق بهم.⁽⁴⁾

لقد كان من عادة رؤساء المراكب الجهادية عند استعدادهم للحرب زيارة ضريح الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسيدي علي العباسي،⁽⁵⁾ والولي دادة الذي يرتبط اسمه، بأنه المسؤول عن هزيمة شارلكان عند حملته على الجزائر سنة 1541م⁽⁶⁾ رفقة سيدي بوقدور وسيدي يوسف الزنجي وسيدي أبو التقى (بتقة)،⁽⁷⁾ الذي كانت السفن عند خروجها أو دخولها تحي قبتة بطلقات مدفعية.⁽⁸⁾ تبركا به وبالأولياء الآخرين مثل سيدي

(1) - الشناوي، المرجع السابق، ص 481.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 189، 190.

(3) - سعد الله، أبحاث وأراء...، ج3، ص196.

(4) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص111. -Dermenghem, Le culte des saints..., p155.

(5) - الزهار، المصدر السابق، ص61.

(6) - سعد الله، أبحاث وأراء...، ج3، ص196.

(7) - Devoulx, les edifices, p240.

(8) - دوتي، المرجع السابق، ص42. (هامش).

فرج وسيدي عبد الرحمان الثعالبي اللذان كان البحارة عند خروجهم يطلقون ثلاث طلقات مدفعية تحية لهم وللداي،⁽¹⁾ وأخذ قطع أقمشة من الأضرحة، خاصة المشهورة منها لتعلق على السفن، لاعتقادهم أنها تجلب لهم الحماية وتساعدهم على والنصر، كما نجدهم يشعلون الشموع فوق المدافع لتهديئة البحر،⁽²⁾ وطبعا هذه الشموع تكون مجلوبة من أحد أضرحة الأولياء خاصة المشهورين منهم.

كما كانوا يحرصون على زيارة أحد المرابطين الأحياء ليُعلمهم إذا كان خروجهم للبحر فيه بشائر النصر أم لا،⁽³⁾ وعند عودتهم من البحر يخصصون جزءا من الغنائم لأضرحة المرابطين الذين لعبوا دورا في نجاح الحملات.⁽⁴⁾

فمعتقداتهم الدينية السابقة جعلتهم يطمئنون إليهم ويتقربون منهم، كما كانوا يستشيرونهم ويعملون برأيهم حتى ولو كانت فيه خطورة عليهم، منها ما ذكره "أبو القاسم سعد الله" أن أحد كبار العثمانيين أراد الاستيلاء على الحكم بالجزائر، فاستشار أحد المرابطين الذي اقترح عليه التصديق بمبلغ مالي وبذبح أربعة كباش، وتوزيعها على الفقراء واعداء إياه بالنصر، وقد أخذ معه برنس المرابط اعتقاد منه أنه سيحميه، لكن لما وصل إلى قصر الباشا ألقى عليه القبض وأعدم.⁽⁵⁾

فالعثمانيين بالجزائر عامة كانوا يبجلون المرابطين وزعماء الطرق، ويؤمنون بمعتقداتهم التي تميل إلى الخرافة أكثر منها إلى المنطق، ونتيجة لهذه الاعتقادات التي حملها العثمانيون معهم فقد بالغوا في تعظيم العلماء خاصة المرابطين واطمئنوا إليهم، وتبركوا بهم، واستشاروهم في عدة أمور سياسية، كما أطلعوهم على خططهم.⁽⁶⁾

فالطرق الصوفية لم تكن حالة أحدثها العثمانيون، بل هي حركة ظهرت قبل دخولهم إلى الجزائر، لكنها انتشرت وتجدرت عند حكمهم وقد استفادوا منها في: - مجال الجهاد لأنهم كانوا يدعون إلى الجهاد، فالتقت أهدافهم مع شعار الجهاد البحري الذي رفعه العثمانيون.

(1) - Venture, Op. Cit, pp42, 43.

(2) - بودريعة، أوقاف الأضرحة...، ص 92.

(3) - وولف، المرجع السابق، ص 195.

(4) - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 63.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 469.

(6) - نفسه، ص 464.

- تسير أمور البلاد داخليا باستغلال أقطاب السلطة الروحية، خاصة المرابطين في إدارة شؤون الرعية التي ارتبطت حياتهم ببركة أو بسخط المرابط.⁽¹⁾

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن عامل الجهاد، وإدراك العثمانيين أنهم غرباء عن الجزائر إضافة إلى العقيدة الصوفية التي حملوها معهم، دفعت بهم إلى البحث عن حلفاء لهم في الجزائر ضمن فئات المجتمع، فكان رجال الدين والعلماء.⁽²⁾ الذين استمر التحالف بينهم وبين العثمانيين من القرن 16م إلى نهاية القرن 18م حيث ساندت الحركة المرابطية وساعدت في توطيد سلطة ونفوذ العثمانيين.⁽³⁾ الذين أغدقوا عليهم الهدايا، والهبات باعتبارهم أكثر فئات المجتمع إيمانا بمعتقداتهم الدينية ونزعتهم الجهادية، كما كانوا القوة الوحيدة المؤثرة في المجتمع، والتي يمكنهم الاعتماد عليها لإخضاع الأهالي والتحكم فيهم عبر كل أرجاء إيالة الجزائر.

والملاحظ أن الجزائر خلال العهد العثماني تميزت بتعدد الطرق الصوفية وكثرة شيوخها واختلاف مبادئها، وأغلبها أسست فروعاً لها، ومن أشهر الطرق التي كانت لها حظوة واعتبار لدى الحكام، الطريقة القادرية والرحمانية والشاذلية.

فالقادرية التي تعد أول وأقدم طريقة ظهرت في العالم الإسلامي والتي تنسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلاني،⁽⁴⁾ بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الحسيني الملقب "بسلطان الأولياء" المولود بجبل جيلان قرب بغداد عام 471هـ/1078م وتوفي بها عام 561هـ/1166م.⁽⁵⁾ وهي أكثر الطرق انتشاراً في العالم الإسلامي كافة.⁽⁶⁾ وتعد أقدم طريقة بالجزائر،⁽⁷⁾ رغم أنها لم تكن ذات أصول مغربية.⁽⁸⁾

دخلت القادرية إلى بلاد المغرب عن طريق الحجاج وطلاب العلم، ولعل أول من نشرها بالمغرب هو سيدي بومدين شعيب دفين تلمسان (1126/11198هـ) بعد لقائه

(1) - حمدان خوجة، المرأة...، ص 57.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص190، 191.

(3) - Merad, Boudia, Op. Cit, p340.

(4) - حقي عدنان، الصوفية والتصوف، ط2، دمشق، سوريا، 1992م، ص 155.

- Rinn, Marabouts et khouans, p30.

(5) - Depont/coppolani, Op. Cit, pp 293,294.

(6) - Benachenhou, Op. Cit. p135.

(7) - Dermenghem (E.), "L'Algérie religieuse" in **Initiation à l'Algérie**, Maison neuve, Paris, 1957, p 254.

(8) - بل، الفرق الإسلامية...، ص 405. - حقي عدنان، المرجع السابق، ص 155.

بالشيخ عبد القادر الجيلاني بمكة،⁽¹⁾ إلا أن لها أتباع كثر خاصة بالمغرب الأقصى،⁽²⁾ والجزائر التي انتشرت بها زوايا القادرية في كامل التراب الوطني، حيث وصلت حتى الجنوب الجزائري، وبسطت نفوذها الروحي حتى على التوارق بالصحراء.⁽³⁾

وقد اختلفت الإحصائيات حول عدد زوايا وأتباع القادرية فنجد "ريني" (Rinn) أحصى سنة 1882م عدد الزوايا القادرية بـ 29 زاوية و 268 مقدم و 14574 مريد،⁽⁴⁾ في حين هناك من ذكر أن عدد زواياها بلغ 33 زاوية، و 558 مقدم، و 24578 مريد،⁽⁵⁾ أما الجنرال "أندري" فقد قدر عدد أتباعها بـ 87000 مريد،⁽⁶⁾ لكن ورغم كثرة مريدها إلا أن زواياها قليلة إذا ما قورنت بزوايا بعض الطرق الأخرى مثل الرحمانية،⁽⁷⁾ وتعد زاوية القيطنة بمعسكر من أشهر زواياها التي أسسها الحاج مصطفى الغريسي جد الأمير عبد القادر (1200هـ/1785م).⁽⁸⁾

وبما أن كل طريقة كانت تختلف في تعاليمها عن الأخرى،^(*) فالقادرية ارتكزت على الإحسان والرحمة والتساهل والتسامح،⁽⁹⁾ تبعاً لما أمرهم به شيخهم الذي كان يقول لمريديه: «اتبعوا ولا تبندعوا، واتحدوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الذكر ولا تفرقوا، وتطهروا من الذنوب ولا تتناطحوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا،⁽¹⁰⁾ كما كان يردد

(1)- Rinn, Marabouts..., pp211, 213. مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 145.

(2)- Gaid (M.), Les Berbères dans l'histoire, les Marabittines d'hiers, et les Marabouts d'aujourd'hui, Imp, Marouche Alger, S.D, p129

(3)- د. العجيلي التليلي، "دور بعض مشايخ الطرق الصوفية ومساعدة الفرنسيين على استكشاف الصحراء الإفريقية" المجلة التاريخية المغربية، عدد 53-54، 1989م، تونس، ص 147.

(4)- Rinn, Marabouts et khouans, p 200.

(5)- Depont/ Coppolan, Op. Cit, p315.

(6)- G. André, Op, cit, p210.

(7)- الفيلاي، المرجع السابق، ص 38.

(8)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 514.

(*)- فالبكداشية ارتكزت على التواضع والتذلل والزهد، الخلواتية ارتكزت على الانعزال والاعتكاف، والدرقاوية ارتكزت على الفقر والتقصيف والابتعاد عن السلطة، الطيبية ارتكزت على التفاني وتبجيل آل البيت، السنوسية ارتكزت على السيادة والتفوق الديني، أما التيجانية ارتكزت على المسامحة.

- Rinn, Marabouts et khouans..., p76.

(9)- Ibid, pp75, 76. - Gaid, les Berbères..., p128.

(10)- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 148.

دائماً لا ينبغي علينا أن ندعوا لا لأنفسنا فحسب، ولكن لكل من خلقه الله مثلنا»،⁽¹⁾ وفي هذا الصدد يقول "رين": «أننا لا نجد في تعاليم الجيلاني أية إشارة معادية للمسيحية».⁽²⁾ ولكون القادرية اهتمت بالأمر الشرعية، والأمر الخاصة بالسكان لم تجلب الريبة لدى السلطات،⁽³⁾ وحسب "سامح ألتز" فإن معظم شيوخها كانوا علماء وأطباء، فلم يضر وجودهم ونفوذهم الحكومات القائمة،⁽⁴⁾ ففي المغرب الإسلامي، قدم رجالها الدعم المادي والمعنوي للسكان ضد الغزو الإسباني، وهو ما سمح لهم بتكوين جمهوريات شبه مستقلة عن الحكم المركزي، الذي رغم تخوفه منها، إلا أنه لم يدخل في مواجهة علنية معها، بل عقد تحالف معها من أجل صد الخطر المسيحي.⁽⁵⁾ لهذا ولما استقر العثمانيون بالشمال الإفريقي، لم يعادوها بل منحوها إمتيازات، وأعفوها من الضرائب، وتعاطفوا معها حتى تكون وسيلة في يد الأوجاق.⁽⁶⁾

ويرجع اهتمام العثمانيين بالجزائر بالطريقة القادرية إلى كون السلطان العثماني حاميا لها بالمشرق، ولهذا عمل خير الدين منذ البداية على الاتصال بأتباعها،⁽⁷⁾ وبما أن الجزائر كانت تدين بالولاء للسلطان العثماني فكان عليهم حماية الطريقة بالجزائر،⁽⁸⁾ ويضاف إلى هذا أن الطريقة القادرية كان لها نفوذ لدى المرينيين والوطاسيين وهو ما يفسر رفضها للسعديين بفاس، وانحيازها للأتراك بعد سقوط المرينيين،⁽⁹⁾ كما أنها لم تتدخل في الصراع العثماني السعدي، وبقيت مسالمة مع العثمانيين.⁽¹⁰⁾

لهذا شجع العثمانيون القادرية في أول أمرهم، حيث ربطت بينهما علاقات ودية أساسها التقارب، لذلك ساهم بايات وهران في بناء مسجدها وأوقافها، لكن نقيمتهم على الطرق الصوفية نهاية العهد العثماني شملت حتى زعماء القادرية،⁽¹¹⁾ الذين تبنا منذ

(1) - لوثرروب ستيوارت، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج2، 1971م، ص 395.
- Rinn, Marabouts et khouans..., p174.

(2) - Ibid, p174.

(3) - Cour, Op. Cit, p97.

(4) - سامح ألتز، المرجع السابق، ص105.

(5) - نفسه، ص107، 108.

(6) - Depont/ Coppolani, Op. Cit, p246.

(7) - Cour, Op. Cit, p 97. - Bel, la religion..., p387.

(8) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 430. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 256.

(9) - Cour, Op. Cit, p98.

(10) - Bel, La religion..., p388.

(11) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 514، 515.

القرن 19م وضعية متخوفة نحو البايك بعد تقارب طويل بينهما ولهذا لم يستطع البايك استمالة سكان مليانة، وشرشال أين تتواجد أسر تابعة للقادرية،⁽¹⁾ ونلمس هذا التغيير في العلاقات بينهما من خلال المعاملة السيئة للشيخ محي الدين من طرف الباي حسان الذي أراد قتله، ثم فرض عليه الإقامة الجبرية بوهران وهذا بعد اعتقاله هو وابنه الأمير عبد القادر في طريقهما إلى الحج.⁽²⁾

أما الرحمانية المنحدرة من الطريقة الخلوتية،^(*) والتي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري المولود عام 1130هـ/1720م بآيت اسماعيل،⁽³⁾ تتلمذ على يد الشيخ واعرب بآيت إيراثن،⁽⁴⁾ وعلى يد الشيخ محمد بن بلقاسم التاجديوي.⁽⁵⁾

زار الشيخ مدينة الجزائر عام 1152هـ-1739م، عندما توجه إلى الحج، وفي طريق عودته من الحج استقر بمصر، حيث درس بجامع الأزهر على عدة شيوخ أمثال محمد بن سالم الحفناوي،⁽⁶⁾ صاحب الطريقة الحفناوية الخلوتية،⁽⁷⁾ التي اعتنقها فعهد له بنشر تعاليم الطريقة في كل من الهند والسودان،⁽⁸⁾ أين نجح في مسعاه وحصل على مبالغ مالية مهمة ساعدته عند عودته إلى الجزائر،⁽⁹⁾ سنة 1183هـ-1770م،⁽¹⁰⁾ أين أسس زاوية بمسقط رأسه وتفرغ لنشر العلم وتلقين مبادئ التصوف على نهج الخلوتية، فالتف حوله الناس من شتى الجهات،⁽¹¹⁾ من بينهم أحمد التيجاني الذي أخذ عنه ورد الطريقة، لما توقف بآيت اسماعيل في طريق عودته من الحج.⁽¹²⁾

⁽¹⁾ - Saidouni, Op. Cit, p 402.

⁽²⁾ - المزارى، المصدر السابق، ص 361.

^(*) - انتشرت بالمشرق، وتنسب إلى مؤسسها عمر الخلواتي الذي توفي سنة 800هـ/1398م.

Depont/Coppolani, Op. Cit, p370.

⁽³⁾ - Trumelet (E), L'Algérie légendaire, pp340, 341. - Depont/Coppolani, Ibid, pp382, 383.

- مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 103. - Saidouni, Op. Cit, p 305. - G.Andre, Op. Cit, p213.

⁽⁴⁾ - الفيلاي، المرجع السابق، ص 40. - بوعزيز، أعلام الفكر... ج1، ص 299.

-Saidouni, Op. Cit, p305.

⁽⁵⁾ - بوعزيز، أعلام الفكر...، ج1، ص 299.

⁽⁶⁾ - G.Andre, Op. Cit, p213. - Saidouni, Op. Cit, p 305.

⁽⁷⁾ - بوعزيز، أعلام الفكر...، ج1، ص 299.

⁽⁸⁾ - Depont/Coppolani, Op. Cit, p383. - Rinn, Marabouts et khouns, p453. - Saidouni, Op. Cit, p305.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 514. - بوعزيز، أعلام الفكر...، ج1، ص 299.

⁽⁹⁾ - بوعزيز، أعلام الفكر...، ج1، ص 299، 300.

⁽¹⁰⁾ - Rinn, Marabouts et khouns, p453.

⁽¹¹⁾ - Nacib (y), "signalisation d'une pédagogie confrérique dans la poésie orale-kabyle" in ann-afr.n, n°331994, p315.

⁽¹²⁾ - Rinn, Marabouts et khouns, p 453.

من تعاليم الطريقة التسامح والتقارب بينها وبين غيرها من الطرق، وتلتقي مع الشاذلية والسنوسية في الكثير من المفاهيم الفقهية،⁽¹⁾ كما أنها لا تورث المشيخة، مثل الطرق الصوفية الأخرى، بل تستند في المشيخة على الكفاءة العلمية والدينية، وليس على النسب، لذلك نجد شيخها قبل وفاته منح المشيخة، للشيخ سيدي علي بن عيسى المغربي خلفا له،⁽²⁾ كما نجده منح الشيخ أول إجازة "مقدم"، بخط يده وإمضائه لسيدي بلقاسم بن محمد من معاتقة عام 1777م،⁽³⁾ وبعد وفاته سميت الطريقة بالرحمانية، التي أصبحت أول طريقة بالجزائر من حيث عدد الأتباع، حيث بلغ عددهم حسب إحصاء "لكبولاني" و"دوبون" 156214 منخرط (إخواني) و 873 مقدم و 177 زاوية،⁽⁴⁾ أما "رين" فقد أحصى 96161 إخواني و 754 مقدم و 220 زاوية،⁽⁵⁾ في حين قدر الجنرال "أندري" (G.André) عدد أتباعها بـ 236000 مريد.⁽⁶⁾

كانت أكثر الطرق انتشارا بالجزائر،⁽⁷⁾ هي والطريقة التيجانية،⁽⁸⁾ وربما يعود هذا لأنهما ذات أصول جزائرية، مما جعل الناس يلتفون حولها، رغم أن تأثيرها ونفوذها كان أكثر بمنطقة القبائل.⁽⁹⁾ ولقد امتد نفوذها حتى الشرق الجزائري، حيث عين سيدي محمد بوقبرين خليفة له بقسنطينة هو الشيخ مصطفى باشتارزي الكرغلي، ووصلت حتى بسكرة وطولقة،⁽¹⁰⁾ أما خارج الجزائر فقد انتشرت في نفطة بتونس وبلاد الشام، بعد هجرة سكان زوارة هروبا من الاستعمار الفرنسي.⁽¹¹⁾ وحتى في السودان، وهذا لتعميقها لعلاقاتها مع الطبقات الاجتماعية،⁽¹²⁾ حيث كان أتباعها من مختلف الطبقات الاجتماعية، خاصة من الفقراء والعمال والفلاحين،⁽¹³⁾ وقد احتلت مكانة كبيرة في أوساط الأهالي، لكونها عملت على الحفاظ على خلق توازن بين التقاليد والعادات خاصة بمنطقة القبائل وبين ما جاء

(1) - Ibid, p462 et 479.

(2) - Rinn, Marabouts..., p455. - Delpech, Un diplôme..., p421.

(3) - Salhi (M.B), Op. Cit, p 254. - Delpêch (A), un diplôme ..., p419 et suite.

(4) - Depont/ Coppolani, Op. Cit, p213 et 215.

(5) - Rinn, Marabouts et khouans, p 480.

(6) - G. André, Op, Cit, p210.

(7) - Rinn, Marabouts et khouans, Op. Cit, p 111.

(8) - Simian, Op. Cit, p 454

(9) - Salhi, Op. Cit, p 254.

(10) - Rinn, Marabouts..., pp 459,560.

(11) - محمد نسيب، زوايا العلم....، ص 154.

(12) - العيد مسعود، المرابطون والطرق...، ص 13.

(13) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 158.

في الشريعة، كما عملت على أن لا تكون أداة طيعة في يد سلطة البايك، وربما هذا الذي شجع السلطة على الطعن في مؤسس الطريقة.⁽¹⁾

انتقل الشيخ إلى مدينة الجزائر لتوسيع دائرة دعوته،⁽²⁾ حيث نجده دّرس بمسجد بالحامة،⁽³⁾ كما عقد مجالس للذكر والوعظ بالجامع الكبير بطلب من الداوي الذي احتقل به ومنحه أرضا واسعة بالحامة التي أسس عليها زاوية،⁽⁴⁾ لكن نشاطه وشهرته أثارت عليه غيرة العلماء والمرابطين، لأنها نافستهم وهددت نفوذهم ومكانتهم فاتهموه بالإتحراف عن الدين، لكون تعليمه لا يوافق الشريعة، وأرغموه على المثل أمام المجلس العلمي الذي كان يرأسه الحاج محمد بن علي الأمين،⁽⁵⁾ وبحضور الداوي محمد عثمان باشا، لكن الشيخ انتصر عليهم بالحجة، والبرهان،⁽⁶⁾ بعدها استضافه الداوي في قصره لعدة أيام، وأخذ عنه خلالها ورد طريقته ليصبح من أتباعه،⁽⁷⁾ لكن ورغم هذا الانتصار وتبرئته لم يأمن جانبه بمدينة الجزائر وعاد إلى مسقط رأسه ليكمل نشر تعاليم طريقته.⁽⁸⁾

وتشير المصادر إلى أن العلماء في فتوهم ضد الشيخ كانوا مدفوعين من طرف السلطة،⁽⁹⁾ وهذا بسبب تزايد نفوذه بمنطقة القبائل، وكثرة الأتباع حوله، وحتى تبعد كذلك عنه القبائل المحاربة بجرجرة لكن فيما بعد تراجع المجلس العلمي، وبرأه خوفا من ثورة أتباعه،⁽¹⁰⁾ الذين علموا بما يحاك ضد شيخهم، خاصة وأنهم يشكلون أكبر حلف وهو حلف "قشتولة" الرافض للسلطة العثمانية،⁽¹¹⁾ يضاف إلى هذا خوف الحكام من دعوته الرامية إلى إحياء فكرة الوحدة الوطنية، وهو الشيء الذي عملوا على عدم تحقيقه طيلة حكمهم.⁽¹²⁾ لهذه الأسباب حاول الحكام استغلال فتوى المجلس العلمي ضد الشيخ، رغم عدم وجود أي دليل على تورطه في أي عمل ضد السلطة،⁽¹³⁾ فلا نجد أي مصدر يذكر

(1) - Saidouni, Op. Cit, p306.

(2) - Rinn, Marabouts et khouans, p 454.

(3) - Simian, Op. Cit, p 54.

(4) - نورالدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 180.

(5) - Rinn, Marabouts et khouans, p454. - Robin, La grande kabylie..., p23. - Gaid, Les Bérberes..., p122.

(6) - Boyer, Contribution....p39. - Trumelet, L'Algérie Légendaire..., p338. - Depont /Coppolain, Op. Cit, p383. - G.Andre, Op. Cit, p 266.

(7) - بوعزيز، أعلام الفكر...ج1، ص 300.

(8) - Rinn, Marabouts et Khouans, p 455.

- نفسه، ص 302.

(9) - Ibid, p 454. - Saidouni, Op. Cit, P 306. - Gaid, Les Bérberes..., p 122.

(10) - Rinn, Ibid, p454. - Robin, La grande Kabylie, p23.

(11) - Rinn, Ibid, p454. - Simian, Op. Cit, pp 54, 55.

(12) - الفيلاي، المرجع السابق، ص 42.

(13) - Robin, La grande kabylie, p 23.

تورط الرحمانية في أي عملية عسكرية ضد السلطة،⁽¹⁾ ويعود هذا إلى حرص شيوخها على عدم التعرض للمكائد مع الأتراك،⁽²⁾ متخذين موقف حيادي في مناطق انتشارها،⁽³⁾ محبذة الابتعاد عن السلطة والسياسة ومكتفية بدور الوسيط، وإصلاح ذات البين،⁽⁴⁾ كما أن شيوخها كانوا حذرين، ورافضين لأي علاقة مباشرة مع الأوجاق، مستبعدة الطريقة بهذا أي عدااء مع البايك مقابل حرية نشاط مبعوثيها أو أتباعها في نشر تعاليمها،⁽⁵⁾ لهذا منح بعض الدايات لمبعوثيها المعتمدين على السواحل غير المراقبة جيدا، صلاحيات خولت لهم إلى حد وضع يدهم على رئاسة ركب الحج المتوجه من مدينة الجزائر إلى مكة،⁽⁶⁾ وقد تقرب منها الحكام أكثر خاصة بعدما رفضت دعم الطرق المعادية كالدقاوية.⁽⁷⁾

لكن تخوف الأتراك من الشيخ، وأتباعه بقي حتى وفاته 1208هـ/ 1794م حيث انتشرت الطريقة أكثر، وأصبح ضريحه مزاراً للعديد من الناس، ليتم نقل ضريحه إلى مدينة الجزائر، ورغم أن "الزياني" يرجع سبب نقل ضريح الشيخ من جرجرة من طرف الداوي مصطفى قصد التبرك به،⁽⁸⁾ لكن هناك من يرجع السبب تخوف الحكام لما رأوا ذلك الازدحام حول قبره من أتباعه خافوا من حدوث ثورة أو اضطرابات،⁽⁹⁾ وقد تأسفوا لأنهم لم يقضوا عليه في بداية الأمر،⁽¹⁰⁾ فلم يكن بوسعهم إلا حمل ضريحه إلى مدينة الجزائر لهذا سمي "ببوقبرين".⁽¹¹⁾ وقد جسد الشعر الشعبي هذه الأسطورة التي نسجت حول جثته.

Accix Ben Abderhmen

يا سيدي عبد الرحمان

Aleweli yebdan ef.Sin

أنت الولي المزدوج

Nnefs atan id Ihamma

نصف في الحامة

Nnefs degw drar lehsin

والآخر في أعالي الجبال

نحمدوا ربي الذي جعلك كأب ثاني walik Ihmed a Rabbi mik nead baba wissin⁽¹²⁾

(1)- Mahe Alain, Op. Cit, p 50.

(2)- Robin, La grande kabylie, p 28.

(3)- سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 42.

(4)- سعد الله (أ.ق)، الحركة الوطنية (1930-1945)، ط3، م. و.ك، الجزائر، 1986م، ص299.

(5)- Saidouni, Op. Cit, p 402.

(6)- Boyer, Contribution..., p 49.

(7)- Saidouni, Op. Cit, p 306.

(8)- الزياني، دليل الحيران، ص 188.

(9)- Rinn, Marabouts et khouans, p 455. - Gaid, les Bérberes..., p 123.

(10)- Rinn, Ibid, p 456.

(11)- Ibid, p 456. - Garrot, Op. Cit, pp 638, 639.

(12)- Nacib, Op. cit, p316.

أما الشاذلية والتي تعد من أقدم الطرق بالمغرب الإسلامي رفقة القادرية، فقد ظهرت في النصف الأول من القرن 13م،⁽¹⁾ وحسب "العايشي" فإنها لا تختلف عن الطريقة النقشبندية إلا في بعض الاصطلاحات التي ترجع إلى الأعمال الظاهرة أما الأعمال الباطنية فلا تختلف عنها.⁽²⁾

تنسب الطريقة إلى أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، المولود بغمارة قرب سبتة بالمغرب سنة 593هـ/96-1197م،⁽³⁾ درس العلوم الدينية واللغوية بمسقط رأسه، والتصوف على يد عبد السلام بن مشيش بالمغرب الأقصى ثم انتقل إلى تونس، أين درس على يد كبار علمائها، لينتقل بعدها إلى بلدة الشاذلة بتونس، وبعد عدة مضايقات له من طرف منافسيه ارتحل إلى الإسكندرية أين توفي هناك سنة 656هـ/1258م.⁽⁴⁾

لقد رسم أبي الحسن الشاذلي نهجا لطريقته، حيث كان يرى أن هذا الطريق لا يكون بالرهبة وأكل الشعير والنخالة، بل يكون بالصبر على الأوامر واليقين في البداية، لذلك لم يكن متشددا ولا متزمتا في لباسه وملبسه، بل كان يلبس الثياب الفاخرة، ويتخذ له أحسن الجياد،⁽⁵⁾ كما أنه من مبادئ الطريقة أنها تطلب من أتباعها السياحة^(*) عملا بالحديث "سيحوا تصحوا" لذلك نجد أحمد بن يوسف الملياني قد ساح 15 سنة بالمغرب الأقصى بفاس وتازة وسوس ووجدة وتلمسان وتاهرت ووهران وجرجرة وطرابلس والقيروان والاسكندرية والقاهرة وجدة...⁽⁶⁾

تفرعت عن الشاذلية عدة طرق منها: الدرقاوية، والمدنية واليوسفية والزروقية والزبانية، الشيخية والطيبية،⁽⁷⁾ والحنصالية والجازولية والكرزاية والرازية،^{(1)(*)} وتعتبر

(1) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص149.

(2) - عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، ط1، تح. سعيد الفاضلي - سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006م، ص343.

(3) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p444. - Rinn, Marabouts..., pp219,220.

(4) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 149.

(5) - نفسه، ص 150، 151.

(*) - هي نوع من المجاهدة عند الصوفية، حيث يسبحون في أماكن نائية عن الناس والعمران حتى تصح خلوتهم. - -

- ترمنجهام سبنسر، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1994م، ص90. (هامش)

(6) - الحاج صادق، المرجع، ص83.

(7) - نفسه، ص 150.

الشاذلية والدرقاوية الورثة الروحيين للقطب أبي مدين شعيب، الذي تنتهي إليه السلسلة الصوفية للشاذلية، التي نجد لها أكثر من سلسلة صوفية مختلفة، لكن كلها تتفق في بدايتها ونهايتها، حيث تبدأ من جبريل ثم الرسول (ص) ثم على بن أبي طالب.... لتنتهي بالغوث أبي مدين شعيب.⁽²⁾

بلغ عدد أتباعها حسب "رين" 14574 إخواني و 268 مقدم و 32 زاوية،⁽³⁾ أما "كوبولاني ودويون" فقد ذكر أن عدد أتباعها بلغ 14206 و 99 مقدم و 11 زاوية.⁽⁴⁾ من أشهر أتباعها إبراهيم التازي وعبد الرحمن الثعالبي، وأحمد بن يوسف الملياني،⁽⁵⁾ الذي كان شاذلي الطريقة في البداية، ثم أسس طريقته اليوسفية، التي تأسست على مبادئ وتعاليم الشاذلية، وقد تحالف مع العثمانيين ضد الزينيين.⁽⁶⁾ وضد الاسبان بقيت علاقته حسنة معهم بعد استقرارهم في الجزائر، حيث نال الملياني وخلفه احترام وحظوة عند العثمانيين.

1-3- مكانة السلطة الروحية في المجتمع:

أدرك العثمانيون منذ البداية مدى نفوذ العلماء خاصة المرابطين وزعماء الطرق الصوفية على السكان، فعروج لما وصل إلى المغرب الأوسط وجد مفتاح البلاد في يد المرابطين، الذين يتمتعون بثقة الأهالي،⁽⁷⁾ نتيجة لما يتميزون به عن العامة، من ثقافة وتقوى، وبركة ونسب شريف.⁽⁸⁾ في حين أن هؤلاء المرابطين كانوا ينظرون إلى العثمانيين على أنهم حماة الدين، لجهادهم ضد النصارى، وإنقاذهم للأندلسيين.⁽⁹⁾ ونتيجة لحاجة العثمانيين إلى السند والشرعية، المتمثلة في السلطة الروحية، ذات النفوذ والسلطة على المجتمع، لذلك كان من الخطر على العثمانيين استبعاد هذه

(1)- G.André, Op. Cit, p227.

(*)- حول هذه الطرق ينظر:

-Rinn, marabouts et khouans, - Depont/Coppolani, Op. Cit, p445 et suit. - G.André, Op. Cit, p227 et suit.

وحول المدنية والدرقاوية ينظر: Joly (A), « Etude sur la shadouliya » in R.A., N501906, pp336, 348.

(2)- Rinn, marabouts et khouans, pp 216,217.

(3)- Ibid, p 264.

(4)- Depont/Coppolani, Op. Cit, p454.

(5)- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 150.

(6)- نفسه، ص 224.

(7)- Boyer, contribution, p16.

(8)- Ben Mensour, Op. Cit, p26.

(9)- Boyer, Contribution, p16.

الفئة،⁽¹⁾ خاصة بعدما وجدوا أن ثلثي البلد تحت حكمهم، وأنهم يحوزون على ثقة الأهالي، فلا غربة أن مفاتيح البلد في أيديهم، لذلك على من يريد دخول المنطقة، التقرب منهم،⁽²⁾ وقد أدرك العثمانيون مكانتهم ودورهم أكثر عند رد الهجمات الأجنبية، وتعبئتهم للناس فرأوا أن نفوذ مرابط يسهل عليهم الأمر أكثر من عدد كبير من الجيوش،⁽³⁾ لهذا اعتمدوا على المرابطين، والطرق الصوفية، خاصة الطريقة الشاذلية والقادرية.⁽⁴⁾

فمنذ بداية التواجد العثماني بالمنطقة، سعوا إلى التواصل مع السلطة الروحية، والتقرب منها حتى يحصلوا على دعمها، لتحقيق مصالحهم، وسياستهم، أو على الأقل حيادها في ظل الظروف الصعبة التي كانت تشهدها المنطقة المصاحبة لترسيخ الحكم العثماني بالجزائر، من غزو إسباني وتفكك وصراعات داخلية، لذلك يقول "غفاريل" (Gaffarel): «أن الإخوة بربروس كانوا حكماء وسياسيين على غرار كونهم رجال حرب، حيث أدركوا أنه لا بديل لهم عن قوة وسند يضمن ولاء السكان في الجزائر».⁽⁵⁾

ومن هذا المنطلق سعى خير الدين وخلفائه إلى كسب الدعم المعنوي والروحي للسلطة الروحية من خلال التقرب من أقطابها، وهذا من أجل توسيع سلطتهم وكسر شوكة كل من يقف في وجههم، مستغلين في ذلك نفوذ رجال الدين والعلماء السياسي والديني في المجتمع،⁽⁶⁾ فخير الدين عرف كيف يقوم بالدعاية لنفسه منذ كان في جربة، فقد كان يقوم بزيارة زوايا المرابطين والأتقياء العاكفين في الزوايا، خاصة الزوايا الساحلية بمنطقة القبائل الصغرى، أين كان يقضي فيها فصل الشتاء، لينطلق للجهاد البحري، فصل الربيع.⁽⁷⁾ فهو كان أكثر مرونة وحكمة من أخيه عروج، حيث عدل من سياسته، فاستدار لرجال الدين والعلماء واهتم بهم ورعاهم، خاصة المرابطين منهم.⁽⁸⁾ وقد سار خلفه على نهجه في تقربهم من السلطة الروحية.

وما يبرز إدراك العثمانيين لمكانة هذه القوى الروحية، وما يمكن أن تقدمه وتضيفه على حكمهم من شرعية، فكانت مبايعة الباشا لا تتم إلا بحضور العلماء والأشراف، حيث

(1)- Tall, Op. Cit, p120.

(2)- سعد الله، على خطى، ص 193.

(3)- Feraud, histoire des villes...Gigilli, p182.

(4)- Bel, La religion..., p357.

(5)- Gaffarel (P), l'Algerie, histoire, conquête et colonisation, Imp.de l'institut, Paris, 1883, p13.

(6)- الغالي الغربي، الثورات الشعبية...، ص 149.

(7)- Filali, sainteté maraboutique...p121.

(8)-Trumelet, les saints....p236.

يبايعه العلماء ثم نقيب الأشراف ثم الوزراء والديوان، وقد ذكر "الزهار" ذلك في أكثر من موضع، منها لما تولى محمد باشا الحكم سنة 1179هـ/1766م، حيث قال "وبايعه العلماء ونقيب الأشراف ثم الوزراء وكافة الديوان وجميع الناس"،⁽¹⁾ واضفاء لشرعية الباشا المعين وأهليته، كان لابد أن يمضي المفتي والقاضي ونقيب الأشراف وأعضاء الديوان على قرار تعيينه المرسل إلى اسطنبول،⁽²⁾ ومراعاة لمكانتهم فقد سمح لهم بدخول الديوان، وأصبحوا جزءا منه، ممثلين في المفتين والقضاة، ونقيب الأشراف، في حين أن الأمر كان ممنوعا على الكراغلة، الذين كانت معاملتهم تختلف مما أدى بهم إلى العديد من الحركات التمردية.

وبهذا تكون مكانة ونفوذ السلطة الروحية في المجتمع إحدى العوامل التي دفعت العثمانيين للتقرب منها، ثم التحالف معها، واستمالتها بمختلف الأساليب والطرق.

2- بداية العلاقة بين السلطة الروحية والعثمانيين بالجزائر:

2-1- الاتصال بين السلطة الروحية والعثمانيين قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

يرى البعض أنه من الخطأ أن نبدأ تاريخ الجزائر العثماني منذ 920هـ/1516م، كما أشار إليه معظم المؤرخين، لأن وجود العثمانيين كان قبل ذلك، حيث يعود إلى أواخر القرن 9هـ/15م، خاصة بعد سقوط غرناطة 897هـ/1492م، حيث كانت لهم اتصالات مع سكان المدن الساحلية، خاصة مع رجال الدين، الذين كانوا يحاربون معهم العدو المشترك ويتعرفون على خصائص المنطقة، جغرافيا وسياسيا وعمرانيا، كما كانوا على صلة بالأمراء الحفصيين.⁽³⁾

ومن أقطاب السلطة الروحية، الذين كانوا على صلة بالعثمانيين المرابط محمد التواتي ببجاية، وأواخر القرن 15م وبداية القرن 16م، الذي وفر لهم الأمن والاستقرار في فصل الشتاء،⁽⁴⁾ حيث نزل في زاوية الشيخ سنة 901هـ/1495م كل من بيري ريس وعمه

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 24، 95، 142.

(2) - حمدان خوجة، المرأة، ص 132. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 238.

- نورالدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 111. - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان...، ص 79.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 137، 138.

(4) - سعد الله، على خطى، ص 195.

كمال رايس،⁽¹⁾ وظلوا عنده شتائين وفي الصيف ينطلقون في الغزو والجهاد، وقد أعطى الشيخ كل منهما رمزا على مستقبله، فأعطى كمال رايس عودا صلبا دليل نهاية مهمته، وبيري رايس أعطاه عودا طريا دليل نضارة مستقبله.⁽²⁾

ومع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، ونتيجة التطاحن على السلطة، والصراع على الحكم، الذي عجل بنهاية الأسرة الزيانية بتلمسان، وبظهور العثمانيين على مسرح الأحداث، انقسم مرابطوها وعلمائها بين معارض ومؤيد للعثمانيين نقمة على الوضع الذي وصلت إليه المدينة، كابن أفغول، ومحمد بن شعاعة، وأحمد بن يوسف الملياني، الذي يعد نموذجا للتقارب العثماني، مع السلطة الروحية في المنطقة، وللتداخل بين السياسية والتصوف،⁽³⁾ فهو لم يتوان أن يكون أهم شخصية دينية، تدعم العثمانيين.⁽⁴⁾

فأحمد بن يوسف الملياني وهو شاذلي الطريقة، من قلعة بن راشد قرب تلمسان،⁽⁵⁾ كان يتمتع بنفوذ وحظوة كبير بين الأهالي، إلى أن وصل اعتقادهم فيه أن الله ينزل غضبه على من أغضب وليه، وما سقوط وهران والمرسى الكبير إلا بعد دعوته على الزيانيين،⁽⁶⁾ وكان لطريقته انتشار واسع بالجزائر والمغرب الأقصى، وقد أثار الملياني الدولة الزيانية بعدما ألّف حوله الناس بالتجمعات التي كان يعقدها بأس الماء وتلمسان ووهران... وهي مناطق ذات استعداد للاضطراب، نتيجة ضعف السلطة بها، وقد أثار أتباعه استقرار حتى السعديين، فحاربهم عبد الله محمد السعدي (965-981هـ)، متهما إياهم بالانحراف عن الدين، وربما هذا بسبب تحالفهم مع العثمانيين،⁽⁷⁾ كما اتهمه خصومه بالإلحاد،⁽⁸⁾ وبعد تدخله في شؤون العامة وفي الأمور السياسية أثار ضده سلطان فاس وبني زيان،⁽⁹⁾ الذين طاردوه بسبب نقل أحدهم للسلطان الزياني أبي عبد

(1)- Djamil aissani « Les royaumes des ath-abbas et de Koukou » influence du mouvement intellectuel des Bibans, journée d'étude sur le royaume de koukou, maison de la culture Mouloud Mammeri, Tizi Ouzou, 30 Septembre 2010, p49.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 464.

(3)- نفسه، ص 497.

(4)- Cour, Op. Cit, pp97, 98.

(5)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص496

(6)- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 11(2).

(7)- المزاري، المصدر السابق، ص74.

(8)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 496، 497.

(9)- محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص101.

الثابتي (1504-1516م)، ما دار من حديث بين الشيخ وأتباعه بوصف السلطة الزيانية أنها سلطنة أسوأ من سلطنة اليهود⁽¹⁾، لهذا سجنه وأمر بحرقه، وتذكر المصادر أنه نجى من هذا بكرامة⁽²⁾، ليسجن بعدها مرة أخرى في عهد أبي حمو الثالث (1516-1528م) لأسباب لم تذكر، ليطلق سراحه بعد ذلك بعد أن امتحنه وظهرت له كراماته⁽³⁾.

ويرجع أول اتصال تم بين العثمانيين والسلطة الروحية، بعد دخولهم إلى الجزائر اتصال عروج بأحمد بن يوسف الملياني قبل سنة 1517م، أي قبل استيلاء الإسبان على وهران سنة 1509م، عندما كان الشيخ بقرية "كريشتل" الواقعة على شاطئ البحر بوهران، فرست سفينة عروج قربه، وكان معه أسير مغربي كدليل لهم، وهو طلب من عروج النزول والتبرك بالشيخ، فرد عليه هذا الأخير، وقد قال له عروج أنه سيصدق ولاية وكرامة الشيخ إذا استطاع أن يطلعه عن مقاصده، وإن وفق سأقبل رجله وأطلب منه الدعاء الصالح، ولما وصل إلى الشيخ قال له هذا الأخير: "عزمت إذن وأصحابك على الهجوم على العدو" فجثى عروج عند قدميه⁽⁴⁾. وهذا يدل على أن العثمانيين كانوا على اتصال بالقوى الروحية قبل عزمهم على دخول الجزائر، فخير الدين نفسه كان يقوم بزيارات للزوايا الساحلية لبلاد القبائل منذ استقروا بجزيرة جربة سنة 1502م⁽⁵⁾.

ومن هنا بدأ أول تحالف عثماني مرابطي بالجزائر، وهذا لإدراك العثمانيين بأن رجال التصوف هم خير حليف لهم في صراعهم مع الإسبان⁽⁶⁾، خاصة بعد الحصار الذي ضربه إسحاق والقبطان إسكندر على قلعة بني راشد ضد أبي حمو وخلفائه، نهاية عام 1517م حتى منتصف سنة 1518م، وقد نجح في حصاره بعد دعم الشيخ وأتباعه لهم⁽⁷⁾، لكنهم عاثوا فيها فساد بعد فتحها.

(1) - الصباغ، المصدر السابق، ورقة 11(2). - محمد حاج صادق، نفسه، ص 102.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 464. - محمد حاج صادق، نفسه، ص 102.

(3) - الصباغ، المصدر السابق، ورقة 05 (1). - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 496.

- محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 103.

Bodin (M), " Notes et questions sur sidi Ahmed Ben Youcef", in **R.A** N° 66, 1925, p176.

(4) - الصباغ، المصدر السابق، ورقة 11(1). - المزاري، المصدر السابق، ص 76.

(5) - Filali, saïté..., pp120, 121.

(6) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 104.

(7) - Bodin (M), " Notes et questions sur sidi Ahmed", p183.

إن هذا الخلاف الذي كان موجودا بين الشيخ والزيايين حملته على وضع يده في يد العثمانيين، أين لعب دورا أساسيا بعد دخولهم الجزائر،⁽¹⁾ وهو الأمر الذي أغاظ السلطان المغربي عبد الله الغالب بفاس، فكتب له الشيخ رسالة جاء فيها: "نسجت برنسا من ماء فغطيت به من الأرض إلى السماء، جعلت عمامة من ثلج وقناديل من ريح وفتائل من ضباب،"⁽²⁾ وهناك من يذكر أنه أرسل له كتابا جاء فيه: "المولى جل جلاله أمدني بعدله، ووصفني بأوصافه حتى صرت أنا هو وهو أنا، يا أمير المؤمنين لا تقهر الفقراء أو يعمل لك العلماء برنسا من الثلج ويلبسونه لك في السمائم، ومن الماء عمامة يشدونها شدا مائلا ومن الريح قنديلا يعملون منه فتائل،"⁽³⁾ وهو لعز لم يستطع حتى علماء المغرب فهمه.

وبعد وفاة عروج عام 1518م أرسل خير الدين إلى الشيخ الملياني هدايا ثمينة كاعتراف بجميله ومبلغ مالي،⁽⁴⁾ قدر بأكثر من 4000 دينار⁽⁵⁾ بعدما ساعدهم ضد الزيايين،⁽⁶⁾ كما خصص له جزاء من الجزية المفروضة على اليهود والمقدرة بثمانية صيعان، بمناسبة ذهاب الحجاج إلى الحرمين.⁽⁷⁾

لكن وعلى الرغم من هذه الامتيازات التي قدمت للملياني، إلا أنه كان متحفظا من العثمانيين وحكمهم بعد فعلتهم بتلمسان، ونلمس ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الشيخ إلى خير الدين، والتي جاء فيها "إن حكمك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلق بنا ولا على نسلهم فإن رهبتم أحسنتم وإن خالفتم عوقبتكم".⁽⁸⁾

وقد حافظ العثمانيون على شرط الملياني إلى غاية عام 1830م، حيث استقبل خير الدين محمد بن مزروقة بكر الملياني بحفاوة وأكرمه، وقدم له المال ونصبه خليفة لأبيه، وأمير ركب الحجاج، كما حمل الصرة إلى الحرمين التي ظلت في ذريته الذين

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 496. - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 101.

(2) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 107.

(3) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 101.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 464. - محمد حاج صادق، نفسه، ص 104.

(5) - عبد الله النجمي، المرجع السابق، ص 102. - محمد حاج صادق، نفسه، ص 104.

(6) - Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed, pp182, 183.

(7) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 104.

- Bodin (M.), « Note sur sidi M'hammed ben chaâ, patron de beni zeroual d'Algérie », in **B.S.G.A.O.**, N°51, 1930, p77.

(8) - نفسه، ص 105. -Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed, p183.(marge).

استوطنوا وادي الحامول بنواحي المدينة.⁽¹⁾ ونصبه كذلك خليفة لوالده على رئاسة الطريقة الشاذلية.⁽²⁾

وقد استمرت العلاقة حسنة بينهما إلى غاية 1830م⁽³⁾ كما ظل أتباعه مؤيدين للسلطة، ومتبعين نهجه في علاقته مع العثمانيين، وندرج في هذا السياق علاقة أحد أتباعه ببيانات وهران وهو محمد بن شعاعة "الذي كان في خدمة العثمانيين مقابل بعض الامتيازات، مثل إعفائه من الضرائب، ومنحه أراض كوقف له ومبلغ من جزية أهل الذمة،⁽⁴⁾

أما بمنطقة القبائل، فالإخوة بربروس كانوا على تواصل مع أحمد بن القاضي، الذي استتجد بهم لتحرير بجاية، خاصة منذ 1512م عند محاولة تحرير بجاية للمرة الأولى، ثم سنة 1513م وسنة 1514م التي باءت كلها بالفشل، ليصبح بهذا من أشهر حلفاء العثمانيين في هذه الفترة، حيث حدثت صداقة بينه وبين عروج، مما جعله ينشر بين الناس أن عروج هو صاحب (مول الساعة)، وأنه بعث ليحمي الإسلام من التهديدات المسيحية.⁽⁵⁾ لكن بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، عرفت العلاقة بينهما مصادمات عنيفة على عهد خير الدين، التي انتهت بمقتل ابن القاضي، والتسليم بشرعية الحكم العثماني بعد ما تم القضاء على نفوذ إمارتي كوكو وبني عباس التي طبق عليها العثمانيين سياسة فرق تسد بإذكاء المنازعات بينهما، مما أدى إلى ضعفها.⁽⁶⁾ وفي هذا يختلف المؤرخون في سبب تصدع الخلاف بين ابن القاضي وخير الدين كما سنرى لاحقا.

ومما سبق يتضح لنا أن الإخوة بربروس، وخلال الفترة التي كانوا ينقلون فيها الأندلسيين إلى سواحل المغرب الإسلامي، كانوا يتصلون ببعض القوى المحلية، التي كانت منبهرة بأعمالهم وبانتصاراتهم ضد المسيحيين، والتي مهدت الطريق للاستتجاد بهم، وقد استمرت في دعمهم بتوليها طلب الانضمام للدولة العثمانية، ثم تثبيت حكمهم في

محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 105. (1) - Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed, p183.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 465.

- عبد الله النجمي، المرجع السابق، ص 102. (3) - Boyer, Contribution p19.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 466، 465. (3) - Bodin (M.), "Notes sur Sidi M'hamed Ben Chaa, p77.

(5) - Boulifa, Op. Cit, p100.

(6) - Boyer, Contribution, p22.

الجزائر، لأن خير الدين حاز على ثقة الناس بمعاملته لهم بالحسنى، ونتيجة عمله الجهادي وجمعه المرابطين حوله، خاصة أكثرهم شهرة ونفوذاً،⁽¹⁾ وهو ما سمح له ولخلفه بتوطيد سلطتهم بالجزائر، ولكن الإشكالية المطروحة هي: "هل أستمّر هذا التوافق إلى غاية نهاية تواجدهم بالجزائر؟".

2-2- موقف السلطة الروحية من الوجود العثماني بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية (عهد البايلىبايات)

عندما تعرضت الجزائر للغزو الإسباني، سارع أقطاب السلطة الروحية للاستنجاد بالعثمانيين سواء بمدينة الجزائر أو بجاية أو تلمسان، لأنهم رأوا فيهم المنقذ الوحيد للبلاد من حالة التفكك الداخلي والغزو الإسباني، لكن بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية تضاربت مواقف السلطة الروحية من الوجود العثماني في بداية الأمر، فمنهم من تحالف معهم ومنهم من عارض، ومنهم من اكتفى بالحياد وإبداء النصيح أو الانصراف للتدريس والتأليف معتزلين السياسة، لذلك نجد أن العلاقة التي ميّزت السلطة الروحية بالسلطة السياسية في السنوات الأولى للتواجد العثماني بالجزائر هي علاقة جدلية تأرجحت بين السلم والمساندة وبين النقد والمجانبة (الحياد) أحيانا، وقد تصل حتى الصدام أحيانا أخرى. ولهذا يمكننا تقسيم موقف السلطة الروحية إلى موقفين مساند ومعارض.

أ- الموقف المساند:

بدأ الموقف المساند للعثمانيين قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية حيث أننا نجد أن أعيان وعلماء كل من بجاية ومدينة الجزائر وتلمسان، هم من استتجد بهم ضد الغزو الإسباني، مثل الشيخ محمد التواتي ببجاية الذي قدم للعثمانيين مساعدات أواخر القرن 15 وبداية القرن 16م، لكل من بيري رايس وكمال رايس حيث وفر لهم الأمن والاستقرار فصل الشتاء،⁽²⁾ في حين اقتفى الكثير من المشايخ نهج أسلافهم في تحالفهم مع العثمانيين مثل تلاميذ الملياني، الذين اتبعوا شيخهم في تحالفه مع العثمانيين مثل ابن شعاعة ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي الذين قدموا مساعدات للعثمانيين ونفس الشيء قام به الشيخ ابن المغوفل بالشلف، الذي رفض السير معهم إلى تلمسان لفتحها، لكنه أرسل معهم ولديه كعلامة على الرضى والتأييد، رغم أن هناك من يقول أن ذهاب ابنه

(1) - Robin, Note sur l'organisation militaire...., p359.

(2) - سعد الله، على خطى...، ص 195.

مع العثمانيين كان كرهان وليس كمباركين لأعمال العثمانيين،⁽¹⁾ لأنه كان يصف العثمانيين بالعجم وأن مجيئهم للجزائر ما هو إلا ذريعة للسيطرة عليها وعلى ثرواتها، وهوما دفع بعروج إلى أسر ابنه وأخذهم معه إلى تلمسان.⁽²⁾ ونجد ممن ساند العثمانيين كذلك، أسرة مولاي الشقفة بجيجل التي تحالفت معهم في جهادهم ضد الإسبان، خاصة ضد حملة أوريلي.⁽³⁾

أما بمدينة الجزائر فالعلماء رفضوا موقف ابن القاضي من خيرالدين وحاولوا إثباته عن مقصده، لكنهم فشلوا في ذلك وأخبروا خير الدين بأنهم يدهم ويده واحدة على من أقام الفتنة وأوقد نارها،⁽⁴⁾ ولما أراد خير الدين ترك مدينة الجزائر متجها نحو جيجل بعد تمرد ابن القاضي عليه، فقد قصده وفد كبير من العلماء إلى سفينته راجين منه العدول عن قراره، لكنه اعتذر لهم، وقد غادروا السفينة "وقلوبهم تعتصر أسى" حسب ما ذكره خير الدين في مذكراته،⁽⁵⁾ وبعد تدمير السكان من سياسة ابن القاضي تشكل وفد من العلماء، تكلم مع ابن القاضي من أجل الخروج من المدينة، وقد خاطبوه بقولهم: "نعتمد أن استدعاء خير الدين باشا فيه خير لنا جميعا.... لقد جئناك راجين أن تسمح لنا بدعوة خير الدين من جيجل، وتتصرف إلى قبيلتك" لكنه رفض وقتل رئيس الوفد وهو عالم دين.⁽⁶⁾

أما بقسنطينة فقد كانت السلطة الروحية بيد أكبر العائلات كعائلة ابن باديس وعائلة عبد المؤمن وعائلة الفكون، وهذه الأخيرة تحالفت مع العثمانيين، ورحبت بهم مثل سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وآلت السلطة الروحية بالمدينة إليهم، في حين أن عائلة عبد المؤمن التي مالت إلى الحفصيين خسرت مع العثمانيين،⁽⁷⁾ بعد معارضتهم وثورتهم عليهم، لذلك تعرضوا لقمع شديد، أين أعدموا شيخ الإسلام محمد بن عبد المؤمن دون

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص465، 466.

(2) - Filali, L'Algerie mystique..., p61.

(3) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, p75.

- معاشي، المرجع السابق، ص 25.

(4) - غزوت عروج، ص 55.

(5) - مذكرات خير الدين بربروس، ص 119. - نفسه، ص 55.

(6) - مذكرات خير الدين بربروس، ص 123.

(7) - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 133، 134.

مراعاة لمكانته العلمية والدينية سنة 980هـ/1572م،⁽¹⁾ لتنتقل رئاسة ركب الحج بعدها نهائيا لآل الفكون والإمامة والخطابة والقضاء لآل باديس.⁽²⁾

فعند دخول العثمانيين لقسنطينة انقسم الموقف بين مؤيد ومعارض من الأسر العلمية والدينية، من المعارضين، نجد آل عبد المؤمن الموالين للحفصيين، برئاسة محمد بن عبد المؤمن أسفل المدينة بحي الجابية، أما المؤيدون آل الفكون بحومة البطحاء، أما المحايدون آل باديس في الجهة الغربية للمدينة، مقتدين بعمر الوزان الذي رفض تولي القضاء سنة 1541م عهد حسن آغا خليفة خير الدين باشا،⁽³⁾ ونتيجة لهذا تضاربت الآراء، وانقسم الأهالي بين مؤيد ورافض لدخول العثمانيين إلى المدينة فبعضهم يقول: «نسلمها ونستريحوا من العناد»، وبعضهم يقول «لا نسلموهم بلادنا وفي تسليمها قبح علينا» لكن لما اشتد حصارها من طرف العثمانيين أشار عليهم الشيخ بن الفكون بفتحها بقوله «هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني وهم من أبناء جنسه وتحت حكمه، إذ لا يليق بنا مقاتلتهم، ولا يسعنا منعهم، وربما تلحقنا الضرورة من السلطان المذكور، من أجل مقاتلتنا لهم ومنعنا دخولهم...».⁽⁴⁾

لهذا أذعن الناس وتم فتح المدينة، وحسب "معاشي" فإن عمل الشيخ يحيى بن الفكون يرجع إلى إعجابه بقوة العثمانيين^(*) على أنها قوة منقذة للبلاد بعد ضعف الحفصيين، كما أن العثمانيين تقربوا من هذه العائلة نظرا لمكانتها ونفوذها وأملاكها الواسعة بالمدينة، إضافة إلى اعتماد الأتراك لسياسة فرق تسد بين الأسر بقسنطينة فقربوا الأسر الأقل شهرة لضرب الأسر الأكثر شهرة.⁽⁵⁾ ومن هنا أعلنت الأسرة ولائها المبكر للعثمانيين، وهذا منذ 1522م عندما اتصل بها قائد الحامية العثمانية المرابطة على حافة

⁽¹⁾ - Mercier, Histoire de Constantine..., p205.

⁽²⁾ - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 134.

⁽³⁾ - سعيدوني، ورقات....، ص 109، 110. - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 133.

⁽⁴⁾ - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 44، 45.

^(*) - إعجاب العلماء بالعثمانيين وشجاعتهم، ولم يقتصر على علماء الجزائر فحتى حسن الوزان (ليون الافريقي)، كان معجبا بعروج وأعماله إلى درجة أن رحل إلى بجاية ليشهد معركة تحريرها التي فشلت. - سعد الله، على خطى، ص194.

⁽⁵⁾ - معاشي، المرجع السابق، ص 117.

المدينة من أجل التوسط لدى قبيلة أولاد يعقوب الدواودة لتمويلهم بالمواد الغذائية مقابل إمدادها بالسلاح.⁽¹⁾

وقد اتسمت علاقة أسرة الفكون بالسلطة في البداية بدور الوساطة فقط، لكن منذ 961هـ-1534م أصبحت ولاءً حقيقياً، حيث نجد شيخ الأسرة يحيى بن محمد بن الفكون التحق بخير الدين بربروس بتونس، وقدم له الولاء، لكنه قتل من طرف جنود شارلكان عند حملته على تونس في نفس السنة.⁽²⁾

واعترافاً بفضل عينو ابنه أبا الفضل سنة (650هـ-1557م) قاضياً على قسنطينة، بعد رفض عمر الوزان، ومع استمرار ولائها لهم كرموها بمنصب شيخ الإسلام الذي منحوه للإبن الثاني ليحيى الفكون وهو عبد الكريم الفكون بعد نزعه من عائلة عبد المؤمن،⁽³⁾ فهذا اللقب منحه العثمانيون لبعض العلماء والشيخوخ من الأسر العلمية احتراماً وتبجيلاً لهم بسبب مكانتهم الدينية، إلا أنه بالنسبة لعائلة الفكون، لم يكن يعني لها المكانة الدينية بل وزنها السياسي والثقافي بقسنطينة والجزائر.⁽⁴⁾

وما يبرز ولاء الأسرة للسلطة العثمانية سفر الشيخ أبا محمد عبد الكريم بن الفكون رفقة الشيخ عبد اللطيف المسبح سنة 975هـ/1567م لتهنئة حاكم الجزائر محمد بن صالح رايس، الذي أمر بإلقاء القبض عليهما عندما أرادا مغادرة مدينة الجزائر، بعد وصول أخبار للباشا عن حدوث تمرد بقسنطينة،^(*) ليطلق سراحهما بعد ذلك بعد التأكد من صدق نيتهما.⁽⁵⁾ لكن وبالرغم من الحضوة والمكانة التي كانت تتميز بها العائلة لدى السلطة التركية إلا أننا غالباً ما نجد عبد الكريم الفكون في كتابه، يذكر الحكام الأتراك بـ"الظلمة" أو "بالعجم" عند ذكر قضاتهم.⁽⁶⁾

(1) - نفسه، ص 117.

(2) - Mercier, Histoire de Constantine..., p193. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p65.

- سعيدوني، ورفقات، ص 112.

- ابن العطار، المرجع السابق، ص 57، 58. - معاشي، المرجع السابق، ص 118. - Mercier, Ibid, pp195, 196.

(4) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 84 - معاشي، المرجع السابق، ص 238.

(*) - إثر هذا التمرد أرسل الباشا محمد بن صالح رايس حملة لتأديب المتمردين على الحامية التركية، ونصب الباي تشولارق رمضان بايا على المدينة سنة 1567م.

(5) - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 84، 83. - معاشي، المرجع السابق، ص 119.

(6) - الفكون، نفسه، ص 44، 77، 124.

وهذا الدعم للعثمانيين بقسنطينة لم يقتصر على عائلة الفكون فقط، بل نجد العديد من علماء وأعيان قسنطينة أيدوا الوجود العثماني، ونلمس هذا من خلال رسالة أعيان وعلماء قسنطينة للسلطان العثماني سليمان القانوني في شأن صالح رايس سنة 1553م/463هـ والإشادة بأعماله الإدارية والحربية ضد الإسبان في بجاية وضد المغرب الأقصى⁽¹⁾.

ب- الموقف المعارض:

ليس كل أقطاب السلطة الروحية كانوا مناصرين للعثمانيين فمنهم من عارضهم، حتى قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، مثل ابن ملوكة التلمساني الذي دعى على عروج، بأن لا يعود إلى المدينة بعد الهلع الذي أصاب سكان تلمسان،⁽²⁾ نتيجة ارتكابه لأعمال أضرت بالسكان رفقة صديقه "الاسكندر الكورسيكي"، إلى درجة ندم سكان تلمسان على استقدامه،⁽³⁾ وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإن ابن ملوكة عارض عروج لما دخل المدينة واعتبره عدوانا على تلمسان وأهلها ودعى للتصدي له ومحاربتة.⁽⁴⁾

أما بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، فنجد بعض صلحاء تلمسان من وقف ضد العثمانيين عند الحملة السعدية على تلمسان سنة 1557م/965هـ، وساعدوهم على دخول المدينة⁽⁵⁾ أما سيدي عبد الرحمن اليعقوبي (ق 10هـ/16م) فنجدته حاول جمع قبيلة التزارة بمدينة ندرومة لمواجهة العثمانيين،⁽⁶⁾ لكن ورغم عدائه ورفضه للوجود التركي بالجزائر إلا أننا نجده يسدي النصح لخير الدين بربروس بالعدول عن السير إلى فاس، لأنه لن يجني من ذلك فائدة، وهو ما حصل فعلا.⁽⁷⁾

وبشير "أبو القاسم سعد الله" إلى أن رفض الشيخ عمر الوزان لخطة القضاء التي عرضها عليه حسن آغا، واعتذاره عن ذلك برسالة مطولة بيّن فيها عدم أهليته للمنصب،

(1) - سعيدوني، ورقات، ص 117، 121 (للمزيد ينظر الرسالة كاملة)، والرسالة الأصلية موجودة في أرشيف طوب قابي بتركيا تحت رقم 10277).

(2) - ابن زرفة، المصدر السابق، ص 255. - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 135.

(3) - مارمول كرخال، المصدر السابق، ج 2، ص 308.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 467.

(5) - Cour, Op. Cit, p52.

(6) - Ibid, p54. - Boyer, Contribution..., p15.

(7) - ابن مريم، المصدر السابق، ص 135. - سعد الله، على خطى...، ص 192. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 196.

اعتبره البعض معارضة من الشيخ للعثمانيين بقسنطينة، وأنه ما زال على ولائه للحفصيين، لكن هذا تحليل غير صحيح فالشيخ كان ورعا ولو عرضت عليه عهد الحفصيين لاعتذر كذلك.⁽¹⁾

لكن تبقى أكبر معارضة وجدها العثمانيون بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية هو موقف آل عبد المؤمن، وخاصة عائلتي آل مقران وآل القاضي اللتان أرهقتا السلطة بحروبهما ضدها.

❖ موقف عائلة عبد المؤمن: حظيت عائلة عبد المؤمن بمكانة خاصة لدى

الحفصيين، حيث منحت لها مشيخة الإسلام، وإمارة ركب الحج،⁽²⁾ وهي من الرافضين لدخول العثمانيين^(*) لمدينة قسنطينة، وأغلقت أبوابها في وجه حسن آغا بدعم من عرب أولاد صولة، الأمر الذي أدى بحسن آغا إلى التمرکز بسطح المنصورة في انتظار فتح المدينة دون سفك للدماء، لكن أمام رفض آل عبد المؤمن تقرب من الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد) لتسهيل دخولهم إلى المدينة، وقد نصحه هذا الأخير بالتقرب من الشيخ عبد المؤمن، والتعهد له بالإبقاء على سلطته الروحية على المدينة، فهذا كفيل له بأن يفتح أبواب المدينة له.⁽³⁾

وعندما استقر الترك بسطح المنصورة بنوا قسبة للجند وأظهروا العدل، وصالحوا الشيخ عبد المؤمن لمدة ثلاث سنوات، لكن هذا كله كان مجرد خديعة وحيلة حتى يتمكنوا منه،⁽⁴⁾ وفعلا استدرجوه مرة إلى سطح المنصورة للتفاوض معه، لكنهم اغتالوه وسلخوا جلده وحشوه قطنا وبعثوا به لمدينة الجزائر وهذا سنة 980هـ/1572م.⁽⁵⁾

بعدها هاجم الأتراك المدينة التي دخلوها بمساعدة عائلة الفكون، بعد قتال بينهم وبين أنصار الشيخ المقتول،⁽⁶⁾ الذي خيرت عائلته بعدها بين البقاء في المدينة أو الرحيل

(1) - سعد الله، نفسه على خطي...، ص 197.

(2) - Mercier (E), Constantine AU XVI^e siècle, élévation de la famille el-Fegoun, typographie, L.Arnolet, 1879, p07.

(*) - يرجع رفض الشيخ عبد المؤمن الاعتراف بالحكم التركي إلى اعتزازه بنسبه الشريف وعدم اعترافه بخلافة الأتراك على المسلمين. - معاشي، المرجع السابق، ص 115.

(3) - نفسه، ص 114 - 116.

(4) - ابن العطار، المرجع السابق، ص 57، 58.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 115.

(6) - نفسه، ص 116. - سعيدوني، ورقات، ص 113. - Mercier, Histoire de l'Afrique..., T03, p114.

عنها، لذا رحل بعضهم إلى بسكرة، أما أتباعهم أولاد صولة، فقد شردوا بدورهم ولجئوا إلى منطقة ليانة شرق بسكرة،⁽¹⁾ لتعود العائلة للظهور مرة أخرى على الساحة سنة 1052هـ-1642م، بثورتها على السلطة التركية، بسبب إهانة الجنود الأتراك لهم أين دام القتال بينهما يومين وقتل فيه 24 شخصا من عائلة عبد المؤمن وإتباعها، ولم يخمد الصراع إلا بعد تدخل العقلاء والقاضي لدى آغا النوبة، وتمّ الصلح بين الطرفين.⁽²⁾

لكن وعلى الرغم من هذا، فمن بقي بالمدينة من الأسرة فقد حظي باحترام العثمانيين، وحافظوا على ممتلكاتهم ومكانتهم الدينية،⁽³⁾ حيث أبقوا لهذه العائلة على منصب إمارة ركب الحج حتى وقت متأخر أين تولى محمد حفيد الشيخ عبد المؤمن ركب الحج عهد عبد الكريم الفكون الابن،⁽⁴⁾ أي بعد حوالي قرن من الوجود العثماني.⁽⁵⁾

❖ **موقف أسرة آل مقران (قلعة بني عباس):** المعروف عن الأسرة أنها تأسست على

أساس ديني، ثم تحولت إلى العمل السياسي بعد تأسيس القلعة سنة 1510م، ولعل أكبر معارضة واجهت العثمانيين بالشرق الجزائري هي معارضة أسرة آل مقران بزعامة عبد العزيز حاكم قلعة بني عباس (1512/1559م)، وربما يرجع السبب إلى تحالف الإخوة بربروس مع عائلة آل القاضي المنافسين التقليديين لهم.⁽⁶⁾

فهذا الأمر أثار سخط زعيم المقرانيين عبد العزيز الذي تخلى عن الجهاد، وتحالف مع الإسبان ضد العثمانيين وابن القاضي وعمل جاسوسا للإسبان ببجاية، وكان يدفع لهم إتاوة سنوية،⁽⁷⁾ مقدرة بـ 10.000 دقة^(*) (8,608 فرنك)، و 1000 صاع من القمح و 100 خروف و 700 ثور و 14 حصان مسرجا،⁽⁸⁾ فطارده خير الدين بربروس أين التقى معه في جبل بني خيار غرب بجاية، لكن قوة خير الدين ألزمت عبد العزيز على الصلح

(1) - معاشي، نفسه، ص 116.

(2) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 37.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 116.

(4) - الفكون، منشور الهداية...، ص 102.

(5) - سعد الله، شيخ الإسلام...، ص 49.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 124.

(7) - غزوات عروج، ص 30.

(*) - يذكر صاحب الغزوات أن الضريبة المالية تقدر بـ 7 آلاف دينار. - نفسه، ص 30.

- معاشي، المرجع السابق، ص 61. - Feraud, histoire des villes...Gigilli, p125. (8)

والتعهد بقطع تحالفه مع الإسبان،⁽¹⁾ مقابل أن يدفع لخير الدين ما كان يدفعه للإسبان من ضرائب.⁽²⁾

وبعد تعيين خير الدين بايلربايا على الجزائر، نجد عبد العزيز نقم على العثمانيين أكثر وأعلن ولائه للحفصيين بتونس، وهذا بعدما جعل خير الدين أحمد بن القاضي ممثلاً له على كامل الشرق الجزائري، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، حيث أعلن أحمد بن القاضي الثورة والانفصال، وطرد خيظطر الدين من مدينة الجزائر نحو جيجل سنة 1520م،⁽³⁾ ولما علم عبد العزيز أن العثمانيين على خلاف بأهل كوكو تقرب منهم، وعقد هدنة مع خير الدين وتحالف معه ودعمه عسكرياً، حتى استرجع مدينة القل سنة 1520م وقسنطينة سنة 1521م سنة ودخل عنابة سنة 1522م،⁽⁴⁾ وهو الذي أمن له طريق العودة من جيجل إلى مدينة الجزائر سنة 1525م وقتل ابن القاضي سنة 1527م ببني عايشة (ثنية الأحد)،⁽⁵⁾ وبعدها تحرير صخرة البنيون سنة 1529م.⁽⁶⁾

وفي ولاية الحسن بن خير الدين الأولى (1544-1551م)، كلف هذا الأخير عبد العزيز حاكم مجانة بمحاربة آل القاضي المعادين للعثمانيين، مقابل سيطرة أمير بني عباس على المنطقة الممتدة من سطيف حتى البويرة،⁽⁷⁾ ونتيجة محاربة أمير بني عباس للقبائل ولإمارة كوكو وسع نفوذه حتى البيبان، في الوقت الذي تمكن فيه العثمانيون من إقامة عدة أبراج بالمنطقة، كبرج زمورة وحمزة، والمسيلة، أما الإسبان فقد دعموا موقعهم في بجاية.⁽⁸⁾

وفي سنة 952هـ/1545م لما هاجم السعديون الذين تحالفوا مع الإسبان مدينة تلمسان، تحالف الحسن بن خير الدين مع عبد العزيز وعقد معه صلح أقمون آث خيار، بعد معارك طويلة بينهم.⁽⁹⁾ وفي نفس السنة شارك العثمانيين في استعادة مستغانم

⁽¹⁾ - Ibid, p125.

⁽²⁾ - غزوات عروج، ص 30.

⁽³⁾ - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة...، ص 212.

⁽⁴⁾ - Heado, Histoire des Rois...., p37. - نفسه، ص 213.

⁽⁵⁾ - Ismail Hamet, Op. Cit, pp264, 265

⁽⁶⁾ - Gaid, L'Algérie sous...., p51. - نفسه، ص 214، 217.

⁽⁷⁾ - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 29.

⁽⁸⁾ - عباد، المرجع السابق، ص 75.

⁽⁹⁾ - Djamil Aissani, Op. Cit, pp48, 49.

بـ2000 فارس،⁽¹⁾ وفي سنة 956هـ/1550م قدم لهم مساعدة ضد حاكم فاس مولاي أبي عبد الله الشيخ، كما غزا تلمسان،⁽²⁾ على رأس 8000 زواوي^(*) في حملة قادها حسن قورصو المكونة من 5000 مشاة و1000 صباحي تركي،^{(**)(3)} وهو ما كان سببا في الانتصار على المغرب، بفضل شجاعة وقوة عبد العزيز وجيشه، وتمكن العثمانيون من دخول تلمسان، أين نصبوا القائد "صفا" عليها وتركوا بها حامية مكونة من 1500 جندي،⁽⁴⁾ وعند عودته جلب معه جزء من قبيلة الحشم من معسكر، وكون منهم مخزن خاص استمر حتى 1871م وفيا للمقرانيين.

ويذكر "مارمول كريخال" أنه أثناء الحملة انزعج عبد العزيز من حسن قورصو الذي يكره الأشراف، لذلك خاطبه بقوله: «أيها السيد حسان أبهذا تشكر الأمير على ما يعطيه إليك من أجر جزيل، لكونك قد ابتعدت عن الجزائر، حيث اعتدت أن تختال في كسوة من الديباج المحلي بالذهب»، ولما علم أن العتاب لا ينفع مع حسن قورصو، حرض رجاله وهزم السلطان المغربي، وقتل ولده بيده وقطع رأسه وعاد به إلى الجزائر.⁽⁵⁾ ورغم الخلاف الذي حدث بين زعيم بني عباس وحسن قورصو قائد القوات التركية حول اقتسام الغنائم،⁽⁶⁾ إلا أنه قدم الدعم لصالح رايس (1552-1556م) عندما ثار قائدي ورقلة وتوقرت، ظنا منهما أن صالح رايس لن يصل إليهما لبعد المسافة، لكن هذا الأخير سار نحوهما على رأس جيش قدر بنحو 3 آلاف جندي و1000 صباحي⁽⁷⁾ و8 آلاف زواوي على رأسهم عبد العزيز حاكم بني عباس، فخضعت ورقلة دون مقاومة ثم توقرت بعد حصار دام 04 أيام، ليفرض عليها ضريبة قدرت بـ15 جملا محملا بالذهب و05 آلاف عبد "أسودا".⁽⁸⁾

(1)- Gaid, Chronique....., p09.

(2)- مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 385. - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج5، ص 25.

(*)- يذكر أن عبد العزيز سار على رأس 15000 زواوي. - Rinn, Insurrection, p10.

(**)- حسب مارمول فإن حسن قورصو كان على رأس 3 آلاف جندي مشاة وألف فارس وثمانية آلاف من العرب، أما عبد العزيز فكان 180 مشاة و6000 فارس ومعهم 3 مدافع. - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 386.

(3)- Ismail Hamet, Op. Cit, p278.

(4)- De grammont, Op. Cit, p76.

(5)- مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 386.

(6)- De grammont, Op. Cit, p79.

(7)- مبارك الملي، تاريخ الجزائر القديم، ج3، ص 81. - سعيدوني، وراقات، ص 104.

(8)- مبارك الملي، نفسه، ص 81. - De grammont, Op. Cit, p77.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 87.

بعدها حدث خلاف بين عبد العزيز والعثمانيين للمرة الثانية، لأن حسن قورصو لم ينس ما قام به عبد العزيز سنة 1550م في الحملة على تلمسان عندما طالب بالغنائم.⁽¹⁾ وربما يعود هذا الخلاف إلى تخوف العثمانيين منه، نظرا لما كان يتمتع به من قوة، لذلك وبإيعاز من حسن قورصو حاولت السلطة العثمانية قتله بقصر الجنية عندما قدم إلى مدينة الجزائر، لولا تدخل جنود الزواوة لحمايته، بعدها طارده صالح رايس وأبعده عن القلعة، بعد مقتل أخيه الفاضل في معركة ببوغني سنة 1552م،⁽²⁾ لكن "مارمول" يذكر أن صالح رايس حاول قتل الأمير عبد العزيز، الذي كان يرافقه في محلته، بعدما بعث إليه حسن قورصو يخبره بأن الأمير يريد العصيان، لكن هذا الأخير أعلم سرا أنه سيلقى القبض عليه، ففرّ نحو الجبال وأعلن الحرب على الأتراك.⁽³⁾

لكن هناك من المصادر من يرجع سبب الخلاف بينهما بعد السيطرة على ورقلة وتوقرت والقضاء على أسرة بني جلاب بمساعدة الشيخ بوعكاز وعبد العزيز، ومطالبة هذا الأخير من صالح رايس مد نفوذه والتحكم في المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة، لكن صالح رايس رفض طلبه، مما أدى إلى تمرد أمير بني عباس ومحاولته التحالف مع ابن القاضي، وهاجم الحاميات التركية بزمورة، برج بوعريريج، المسيلة، البويرة،⁽⁴⁾ ويبدو أن صالح رايس أراد توحيد البلاد، أما عبد العزيز فكان يريد حكما مستقلا، ويكون حليفا للعثمانيين لا خاضعا، وهو ما أدى إلى حدوث صدام بينهما ومقتل أخيه الفاضل.⁽⁵⁾

بعد فشل حملة صالح رايس أرسل حملة أخرى في السنة الموالية (1553م) بقيادة ابنه محمد بن صالح رايس فشلت، ثم حملة سنة 1554م بقيادة سنان رايس ورمضان لكنهما هزم أمام عبد العزيز الذي أحدث مجزرة في صفوفهم بمساعدة أمير كوكو.⁽⁶⁾

ففي سنة 1553م استغل عبد العزيز انشغال العثمانيين بصراعهم مع المغرب، ونصّب نفسه سيّدا على الحضنة والبييان، وفرض الرسوم على السلع المارة على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر، ولم ينته الصراع بينهما إلا في إطار الحرب ضد الإسبان

⁽¹⁾ - Ibid, p79.

⁽²⁾ - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ص 82. - Rinn, Insurrection..., p10.

⁽³⁾ - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 386، 387.

⁽⁴⁾ - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 29. - سعيدوني، ورقات، ص 105.

⁽⁵⁾ - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة...، ص 340.

⁽⁶⁾ - De grammont, Op. Cit, pp79, 80. - سعيدوني، ورقات، ص 105، 106.

ببجاية وتحريرها سنة 1555م،⁽¹⁾ لكن بعد تحريرها ازداد تخوف عبد العزيز من العثمانيين، فقام بتحسين قلعته،⁽²⁾ وقطع الطريق الرابط بين قسنطينة ودار السلطان، مما صعب الاتصال بالبايلك، إلا عن طريق بوسعادة وسور الغزلان.⁽³⁾

وبعد عودة الحسن بن خير الدين للمرة الثانية (1557م/1561م)، أرسل عبد العزيز سنة 1557م هدية لتجديد الصلح الذي أقيم سابقا بينهما سنة 1529م.⁽⁴⁾ فرد الحسن بن خير الدين جميله بأن أعطاه جباية المسيلة و30 مدافع، تركها صالح رايس بها، لكن عبد العزيز ما إن ملكها حتى جمع قواته التي قدرت بأكثر من 6 آلاف رجل، وشرع في جباية الضرائب بأماكن تابعة للعثمانيين،⁽⁵⁾ كما أن الحسن بن خير الدين في هذه الفترة طلب مصاهرة أمير بني عباس الذي رفض طلبه،^(*) على عكس ابن القاضي الذي صاهره،⁽⁶⁾ فكان لهذا الأثر السلبي صعب تقبله من طرف الحسن بن خير الدين،⁽⁷⁾ وهو السبب الذي أدى إلى توجيه حملة ضده قتل على إثرها عبد العزيز وخلفه أخاه أحمد أمقران (1559-1596م).⁽⁸⁾

لكن هناك من يرجع السبب الحقيقي في الخلاف بينهما هو رفض عبد العزيز دفع الضريبة عكس أولاد القاضي الذين دفعوها، ليستعين ضدهم بالإسبان الذين دعموه بألف جندي.⁽⁹⁾ في حين هناك من يرجع سبب إعلان الحرب على قلعة بني عباس من طرف الحسن بن خير الدين، إلى استتكار هذا الأخير من جمع أمير القلعة الضرائب على منطقة المسيلة التابعة للسلطة،⁽¹⁰⁾ والتي تضم كل من المعاضيد، أولاد سليمان، أولاد سعيد، أولاد يحيى، فجهز الأتراك حملة من 6 آلاف تركي وأندلسي و600 صبايحي و4

⁽¹⁾ - Gaid, l' Algérie durant..., pp 71, 74.

⁽²⁾ - معاشي، المرجع السابق، ص 128.

⁽³⁾ - Boulifa, Op. Cit, p163.

⁽⁴⁾ - يوسف بنوجيث، المرجع السابق، ص 163 وما بعدها. - مازمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 388.

⁽⁵⁾ - كريخال مازمول، المصدر السابق، ج2، ص 388.

^(*) - رفض مصاهرته ربما لاعتزازه بنسبه الشريف. - معاشي، المرجع السابق، ص 129.

⁽⁶⁾ - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 29.

⁽⁷⁾ - Boulifa, Op. Cit, p163.

⁽⁸⁾ - محمد سي يوسف، "المرأة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع25، أوت 2002، تونس، ص 79.

⁽⁹⁾ - Gaid, l' Algérie durant..., p79. - عباد، المرجع السابق، ص 86.

⁽¹⁰⁾ - عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ج3، ص 91. - يوسف بنوجيث، المرجع السابق، ص 167، 168.

آلاف فارس عربي وقبائلي، و8 مدافع،⁽¹⁾ في حين عبد العزيز نزل من الجبال على رأس 6000 فارس و10.000 مشاة و1000 مسلم بالبنادق،⁽²⁾ لكنه قتل في هذه المواجهة سنة 1559م وقطع رأسه وحمل إلى باب عزون، أين علق لمدة يوم كامل،⁽³⁾ بعده تولى أخاه أمقران الذي عقد الصلح مع الأتراك مقابل احترام القبائل الخاضعة لهم،⁽⁴⁾ وبموجب هذا الصلح تقلص نفوذ أمقران وتخلّى عن الزيبان والضفة الغربية لوادي الساحل.⁽⁵⁾

بعد هذا ساد الهدوء العلاقة بينهما ابتداء من 1559م حتى 1590م وخلال هذه الفترة دعم أمقران حسان باشا في ولايته الثالثة (1562-1567م) في حملته ضد الإسبان بوهران سنة 1563م (الكونت دالكودات)،⁽⁶⁾ بـ12 ألف رجل من منطقة الببيان،⁽⁷⁾ وفي حملته نحو تونس سنة 1572م.⁽⁸⁾ كما أصبح آل مقران يقدمون الهدايا عند تولي باشا جديد للجزائر، الذي بدوره يقدم لصاحب القلعة السيف والقفطان،⁽⁹⁾ كما نجده أرسل إلى مدينة الجزائر سنة 1580م أحد أبنائه لتهنئة الباشا الجديد جعفر باشا سنة 1580م، والذي كان محملاً بهدايا كثيرة.⁽¹⁰⁾ منها 06 آلاف روبل (2400 ريال) و400 جمل و1000 خروف.⁽¹¹⁾

لكن عاد الصراع بين الطرفين، واستمر إلى غاية نهاية عهد البايبرايات وبداية عهد الباشوات، حيث استغل أحمد أمقران انشغال العثمانيين أواخر البايبرايات وأعاد بناء جيشه مكون من 14 ألف رجل و3 آلاف فارس، ووسع نفوذه نحو طولقة بسكرة وبوسعادة، وهاجم الحاميات التركية بزمورة وبرج بوعريج،⁽¹²⁾ ورفض دفع الضريبة للعثمانيين،⁽¹³⁾ الأمر الذي أدى بالسلطة المركزية إلى تجهيز حملة ضد قلعة بني عباس،

(1) - عباد، المرجع السابق، ص 86.

(2) - Djamil Aissani, Op. Cit, p50. - Heado, Histoire des Rois..., p120.

(3) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 40 (هامش). - عباد، المرجع السابق، ص 86.

-Rinn, Insurrection, p12.

(4) - عباد، نفسه، ص 86.

(5) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 29. - معاشي، المرجع السابق، ص 130.

(6) - De grammont, Op. Cit, p95.

(7) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 30.

(8) - يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 167.

(9) - نفسه، ص 167.

(10) - Rinn, Insurrection..., p12.

(11) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 32.

(12) - عباد، المرجع السابق، ص 108.

(13) - De grammont, Op. Cit, p139.

سنة 1590م عهد خضر باشا وبدعم من آل القاضي،⁽¹⁾ ودامت شهرين من ديسمبر 1590م إلى جانفي 1591م،⁽²⁾ وكرد على هذه الحملة قام أمقران بتخريب القلعة، وهذا بإشعال النار بالقرى ولم ينتهي الصراع إلا بعد تدخل أحد المرابطين، ودفع أمقران غرامة قدرت بـ30 إيكو (244000 فرنك)،⁽³⁾ لكن هذا الصلح لم يعمر طويلا حيث ثار أمقران مرة أخرى بعد سنتين فقط أي سنة 1592م، عندما فرض شعبان باشا الذي تولى الحكم سنة 1592م ضريبة ثقيلة، ورفض أمقران دفعها، فأعلن باي قسنطينة الحرب عليه،⁽⁴⁾ وهو ما دفع بأمقران إلى قطع ممر الببيان ومنع الجباة من المرور، وعرقلة المحلة المكلفة بجمع الضرائب،⁽⁵⁾ ومحاصرة المدينة، مما اضطر خليفة شعبان باشا (الداي مصطفى) إلى إنشاء حامية سور الغزلان سنة 1593م لضمان الاتصال بين الجزائر وقسنطينة،⁽⁶⁾ ليعقد بعدها الصلح بين الطرفين بتدخل الوجهاء والمرابطين مرة أخرى.⁽⁷⁾

وبعد وفاة أمقران سنة 1595م هاجم بنو عباس مدينة الجزائر ووصلوا حتى مشارف باب عزون سنة 1598م، وحاصروها مدة 11 يوما دون نتيجة وهذا بسبب الاضطرابات التي كانت في عهد الباشوات،⁽⁸⁾ ولما وصل حسن فنزيانو للحكم قرر سنة 1600م القضاء على القبائل المتمردة، فسار في حملة نحو بني عباس ضد خليفة أحمد أمقران، سي ناصر الذي قتلته قبائل بني عباس سنة 1600م،⁽⁹⁾ لتتقسم بعده العائلة كما وضعف دور الأسرة و زال نفوذها، إلا أننا نجدها عادت سنة 1046هـ/1637م عند قيام ثورة أحمد الصخري، التي انظم إليها الشيخ بتقة بن ناصر، وألحق خسائر بالقوات التركية في موقعة قجال قرب سطيف سنة 1047هـ/1638م، وسيطر على مجانة، أين يعيد بناء أسرته المشتتة،⁽¹⁰⁾ ثم ثاروا مجددا سنة 1643م في كل من الببيان وسطيف ولم يخمد

(1)- Boulifa, Op. Cit, p181.

(2)- Ibid, p182 (Marge).

(3)- De grammont, Op. Cit, p139. - Berbrugger, Les époques militaires, pp102, 104. - Heado, Histoire des Rois..., p208.

(4)- عباد، المرجع السابق، ص 108.

(5)- نفسه، ص 108.

(6)- De grammont, Op, cit, p139.

(7)- عباد، المرجع السابق، ص 108.

(8)- يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 191. - De grammont, Op, cit, pp 140, 141.

(9)- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم، ص 143. - Rinn, Insurrection..., p12.

(10)- معاشي، المرجع السابق، ص 307.

تمردهم إلا بعد تعهد الداي برفع جزء من الضرائب المفروضة على الناس، وعلى حرية التجارة بين مدينة الجزائر وقسنطينة.⁽¹⁾

واستمرت العلاقات بعدها سلمية حتى عهد الدايات، ورغم ظهور الصراع بينهم في بعض الأحيان، إلا أننا نجد أولاد مقران قد شاركوا إلى جانب السلطة الروحية ضد ثورة ابن الأحرش سنة 1807م،⁽²⁾ كما شارك زعيمهم أحمد بن بوزيد المقراني إلى جانب أحمد باي ضد الحملة الفرنسية.⁽³⁾

❖ **موقف أسرة آل القاضي (إمارة كوكو):** أسس آل القاضي إمارتهم اعتمادا على النسب الشريف، والماضي الإداري لأحمد بن القاضي، ووزنه الديني في منطقة القبائل التي رحبت بأولاد القاضي وربطت علاقات معهم طلبا للحماية بفضل ما يسمى "بالعناية" مثل قبيلة آيت خليل، آيت بوسعيد، آيت فراوسن...⁽⁴⁾

ولما دخل الأتراك إلى الجزائر كان ابن القاضي من المؤيدين، لذلك يذكر "الأفراني" أن ابن القاضي هو من استتجد بالعثمانيين لكن لما دخلوها "مكروا به وقتلوه خوفا على رياستهم"،⁽⁵⁾ أما "ابن عسكر" فهو الآخر يشير أن أحمد بن القاضي، هو الذي كان سببا في "دخول التركماني لمدينة الجزائر لحسن ظنه به ومحبته منه للجهاد في سبيل الله، لكن بعد ذلك "تتكروا له شان رئاسة المتغلبين، وقتلوه شهيدا".⁽⁶⁾

وقد ساندتهم بجيشه، ودامت العلاقات حسنة بينهما إلى غاية 1520م عندما تمرد على العثمانيين، فنجده قدم لهم المساعدة عند تحرير بجاية سنة 1512م، حيث جمع القبائل كآيت إيراثن وآيت فراوسن وقبائل أعالي سيباو والتحق بعروج،⁽⁷⁾ كما ساعد عروج في حملته الثانية على بجاية سنة 1514م وبعد فشل هذا الأخير في حملته، نجد ابن القاضي، وقف إلى جانبه وقدم له منزله ودعمه وتعاهد معه على الصداقة، وبعد رفع عروج الحصار على بجاية التجأ معا إلى جيجل وعاشا مدة هناك.⁽⁸⁾

(1) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 38، 39.

(2) - Rinn, , Insurrection, p16.

(3) - Ibid ..., p15. -De grammont, p 365

(4) - Boulifa, Op. Cit, pp113,115.

(5) - الأفراني، المصدر السابق، ص 17.

(6) - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 126.

(7) - Tahar oussedik, Le royaume de Koukou-ENAG, Algérie, 2005, p13.

(8) - Berbrugger, L'époque militaire, p59.

كما أننا نجد ورود اسم ابن القاضي ضمن الوفد الذي أرسله خير الدين إلى السلطان سليم الأول، من أجل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية وقد وفق في سفارته، وأصبحت الجزائر إيالة عثمانية.⁽¹⁾

وبعد ضم الجزائر للدولة العثمانية، كان على خير الدين توحيد شتات المغرب الأوسط وإخضاعه لسلطته، لكن كان من الصعب عليه إخضاع المناطق سلمياً لذا لجأ إلى المواجهة، وأولها كانت مع أمير كوكو ابن القاضي الذي ثار ضده.

وقد اختلف المؤرخون حول أسباب تصدع التحالف الذي كان بين خير الدين وابن القاضي، رغم أن أغلبهم يرجعون السبب إلى انسحاب ابن القاضي من جيش عروج مما أدى إلى مقتله في حملته على تلمسان 1518م، منهم "بربروجر" (Berbrugger) الذي يذكر أن ابن القاضي انسحب من المعركة مع جيشه وعاد إلى منطقته (كوكو)، ولما توفي حمل خير الدين سبب وفاة أخيه لابن القاضي وهو ما كان سبباً للقطيعة،⁽²⁾ وقد استغل السلطان الحفصي أبو عبد الله الفتور في العلاقة بينهما وأقنع ابن القاضي للتحالف معه لطرد الأتراك وهذا بسبب رغبته في استعادة الشرق الجزائري، حيث انسحب ابن القاضي من جيش خير الدين وانضم للحفصيين في حملتهم ضد خير الدين سنة 1519م، أين ألحقوا هزيمة به.⁽³⁾

أما "كورين شوفاليه" فإنه يتساءل حول أسباب انسحاب ابن القاضي من جيش عروج، هل كان بتحريض من السلطان الحفصي أم سبب وشاية أم أن ابن القاضي لم يغفر لعروج مقتل قريبه سالم التومي حاكم مدينة الجزائر؟؟، لذلك عاد إلى الجبل والتفت حوله القبائل وحصل إمارته (كوكو) بـ 5000 رجل مسلح و 1500 فارس.⁽⁴⁾

أما "أرزقي فراد" فيرى أن تأرجح العلاقة بين أمير كوكو والعثمانيين بين السلم والحرب يرجع إلى مقتل سالم التومي على يد عروج، إضافة إلى تحريض السلطان الحفصي لابن القاضي وعدم اقتناع ابن القاضي بتعيين خير الدين بايلربايا على الجزائر.⁽⁵⁾

(1) - عبد الجليل التميمي، أول رسالة، ص 119.

(2) - Berbrugger, L'époque militaire, p61. – Berbrugger, Les turcs en kabylie, rafat, ed, Tizi ouzou, algérie, p21.

(3) - Berbrugger, L'époque militaire, p63.

(4) - كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 36، 37.

(5) - أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 38.

لكن فرضية نقمة خير الدين على ابن القاضي عند مقتل أخيه عروج تكون مستبعدة لأنه لو كان صحيحا لما أشرك خير الدين ابن القاضي في إدارة الجزائر عندما عين بايلربايا على الجزائر، حيث نجده عين كل من محمد بن علي نائبا له على الجهة الغربية ومركزه شرشال، أما أحمد بن القاضي فقد عينه نائبا له على الجهة الشرقية ومركزه دلس،⁽¹⁾ لكنه ثار عليه بعد ذلك بتحريض من حاكم تونس أبو عبد الله الحفصي الذي جهز عسكره وتوجه نحو الجزائر، حيث هزمهم خير الدين، مما اضطرهم للتحصن بالجبال، ثم لحقهم ابن القاضي الذي قسم جيشه قسمين قسم صعد مع الجنود العثمانيين إلى الجبل وآخر بقي من الحامية وأمرهم بقتل الجنود العثمانيين، وهو يقتل من صعد معهم الجبل الذين حاصروهم وقتلهم.⁽²⁾ وحسب خيرالدين، فبعد هذا الانتصار زاد غرور ابن القاضي، واستمر في مهاجمته للعثمانيين، حيث أسر منهم 500 تركي، وجعلهم يدورون بالرحى وهم مقيدون، فطلب منه خيرالدين إطلاق سراحهم وإلا سيعاقبه، لكنه رفض واستمر في تحريض القبائل بقوله: "ما الذي جاء بالأتراك إلى الجزائر؟ هذه بلاد العرب لنجتمع ونتخلص منهم..."⁽³⁾.

فابن القاضي تظاهر في البداية بالولاء لخير الدين، وانضم إلى جيشه لكن أثناء المعركة غدر به، وانحاز للحفصيين،⁽⁴⁾ بعدها أرسل إلى خير الدين لطلب الصلح، فعفا عنه خير الدين، وهو يعلم أن ظاهره غير ما في باطنه، وطلب منه إرجاع الأسرى الترك مع دفع ضريبة كل شهرين، لكن ابن القاضي نقض الاتفاق بعد أربعة أشهر فقط وأرسل جيشا إلى مدينة الجزائر،⁽⁵⁾ وتحالف مع القائد العثماني حسن قارة، وهو ما أدى بكل من تنس وشرشال للتمرد ضد خير الدين، مما اضطر خير الدين إلى ترك مدينة الجزائر نحو جيجل أين أكمل نشاطه البحري هناك ما بين 1520م/1525م،⁽⁶⁾ وقد فقد خير الدين في معركته ضد ابن القاضي 2000 شهيدا و2000 جريحا، رغم أنه قضى على كل العصاة

(1) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 27. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 64.

(2) - غزوات عروج، ص 51.

(3) - مذكرات خير الدين، ص 111.

(4) - الملي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 55، 56.

(5) - غزوات عروج، ص 51، 52.

(6) - Mercier, Histoire de constantine, p189. - Mercier, Histoire de l'afrique...T03, pp23, 28.

- Berbrugger, L'époque militaire, pp63, 65. - Berbrugger, Les turcs, p23. - Ismail Hamet, Op. Cit, p263.

ولم ينجو منهم إلا 700 نائر، أما البقية قتلوا أو أسروا وعلى رأسهم شيخ مدينة الجزائر الذي أعدمه وقطع جسده إلى أربع وعلقها على أبواب المدينة لتكون عبرة.⁽¹⁾

فرغم أن جل المصادر تذكر أن أحمد بن القاضي هو الذي ثار ضد خير الدين لكن هذا الأخير في مذكراته ينفي ذلك ويشير إلى أن من ثار ضده هو ابن أحمد بن القاضي بقوله: «لقد كان ابن القاضي.... يَكُن لي قدوة كبيرا من الصدق والمودة، حاول سلطان تونس أن يحرضه للخروج علي إلا أنه لم يوافق على ذلك ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم». ثم يستطرد ويقول: «والآن توفي هذا الرجل العاقل وحل محله ولد بئس يدعى ابن القاضي أيضا فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس» قائلا: «لنكن يدا واحدة ونخرج الأتراك من بلاد العرب» كما أنه أشار إلى أن رسالة(*) ابن القاضي للسلطان الحفصي وقعت في يده بعد شهرين من والد أحمد بن القاضي الأب،⁽²⁾ وحسب "أرزقي شويتام" فإن ابن أحمد بن القاضي هو حند بن القاضي حسب الروايات الشفوية.⁽³⁾

بعد تمرد ابن القاضي غادر خير الدين مدينة الجزائر سنة 1520م نحو جيجل بإرادته حسبما جاء في مذكراته، وهذا بهدف تلقين سكان الجزائر درسا عندما يحكمهم ابن القاضي المتלהف للسلطة،⁽⁴⁾ وقد بقي في جيجل حتى سنة 1525م أين أعاد بناء قواته، ودخل القل 1520م وقسنطينة سنة 1522م وعنابة 1522م،⁽⁵⁾ ووضع في القل حامية عسكرية من 200 جندي انكشاري وحامية بقسنطينة بها 600 جندي، أما عنابة فترك بها 1500 جندي.⁽⁶⁾

بعدها قرر العودة إلى الجزائر، بعدما ربط علاقات ودية مع أمير بني العباس، منتهزا سوء العلاقة بين ابن القاضي وأهالي الجزائر الذين توالى وفودهم إلى خير الدين

(1) - مذكرات خير الدين، ص 114.

(*) - مما جاء في الرسالة، «لنكن أنا وإياك يدا واحدة لاستئصال الأتراك، ونطرد خير الدين من الجزائر، فأكون أنا السلطان عليها في مكانه، وقتها سوف أغدق عليك، أمر لا طائلة، لقد كان والذي يحب الأتراك كثيرا، أما أنا فلا يوجد قوم أبغض إلي منهم». - مذكرات خير الدين، ص 109.

(2) - نفسه، ص 109.

(3) - أرزقي شويتام، إمارة كوكو، ص 12.

(4) - مذكرات خير الدين، ص 113.

(5) - Heado, Histoire des Rois, p37.

(6) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 27.

من أجل العودة إلى المدينة نظرا لسوء معاملة ابن القاضي لهم.⁽¹⁾ وقد اصطدم مع ابن القاضي الذي تم طعنه في معركة ثنية عائشة سنة 933هـ/1527م من طرف أحد شيوخ العرب، كما قتل حسن قارة التركي حليف ابن القاضي،⁽²⁾ وحسب "المزاري" فإن قتل ابن القاضي كان بسبب خوف خير الدين منه، لكنه لا يذكر الواقعة ولا كيف حدثت، ويعتبر هذا العمل أول سفك للدماء ظلما ببر الجزائر،⁽³⁾ ليواصل بعده أخاه الحسين القتال الذي استسلم في الأخير وعقد هدنة مع الأتراك مقابل 30 كيس فضة يؤديها كل سنة،⁽⁴⁾ كما القى بحارة خير الدين، القبض على ابن أخيه الذي طلب العفو معتذرا ونافيا أن تكون له صلة بتمرد عمه، وتعهده بدفع 20 ألف دوقية، وأنه سيكون في خدمة العثمانيين، ووفيا لخير الدين وتعهده بعدم النزول من الجبال بدون إذن منه، وأن يدفع له سنويا 10 آلاف دينار و 1000 جمل و 1000 بقرة و 2000 شاة و 1000 بغل و 20 فرسا.⁽⁵⁾

بعد عقد العثمانيين معاهدة سنة 1529م مع كل من آل القاضي و أولاد أمقران،⁽⁶⁾ الذين ساعدوهم في تحرير حصن البنيون في نفس السنة،⁽⁷⁾ فهذه المعاهدة جعلت العلاقة بين الطرفين تستقر لفترة، حيث كان أمراء كوكو وبني عباس يقدمون للسلطة هدايا سنوية تقدر بـ 400 إلى 500 دوقية ويتلقون منها السلاح والألبسة الفاخرة.⁽⁸⁾

لكن بعد ذلك ساءت العلاقات بين الطرفين، ونلمس هذا من خلال دعم محمد بن أحمد بن القاضي لشارلكان عند حملته على مدينة الجزائر سنة 948هـ/1541م،⁽⁹⁾ وهذا ما جعل حسن آغا يقرر معاقبته، فسار نحوه سنة 949هـ/1542م بجيش قوامه 6000 رجل منهم 3000 تركي و 12 مدفعا،⁽¹⁰⁾ فلما رأى محمد ابن القاضي عددهم أعلن ولائه

(1) - نفسه، ص 123. - Berbrugger, Les époques militaires, p65.

(2) - مذكرات خير الدين، ص 128. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 47، 48.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 250.

(4) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 56. - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 45.

(5) - مذكرات خير الدين، ص 133.

(6) - De grammont, Op. Cit, p34. يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص 135.

(7) - نفسه، ص 138.

(8) - De grammont, Op. Cit, p50.

(9) - Hedo, Histoire des Rois..., p65. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 299، 300.

(10) - Ibid, p65. - Berbrugger, les epoques militaitre, p78.

وخضوعه وقدم له ضريبة، تتكون من نقود وأبقار وجمال وغنم وتعهد له بدفعها كل سنة، كما قدم له ابنه أحمد كرهينة وعمره لم يتجاوز 15 سنة.⁽¹⁾

ليعود في نفس السنة ويجدد اتصالاته بالاسبان من خلال المراسلات التي كانت بينه وبين شارلكان، حيث طلب فيها محمد بن محمد بن القاضي، من شارلكان العودة، وشن حملة على الجزائر حتى يتمكن هو من بسط نفوذه على كامل زواوة ويتخلص من غريمه أمير بني عباس والعثمانيين،⁽²⁾ وهذا طبعاً يكون مقابل ولائه للاسبان.

أما سنة 1552م تقرب صالح رايس من آل القاضي، واتفقوا معهم على حرية الزواوة في التجارة والتنقل بين الجزائر وداخل البلاد،⁽³⁾ وهو ما أدى بابن القاضي بدعمه في نفس السنة، في حملته ضد أمير بني عباس،⁽⁴⁾ الذي قدم له أمير كوكو في تحريره لمدينة بجاية سنة 1555م رفقة بعض الشيوخ قوة مقدرة بـ30.000 رجل.⁽⁵⁾

وقد توطدت العلاقة أكثر بين السلطة المركزية وأسرة آل القاضي في ولاية الحسن بن خير الدين الثانية (1557-1563م)، عندما قام هذا الأخير بمصاهرة العائلة، وهو ما كان سبباً في دعم ابن القاضي للعثمانيين في حملتهم ضد المغرب سنة 1559م، وضد بني العباس أين قتل فيها حاكم القلعة عبد العزيز.⁽⁶⁾

أما في سنة 1563م عندما حاول الحسن بن خير الدين فتح وهران قدم له صهره أمير كوكو 1000 فارس،⁽⁷⁾ لكن "مارمول" يذكر أنه قدم له 6000 رجل أرسلها مع ابنه، ونفس العدد قدمه أمير بني عباس،⁽⁸⁾ وقد قتل في هذا الهجوم قائد زواوة ابن القاضي وهو صهر الحسن بن خير الدين.⁽⁹⁾

(1) - Heado, Histoire des Rois...., p65. - De grammont, Op, Cit, p68. - Boulifa, Op, Cit, p110, 111.

- عباد، المرجع السابق، ص 69. - Berbrugger, les epoques militaitre, p79.

(2) - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة، ص 301، 302.

(3) - عباد، المرجع السابق، ص 75.

(4) - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة...، ص 340.

(5) - Heado, Histoire des Rois, p93. - نفسه، ص 343.

(6) - De grammont, Op, Cit, p91. - Ismail Hamet, Op, Cit, p287.

(7) - Heado, Histoire des Rois...., p128.

(8) - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 336، 337.

(9) - سعيدوني، حصن المرسى...، ص 278.

وفي سنة 1569م قدم آل القاصي مساعدة للعثمانيين رفقة بني عباس في محاولة لاسترجاع تونس من الإسبان،⁽¹⁾ ثم دعموهم مرة أخرى سنة 1575م ضد حاكم فاس، ثم سنة 1590م ضد قلعة بن عباس التي حملوا لها العداء الذي لم ينته إلا بعد تدخل مرابط للصلح بينهما،⁽²⁾ لكن هذه العلاقات لم تستمر طويلا، فبعد تعيين عمر بن القاضي سنة 1583م خلفا لمحمد بن أحمد بن القاضي على عرش إمارة كوكو، التي ضعف نفوذها على عهده، واتضح التباعد بينه وبين العثمانيين منذ عام 1595م، وما يوضح تقارب عمر بن القاضي (1583-1618م) ما بين (1603-1618م) مع الإسبان،⁽³⁾ تلك المراسلات التي كانت بينهما حيث وجدت رسالتين، الأولى سنة 1603م وجهها إلى حاكم بجاية يطلب فيها دعم الإسبان له ضد الأتراك،⁽⁴⁾ فاستجابت له إسبانيا، وأرسلت 200 جندي قتل منهم بني جناد 90 جنديا بأزفون،⁽⁵⁾ ثم أرسل رسالة ثانية سنة 1610م لنفس الحاكم، يطلب دعما ضد الجزائر، ويوضح فيها أن ما حدث لجنود الإسبان سابقا، ما هي إلا خديعة من بني جناد، إلا أن الإمبراطور الإسباني لم يقدم له الدعم، بل حتى أنه لم يجبه على الرسالة.⁽⁶⁾

ويبدو أن مرابط بني جناد سيدي منصور اكتشف مؤامرة عمر بن القاضي، لذلك كشف أمره عند العثمانيين، الذين ساعدتهم عندما نزلوا ببني جناد سنة 1618م، وهذا بسبب رفضه تقارب ابن القاضي مع الإسبان،⁽⁷⁾ كما يرجع تحول بني جناد عن مناصرة آل القاضي إلى كونهم قلدوا العثمانيين في حياة القصور والبذخ وهو شيء مرفوض لدى القبائل المتعودة على التقشف والتواضع، لذلك نجد هذا المرابط رفض استقبال أمير كوكو عمر بن القاضي أمام باب السوق مثلما جرت العادة أن يستقبل من الأعراش، بل وصل إلى حد منعهم من ذلك،⁽⁸⁾ كما حرضهم بعدم تقديم الضيافة له، وكذلك بغالهم وحميزهم

(1)- Heado, Histoire des Rois..., p141. - Boulifa, Op. Cit, p180.

(2)- Heado, Ibid, pp161et 207,208. - Boulifa Ibid, pp 180, 182.

(3)- ساحي، المرجع السابق، ص 52.

(4)- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة، ص 301، 304. -Genevois, Op. Cit, p06.

(5)- ساحي، المرجع السابق، ص 53. - Oussedik, Op, Cit, p40.

(6)- نفسه، ص 53. - أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة، ص 306، 308.

(7)- ساحي، المرجع السابق، ص 53.

(8)- نفسه، ص 53.

التي يستعملها عمر بن القاضي لنقل المحاصيل في فصل الصيف لأن هذا يلحق ضررا بمصالحهم.⁽¹⁾

واستمر عمر بن القاضي في عداؤه للسلطة حتى مقتله على يد أخيه بوكتوش سنة 1618م أين تشتت العائلة بعده.⁽²⁾ وقد استمر الخلاف العثماني مع آل القاضي، حتى سنة 1624م، أين وجه خسرف باشا حملة ضد الإمارة، وصلت حتى عاصمة الإمارة كوكو،⁽³⁾ التي مكث فيها العثمانيون أزيد من 10 سنوات. بعدها عمل علي بتشين على عقد اتفاق مع زواوة، لضمان أمن القوافل وتزويد دار السلطان بالمواد الأولية، والقوات مفضلا التعاون معهم على غرار ما فعله من سبقه من الحكام.⁽⁴⁾ واستمرت الإمارة في معارضتها للسلطة إلى غاية تاريخ دخول العثمانيين لمنطقة الزواوة، بعد بناء برج سيباو سنة 1720م، على يد علي خوجة المؤسس الفعلي للنفوذ العثماني بالمنطقة، والذي أنهى حكم أسرة بوكتوش (فرع آل القاضي) بعد انتصاره على حند واعلي بوكتوش.⁽⁵⁾

ومن خلال ما سبق يمكننا القول أن السلطة التركية في البداية حاولت إخضاع القوى الراضة لها والتي لم ترضى بالانطواء تحت لوائها، فخير الدين رغم أنه أشرك الأهالي، ممثلين في الأعيان والعلماء في اتخاذ قرار ضم الجزائر للدولة العثمانية، إلا أنه غيب القوى المحلية في تشكيله السلطة وأبعدها عن زمام الحكم، خاصة بعد تمرد ابن القاضي عليه وهو ما جعله يدخل في صدمات معها، والتي استمرت فترة من الزمن، بسبب تعارض مساعي العثمانيين الرامية إلى الانفراد بالسلطة، وإخضاع الجميع للسلطان العثماني، مع سعي كل من آل القاضي وآل مقران، للسيطرة على منطقة زواوة وتكوين حكم مستقل عن العثمانيين، والتعامل معهم الند للند، وليس تابع وسيده، لذلك نجد أنه إذا صادق أحدهم العثمانيين انضم الآخر إلى الحفصيين أو إلى الإسبان. ونتيجة هذه المعارضة عمدت السلطة المركزية إلى انتهاج سياسة التقارب مع هذه القوى خاصة الروحية منها لمساعدتها بسبب نفوذها وقوتها، مقابل امتيازات معترفة بذلك بسلطة ونفوذ هذه السلطة الروحية.

⁽¹⁾ - Boulifa, Op, Cit, pp 201, 202.

⁽²⁾ - Robin, Note sur l'organisation, p135 (marge). – Genevois, Op. Cit, p16. et 22.

- ساحي، المرجع السابق، ص 54.

⁽³⁾ - Mercier, Histoire de l'Afrique, To3, p208. - Berbrugger Les époques militaires, p110

⁽⁴⁾ - ساحي، المرجع السابق، ص 55، 56.

⁽⁵⁾ - أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 39. Robin, la grande kabylie, p46

3- ازدواجية السلطة أو الخضوع للأمر الواقع:

مثل القرن 16م مرحلة انتقالية، وتحول بالنسبة للسلطة الروحية، وأجهزتها فقد وقع المجتمع ككل تحت تأثير التحولات التي أعادت تركيبته الاجتماعية والسياسية في شكل جماعات متميزة، ولهذا برزت فئة السلطة الروحية ممثلة في الفقهاء، والمتصوفة، والمرابطين، المسيرة للبلاد بعد الفراغ السياسي، الذي شهدته المنطقة، ومن ثم بروز فئة الأتراك كفئة تتولى الحكم فيما بعد، وسعيها لذلك منذ دخولها للجزائر، وهو ما يفسره قول خير الدين في مذكراته عندما دخلوا بجاية: «انتصبت أنا وأخي ملكين على هذه البلاد» وفي موضع آخر يذكر «أنه بات من اللازم علينا، أن نؤسس لأنفسنا دولة جديدة، في غربتنا هذه»⁽¹⁾.

ولتحقيق ذلك عمدوا إلى تصفية الحكام المحليين، وهو ما يفسره قول خير الدين بربروس: «منذ استقرارنا في الجزائر كنا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر وتونس...»⁽²⁾. وما يبرز تحول العثمانيين من منقذين إلى حكام، منذ البداية محاولة عروج فرض سلطته على أعيان وأمراء مدن المغرب الأوسط، الذين استجدوا به، ليتحول من منقذ إلى حاكم صارم، وخير دليل على هذا التحول في أهدافه، صراعه مع سالم التومي وكذلك مع حاكم تلمسان، ونتيجة هذا التحول، فإن المصادر تشير إلى أن مقتله سنة 1518م يرجع إلى حد كبير إلى انقلاب أعيان المدينة، وشيوخها عليه⁽³⁾.

ومن هنا يبدو أن مطاردة الإخوة بربروس في البداية للزعامات المحلية والقضاء عليها كان ورائه حلم إقامة مملكة بالمنطقة، وعلى الرغم من أن خير الدين في بداية حكمه استوعب الدرس الذي وقع فيه عروج، وبدأ يستميل العلماء والمشايخ،⁽⁴⁾ وأشرك بعضهم في الحكم مثل أحمد بن القاضي، إلا أن عدم إشراك كل القوى المحلية الروحية أو القبلية، خاصة القوى النافذة منها، في دواليب السلطة الفعلية، بل أحيانا وصل الأمر حتى عدم المحافظة على نفوذ البعض منها، مما أدى بها إلى التصادم مع السلطة

(1)- مذكرات خير الدين، ص 72، 73.

(2)- نفسه، ص 98.

(3)- الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 38.

(4)- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 12.

العثمانية، التي عملت على تقريب البعض وإبعاد البعض الآخر، مثل تحالفهم مع أسرة الفكون وإبعادهم لعائلة آل عبد المؤمن التابعة للحفصيين، لتصبح عائلة الفكون ذات كلمة في المسائل الدينية وحتى السياسية بقسنطينة.⁽¹⁾ وهي سياسة لجأت إليها السلطة من أجل إضعاف القوى القائمة، وخلق قوة روحية جديدة أكثر وفاء وولاء لها.

كما أنه وبسبب المقاومة العنيفة التي واجهها العثمانيون من طرف الأسرة المقرانية، نجدهم في الأخير اعترفوا بوجودها وثبتت حكمهم رسميا سنة 948هـ/1541م من طرف حسن آغا بعد عودته من حملته على أولاد صولة شرق بسكرة، وكان هذا الاعتراف بحكم الأسرة، مقابل اعترافها هي الأخرى بحكم السلطة المركزية العثمانية،⁽²⁾ التي اعترفت فيما بعد بحكم ونفوذ شيخ الأسرة عبد العزيز حاكم مجانة على الزاب وبسكرة، وجرجرة والبيبان غربا،⁽³⁾ وقبضه للرسوم على كل تجارة تمر منه بما فيه تجارة الأتراك، على معبر أبواب الحديد في البيبان،⁽⁴⁾ الذي لا يستطيعون المرور به إلا بعد دفع الضريبة المقدرة ب 30000 أوقجة.⁽⁵⁾

فسيطرة آل مقران على هذا الطريق الرابط بين دار السلطان وقسنطينة، دفع بالعثمانيين إلى كسب ودهم والتقرب منهم، وحافظوا على علاقة التفاهم بينهم لأن بمعاداتهم يعني قطع الطريق بين مركز الحكم، وبابلك الشرق، وهو نفس الممر الذي أدرك أهميته عبد العزيز حاكم القلعة فاستغله لفرض ضريبة على الممر،⁽⁶⁾ سميت بضريبة المرور، والتي فرضها عليهم سنة 960هـ/1554م،⁽⁷⁾ فالحامية التركية كانت لا تجرأ على الاقتراب من ممتلكات أتباع المقرانيين حتى ولو كانوا بحاجة لها، مثل أن يمسه الجوع أو يبيتوا في العراء، وهذا خوفا من بطش شيخهم، ولا يدفعون لهم أي ضريبة^(*) (للعثمانيين).⁽⁸⁾

(1) - سعد الله، على خطى...، ص 196، 197.

(2) - معاشي، المرجع السابق، ص 126.

(3) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 204.

(4) - عباد، المرجع السابق، ص 75، 76.

(5) - Mercier, histoire de l'Afrique, To3, p167.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 164.

(7) - Peyssonnel/Desfontaine, Op, Cit, To2, p209.

(*) - مثل ضريبة "حق الضيفة" التي كانت تقدمها القبائل الخاضعة للحامية التركية فترة الجباية من مأكّل وملبس وعلف للحيوانات وغيرها من الضرائب الأخرى، كاللزمة والغرامة.....

(8) - Ibid, To1, p374.

فاعتراف السلطة المركزية بسلطة ونفوذ أمير القلعة، إلى جانب سلطتها ضمن لها ولائه، وعدم إثارته للمشاكل ضدها، لذلك نجده شارك صالح رايس في فتح توقرت وورقلة سنة 959هـ/1552م، فكان الوفاق بينها وبينه على أساس المساواة في الرتبة واتخاذ القرار،⁽¹⁾ ثم مشاركته معها في تحرير بجاية سنة 1555م من الإسبان، رغم أن هذا لم يدم طويلا وتجدد الصراع بينهما.

وبالمقابل فأسرة آل القاضي وبعد صراع وتصادم معها في البداية، سعت السلطة إلى التقرب منها، عن طريق طريق مصاهرتها من طرف كل من الحسن بن خير الدين وعلي علي وعلي بيتشين، فنشأت العلاقة بينهما على أساس التعامل بالمثل، أين حظيت الإمارة بالاستقلال وبعده امتيازات، مع دفع العشور والزكاة للسلطة، وتلقي شيوخها الحكام القفطان ومراسيم التولية، لكن رغم هذا تقلص نفوذ الإمارة،⁽²⁾ خاصة بعد مقتل عمر بن القاضي وانقسام العائلة.

أما بالغرب الجزائري ونتيجة لوجود الخطر الإسباني، الذي استمر إلى غاية عام 1792م، نجد السلطة العثمانية حاولت وسعت منذ البداية إلى كسب السلطة الروحية إلى جانبها معترفة بنفوذها، حتى لا تتحالف مع الإسبان أو المغرب الأقصى ضدها، لذلك نجدها تقربت منها، وهذا منذ عهد خير الدين بربروس الذي يبدو أنه استوعب الدرس الذي وقع لأخيه بالمنطقة، فنجده تقرب من القوى النافذة بها كسيدي أحمد بن يوسف الملياني، الذي منحه خير الدين جزء من الجزية السنوية المقدرة بـ 08 صيعان من الجزية المأخوذة على اليهود، لكن الشيخ رد عليه برسالة جاء فيها: إن حكمك لا يجري علينا ولا على أعقابنا ولا أتباعنا، ولا على أولادهم، ومن الحكمة احترام ذلك، وإلا ستلقى الرد المناسب،⁽³⁾ وما اشترطه الملياني على خير الدين لدليل على قوة السلطة الروحية بالمنطقة وقبول السلطة العثمانية بالأمر الواقع، وهذا نتيجة ظروف ومتطلبات فرضتها وضعية المنطقة، كما أن قبول السلطة بشروط الملياني جعل أحد أتباعه يقول «أن الأتراك لما يروننا يذبون كما يذوب الملح في الماء».⁽⁴⁾

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 127.

(2) - ساحي، المرجع السابق، ص 56.

(3) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 105. Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed, p,183(marge)

(4) - الصباغ، المصدر السابق، ص 20(2). - نفسه، ص 105.

وقد ورد اعتراف السلطة المركزية بسلطة ونفوذ السلطة الروحية، في العديد من الوثائق، منها ما أقرّه إحدى قادة الحاميات التركية بالغرب الجزائري ويدعى "هروال" الذي تولى الحكم سنة 1544م، حيث تعهد للشيخ بلقاسم بن ميرة بمليانة باستقلال جهته عن السلطة العثمانية، وقد تجسد هذا الاعتراف فيما بعد عن طريق وثائق منحت لأبنائه منها وثيقة مؤرخة بأواخر شوال 1120هـ/1708م جاء فيها «يسلم الواقف على هذا الأمر الكريم... النافذ أمره العالي، من القواد والعمال خصوصا، قواد مليانة أننا أنعمنا على حمال أولاد سيدي بلقاسم بن ميرة، ولا سبيل لأحد عليهم، لا في القليل ولا في الكثير... ولا يتدخل أحد في شؤونهم...»⁽¹⁾.

ونتيجة للمقاومة التي وجدها العثمانيون من طرف هذه القوى الروحية، كان من الضروري أن يدخلوا في اتصالات مع العائلات المرابطية من أجل توظيف نفوذهم للهيمنة على السكان،⁽²⁾ واستمالتهم والاستفادة من حمايتهم خاصة بمنطقة الزاوية، وهذا لتحقيق مكاسب عجزوا عن تحقيقها بقوة السلاح، كالتنقل بأمان ما بين الجزائر وبجاية عبر غابة أكفادوا تحت حماية المرابطين، لهذا تنازلت السلطة المركزية عن نصيب من الزكاة والعشور المدفوعة من القبائل المحلية، وقدمتها للزوايا والأضرحة والمرابطين، اعترافا بخدماتهم وقوتهم ونفوذهم،⁽³⁾ كما أنها أبقت على كل الهياكل الاجتماعية بالأرياف مستعينة برجال الدين من مرابطين وعلماء وشيوخ قبائل،⁽⁴⁾ متبعة بذلك في تسيير البايك أسلوبا قائما على تقاسم السلطة مع القوى المحلية النافذة بهدف تحقيق التوازن في البايك سواء مع المشيخات الوراثية كالزاوادة والحنانشة والحراكتة،⁽⁵⁾ وآل مقران وغيرها من القوى الروحية النافذة التي فضلت كسبها إلى جانبها بدل معاداتها، معتمدة خاصة على ثنائية السلطة الإدارية، من خلال تدعيمها للمرابطين وللطرق الصوفية وشيوخ الزوايا، الذين أعطتهم صلاحيات محدودة، خاضعة لتوجيهات البايك.⁽⁶⁾

وبهذا فلما أدركت السلطة المركزية مكانة السلطة الروحية، وكان لزاما عليها التقرب منها، خاصة المرابطين والطرق الصوفية لخاصية يحملها العثمانيون أنفسهم كما

(1) - محمد بن سماعيل، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط4، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص97، 98.

(2) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, 173.

(3) - أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 43.

(4) - سعيدوني، النظام المالي، 229.

(5) - Babes (L), Op, Cit, p13.

(6) - سعيدوني، ورقات، ص 254، 255.

رأينا، وكذلك لضرورة المرحلة ومتطلباتها، كما وأنه فقد ظهر جليا للعثمانيين الدور والنفوذ الذي يتمتع به رجال السلطة الروحية، لذلك كان عليها التقرب منهم والاعتراف بسلطتهم ونفوذهم الروحي خاصة أمام تزايد قوتهم، فهذه السلطة الروحية المنتشرة في مختلف جهات الإيالة، كانت تتمتع بقوة أدبية ودينية وعسكرية واقتصادية، خولت لها السيطرة على مناطق واسعة، مما اضطر الحكام إلى الاعتراف بنفوذها والاعتماد عليها في تسيير شؤون السكان خاصة بالأرياف.

إنّ فشل السلطة في إلحاق السلطة الروحية، جعلها تعمل على توظيفها كوسيط بينها وبين الأهالي،⁽¹⁾ مشكلة بذلك همزة وصل بين الحاكم والمحكومين، فجعلت منها مجالات عازلة بين الأراضي الخاضعة للسلطة والمناطق المعادية لها مقابل امتيازات، تقوم عليها العلاقة من هدايا وإعفاء من الضرائب، واعتراف بالنفوذ والسلطة على أماكن تواجدها، وهذا الأمر جعلها منافسا للسلطة الحاكمة ورغم كونها أصبحت تؤدي دور الوسيط إلا أن قوتها ونفوذها الذي تمتعت به جعل منها أداة تخشاه السلطة الحاكمة في انتظار الفرصة السانحة للقضاء عليها.

⁽¹⁾ - Filali, Sainteté..., p124.

الفصل السادس

امتيازات السلطة العثمانية
للسلطة الروحية ونتائجه

بعد تولي العثمانيين الحكم في الجزائر، حاولوا إبعاد القوى الروحية عن الحياة السياسية، وإدارة شؤون البلاد، لكن ونظرا للمقاومة الشديدة التي واجهوها من طرف بعض القوى المحلية، غيروا سياستهم نحوها، ولم ينظروا إلى أقطابها، خاصة المرابطين وشيوخ الزوايا على أنهم مجرد رجال دين، تقتصر مهمتهم على نشر تعاليم الدين، رغم إدراكهم منذ البداية أن هذه الفئة تحظى بثقة واحترام الأهالي، الذين ينظرون إليهم على أنهم أولياء الله وحماة الدين، لهذا وبعد مقاومتهم الشديدة للسلطة العثمانية في البداية، تعاملت معهم فيما بعد بحذر وشاركتهم السلطة، واعتمدت عليهم للسيطرة على المناطق التي لا تطالها سلطتها، خاصة بعدما أدركوا مكانتهم في الأوساط الشعبية، فأظهروا لهم الاحترام، وصاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات المادية والمعنوية، وأصبحوا يقدسون أضرحتهم بعد موتهم ولا يعاقبون كل من يفر إلى ضريح أي مرابط لوقار وقداسة المكان، لأن المرابطين كانوا خطرا على السلطة إذ هي تجاهلتهم،⁽¹⁾ لهذا وعند تحرير بجاية من الاسبان سنة 1555م على يد صالح رايس، أول ما قام به هو ربط علاقات مع الشخصيات الدينية بالمنطقة على رأسهم أحمد أمقران، وهذا من أجل بسط النفوذ العثماني على المناطق الواقعة بين بجاية وجيجل.⁽²⁾

وبما أن رجال الدين والعلماء كانوا يمثلون الرأي العام فقد شكلوا طبقة اجتماعية لعبت دورا معتبرا، لذلك اعتمد عليهم العثمانيون بالجزائر وقاموا بحمايتهم ومجايلتهم،⁽³⁾ سواء ماديا أو معنويا، عن طريق منحهم المساعدات المادية والامتيازات.⁽⁴⁾ منتهجين في ذلك سياسة التقارب والإغراء، لجلبهم، بغرض كسب دعمهم من جهة، ومراقبة تحركاتهم من جهة أخرى، لذلك لم ينظروا لشيوخ الزوايا ومقدمي الطرق، والمرابطين كرجال دين فقط،⁽⁵⁾ بل هم طرف فعال في احلال الاستقرار الداخلي، وكسب ولاء السكان.

وقد استغل العثمانيون نفوذ السلطة الروحية خاصة المرابطين، ليمارسوا حكمهم على الأهالي، فانتهجوا سياسة التعامل بالحسنى مع المرابطين،⁽⁶⁾ الذين تقبل الكثير منهم الأمر، ورضوا أن يكونوا أعوانا للبايلك ووسطاء بينهم وبين القبائل. وجعلوا منهم حلفاء أوفياء من أجل كبح روح الانفصال، والحد من الاضطرابات خاصة بمنطقة القبائل، وهذا

(1)- Delphin, Op. Cit, p186.

(2)- Feraud, histoire de bougie, P 119.

(3)- Delphin, Op.Cit, p 186.

(4)- Kaddache, Op.Cit, p144.

(5)- Saidouni, Op. Cit, p 396.

(6)- De Grammont, Op. Cit, p412.

عن طريق الهدايا والمجاملات ومنح الاقتطاعات من أجل إرضائهم،⁽¹⁾ والالتزام برأيهم، وتقبل شفاعتهم، وزيارة أضرحتهم، وتكريم القائمين عليها،⁽²⁾ ولا يفوتون فرصة لإظهار احترامهم للأولياء، وتقديم التنازلات لهم، وبناء القباب وإعفائهم من الضرائب ومنحهم حتى حق العفو، لذلك نجد المرابطين يسارعون لنجدة العثمانيين عندما تهاجمهم قوة أخرى.⁽³⁾

وكانت هذه الامتيازات غالبا ما تتم عن طريق فرمانات أو مراسيم تكون بالصيغة التالية: «وجردنا لهم على مقتضى الأوامر التي بين أيدينا...»، فهذه المراسيم صارت تقليدا متبعا، حسبما توضحه الوثائق التي جاء فيها ما نصه: «وجردنا لهم على مقتضى ما بين أيديهم من أوامر لإخواننا البايلاز...» أو نجد فيها: «وجدنا لهم على مقتضى ما بين أيدينا من أوامر...».

وقد وضعوا لهذا سياسة ارتكزت على أسس تحول دون أي موقف عدائي ضدها من طرف العلماء ومن بين هذه الأسس:

- الإبقاء على الاتصال مع رجال الدين، وتقديم ضمانات لهم وامتيازات إضافة إلى إظهار الاحترام، وتجنب أي ضرر ضد الأضرحة، والزوايا، واعتبارها ملاذا للفارين.
- مراقبة شيوخ الزوايا، ومقدمي الطرق بحذر بهدف تجنب عدائهم خاصة في المناطق غير المراقبة أو البعيدة عن أعين المحلة.
- إقناع شيوخ ومقدمي الطرق بمدينة الجزائر بالعدول عن إثارة القبائل المعادية للسلطة.⁽⁴⁾

- وقد سعت السلطة إلى التفاهم معهم منتهجة في هذا سياسة مدروسة حسب المواقف⁽⁵⁾ والمناطق.

بالمدين: تمتع العلماء والمرابطين بالمدن بوضعية مريحة مقابل حيادهم في الأمور السياسية إرضاء للسلطة،⁽⁶⁾ وبدعم تدخلهم في الأمور العامة إلا لتأييدا لها،⁽⁷⁾ وهو ما يفسر انعزالهم عن السياسة كليا،⁽⁸⁾ إضافة إلى نيلهم نسبة من مغانم القرصنة، والهدايا في

(1)- Feraud, Histoire des villes, GIGilli, p173.

(2)- سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية، ص156.

(3)- دوتي، المرجع السابق، ص 139، 140.

(4)- Saidouni, Op.Cit, p396, 397.

(5)- Boyer, Contribution..., p 27.

(6)- Ibid, P 27.

(7)- كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 72.

(8)- Boyer, Contribution, p 27.

المناسبات، فهذه الامتيازات تحولت فيما بعد إلى امتيازات من النوع الروحي،⁽¹⁾ فمثلا السلطة دعمت وساندت زاوية الثعالبي المشهورة لكونها بمركز السلطة (مدينة الجزائر) وكذلك لكون الثعالبي من أبناء المنطقة.⁽²⁾ وله مكانة مميزة لدى سكان المدينة.

وربما لهذه الأسباب تقلص دور العلماء السياسي بالمدن كقوة اجتماعية،⁽³⁾ فمعارضتهم للسلطة كانت أقل مما كانت عليه بالريف حيث أن الزوايا التي توجد في المناطق غير المراقبة والتي لها تأثير في المدن، ربطت علاقات صداقة مع السلطة تمثلت في الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، وعومل شيوخها ومقدموها باحترام بسبب نفوذهم كالطريقة الرحمانية.⁽⁴⁾ فالإطار الذي وجد فيه العلماء بالمدن لم يسمح لهم بالقيام بتجاوزات على حساب السلطة على غرار ما كان يحدث بالأرياف من فتن ومعارضات تزعمها شيوخ الزوايا والمرابطون.

بالأرياف: لقد اختلف الأمر بالأرياف عما كان بالمدن و كان أكثر تعقيدا، حيث اضطر العثمانيون في البداية للرضوخ لمطالب هذه الفئة، وخاصة وأنهم لم ينتصروا على الأسباب ولم يبسطوا حكمهم بين الأهالي إلا بمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا الذين ركزوا بالمقابل على امتيازاتهم المالية.

وبما أن المرابطين بالريف منهم من توجه نحو التصوف الروحي، ومنهم من كان يتزعم قبيلة أو عدة قبائل واهتمامه كان الأمور الدنيوية، لذا فظهور التركي كان كمنافس له أكثر منه كبطل للإسلام، لهذا منهم من ساعد العثمانيين إما كوسطاء أو كمصلحين،⁽⁵⁾ ومنهم من وقف موقفا غامضا اتجاه السلطة،⁽⁶⁾ ومنهم من اتخذ موقفا معاديا، هذا الموقف تبناه مرابطون وشيوخ زوايا تركزوا في المناطق الجبلية بعيدا عن أعين السلطة، ولم يعترفوا بشرعية سلطة البايك، ويرجع موقفهم في الغالب حسب "سعيدوني" إلى سبب اقتصادي، وفي مقابل هذا كان البايك يرى هذه الزوايا على أنها مؤسسات إسلامية بدون عقيدة،⁽⁷⁾ مثل الدرقاوية التي سببرز دورها العدائي جليا بعد القطيعة التي حدثت بين العلماء والسلطة أواخر العهد العثماني.

(1) - Ibid, p 18.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 92، 93.

(3) - Boyer, Contribution, p 28.

(4) - Ibid, p30.

(5) - Saidouni, Op. Cit, p 401.

(6) - Boyer, Contribution....., p 19.

(7) - Saidouni, Op. Cit, p 402.

ففي البداية سعت السلطة العثمانية لاحتوائها، والتصالح معها أكثر مما سعت لكبحها، وهذا في كامل المناطق العثمانية،⁽¹⁾ وفضل الحكام التأقلم مع المرابطين وزعماء الطرق الصوفية على مجاهرة العداء لهم، خاصة بعدما أدركوا مدى نفوذ وتجرّد الطرق الصوفية في حياة الناس، وإدراكهم كذلك للدور الذي يمكن أن يؤديه المرابط. لهذا لم يعاملوا المرابطين معاملتهم لسائر الناس حيث كانوا يستشيرونهم، ويشركونهم في المعارك، والمفاوضات،⁽²⁾ وجاملوهم بالهدايا وكلمات التعظيم، واقتطاع أراضي لهم، وهذا من أجل خلق حلفاء أوفياء لهم، لكبح تمرد القبائل،⁽³⁾ فجعلوهم كمساعدين لهم في إخضاع الأهالي عن طريق نفوذهم الديني وإحاطتهم بكل ما يحدث في الإيالة.⁽⁴⁾

فخلال هذه الفترة أي فترة التحالف قدم المرابطون مساعدتهم للحكام العثمانيين مقابل تدعيم القاعدة المادية لهم، فقدموا لهم أموالا هامة وهدايا مختلفة، خاصة لمرابطي المنطقة الجبلية،⁽⁵⁾ ذوي النفوذ والبارزين والخطرين منهم،⁽⁶⁾ لهذا نجد السلطة التركية سعت بكل ما تملك لاستمالتهم لصالحها والتحالف معهم، رغم أن هذا التحالف لم يعرف نفس القوة في كافة المناطق.

1- الامتيازات المعنوية:

بما أن السلطة لم تستطع إلحاق الحركة المرابطية، ولا احتوائها ولا تجاوز تأثيراتها حاولت استعادتها،⁽⁷⁾ بكل الطرق والوسائل المادية أو المعنوية، منتهجة في ذلك سياسة قائمة على إحاطة المرابطين وشيوخ الطرق بالرعاية والاحترام، وبإجزال العطايا لهم، والرفع من شأنهم في نظر الناس،⁽⁸⁾ وأول ما قام به وأظهره العثمانيون اتجاه السلطة الروحية:

(1) - ترمينجهام سبنسر، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1994م، ص 356.

(2) - الزبيري محمد العربي، مدخل إلى تاريخ المغرب، ص 70.

(3) - Feraud, Histoire des villes, IGilli, p173.

(4) - Mercier, Histoire de Constantine..., p 217.

(5) - Merad Boudia, Op. Cit, p 341.

(6) - سعد الله، من أخبار الداوي شعبان، ص 109.

(7) - Filali, Op. Cit, p 124.

(8) - ألفرد بل، المرجع السابق، ص 430.

1-1- الاحترام والمشورة:

أ- الاحترام:

إن مبدأ احترام رجال الدين من فقهاء ومرابطين وشيوخ زوايا، كان سمة بارزة لدى الدولة العثمانية عامة، التي وعلى الرغم من مراقبتها للطرق الصوفية، إلا أنها شملتهم بحمايتهم ومدت زعمائها بامتيازات كبيرة، كما أحاطت أقطابها الروحيين باحترام وإجلال خاص،⁽¹⁾ فإن هذه السمة كانت منتشرة ومعمول بها في كل إيالاتها، منها إيالة الجزائر، التي أدرك العثمانيون بها أن أقرب الناس إليهم هم رجال الدين، والتصوف، لذلك اطمئنوا لهم منذ بداية تواجدهم بالجزائر،⁽²⁾ واتبعوا معهم سياسة التعامل بالحسنى، خاصة مع ذوي النفوذ الكبير،⁽³⁾ وتقربوا منهم وأظهروا لهم احتراماً غالباً ما يكون مبالغاً فيه، وهذا باعتبارهم القوة الوحيدة التي يلجئون إليها لإخضاع الرعية، التي كانت تنظر إليهم على أنهم خليفة الرسول (ص)، وأنهم حريصين على احترام تعاليم الدين، وهم حمايتهم ومرشديهم، لهذا السبب نجد السلطة العثمانية سعت لاحتوائهم بشتى الوسائل، خاصة المرابطين منهم لذلك حرصت على إقرار امتيازات المرباط، وإظهار الاحترام له والامتناع عن أي تصرف قد يمس به أو بزاويته معتبرة المزارات والزوايا والأضرحة ملاذاً وأماكن مقدسة لا يمكن انتهاك حرمتها.⁽⁴⁾

لذا نجد "حمدان خوجة" يذكر أن أحد الأساليب التي اتبعها العثمانيون لإخضاع السكان هو احترامهم لرجال الدين، بعدما أدركوا مكانهم في الأوساط الشعبية. حيث يقول: "وأعلموه (خير الدين) بأن هؤلاء البربر قد جعلوا ثقتهم التامة بالمرابطين والتعيس من يعاكسهم في هذا..."⁽⁵⁾ وقد نصحوه بأن يمنح المرابطين ثقة مطلقة حتى لا يعارضه أحد لأن السكان يحترمون المرابطين أحياء أو أمواتاً، وهم على استعداد لقتل أصدقائهم وحتى أقاربهم إذا احتقروا المرابطين، لهذا السبب عمل رجال السلطة على إظهار الاحترام لهم، حيث يقول في هذا: "فأحاطوهم بالرعاية، وبمظاهر الاحترام، ورفعوا من شأنهم في نظر

(1) - ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 42.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 464.

(3) - أرجمند كوران، المرجع السابق، ص 27.

(4) - حمدان خوجة، المرأة، ص 56.

(5) - نفسه، ص 110.

العامة... حتى أصبحت مراكزهم ملجأً للفارين، والهاربين من وجه الأتراك إذ لا يستطيع رجال الحكومة تعقبهم".⁽¹⁾

فاعتبرت زواياهم وأضرحتهم كملجأً للفارين من العقاب،⁽²⁾ فلا يطاردونهم لوقارة المكان،⁽³⁾ ومن ذلك اعتبار العثمانيين زاوية عائلة الفكون ذات حرمة وحصانة، فكل من يحتمي بها فهو آمن، حسب وثيقة مؤرخة بتاريخ 1075هـ/1664، جاء فيها "...قصدنا بهذا مع حرمة واحترامه... بحيث لا تهتك له حرمة ولا يهضم له جناب... وكما يحترمون جميع خدامه وأصحابه وخماميسه وشركائه بالحرم الوافر، وكما أن جميع ما يدخله من باب البلد المذكور أو يخرج منه مسرعا من قائد الباب ولا تهتك له حرمة ولا يصله أحد بأذية ولا بمكره جريا في ذلك على عادته وعادة أسلافه قبله...".⁽⁴⁾

أما الباي عثمان بن إبراهيم (1747-1755م) فقد عفى عن أنصار وأبناء الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي، الذين حاولوا قتله منهم اثنين فرا إلى ضريح سيد محمد بن عودة هما ابن الزرفا وعابد،⁽⁵⁾ وأثناء حرب درقاوة أوصى الباي محمد المقلش جنوده بعدم التعرض لأي فار إلى هذا الضريح بأي حال من الأحوال، ولما انتهى القتال قاموا بزيارة الضريح، وقدموا له صدقة تزيد عن مائتي ريال دراهم،⁽⁶⁾ على الرغم من أنه أساء للعلماء كثيرا، واحتراما لهذه الأمانة عفى هذا الباي عن أهل الثائر ابن الشريف الدرقاوي لما فروا إلى قيطنة الشيخ محي الدين مستجرين به، وكان العفو عنهم مراعاة لكرامة الشيخ وحفظاً لدمته.⁽⁷⁾

وقد كان احترام الحكام مراكز المرابطين، لا رجعة فيه حسبما توضحه الوثائق، منها وثيقة مؤرخة بـ 29 جمادى الأولى 1245هـ/1829م، وهي رسالة موجهة من الباي أحمد للداي حسين يستغرب فيها عدم عودة شخص يدعى بوزيان وقريبه السماري، وبقائهم عند أحد المرابطين بعد أن أعطى لهما الأمان عن طريق كتاب أرسل لهما.⁽⁸⁾

(1) - حمدان خوجة، المرأة، ص 110، 111.

(2) - Dermenghem, Le culte des saints..., p 165.

(3) - حمدان خوجة، المرأة، ص 111.

(4) - سعد الله، شيخ الاسلام، ص 230.

(5) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 20. - المزاري، المصدر السابق، ص 238.

(6) - المزاري، نفسه، ص 315.

(7) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 292.

(8) - المجموعة 1642 وثيقة رقم 04، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر.

والملاحظ حتى الحكام أنفسهم استغلوا هذا الامتياز، فمنهم من كان يفر إلى أضرحة وزوايا المرابطين تفاديا لقتله مثلما فعل علي بتشين، الذي تمرد على الباشا محمد بورصالي (1642-1645م) برفضه طلب السلطان العثماني إرسال رياس البحر للمشاركة في حرب مالطة، بسبب عدم دفع السلطان العثماني تعويضات للرياس، لمشاركتهم في بحر الأدرياتيك، عهد علي باشا (1637/1639م)، فأرسل السلطان وفدا للتفاهم مع علي بتشين، لكن لما أشيع خبر أن الوفد قدم لقتل علي بتشين فروا إلى ضريح الثعالبي، حتى أخرجهم علي بتشين نفسه وقدم لهم الآمان،⁽¹⁾ وبعدها أمر السلطان العثماني، برأس علي بتشين الذي فر إلى أصهاره آل القاضي، ليتوفى بعدها في طريق عودته إلى الجزائر، بعد عدة محاولات من المرابطين للتراجع عن تمرده.⁽²⁾

كما نجد الداوي أهتشي مصطفى (1699/1705م) الذي وبعد عودته من الحملة التي قادها ضد تونس وجد دايا جديدا في مكانه، ففر إلى ضريح سيدي علي مبارك،⁽³⁾ وهذا تفاديا لقتله لأنه كان من عادة الجند عندما ينصبون دايا جديدا يقتلون من كان قبله، وهي ظاهرة كانت شائعة في العهد العثماني، أما الداوي مصطفى باشا الذي فر إلى ضريح الولي دادة بمدينة الجزائر، بعد ثورة خليفته أحمد خوجة عليه سنة 1805م، لكنه قتل بسبب غلق أبواب الضريح في وجهه من طرف القائمين عليه، لما وصلهم من أخبار لما حدث من فوضى بالمدينة،⁽⁴⁾ وربما يرجع موقفهم هذا إلى تدمير الأهالي من سياسته وتعامله مع اليهود.

إن اللجوء إلى زوايا وأضرحة المرابطين، كان وسيلة لكل شخص فار من العقاب أو من الانتقام، وقد لجأ إليه حتى البايات مثل الباي زرق عينه الذي احتفى سنة 1167هـ/1753م بضريح المرابط محمد بن سيدي ناصر بتلازمة، اثر هجوم باي تونس على قسنطينة،⁽⁵⁾ في حين أن الباي حسن بوحنك الذي نفي لدى باي الغرب محمد بن عثمان بسبب شكاية باي قسنطينة به للداوي، الذي أرسل من يحضره، لكنه استجار

(1) - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص 38..

(2) - Boyer, Introduction..., p306.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 469. -Vayssettes, Histoire de Constantine..., p97.

(4) - الزهار، المصدر السابق، ص 89.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 258.

بضريح عبد الرحمن الثعالبي، مما اضطر الداوي للعفو عنه،⁽¹⁾ في حين أن باي التيطري مصطفى الوزناني وبعد وشاية ضده لدى الداوي حسان باشا، الذي قرر التخلص منه عند قدومه لدفع الدنوش، لكنه لما وصل مدينة الجزائر علم بما يدبر له، وحفاظا على حياته فر إلى ضريح أحد المرابطين في أفريل 1792م، ليعلن مكانه الباي محمد الذباح،⁽²⁾ وحتى الانكشارية استغلوا هذا الامتياز لصالحهم، حيث يذكر "الورثياني" أنه لما كان قاصدا الحج قدم إليهم شيخ أسرة بن ناصر بخنقة سيدي ناجي، ومعه بعض الجنود الانكشارية الذين فروا من مدينة الجزائر، وطلب منهم السماح لهم بالرحيل معهم إلى الحج.⁽³⁾

وما يبرز لنا احترام السلطة لقداسة هذه الأماكن التي لا يمكنها التعدي على حرمتها، ما ذكره صاحب "البستان"، أنه لما كان العثمانيون في محلة للجباية وأخذ العلف من الدوار، جاء شخص وخبأ زرعته في مطامر الشيخ الولي سيدي محمد بن عبد الرحمن السويدي الملقب بالأدغم السويدي (ت 980هـ/1572م)، لهذا سلم من الجباية،⁽⁴⁾ لأن العثمانيين لم يجروا على التعدي على مطامر الشيخ، وهو دليل على أن ممتلكات الشيخ ذات حرمة ولا يمكن التعدي عليها، ونتيجة لهذا الاحترام لممتلكات السلطة الروحية نجد الباي مصطفى انقليز الذي عزل سنة 1217هـ/1803م، خبأ أمواله في زاوية سيدي سعيد بقسنطينة وفر إلى تونس، ليسترجعها سنة 1222هـ/1807م عندما جاء في حملة مع حمودة باشا على قسنطينة.⁽⁵⁾

وفي هذا الإطار أظهر الحكام كذلك احترامهم للعلماء من خلال ما كانوا يقومون به اتجاههم، فمنهم من كان يقوم احتراماً لهم، ويقدم لهم الهدايا حتى يسترضيهم،⁽⁶⁾ واحتراماً لهم كانت شهادتهم لا يمكن الطعن فيها، لذلك لما راسل محمد باي سنة 1245هـ/1829م الداوي حسين باشا حول خليفته محمود الذي فر من قسنطينة بعد فساد

(1) - أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح. عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991م، ص152.

(2) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم....، ج3، ص240، 241.

(3) - الورثياني، المصدر السابق، ص107.

(4) - ابن مريم، المصدر السابق، ص290.

(5) - Feraud (Ch), "Un voeu d'Hussein Bey de Constantine, 1807". In- **R.A** N°7, 1863, pp 90,91.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص191.

سلوكه، وشربه الخمر في شهر رمضان، دعم موقفه من خليفته بشهادة العلماء بسوء سلوكه.⁽¹⁾

وبالرغم من تفضيل العثمانيين العلماء الأحناف على المالكية، إلا أنهم خصوا المفتي المالكي سعيد قدورة، بمكانة خاصة بسبب علمه وصلاحه، واحتراما له عينوا مكانه ابنه محمد في الفتوى والخطابة والتدريس،⁽²⁾ وقدموه على المفتي الحنفي وكانوا يقفون احتراماً له ويقبلون يده، وقد عرف هو كيف يحافظ على مكانته رغم تداول عدة باشوات وكثرة خصومه، حتى وصل بهم الاعتقاد فيه النفع والضرر والبركة والكرامات،⁽³⁾ وحتى المفتي حسن بن رجب شاوش حظي باحترام السلطة له والأخذ برأيه، فحسب "ابن المفتي" فقد كان محبوباً لدى الحكام وله اليد الطولى والكلمة النافذة والمسموعة عندهم، فاستغل هذا في قضاء مصالح الناس عند السلطة الحاكمة.⁽⁴⁾

لقد كانت السلطة العثمانية تعاقب كل من يسيء لأقطاب السلطة الروحية، حتى لا يؤلبوا الرعية ضدهم، وما قام به الداوي محمد بن عثمان (1766/1791م) لدليل على ذلك، حيث أعدم 13 متآمراً ممن حاولوا قتل إمام المسجد،⁽⁵⁾ فهو ربما كان يهدف من وراء هذا إرضاء الأهالي الذين يقدرون العلماء.

إن إظهار الاحترام للقوى الروحية من طرف السلطة أخذ عدة أوجه، منها الامتنال لطلباتهم ورأيهم، من ذلك ما ذكر في "غزوات عروج" عندما سمع الأمير عبد الله الزباني برغبة أخيه المسعود الانفصال عن خير الدين الذي نصبه على تلمسان، نجده راسل خير الدين عن طريق رجل صالح^(*) يستشفع به لدى خير الدين "وكان ذلك الرجل حظياً لدى خير الدين لا يرد له أمراً، وقد قبل خير الدين شفاعته الرجل الصالح رغم معرفته بنزعة التمرد لدى الأمير عبد الله"،⁽⁶⁾ ومن ذلك أيضاً عفو يوسف باشا سنة 1051هـ/1641م على سكان عنابة رغم تمردهم على السلطة، نزولاً عند طلب محمد ساسي البوني منه

(1) - مجموعة 1642، وثيقة رقم 13، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر.

(2) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 29.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 363، 364.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 36.

(5) - مبارك الملي، المرجع السابق، ج3، ص 230.

(*) - ربما هو يقصد هنا أحمد بن القاضي.

(6) - غزوات عروج، ص 47.

واحترام له، وهذا حسبما جاء في رسالة أرسلها الباشا لمحمد ساسي البوني، جاء فيها: "... واستوجبوا بفعلهم ذلك الأدب، لولا مراقبة الله تعالى في وجوهكم..."⁽¹⁾ وفي هذا كذلك يشير "فيرو" (Feraud) إلى عفو الداوي علي باشا عن شخص يدعى "عارو" خوجة، نزولا عند طلب الشيخ أحمد أمقران بعدما احتفى بداره، وهذا حسبما ورد في رسالة من الداوي إلى الشيخ بتاريخ 1223هـ/1808م، جاء فيها: "...وما ذكرتم لنا فيه على شأن عارو (؟) خوجة، أنه هرب إلى دارك ودخل تحت حرمتكم، وطلبت منا أن نغفوا عنه ونومنه لوجهكم. واعلم حيث هرب إلى داركم واحترم بحرمتك فعليه الأمان ولا يخاف فلا نضره بشيء، فلو كان مرادي في أذيته لفعلت ولاكن [كذا] هو دارك وفي أمانك يبقى هناك عندك... ولا يرجع للجزائر...."⁽²⁾

إن الوقوف عند رغبة السلطة الروحية، وصل إلى حد عزل الموظفين أو نقل الحامية العسكرية، ففي سنة 1090هـ/1679م، لما راسل أعيان قسنطينة الداوي الحاج محمد باشا حول تجاوزات وتعسف دالي باي ضد الرعية، امتثل الداوي لطلبهم وأرسل في طلبه وقتله،⁽³⁾ فالسلطة كانت تعمل ما في وسعها حتى ترضي المرابطين الخطرين ذوي النفوذ الكبير لخشيته تأليب السكان ضدها، وما استجابتها لطلب المرابط إبراهيم الغبريني القاضي بإبعاد الإنكشارية من برج الخميس بشرشال⁽⁴⁾ كان إرضاء للسكان وللمرابطين، هو في نفس الوقت وسيلة لاستقطابه للتعاون معها في التحكم في المنطقة.

لقد كان الحكام أحيانا يصدرن فرمانات يمنعون من خلالها أي انتهاك لحرمة العلماء والمرابطين ويأمرن الناس باحترامهم، وهذا منذ بداية التواجد العثماني بالجزائر منها الأمر الذي أصدره يوسف باشا سنة 1059هـ/1649م ألزم فيها قبائل بني مروان، الدهامشة، عجيسة، ملاغة أن يعاملوا أولاد سيدي عبد الوهاب بن سيدي الموهوب باحترام، ويحترموا أملاكهم، ولنفس الغرض أصدر كل من الداوي حسين باشا ومحمد بكداش مرسوما سنة 1118هـ وسنة 1119هـ/1707م أمرا فيه القبائل باحترام الزاويتين التابعتين لهذه العائلة.⁽⁵⁾ ومن الوثائق التي تقر هذا الامتياز وثيقة أصدرها حسين باي،

(1) - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 25، 26. - سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 58، 60.

-Vayssettes, Histoire de Constantine, p77.

(2) - Feraud (Ch), les chérifs kabyles de 1804 à 1809 "in R.A., 1869, p211.

(3) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 49

(4) - Boyer, Contribution..., pp 31.32. - Guin, "Note sur la famille des R'obrini", p 449.

(5) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp174, 175.

سنة 1165هـ/1751م جدد فيها امتيازات سابقة لأسرة أمقران: "...لابننا سي أحمد مرابط جيجل يشهد أننا منحناه الاحترام والتبجيل... ونوصي له فوق ذلك إلى كل القبائل أمثال الحموية وسكان بني عاشور وغيرهم من أعراش هذه الجهة، حتى لا يقف أحد في طريقه ولا تهتك له حرمة ولا يعتدى عليه ومن يلحق به ضرر لا يلوم إلا نفسه..."⁽¹⁾ أما خليفة قائد سيباو القائد محمد، فقد أصدر سنة 1169هـ/1756م فرمانا منع فيها التعرض للولي سيدي بلقاسم وابراهيم واحترامه جاء فيها: "تذكيرتنا بيد حاملها الولي... سيدي بلقاسم وابراهيم لا يتعرض له أحد هو وإخوانه وزوجته وأولاده يذهب حيث يشاء وأين يشاء فلا يتعرض لهم أحد لا في الساحل ولا في الجبل ومن تعد عليهم فلا يلومن ألا نفسه..."⁽²⁾.

انطلاقاً من الوثائق السابقة، هل يمكن القول أن احترام الناس للمرابطين كان يتم بأمر وضغط من السلطة؟ أي هو احترام مفروض، خاصة وأنها تحمل طابع تهديدي. هل هذا يعني أن نظرة المجتمع لهذه الفئة تغيرت بعد الدخول العثماني للجزائر؟ وإذا سلمنا فعلاً أنها تغيرت ما السبب وراء ذلك؟ وهل الامتيازات التي تحصلت عليها من السلطة جعلتها تهمل الأهالي ومشاكلهم؟.

إن أمر ومسألة احترام المرابطين بموجب فرمانات لم تكن موجهة للسكان فقط، بل وجدت وثائق أصدرها الحكام موجهة للقياد والموظفين الأتراك، منها فرمان أصدره علي باشا سنة 1168هـ/1755م من أجل احترام المرابط الحاج أحمد المكي: "...ليعلم من يقف على هذا الأمر.... من القواد والعمال والخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال... أما بعد: فإن حامله... السيد الحاج أحمد المكي نجل القطب سيدي أمقران.... لا يتعدى عليه أحد من أهل النوبة ولا من يكسر عليه حرمة لا آغا النوبة ولا غيره من سكان جيجل من العسكر، هذا كله حرمة من له لوقفه [كذا] مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور ولإطعامه المساكين...."⁽³⁾.

وقد كان هذا الامتياز يجدد كغيره من الامتيازات الأخرى، حيث يؤكد فيه استمرار تكريم واحترام هؤلاء المرابطين، كما كان سابقاً، مثل فرمان الذي أصدره صالح باي أواسط رجب 1185هـ/1772م لصالح عائلة سيدي الجودي والذي جاء فيه: "... فإننا

(1)- Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp179, 180.

(2)- وثيقة خاصة بعائلة براهيمى مالكة أرشيف إمارة كوكو قدمت لي من طرف الأستاذ أرزقي شويتم.

(3)- Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp178. - Feraud, exploitation des forets..., N13, p38.

أنعمنا على المكرمين الأجلين الزكيين الفضلاء السيد بدر الدين وأخيه السيد المسعود أولاد المرحوم... السيد محي الدين أولاد الشيخ البركة المتبرك به سيدي الجودي وجدنا لهما على مقتضى ما بأيديهما من أوامر إخواننا البايلاز السابقين قبلنا المتضمنة كرمهما واحترامهما... وإكرامهما، بحيث لا تنتهك لهما حرمة، ولا يهضم لهما جناب، ولا يقاسون بما يقاس به الغير، ولا يتعدى عليهما بسبب من الأسباب، بحيث أنهما يقومون أين يشاءوا، ويسافرون حيث يشاءوا... لا يعارضهما أحد، ولا يتعدى عليهما أحد لا قائد ولا تركي ولا شيخ ولا متولى من عمال بلادنا...⁽¹⁾ وقد أشارت "معاشي" كذلك إلى وثيقة مؤرخة بتاريخ 1209هـ/1795م من الباي مصطفى الوزناجي إلى شيخ أحرار حنانشة بشرق بايلك قسنطينة، أوصاه فيها بحماية مرابط زاوية قلعة سنان من أي اعتداء لأنها تابعة لمنطقة نفوذ البايك.⁽²⁾

فالحكام أنفسهم عملوا على الحفاظ على سلامة وحرمة العلماء من ذلك الباي محمد الكبير، الذي كان أثناء حملاته سنة 1785م لجباية الضرائب أو لتأديب القبائل المتمردة، إذا تقدم له العلماء نيابة عن الأهالي فلا يلحق الضرر بالأهالي احتراماً لهم،⁽³⁾ فعندما دخل مدينة الأغواط وبعد رفض سكانها دفع المغارم، أمر جنوده بعدم التعرض للعلماء، الذين أرسل لهم كتاباً، أعطى لهم الأمان وطلب منهم الخروج من المدينة جاء فيه: "إلى كافة علماء بني الأغواط... أخرجوا عيالكم وأولادكم من هذه القرية الظالمة أهلها، وعليكم أمان الله، ولا تختلطوا بالقوم، إن قبلتم النصيحة فاحذروا الفضيحة وإن أبيتم فإثم أولادكم عليكم...".⁽⁴⁾

ونلمس كذلك الاحترام الذي أبداه الحكام للعلماء من خلال الرسائل التي كانوا يوجهونها لهم، والتي كانت تحمل عبارات التقدير والاحترام والتعظيم المبالغ فيه أحياناً، منها ما جاء في رسالة الداوي محمد بكداش لأحمد بن قاسم ساسي البوني سنة 1115هـ - 1704م "السلام عليكم، سيدي... عبقرى الشذا... الهلال الفرقد... الكوكب الدرى...".⁽⁵⁾

(1) - أرشيف ما وراء البحار (A.O.M.Aix-En-Provence)، Z21 علبة 01، وثيقة 53.

(2) - معاشي، المرجع السابق، ص 258.

(3) - محمد ابن هطال التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي، تح. محمد بن عبد الكريم، عالم

الكتب، القاهرة، مصر، 1969م، ص 73.

(4) - نفسه، ص 61، 62.

(5) - سعد الله، أربع رسائل...، ص 27.

وكذلك ما جاء في رسالة الباشا للشيخ الفكون عندما ثار بن الأحرش الدرقاوي ببايالك الشرق جاء فيها: "العالم الأشهر، أكبر الأنوار، مأوى القليلين (كذا)، وملجأ الضعفاء والمساكين العارف بجميع العلوم والفنون... السلام على مقامكم الرفيع، وشخصكم الرائق البديع..."⁽¹⁾ فهذا الاحترام الذي أظهره الحكام للعلماء كان نتيجة إدراكهم للمكانة التي يتمتع بها هؤلاء بين الأهالي.

إن هذا الاحترام الذي حظي به العلماء والمرابطون وأضرحة وقبب الأولياء والصالحين ربما يرجع إلى معتقداتهم الدينية المتجذرة فيهم، أو إلى نزعة سياسية يقصدون من ورائها الاستيلاء على قلوب الرعية وقد نجحوا في ذلك،⁽²⁾ لهذا يشير "الطاهر الفيلاي" إلى أن تشجيع العثمانيين للمتصوفة والمرابطين كان عن قصد،⁽³⁾ ليشمل بذلك هذا الاحترام والتبجيل الذي أظهره الحكام للسلطة الروحية خاصة المتصوفة الحقيقي والكاذب منهم،⁽⁴⁾ وهو ما أوجد مناخا خصبا للتصوف للنمو والانتشار بين العامة والخاصة، ليتطعم بعد ذلك بمعتقدات شعبية محلية، فتحت المجال بذلك لانتشار الخرافات والبدع.

ب- المشورة:

بما أن العثمانيين وعند دخولهم إلى الجزائر وجدوا السلطة الروحية هي المسير الفعلي للجزائر في ظل غياب السلطة السياسية بجميع مؤسساتها، لذلك نجد الحكام تقربوا منها وولوا أقطابها عدة مناصب، خاصة الإفتاء والقضاء واستشاروهم في الأمور الدينية حتى يكسبوا ودهم ودعمهم،⁽⁵⁾ خاصة وأن هؤلاء الحكام عندما يتم اختيارهم تركيهم السلطة الروحية ممثلة في العلماء والمرابطين، الذين غالبا ما كانوا يدافعون عن هؤلاء الحكام في القسطنطينية بعد اختيارهم، وهذا طبعا مقابل انتفاعهم بامتيازات عديدة كالإعفاء من الضرائب أو القيام بجبايتها.⁽⁶⁾

(1) - العنتري، فريدة مؤنسة...، ص 72.

(2) - حمدان خوجة، المرأة، ص 111.

(3) - الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 57.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 467.

(5) - Touati, Op, Cit, p121.

(6) - عباد، المرجع السابق، ص 364.

لقد تفتن العثمانيون منذ البداية إلى الدور الذي يمكن أن يلعبه رجل الدين، لذلك لم يعاملوهم بنفس معاملة الأهالي، فقد كانوا يستشيرونهم في المعارك والمفاوضات،⁽¹⁾ واطمئنوا لهم خاصة المرابطين منهم، وتبركوا بهم واستشاروهم في عدة أمور سياسية، كما أطلعوهم على خططهم.⁽²⁾ وهذا الأمر كان حتى قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، فنجد عروج لما كان متوجها إلى فتح تنس، استفتى علماء الجزائر في أمر حاكمها المتعاون مع الإسبان، فأباحوا دمه،⁽³⁾ حيث توجه مخاطبا لهم: «ما حكم الشرع فيمن تمالأ (كذا) مع الكفار... وبائع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين، وقابل نصحننا بالكنود؟». فأجابوه: «قتله واجب، ودمه هدرا وماله مباح»، وقد دونوا هذه الفتوى وقدموها لعروج،⁽⁴⁾ ونفس العمل قام به عروج عندما توجه إلى تلمسان استشار العلماء واستفتاهم في أمر حاكمها والمتعاونين مع الإسبان،⁽⁵⁾ رغم أنه أساء لهم فيما بعد وهو ما جعلهم ينقلبون ضده.

كذلك لما عين خير الدين بربروس بايلربايا على الجزائر، استخلص الدرس مما حدث لأخيه عروج، فقرب إليه العلماء وأخذ يستميلهم ويتودد إليهم،⁽⁶⁾ حتى جعل منهم مستشارين له فيما يتعلق بأوضاع البلاد،⁽⁷⁾ حيث قام باستشارة العلماء في أمر الثائرين عليه من الجند الانكشارية ممن اتبع ابن القاضي، الذين تم أسرهم والمقدر عددهم بـ185 رجلا قائلا لهم: «سادتي المشايخ، ما حكم هؤلاء الأسرى في ديننا وشريعتنا؟». فأجابوه بإباحة دمهم شرعا، لكنهم التمسوا لهم العفو منه، لأنهم شاركوا سابقا في مواجهة العدو، لكن خير الدين خاف تمردهم ثانية، خاصة وأنه يواجه أكبر قوة بالمنطقة المتمثلة في الإسبان، لذلك رأى من الصواب قطع أعناقهم، من أجل إثارة الرعب في نفوس العصاة، ليغادر بعدها نحو جيجل، للاستقرار هناك، رغم توسل العلماء له بالبقاء.⁽⁸⁾

(1) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ، ص 70.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 464.

(3) - غزوات عروج....، ص 32.

(4) - مذكرات خير الدين، ص 83.

(5) - عبد الرحمن بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 07.

(6) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 52.

(7) - سامح ألتر، المرجع السابق، ص 108.

(8) - مذكرات خير الدين، ص 114، 115. - غزوات عروج، ص 55، 56.

أما سنة 926هـ/1519م وبعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، استشار العلماء في مسألة الأسرى الإسبان الذين حاولوا الإغارة على مدينة الجزائر، خاصة القادة منهم والذين تراوح عددهم ما بين 33 أو 36 رئيساً، فأشار عليه العلماء بقتلهم وعدم قبول فداءهم خوفاً من رجوعهم إلى بلادهم بعد الفداء، ليحصل للنصارى بهم قوة ويغزوا الجزائر مرة أخرى: «أيها الأمير إن هؤلاء من أعيان النصارى وزعمائهم، فإذا وصلوا إلى بلادهم حصلت للنصارى لهم قوة عظيمة واستعانوا بهم على غزونا المرة بعد المرة»، ورغم أن ملك إسبانيا قد أرسل 240 ألف دينار لفدائهم، إلا أن خير الدين رفض وأمر بقطع رؤوسهم بدءاً بقائدهم، وحتى في مسألة إرسال الجثث إلى أهلها مقابل المال، أمر بالقائها في البحر، رغم سعي إسبانيا لاستعادتها خاصة جثة القائد، وهذا بعدما أشار عليه العلماء بعدم جواز بيع الجثث.⁽¹⁾

ورغم المناوشات التي ظهرت من بعض أقطاب السلطة الروحية ضد الوجود العثماني في البداية، إلا أن إدراك العثمانيين لمكانة هذه الفئة خاصة في تعبئة الناس للجهاد، جعلهم يستشرونها لذلك نجد حسن آغا خليفة خير الدين الذي غادر إلى اسطنبول، وعند حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 948هـ-1541م اجتمع مع العلماء والمشايخ يهون عليهم ويستشيرهم، وينظر فيما اتفقوا عليه لصد الحملة الإسبانية.⁽²⁾

وفي عهد يوسف باشا (1640/1642م) وبعد حدوث اضطرابات في حصن القالة، وقيام ثورة ابن الصخرى سنة (1637/1641م)، سار بنفسه إلى بايلك الشرق لمعاينة ومعالجة مشاكل البايك، ولكن قبل ذهابه راسل محمد ساسي البوني، عالم ومرابط عنابة، والزعماء الدينيين يستشيرهم في الأمر، وحتى لما وصل إلى عنابة قرب إليه العلماء واستشارهم في عدة قضايا تخص البايك.⁽³⁾

أما سنة 1106هـ/1695م عندما ثارت محلة الجند ببايك الشرق أرسل شعبان خوجة كل من إمام جند باشا الوقت موسى باشا مع المفتي الحنفي والمفتي المالكي محمد بن سعيد قدورة والقاضيين محمد بن الحاج القاضي الملكي والقاضي الحنفي محمد زيتوني

(1) - غزوات عروج، ص 39، 40. - عبد الرحمن بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 12، 13.

(2) - عبد الرحمن بن رقية التلمساني، نفسه، ص 15، 16.

(3) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 37. - عباد، المرجع السابق، ص 190، 192.

إلى محلة الشرق لتهدئة الأوضاع، لكن لما وصلوا المحلة كانت قد وصلت رسالة إلى جند الانكشارية بمدينة الجزائر وفيها إقرار العلماء بعزل شعبان خوجة الذي تم حبسه في دار الآغا،⁽¹⁾ وبهذا فإن تنفيذ الجند لما جاء في الرسالة كان نتيجة موافقة العلماء على عزل الباشا، وهو دليل احترام لرأيهم ولمكانتهم، وهو نفس الباشا الذي استشار العلماء (المجلس العلمي)، عندما احتاج اليهود قطعة أرض مجاورة لمقبرتهم وهي وقف للجامع الأعظم، على سبيل المبادلة مقابل تتازلهم على حارة يملكونها بالمدينة، فوافق المجلس العلمي على المبادلة لأنه لا يلحق ضررا بالجامع الأعظم.⁽²⁾

ونتيجة الوجود الاسباني بوهران استشار الداوي حسن باشا واستفتى العلماء في أمر المقيمين قرب حصون العدو ولا يحاربونه، كبني عامر فأشاروا عليه وأفتوه بإباحة دمهم،⁽³⁾ كما أنه استشار العلماء في أمر قبائل "سماتة" ببايلك الغرب، واستفتاهم في أمرهم، فأباحوا دمهم وشهدوا أن جل أموالهم يأخذونها من الحراية، وسلب القوافل المارة على أراضيهم لذلك أرسل أمرا إلى الباي محمد الكبير وطلب منه محاربتهم، فطاردهم الباي، وقتل بعضهم وأسر البعض الآخر منهم 90 امرأة، وأخذ منهم نحو 1000 شاة وعدد كبير من الخيل والبقر، وخرب مساكنهم وقطع أشجارهم نظير أعمالهم، وهو ما اضطرهم إلى طلب العفو.⁽⁴⁾

إن استشارة الحكام للعلماء لم تقتصر على الباشوات والدايات فقط، فحتى البايات في أقاليمهم كانوا يستشيرون العلماء خاصة النافذين منهم، من ذلك ما يذكره عبد الكريم الفكون عن صديق جده الشيخ يحيى بن سليمان الأوراسي الذي تولى الإفتاء بقسنطينة قبل ثورته على السلطة العثمانية سنة 1600/1009م، حيث يقول أن الحكام كانوا لا يقومون بشيء إلا بعد استشارته، «كان مخالطا لدار الإمارة يعتقدون فيه الصلاح، ولا يقطعون دونه أمرا في كل مهماتهم»،⁽⁵⁾ وابن الفكون نفسه استشاره الباشا في أمر الجند الذين كانوا مع المتمرّد الباي أحمد شاوش القبائلي 1808م، فأشار عليه بقتل الباي لأنه رأس الفتنة،

(1) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 57.

(2) - مجموعة 3205، ملف 02، وثيقة 53، المكتبة الحامة، الجزائر، قسم المخطوطات.

(3) - عبد الرحمن الجامعي، فتح وهران، تح، مختار حساني تحت عنوان، تاريخ تحرير وهران، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، بوزريعة، الجزائر، 2000م، ص 86.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 149 و 314.

(5) - الفكون، منشور الهداية، ص 54.

ومدبرها وإعفاء الجنود الذين قاموا بخنق الباي بعدها.⁽¹⁾ أما صالح باي فإنه عندما قام بالإصلاحات على المستوى الثقافي، فقد استشار واستعان في ذلك بالمفتي الحنفي عبد القادر الراشدي والقاضيين الحنفي شعبان بن جلول والمالكي العباسي من أجل تنظيم التعليم ببابلك الشرق.⁽²⁾

أما ببابلك الغرب فكان الباي محمد الكبير أكثر البايات استشارة للعلماء خاصة في القضايا الهامة، وينزل عند رغبتهم،⁽³⁾ فنجد أنه عندما أراد فتح وهران وحدد موعد الفتح الذي صادف وقت الحصاد، لكن الناس طلبوا منه تأجيل الأمر إلى حين جمع محصولهم، لكن الباي فضل استشارة الأولياء والعلماء حيث قال لهم: «إن رأيكم فيه الحكمة والصواب، ولكن، انتم ونحن في رأي الأولياء والعلماء أولي الألباب فهم أدري بالأمور، وبإشارتهم يكون الفوز والسرور...» فبعثوا للولي الشهير محمد بن أبي دية الضيرير بجبل تاسالة بوهران، والذي أخبره أنه سيفتحها في العام المقبل أي سنة 1792م فعدل الباي عن فتحها في تلك السنة.⁽⁴⁾ ولما حان موعد الفتح نزل بموقع يدعى واد تليلات، لكن جاءه درويش وأخبره أن أسهل مكان لفتح المدينة هو موقع جنين مسكين، فارتحل الباي إلى هذا الموقع ليبدأ الفتح منه وقلبه مطمئن بالفتح.⁽⁵⁾

وبعد الفتح استشار العلماء في أمر بعض سكان وهران المتعاونين مع الاسبان كبني عامر، فأشاروا عليه أن يسامحهم، فأرسل إليهم العفو مع القاضي عبد الله بن حواء وأحمد بن سحنون والسيد محمد بن فريجة، فعاد منهم 40 شخصا كممثلين لإخوانهم واستقبلهم الباي استقبالا حسنا وعفا عنهم وصفح عن جميع زلاتهم.⁽⁶⁾

إن ادراك الحكام لمكانة وحكمة العلماء جعل بعضهم يتخذ عالما مستشارا خاصا له، مثل الداوي حسين خوجة (1117هـ/1118هـ-1705م/1706م) الذي قتله الداوي

(1) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 77، 78. - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 272.

(2) - Kaddache, l'Algérie..., p115. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p 137

(3) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 23. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 427.

- الزباني، دليل الحيران، ص 205.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص 261.

(5) - نفسه، ص 262.

(6) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 23. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 427، 428.

- شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 186. - Fey, Op. Cit, p260.

محمد بكداش، اتخذ أحمد سعيد قدورة مستشارا له وكاتم أسرارهِ،⁽¹⁾ وبهذا فاستشارة الحكام للعلماء وإظهار الاحترام لهم كانت نتيجة إدراكهم للمكانة التي يحتلها هؤلاء العلماء في المجتمع، ووسيلة من وسائل التقارب معهم.

1-2- المصاهرة (الزواج السياسي):

كانت المرأة منذ القدم وسيلة للتحالف، لهذا فالعثمانيون لم يحدوا عن هذه القاعدة إذا اقتضت الضرورة، لذلك اعتمدوا على الزواج السياسي في الجزائر منذ القرن 16م، في محاولة لإحاطة أنفسهم بمقربين يطمئنون لهم ويكونوا سندا لهم، ويعطونهم وزنا سياسيا ونفوذًا حقيقيا في أوساط الأهالي.

فهذه المصاهرة، لعبت دورا بارزا في مد نفوذ البايلك، وإحلال الأمن خاصة في المناطق التي تقطنها قبائل شديدة المراس، لهذا كانت المصاهرة وجه آخر لسياسة الحكام للتقرب من فئة من فئات المجتمع التي لها وزنها وتأثيرها على المجتمع.

وقد انتهج العثمانيون هذا الأسلوب قبل استقرارهم بالجزائر، حيث نجد أن عروج حاول كثيرا الزواج من أرملة سالم التومي، التي تدعى زفيرة (ظافرة) التي تنحدر من الأسر العريقة، التي لها علاقات وطيدة مع شيوخ المنطقة، وقد تبادل معها الرسائل التي أوضح لها فيها براءته من مقتل زوجها، وأنه مستعد أن يقدم لها كل أفريقيا تحت قدميها لأن هذا الزواج سيساعده على كسبهم شيوخ المنطقة.⁽²⁾

لقد استقطبت القوى الروحية اهتمام العثمانيين بالزواج من هذه الفئة، أو ما يعرف بالزواج السياسي،⁽³⁾ بعد استقرارهم في الجزائر، حيث تعد أسرة المقراني أولى الأسر التي

(1)-Touati, Op, Cit, pp124, 125.

(2)-Laugier, Histoire du royaume d'Alger, amesterdam, H. Du Sauzet 1725, pp 18,19.

سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 163.

(*)- والملاحظ أن السلطة اتبعت سياسة المصاهرة حتى مع رؤساء المشيخات القبلية، حيث نجد رجب باي ولكي يضع حدا للخصومة التي بين العثمانيين ومشيغة الداودة زوج ابنته أم هاني للقيوم أخ شيخ العرب أحمد بن الصخري Feraud, le Sahara..., p213. - Mercier, histoire de Constantine, p235.) وتزوج الباي أحمد القلي من رقية ابنة سليمان بن قانة، (معاشي، المرجع السابق، ص210./ Mercier, Histoire de Constantine, p267.) كما زوج أخت زوجته مباركة لفرحات ابن علي بوعكاز شيخ الداودة، وزوج ابنه محمد الشريف من رقية بنت الحاج قانة، والدة الحاج أحمد باي. (Ibid, p267 et 372.) كما نجد الكثير من البايات صاهروا عائلة بن قانة، خاصة، حتى تكون قوة في وجه عائلة بوعكاز الداودة. وممن اعتمد على المصاهرة، نجد الباي مصطفى بوشلاغم الذي صاهر عدة شيوخ ببايلك الغرب لذلك بقي في الحكم 30 سنة.(سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 163). أما الباي محمد المقلش وبعد تأكده من تورط المغرب في حرب درقاوة عمد إلى الدهاء والسياسة حيث تصاهر مع الشيخ قدور بن الصحرابي، رئيس قبيلة الحشم وهي من القبائل الموالية للدقاوي، كما أرسل إلى هذه القبائل الحبوب أثناء المجاعة التي اجتاحت تلمسان، (عبد الرحمن الجبالي، المرجع السابق، ج3، ص 291.) وكان هذا بإشارة من العلامة الأخضر المهاجي على الباي حتى يتمكن من القضاء على الثورة الدقاوية. (ابن سحنون، المصدر السابق، ص46).

سعى العثمانيون للتصاهر معها بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، كمحاولة منهم لكسب الأسرة التي تمردت عليهم، حيث طلب الحسن بن خير الدين مصاهرتها في ولايته الثانية، لكن زعيم الأسرة عبد العزيز رفض المصاهرة،⁽¹⁾ وحسب "معاشي" فإن رفضه كان بسبب اعتزازه بنسبه الشريف، أي أنه كان يرى العثمانيين أقل منه مرتبة،⁽²⁾ وهو الأمر الذي جعل الحسن بن خير الدين يتجه للتصاهر مع عائلة ابن القاضي.

فبعد رفض عبد العزيز أمير قلعة بني عباس مصاهرة الحسن بن خير الدين، اتجه هذا الأخير لآل القاضي وتزوج إحدى بنات أمير الأسرة سنة 1560م، وتزوجت ابنة أخيه من صديق الحسن بن خير الدين، وأحد قادته المدعو علج علي،⁽³⁾ وقد عمد إلى هذه المصاهرة ليشد أزره بها،⁽⁴⁾ ومن أجل كسب ولاء الأسرة التي كانت في عداء شديد مع العثمانيين، ولم يتوقفوا عن قتالهم إلا بعدما تصاهروا معهم.⁽⁵⁾ وربما عمد الحسن بن خير الدين إلى مصاهرة العائلة، كذلك من أجل ضرب قلعة بني عباس العدو التقليدي لإمارة كوكو، وعلى الرغم من أن هذه المصاهرة عادت بالخير على سكان زواوة، حيث فتحت لهم أبواب مدينة الجزائر، خاصة في المبادلات التجارية وحرية التنقل فيها وحمل السلاح أحيانا والإقامة بالمدينة، مقابل مرور العثمانيين بحرية عبر بلادهم نحو بايلك الشرق، إلا أنها كانت سببا في عزله وترحيله إلى اسطنبول سنة 1566م، بعدما اتهم أنه تحالف مع زواوة تحضيرا للانفصال على الباب العالي، نتيجة سماحه لزواوة بحمل السلاح داخل مدينة الجزائر، لذلك تم عزله وأخرج عناصر الزواوة من مدينة الجزائر ومنعوا من حمل السلاح.⁽⁶⁾

(1) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 29.

Boulifa, Op. Cit., p 163. - Rinn, Insurrection, p12.
- De grammont, Op. Cit, p91.

(2) - معاشي، المرجع السابق، ص 129.

(3) - Hedo, histoires des rois., p121.

(*) - رغم أن "عطاس" تشير إلى أن خير الدين يعد أول تركي تصاهر مع عائلة ابن القاضي، وهذا من أجل كسب خصم له وزنه، وعلى العكس من هذا لا نجده تصاهر مع الأسر النافذة بمدينة الجزائر التي يبدو أنه كسب تأييدها. لكن، زواج خير الدين من العائلة، لا تشير إليه المصادر وحتى هو في مذكراته لم يذكر أمر المصاهرة، لذلك نستبعد أن يكون قد حدثت بينهما مصاهرة. - عطاس، الحرف والحرفيون، ص 350.

(4) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 97.

(5) - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج 2، ص 374.

(6) - Hedo, histoires des rois., pp121, 122.

بعدها تزوج علي بتشين (1645/1621م) من إحدى أميرات إمارة كوكو، مكررا ما فعله الحسن بن خير الدين بعد حوالي 70 سنة، ونتيجة هذه المصاهرة جعل علي بتشين حرسه من رجال الزواوة، الذين التحقوا بخدمته،⁽¹⁾ فهذه المصاهرة سمحت بمد سلطة العثمانيين بالمنطقة الجبلية الصعبة ووفرت لهم الدعم الدائم،⁽²⁾ حيث تغلغت السلطة العثمانية في المنطقة وأمنت طرق المواصلات مع بايلك الشرق ومع منطقة بجاية عبر تيزي وزو حاليا، كما أن هذه المصاهرة سمحت بإقامة الأبراج كبرج منايل، برج بوغني، برج حمزة،....⁽³⁾ ورغم هذه المصاهرة إلا أن الأسرة ظلت مناوئة للحكم التركي، حتى تقدم صالح رايس وتزوج ابنة الأسرة القاضوية، وهو ما جعلهم يدعمونه عند تحرير بجاية سنة 1555م.⁽⁴⁾

إن التطرق للمصاهرات التي كانت بين الحكام والعائلات العلمية والدينية في المصادر، ضئيل جدا إلا بعض الإشارات، مثل زواج الداوي ميزومورطو (1683-1688م) من ابنة السيد أحمد الشريف،⁽⁵⁾ ومصاهرة الداوي علي باشا للحاج مصطفى بن الشيخ بن مالك،⁽⁶⁾ أو ما ذكر في سجلات المحاكم الشرعية من خلال إحدى الوثائق الوقفية التي تشير إلى زواج الداوي شعبان من نفيسة بنت العلامة محمد بن عبد المؤمن، جاء فيها: "الحمد لله بعد أن استقر للحررة الأصيلية الحسبية الجليلة نفيسة بنت المرحوم المنغمس في رحمة الحي القيوم العالم العلامة ... أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد المؤمن برد الله ضريحه وأسكنه من أعنان فسيحه زوجا هي الآن للمعظم فخر الدولة وإنسان عينها مولانا السيد الحاج شعبان داي الدولاتلي".⁽⁷⁾ كما أن الداوي حسن باشا (1798/1791م) كان صهرا لباش كاتب الحاج عمر الذي عزله حفيده الداوي مصطفى باشا بسبب رفض ابنة أخت الباش كاتب الزواج به⁽⁸⁾، أما الداوي حسين فقد تزوج من إحدى حفيدات سيدي أحمد بن يوسف الملياني، الذي حافظ الحكام على وعدهم له

(1) - جون وولف، المرجع السابق، ج2، ص 202. - ساحي، المرجع السابق، ص 56.

(2) - Boulifa, Op. Cit., p150.

(3) - محمد سي يوسف، المرأة والسلطة، ص 82.

(4) - Monnorean, Op. Cit., p 283.

(5) - غطاس، الحرف والحرفيون، ص 350.

(6) - الزهار، المصدر السابق، ص 138 و 142، 141.

(7) - م.ش. علبة 4، وثيقة 17. ينظر الملاحق.

(8) - الزهار، المصدر السابق، ص 71.

باحترامهم وعدم التدخل في شؤونهم طيلة تواجدهم بالجزائر،⁽¹⁾ فالشيخ كان أول من ربط معه العثمانيون علاقات مباشرة ، منذ بداية تواجدهم على السواحل الجزائرية.

إن سياسة التقارب مع الأسر الدينية والعلمية النافذة، لم يقتصر على الباشوات فقط بل حتى حكام الأقاليم لجئوا إلى المصاهرة كوسيلة لكسب بعض القبائل وإقامة تحالفات معها، حيث كانت المرأة هي الوسيلة لكسب الأطراف المناوئة لسياستهم، فأسرة المقراني رغم رفضها الأمر في البداية، إلا أنها رجعت وتصاهرت مع العثمانيين فحسب ما أورده "فيرو" فإن الباي علي بن صالح^(*) (1710/1713م) زوج بناته الثلاثة لشيخ قبيلة آل مقران⁽²⁾، والتي تعد من أكبر القبائل المخزنية والمرابطية ببجاية وما يحيط بها، لكن "مرسي" (Mercier) لا يذكر إلا ابنة واحدة وتدعى "تركية" التي تزوجت بالابن البكر لآل مقران، المدعو الحاج،⁽³⁾ وربما ما دفعه لهذه المصاهرة هو سعي السلطة إلى توطيد علاقاتها مع الأسرة لكسب نفوذها الروحي بالمنطقة وثقلها الاقتصادي العسكري. نتيجة تميز أفرادها بالشجاعة والمهارة في استعمال السلاح،⁽⁴⁾ وسيطرتهم على الطريق الرابط بين دار السلطان وبايلك الشرق، من خلال فرض ما يسمى بضريبة المرور سنة 960هـ-1554م.⁽⁵⁾

ومن الحكام الذين صاهروا العائلات العلمية أو المرابطية، نجد الباي حسن بوكمية (1713/1736م) الذي حاول جباية الضرائب من منطقة المرابط محمد بن علي من أولاد عبد النور بالقوة، فأظهر له المرابط كراماته، مما أضطر الباي إلى التراجع عن فعله وأعفاه من الضرائب، وصاهره ومنح الحماية لزاويته.⁽⁶⁾ في حين أن الباي حسين بوحناك (1746/1753م) تصاهر مع عائلة آل مقران المسيطرة على مجانة في نفس الوقت الذي تصاهر مع أسرة بن قانة،⁽⁷⁾ هذه المصاهرة سمحت له بضمان الأمن في هذه

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 470. Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed ..., p186.

(*) - تخلى عن الحكم بإرادته، ولما عاد من الحج استقر بزاوية سيدي أحمد بن علي بأولاد خلوف بمجانة.

- العننري، فريدة مؤنسة...، ص53 (هامش).

- Mercier, Histoire de Constantine..., p244.

- Vayssettes, Histoire de Constantine..., p98.

(2) - Feraud, Histoire des villes..., Bougie, p293.

- Vayssette, Ibid...p98.

- العننري، فريدة مؤنسة...، ص53 (هامش).

(3) - Mercier, Histoire de Constantine..., p244.

(4) - مارمول كريخال، المصدر السابق، ج2، ص 376.

(5) - Peyssonnel/Desfontaine, Op, Cit, To2, p209.

(6) - Feraud, Le Sahara..., p204.

(7) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب...، ص 26. - معاشي، المرجع السابق، ص 219.

المنطقة وكل المناطق التي تدين بالولاء لهذه العائلة المرابطية، أما الباي أحمد القلي(1756-1771م)، فقد تزوج هو الآخر الداخلة بنت الحاج بن بوزيد المقراني، بعدما لم تتجب له ابنة بن قانة أولاد، وهو ما سمح له من توسيع نفوذه السياسي،⁽¹⁾ وقد زوج ابنته من زوجته الداخلة لصالح باي، لما كان خليفة، وهي حفيدة المقراني وربما هذه المصاهرة هي من قربت بين صالح باي وسادة مجانة، عندما عين بايا على بايلك الشرق،⁽²⁾ والذي تصاهر كذلك مع عائلة ابن جلول وهي أكبر عائلة توارثت خطة القضاء الحنفي، وكتابة العدل بقسنطينة في عهده وبعده، والأرجح أنه زوج ابنته للعائلة ولم يتزوج منها.⁽³⁾ أما أحمد باي فهو الآخر سعى للارتباط بالأسر الدينية الكبرى ذات السلطة والنفوذ ببائلك الشرق لإدراكه أهمية هذا الارتباط لما يمثله من استقرار في المنطقة، لذلك تزوج عيشوش بنت الحاج عبد السلام المقراني.⁽⁴⁾

وبالتالي فالمصاهرة كانت وسيلة اعتمدها الحكام لكسب العلماء خاصة الذين يبرزون على الساحة، كالشيخ أحمد بن حالة المولود عام 1780م، بالماين (المسيلة) الذي لما ضاع صيته ووصلت أخباره باي قسنطينة من تقوى وإصلاحيين المتخاصمين عرض عليه وظيفة دينية لكنه أبى، فألح عليه الباي كثيرا حتى وصل إلى مصاهرته.⁽⁵⁾ والشيء نفسه حدث بمنطقة الزواوة، والتي كانت أكثر المناطق توترا نجد بها الباي محمد الذباح، تقرب من خلفاء إمارة كوكو ذات النفوذ القوي بمنطقة القبائل، خاصة قبائل سيباو العليا وواد الحمام،⁽⁶⁾ وقد تزوج هذا الباي من ابنة رئيس العائلة في تلك الفترة سي عمار بوكتوش الصغير، خلفاء ابن القاضي،⁽⁷⁾ لكن "بويي" (Boyer) يذكر أن صلة الباي

(1) - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 375. - معاشي، المرجع السابق، ص 219.

-Mercier, histoire de constantine.p 267

(2) - Gaid, chronique... p39. قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع، ص 111.

(3) - قشي، قسنطينة المدينة...، ص 111. - معاشي، المرجع السابق، ص 213.

(4) - Gaid (M), Mokrani, ed.andalo use, Alger, 1993, p268. - Mercier, histoire de Constantine, p372.

-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 163. - معاشي، المرجع السابق، ص 220 - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 441.

(5) - بوعزيز، أعلام الفكر....، ج1، ص 138.

(6) - Robin, La grande Kabylie, p 62.

(7) - محمد الصغير فرج، المرجع السابق، ص 34. - Robin, le bey Mohamed..., p365.

-Boulifa, Op. Cit, p245. - Mercier, histoire l' Afrique..., T03 ,374.

محمد الذباح بهذه العائلة كانت عن طريق أمه،⁽¹⁾ وقد كان يهدف من وراء هذه المصاهرة، الحصول على دعم الأسر أو على الأقل على حيادها وحياد القبائل المساندة لها، وتأمين المنطقة الواقعة بين واد بوقدورة وواد آث عيسى الرافدين الأساسيين لواد سيباو من الجهة الشمالية،⁽²⁾ لهذا مكنته هذه المصاهرة من بسط نفوذه على كل المنطقة الموالية لخلفاء إمارة كوكو، كبني جناد، وآيت ايراثن،⁽³⁾ بفضل نصائح وإرشادات أصهاره ودعمهم له، وبهذا استطاعت السلطة العثمانية فرض النظام بالمنطقة لفترة طويلة،⁽⁴⁾ مما سمح له بالتفرغ للمشاكل الأخرى التي تعاني منها المنطقة.⁽⁵⁾ لذلك وبعد مقتله سنة 1754م، تمردت عدة قبائل مثل فليسة أو مليل وبوغني سنة 1756م، حيث هاجموا البرج، وقتلوا قائده المدعو أحمد آغا، وتم طرد الحامية التركية منه، وهدموا البرج في وقت كان الجيش التركي في حملة ضد تونس.⁽⁶⁾

أما في بايلك الغرب فقد أشار "المزاري" إلى أن والد الباي محمد الكبير عثمان الذي كان بايا على بايلك التيطري تزوج من خديجة بنت المرابط محمد بن عيسى اللمداني التي أنجبت له الباي محمد الرقيق (بوكابوس).⁽⁷⁾

أما بشرشال فالمرابط سيدي مالك البركاني الذي له نفوذ على المناطق المحيطة بشرشال كبني منصور، ريغة بني مناد، فقد تزوج من ابنة قائد شرشال، وهذا بعدما هددته بإثارة بني منصور ضده عندما رفض طلبه في البداية، وهنا تدخل آغا العرب بالمنطقة المدعو "يحيى" وأعطى الأمان للبركاني كما عينه شيخا على بني منصور وزوجه من ابنة القائد.⁽⁸⁾

لقد سمحت المصاهرة بين بعض الحكام وممثلي الجماعات المحلية النافذة، بظهور روابط تعاون وتلاحم بين الطرفين خاصة بالريف مكان تواجد العائلات الكبرى الإقطاعية

(1)- Boyer, Introduction à une histoire..., pp 20,21.

(2)- محمد الصغير فرج، المرجع السابق، ص42.

- Robin, le bey Mohamed, p365. - Mercier, histoire l'Afrique..., T03 ,374

(3)- نفسه، ص 35.

(4)- Boulifa, Op. Cit, p246.

(5)- محمد سي يوسف، "المرأة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع25، 2002، تونس، ص78.

(6)- محمد أرزقي فراد، المرجع السابق، ص45.

(7)- المزاري، المصدر السابق، ص 290.

(8)- Guin, Note sur la famille des R'obrini, pp 456.457. - Saidouni, Op. Cit, p400.

والمرابطية،⁽¹⁾ مثل أسرة آل القاضي وأسرة المقراني، فمصاهرة هاتين الأسرتين ضمن لهم ولاء قوتين عرفتا بنفوذهما الديني والسياسي وبقوتها العسكرية، منذ بداية التواجد العثماني، وهو ما كان يشكل خطرا عليهم، خاصة بمنطقة القبائل.

فهذه السياسة التي انتهجتها السلطة، وإن لم يكن دائما تأثيرها إيجابيا، كانت إحدى مظاهر التقارب بين الحكام والعلماء خاصة المرابطين منهم، فسياسة المصاهرة التي لجأ إليها الحكام من أجل كسب ولاء رجال الدين، وبالتالي ضمان الأمن والاستقرار في المناطق التي لهم نفوذ عليها والقضاء على أية قوة محلية تحاول فرض نفوذها على السلطة المركزية، لتُعد وسيلة لتوسيع نفوذ البايلك السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وبهذا فالمصاهرة غالبا ما حققت نتائج عجزت القوة العسكرية عن تحقيقها.

1-3- المراسلات والزيارات:

نظرا لإسهامات أقطاب السلطة الروحية في المجتمع، ونظرا لمساعدتهم للسلطة المركزية، فقد تمتعوا بمكانة تضاوي مكانة الموظفين السامين في البايلك، وسعت السلطة للتقرب منهم، فكانت المراسلات إحدى وسائل التقارب بين الطرفين، والتي غالبا ما كانت تحمل عبارات الود والاحترام، على اختلاف مرسلها أو موضوعها، من مراسلات إخوانية أو إدارية (ديوانية)، ومن الرسائل الديوانية نجد رسالة عمر الوزان سنة 948هـ/1541م إلى حسن آغا خليفة خيرالدين، حيث لخص فيها واجبات القاضي كما قدم له اعتذاره عن خطة القضاء التي عرضها عليه، خاصة وأن قسنطينة تمر بأزمة داخلية، تمثلت في الصراع بين الأسر حول المصالح.^{(2)(*)}

وتعتبر عائلة ساسي البوني التي كانت تمثل السلطة الروحية في عنابة أكثر الأسر مراسلة مع الحكام كيوسف باشا والداي محمد بكداش، مع كل من محمد ساسي البوني وأحمد بن قاسم ساسي البوني، ومن هذه المراسلات رسالة يوسف باشا لمحمد ساسي البوني سنة 1050هـ/1641م، والتي حملت في مقدمتها كل عبارات الاحترام: "إلى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله المخلص إليه السريرة.... سيدي محمد ساسي..." كما أخبره فيها أنه كان ينوي الجهاد لفتح وهران، لكن ما حدث بالشرق

(1)- Feraud, Histoire des villes...Bougie, pp 88.89.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص382.

(*)- ينظر الرسالة كاملة في، شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 136، 135.

الجزائري من اضطرابات،(*) جعله يقدم الأهم فالأهم، حيث فضل التوجه بنفسه لمعاقبة المتمردين في قسنطينة وبسكرة، مبرزاً فيها دور العلماء في مثل هذه الظروف التي تمر بها البلاد جاء فيها: "هذا والمراد إعلامكم أنا كنا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران... حتى عرض لنا ما حال بيننا وبين هذا الغرض... ورأينا بصائب النظر... أن تقديم الأهم فالأهم... بأن نتوجه الى قسنطينة... فلتخولوا رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكر والموعظة الحسنة، كدأب العلماء في طريقته المثلّي،... فردوا شاردهم إلى الله...".(1)

ويبدو من خلال هذه الرسالة أن يوسف باشا استثمر في مسألة الجهاد لأنها كانت المحرك الفعلي لالتفاف الأهالي بكل شرائحهم، حول السلطة.

وقد رد عليه محمد ساسي البوني برسالة أخرى حملت عبارات المدح والثناء على الباشا، طلب فيها العفو لأهل عنابة، بعدما علم بقدوم الباشا لمعاقبة المتمردين، ناصحاً إياه بالصبر والثبات وأن ما حدث كله بإرادة الله، كما أخبره أنه يدعو له بتغيير الظروف التي حلت بالباشا مذكراً إياه بعدم نسيان وده للباشا.(2) جاء فيها: "مراسلة بعث بها سيدي محمد ساسي إلى المعظم يوسف باشا يستشفع في أهل بونة. وهذا لفظها... ما نتلقاه من أخبار عنكم تنسد لها المسامحة.... نسال الله سرعة تبدلها بأنباء تفر بها العين... ولتعلم أعزكم الله أن كل شدة مآلها الارتخاء، وأن كل غمة انتهؤها الى الانجلاء..... وأن ما عليه العباد من التلويحات، إنما هي لأسمائه الحسنی مستظهرات وهي منه اليهم تعريفات.... وها هو العبد الفقير ليس بناس لكم وُدًا، ولا بناكث عهدا، ولا يزال سائلا لكم من الله.... تليين صعاب القلوب وتسهيل الصعوب...".(3)

وردا على طلب المرابط محمد ساسي البوني، أرسل له يوسف باشا رسالة سنة 1051هـ/1641م مادحا إياه بالولاية والصلاح، موضحا له أن العفو على المتمردين يعد ضعفا في نظر العامة، وأنهم هم من جلبوا لأنفسهم العقاب بإساءتهم للسلطة، لكن مع ذلك واحتراما للشيخ، عفى عنهم شرط أن يقوم هو بتعريف الناس بواجبهم اتجاه السلطة.(4)

(*) - يقصد هنا ثورة احمد بن الصخري التي دامت من 1637-1642م.

(1) - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 21، 23. - سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 54، 56. -Vayssettes, histoire de constantine, p76, 77.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص191. - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 18.

(3) - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 23، 25. - سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 56، 58.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص191. - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 18.

ومما جاء في الرسالة: "...سيادة العارف بالله الولي الصالح البركة... هذا وقد انتهى إلينا كتابكم البهي...وما احتوى عليه من طلب العفو عن ظلم والتجاوز عن أساء واجترم، فلتعلم رضي الله عنكم أن العامة لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر عواقب المثالب والتجارب..... وقد استوجبوا بفعلهم الأدب الشنيع والتعزير الفضيع، ولولا مراقبة الله تعالى في وجوهكم".⁽¹⁾

أما الداوي مصطفى باشا فقد راسل الشيخ محمد بن الفكون أثناء فتنة ابن الأحرش، وكانت هذه الرسالة تحمل عبارات الإحترام والثناء على ابن الفكون الذي دافع عن المدينة (قسنطينة) في أثناء غياب الباي جاء فيها: "... إلى العالم الأشهر، الخبر الأنور، مأوى القليلين... العارف بجميع العلوم، والفنون سيدي الشيخ بن الفكون السلام على مقامكم الرفيع، وشخصكم الرائق البديع،... أما بعد فرانا نستكثرنا [كذا] خيرك من شأن وقوفك وصيانتك البلاد ونصحك وحمایتك العباد... إذ خيرك معنا سابق فبالأحرى أن يكون بالزيادة لاحق... وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا...".⁽²⁾ أما في الرسالة الثانية والتي وجهها الباشا إلى العلماء أولا ثم إلى ناس قسنطينة، أوصاهم فيها بالتعاون مع الشيخ بن الفكون للدفاع عن المدينة جاء فيها: "... نوصيكم أن تكون حالا واحدة مع السيد الشيخ بن الفكون فإنه عصبتكم في مهامكم ومرشدكم في نوائبكم...".⁽³⁾

في حين الرسالة الثالثة، والتي كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الشيخ ابن الفكون والعلماء والتي أهدر فيها الداوي أحمد باشا دم الإنكشارية التي ساعدت الباي أحمد شاوش القبائلي على التمرد سنة 1808م، وقد جاء فيها ما يلي: "الحمد لله جوابنا هذا يتصل بيد أحبابنا وأولادنا أولهم سيدي الشيخ بن الفكون ثم العلماء ثم كبار الديوان ثم ناس البلاد... أن ذلك العساكر حين ظهر فسادهم وانعدمت نتيجتهم فل خير فيهم ولا حاجة لي بهم وأناي قد أهدرت دمهم، فبادروا واقتلوهم...".⁽⁴⁾

من خلال هذه الرسالة نلمس الأهمية التي يوليها الحكام للعلماء بحيث أن خطاب الباشا يوجه دائما لهم أولا ثم إلى رجال الديوان، وهذا لإدراكه المكانة التي يحظون بها

(1) - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 25، 26. - سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 58، 60.
-Vayssettes, histoire de constantine, p77, 78.

(2) - العنترى، فريدة مؤنسة...، ص 72.

(3) - نفسه، ص 73.

(4) - نفسه، ص 77.

لدى الأهالي ولمدى نفوذهم وتأثيرهم عليهم، وكذلك لقدرتهم على التغيير والتحكم في مسرى الأمور.

إضافة إلى هذه الرسائل، نجد رسالتين أوردتهما "جمال قنان": الأولى كانت من الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون موجهة للداي حسين، والثانية هي الأخرى موجهة للداي حسين من طرف الشيخ مصطفى بن عبد الرحمان لكن الملاحظ على هاتين الرسالتين هو عدم ذكر سبب واضح لها فالأولى كانت كرد على ما وصل إلى مسامع الباشا من أخبار وشكاوى حيث كان الشيخ ابن الفكون ينفي فيها أن يكون وصل إلى مسامعه ما وصل الباشا حيث يقول فيها: "...هذا وقد بلغنا... كتابكم وفهمنا ما تضمنه الأشراف خطابكم ما شوش العقول وحير الأفكار، أرق الشريفة أسماعكم من الأخبار مستشرفين لما لدى في الأسرار فالذي يصل مقام سيدنا أدام الله عزه... إني لم أطلع من شقة بأذني ولم يشتك به أحد لي ولم يتحقق بطريق من طرق العلم لدي ولو علمنا ذلك يقينا لوجب علينا الإعلام، إن كتمان الشهادة من أعظم الآثام...".⁽¹⁾

أما الرسالة الثانية والتي حرّرت من طرف الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن هي الأخرى غامضة نوعا ما، فهو يذكر فيها اغتصاب المحصنات، ولم يبين نوع هذه المحصنات جاء فيها: "...غير أن ما ذكرته من اغتصاب المحصنات الخ لم يكن شيء من ذلك ثابت عندي... ولم يقم قائم بين يدي يطلب حقا منع منه".⁽²⁾

من خلال هاتين الرسالتين اللتين كانتا تحملان كل عبارات التعظيم والتبجيل للداي، نستخلص أن العلماء وخاصة المتعاونين مع السلطة، كانوا عبارة عن أعين للباشا حول كل ما يدور في الحياة اليومية للناس وكل ما يدور في الأقاليم.

أما من الرسائل الإخوانية، فنجد رسالة الداوي محمد بكداش إلى أحمد بن قاسم ساسي البوني سنة 1115هـ/1704م، ذو السمعة الدينية والعلمية بعناية وحتى خارجها،⁽³⁾ وقد مزج الباشا في رسالته بين النثر والشعر وأشاد فيها بخصال أحمد البوني وعائلته في العلم والولاية، كما طلب منه النصح والدعاء وقد جاء فيها: "أقر الله تعالى بطلعتكم السنية العيون، وزادكم علما إلى علمكم الفاخر المصون.... مولانا المحب الأمل

(1) - قنان جمال، نصوص ووثائق، ص 279.

(2) - نفسه، ص 277، 278.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 413، 414.

الأعز الأكمل كنز العلوم السنية، وجوهرة الألفاظ الذهبية... مولانا وسيدنا ووسيلتنا إلى ربنا الأمد... فريدة العصر سيدي الشيخ الحاج أحمد:

أحببتنا نلت من الفضل رتبة
وكم كلت الأخبار والله دونها
فما ذاك إلا من كريم تفضلا
وكم طمع الألباب أن يدركونها
فجودوا إذا ما الليل أرخى سدوله
بهتمكم نصحا لنا تبذلونها
فأنتم وأيم الله دار العلم والولاية أخذتم نهج القوم عن أسلافكم، فصار الحسن من بعض أوصافكم:

فإن قيل لي من ذا الذي قد وصفته
أقول دعوني هو ذا الخل أحمد
ونجل لقطب قد تحقق مجده
أبو قاسم لا زال والله عليه يحمد
سلام من محب وعاشق
سلام كريم كل حين يجدد.⁽¹⁾
وحسب "أبو القاسم سعد الله" فهذه الرسالة كانت حرّرت لغرض سياسي، شبيه بغرض يوسف باشا من محمد ساسي البوني،⁽²⁾ ألا وهو جلب طاعة الرعية، لكن تاريخ هذه الرسالة يبين أن محمد بكداش لم يكن وقتها دايا بل مسؤولا عن خبز العسكر. وقد بادله البوني الرسائل كذلك، والتي عدّ فيها من جانبه خصال الباشا من عدل وكرم وعلم ونفوذ ووصفه بالشريف العارف الظريف الكيس... جاء فيها:

يا طالبا للفضل	والجود ثم العدل
والعلم والرياسة	والحلم والكياسة
اعمد إلى الظريف	بكداش الشريف
وهو الذي في القطر بيّ	فإنه حاتم طي
يطرد عنك الفقـر	وباجتهاد تقرى
به تصوير الزاوية	عامرة لا خاوية

وقد شكّا له فيها كذلك أحوال عناية وخراب مساجدها وضياع حبوسها فقال عنها:

أريد عن أخبركم	أدام الله نصرك
بأمر هذه القرية	بالصدق لا بالفرية

(1) - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 26، 29. - سعد الله، تجارب في الأدب، ص 60، 62.

- قنان، نصوص ووثائق...، ص 155، 156.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 413.

قد صال فيها الظالم	وهان فيها العالم
خربت المساجد	وقل فيها الساجد
حبسها قد أسرفا	ناظره فأشرفا (فنى وهلك)
والشرع فيها باطل	والظلم فيها هاطل ⁽¹⁾

كما أسمى له فيها النصح وأوصاه بالاعتماد على الله، واستشارة العقلاء، وعدم إخلاف الوعد لأنه يضر بسمعته وحكمه، كما ذكر له سوء أحواله خاصة حاجته إلى المال:⁽²⁾

مطالبى كثيرة	فطنتكم غزيرة
ذال ودال شتتا	فكري وفيه نبتا
ذنب ودين كثرأ	والغم فيه أثرا

وقد استجاب الداى محمد بكداش لطلبه، وقدم له حسب "ابن ميمون" منقوش في صفحة القمر، وأعطاه فوق ما طلب⁽³⁾ وقد مدحه البونى كذلك في قصيدة أخرى نتيجته طلب الداى منه بان يتحفه ببعض النصائح، وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإن الداى لم يكن بحاجة إلى النصح من الشيخ البونى بقدر ما كان يسعى إلى توطيد العلاقة بينه وبين مرابط وعالم معروف وذو سمعة ونفوذ بعنابة.⁽⁴⁾

أما أكثر الحكام مراسلة مع أقطاب السلطة الروحية، هو الداى حسين الذى ذكر له "دوفو" (Devoulx) 19 رسالة بينه وبين المرابطين، أغلبها مع المرابط سيدي علي بن عمر، اختلفت في مضمونها وغرضها، بين طلب المعونة والدعاء للباشا أو طلب الشفاعة لأحد المرابطين...، منها الرسالة الأولى من هذا المرابط إلى الداى يخبره فيها بتوزيع المبلغ المالى الذى أرسله الداى على الفقراء والطلبة، لكن المبلغ غير موضح والأغلب أنه 50 ريالاً، حيث ورد بصيغة "ليلة المولد النبوي، وزعنا مبلغ 50؟؟؟ الذى أرسلته..". وهو نفس مضمون الرسالة رقم 13، التى تم توزيع مبلغ 50 ريالاً أرسله الداى، على الفقراء والعلماء والطلبة،⁽⁵⁾ أما الرسالتين رقم 05-06، ففي الرسالة رقم 05 أخبر فيها المرابط محمد بن عيسى الداى بوصول صدقته مع قائد الزنوج الحاج بلخير والمتثلة في

(1) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 129. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 414.

(2) - سعد الله، نفسه، ج1، ص 415.

(3) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 132. - سعد الله، نفسه، ج1، ص 415.

(4) - سعد الله، نفسه، ج1، ص 415.

(5) - Devoulx (A), "lettres adressées..", pp172, 174 et 267,269.

ثور تم شراؤه بـ10 دورو، وتم ذبحه وتوزيعه على الفقراء الذين دعوا له بالنصر على الأعداء. أما الرسالة رقم 06، فقد أبلغ المرباط من خلالها الداى بتوزيع القمح الذي أرسله على الناس، في الشرق والغرب من فاس إلى مصر، توقرت في التل، الزاب، عند العرب، النوايلة، توزر، نفطة بوسعادة، القنطرة، بلاد الحنانشة، ودعوا له بالخير والانتصار على العداء.⁽¹⁾

في حين في الرسالة رقم 09، المرباط علي بن عمر يشكر الداى على الهدية التي أرسلها للزاوية وللطلبة من ملابس و مواد غذائية من عسل ، تين ،زبيب..) وجارية زنجية لخدمة الطلبة، ويخبره فيها أنهم بحاجة إلى مخزن لوضع المؤونة وألواح الطلبة، وأنه أرسل له مع الرسالة برنوسا كلباس تقوى وشرف، رغم أنه يملك أفخر الملابس ويعلمه فيها أنهم سيعملون على خدمته ورضاه والدعاء له.⁽²⁾

- الرسالة رقم 07: من نفس المرباط إلى حسين باشا، ونفهم من خلالها أن الداى كان قد راسل المرباط سابقا بعدة رسائل أخبره بمرضه وطلب منه الدعاء له بالشفاء، ثم راسله مرة أخرى ليخبره بشفائه، وبالتالي هذه الرسالة كانت كرد على رسائل سابقة من الداى للمرباط.⁽³⁾

- الرسالة رقم 08: كانت من نفس المرباط، يطلب فيها من الداى العناية بالمساجد والزوايا، ويعرب عن خوفه إزاء مصير وقف مسجد بالدار البيضاء، وضياعه بعد وفاته، ويطلب من الباشا أن يترك إدارته لأبنائه.⁽⁴⁾

- الرسالة رقم 10: كانت رسالة مجاملة من المرباط للداى، حيث يذكر فيها الهدايا التي أرسلها للداى والخزناجي والآغا: 03 قارورات ز

- يت، 03 برانس، 06 سلال تمر يابس، 04 سلال و 04 مزود وطبق من البلح الجيد.⁽⁵⁾

- الرسالة رقم 12: من نفس المرباط، لكن الملاحظ أنه يخبر الداى بذهابه إلى مكة وسيشكوه هناك لله ونبيه محمد (ص)، لكن لم يوضح سبب غضبه من الداى.⁽⁶⁾

(1)- Ibid, pp 178,179.

(2)- Ibid, pp 185,186.

(3)- Ibid, pp 179,181.

(4)- Ibid, pp 181,184.

(5)- Ibid, pp 187,190.

(6)- Ibid, pp 265,267.

- في حين الرسالة رقم 17 والمؤرخة بتاريخ 1244هـ/1829م، فنجد أنه يطلب فيها الأمان لأحد المرابطين يدعى عبد الله، والذي تم احتجازه بعد محاصرة الباي أحمد له.⁽¹⁾

- أما الرسالتين رقم 18 ورقم 19، فكانتا من المرابط العربي بن علي موجهة للداي يدعو له فيها بالنصر على الأعداء.⁽²⁾ ومن خلال هاتين الرسالتين، نفهم أنها تزامنت مع الحصار الفرنسي للجزائر.

لم تقتصر هذه المراسلات على الحكام في دار السلطان وأقطاب السلطة الروحية فقط، بل وجدت بعض المراسلات التي كانت بين قادة برج سيباو ومرابطي المنطقة، مثل مراسلة الباي محمد باي التيطري للمرابط سيدي أبي القاسم لمداني يطلب فيها الدعاء، جاء فيها: "حفظ الله بمنه مقام الولي الصالح القطب الواضح الفقيه... لمداني، سيدي أبي القاسم بن ابراهيم... بعد السلام عليك والسؤال الكثير عنك وعن كل ما تعلق بك ويليه طلب صالح الدعاء لإصلاح حالنا وحفظنا مع اهلنا واولادنا...."، وأيضا وجدت مراسلة كاتب الباي محمد باي التيطري عبد الله بن أحمد بن بلقاسم مع شيخ زاوية علي بن طالب بكوكو قبل سنة 1154هـ/1741م، يطلب منه الدعاء للأخذ بالثأر والقصاص من بني وسيف، جاء فيها: "يسلم عليك كاتبه خديمه.... عبد الله أحمد... بن قاسم أصلحه الله تعالى ويطلب منك صالح الدعاء.... فالمراد منك سيدي أن تعاوننا بصالح الدعاء لناخذ ثأرنا من القصاص الي أمر الله به....".⁽³⁾ في حين وجدت رسالة بدون تاريخ من نائب قائد برج سيباو محمود إلى المرابط سيدي بلقاسم وابراهيم بزاوية كوكو يطلب فيها صالح الدعاء، ويخبره أنه بتأمين الطريق الذي يقصده المسافرون والتجار: "إلى الولي القطب.... سيدي بلقاسم وابراهيم.... المطلوب منك صالح الدعاء لنا لإصلاح الحال وبلوغ الآمال... وبعد فقد أتأ إلينا... السادة المرابطين وعرفونا بأنهم أمكنهم خوف الطريق لأجل السفر والتجارة... ها نحن أنعمنا عليهم وعلينا بالأمان التام....".⁽⁴⁾

أما بخصوص الزيارات فنجد خير الدين بربروس لما وصلت إلى مسامعه شهرة المرابط سيدي أحمد الكبير الأندلسي قرب متيجة، قام بزيارة له في بيته، أين طلب منه

(1)- Ibid, pp 277,278.

(2)- Ibid, pp 278,290.

(3)- وثيقتين تخص عائلة براهيمى مالكة الأرشيف الخاص بإمارة كوكو، قدمت لي من طرف الأستاذ أرزقي شويتام.

(4)- نفسها

الدعاء وقد أعلمه الشيخ بضرورة مساعدة الأندلسيين، وإكراما وتدعيما له قام خير الدين ببناء مسجد وفرن وحمام في مكان اختاره المرابط، الذي أسس حولها مدينة البليدة.⁽¹⁾

كما أن الباي فرحات (1653/1647)، زار الشيخ محمد الصالح من علماء زاوية من أجل الإصلاح بين القبائل المتناحرة، رغم أنه من عادة البايات حسب "الورثياني" أنهم "يزارون ولا يزورون"، بحيث أنهم إذا اعتقدوا في شخص ما بعثوا إليه ليزورهم في محلهم، وهذا خوفا من الازدراء والنقص في حقهم.⁽²⁾ في حين أن الباي علي بن صالح (1713/1710) والذي شجع الزوايا، فقد زار في طريق عودته من الحج زاوية سيدي أحمد بن علي ببرج بوعريرج.⁽³⁾

أما مرابط القليعة سيدي علي مبارك، فقد تقرب منه العثمانيون منذ القرن 17م، وكان الحكام يقومون بزيارات لزوابيته،⁽⁴⁾ خاصة بعدما ضاع صيته وازداد قاصديه من الطلبة من مختلف جهات الوطن، ولهذا زاره كل من خضر باشا،^(*) وحسن باشا^(**) وقدموا له هدايا ثمينة "كزيارة"،⁽⁵⁾ أما عائلة الغبريني بشرشال، فقد حظيت بمكانة عائلة مرموقة لدى السلطة، خاصة وأنها كانت تنتمي للطريقة القادرية، وهو ما جعل العثمانيون يسحبون حامية برج الخميس التي تحمي شرشال ضد هجمات بني مناصر، بعد تعسف الجند بالمنطقة،⁽⁶⁾ كما أن الباي محمد المقلش الذي نكل بالعلماء أثناء الثورة الدرقاوية، زار الغبريني في طريق عودته إلى وهران بعدما مطاردته للدرقاويين، وقد رد له الشيخ الزيارة في مقر حكمه بوهران،⁽⁷⁾ وهذه الزيارة كانت بعد رفض هذا المرابط المدعو الحاج بن عودة الغبريني تقديم المساعدة لابن الشريف الدرقاوي لعدم ثقته به، ولهذا كانت جهوده دون جدوى خاصة بشرشال.⁽⁸⁾

وبهذا فالمراسلات والزيارات بين الحكام وأقطاب السلطة الروحية كانت هي الأخرى وجه من الأوجه التي تبرز التحالف والتقارب بين الطرفين.

(1) - Trumelet, Les Saints...pp236, 241.

(2) - الورثياني، المصدر السابق، ص64.

(3) - Gaid, Chronique..., p29, 33.

(4) - محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص136.

(*) - حكم المرة الأولى، 1592-1595م. - المرة الثانية، 1596م. - المرة الثالثة، 1604-1605م.

(**) - حكم المرة الأولى، 1613-1616م. - المرة الثانية، 1617-1619م. - المرة الثالثة، 1638-1640م.

(5) - Trumelet, L'Algerie légendaire, p378. - Boyer, Contribution..., p31.

(6) - Boyer, Ibid..., p 31, 32.

(7) - Guin, Note sur la famille des R'obrini, p453.

(8) - Saidouni, Op. Cit, pp 402, 403.

1-4- الاعتقاد في أقطاب السلطة الروحية والتقرب منهم:

لقد حرص العثمانيون على الظهور بمظهر الملتزمين بالدين، لذلك بالغوا في احترام رجال الدين من علماء ومرابطين وأشرف، قصد كسب احترام وولاء الرعية وقد نجحوا في ذلك،⁽¹⁾ فبالإضافة إلى الاحترام الذي أظهره العثمانيون للأضرحة، فقد عملوا على إظهار أنفسهم على أنهم حماة للدين والامتناع عن القيام بما ينافي القوانين، كما أنهم كانوا يقيمون الصلاة بانتظام، بحيث كان الداوي يوقف كل أعماله ليذهب للصلاة رفقة أعيان المدينة، حتى يتفادى انتقاد العلماء الذين كانوا يمثلون الرأي العام، وتأثيرهم كبير على السكان،⁽²⁾ مما جعل الناس يعتقدون أنهم مرابطون وصالحون وهو ما جعلهم يخضعون لهم طواعية، ويثقون فيهم ثقة عمياء.⁽³⁾

وحسب "سعيدوني" فإنه حتى الهدايا التي كانوا يرسلونها للحرمين الشريفين كانت بغرض كسب رضى الأهالي والتأييد الشرعي،⁽⁴⁾ حيث أنهم كانوا يقدمون للحرمين الشريفين هدايا سنوية، وينظرون إليها باحترام وتقدير كسبا للأهالي وإرضاء لهم، وجعلوا منها تقليدا، بحيث توجه للبقاع المقدسة باسم الداوي الذي كان حريصا على إيصالها لأصحابها، من خلال إرفاق قائمة بها أسماء الهدايا، والتي يعود بها الحجاج وعليها توقيع من أرسلت إليهم، وهي كثيرة ومتنوعة لتتوزع أوقاف الحرمين الشريفين من مزارع ودكاكين، ومقاهي، فنادق....⁽⁵⁾ والتي قدر عددها سنة 1830م بـ1558 وقف بمردود سنوي قدر بـ43.222.70 فرنك أي 3/4 أحباس الجزائر.⁽⁶⁾

ومن الحكام من كان يقرب إليه القوى الروحية يوسف باشا، الذي عرف عنه أنه من الحكام الذين يقربون العلماء ويعفون المرابطين والأشرف من دفع الضرائب ويكرمونه، ومن الذين قربهم يوسف باشا المفتي سعيد قدورة، عيسى الثعالبي، عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة ومحمد ساسي البوني عالم ومرابط عنابة الذي تبادل

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 236.

(2) - Boyer, La vie quotidienne..., p73.

(3) - حمدان، المرأة، ص 111.

(4) - سعيدوني، النظام المالي، ص 145.

(5) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 70.

(6) - Devoulx, Notes historiques..., n°04, p471.

- Devoulx, Les édifices, p142.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 413.

الرسائل معه،⁽¹⁾ أما الداوي محمد بكداش والذي تولى الحكم سنة (1119هـ-1707م)، فقد أحاط نفسه بالعلماء والشعراء والأدباء بمدينة الجزائر،⁽²⁾ وربط صلات مع عائلة البوني بعنابة ومع أغلب علماء قسنطينة وتلمسان،⁽³⁾ كما أنه بنى زاوية الأشرف سنة 1121هـ/1709م، والتي خصص لها أوقافا للإنفاق على القائمين عليها،⁽⁴⁾ وربما لهذه الأسباب التف حوله الناس والعلماء عندما عزم على الجهاد،⁽⁵⁾ سنة 1708م من أجل استرجاع وهران، فعمله هذا رفع من مكانته في أعين العلماء والعامّة.⁽⁶⁾

أما الباوي محمد الكبير فهو الآخر كان يستميل العلماء ويقربهم منه، حيث كانت جلساته لا تخلو من العلماء خاصة في المناسبات، وقد أشار "ابن سحنون" إلى هذا بقوله: «...فإنه كان يضم فيها (الأعياد) أهل الوظائف كالخطباء والأئمة والمؤذنين والمدرسين...»،⁽⁷⁾ الذين كان يمنح لهم هدايا ومنح في هذه المناسبات،⁽⁸⁾ وحسب "صالح فركوس" فإن الباوي كان يهدف من وراء هذا العمل استمالة العلماء وكسبهم إلى جانبه، وقد نجح في ذلك، حيث جعلهم يثثون عليه ويخلدون مآثره، وحتى يتنافسون في ذلك،⁽⁹⁾ خاصة لما أحيى الرباطات التي شجع العلماء والطلبة على الالتحاق بها.⁽¹⁰⁾

إضافة إلى هذا نجد من الحكام من انضم للطرق الصوفية، مثل يوسف باشا الذي أخذ الطريقة عن عالم عنابة أحمد ساسي البوني كما أخذ بركته بعد أن وعده بأن يحكم بالعدل،⁽¹¹⁾ أما محمد بكداش فقد أخذ الطريقة على يد قاسم بن محمد ساسي البوني،

(1) - سعد الله، أربع رسائل، ص 15.

(2) - المدني، حرب ثلاثمائة سنة، ص 455.

(3) - سعد الله، أربع رسائل، ص 19.

(4) - Devoulx, Les édifices, p164. - Devoulx, notice sur les corporations, p31.

(5) - العسلي، الجزائر والحملات الصليبية، ص 119.

(6) - سعد الله، أربع رسائل، ص 19.

(7) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 143.

(8) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 26.

(9) - صالح فركوس، "الباوي محمد الكبير ودوره في الحركة الثقافية ببابيك الغرب"، الثقافة، ع71، 1982م، الجزائر، ص 26.

(10) - نفسه، ص 28.

(11) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 413.

الذي كان يتردد عليه ويتبادل معه الرسائل،⁽¹⁾ فوالده أيضا كان صوفيا، ولعل اسم "بكداش" مطابق للطريقة البكداشية التي يعد شيخها السلطان الروحي للجيش الانكشاري.⁽²⁾

أما من البايات فنجد الباي محمد الكبير فقد كان مريدا للشيخ مصطفى بن مختار الغريسي، جد الأمير عبد القادر، الذي بقي في خدمته، ساعيا لإرضائه،⁽³⁾ في حين أن الباي محمد بن عثمان الرقيق بوكابوس (1808-1813م) رغم أنه اضطهد الدقاوية، إلا أن هناك من يقول أنه انظم للطريقة الدقاوية بطريقة سرية، وتحالف مع السلطان المغربي مولاي إسماعيل وإسبانيا ضد السلطة العثمانية بالجزائر، حيث طلب منهم تزويده بالذخيرة والبارود وواعدا إياهم بامتيازات اقتصادية حال تحقق مشروعه لكنه فشل،⁽⁴⁾ وألقي عليه القبض من طرف الباي قارة بغلي (1812-1817م) الذي أمر الآغا عمر بقتله، فقام هذا الأخير بسلخ جلد رأسه حيا وحشاه بالقطن وأرسله إلى مدينة الجزائر ليعلق، كما قتل كل أبناءه وهم صغار وهذا كان سنة 1225هـ/1812م.⁽⁵⁾ وحسب "بودان" Bodin فإن انضمام الحكام للطرق الصوفية ليس إلا من أجل الحصول على الدعم ولمراقبتها.⁽⁶⁾

والملاحظ أيضا على الحكام أن منهم من كان يعتقد في الصوفية، ولا يحبذون الفقهاء بجانبهم لأنهم يجرون عليهم الأحكام الشرعية، ويراقبونهم، لأن بعضهم كان عيونا لسلطات اسطنبول على الباشوات بالجزائر.⁽⁷⁾ ويظهر اعتقاد الحكام في بركة الأولياء من خلال وثائق الحبس أو بناء المؤسسات الدينية، والتي تكون مقرونة بطلب النفع ببركة الولي، مثال ذلك ما جاء في

(1) - محمد الشويهد، المصدر السابق، ص 130. - سعد الله، أربع رسائل، ص 16. - سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 49.

(2) - سعد الله، تجارب في الرحلة...، ص 49.

(3) - محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 113. - يحي بوعزيز، موضوعات...، ص 136.

(4) - مولاي بلحميسي، الثورة على الأتراك، ص 46.

(5) - مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح وت، رابح بوثر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م، ص 28 و ص 103، 104.

(6) - Bodin (M), Note sur sidi M'hammed ben chaâ, p38.

(7) - سعد الله، أبحاث وآراء، ج 3، ص 196.

وثيقة تحبیس علی ضریح عبد الرحمن الثعالبي «وفقا علی ضریح الولي الصالح القطب الرباني سيدي عبد الرحمن الثعالبي، نفعنا الله ببركته.... آمين».⁽¹⁾

فاعتقاد الحكام في أقطاب السلطة الروحية جعلهم يتبركون بهم، مثل الباي محمد الكبير الذي قدم مالا كثيرا للطلبة تبركا بهم، وهذا بعدما تم إخراجهم من المدينة عندما اشتكى أهل وهران منهم، لكنه أعادهم بعدما نصحه الآغا قدور بن إسماعيل البحتاوي بقوله: «يا سيدي لا يليق بك ولا بنا طرد الطلبة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، ويتكون كتابه وإنما اللائق أن من فعل ذنبا يستحق العقاب، وأن من اشتكى منهم ليس لديهم إثبات»، فأعادهم الباي إلى مقرهم الذي زارهم فيه ودفع لهم مالا كثيرا تبركا بهم، ونصحهم بالاشتغال بقراءة القرآن والكف عن أذية الناس.⁽²⁾

وقد بلغ اعتقاد الحكام في بركة الأولياء إلى حد الحرص على الدفن قرب أضرحتهم، وهذا لاعتقادهم بمشاركتهم الولي قداسته وبركته من خلال الدفن قربه،⁽³⁾ وهذا المعتقد كان سائدا عند الحكام والعامّة على حد سواء، من ذلك دفن الحاج أحمد باشا الذي قتل سنة 1109هـ/1697م يمين قبة سيدي عبد الرحمن الثعالبي،⁽⁴⁾ وإبراهيم باشا الذي توفي سنة 1122هـ/1720م دفن قرب ضريح سيدي الكتاني وسيدي يعقوب⁽⁵⁾ وقد كان ضريح الثعالبي أكثر الأضرحة التي حرص الحكام على الدفن قربه وهذا لما له من شهرة أو اعتقادا في بركته، حيث نجد أكثر الحكام دفنوا قربه، منهم الداوي علي خوجة سنة 1233هـ/1818م الذي دفن في ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بأمر من الداوي حسين باشا عندما تولى الحكم بعده،⁽⁶⁾ وقبله الداوي عمر الذي قتل سنة 1232هـ/1817م دفن بضريح عبد الرحمن الثعالبي، وإلى جواره يوجد قبر الداوي مصطفى باشا الذي قتل سنة 1220هـ/1808م،⁽⁷⁾ أما ضريح سيدي محمد بن عبد الرحمن بالحامة (بوقبرين) فقد دفن

(1) - س.م.ش، علبة 6/2 وثيقة 20.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص 296. - الزباني، دليل الحيران، ص 205.

(3) - هاينسريش فون مالتسان، المرجع السابق، ص 42.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 60.

(5) - نفسه، ص 96.

(6) - الزهار، المصدر السابق، ص 142. - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 266.

(7) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 326.

في قبته كل من سيدي عبد اللطيف ابن الباي حسان (1821/1827م)، آخر بايات وهران، وزوجة البيت المالكي بن صيام، والمرابط مصطفى بلكل.⁽¹⁾

لقد كان الاعتقاد في كرامات المرابطين أمرا راسخا لدى العثمانيين، ومرد ذلك إلى معتقدات حملوها من اسطنبول كما رأينا سابقا، وإلى خوفهم من غضبهم اعتقادا منهم أن دعاء المرابط يفقدهم سلطتهم أو يحفظها من الزوال،⁽²⁾ لهذا نجدهم يبجلون رجال الدين عامة خاصة المرابطين وزعماء الطرق الصوفية، ويؤمنون بمعتقداتهم التي تميل إلى الخرافة أكثر منها إلى المنطق، فقد بلغ الاعتقاد في المرابطين إلى حد يمكن أن يشكل خطورة عليهم منها ما ذكره "أبو القاسم سعد الله" أن أحد كبار الأتراك أراد الاستيلاء على الحكم، فاستشار أحد المرابطين الذي أمره بالتصدق بمبلغ مالي 50 دولارا ويذبح 04 كباش ويوزعها على الفقراء، ليكون النصر حليفه، وأعطاه برنسه اعتقادا منه أنه سيحميه، لكن لما وصل إلى قصر الباشا، ألقى عليه القبض وأعدم،⁽³⁾ ويذكر "بويي"، لحادثة وقعت لابنة أحد قناصل أوربا، الذي اشتكى للداي، اعتداء أحد المرابطين على ابنته، فرد عليه الداى أن هذا يعد شرفا لك لأن شخصا مثله تقرب من ابنتك.⁽⁴⁾

فالاعتقاد في كرامات الأولياء جعل الحكام لا يجروون على المساس بهم، وإن فعلوا وأظهر لهم المرابط كراماته تراجعوا ومنحوا ذلك المرابط امتيازات تكفيرا عن فعلتهم منها ما فعله الباي حسن بوكمية (1736/1713م) الذي حاول جباية الضرائب بالقوة من منطقة المرابط محمد بن علي من أولاد عبد النور بميلة، فأظهر له المرابط كراماته، مما أضر الباي إلى التراجع عن فعلته وأعفاه من الضرائب، وصاخره ومنح الحماية لزاويته.⁽⁵⁾

أما الباي حسين (بوحنك) فلم يكن يؤمن بكرامات المرابطين، ومرة استقر المرابط الشليحي، لكنه رأى أهوالا عظيمة حيث رأى نفسه جالسا على هواء عظيم والنار تشتعل من تحته، ومنذ ذلك اليوم أصبح يعتقد بكرامات الأولياء بعدما استغاث بالشيخ، فأعطى

(1)- Klein, Op, Cit, p195.

(2)- العيد مسعود، المرابطون والطرق.....، ص 22.

(3)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 469.

(4)- Boyer, La vie quotidienne..., p80.

(5)- Feraud, Le Sahara..., p204.

لهذا الأخير دارا عرفت بدار الشليحي وبنى له زاوية بأولاد عبد النور وأعفاه من الضرائب.^{(1)(*)}

كما يذكر لنا جولي "Joly" أن أحد بايات التيطري، أراد يوما استعمال القوة ضد المرباط سيدي محمد بن البخاري^(**) -المعاصر لسيدي أحمد بن يوسف الملياني وصديقه- وضد أتباعه لكنه أصيب بألم شديد وأنجب جروا وببضتين، وإيماننا منه بالمعجزة التي حدثت معه، حاول أن يبني له مسجدا والذي يكون ضريحا له فيما بعد، لكن كان كلما يقترب من الانتهاء من البناء يهوي كلية، لذلك استسلم الباي وغادر المنطقة، ليجد الناس أن البناء أعيد بناؤه لوحده دون أن يتدخل فيه أحد، من هنا سمي بالمرباط "بناي رحو".⁽²⁾ لكن تبقى هذه الحادثة مجرد خرافة وأسطورة لا يقبلها لا عقل ولا منطق.

إن اعتقاد العثمانيين عامة والحكام خاصة في الأولياء كان حتى عند من عرف منهم بميوله الثقافية، أو كان على مستوى من العلم والثقافة، فقد آمنوا بمعتقداتهم وأظهروا خوفا كبيرا من أن تلاحقهم لعنة المرباط، كصالح باي الذي وعلى الرغم مما قدمه من جهود للنهوض بالحياة الثقافية في عهده، إلا أنه لما قتل المرباط "محمد الغراب"^(***) خاف سوء طالع، فبنى له ضريحا وقبة جميلة،⁽³⁾ تكفيرا عن قتله واعترافا بكراماته، حتى أنه سمى البساتين التي طار إليها الغراب بجناين سيدي محمد الغراب،⁽⁴⁾ فصالح باي تطير منه نتيجة الاعتقاد السائد أن الأولياء لهم القدرة على إلحاق الأذى وتسليط غضبهم

(1) - ابن العطار، المصدر السابق، ص 61. - Boyer, Contribution..., p38.

(*) - وحتى ابنه "حسنونة" فإنه عندما التقى بالمرباط سيدي أحمد الزواوي قال للمرباط، «فوضت أمر لك، أنقذني من مكائد الأشرار» فرد عليه المرباط، «إثنان عليك اتقاهما، عليهما تتوقف سعادتك أو شقاؤك، لا تلبس البرنوس الأسود، وعند عودتك إلى سيدي المبروك (المنصورة) أدخله بقلب صاف حي، ولا تقدم على عمل في غير أوانه لتندم عليه لاحقا»، لكن ابن الباي بمجرد ما دخل إلى سيدي المبروك نسي موعظة المرباط، وعاد للشرب ومعاشرة النساء، ومرة شرب حتى الثمالة وركب فرسه، التي رمته في الواد لما ضربها لتسرع.

-Vayssettes, Histoire de Constantine, pp157, 158. -Vayssettes, Histoire des derniers beys, N°03, pp126, 128.

(**) - سيدي محمد بن الصديق والد البخاري والده هو مؤسس قصر البخاري بالمدينة.

(2) - Joly (A), « Légende de sidi Ali Ben Malek », in R.A., N° 52, 1908, pp79, 80.

(***) - حسب الأسطورة فإنه بعد ما قطع الباي رأس الشيخ تحول إلى غراب وطار إلى سقف بيت صالح باي الذي اعتبر الأمر دليل شؤم للباي.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 220.

- Feraud, Le Sahara..., p157. - Mercier, Histoire de Constantine, p283.

(4) - فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة عهد صالح باي، ص 198، 199.

على كل من يهين حماهم،⁽¹⁾ لكن "فيرو" (Feraud) يشير في هذه الحادثة إلى أن صالح باي بنى قبة المرباط سعياً منه لإسكات أتباع الشيخ وليطفي غضبهم.⁽²⁾

فعلى الرغم من العداء الشديد الذي أظهره صالح باي أواخر عهده للمرابطين والطرق الصوفية، إلا أنه لما هاجم قبيلة مرابطي أولاد عبيد بالنامشة وأخذ منها (2000 جملاً)،⁽³⁾ ولما دعى عليه مرابط القبيلة، بزوال حكمه تشاءم من دعائه، وندم على ما أقدم عليه فأرسل إليه محاولاً إرضائه، لكن المرباط رفض وقال له: «أنّ ما قيل قد قيل وانتهى وأنه سيسترجع أملاكه في عهد ثالث باي بعده»،⁽⁴⁾ أما الباي محمد الكبير فرغم استنارته فإن اعتقاده كان قويا بالأولياء بحيث لما عزم على فتح وهران اطمئن قلبه بعدما بشره الأولياء بالنصر،⁽⁵⁾ حتى أنه قدم صدقة لضريح سيدي الهواري، وأرسل إلى كل الزوايا والأضرحة كسيدي الثعالبي سيدي أبي مدين، وسيدي أحمد بن يوسف الملياني، وسيدي محمد بن عودة، وسيدي عبد القادر الجيلاني، لجلب أعلام الأولياء، ليتحضر بها للقتال تبركا بها واستعانة بأهلها،⁽⁶⁾ ولما حان موعد الفتح نزل بموقع يدعى واد تليلات، لكن لما أخبره درويش بأن أسهل مكان لفتح المدينة هو موقع جنين مسكين، ارتحل الباي إلى هذا الموقع ليبدأ الفتح منه وقلبه مطمئن بالفتح.⁽⁷⁾

فهذه الأمثلة عن اعتقادات الحكام العثمانيين في الأولياء، تبين لنا أنهم لم يكونوا راسخي العقيدة، وأن إسلامهم طغت عليه عقائد مارسها الدراويش، غالباً ما تكون منافية للدين وحتى للأخلاق أحياناً، كما أنه يمكننا القول أن ما قدمه الحكام العثمانيون من امتيازات للسلطة الروحية يجعلنا نفسر الأمر على أنه راجع إلى:

- عقيدتهم الدينية المتجذرة والراسخة فيهم منذ كانوا باسطنبول.
- بالنظر إلى كونهم غرباء عن البلد التي وجدوا السلطة الروحية هي المسير الحقيقي للبلاد في أغلب المناطق، فإن تعاملهم معها ما هي إلا سياسة يقصدون من ورائها كسب الأهالي عن طريق كسب السلطة الروحية.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 271.

(2) - Feraud, Le Sahara..., p225.

(3) - Ibid..., p225. - Vayssettes, histoire de Constantine, p144.

(4) - Feraud, Ibid..., p225. - Trumelet, l'Algérie légendaire, pp249, 250. - Filali, Salah bay, p156.

- Mercier, Histoire de Constantine, pp284, 285.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 206.

(6) - نفسه، ص 275.

(7) - نفسه، ص 262.

وهناك من يرى أن حتى اهتمامهم الضئيل بالأمور الثقافية والدينية، كان نتيجة انعكاسها على الحكم والاستقرار الداخلي، وهذا نتيجة إدراكهم لمدى تأثير العلماء وخاصة المرابطين على العامة، لذلك سعوا إلى دعمهم والتقرب منهم للحصول على دعمهم أو على الأقل على حيادهم.⁽¹⁾

2- الامتيازات المادية/العون المادي:

حتى تبقى السلطة العثمانية أقطاب السلطة تحت سيطرتها، خاصة النافذين منهم منحت لهم عدة امتيازات مادية تمثلت في:

2-1- منح الإقطاعات (الأراضي) والإعفاء من الضرائب:

أ-منح الأراضي:

في إطار الامتيازات التي منحت لأقطاب السلطة الروحية وخاصة المرابطين بالمناطق الريفية، كان الحكام يمنحون أحيانا الأراضي بدل الأجور والترضيات،⁽²⁾ حيث تمنحهم إقطاع مقابل ضمان حرية المرور وجعلت منهم ممثلين للبايلك لدى الأهالي بالمناطق الجبلية، حيث يكون تمركزها بين القبائل الموالية والمستقلة فتمنح لها امتيازات على أي مكان تضمن فيه الموالاة للسلطة التركية.⁽³⁾

من هذه الامتيازات منح قطعة أرض للمرابط بن إسماعيل عم المرابط بلقاسم بن ميرة، المعاصر لأحمد بن يوسف الملياني من طرف القائد التركي بمليانة مكافئة له على علاجه، بعد مرض ألمَّ به لما وصل منطقة بئر أولاد خليفة.⁽⁴⁾ أما عائلة الفكون والتي كانت تتمتع بنفوذ كبير أدبي واقتصادي هي الأخرى كانت تتصرف في الأراضي التي تقيم عليها قبيلة أولاد جبارة، وكذلك أراضي عرفت "بمتاع عزل الجبل"، منحها لها البايات ولبعض شيوخ الزوايا والمرابطين المقيمين بقسنطينة كأولاد بن تشيكو وأولاد بشتارزي الذين كانوا في أول أمرهم ذوي نفوذ أدبي ومكانة علمية.⁽⁵⁾

هذا الامتياز لم يقتصر على عائلة الفكون فقط ، بل نجد كذلك الباي بوحناك قد منح قطعة أرض للمرابط الشيخ الشليحي بأولاد عبد النور، بعدما حدثت له كرامة مع

(1)- Bel (A), Histoire et historiens de l'Algérie, Alcan, paris, 1931, pp194, 195.

(2)- سعيدوني، أبحاث ودراسات... العهد العثماني، ص 117.

(3)- Saidouni, Op. Cit, p 399.

(4)- محمد بن اسماعيلي، المرجع السابق، ص 179.

(5)- فلة موساوي القشاعي، النظام الضريبي، ص 156.

الشيخ،⁽¹⁾ أما بمنطقة القبائل والتي كانت أكثر المناطق تمردا على السلطة التركية التي سعت بكل الوسائل لاستمالتها، منحت مرابط آيت إيراثن يدعى سيدي السكلاوي ملكية بسهل سيباو تمثلت في قطعة أرض ، نتيجة وساطته لتهدة القبائل بالمنطقة.⁽²⁾

إن هذا الإمتياز لم يكن يمنح لكل المرابطين، بل كان يمنح للفئة الأكثر تأثيرا ونفوذا، وهذا حتى تسهل للسلطة تسيير أمورها بالمنطقة، أوخوفا من تأليبها للأهالي ضدها، بسبب نفوذها الكبير مثال ذلك: منح الداوي مصطفى للشيخ محمد بن عبد الرحمن "بوقبرين" أرض واسعة بالحامة، بعدما ضاع صيته وكثر أتباعه⁽³⁾، فهذه الهبة التي منحت للشيخ كانت بدافع التخوف من نفوذه، خاصة بعدما لاحظ الحكام الإلتفاف الكبير حوله من طرف الإلتباع، خاصة حلف قشتولة الذي يعد أكبر حلف من القبائل معادي للسلطة، وقاموا كذلك بمنح شيوخ القادرية كذلك أراضي واسعة،⁽⁴⁾ وهذا نتيجة لانتشارها وكثرة أتباعها خاصة وأن أكبر مراكزها وزوايا كانت قريبة من المغرب الأقصى.

وقد كانت هذه الإقطاعات تمنح بواسطة فرمانات يصدرها الدايات أو حتى البايات أنفسهم، فنجد عام 1682م الداوي الحاج محمد (1671-1682م) منح للمرابطين سيدي محمد بن عبد القادر من آل مقران، والذي سار على نهج والده في التحالف مع الأتراك مقابل امتيازات، حيث منح له أراضي قبيلة برياشة، واعتبرت كحبوس له ولذريته ينتفع بزكاتها وضرائبها، لهذا تم سحب أي تدخل للإدارة التركية في القبيلة⁽⁵⁾ وهذا عن طريق مراسيم مثل "مرسوم 1093هـ/1682م، الذي جاء فيه: "أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد المولى الأعلى البركة السيد عبد القادر ابن المرحوم الولي القطب الناصح الشيخ البركة، سيدي محمد أمقران نفعا الله ببركاته وأفاض علينا، أنعمنا عليه بكافة عرش برياشة الذي هما على ثلاث فرقات، فرقة يقال لها أولاد عبد الله، والفرقة الثانية تسمى بيري، والفرقة الثالثة التي تجمع الجميع يقال لها برياشة، يكون الجميع زاوية من جميع زواياه، ويكون كلهم حبس عليه وعلى أعقاب أعقابه ينتفع بمقرهم وزكاتهم له ورفعنا عليه يد باي المحال هذه الناحية الشرقية، وعما لهم.

(1) - ابن العطار، المصدر السابق، ص 61.

(2) - Robin, La grande Kabylie..., p 29. - Mahé Alain, Op. Cit, p53.

(3) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 180.

(4) - Depont/Coppolani, Op. Cit, p 246.

(5) - Feraud, Histoire des villes..., Bougie, p201. - Feraud, Histoire De Bougie..., pp120, 121.

أصدره المعظم الأرفع مولانا الدولتلي الحاج محمد باشا، أواسط جمادى الثانية من عام 1093 هجري- جوان 1682م⁽¹⁾.

ثم جدد هذا الامتيازات في سنة 1107هـ/1695م من طرف الباي الحاج أحمد، ثم سنة 1109هـ/1697م من طرف حسين باشا،⁽²⁾ وقد حظيت هذه الأسرة بهذا الامتياز لتأثيرها الكبير على المنطقة وسيطرتها على عدة قبائل، لهذا نجد أن هذه الهبة كانت تجدد باستمرار عن طريق فرمانات إلى غاية 1702م، أضاف لها الداوي مصطفى أهشي أرض أخرى ببني مسعود كما جدد بموجب هذا المرسوم للمرابط سيدي عبد القادر بن سيدي محمد أمقران الإمتيازات التي كانت لوالده.⁽³⁾

وبهذا فمُنح الاقطاعات تعددت أسبابه كرد للجميل، أو اعترافا بكرامة المرابط أو خوفا من تمرده، وهذا الامتياز سمح بازدياد نفوذ ومكانة السلطة الروحية اقتصاديا خاصة الأسر والقبائل المرابطية.

ب- الإغفاء من الضرائب:

لقد كان إجراء الإغفاء من الضرائب يتم إما بدافع ضمان السلم في المنطقة ولضمان ولاء السكان، أو بدافع ضمان السير الحسن لعملية جباية الضرائب وتسليمها، لهذا لما فرضت السلطة الضرائب على سكان الجزائر أعفت منها المرابطين،⁽⁴⁾ مقابل توليهم جباية وجمع العشور لصالح البايك،⁽⁵⁾ كما سمحت لهم بإقامة ولائم الحضرات لجلب الأتباع تجنباً لحدوث اضطرابات قد تواجه السلطة فيقفون إلى جانبها، وهذا حماية لهم ولأنفسهم في نفس الوقت، لهذا فإن ما حصلت عليه عائلة الفكون خاصة ببايالك الشرق ليس استثناء، بل هو إستراتيجية من سياسة الأتراك مع رجال الدين.⁽⁶⁾

فالعثمانيين لما عقدوا علاقات مع أحمد بن يوسف الملياني تعهدوا بعدم المساس به وبأعقابه، وحتى بأتباعه خاصة المتعاونين معهم، لذلك منحوا لهم امتيازات متنوعة منها الإغفاء من الضرائب، كمحمد بن شعاعة تلميذ الملياني، الذي أعفوه من الضرائب ومنحوه جزء من جزية أهل الذمة وأوقفوا له أوقافا،⁽⁷⁾ وكذلك صديقه الشيخ محمد بن عبد

(1)- Feraud, Histoire des villes..., bougie, P123. -Feraud, Exploitations ... N12..., p 384,385

(2)- Feraud, Exploitations ... N12..., p 385, 386.

(3)- Boyer, Contribution..., p 30.

(4)- Bouabba, Op.Cit, p 47.

(5)- Saidouni, Op. Cit, p 302.

(6)- سعد الله، شيخ الإسلام....، ص 79.

(7)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص465.

الجبار المسعودي الفجيجي التلمساني الذي تعاون مع العثمانيين، وكانت تجمعهم معهم علاقة طيبة، لذلك أعفوه من الضرائب ووقفوا له أوقافا لزأويته.⁽¹⁾

فهذه الإعفاءات غالبا ما كانت على شكل فرمانات سواء من الباشوات أو البايات منها وثيقة مؤرخة بتاريخ 955هـ/1548م أعفى بموجبها باي التيطري "رجب باي الأشراف من كل الضرائب ومن أعمال السخرة،⁽²⁾ كما أشار "محمد بن اسماعيلي" إلى وجود وثيقة تم بموجبها إعفاء زاوية الشيخ بلقاسم بن ميرة من الضرائب، والاعتراف باستقلالهم وحرمتهم منها وثيقة مؤرخة بتاريخ أواخر شوال 1120هـ/1708م جاء فيها: "أننا انعما على حمال أولاد سيدي بلقاسم بن ميرة وحررناهم من جميع الوظائف السلطانية، والأوامر المخزنية قلت أم جلت ولا سبيل لأحد عليهم لا في القليل ولا في الكثير، وأوصينا لهم بالأمانة الكاملة والبراءة الشاملة، ولا يتدخل في شؤونهم أحد، ولا تنتهك حرمتهم ولا تخرق عليهم عادة ولا يقاسون بما يقاس به غيرهم...".⁽³⁾

كما يشير "أبو القاسم سعد الله" إلى وجود وثائق أخرى أعفيت بموجبها عدة عائلات مرابطية من دفع الضرائب كعائلة سيدي عيسى بن عبد المؤمن ومرابطي أولاد سيدي علي بن محمد الشريف⁽⁴⁾ وهذا وفق مراسيم صادرة من الباشوات، منها مرسوم صدر عن عبد الله حسين باشا سنة 1032هـ/1621م لصالح عائلة أولاد سيدي عيسى بن سيدي مومن، يثبت نسبهم الشريف، ويعفيهم من كل ضريبة، مع أمر موظفي البايلك والسكان باحترامهم، ليتم تجديد هذا الامتياز من طرف يوسف باشا سنة 1050-1640م،⁽⁵⁾ كما ذكرت وثيقتين تم إصدارهما من طرف حسين خوجة، ومحمد بكداش سنة 1118هـ وسنة 1119هـ-1707م، يسقطان فيها الضرائب على مرابطي أولاد سيدي عبد الوهاب بن سيدي الميهوب بجيجل، على الزيوت أو أي سلع غذائية يريدون بيعها، أي أنهما منحا لهم حرية التجارة دون دفع الرسوم الجمركية، والشيء نفسه كان لمرابطي أولاد سيدي العربي، أولاد سيدي التواتي، أولاد سيدي الجودي وأولاد سيدي قاسم بن أم هاني،⁽⁶⁾ لكن الملاحظ هو عدم ذكره لهذه الوثائق التي أشار إليها.

(1) - سيدهم، المرجع السابق، ص 20.

(2) - Federman/Aucapitaine, Op, Cit, N°11, p282 (marge).

(3) - محمد بن اسماعيلي، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط4، دار الهدى، ميلة، الجزائر، 2001م، ص100.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 470.

(5) - Feraud, histoire des villes ...Gigilli, p174. - Feraud, Epoque de l'établissement, p 195.

(6) - Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp175.

أما ببائك الغرب فقد ذكر "يحي بوعزيز" وثائق وجدت عند إمام الجامع الأعظم بتلمسان، وهو سليل العائلة المرابطية بن منصور، القاطنة بعين الحوت بتلمسان، حيث اطلعه على وثيقتين، الأولى بتاريخ 1107هـ/1696م، صادرة من طرف الداوي الحاج أحمد، والثانية بتاريخ 1124هـ/1712م أصدرها الداوي علي باشا بوصبع، وقد نصت الوثيقتين على اعفاء عائلة بن منصور من جميع المطالب المخزنية احتراماً لها، لكونها من الإشراف الأدارسة، وهذا الفرمان كان يجدد باستمرار، حيث جدد سنة 1712م كما رأينا وسنة 1718م.⁽¹⁾

ومن العلماء الذين تم إعفائهم من جميع المطالب المخزنية، العالم السيد محمد بن حواء التوجيني وكل أفراد عائلته، وفق مرسوم مؤرخ بسنة 1754م،⁽²⁾ ومن الوثائق التي تم العثور عليها وثيقة محررة عام 1235هـ-1822م من طرف الداوي حسين أعفى فيها بعض العلماء والمرابطين من المطالب المخزنية جاء فيها: "فقد اتفق أمرنا الرشيد... على أننا قد أنعمنا على السادات الأبرار، والعلماء الأخيار، الفقيه الأجل التقي الأفضل، التالي كتاب الله عز وجل سيدي محمد بن زينب، وسيدي العربي، وسيدي الهواري، وسيدي عابد، وكافة أولاد سيدي الحاج عبد الوهاب... وحررناهم، أي رفعنا عنهم أمر المطالب المخزنية قليلها وجليلها عليهم وعلى أعقابهم وأعقاب أعقابهم".⁽³⁾

بالإضافة إلى هذا نجد عدة عائلات وزوايا وأضرحة بقسنطينة أعفيت من دفع الضرائب كعائلة الفكون هي الأخرى أعفيت من جميع الضرائب وأعمال السخرة، وقد مس هذا الاجراء حتى خدمهم ومساعدتهم، الذين أعفوا من الضرائب،⁽⁴⁾ وزاوية سيدي عبد الرحمن الأخضر في بنطوس التي نصت الوثائق على ضرورة احترام الناس لعائلته ونسله، وكان هذا بختم بايات قسنطينة وقد نالت هذا الامتياز بعد 114 سنة من وفاة مؤسسها الأخضر،⁽⁵⁾ كما أن الباي حسين كلياني (بوكمية) (1713-1736م) هذا

(1) - بوعزيز، المساجد العتيقة، ص 172. ينظر الوثيقتين، ص 173، 175.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص 284.

(3) - المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات، المجموعة 3206 ملف 02، وثيقة رقم 52.

(4) - سعد الله، شيخ الإسلام....، ص 75.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 470.

الأخير عمل على ربط علاقات مع الزوايا والطرق الصوفية، فأعفاها من الضرائب وهذا مقابل ضمان تسليم الضرائب عينا أو نقدا، وكذلك تحقيق السلم في المنطقة.⁽¹⁾

وقد استمر هذا الإجراء في عهد من خلفه من البايات، ففي عهد الباي محمد المناماني (1822-1826م) أعفى عائلة أحمد بن بوزيد ببلزمة بالأوراس، ذات النفوذ الديني، سب وثيقة مؤرخة بتاريخ 1241هـ/1825م، جاء فيها: "...أننا أنعمنا على الفاضل الاجل... الشيخ إبراهيم وولديه سي محمد وسي أحمد والسيد محمد مراح وسي الطيب بن بوبيدي... وكافة إخوانه أولاد سي أحمد بن سعيد الشريف وجرنا لهم على مقتضى الأوامر التي بأيدينا المتضمنة تحريرهم من جميع المطالب المخزنية، والوظائف السلطانية.. "بحيث لا تنتهك حرمة ولا ينظم لهم عقاب ولا يقاسون بما يقاس به غيرهم بسبب من الأسباب ولا يطالبون بمغرم...".⁽²⁾ وتم تجديد هذا الامتياز سنة 1242هـ-1828م عهد الباي أحمد باي (1826-1837م) لأحفاد الشيخ إبراهيم بن السيد أحمد بن سعيد الشريف، محمد وإخوانه عبد القادر وحما بن محمد وابن عمهم إبراهيم بن أحمد.⁽³⁾ وبهذا فهذه الفرمانات تعطينا صورة واضحة، لنظرة البايك للمرابطين، خاصة العائلات المرابطية وتفسر لنا سبب قدرة السلطة العثمانية على بسط نفوذها على مناطق واسعة ولمدة زمنية طويلة.

و إن كان في الغالب إجراء الإعفاء من الضرائب يتم إما لضمان السلم أو لضمان تسليم الضرائب وجبايتها، فهناك من الحكام من قام بهذا الإجراء إيمانا بكرامات المرابطين مثلما فعل الباي بوحنك الذي بنى بيتا للمرابطين يدعى الشليحي عرف باسمه، كما بنى له زاوية، ومنحه أرضي بأولاد عبد النور وأعفاه من الضرائب، وهذا وحسب ما أورده "الطار" راجع إلى واقعة حدثت له مع المرابط بعدما كان لا يؤمن بكرامات الأولياء.⁽⁴⁾ كما منحت السلطة العثمانية هذا الامتياز لبعض الطرق الصوفية كالعيساوية، لأنها خدرت الأهالي بأفعالها،^(*) حيث وجدت 23 رسالة لدى العيساوية، صادرة من الدايات

(1)- Gaid, Chronique..., pp 29, 30.

(2)- ناصر الدين سعيدوني، "ثلاث رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال" التاريخ، ع07، 1979، ص52.

(3)- نفسه، ص54. ينظر الوثيقتين في، سعيدزني، ورفات، ص143، 144.

(4)- شعيب، المرجع السابق، ص 61.

(*)- تنسب للشيخ محمد بن عيسى، وهي فرع من الشاذلية، يعتمد أتباعها على تعذيب النفس بهدف التقرب من الله، ادعى شيوخا علاج المرضى، وتظاهروا بالحزن على الآخرين، واعتمدوا الصراخ والصراخ (الحضرة) حتى الإغماء واستعملوا نار والقيام بأشياء تسحر العين، كأكل الزجاج والأفاعي، وإدخال جزء من الجسم في النار..... للمزيد ينظر:

وبايات التيطري، تنص على إعفاء زواياها من الضرائب ومن حق التوزيع وتأمير باحترامها.⁽¹⁾

2-2- المناصب:

لقد حظي العلماء ورجال الدين بمكانة خاصة عند الحكام وعملا بمبدأ ترضيتهم أسندت لهم معظم المناصب البسيطة في الإدارة، ففي المدن يتم تعيين من بينهم القضاة والقائمين على المساجد والخوجات وسفراء، أما بالريف فقد أسند لهم دور الوساطة بين السلطة والأهالي، وأحيانا عينوا كجباة للضرائب لأنهم كانوا يمثلون قوة روحية وسياسية بالمنطقة لذلك اتخذ العثمانيون نحوهم سياسة أكثر شرعية، بحيث لم يرتبطوا بهم بروابط رسمية قد تهدد مصالحهم، بل أحاطوهم بالاحترام وأخذ الحيطة منهم، فمثلا بمنطقة القبائل كان المرابطون عبارة عن وسائل مساعدة خاصة ضد الطرق التي كانت تنتشر أفكارها عند أعداء الإيالة.⁽²⁾ ومن المناصب التي منحت لأقطاب السلطة الروحية نذكر:

أ- جباية الضرائب:

قام الحكام العثمانيون بتعيين المرابطين كجباة للضرائب أو ممثلين رسميين للبايلك، وهو ما حدث خاصة في منطقة القبائل،⁽³⁾ أين كان الحكام يطلبون من المرابطين مساعدة الجند في عملية الجباية، ففي عهد الباي أحمد القلي باي قسنطينة، كلف "الحسن الورثياني"، بمساعدة الجند في عملية جباية العشور،⁽⁴⁾ وأحيانا يكلف الحكام المرابطين شخصا بجبايتها، وهذا من خلال ربطهم لعلاقات مع أشهر العائلات المرابطة النافذة كأولاد سيدي شريف أمزيان بإيمولا، بني علي شريف بشلاطة، وأحفاد سيدي محمد أمقران بجباية، الذين أصبحوا جباة للضرائب، التي كان يطلق عليها تسمية "لزمة مرابطي بجاية" أو شمعة مرابطي بجاية،⁽⁵⁾ أما بمنطقة الزواوة وتحديدًا بقبيلة نزليوة،^(*) التي كانت من بين القبائل التي اعتمدت عليها السلطة المركزية، كان مرابطي تازروت التابعين لنزليوة يتكفلون بجمع الضرائب بها،⁽⁶⁾ كما أن الباي محمد الذباح ولكي يستميل مرابطي أولاد

Rinn, Marabouts... pp303, 334. - Depont/Coppolani, Op. Cit, pp349, 354.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص 83.

(2) - Gsell, Op. Cit, p 175.

(3) - Boyer, Contribution ... , p29. - Merad Boudia, Op. Cit, p342.

(4) - الورثياني، المصدر السابق، ص، ص75.

(5) - Boyer, Ibid, pp 30, 31.

(*) - للمزيد حول هذه القبيلة ينظر: Guin, "Note historique sur Nezlioua" in **R.A.**, N06, 1862, pp424, 428.

(6) - أرزقي شويتام، إمارة كوكو...، ص23

سيدي علي أو موسى ذوي النفوذ الكبير بالمنطقة، فوّض لهم مهمة جمع الضرائب،⁽¹⁾ في حين منح العثمانيون للأسرة المرابطية بن ناصر بخنقة سيدي ناجي حق جباية الضرائب على الزاب الشرقي وجبل ششار.⁽²⁾

وكذلك بالنسبة لعائلة آل الفكون التي كان لها حق الإشراف على الضرائب المجباة على سوق الفواكه والخضر لصالح الجامع الأعظم، الذي منحها إياه سابقا كل من فرحات باي ورجب باي وجدد لها، وفق مرسوم أصدره مراد باشا سنة 1060هـ/1650م.⁽³⁾ أما ببايلك الغرب، وبالمنطقة الواقعة بين واد مينا وواد الشلف، كانت العائلة المرابطية "أولاد سيدي بوعبد الله"، سندا للبايات في حروبهم مع الاسبان في وهران وتقوم بجباية الضرائب لصالح البايك من القبائل المجاورة لها.⁽⁴⁾

وهذا كله كان يتم بموجب مراسيم تمنحها السلطة لهم، بسبب تأثيرهم الواسع ونفوذهم الكبير لدى السكان.⁽⁵⁾ كما أن هذه المراسيم كانت تجدد باستمرار حتى يضمن الحكام من خلالها الأمن في تلك المناطق، وفي مقابل هذا استفاد المرابطون ماديا من هذه الامتيازات، الأمر الذي أدى ببعض من المرابطين إلى طلب هذا الامتياز والذي يعود بالفائدة عليهم، مثلما فعل مرابطي أولاد سيدي محمد بلحاج "بإمدوكان"، الذين عملوا على استقطاب عدد كبير من القبائل المرابطية إلى صفهم، بعدها طلبوا ترخيصا من السلطة المركزية لجمع الضرائب، وقد منحهم هذا الامتياز سنة 1711م بموجب تفويض رسمي حصلوا بموجبه كذلك على حق قيادة هذه القبائل، ثم أوكلت لهم سنة 1748م مهمة جمع ضرائب أولاد زيان والصحاري.⁽⁶⁾

من هنا أذعن الكثير من المرابطين لهذه السياسة، وأصبحوا على توافق مع السلطة وتطوعوا حتى لإقناع القبائل بدفع الضرائب،⁽⁷⁾ ومرافقتها في حملاتها الجبائية،⁽⁸⁾ وإحاطتها بكل ما يجري في الأرياف المعادية للسلطة المركزية.

(1)- Robin (N.J.), "Le bey Mohamed Ben Ali ED-DEBBAH" in **R.A** N°17, 1873, p361.

(2)- معاشي، المرجع السابق، ص96.

(3)- Vayssette, Histoire de Constantine, p85.

- ينظر المرسوم في: - سعد الله، شيخ الإسلام، ص47 و226. - Mercier (E), Constantine au XVI^e, p25,26.

(4)- Rinn, Le Royaume...p37.

(5)- خنوف، المرجع السابق، ص10.

(6)- Babes (L.), Op. Cit, p 14.

(7)- Saidouni, Op.Cit, p397.

(8)- Babes, Op.Cit, p17.

ب- إمارة ركب الحج:

كان ركب الحج يخرج من جميع أنحاء الايالة كغابة، قسنطينة، تلمسان، وهران، معسكر... ليجتمع بعدها في ركب واحد، مشكلا قافلة كبيرة عرفها "بلحميسي" على أنها عبارة عن مدينة متنقلة بنظام، يشرف على سيرها وأمنها أمير ركب يساعد الإمام والقاضي⁽¹⁾، وإمارة ركب الحج لا تعطى إلا لمن توفرت فيه شروط: كالتبحر في العلم والاستقامة، فهو ممثل بلاده وعلمائها ولأنه يجتمع مع غيره من العلماء للمناظرة وتبادل الإجازات، لهذا فمهمته تتمحور حول الإفادة والاستفادة⁽²⁾. ويتم تعيينه من الباشا في الغالب عن طريق مراسيم، كما سنرى لاحقا، وينطلق من مدينة الجزائر بعد ضرب الطبل، حيث يشير "الورثياني" إلى هذا بقوله: "أنا سمعنا أن الشيخ الفاضل... شيخ الركب سيدي المسعود نجل الشيخ البركة سيدي الموهوب... قد ضرب طبله في المدينة المحروسة الجزائر على عادة الأمراء في ذلك"⁽³⁾، وكان هذا الركب يحمل معه سنويا ما يعرف "بالصرة" وهي عبارة عن كمية هائلة من الذهب والفضة والألبسة وغيرها لفقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين، فإمارة ركب الحج كانت قضية تتدخل فيها السياسة والعلم والدين⁽⁴⁾، فقد كانت تمثل الوجه السياسي والديني للجزائر في العالم الإسلامي.

تولى إمارة ركب الحج عدة شخصيات من أسر علمية ومرابطية بارزة أشهرها عائلة عبد المؤمن التي تولت هذه الوظيفة منذ العهد الحفصي، ويبدو أنها استمرت فيها إلى غاية الوجود العثماني بالجزائر، حسبما يشير إليه الفكون، في كتابه أن محمد بن عبد المؤمن كان أميرا لركب الحج في وقته، عند حديثه عن محمد الفقيه الزواوي الذي أراد الحج ثانية "فأنعم له بحمله له حبيبنا محمد حفيد الشيخ عبد المؤمن"⁽⁵⁾ أي بعد حوالي قرن من الوجود العثماني⁽⁶⁾.

(1) - بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص 25.

(2) - المهدي البوعبدلي، عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988-1073هـ) والتعريف بتأليه منشور الهداية في كشف

من ادعى العلم والولاية، الأصالة، ع 51، 1977، الجزائر، ص 15.

(3) - الورثياني، المصدر السابق، ص 05.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 239.

(5) - الفكون، منشور الهداية...، ص 102.

(6) - سعد الله، شيخ الإسلام...، ص 49.

أما عائلة سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وبعد تعاونها مع العثمانيين واعترافا بمكانتها وبما قدمته للعثمانيين، نجد خير الدين بربروس استقبل محمد بن مزروقة بكري الملياني بحفاوة وأكرمه، وقدم له المال ونصبه خليفة لأبيه، وأمير ركب الحجاج، كما حمل الصرة إلى الحرمين التي ظلت في ذريته الذين استوطنوا وادي الحامول بنواحي المدية.⁽¹⁾ ثم تردد اسم العائلة في القرن 17م على لسان "العايشي" في رحلته سنة (1661/1663م) "وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان حفيد سيد أحمد بن يوسف الملياني وهو رجل لين وليست له عصبية قوية..."⁽²⁾ بعده تولى بوطيبة بوزيان قيادة الركب سنة 1122هـ-1710م حيث حمل معه صرة فيها 1500 سلطاني،⁽³⁾ أما سنة 1153هـ-1740م فنجد أحمد بن الطيب الذي ذكره "الورثياني" في رحلته لما دخل خنقة سيدي ناجي بقوله: "كنت دخلت الخنقة في الحجة الأولى مع أمير ركب الحجاج سيدي أحمد بن الطيب نجل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف"، كما يذكره في موضع آخر تحت اسم أحمد بن طيبة "فأتى الله بولد سيدي أحمد بن يوسف وهو سيدي أحمد بن طيبة فذهب الركب معه..."⁽⁴⁾ في حين وحسب إحدى الوثائق نجد ذكر اسم بوطيبة اللمداني^(*) الذي تولى سنة 1172هـ/1758م،⁽⁵⁾ ليخلفه على إمارة ركب الحج الحاج محمد بن عبد الواحد الخلافي سنة 1175هـ/1762م.⁽⁶⁾

أما أسرة الفكون والتي توارثت العلم والمجد لقرون بقسنطينة، وبعد مساعدتها العثمانيين لدخول قسنطينة، الذين منحوا لعبد الكريم بن الفكون الجد مشيخة الإسلام، وإمارة ركب الحج بعد مقتل الشيخ عبد المؤمن سنة 1572م، على حسب ما ذكره "بن العطار" "... وصار يمشي بالركب كما كان للشيخ سيدي عبد المؤمن وجعلوا له حرمة عظيمة لا يتعدى أحد على حرمة..."⁽⁷⁾ لكن ما لاحظناه أن عبد الكريم الفكون الحفيد لم يذكر ذلك في مؤلفه.

(1)- Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed, p183.

محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص 105.

(2)- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 403.

(3)- Devoulx (A), Notice sur les corporations religieuses, p15.

(4)- الورثياني، المصدر السابق، ص 107 و292.

(*)- نسبة إلى المدية، لأن أحفاد الملياني استقروا بواد الحامول بالمدية كما رأينا سابقا.

(5)- غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 251.

(6)- س.م.ش، علبة 34 وثيقة 10. ينظر الملاحق. Devoulx (A), Notice sur les corporations religieuses, p16.

(7)- ابن العطار، المصدر السابق، ص 58. Mercier (E), Constantine au XVIe, p11.

لما تولت عائلة الفكون مشيخة الإسلام وقيادة ركب الحج، منح لها الحق الكامل في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة ماديا قدر الإمكان من هذه المهمة، كما تولت إدارة أوقاف الجامع الكبير بدون مراقبة لها، مع إعفاء جميع أملاكها من الضرائب سواء بالمدينة أو بالريف، ومن أعمال السخرة وحق دخول المدينة والخروج منها، والاستفادة من حق المكس على سوق الفواكه والخضر، ومن عشر الزرابي والخشب الموجه من الأوراس، وحتى خدمها استفادوا من هذه الإجراءات.⁽¹⁾

وأشار " أبو القاسم سعد الله" إلى أن عبد الكريم الحفيد تولى إمارة ركب الحج بعد وفاة والده سنة 1045هـ/1635م، ليتولى إمارة الركب سنة 1046هـ و1047هـ،⁽²⁾ ثم جددت له إمارة الركب بموجب مرسوم مؤرخ أوائل 1048هـ/1638م صادر من علي باشا بتسميته أميراً لركب الحج،⁽³⁾ جاء فيه: "ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم فان الشيخ... سيدي عبد الكريم الفكون جددنا له على مقتضى ما بيده من الأوامر... وأذن له أن يضرب الطبل ويتوجه بالمسلمين كما كان ويكون رقاص^(*) الرسول (ص)...".⁽⁴⁾ ثم ذكر بكونه أمير ركب الحج في مرسوم صدر عن مراد باشا أوائل شوال 1060هـ/1650م والذي جدد له فيه امتياز حق الأسرة على سوق الفواكه، الذي منحه لها الباي فرحات ورجب باي، جاء فيه: "...أما بعد إن الفقيه الأجل أمير ركب المسلمين ورقاص رسول رب العالمين سيدي عبد الكريم الفكون...".⁽⁵⁾ وبقي يتولى المنصب، رغم كبر سنه إلى غاية وفاته سنة 1073هـ-1662م.⁽⁶⁾

وفي سنة 1075هـ/1664م جدد منصب إمارة ركب الحج لابنه محمد بن عبد الكريم الفكون من طرف مصطفى آغا المنصورة: "فإن حامله المعظم الفقيه... أمير ركب المسلمين ورقاص رسول رب العالمين جددنا له أن يكون أمير مرضيا... على ركب

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 521.. - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 75، 76.

(2) - سعد الله، شيخ الإسلام...، ص 182.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 520.

(*) - رقاص، تعني حامل الهدايا والبريد.

(4) - سعد الله، شيخ الإسلام...، ص 225، 226. - Mercier (E), Constantine au XVI^e, p17, 18.

(5) - نفسه، ص 226، 227. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p85.

- Mercier, Constantine au XVI^e..., pp24,25.

(6) - العياشي، المصدر السابق، ج2، ص 514.

المسلمين ورقاص رسول رب العالمين...⁽¹⁾، وهو الذي التقى به "العايشي" في طرابلس حيث قال عنه: "ومما لقيته بطرابلس الفقيه... سيدي محمد بن العلامة... الجامع بين علم الباطن والظاهر سيدي عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني قدمها حاجا وهو امير ركب الجزائر وقسنطينة وتلك النواحي على نهج أبيه وعادته في ذلك... ولم يطلع أميرا إلا في هذه السنة، وقبل ذلك إنما كان يطلع بالركب والده..⁽²⁾ قد استمرت إمارة ركب الحج في العائلة إلى غاية نهاية العهد العثماني حسب ما يوضحه مرسوم مؤرخ بسنة 1242هـ/1826م صادر عن الباي أحمد.⁽³⁾

ومن الأسر التي تداولت على إمارة ركب الحج أسرة سيدي محمد الحاج، وهي من الأسر المرابطية التي ترجم لها الفكون، والقاطنة بامدوكال قرب بريكة،⁽⁴⁾ وممن تولى من أفرادها إمارة الركب، الشيخ محمد بن محمد بن المسعود الذي قال عنه "العايشي" في طريق عودته من الحج سنة 1065هـ/1654م: "وأمر ذلك الركب سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد سدوكال (امدوكال)، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف"،⁽⁵⁾ وهذا يعني أن والده أيضا كان أميرا لركب الحج.

ثم نجد "دوفو" يشير إلى الشيخ الموهوب بن محمد الحاج، وأنه صاحب امدوكال، وهذا يعني أنه ينتمي لنفس العائلة، وقد تولى إمارة الركب سنة 1119هـ/1707م، حيث حمل معه 1500 سلطاني هدية للحرمين، أما سنة 1125هـ/1713م حمل معه الصرة بها 1000 سلطاني،⁽⁶⁾ ليتكرر ذكر اسم آخر من العائلة وهو سيدي محمد المسعود، الذي ذكره "الورثاني" في رحلته للحج سنة 1166هـ/1725م في أكثر من موضع "وصلنا قرية امدوكال التي كان أمير الركب منها، وهو سيدي محمد المسعود نجل سيدي الموهوب" وكذلك ذكره عند حديثه على الركب الجزائري وقوته لكن وقع خلاف فيه بسبب

(1) - سعد الله، شيخ الإسلام...، ص 228، 230.

(2) - العياشي، المصدر السابق، ج 2، ص 514.

(3) - Mercier, Constantine au XVI^e, pp26, 29.

(4) - الفكون، منشور الهداية، ص 142.

(5) - العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 133.

(6) - Devoulx (A), Notice sur les corporations religieuses, p15.

"أن الشيخ سيدي محمد المسعود نجل الشيخ سيدي الموهوب نجل البركة سيدي محمد الحاج سهل الحكم يترك الناس على هواهم".⁽¹⁾

فمن خلال تولي أشهر العائلات لإمارة الركب، نستنتج أن الخروج في الركب كان بالتداول، أي أن كل عام يرسل أمير للركب، لأنه يستحيل أن يخرج في سنوات متتالية خاصة إذا علمنا أن المدة الزمنية بين خروج الركب وعودته تستغرق في الغالب سنة، إلا في حالة عبد الكريم الفكون الحفيد كما رأينا.

ج- أقطاب السلطة الروحية مفاوضين ومبعوثين (السفارة):

❖ أقطاب السلطة الروحية مفاوضين:

لم يقتصر دور أقطاب السلطة الروحية على القيام ببعض المهام الداخلية التي أوكلتها لها السلطة الحاكمة، فأشهرهم وذوي النفوذ القوي أوكلت لهم مهمات سياسية خارجية، حيث غالبا ما كانوا يرسلون كمبعوثين ومفاوضين سياسيين عند نشوب الحروب،⁽²⁾ خاصة بين الجزائر والمغرب، وهذا منذ بداية التواجد العثماني بالجزائر، من ذلك السفارة التي أرسلها الحسن بن خيرالدين، للمغرب وعلى رأسها الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي،⁽³⁾ لمرتين واحدة سنة أواخر 959هـ-1552م والثانية سنة 961هـ-1553م،⁽⁴⁾ من أجل تسوية مشكل الحدود بين البلدين، بعد غزو السلطان المغربي أبي عبد الله الشيخ لتلمسان، ورغم الحفاوة الكبيرة التي لقيها من طرفه، إلا أنه لم ينجح في مسعاه.⁽⁵⁾

أما سنة 1064هـ/1654م عندما غزى المولى محمد الشريف، صاحب سلجماصة تلمسان ووجدة، أرسل عثمان باشا له رسالة عتاب على غزوه تلمسان وتآليه الأعراب بها وبالأغواط، وندرومة وغيرها من المناطق ضد العثمانيين، مع قائدين تركيين وعالمين هما الحاج محمد بن علي الحضري المزغنائي كاتب الرسالة والفقير سيدي عبد الله بن عبد الغفار النفزي،⁽⁶⁾ مما جاء فيها: "... فخرقت على الإيالة العثمانية جلباب صونها

(1) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 05، 85، 447، 448، 456.

(2) - Filali, sainteté..., p127.

(3) - Ibid, p 126.

(4) - الحفناوي، المرجع السابق، ص483. - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص337.

Boyer, Contibution, p17.

(5) - السلاوي، المصدر السابق، ج5، ص27.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص192، 193. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص136.

الجديد... فشوشت علينا أخلاق الأعراب وتعوقوا علينا... وقد شيعنا نحوك أربعة أصحاب تسر بمحالتهم الخواطر والرحاب الفقيه الوجيه عبد الله النفزي والفقيه الأبر الحاج محمد بن عبد الله الحضري المزغنائي المغراوي واثنين من أركان ديواننا..."⁽¹⁾ وقد انتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد معاهدة التافنة سنة 1654م، التي رسمت الحدود بين الطرفين، ونلمس هذا من خلال ما قاله المولى محمد الشريف للوفد: "واني أعطيك ذمة الله ورسوله لا قطعت واد تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله"، وكتب لهم كتابا بذلك والتزم بوعده، هذا الوضع حتى عهد أخيه الرشيد.⁽²⁾ لكن بعد وفاة هذا الأخير سنة 1672م وتولي مولاي إسماعيل الحكم رجع معه الخلاف بين الطرفين.

في حين، وفي عام 1104هـ/1692م لما أعلن السلطان المغربي مولاي إسماعيل الحرب على الجزائر عهد الداوي شعبان الذي كان منشغلا بالحرب ضد فرنسا، ولما علم بزحف الجيش المغربي جهز جيشا وزحف به حتى وصل إلى مدينة فاس، وكاد أن يحدث صدام لولا تدخل علماء الطرفين، هنا طلب السلطان المغربي الأمان والعفو، فأرسل ابنه عبد الملك ومعه وفد ضم كاتبه والمفتي لعقد الصلح، وقد كان أول من استقبله بالجزائر المرابطين وهذا قبل توجهه إلى الديوان، ولما تم الصلح بينهما باركه المرابطون.⁽³⁾ أما في بايلك الشرق، فقد كانت النزاعات والصراعات دائمة بينها وبين تونس، وكان للعلماء والمرابطين دورا بارزا في الصلح بين الطرفين، حيث نجد مرابطي عائلة بن ناصر بخنفة سيدي ناجي، لعبوا دورا هاما في استقرار العلاقات بين تونس وقسنطينة،⁽⁴⁾ فقد اعتمد عليها البايات للتفاوض مع تونس خلال الأزمات، الأمر الذي نالت به احترام العثمانيين، ووسعت نفوذها وضاعفت امتيازاتها، التي كانت تحصل عليها عن طريق فرمانات تجدد لها باستمرار،⁽⁵⁾ خاصة عهد شيخها محمد بن محمد الطيب الخنقي الذي عرفت زاوية العائلة في عهده نشاطا علميا ودينيا وسياسيا، لما اعتمد عليه بايات قسنطينة

(1) - السلاوي، المصدر السابق، ج7، ص 22، 25. (ينظر الرسالة كاملة)

(2) - نفسه، ص27.

(3) - مولاي بلحميسي، "إرشاد الحيران في أمر الداوي شعبان"، دراسات تاريخية، ع2، 1986، الجزائر، ص 49، 50.

-Devoulx, Tachrifat, p09. — Filali, sainteté..., p127.

(4) - Babes, Op. Cit, p18.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 96.

كوسيط للصلح مع تونس، فنال احترامهم وسعوا لكسب وده عن طريق مراسيم تلقاها من كل من الباي أحمد، الداوي مصطفى والداوي حسين.⁽¹⁾

ومن الخلافات التي حدثت بين الجزائر وتونس، وتم الصلح بينهما بتدخل العلماء والمرابطين، الصراع الجزائري التونسي سنة 1037هـ/1627م حيث تدخل من الجانب الجزائري مجموعة من العلماء والأعيان لم يذكر منهم إلا الشيخ أبو العباس أحمد المدعو ابن الحاجة،(*) ومن الجانب التونسي مجموعة من العلماء منهم، محمد العامري، علي الشرقي، محمد الأندلسي، وتاج العارفين البكري والشيخ إبراهيم الغرياني وغيرهم، وقد ورد ذكر هذا الصلح في مراسلات تاج العارفين وإبراهيم الغرياني للفكون.⁽²⁾ أما سنة 1816م، لما أراد الداوي علي باشا (1809/1816م) عقد الصلح مع تونس أرسل إليهم الحاج يوسف من كبار الترك والعلامة الشيخ علي بن النيقرو والباش كاتب وقد وفقوا في مسعاهم.⁽³⁾

إن اعتماد السلطة في التفاوض مع الخصوم على أقطاب السلطة الروحية، حتى عند أسر السفن من طرف النصارى كانت توكل مهمة التفاوض للكتاب الثالث من أجل تحريرها، وقد كانت تدفع المبالغ التالية للسفينة الكبيرة التي لها ساريتين يدفع 50 بوجو (90 فرنكا) أما السفينة الصغيرة التي لها سارية واحدة يدفع 25 بوجو (45 فرنكا) من أجل استعادتها.⁽⁴⁾

❖ أقطاب السلطة الروحية سفراء ومبعوثين: لم يستعان بالعلماء كمفاوضين فقط بل كسفراء ومبعوثين، وممثلين للسلطة، ولعل أول سفارة للسلطة الروحية كانت لأبي العباس أحمد بن القاضي، الذي ترأس الوفد الذي أرسله خير الدين بربروس إلى السلطان سليم الأول، من أجل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، بعدها تلتها عدة سفارات خاصة الموجهة إلى اسطنبول، والتي غالبا ما كانت تضم مرابط محلي مشهور،⁽⁵⁾ فمثلا عهد

(1) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 358، 359.

(*) - ضم الوفد الجزائري مجموعة من العلماء، حسبما جاء في رسالة تاج العارفين للفكون بعد الصلح بين الجزائر وتونس "إن الفقيه..أبا العباس ابن الحاجة هو ومن معه من السادة الفقهاء والأعيان..". لكن المصادر لم تذكر أسماء هؤلاء الفقهاء. - الفكون، منشور الهداية، ص 217.

(2) - نفسه، ص 214. ينظر الرسالتين في نفس المصدر، ص 218، 220.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 138.

(4) - Devoulx, Tachriffat, p 47.

(5) - Boyer, contribution..., p17.

الباشا حسن فنيزيانو، ولما ضربت المجاعة الجزائر ما بين 1579-1580م، وبسبب تحالف سلطان فاس مع الاسبان ضد الجزائر، أرسل حسن باشا أحد المرابطين المشهورين ليقتعه بعدم التحالف مع المسيحيين ضده، ونتيجة لهذه الأوضاع أرسل الانكشارية وفدا فيه المرابط سيدي بوالطيب إلى اسطنبول، من أجل إرسال باشا جديد،⁽¹⁾ أما محمد القوجيلي والذي يعد من العلماء ممن لهم دخل في السياسة، نجده ذهب في سفارة إلى تونس سنة 1065هـ/1654، ولا أحد ذكر سببها، ثم قاد وفدا إلى اسطنبول ضم عددا من الأعيان والعلماء، من أجل تدخل السلطان وتعيين يوسف باشا بعدما ثار عليه خصومه.⁽²⁾

ولما انتصر المنصور الذهبي في معركة واد المخازن سنة 1578م، وصلته التهاني من كل حذب و صوب، حتى من السلطان العثماني مراد، لكنه لم يرد عليه فغضب السلطان من تصرف المنصور، ويثير من العلي أمر السلطان مراد بمحاربة المنصور، لكن هذا الأخير لما سمع بالأمر جهز جيشا وتوجه نحو فاس وأرسل هدية للسلطان،⁽³⁾ وفي نفس الوقت أرسل الانكشارية إلى السلطان رسائل مع المرابط سيدي بتقة يطلبون فيها عدم السماح للعلي بغزو فاس لأنه إذا تحقق له دخولها سيفصل عن الدولة العثمانية خاصة بعد ما ضم طرابلس.⁽⁴⁾

ومن أشهر العلماء المقربين والذين نالوا شرف السفارة، الفقيه محمد ابن العنابي^(*) الذي كلفه الداوي أحمد باشا (1805-1808م)، بالكتابة لباي تونس رغم وجود كتاب خاصين فيقول الزهار: "أن الباشا أمر الفقيه محمد بن العنابي قاضي الحنفية أن يكتب كتابا إلى محمود باشا"،⁽⁵⁾ وقد وعد الزهار بذكر الرسالة لكنه لم يفعل، كما فوضه الداوي عمر باشا (1815-1817م) في سفارة إلى السلطان المغربي مولاي سليمان، وهذا طلبا للمساعدة من أجل إعانتة عسكريا لتجديد جيشه وأسطوله البحري، وهذا بعد القصف

(1)- Heado, histoire des rois..., pp 178,179.

(2)- ابن عمار، أشعار جزائرية، ص 28.

(3)- الإفراني، المصدر السابق، ص 76، 78.

(4)- Haedo, histoire des rois..., pp 187.

(*)- هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين العنابي فقيه حنفي وقاضي وكاتب (1850/1775م) من أسرة مثقفة كان لها تأثير في السياسة. -عادل نويهض، المرجع السابق، ص 245.

(5)- الزهار، المصدر السابق، ص 97. - سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي

1850/1775، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976، ص 26.

الانجليزي لمدينة الجزائر عام 1816م،(*) وقد أورد "الزهار" هذا في مذكراته حيث قال: أن الباشا كتب إلى السلطان كتابا "بعثه مع السيد الحاج محمد بن العنابي قاضي السادة المالكية رسولا" وقد قدم له مولاي سليمان مركبين وأموالا من أجل الجهاد،⁽¹⁾ وبهذا يكون قد نجح في سفارته، وهو دليل على أنه كان عالما ودبلوماسيا ناجحا،⁽²⁾ بحيث تعد سفارته إلى المغرب من أشهر السفارات التي قام بها.⁽³⁾ ولنفس السبب أرسله الداوي عمر إلى اسطنبول عام 1817م.⁽⁴⁾

كما أن من أشهر العلماء الذين تولوا السفارة لدى الحكام العلامة أحمد بن هطال التلمساني الذي شغل عدة مناصب سياسية في بايلك الغرب حيث عمل كمستشار للباي محمد الكبير، وكتبه الخاص والمبعوث له في عدة قضايا، ومهام خارجية، حيث بعثه الباي عند فتحه لوهران رفقة قاضي المحلة ابن سحنون، مصحوبا بالهدايا للسلطان المغربي من أجل السماح لهم بشراء الأسلحة من الإنجليز وقد توجهوا الاثنان نحو جبل طارق حيث وجدا قنطارين من البارود، اشتراها الباي من الإنجليز⁽⁵⁾، وفي هذا الإطار يقول ابن سحنون: "ثم وجه لملك المغرب هدية مع قاضي محلته، وكتبه وهو الأديب الماهر محبنا السيد أحمد بن هطال أبقاه الله... أمرهما بشراء ما يجدانه يباع في ذلك وذهب كاتبه إلى جبل طارق فبقي مدة إلى أن رجع إليه بمائتي قنطار وخمسين من البارود"⁽⁶⁾، فابن هطال عمل مستشارا وكاتبا للباي، ومحارب ودبلوماسي.⁽⁷⁾

إن استعمال الحكام للعلماء في السفارة، والمفاوضات لم يكن لعدم وجود كفاءات في الجهاز الإداري خاصة في صفوف الإنكشارية والرياس، بل يعود لثقة الحكام الكبيرة

(*) - ينظر حول هذه الحملة التيميمي (ع.ج)، "منشورات تركية غير منشورة لضرب مدينة الجزائر 1816م" في R.O.M.M. N°05-(1968)، ص 115-133.

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 127.

(2) - سعد الله، رائد التجديد الإسلامي ص 33.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 398.

(4) - Devoulx, Tachrifat, p 78.

(5) - سعد الله، أبحاث وأراء...، ج 3، ص 198.

(6) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 247. - ابن هطال، المصدر السابق، ص 15، 16.

- شعيب، المرجع السابق، ص 177. - سعيدوني، من التراث التاريخي...، ص 448.

(7) - سعد الله، أبحاث وأراء...، ج 1، ص 358.

في العلماء ولثقافتهم وحنكتهم في تسيير الأمور، وربما هي وسيلة لتقريبهم منهم، وجعلهم تحت أنظارهم، خاصة ذوي الشهرة الواسعة.

بالإضافة إلى هذه الامتيازات، هناك من العلماء من أوكلت لهم مسؤولية نفقات الخزانة التي كانت توكل إلى الكتاب ذوي الكلمة المسموعة والنفوذ العلمي، ويرجع هذا إلى عدم ثقة النظام في الموظفين ذوي الصلاحيات المالية خشية حدوث تلاعب في ودائع الخزانة وحسابات الدولة،⁽¹⁾ فالباي محمد الكبير كان يكلف خواص العلماء بقسمة ما يرسله للمرابطين بالرباط،⁽²⁾ أما الباي إبراهيم الملياني ببابلك الغرب كان يكثر من مجالسة العلماء ويشتري لهم الجواري الحسان،⁽³⁾ والباي شاكركم محاربتة لبني عبيد كان يقدم الهدايا لزواوية سليمان المجذوب بقسنطينة.⁽⁴⁾

ومن أشهر الامتيازات التي منحها الحكام العثمانيون للعلماء كانت لعائلة الفكون التي دعمت نفوذهم بقسنطينة، حيث قدم لها الباي فرحات كل الصلاحيات،⁽⁵⁾ فحظي أفرادها بإدارة المدينة مع شيخ البلد عند خروج البايات في الحملات التأديبية أو حملات جباية الضرائب،^{(6)(*)} كما تولى أفراد عائلة الفكون إدارة حبوس مكة والمدينة بقسنطينة، بعدما كانت في يد عائلة ابن عبد المؤمن،⁽⁷⁾ وقد توارث أفرادها هذه الوظائف بمراسيم من الدايات موجهة إلى بايات قسنطينة، فجدد الداوي اسماعيل باشا أصدر مرسوما عام 1074هـ/1663م جدد فيه كل الامتيازات لصالح سيدي محمد بن عبد الكريم الفكون، كإمام وخطيب بالمسجد الكبير، ومتصرف في أوقافه وأمير ركب الحج.⁽⁸⁾

وفي نفس الإطار فإن عائلة آل مقران حظيت بعدة امتيازات، منها أن المرابط عبد القادر أمقران، الذي كان يحظى بقبول لدى الداوي، منحه هذا الأخير ختما يمنح بموجبه التراخيص لسكان بجاية لدخول السوق،⁽⁹⁾ وكذلك حماية مقر صنع السفن،⁽¹⁰⁾

(1) - سعيدوني، النظام المالي، ص 171.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 198.

(3) - الزباني، دليل الحيران، ص 197. - الحاج صادق، المرجع، ص 121.

(4) - Mercier, histoire de Constantine, p347.

(5) - Vayssettes, Histoire de Constantine..., p83.

(*) - حول هذا ينظر فلة موساوي القشاعي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني.

(6) - Mercier, Histoire de Constantine, p 312.

(7) - Vayssettes, Histoire des derniers Beys..., p118. - Kaddache, Op. Cit, p 149.

(8) - Vayssette, Histoire de Constantine..., p89. 47 و 226. سعد الله، شيخ الإسلام، ص 47 و 226.

- Mercier (E), Constantine au XVI^e, p21, 22.

(9) - Feraud, histoire de bougie, p122.

(10) - De Grammont, Op. Cit p237.

وهذا بعد ما لم يستطع البايك استغلال الغابات بمنطقة القبائل،⁽¹⁾ كقبائل بني ميمون وبني عمروش وبني فوغال ببجاية،⁽²⁾ حيث كان على كل غابة عامل يدير شؤونها، وغالبا ما يكون مرابط يخضع له عدة موظفين كشيخ "الكراسة"^(*) والخوجة،⁽³⁾ كما كان له في كل قبيلة غابية ممثلا "شيخ الكراسته"، ينوب عنه في تسيير الأمور، هذا المنصب سمح للمرابط بالإشراف على جمع ومراقبة توزيع الخشب، وحتى تحديد ثمنه.⁽⁴⁾

هذا الامتياز كان يمنح للمرابطين بموجب فرمانات يصدرها الدايات، كالفرمان الذي أصدره الداوي مصطفى (1700م-1705م)، وكان هذا عام 1114هـ / 1702م حيث فوض بموجبه أمر إدارة الأمور ببجاية للمرابط محمد شريف بن سيدي عبد القادر، مقام والده مع الانتفاع بخراج المنطقة مع حقه في الإشراف على "الكراسة"،⁽⁵⁾ في المناطق التي لم يصلها نفوذ البايك، كبني فوغال وبني ميمون وبني عمروش.⁽⁶⁾ وقد جدد من طرف الداوي محمد بكداش في السنوات التالية: 1705م-1710م-1713م ثم جدد سنة 1723م من طرف الداوي محمد باشا.⁽⁷⁾

لقد اشتهرت العائلة باستغلال الغابات ببجاية للحصول على الخشب الموجه للبحرية، خاصة فترة المرابط عبد القادر أمقران الذي اكتشف سنة 1740م خشب بني فوغال قرب جيجل والذي يعد أجود من خشب بجاية،⁽⁸⁾ وبما أن البحارة كانوا يفضلون خشب غابات بني فوغال جنوب جيجل عين الباشا المرابط "سي أحمد المكي بن عبد القادر أمقران"،⁽⁹⁾ لرعاية مصالح الأتراك بجيجل،⁽¹⁰⁾ وأوصى فيه الباشا علي الآغا والسكان والجند بالحامية بعدم التعرض له جاء فيه: "الحمد لله وحده ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم، والخطاب الواضح الجسيم من القواد والعمال الخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال خصوصا قرية جيجل. أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد الحاج أحمد المكي نجل القطب سيدي محمد أمقران نفعا الله ببركاته آمين أنعمنا عليه

(1)- Boyer, Contribution..., p 30.

(2)- Garrot, Op. Cit, P 589. – Kaddache, Op. Cit, p 43.

(*) – الكراسته، مكان صنع السفن.

(3)- Kaddache, Ibid, p 43.

(4)- Boyer, Contribution..., p 30.

(5)- Feraud, Histoire des villes... Bougie, p205. – Feraud, histoire de bougie, p123. – Feraud, L'exploitation des forêts..., N12, pp387, 388.

(6)- Feraud, histoire de bougie, p123.

(7)- Feraud, L'exploitation des forêts..., N12, pp3, 90.

(8)- Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp177.

(9)- Boyer, Contribution..., p 31.

(10)- Feraud, Histoire des villes... Bougie, P 206

وقدمناه مرابط بجيجل... ولا يتعدى عليه أحد من أهل النوبة، ولا من يكسر عليه حرمة ولوقوفه مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور ولطعمه للفقراء والمساكين.

كتب عن إذن المعظم الأرفع الدولاتلي السيد علي باشا أواسط شوال 1168هـ/1755م،⁽¹⁾ لذلك عمل هذا المرابط على إقامة علاقة مع شيوخ قبائل بني ميمون، بني عمرو، بني فوغال، وعين كل منهم شيخا للكرسة بمنطقته.⁽²⁾

وفي سنة 1165هـ/1751م، أصدر حسن باي مرسوما آخر أقر فيه للمرابط أحمد المكي كل الامتيازات السابقة التي كانت لعائلته، خاصة ما له علاقة بجلد النمر التي كانت تقدم غالبا كهدايا للباشوات أو لسلطان القسطنطينية، جاء فيه: "لابننا سي أحمد مرابط جيجل منحناه الاحترام... ونقره على كل ما كان قد حظي به من حقوق وامتيازات منحت له من قبل أسلافنا.. ونحمله خصوصا بكل من له علاقة بجلود النمر، حتى لا يتعاطاها أو يشتريها أحد غيره...".⁽³⁾

ومن المهام التي أوكلت لهذه العائلة كذلك، مهمة نقل رواتب الجند بالحامية بجيجل، حسبما يوضحه مرسوم صادر عن الباي أحمد القلي سنة 1170هـ/1756م، والذي يبدومن خلاله أنه أعاد أحمد المكي لمنصبه في تسيير الأمور بالكراسة ونقل رواتب الجند بعد سحبها من حفيده سي المهدي،⁽⁴⁾ وفي عهد صالح باي بعث القاضي بجيجل وهو سيدي عبد الرحمان الفرقاني لمساعدة عائلة آل مقران لضمان خدمة الحامية التركية، كما شغل كاتب آغا الحامية، وغالبا ما كان يمشي في مقدمة الحامية المتجهة من بجاية إلى جيجل،⁽⁵⁾ كما منح خلفاء المرابط سيد أحمد المكي عام 1821م مهمة مراقبة عملية تصدير الفحم الخشبي،⁽⁶⁾ ولهذا نجد الأسرة تقف إلى جانب السلطة سنة 1806م ضد أولاد دراج وأولاد عباد، أولاد إبراهيم، كما ساعدوها ضد ابن الأحرش.⁽⁷⁾

(1)- Feraud, L'exploitation des forets ...N13, p38. - Feraud, histoire des villes...Gigilli, pp178.

(2)- Feraud, L'exploitation des forets ...N13, p40.

(3)- Feraud, histoire des villes...Gigilli, p178.

(4)- Ibid, p181.

(5)- Ibid, p183.

(6)- Boyer, Contribution ..., p31.

(7)- Merad Boudia, Op.Cit, pp347, 348.

وبهذا فإن اعتماد الحكام على رجال الدين خاصة المرابطين منهم في مجالات غير متوقعة، كان نتيجة نفوذهم، ومكانتهم، من أجل الإبقاء عليهم تحت مراقبتهم، واستغلالهم في تقريب المناطق غير المراقبة أو المعادية لهم.

2-3- مساهمة الحكام في بناء المراكز الدينية والتعليمية والأوقاف:

بعدما شجع العثمانيون التصوف ورجاله وانحازوا إليهم، نجدهم شاركوا في بناء المساجد والزوايا والقباب والأضرحة والمزارات، وحبس الأوقاف لها وهو ما أثبتته الكثير من الوثائق التي أبرزت المشاركة السخية لرجال السلطة خاصة والعثمانيين عامة، بحيث أننا لا نكاد نجد حاكما بقي مدة في الحكم إلا وبنى مسجدا أو زاوية وحبس لها وقفا من ماله الخاص.⁽¹⁾

وقد اشتركوا حكاما وجنودا وكراغلة في إقامة هذه المؤسسات وتأمين الموارد لصيانتها والإنفاق عليها،⁽²⁾ وهذا بحسب ثرواتهم على المشاريع الدينية،⁽³⁾ في محاولة منهم للتقرب من السلطة الروحية، لذلك قاموا ببناء العديد من الزوايا والمساجد في المدن والقرى، وأوقفوا عليها أملاكهم اعتمادا منهم على منطق التضامن الإسلامي، وهذا دليل على محاولتهم خلق إطار وهيكل للتواصل مع الأهالي عن طريق السلطة الروحية.⁽⁴⁾ وبالرغم من اهتماماتهم الحربية، إلا أن عقيدتهم الدينية الراسخة في قلوبهم، تجلت في بنائهم المساجد والمدارس وحبس الأوقاف،⁽⁵⁾ واحترامهم للعلماء والمرابطين والأشراف، كجزء من عملهم لخدمة المجتمعات الإسلامية، لجلب موالاة الرعية أو ربما للشهرة.⁽⁶⁾

أ- مساهمة الحكام في بناء المراكز الدينية والتعليمية:

وبما أننا لا نكاد نجد حاكما بقي مدة طويلة نسبيا في الحكم، إلا وبنى مسجدا أو زاوية أو كتابا أو حبس وقفا على ما بناه، ولعل هذا يخالف ما قيل عن العثمانيين وعدم

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 233.

(2) - نفسه، ص 192.

(3) - جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 376.

(4) - قداش، المرجع السابق، ص 10، 11.

(5) - جوليان، تاريخ إفريقيا، ص 376. - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 211.

(6) - يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات، ص 21.

اهتمامهم بالثقافة والدين،⁽¹⁾ لكن حتى وإن اهتموا بأمور الدين والعلم فإن اهتمامهم كان يخضع للمبادرات الفردية، ولم يكن خاضعا لاهتمام السلطة بهياكلها وميزانيتها. وهذا الجدول يوضح لنا مدى مساهمة الحكام في بناء المساجد في مدينة الجزائر:⁽²⁾

المسجد	التأسيس	المؤسس	التجديد
جامع صفر	1534م	صفر بن عبد الله (مملوك خير الدين)	حسن باشا سنة 1791م ثم الداوي حسين سنة 1827م
مسجد الجنائز	1545م	حاجي باشا	/
مسجد خضر باشا	1596م	خضر باشا	/
مسجد علي بن تشين	1622م	علي بن تشين	/
مسجد ميزومورطو	1686م	حسين ميزومورطو	/
مسجد باب الجزيرة	1693م	الداوي شعبان خوجة	وسعه حسن باشا 1795م
مسجد عدي باشا	1725م	عدي باشا	أضاف له بكير باشا مدرسة سنة 1748م
مسجد علي باشا	1750م	علي باشا	/
مسجد خير الدين باشا (الشواش)	1520م	خير الدين باشا	/
جامع كتشاوة	1613م	/	جدده حسن باشا 94 / 1795م
مسجد القبائل	/		جدده علي بن تشين سنة 1620م
مسجد القصبة	1654م	/	جدده الداوي حسين سنة 1818م ⁽³⁾
مسجد محمد باشا	1782م	محمد باشا	/

الملاحظ من خلال الجدول أن أغلب المساجد التي بنيت بالجزائر شيدت بين القرنين 17 و 18م، حسبما يوضحه الجدول، وحتى إذا درسنا مسألة الأوقاف نجد أن عددها ارتفع في هذه الفترة، فمثلا أوقاف المسجد الكبير بلغ عددها ما بين عام 1601- 1650م 33 وقفا، ليرتفع عددها سنة 1700م إلى 48 حبسا وسنة 1800م 157 حبسا

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 233.

(2) - تم اعداد الجدول من خلال: Devoulx, les edifices religieuses. - Klein, feuillets d'el-djezaire....

(3) - م.ش، علبة 102/101 و 36

أما ما بين 1800 إلى 1841م بلغت 227 حبسا،⁽¹⁾ والإشكالية المطروحة في هذا السياق، هل هذا يعني أنه في المرحلة الأولى لم تكن السلطة العثمانية في حاجة إلى أسلوب الترضية نظرا لوجود عامل الجهاد الذي كان يجمع بينها وبين السلطة الروحية؟

لقد حرص الحكام على كسب ولاء السكان من خلال العناية بزوايا وأضرحة المرابطين المشهورين، مثل الشيخ أحمد الكبير الذي وصلت شهرته إلى خير الدين الذي قام بزيارته، بعدها شيد له مسجدا وحماما وفرنا، كانت النواة الأولى لمدينة البليدة،⁽²⁾ أما الداوي محمد بكداش فقد أسس زاوية الاشراف سنة 1121هـ/1709م،⁽³⁾ وبالمقابل حظي ضريح عبد الرحمن الثعالبي بعناية كبيرة من طرف الحكام، حيث تم تجديده عدة مرات، نظرا لشهرته الكبيرة، فكان أول تجديد لبنائه بعد 145 سنة من وفاة الثعالبي، علي يد الداوي مصطفى سنة 1611م، ثم سنة 1627م من طرف حسين باشا، ثم تم تجديده سنة 1696م و1730م من طرف كل من الداوي الحاج أحمد وعبيد باشا،⁽⁴⁾ وكسبا لاتباع هؤلاء المرابطين فإن الداوي مصطفى، أمر باعادة بناء مسجد وزاوية سيدي علي مبارك بالقلعة مباشرة بعد الزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1802م قبل بناء مساكن الأهالي، حيث قال لهم: "إنني أبني لأهل البلد ديارهم بعد الانتهاء من بناء المسجد والزاوية".⁽⁵⁾

أما يحي آغا فنجدته بنى قبة بوقبرين بالحامة بهدف التقرب من أتباعه بآث اسماعيل بجرجرة،⁽⁶⁾ إضافة إلى هذا هناك من عمل على تجديد المساجد كمحمد بن عثمان باشا الذي جدد مسجد السيدة،⁽⁷⁾ وحسن باشا صرف أموالا ضخمة لتجديد وتزيين مسجد كتشاوة،⁽⁸⁾ وغيره من الحكام الذين عملوا على صيانة وتجديد مراكز السلطة الروحية، كما سنراه لاحقا من خلال بعض الوثائق الخاصة بأوقاف الحكام.

أما بمنطقة القبائل فكثيراً ما عمد الحكام إلى تدعيم المؤسسات الدينية بالمنطقة حيث أنهم شيدوا عدة مراكز دينية وفاء منهم للمرابطين الذين ساعدوهم كالأغا بن

(1) - التميمي، وثيقة عن الأملاك، ص 19.

(2) - Trumelet, les saints de l'islam...pp239, 241. عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص 266.

(3) - Devoulx, les edifices, p164. - Devoulx, notice sur les corporations, p31.

(4) - ابن ميمون، المصدر السابق ص 249. - عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص 166.

(5) - الزهار، المصدر السابق ص 83. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 300.

(6) - Robin, la grande kabylie, p57.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 235.

(8) - الزباني، الترجمانة، ص 375.

مصطفى الذي بني مسجد جمعة السحاريج،⁽¹⁾ والباي محمد الذباح الذي بني في القرن 18م قبة وضريح المرابط سيدي علي أو موسى⁽²⁾ من ماله الخاص، حيث قدر ثمن البناء بـ 2 مليون ريال (5000 فرنك)، نظير مساعدة أولاد علي أو موسى له بربط علاقات مع قبيلة معاتقة التي ساعدته في حملاته ضد قبيلة قشتولة وبني صدقة،⁽³⁾ أما ببجاية فقد تم بناء المسجد الكبير بها سنة 1212هـ/1797م بأمر من مصطفى باشا.⁽⁴⁾

أما ببابيك الشرق فقد ساهم رجال السلطة بدورهم في بناء المراكز الدينية، سواء بالمدن أو بالبوادي، منها قسنطينة التي شيد بها الباي رجب (1666/1673م) جامع رحبة الصوف،⁽⁵⁾ أما الباي علي (1710/1715م) فقد شجع الزوايا وفتح المدارس⁽⁶⁾، واعترافا بالمساعدة التي قدمها أهالي مدينة القل للباي أحمد القلي عندما كان آغا، شيد لهم مسجدا سنة (1170هـ/1756م).⁽⁷⁾ أما الباي حسن كلياني (بوكمية) (1713-1736م) بنى مسجد سوق الغزل (جامع حسن باي حاليا)، ما بين 1721-1734م حيث عهد ببنائه إلى كبير كتابه الحاج عباس بن علي من عائلة بن جلول،⁽⁸⁾ أما الباي حسن بوحناك (1736-1754م)، فقد أسس جامع سيدي لخضر (الجامع الأخضر)، وأنهى بناءه سنة 1156هـ/1743م،⁽⁹⁾ يدرس به نحو 08 مدرسين،⁽¹⁰⁾ كما بنى للمرابط الشليحي زاوية وأعطاه دارا، نتيجة كرامة حدثت له معه.⁽¹¹⁾

لكن أكثر المنشآت الدينية ببابيك الشرق خاصة بقسنطينة كانت من إنجاز صالح باي، الذي شيد عدة مراكز دينية وتعليمية منها مسجد الباي الذي أسسه بعناية سنة 1779م حسبما يوضحه نقش على المسجد جاء فيه:

(1) - Robin, La grande Kabylie, p57. - Robin, Note sur l'organisation, pp205, 206.

(2) - Delpech, La zaouia de sidi ali ben moussa..., p86. - Robin, Note sur l'organisation..., p205.

(3) - Robin, La grande Kabylie, p64. - Robin, Le bey Mohamed..., p367.

(4) - Feraud, Histoire de Bougie..., p113. 249. ج1، ص

(5) - شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 255.

(6) - Gaid, Chronique..., p 29.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 249.

(8) - نفسه، ص 243. - العطار، المصدر السابق، ص 59.

- رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، تر، إبراهيم شيوخ، ش.م.ن.ت، 1979م، ص 156.

(9) - شعيب، نفسه، ص 243. - رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 189.

- Vayssettes, Histoire de constitution, p107.

(10) - شعيب، نفسه، ص 243.

(11) - العطار، المصدر السابق، ص 61.

لعمرك بيت الله للسر جامع مشيدا أركن به النور ساطع
 بدت دونه زهر الكواكب رفقة به بونة للسعد منها مطالع
 به جاد تاج الدين والمجد صالح إلى درج العليا راق وطالع⁽¹⁾

كما شيد بقسنطينة عدة منشآت دينية وتعليمية، وعمل على توفير الظروف الملائمة للطلبة والقائمين بشؤون العبادة، ونظم الأوقاف،⁽²⁾ كما خصص منحا سنوية لـ 700 طالب،⁽³⁾ وكان يصرف أموالا طائلة على هذه المراكز خاصة المسجد الأعظم الذي يقول عنه "الزهار" أنه صرف عليه أموالا قل نظيرها، وجعل له أوقافا،⁽⁴⁾ وهو مسجد سيدي الكتاني الذي شيده سنة 1776م، ثم مدرسة سيدي لخضر الذي بناه سنة 1789م،⁽⁵⁾ كما بنى سنة 1189هـ-1775م مدرسة سيدي الكتاني الملاصقة لمسجد سيدي الكتاني الذي دفن به، وتدعى المدرسة "الصالحية" وقد استعان على رفع مستوى الدروس بها بمجموعة من العلماء، كالمفتي الحنفي عبد القادر الراشدي وابن جلول القاضي الحنفي و القاضي المالكي العباسي، وكانت تدرس بها مختلف العلوم كالتفسير، والحديث، والفقه، الأصول، النحو، المنطق، ومنها تخرج عدة علماء وقضاة،⁽⁶⁾ بها مسجد لأداء الصلاة و 05 غرف واحد للمدرسين و 04 للطلبة،⁽⁷⁾ وقد وضع لها نظاما صارما على المدرسين والطلبة،⁽⁸⁾ الذين يبلغ عددهم 08 طلبة، ويشرف عليها وكيل،⁽⁹⁾ وقد أشاد بعضهم بهذه المدرسة، فأنشد شكرا وتخليدا ومدحا لصالح باي.

طاب الزمان من يوالي نفعه للمسلمين وزار في علياه
 ملك يوم الصالحات يعد له فاختر آخرته على دنياه
 أحياء دروس العلم بعد درسها وبنى لها دار أزكى مبناه
 أعني مدرسة لاحت أشعة نورها لها لا وهي الدر في معناه
 جاءت بها نفس المعظم صالح ذلك المجاهد يبتغي مولاه

(1)- Papier (AD), « Les mosquées de Bône », in R.A, N°33, 1889, pp319, 320.

(2)- سعيدوني، ورقات....، ص 125.

(3)- سعيدوني، ولايات المغرب، ص 152.

(4)- الزهار، المصدر السابق، ص 65.

(5)- Vayssettes, Histoire de Constantine, pp134, 135.

(6)- حدوث مدرسة الكتاني، جريدة المبشر، 1961/ ميكرو فيلم رقم 20، ص 06.

(7)- Vayssettes, Histoire de Constantine, p135.

(8)- Ibid, pp135, 136.

(9)- Mercier, Histoire de Constantine, p254. - Ibid, p135.

فإنه يرزقه السعادة دائما وينيله يوم القيامة مناه
قد بين التاريخ في قول لنا فجر المجاهد بالهنا مبناه⁽¹⁾

ونجد من الحكام من سعى إلى كسب ولاء السلطة الروحية، بأن أخذ على نفسه نذر مثلما فعل الباي حسين بن صالح (1806-1807م) الذي أخذ نذرا على نفسه إذا نجح في حملته على تونس ببناء دار الشيخ علي العريان ومحمد بن سي سعيد حسب وثيقة مؤرخة بـ1222هـ/1807م جاء فيها «ليعلم من نقف على أمرنا من المشايخ والأعلام والفقهاء الكرام، أننا شهدنا على أنفسنا والتزمنا التزاما كلياً بحيث لا يسعنا المخالفة عليه وهو أن قدمنا إلى تونس بمحالنا وعساكرنا وسهل الله أمرها علينا وأخذناها فالشيخ سيدي علي العريان والسيد محمد بن سي سعيد ما يحتاجوه منا من بناء دار تكون بقربه وإصلاح مسجده ونجعلوا له أوقافاً.....»⁽²⁾.

أما في بايلك الغرب فقد شيد الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي مسجد البرانية (جامع بني عامر) بعد تحرير وهران سنة 1708م، وهو مسجد مخصص للتجار القادمين من الريف إلى المدينة للتجارة، وقد تم هدمه بعد الاحتلال الإسباني للمدينة سنة 1732م، وشيدوا مكانه برج "قورة" الذي هدم بعد تحرير المدينة سنة 1792م من طرف الباي محمد الكبير، الذي بنى مكانه مسجداً حول إلى كنيسة سنة 1844م،⁽³⁾ أما سنة 1761م فقد أمر الداوي علي باشا ببناء ضريح الشيخ سيدي عبد الله بن منصور وحفيده سيدي أحمد بن علي بعين الحوت بتلمسان.⁽⁴⁾

ويعد الباي محمد الكبير أشهر البايات والحكام العثمانيين الذين اعتنوا بالحياة الثقافية والدينية، من خلال بنائه للمساجد والمدارس والأضرحة في كامل البايك، فقد بنى ضريح الولي محمد بن عودة والولي أحمد بن يوسف الملياني،⁽⁵⁾ وقبة سيدي شعبان سنة 1796م، لخدمة ضريح الباي شعبان الزنافي الذي قتله رجل من بني عامر سنة

(1) - حدوث مدرسة الكتاني، ص 06.

(2) - Feraud, Un vœu..., pp91, 92.

(3) - يحي بوعزيز، المساجد العتيقة، ص 45، 46.

(4) - نفسه، ص 171.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 132.

1098هـ/1686م،⁽¹⁾ كما بنى للعالم الفقيه محمد علي أبو طالب المازوني بعد الفتح الثاني لوهرا ن ولطلبته مدرسة فقهية بمازونة، كما أهداه جزء من صحيح مسلم.⁽²⁾ ووجد كذلك مدرستين قديمتين بتلمسان وبنى عدة مدارس بمستغانم ووهرا ن مثل المدرسة المحمدية،⁽³⁾ التي حبس لها خزنة كتب، وهي المدرسة التي قال عنها "ابن سحنون": «كاد العلم أن يتفجر من جوانبها»،⁽⁴⁾ فقد جهزها بكل الوسائل الضرورية من مكتبة وقاعة للمطالعة وكل المرافق الضرورية، وعين لها أساتذة أكفاء،⁽⁵⁾ كالعلامة الطاهر بن حواء قاضي قضاة معسكر، والسيد عبد الله بن حواء قاضي البلد، وخطيب المسجد الكبير، وعين لها مديرا هو الشيخ محمد بن عبد الله الجلاي الذي عينه عند تحرير وهران رئيسا لرباط الفتح، ووضع لها نظاما داخليا لتسييرها وألحقها بمسجده ورتب لها النظار،⁽⁶⁾ للسهر على أوقافها وزادها بمكتبة تحوي نفائس المخطوطات، وهذا كله من ماله الخاص.⁽⁷⁾

كما أصلح مساجد الجمعة، حيث وسع جامع السوق وهدم المسجد العتيق وأعاد بناؤه، ثم اشترى أرضا بأعلى ثمن وشرع في بناء مسجده الكبير، وقد صادف بناؤه وقت مجاعة، فسمح لمن هو بحاجة للقوت أن يشتغل بالبناء فيه لسد حاجياته،⁽⁸⁾ وبعد تحرير وهران سنة 1792م بنى مسجد الباشا حسن، بأمر من هذا الأخير،⁽⁹⁾ ومن ماله الخاص سنة 1796م، حيث بعث صندوقين من المال من أجل بنائه، وكان هذا بعدما أشارت عليه زوجته وخالتها ببناؤه لما رأيا فرحته بفتح وهران وحتى يخلد اسمه،⁽¹⁰⁾ كما حبس عليه مجموعة من الدكاكين والحمامات حسبما تشير إليه اللوحة الرخامية التي نقش عليها تاريخ تأسيسه،⁽¹¹⁾ والمتمثلة في حمامات ومنزلين و 29 دكانا.⁽¹⁾

(1) - Fey, Op, Cit, p117.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 78 (هامش).

(3) - سعيدوني، ولايات المغرب، ص 152.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 130، 132.

(5) - نفسه، ص 135. - سعيدوني، دراسات وأبحاث العهد العثماني، ص 249.

(6) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 137.

(7) - سعيدوني، دراسات وأبحاث العهد العثماني، ص 244.

(8) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 130، 132.

(9) - Fey, Op, Cit, p271.

(10) - المزابي بن عودة، المصدر السابق، ص 294، 295.

(11) - يحي بوعزيز، موضوعات، ص 112.

أما الباي عثمان بن إبراهيم (1747/1757م) فقد أمره الداوي علي باشا (1754-1766م) ببناء مسجد سيدي اليدون بتلمسان،⁽²⁾ كما شيد المسجد الأعظم بمعسكر، الذي نقش اسمه عليه، وبنى الدار المجاورة للمسجد وقبة سيدي عبد القادر الجيلاني سنة 1167هـ/1753م التي أصبحت تعرف بقبة الباي إبراهيم لأنه دفن فيها، حسبما يوضحه النقش الحجري: فقد أمرنا ببناء هذه الدار المباركة الأمير ... مولانا الحاج عثمان بن إبراهيم... أمر بتشيد هذه القبة العظيمة حرمة للشيخ الجليل مكان للصالحين سيدي عبد القادر الجيلاني،⁽³⁾ أما ضريح هذا الأخير فقد بناه قائد رماة الباي محمد الكبير يدعى الموصلي لنذر قطعه على نفسه إذا ما تم فتح وهران وتحريرها من النصارى،⁽⁴⁾ كما بنى الباي عثمان بن محمد الكبير مسجد سيدي الهواري (1799-1802م).⁽⁵⁾ أما الباي حسن ورغم ما عرف عنه من بطش ضد العلماء ورجال الدين إلا أنه بنى سنة 1243هـ/1828م قبة وقبر الولي سيدي علي أبي الوفا.⁽⁶⁾

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن اهتمام العثمانيين بالمراكز الدينية خاصة المساجد، ربما يرجع إلى كونها عامل توحيد للأهالي، خاصة في تنظيم الجهاد والحث عليه، واندفاع الطلبة والعلماء والمشايخ في مقدمة الصفوف لمحاربة أي اعتداء خارجي، لهذا حرص الحكام على العناية بها من خلال اصلاحها وتجديدها أو إقامة مراكز جديدة، وحتى إبقائهم على المسجد الكبير كمقر للمجلس العلمي يرجع لمكانته لدى الأهالي، وربما يمكن اعتباره كذلك محاولة منهم للإبقاء على ولاء الأهالي، كما أنه يمكن أن نرجع اهتمام الحكام بالمراكز الدينية خاصة المساجد في القرن 18م إلى محاولتهم خلق تيار من الفقهاء يقف في وجه الزوايا المتنامية، والتي بدأ نفوذها واشعاعها يصل إلى المدن مركز تواجد السلطة العثمانية.⁽⁷⁾

(1)- Fey, Op, Cit, p272.

(2)- يحي بوعزيز، المساجد العتيقة، ص 150.

(3)- المزاري، المصدر السابق، ص 284.

(4)- يحي بوعزيز، موضوعات، ص 114.

(5)- نفسه، ص 112.

(6)- المزاري، المصدر السابق، ص 352.

(7)- Filali, Salah bey, pp150, 151.

ب- مساهمة الحكام في الأوقاف:

وبما أن العثمانيين رأوا في الرابطة الدينية عاملاً قوياً لبسط نفوذهم وتدعيم مكانتهم لدى الأهالي، هذا الأمر دفعهم إلى تحبيس أملاكهم إما بدافع الخير والتقوى والورع أو من أجل الخلود والذكر الحسن بعد الممات،⁽¹⁾ أو تقرباً للعلماء والمرابطين وكسب تأييدهم، وبالتالي كسب ولاء السكان.⁽²⁾ وبهذا كان الوقف خير وسيلة لتأكيد نفوذهم وبسط حكمهم، وتعزيز الرابطة الروحية مع السكان،⁽³⁾ خاصة مع فئة العلماء والمرابطين حتى لا تؤثر عليهم الحركات المعادية.⁽⁴⁾

لذلك غالباً ما نجد الحكام يضعون أحباساً للمؤسسات التي شيدها، فمثلاً الداوي بابا حسن (1682-1685م) لما جدد جامع كتشاة أوقف عليه أملاكاً وعقارات كثيرة، ودعمه حتى بالكتب كما أوقف عليه مصحفه الخاص الذي أهده له أحد سلاطين آل عثمان عام 1684م، كما عين به سبعة وأربعين موظفاً وحدد مرتباتهم.⁽⁵⁾ والشيء نفسه يقال عن الباشا حسين ميزومرطو عندما بنى مسجده أوقف عليه أراضي ودكاكين وسوق،⁽⁶⁾ وحتى الداوي محمد بكداش لما أسس زاوية الأشرف سنة 1112هـ/1709م، أوقف لها حبوساً،⁽⁷⁾ وهذا من أجل التقرب من فئة الاشراف التي كانت تحظى بمكانة مرموقة بمدينة الجزائر.

لذلك فالعثمانيون أدركوا أهمية الأوقاف، التي رأوا فيها خير وسيلة لتأكيد نفوذهم واستمرار حكمهم، وهو ما جعلهم يخصصون أوقافاً يصرف ريعها على الفقراء والمؤسسات الدينية، وقد ورد هذا في العديد من وثائق المحاكم الشرعية الخاصة بالأوقاف، التي أظهرت سخاء هؤلاء الحكام منها:

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 233.

(2) - سعيدوني، الوقف ومكانته...، ص 59. - سعيدوني، النظام المالي، ص 143.

(3) - سعيدوني، دراسات وأبحاث... العهد العثماني، ص 152.

(4) - سعيدوني، النظام المالي، ص 143.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 235.

(6) - سعيدوني: الوقف ومكانته، ص 65. - Devoulx, Notes Historiques, p205. - Devoulx, les edifices, p164, 165.

بعض أوقاف الدايات على المساجد من خلال عقود المحاكم الشرعية

اسم المحبس	نوع الحبس	مكان الحبس	المرجع	السنة
الحاج محمد / بن محمود ⁽¹⁾	حوانيت	الملاصقة بالمسجد الكاين بالمصلى خارج باب عزون	المسجد الكاين بالمصلى	1087هـ / 1676م
الحاج محمد بن محمود ⁽²⁾	حانوتين	خارج باب عزون	المسجد الذي جدد بناءه محمد / المذكور بالمصلى خارج باب الوادي أحد ابواب محروسة الجزائر	1087هـ / 1676م
الحاج شعبان داي ⁽³⁾	حانوت	قرب رحبة الزرع	على المسجد الذي أحدث بناءه بقرب باب الجزيرة المساميه بانحراف دار الانجشارية	1105هـ / 1693م
عبدى باشا ⁽⁴⁾	حانوت مع العلوي الراكب عليها	الفرارية	المسجد الجامع الذي أحدث بناءه بالقرب من الانجشارية المعروف بالمقربين بناحية باب الجزيرة	1138هـ / 1725م
عبدى باشا ⁽⁵⁾	جنة	فحص خنيس خارج باب عزون	المسجد الذي أحدثه بيئر مراد رايس	1137هـ / 1725م
عبدى باشا ⁽⁶⁾	الزندانين الكبرى والصغرى	قرب دار الانجشارية المعروفة بدار المقرئين	المسجد الجامع الذي أحدث بناؤه	1138هـ / 1725م
عبدى باشا ⁽⁷⁾	دار	حارة اليهود	المسجد الجامع الذي استجد بناؤه المقابل بانحراف لدار الانجشارية المعروفة بدار المقربين	1141هـ / 1728م
عبدى باشا ⁽⁸⁾	حانوت	سويقة عمور	المسجد الجامع الذي أحدث بناؤه ناحية دار المقرئين	1142هـ / 1729م

(1) - م.ش، علية 129 و 38

(2) - م.ش، علية 129 و 50

(3) - م.ش، علية 1/27 و 46

(4) - م.ش، علية 129.

(5) - م.ش، علية 58 و 50.

(6) - م.ش، علية 129 و 33.

(7) - م.ش، علية 129.

(8) - م.ش، ع 132/133 و 31.

إبراهيم باشا ⁽¹⁾	بحيرة	بئر الزبوجة	أربع طلبة يقرؤون الحزب بالجامع الأعظم	1153هـ/1740م
علي باشا ⁽²⁾	دار	الرحبة القديمة	زاوية سيدي لكل	1171هـ/1758م
علي باشا ⁽³⁾	إصطبل	أعلى دار الانجشارية القديمة	على المسجد الذي جدد بناءه الكاين أسفل الاصطبل المذكور	1173هـ / 1760م
علي باشا ⁽⁴⁾	علوي	بناحية باب الجديد	على الجامع الجديد الذي استجد بناؤه الكاين بحومة سيدي الاكل	1173هـ / 1760م
علي باشا ⁽⁵⁾	دار و علوي و حانوت	حومة سيدي لكل	على الجامع الجديد الذي استجد بناءه المعروف بزاوية سيدي الاكل	1173هـ/1760م
علي باشا ⁽⁶⁾	جلسة حانوت	حومة سيدي الاكل	على الجامع الجديد الذي استجد بناؤه المعروف	1173هـ/1760م
علي باشا ⁽⁷⁾	ثلثي دار	حومة العطارين أو دار المزاي	زاوية سيد لكل	1174هـ/1761م
حسن باشا ⁽⁸⁾	حوانيت	مسجد شعبان خوجة	مسجد شعبان خوجة بعد توسيعه	1209هـ / 1794م
حسن باشا ⁽⁹⁾	جلسة مخزن	باب الجزيرة	مسجد شعبان خوجة	1209هـ / 1794م
حسن باشا بن حسين ⁽¹⁰⁾	جلسة حانوت	رحبة الشعير قرب باب عزون	على المسجد الذي أحدث بناءه بكجاوة	1210هـ / 1795م
حسن باشا بن حسين ⁽¹¹⁾	جلسة حانوت	في الطبقة من حمام كوشة النصارى	المسجد الذي أحدث بناءه الكاين بكجاوة داخل محروسة الجزائر	1210هـ / 1795م

(1) - م.ش، ع 55.

(2) - سجل بيت المال والبايلك، رقم 109.

(3) - م.ش، ع 60 و 23.

(4) - م.ش، ع 61 و 03.

(5) - م.ش، ع 60 و 14.

(6) - م.ش، ع 1/19 و 16.

(7) - سجل بيت المال والبايلك، رقم 109.

(8) - م.ش، ع 61 و 40.

(9) - م.ش، ع 61 و 37.

(10) - م.ش، ع 132 و 133.

(11) - م.ش، ع 132 و 133 و 76.

حسن باشا بن حسين (1)	جلسة حانوت		على المسجد الذي أحدث بناءه الكاين بكجاوة داخل الجزائر المحمية	1210 هـ / 1795 م
حسن باشا بن حسين (2)	جميع ملكية القهوة		المسجد الذي أحدث بناءه الكاين بكجاوة داخل محروسة الجزائر	1210 هـ / 1796 م
حسن باشا بن حسين (3)	حانوت	داخل محروسة الجزائر	المسجد الذي أحدث بناءه الكاين بكجاوة	1210 هـ / 1796 م
حسن باشا بن حسين (4)	جلسة حانوت	داخل محروسة الجزائر	على المسجد الذي أحدث بناءه الكاين بكجاوة	1212 هـ / 1797 م
حسين باشا بن حسن (5)	جلسة حوانيت	قرب القصبة الجديدة	المسجد الذي جدد بناءه الكاين قرب القصبة الجديدة	1235 هـ / 1819 م
حسين باشا بن حسن (6)	جنة	خارج باب الواد	جامع القايد صفر (المسجد الذي جدد بناءه)	1242 هـ / 1826 م
حسين باشا بن حسن (7)	جلسة حانوت	سند الجبل - القصبة	جامع القايد صفر (المسجد الذي جدد بناءه)	1242 هـ / 1826 م

وقد أورد "دوفو" (8) نماذج لأوقاف الباشوات على المساجد التي أسسوها وعلى الزوايا:

المرجع	المحبس	نوع الحبس
مسجد صفر	خير الدين باشا	قطعة أرض (10 زويزات) (9)
مسجد باب الجزيرة	-شعبان خوجة 1693م-1695م حسان باشا 1795م	-منزل - دكانين -دويرة -دكانين - مخزن
علي بتشين	علي بتشين	فندق -17 حانوت
زاوية عمار التنسي	مصطفى باشا 1611م	منزل -اسطبل

(1) - م.ش، علبة 132. 133 و 88.

(2) - م.ش، علبة 132. 133 و 62.

(3) - م.ش، علبة 132/133 و 78.

(4) - م.ش، علبة 132 / 133.

(5) - م.ش، علبة 141 و 42.

(6) - م.ش، علبة 2/18 و 02.

(7) - م.ش، علبة 99 / 100.

(8) - Devoulx, les edifices religieux....

(9) - 100 هكتار لأن كل زويزة تساوي 10 هكتار. - ينظر نورالدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 160

أما ببايلك الشرق فنجد صالح الباي الذي عمل على تنظيم الأوقاف وحمايتها بعدما وقع التقصير من القائمين عليها، أمر بتسجيل كل الأملاك الوقفية في سجلات، واحد لصاحب بيت المال والثاني عند شيخ البلد والثالث والرابع عند القاضيين الحنفي والمالكي، كما وضع قانونا يحاسب فيه الوكلاء كل ستة أشهر،⁽¹⁾ وهذا حسبما تشير إليه وثيقة أمضاها صالح باي عام 1190هـ/1776م جاء فيها: «ولما وقع التفجير من وكلاء مساجد قسنطينة، ولم يكن اعتناء بشأنها، وفرطوا في ذلك غاية التفريط ضاع الكثير منها... وبلغ أمر ذلك لحضرة المعظم.... صالح باي... وأراد أن يثبت ذلك بثلاث سجلات متماثلة تحفظها ويؤمن ذلك من التبديل والتغيير عليها... أحد السجلات عند صاحب بيت المال والثاني عند شيخ البلد والثالث عند قاضي الحنفية والرابع عند قاضي المالكية...».⁽²⁾

كما أوقف مجموعة من الكتب والمخطوطات العربية والتركية تحمل ختمه على مكنتات ومدارس ومساجد قسنطينة منها مكتبة حمودة الفكون التي تحتوي على 2500 مجلد ومكتبة بشتارزي التي تضم 500 مجلد،⁽³⁾ كما أوقف أكثر من 20 دكانا والعديد من الأراضي على مدرسة سيدي الكتاني والجامع الأعظم الذي أوقف له 40 دكانا وعقارا، والعديد من الأراضي⁽⁴⁾ جاء في سجلات صالح باي.⁽⁵⁾

الجامع الأعظم		
نوع الحبس	السنة	مكان الحبس
09 حوانيت	1189هـ/1774م	سوق الجمعة
قطعة أرض 25 (ذراعا)	1188هـ/1774م	شارع اليهود
14 حانوت	1889هـ/1775م	باب الوادي - قسنطينة
جميع الدار	1889هـ/1775م	القصبة
دار بالجهة الشرقية للمدينة	1190هـ/1776م	قرب سوق الجمعة
جميع الخراب	1190هـ/1776م	قرب سيدي البيازري -
جميع الخراب - جميع أنقاض الدارين	1190هـ/1776م	حومة الشارع
قطعة أرض (25 ذراع)	1190هـ/1776م	/
4 حوانيت - إسطنبول - علويين	1190هـ/1776م	داخل قسنطينة

(1) - Feraud, les anciens établissements, p123.

(2) - Ibid, pp123, 124.

(3) - Laloé (F.), "A propos des manuscrits arabes de Constantine" in R.A., N°66, 1925, p106.

(4) - Filali, Salah bey..., p150.

(5) - سجلات صالح باي للأوقاف 1185-1207هـ/1771-1792م، تق. تح. فاطمة الزهراء قشي، دار البهاء، الجزائر،

الكوشة القبلية	1191هـ/1777م	سوق الجمعة
كوشة فندق (77بيتا) - اسطبل - 7 حوانيت	1191هـ/1777م	سوق الجمعة بكدية كرية
جميع الخراب	191هـ/1777م	سوق الجمعة
حانوت	191هـ/1777م	/
جميع أنقاض اسطبل - ورشة (*)	1192هـ/1778م	قرب سيدي الكتاني
أرض (25 ذراعا) بنيت عليها قهوة و 03 حوانيت - علوي	1194هـ/1779م	حومة الشارع
	1194هـ/1779م	
ضريح سيدي الكتاني ومدرسته		
حانوت (ضريح سيدي الكتاني)	1192هـ/1777م	قرب ضريح الكتاني
أكثر من 50 كتابا (المدرسة)	بدون تاريخ	/

وبناء على هذا العامل الروحي التضامني هناك من كان يوقف جزء من أملاكه وثورته، مساهمة منه في تمويل وبناء المراكز الدينية وتوظيف المدرسين وتوفير السكن للطلبة،⁽¹⁾ حيث أوقف الباي محمد الكبير العديد من الأوقاف على الجامع الكبير الذي أنشأه مع المدرسة المحمدية تمثلت في دار وحمام، بحيرة، 21 حانوت، بستان وحمام ورحى الماء، كوشة وثلاثة منازل، ومنبعين مائيين (عين)،⁽²⁾ أما الباي حسن فقد أوقف سنة 1173هـ/1759م دارا اشتراها بـ 60 مثقال ذهباً لصالح الزاوية الطيبية بتلمسان التابعة للشيخ عبد الله بن إبراهيم الوزاني.⁽³⁾

ولم تقتصر الأوقاف على العقارات بل هناك من كان يحبس الكتب، مثل الباي محمد الكبير الذي كان يشتري الكتب خاصة المخطوطات النفسية ليحبسها على الطلبة والمدارس وعلماء المساجد،⁽⁴⁾ فأبوراس الناصري وحده حبس عليه بايات وهران مكتبة ضخمة سميت "مكتبة المذاهب الأربعة".⁽⁵⁾

وقد كانت النتيجة المترتبة عن هذه السياسة ازدياد عدد الأوقاف خاصة خلال القرن 18م، في غالبية مناطق الإيالة، لذلك عمد العثمانيون إلى تنظيمها،⁽⁶⁾ وهذا بإنشاء

(*) وقف مشترك مع مدرسة سيدي الكتاني

(1) - العسلي، الجزائر والحملات الصليبية...، ص 165، 166.

(2) - مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 30.

(3) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 228.

(4) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 26.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 297.

(6) - Feraud, Les anciens établissements ..., p 125.

هيئة تسهر على رعايتها وهي "المجلس العلمي".⁽¹⁾ وأشهر من سعى إلى هذا الإجراء صالح باي الذي ضبطها

في سجلات رسمية وعين لها موظفين خاصين للسهر عليها.⁽²⁾ لذلك فالوقف في العهد العثماني لم يكن موردا هاما لرعاية ودعم الثقافة فقط، بل كان كذلك وسيلة استعملها الحكام لجلب السلطة الروحية.⁽³⁾ لكن ورغم هذا لا يمكن أن نستهيى بما قدمه العثمانيون في الجانب الثقافي والديني بالجزائر، ولو بطريقة غير مباشرة، من خلال أعمال فردية تطوعية سواء كانت لأغراض سياسية أو دينية وثقافية بحتة.

3- نتائج السياسة العثمانية اتجاه السلطة الروحية:

لقد حصد العثمانيون ثمرة السياسة التي انتهجوها مع السلطة الروحية، وهذا بنجاح تيار الدعاية الذي قام به غالبية أقطاب السلطة الروحية خاصة رجال الطرق الصوفية، حيث تجسدت في نظرة الاحترام والتقدير التي بدأ الأهالي ينظرون بها إلى هؤلاء المنقذين الجدد، وكذا في المؤازرة التي وجدوها في أغلب أنحاء البلاد، كما تجسدت أيضا في فترة الاستقرار والهدوء الذي تمتعت بها السلطة العثمانية خاصة في مراحلها الأولى، بالرغم من أن هذه السياسة التي اعتمدها العثمانيون، وإن لم يحالفها النجاح دائما، قد أفرزت أوضاعا اقتصادية واجتماعية مميزة نلخصها في النقاط التالية:

3-1- الوساطة:

مقابل الامتيازات التي كانت تقدمها السلطة الحاكمة للسلطة الروحية، عملت هذه الأخيرة على لعب دور الوسط بينها وبين الأهالي، حيث شكلت همزة وصل بين الحكام والمحكومين، وقد اكتسب هذا الدور الذي أسندته السلطة الحاكمة لأقطاب السلطة الروحية خاصة المرابطين منهم، أهمية كبرى خصوصا في المناطق الغير خاضعة كمنطقة القبائل،⁽⁴⁾ حيث كانوا القوة الوحيدة التي تلجأ إليها لكسب طاعة الرعية،⁽⁵⁾ فهذا الدور كان يمثل وجه آخر لسياسة السلطة بالمناطق التي كان وجودها العسكري بها نادرا،⁽⁶⁾ وفي مقابل هذا سيطر المرابطون على كل الأحداث التاريخية من القضايا البسيطة إلى أكبر

(1) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 207.

(2) - Feraud, Les anciens établissements..., p 126.

(3) - Merad Boudia, Op. Cit, p 342.

(4) - Mahe, Op.Cit, p 49.

(5) - Filali, sainteté, p 130.

(6) - سبنسر وليام، المرجع السابق، ص 105.

وساطة سياسية،⁽¹⁾ هذا الأمر أدى إلى تحول نفوذهم وسلطتهم الروحية إلى سلطة سياسية نافست السلطة المركزية فيما بعد.⁽²⁾

لقد سعت السلطة الحاكمة إلى استمالتهم من أجل استغلال نفوذهم الروحي في الأوساط الشعبية خاصة عند استخلاص الضرائب،⁽³⁾ التي كانت تلقى رفضا كبيرا، وقد استعانت بهم السلطة حتى في الأمور السياسية لهذا اتخذوا نحوهم سياسة أكثر شرعية، حيث أنهم لم يرتبطوا بهم بروابط رسمية قد تهدد مصالحهم بل أحاطوهم بالاحترام، والحذر منهم، كما وضعوهم في اهتماماتهم.⁽⁴⁾

لذلك فسياسية الامتيازات والترصيات التي انتهجتها السلطة اتجاه السلطة الروحية قد نجحت وحققت الأهداف التي كانت ترمي إليها، وقد تجسد هذا في مسارعة المرابطين لنجدة السلطة العثمانية عندما تهاجمها قوى أخرى خارجية أو داخلية،⁽⁵⁾ فدور السلطة الروحية جعل "مارمول كريخال" يشير إلى أن الأتراك كانوا سيحبطون كل تأمر باستعمال الفقهاء،⁽⁶⁾ بحيث لجئوا إليهم في الأوقات الصعبة من أجل تجنيد العامة للوقوف مع السلطة، خاصة أثناء الغارات المسيحية على السواحل،⁽⁷⁾ فأتت الحملة الفرنسية على جيجل سنة 1664م، والتي قادها الدوق "بوفور"، رفضت القبائل طلب مرور الحامية التركية القادمة من مدينة الجزائر إلى جيجل عبر أراضيها لصد الحملة، لاعتقادهم أن هذا يجعل منهم تابعين للعثمانيين ويمس بحريتهم، فما كان من الحامية إلا الاستجداء بمرباط يدعى "سي حمود"، الذي أقنعهم بالسماح لها بالمرور، بل وحتى مشاركتهم في الجهاد، مبرزا لهم كفر الفرنسيين وانتهاكهم لحرمة مقابرهم التي استعملوا موادها لبناء حصن لهم،⁽⁸⁾ أما أثناء حملة أوريلي ("Oreilly") عام 1775م نادى المرابطون بمنطقة القبائل للجهاد ضد الإسبان، وهذا بطلب من الداوي نفسه.⁽⁹⁾

وحتى أثناء ثورة الإنكشارية، كان الباشوات يستعينون بالعلماء مثلما فعل الداوي شعبان بعد عودته من حملته على تونس عام 1694م، بعد ما نصب أحمد بن الشقير

(1)- Robin, La grande Kabylie..., p 17.

(2)- Babes, Op. Cit, p 17.

(3)- Bel, La religion..., p 352.

(4)- Gsell, Op. Cit, p175.

(5)- دوتي، المرجع السابق، ص 140.

(6)- مارمول كريخال، المرجع السابق، ج2، ص 333.

(7)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 417.

(8)- Feraud, histoire des villes..Gigilli, p139.

(9)- Liorel, Op. Cit, P 139.

عليها، والذي ثار عليه الجند وعزلوه، فأراد الداوي الرجوع لمحاربتهم، لكن الجند ببايلك الشرق رفضوا،⁽¹⁾ وقرروا التوجه نحوه بدل تونس، ولما بلغه قرارهم بعث إليهم القاضي والمفتين الحنفي والمالكي وباشة الوقت،⁽²⁾(*) لكن "دلفان" (Delphin) يذكر أن الداوي بعث لهم المفتي حسين بن رجب شاوش، والمفتي المالكي سيدي محمد بن سيدي السعيد والقاضيين المالكي سيدي محمد بن الحاج، والحنفي سيدي محمد الزيتوني التونسي، لكن هذا لم ينفعه في شيء لأن وقت وصولهم إلى المعسكر وصلت رسالة من إنكشارية الشرق إلى انكشارية الجزائر تضمنت استحسان العلماء في نزع السلطة من الداوي شعبان خوجة،⁽³⁾ رغم فتحه الخزينة بالقصبة وتوزيعه المال عليهم لتهدئتهم⁽⁴⁾ لكن تم خنقه من طرف خليفته الحاج أحمد عام 1109هـ/1695م.⁽⁵⁾

إن تدخل أقطاب السلطة الروحية وقيامهم بدور الوسيط في القضايا الأمنية، كما في الظروف الصعبة، التي تحدث بين السكان والسلطة، سواء في المدن أو في الأرياف، كان نتيجة ممارستها للوظائف الدينية والتعليمية، ففي المدن شكلوا نخبة دينية ذات امتيازات، أمّنت المهام الرئيسية لإدارة المدينة والمترجم لمطالب السكان، لهذا شكلت الوسيط الطبيعي بين السلطة والسكان، أين أعطت صبغة أخلاقية وشرعية لقرارات السلطة الحاكمة،⁽⁶⁾ وتدخلت لصالحها لتهدئة السكان، مثلما حدث عندما تدخل محمد الجازولي وشيخه محمد العبدلي لإخماد ثورة سكان تلمسان والإصلاح بينهم وبين القائد التركي محمد بن سوري، رغم رفض أغنياء الفقهاء بسبب ظلم الأتراك، وقد توفي العبدلي عام 1035هـ/1625م غيلة، وهو في طريق عودته من الجزائر عندما ذهب للصالح بين أهل تلمسان والأتراك بتلمسان،⁽⁷⁾ وربما لهذا السبب فر إلى البادية ورفض دور الوسيط في هذه الفتنة.⁽⁸⁾

(1) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 25.

(2) - سعد الله، من أخبار الداوي شعبان...، ص 122.

(*) - ممثل السلطان العثماني المبعوث من اسطنبول حتى 1711م أين جمع بين لقب الباشا والداوي.

(3) - Delphin, Op. Cit, p206.

(4) - Galibert (L), l'Algérie ancienne et moderne, Gallimard, Paris, 1844, p 234.

(5) - Delphin, Op. Cit, p206.

(6) - Stambouli/zghel, Op. Cit, p 205, 208.

(7) - سعد الله، على خطي، ص 206، 207. - سعد الله، أبحاث وآراء...، ج 3، ص 221.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 215.

(8) - سعد الله، على خطي، ص 209.

أما في قسنطينة، فقد كانت عائلة الفكون من الفئة المساعدة والمؤيدة للسلطة في وجه المتمردين من القبائل، وقد اعتمدت عليها السلطة في القضاء على الثورات وتهدة الأوضاع، بحيث وسطت الفكون لإقناع السكان من أجل السماح للعثمانيين بالتمركز في قسنطينة، لتبدأ الأسرة في دور الوساطة فعليا مع أحداث 1567م عهد عبد الكريم الجد، عندما وظفته السلطة لإخماد ثورة عبد المؤمن كما رأينا سابقا وثورة العريان خارج المدينة سنة 1567م، حيث تدخل جد الفكون مع المفتي عبد اللطيف المسبح لتهدة الثورة لكنه وقع في قبضتهم، ولم يطلق سراحهم إلا بعد تدخل الجند الانكشارية وإخماد الثورة.⁽¹⁾

وقد تكرر الأمر عندما ثار صالح باي، أين لجأت السلطة إلى الأسرة التي تنكرت لصالح باي رغم مساندتها له سابقا، والدليل موقف الشيخ عبد الرحمن بن الفكون الذي كان وسيطا للسلطة من أجل القبض على صالح باي، الذي اتهم الشيخ بالغدر فرد عليه هذا الأخير بأن "الغدر سبق منك وفيك، ولا في أهل البلد".⁽²⁾ والشيء نفسه حدث مع الباي بوكابوس بمدينة وهران الذي رفض السير في الحملة الموجهة ضد تونس، ولما عزم على إهلاك المدينة بعدما علم بقرار عقابه من طرف الداوي، تدخل العلماء الذين توسلوا إليه من أجل العدول على قراره، وقد نجحوا في تلك المهمة، حيث سلم نفسه لهم ليتم قتله على يد الآغا الذي قطع رأسه وسلخه وحشاه بالقطن ثم بعثه إلى مدينة الجزائر.⁽³⁾

أما بالأرياف حيث لم تكن السلطة الحاكمة حاضرة بطريقة مباشرة، لعدم اهتمام الحكام بمد نفوذهم عليها لصعوبة اختراقها، لذلك اعتمدوا على الوسطاء من السلطة الروحية بشكل كبير، ممثلة خاصة في المرابطون الذين لعبوا دورا أساسيا في إخضاع المناطق التي استعصت على العثمانيين بفضل وساطتهم حيث نجد خير الدين لما وضع حامية بقسنطينة سنة 928هـ/1522م عين قائدا عليها يدعى يوسف، هذا الأخير ربط صلات مع الشيخ الفكون، الذي مكنه من التواصل والتعاون مع أولاد يعقوب بن علي الهاليليين المتحكمين في المنطقة من عنابة شرقا إلى سطيف غربا ثم توقرت جنوبا،

(1) - الفكون، منشور الهداية، ص 49. - معاشي، المرجع السابق، ص 119.

(2) - العطار، المصدر السابق، ص 74، 75. - سعيدوني، دراسات وأبحاث... العهد العثماني، ص 73.

- شعيب، المرجع السابق، ص 269.

(3) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 103.

و الذين تعهدوا بدعم العثمانيين بالمؤن مقابل حصولهم على البارود،⁽¹⁾ أما يوسف باشا فقد اتصل بمرابطي بايلك الشرق ذوي النفوذ، من أجل إخضاع القبائل الراضية للوجود العثماني، مثل المرابط سي محامد بن يحي الذي وقف في وجه الثورات والرافضين للوجود العثماني،⁽²⁾ وفي سنة 1220هـ/1805م توسط سيدي محي الدين بن علي مبارك بالقلعة بطلب من أحمد باشا (1805/1808م)، وهذا من أجل إخضاع قبائل موزاية،⁽³⁾ وحتى الباي محمد الذباح وسط مرابطي أولاد سيدي علي أو موسى في ربط علاقات مع قبيلة معاتقة، وهذا من أجل أن تزوده في حملاته ضد قبائل قشتولة وبني صدقة.⁽⁴⁾

ومثلما اعتمد العثمانيون على المرابطين كوسطاء من أجل إخضاع الأهالي، اعتمدوا عليهم في إخماد ثوراتهم، فعند ثورة ابن الصخري ببيلك الشرق استنجد يوسف باشا بالعلماء والمتصوفة لتجنيد الناس ضد الثوار، حيث راسل كل من أحمد ساسي البوني عالم ومرابط عنابة،^{(5)(*)} كما وقفت إلى جانبهم أثناء هذه الثورة أسرة بن ناصر بالخنقة، التي كان لها دور كبير بتهدة الأوضاع في المنطقة،⁽⁶⁾ وربما المرابط الذي توسط سنة 1639م لآخماذ ثورة ابن الصخري، يكون منهم، حيث قبلت القبائل الصلح شرط اعفائها من الضرائب والسماح للفرنسيين باعادة بناء حصن الباستيون والعفو عن الكراغلة، لكن لم تلتزم السلطة بالشرط الأخير، وتم اخراجهم من مدينة الجزائر.⁽⁷⁾

كما نجد المرابط الشليحي الذي بنى له الباي بوحنك زاوية هو الآخر عمل لمدة على تهدة الأوضاع لصالح السلطة.⁽⁸⁾ وأثناء ثورة ابن الأحرش جند أولاد مقران القبائل المجاورة كأولاد عبد الجبار وتوجهوا للدفاع عن بجاية ضد ابن الأحرش،⁽⁹⁾ بطلب من السلطة العثمانية كما سنرى لاحقا، كما ساهم ابن سيدي محمد بن علي مبارك بالقلعة

(1) - العننري، فريدة مؤنسة، ص 27.

(2) - Feraud, Le sahara..., pp42, 43.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 95.

(4) - Robin, Le Bey Mohammed..., p 367. - Robin, lagrande kabylie, p64.

(5) - سعد الله، على خطي، ص 203. - سعد الله، أربع رسائل بين باشوات الجزائر...، ص 21، 23.

- سعد الله، تجارب في الرحلة، ص 54، 56.

(*) - ينظر، المراسلات بين أقطاب السلطة الروحية والحكام.

(6) - معاشي، المرجع السابق، ص 96.

(7) - De grammont, Op. Cit, p189.

سامح التر، المرجع السابق، ص 366.

(8) - Boyer, Contribution..., p 38.

(9) - Feraud, Histoire des villes...Bougie, p 215. - Liorel, Op. Cit, p 140.

أواخر العهد العثماني، بإقناع قبائل بني صالح بإنهاء ثورتهم ضد جنود آغا العرب وهذا مقابل غرامة مالية تقدر بـ 900 بوجو أي ما يعادل 16200 فرنك.⁽¹⁾

أما بمنطقة القبائل، فقد كانت الوساطة إحدى المظاهر الهامة في العلاقات الاجتماعية والسياسية، فكانت الوساطة المرابطية وجه من أوجه السياسة العثمانية بالمنطقة، لذلك كان حضورها العسكري قليلا بها، على الرغم من أنها عرفت رفض العديد من القبائل للسياسة الضريبية المنتهجة، فهذه الأخيرة كانت تعتمد على المرابطين كوسطاء لحل مشاكلها مع السلطة.⁽²⁾ فلما ظهرت طائفة وسر وأولاد الخلف من أولاد إبراهيم بمجانة، التي مارس أهلها الحراية والزنى والسرقة، أمر الباي أحمد القلي الشيخ "الحسن الورثيلاني" بتأديبها حيث يقول: "وقد أعانني فيهم المجاهد... القامع للمتمردين سيدي أحمد باي اذ نصرني وأعطى أمر المحلة في يدي، واحرقت أولاد الخلف وقرية وسر وسكانها وبني عشاش... وتم تغريمهم."⁽³⁾

وعند تمرد القبائل سنة 1813م توجهت نحوهم حامية تركية لإخماد العصيان بمساعدة سيدي بتقة المقراني الذي فقد على إثرها 198 رجلا،⁽⁴⁾ ولما هاجمت قبائل بني صدقة وقشتولة برج بوغني سنة 1818م ومحاصرته مدة من الزمن، استجذت الحامية التركية بالمرابطين،⁽⁵⁾ حيث أخرجت تحت حماية مرابطي زاوية بوقبرين بآث إسماعيل الذين أخرجوا الجند إلى غاية بن هارون ثم أبعدهم محزن عبيد عين الزاوية إلى واد القصاري بفليسة،⁽⁶⁾ وعندما ثارت القبائل مرة أخرى نواحي بجاية في 21 أكتوبر 1823م، وإطلاقهم النار على القائد التركي في السوق، أرسل يحي آغا لمرابطي إيمولا الحاج محمد بن سيدي الحاج العربي وسيدي محمد بن الموهوب، يستوضح حقيقة ما حدث منهما، كما طلب منهما التكفل بالأمر أو يسير بنفسه لتولي المهمة، وعلى إثر هذه الواقعة أمر الداوي حسين بحبس كل من يجدونهم في الأسواق بالمدن من بني عباس، بعدها تم إرسال القائد محمد بن كانون لإخماد العصيان فاتصل هذا الأخير بمرابط بني يجر الحاج مولود الذي جند شيوخ قبائل الساحل الذين ساروا مع الباي حتى بجاية، بعدها خرج يحي آغا

(1)- Trumelet, Blida..T01, p86 et 249. - Saidouni, Op.Cit, pp 401,402.

(2)- Mahé, Op. Cit, p46 et 50.

(3)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص 75.

(4)- Mercier, Histoire des Constantine, p339.

(5)- Robin, Note sur yahia, p62. -Mercier, histoire de l'Afrique. T3.p503. 209 سعيدي، الشبكة الدفاعية، ص 209.

(6)- Robin, Note sur yahia, p62.

بنفسه لقمع هذا التمرد سنة 1824م، فنهب وأحرق قراهم وسجن منهم نحو 80 شخصا،⁽¹⁾ وقد تسبب القضاء على هذا التمرد في خسائر فادحة اقتصاديا واجتماعيا. فمذ استقرار العثمانيين أخذت الواجهة البحرية اهتمامات السلطة المركزية، حتى تمنع أي اتصال بين السكان والعدو، لذلك عملت بمبدأ التعامل بالوسائط، خاصة في المناطق الغير خاضعة والبعيدة عن مركز السلطة كمنطقة القبائل، فقد عمل مرابطوها كوسطاء بين رجال السلطة، والمتمردين سواء من حيث إرشادهم في المنطقة أو كمفاوضين في المسائل الصعبة،⁽²⁾ وأكبر عائلة مرابطية حظيت بهذا الدور هي عائلة آل مقران التي تمتعت بمكانة مرموقة لدى الأتراك، وقد أسند لها هذا الدور بموجب مراسيم أو فرمانات يحررها الدايات كالوثيقة التي حررها الداوي مصطفى سنة 1114هـ / 1702م، لمحمد الشريف بن عبد القادر أمقران، حيث أضاف إليها بموجب هذا المرسوم جزء من قبيلة بني مسعود كحبوس، ومما جاء فيها "لقد أقمناه مقام والده على أمور بجاية"،⁽³⁾ فما هي هذه الأمور؟. هي القيام بأمور الكراسته والوساطة والتفاوض في الظروف الصعبة التي تحدث بين القبائل والسلطة، كما في القضايا الدبلوماسية فهذا الدور غالبا ما كان يوفق فيه المرابط.⁽⁴⁾

ونذكر في هذا السياق حادثة شهيرة وقعت في 23 أكتوبر 1720م عندما رست على السواحل بين بجاية، وجيجل سفينته على متنها زوجة القنصل الفرنسي بإسبانيا وابنتها التي تبلغ الرابعة عشر من عمرها في طريقهما إلى السويد،⁽⁵⁾ وقد قيدت الفتاة إلى الجبال من طرف القبائل، ولم تتجح المحلة التي أرسلها الداوي لتحريرها،⁽⁶⁾ بعدما تقدم القنصل الفرنسي "دي سالي" (Dussalut) (1719/1724م) للداوي محمد بن حسان بطلب من أجل تحريرها،⁽⁷⁾ ولم يتم تحريرها إلا بعد تدخل المرابط سيدي أمقران بالمنطقة الذي قدم للمختطفين مبلغا من المال مقدر بـ 900 قرش.⁽⁸⁾

كان دور المرابط كوسيط مدركا لدى الكل وحتى الأجانب ونلمس هذا من خلال الرسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي "جان أنتوان دي فاليار" Jean Antoine de

(1)- Ibid, p89, 95.

(2)- Merad Boudia, Op.Cit, p342.

(3)- Feraud, exploitation des forets, N12, p 387,388.

(4)- Boyer, Contribution..., p 30.

(5)- Filali, saintete..., P 125.

(6)- Boyer, Contribution..., p 30.

(7)- Filali, saintete..., p 125.

(8)- Feraud, Histoire des villes, Gigilli, p173.

Valliére (1773/1763م) بعثها إلى المسؤول عن الشركة التجارية الفرنسية بالقل (compagnie royale d'Afrique) وهذا على إثر أحداث جاء فيها: "أنه لا خطر على الفرنسيين بها لأنني اطلعت على رسالتين للداي، واحدة بعثها لآغا الحامية والثانية للمرابط الذي له تأثير على الناس"،⁽¹⁾ يقصد هنا مرابط آل مقران الذي كان همزة وصل بين السلطة والأهالي بالمنطقة.

وحتى يؤمن الأتراك مواقعهم على السواحل أبرموا علاقات تجارية مع القبائل وهذا بمساعدة المرابطين،⁽²⁾ ومما يبرز لنا دور المرابطين كوسطاء ليس في التفاوض مع القبائل فقط أثناء الاضطرابات، بل تعدى دورهم حتى المساهمة في المجال الاقتصادي، إضافة إلى دورهم في حماية الحاميات أثناء تنقلاتها بمنطقة القبائل، فاعتماد السلطة على حماية المرابطين كان إجراء ضروريا، حيث كانت الحاميات التي لا يرافقها مرابط تسلك طريق البحر،⁽³⁾ وفي هذا الشأن يقول حمدان خوجة: "كانت الحامية التركية التي تتجه كل سنة إلى حصن بجاية مجبرة على أن تكون مرفوقة برجل من المرابطين".⁽⁴⁾

فالحامية التركية لم يكن بإمكانها المرور عبر جبال الببيان وجرجرة وممر أكفادو دون عناية وحماية وتحت ضمانات المرابطين النافذين بالمنطقة، الذين ساعدوا الحامية مثل مرابطي بني بوشعيب وبني يجر،⁽⁵⁾ وأولاد مقران، أولاد سيدي علي الشريف بشلاطة وأولاد سي الشريف أمزيان بإيمولا، أولاد أورابح من أجل المرور عبر الممرات والمعابر خوفا من هجمات القبائل، وكذلك عند جمع الضرائب، التي كانت تلقى رفضا من طرفها، خاصة أيام المحصول القليل.⁽⁶⁾ فأولاد مقران كانوا مكلفين بحماية المحلات التركية عند مرورها على أراضي القبائل الغير خاضعة، مقابل مكافآت في الأعياد الدينية أو منح أراضي فلاحية بالسهول، فمثلا عهد صالح باي أرسل القاضي محمد الفرقاني بجيجل لمساعدة المقرانيين في حماية الحامية المتجهة من قسنطينة إلى جيجل، حيث أنه كان يمشي في مقدمتها، ثم خلفه أعقابه في هذه المهمة.⁽⁷⁾ كما كانت السلطة تعتمد على نقل الأموال عبر الطرق الغير آمنة على المرابطين مثل مرابط جيجل من آل مقران، الذي

(1)- Filali, saintete..., p 126.

(2)- Feraud, Histoire des villes..., Bougie, p197. - Feraud, Exploitation des forets ...N12, p381

(3)- حمدان خوجة، المرأة، ص112. - Robin, La grande kabylie ..., p57

(4)- نفسه، ص89.

(5)- Robin, Note sur l'organisation militaire..., N17, p 204, 205.

(6)- Feraud, Histoire de bougie, p139.

(7)- Feraud, Histoire des villes, GIGILLI, p183.

كلف بنقل رواتب الجند من قسنطينة إلى جيجل،⁽¹⁾ في حين نجد مرابطي زاوية بلعباس^(*) بالمنعة، ورغم التمرد الموجود بالمنطقة، إلا أنهم عملوا على تأمين الطرق عبر ممر مضيق واد عبدي الذي تسلكه الحامية ببسكرة عند تجديد أفرادها كل شهرين، بعد انتهاء الخدمة.⁽²⁾

ومما سبق يمكن القول أن أقطاب السلطة الروحية خاصة بالريف كانوا ممثلين وأعين السلطة لما يدور في المنطقة، فدور الوساطة الذي لعبوه خاصة المرابطين منهم كان عبارة عن نوع من التحالف مع السلطة المركزية يتبادل فيه الخدمات،⁽³⁾ بحيث دورهم هذا كان متوقفا على رفاهيتهم المادية، وهذا بمساعدة الحكام الذين فتحوا لهم الطريق نحو الربح والمناصب المهمة،⁽⁴⁾ مما كرس وجاهة الفئة الدينية بوجه خاص، رغم أن دورهم هذا لم يكن موقفا دائما ففي كثير من الأحيان يخفون في مسعاهم، وهو الشيء الذي حدث بمازونة حيث فشل المرابطون والشرفاء في إرجاع السلم إلى المنطقة رغم محاولاتهم المتكررة للتدخل من أجل فض النزاع بالمدينة، وهذا راجع إلى ترسخ كره الأتراك لدى الأهالي.⁽⁵⁾ إضافة إلى ظهور التمردات كل مرة وبصفة دائمة ضد السلطة.

إن دور الوسيط لم يكن ليحصل دون حدوث تنافس وصراعات بين أقطاب السلطة الروحية، تشابكت فيه كل القوى وتداخلت على أساس مبدأ الانتفاع خاصة من جباية الضرائب، كما أن السلطة الحاكمة استغلت دور الوسيط الذي قامت به السلطة الروحية لصالحها، بحيث أنها أولت عناية خاصة لمن اشتهر من القوى الروحية ومنحتهم امتيازات، لذلك وصلوا إلى نتائج دون استعمال القوة.

3-2- تقرب أقطاب السلطة الروحية من الحكام العثمانيين:

بما أنه لم يكن في وسع السلطة الاستغناء عن العلماء في مجالات الحكم كالإدارة وضمن ولاء الأهالي خاصة،⁽⁶⁾ وهذا لأنهم يمثلون الرأي العام وكذلك لثقة الناس فيهم

(1) - Feraud, exploitation des forets N13, p158.

(*) - وتدعى كذلك "زاوية مول السبيل" أسست خلال العهد العثماني على يد المرابط سيدي بويكر بن محمد الأكبر حوالي 1660م، عندما قدم من المغرب، إلى المنعة بباتنة، وهي تنتمي للطريقة القادرية.

(2) - سعيديوني، ورقات، ص481.

(3) - قداش، المرجع السابق، ص10.

(4) - Raymond, Op.Cit, p82.

(5) - Belhamissi, Op. Cit, p47.

(6) - حركات، التيارات السياسية....، ص95، 96.

أكثر من رجال السياسة، قدّرهم العثمانيون وتقربوا منهم وخشوا بأسهم، وبالمقابل فإن العلماء كانوا هم في حاجة إلى الحكام سواء كانوا دايات أو بايات، طمعا في المال والوظيف أو للتأييد ضد منافس،⁽¹⁾ لهذا نجدهم يتقربون من السلطة ورجالها بشتى الوسائل خاصة بالشعر أو النثر، حيث وجد من العلماء من مدح الحكام سواء عند توليهم للحكم أو عند انتصاراتهم، وقد بالغوا في مدحهم هذا.

وأشهر من مدحه العلماء الداوي محمد بكداش الذي نسب له النسب الشريف، خاصة وأن الادعاء بالشرف كان شائعا في العهد العثماني بحيث لم يوجد عالما أو صالحا إلا واقترن اسمه بعبارة "الشريف" أو "الحسني"، وهي صفة اشترك فيها علماء وصلحاء البوادي والحواضر وحتى الباشوات، فنجد "عبد القادر المشرفي" يصف كل من الداوي حسين خوجة والداوي محمد بكداش "بالشريف"،⁽²⁾ والحقيقة أنه لا ندري ما يقصد بكلمة الشريف هل النسب الشريف أم كان هذا من باب التعظيم فقط، أما محمد ساسي البوني، وعبد الرحمن الجامعي وحسب "أبو القاسم سعد الله" فقد إدّعى بشرف محمد بكداش وأنه من بني هاشم⁽³⁾، حيث ذكر أحمد البوني هذا في قصيدته الأولى التي ذكر له فيها سبب وشاية حساده به ونفيه من طرف الداوي حسين خوجة الشريف جاء فيها:

يا طالبا للفصل والجود ثم العدل
والعلم والرياسة والحلم والكياسة
اعمد إلى الظريف بكداش الشريف⁽⁴⁾

كما أنّه مدحه بقصيدة أخرى جاء فيها:

فقيه لودعي ألمعي جميل الوجه يلقي بابتسام
ذكي الفهم ذو نسب شريف لطفه ينتمي خير الأنام⁽⁵⁾

وقد كافأه الداوي محمد بكداش على هاتين القصيدتين اللتين وصفه فيهما بالعلم والعدل والكرم وبالشرف وبالظريف والكيس، بمنقوش من صفحة القمر وأعطاه فوق ما

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 409.

(2) - المشرفي، المصدر السابق، ص 38.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 241.

(4) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 128. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 414.

(5) - ابن ميمون، نفسه، ص 133، أنظر القصيدة كاملة، المقامة الرابعة.

طلب.⁽¹⁾ حتى أنه يذكر أن دافعه في تأليف كتابه حول الداوي بكداش، هو محبته له، ومن أجل نيل رضاه فيقول: "أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه".⁽²⁾ أما عبد الرحمن الجامعي فقال عنه:

لقد فتك بالقلب فتك البواتير عيون الظباء الأنسات الجآذر^(*)

كما أنني لم أرض مدحي مالكا سواه، ولا عادت عليه ضمائري

شريف زكا أصلا وفرعا محتدا إلى هاشم ينتمي كبير الأكابر⁽³⁾

كما أن يحيى بن أحمد بن أبي القاسم بن أبي راشد بعث له بقصيدة مهنئا إياه بتوليته الحكم جاء فيها:

ملك تفرد بالكمال ولم يكن لكماله في السالفين مثال

خضعت لسطوته الملوك وسلمت لجلاله الأمراء والأقيال^(*)⁽⁴⁾

أما أبو عبد الله محمد بن أحمد البوني الذي مدحه هو الآخر بقصيدة بعدما أجبره على الإفتاء وكان هو زاهدا عن أمور الدنيا جاء فيها:

هو الأمير محمد ذوا المجد والأسرار والآلاء والإحسان

الأعظم والأعلى الأعز الأرفع الشاني الذي ما مثله من ثان

جمع التقى والعلم فيه بلاخفا فاقصده صاح تجده بالبرهان⁽⁵⁾

في حين نجد من العلماء من لجأ إلى مدحه حتى يطلب منه حاجته أو يذكره بها، وناسبا إليه النسب الشريف، مثل الخطيب مصطفى بن عبد الله البوني الذي خاطبه قائلا:

يا سيدي محمد بكداش نجل الأمجد

عليّ الولي الرضي الهاشمي الأمجد

وعدتني بما أحب من أمني ومقصدي

أين الذي وعدتني ياسيدي وسندي⁽¹⁾

(1) - نفسه، ص 135. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 415.

(2) - ابن ميمون، نفسه، ص 112.

(*) - الجآذر، ج. جوذر، ولد البقر الوحش.

(3) - ابن ميمون، نفسه، ص 178، وما بعدها.

(*) - الأقيال، ج قيل يعني الرئيس (الملك).

(4) - نفسه، ص 153، 154.

(5) - نفسه، ص 175، 176.

ووجد بعض العلماء ممن كان ميالا للسياسة يمدح حاكما ويذم آخر مثل المفتي الحنفي ابن علي^(**) الذي أشاد ببكداش في الفتح الأول لوهران في قصيدة اعتذر له فيها عن تأخره على تهنئته، كما أنه لام من سبق الداوي بكداش من الحكام على تقاعسهم واتهمهم بالرشوة والفساد وحب المال قال فيها:

إني وإن أجحفت أول مرة على خوض هذا البحر والغير عائم
فما هي إلا هيبة الملك قلما على مثلها في الناس يقدم قادم
كل رئيس يرتجى لخطوبها تشاغل في لذاته وهو نائم
ورب أمير أزعم السير نحوها فيرجع لما كاثرت الدراهم
رضوا بالرش في الدين حيث تخلفوا وقد رسخت في الأرض تلك الأرقام⁽²⁾
وأشهر من كان يذم بعض الحكام ويمدح آخرين ابن ميمون الذي نجده يذم الداوي مصطفى أهجشي الذي وصفه بالطاغية، وبالموازاة مدح الداوي حسين خوجة الشريف⁽³⁾ فحسب "أبو القاسم سعد الله" فإنه شاعر بلاط رسمي يتقرب من السلطة بلا تذلل، وينسب لهم الشرف بدون حق، ولا يلصق بهم الجهاد وهو أمر حق فيهم⁽⁴⁾، كما نجده ينتصر للسلطة ضد الثوار حيث كتب قصيدة هنا فيها ابن الداوي عبيد باشا (1724-1732م) محمد خوجة بعد انتصاره على متمرد بوهران يدعى "بوزيد" جاء فيها:

بشرى كما انبلج الصباح البادي بقدوم مولانا ضحى الميلا
فيساعة بركاتها فاضت على كل الورى من حاضر وبادي
قولوا لبوزيد رئيسهم الذي قد تجلى في الأبراق والأرعاد
فهذا سيف عبد(عبيد) صاديا ودم الأعادي ري ذاك الصادي⁽⁵⁾

(1) - نفسه، ص 237. أنظر حول الذين مدحوا الداوي بكداش في المقامة 08 و 13، ص 153، 238.
(**) - تولى القضاء والإفتاء الحنفي، هو من الأعلاج، قدمت أسرته إلى الجزائر في القرن 16م، ولد (1090هـ- 1678م).

(2) - أشعار جزائرية...، ص 29، 30. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 204.
(3) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 13.
(4) - سعد الله، "قصيدة خطية لابن ميمون"، الثقافة، عدد 15، 1973م، ص 25. - سعد الله، أبحاث وآراء...، ج1، ص 216.

(5) - نفسه، ص 216، 217. - سعد الله، "قصيدة خطية"....، ص 42.

إضافة إلى هذا نجده قد أعلن زواج الباشا إبراهيم (1732-1745م) وهذا ليس من شأنه حيث يقول ابن حمادوش: "بعث به إلى قاضي القضاة ليشهره، فتلقاه قاضي المواريث شيخنا ابن ميمون وأخذه وأعلنه وليس من شأنه ذلك لكن أراد تقرباً بذلك..."⁽¹⁾ ومنهم من غير مذهبه ارضاء للحكام مثل القاضي محمد بن المسبح الخطيب والقاضي الحنفي الذي كان مالكي المذهب وحوله الباي عثمان إلى المذهب الحنفي ليعينه خطيباً لمسجد سوق الغزل الذي يصلي فيه الباي، كما تولى القضاء الحنفي مراراً.⁽²⁾ وأهم تقارب بين السلطة والعلماء ظهر في بايلك الغرب أيام الداوي محمد الكبير، حيث أن ابن هطال التلمساني الذي شغل عدة مناصب في البايلك، والذي رافق الباي في رحلته إلى الجنوب الصحراوي ألف كتابه "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي" خدمة للباي بدليل قوله: "أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها قانع المبغضين ومدوخ المارقين من جمع الله له خصال الشرف والمجد".⁽³⁾

فالباي محمد الكبير كرّس معظم شعراء البايلك وكتّابه إنتاجهم لتخليد مآثره وذكر خصاله مقابل ما كان يقدمه لهم من عطايا وهبات،⁽⁴⁾ وحتى منهم من أهدى له مؤلفات كابن سحنون الذي أهداه كتابه "عقود المحاسن" وكذلك كتاب "شرح العقيدة"، وقدم له رئيس الرباط أثناء الفتح الثاني لوهـران العلامة سيدي مصطفى بن عبد الله بن حواء تقريراً للأحاديث الخاصة بالجهاد،⁽⁵⁾ كما قصده الكثير من العلماء والأدباء بعد فتح وهران لتهنئته.⁽⁶⁾

فمعظم المؤرخين في هذه الفترة كانوا موالين للأتراك أو موظفين عندهم، وبالتالي فهم يصورون القضايا التي ترضي الحكام كابن سحنون وابن ميمون، ومصطفى بن زرفة، أبوراس الناصري، لذلك يشير "بلحميسي" حيث نجد المؤلفات حول الثورة الدرقاوية

(1) - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 237.

(2) - الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص 173.

(3) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 35.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 130، 131.

(5) - نفسه، ص 128.

(6) - الزباني، دليل الحيران، ص 201.

تحدثت بإسهاب عنها إما للطعن فيها أو لإظهار شجاعة الأتراك وأصحاب هذه المؤلفات عادة هم من المقربين من السلطة.⁽¹⁾

لم يكن الشعر أو النثر أو إسداء الخدمات الوسيلة الوحيدة لتزلف وتقرب العلماء من السلطة، بل كان منهم من اتخذ من التنبؤات وسيلة للتقرب من الحكام، مثلما فعل محمد القرومي الذي بعث إلى الداوي محمد بكداش على لسان ابنه على أنه رآه في منامه بأنه فاتح وهران وهو إمام المسلمين.⁽²⁾

كما يمكن أن نلخص أهم نتائج السياسة التي انتهجتها السلطة اتجاه السلطة الروحية فيما يلي:

- لقد أوجدت السلطة العثمانية بالجزائر لنفسها حيزا في الحقل الديني، في الجزائر على غرار باقي إيالاتها، خاصة وأنها قامت على قاعدة دينية، ونتيجة إدراك الحكام لدور السلطة الروحية في المجتمع، هوما دفعهم لاستمالة أقطابها خاصة المرابطين وشيوخ الطرق الذين دعموا السلطة وبلغوا أوامرها للأهالي، لذلك نجدها وظفتها لصالحها بكل مقوماتها البشرية والإدارية، وهو ما يعني تداخل الدين والسياسة.⁽³⁾

- ساهمت علاقة التحالف بين الطرفين في إخماد العديد من التمردات والحركات المعادية للسلطة حيث اضطر الحكام إلى اللجوء إلى المرابطين لمساعدتهم بعد تزايد عداء القبائل ضدهم، وهذا كان مقابل أموال وهدايا وإصدار مراسيم الاعتراف بمكانتهم ونفوذهم، وهو ما جعل الزوايا والأسر الكبيرة طرفا فعالا ومؤثرا في الأحداث ووسيلة فعالة في فرض نفوذ البايك في المناطق البعيدة وإن كان هذا الخضوع غالبا ما يكون شكلي وظرفي لأن العديد من العائلات والمرابطين وشيوخ الزوايا فشلوا في القضاء أو في وضع حد نهائي لحركات التمرد ضد السلطة إلا بعد تدخل فرق المحلة لفرض نفوذ البايك.

- ساعدت السلطة الروحية، خاصة شيوخ الزوايا والمرابطين بالأرياف على مد نفوذ البايك على أقسام شاسعة من البلاد، حيث امتدت هيمنة السلطة على عدة جهات

(1) - بلحميسي، الثورة على الأتراك، ص 47.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص204.

(3) - حماش، المرجع السابق، ص205.

كالأوراس والهضاب ووصلت حتى الصحراء وهذا بفضل عدة أسر مرابطية كأسرة أولاد مقران وأولاد بوضياف وأولاد بوعزيز وأولاد عبد النور وغيرهم، وحتى الحكام الذين حكموا لفترة طويلة، كان نتيجة دعم السلطة الروحية لهم، فصالح باي لم يستطيع الثبوت لمدة طويلة في الحكم إلا بعد تعامله مع الأسر النافذة في بايلكه،⁽¹⁾ وهي من ساهمت في القضاء عليه فيما بعد، هذه المساعدة التي قدموها للبايلك فرضت على السلطة انتهاج سياسة تقارب وترضية معها، مقابل بسط نفوذ السلطة كما مثل هذا التحالف بالنسبة للعالم خاصة المرباط الظهور والبروز أكثر أمام الأهالي كقوة حقيقية، فكان هو الناطق باسم الأهالي أمام السلطة وهو الفاعل الرئيسي في اقناعهم بالامتثال لأوامر البايلك، وهو ما سمح له بالعمل كذلك لصالح زاويته من خلال ما يحصل عليه من مداخل وحظوة ومكانة.⁽²⁾ ساهمت في بسط نفوذ زاويته لأجيال.

- حصول بعض أقطاب السلطة الروحية على الامتيازات أمن حياتهم ماديا، كما وفر الحماية والحصانة لخلفهم وذويهم، وتغير أسلوب حياتهم وعلاقاتهم مع القبائل والأهالي خاصة بالريف،⁽³⁾ حيث أصبحوا أداة في يد البايلك تخدمه أكثر ما تخدم الأهالي، حتى منهم من استغل الأهالي وابتز أموالهم نتيجة نفوذهم والخرافات التي نشرها في المجمع.

- عملت هذه العلاقة على ربط الأرياف والمناطق الغير خاضعة بالإدارة المركزية وهذا عن طريق تكوين روابط متينة بين العثمانيين والسلطة الروحية، وخاصة شيوخ الزوايا والمرابطين منهم، وهذا عن طريق مصاهرة بعض الأتراك للعائلات النافذة الإقطاعية والمرابطية⁽⁴⁾، بحيث أن هذا التزاوج بين الطرفين قد أعطى ثماره، وهذا من خلال كسب السلطة إلى جانبها عدة قبائل كانت معادية لها في الأول، مثلما حدث خاصة في بايلك الشرق ومنطقة القبائل.

- إن النتيجة المترتبة على هذه السياسة تجسدت في ازدياد عدد الزوايا والأضرحة والمساجد والأوقاف، كما برزت حركة صوفية مرابطية واسعة النطاق تحكمت في

(1) - سعيدوني، النظام المالي، ص 50.

(2) - سعيدوني، الادارة العثمانية، ص 263.

(3) - سعد الله، على خطى ص 196.

(4) - Feraud, Le Sahara de Constantine, pp 88,89.

كل الأوضاع اليومية، كما أن السياسة التي انتهجتها السلطة الحاكمة اتجاه السلطة الروحية خاصة المرابطين وشيوخ الطرق أدى ببعض الدجالين إلى ادعاء النسب الشريف والولاية واستغلال الطريقة كوسيلة لابتزاز الناس والثراء عن طريق إقامة الحضرة على مرأى من السلطة التي تواطئت معهم وسكتت عنهم، بل شجعتهم في كثير من الأحيان عن قصد، دون مراعاة لأمر الأهالي، فاختلف المتصوفة الحقيقيين بالمزييفين والمبتدعين، وهذا كله من أجل الإبقاء على الاهلي في جهل وفي حالة تبعية للسلطة ومساعدتها في حفظ الأمن واستخلاص الضرائب.

- إن تقارب وتعاون السلطة الحاكمة مع السلطة الروحية، أدى إلى ظهور أسر مرابطية توارثت قيادة بعض المناطق بعد ازدياد وتوسع نفوذها ، كما نجد أن هذا الأمر أدى إلى احتكار بعض العائلات المناصب الدينية والتعليمية، مثل عائلة ابن العنابي التي احتكرت الافتاء الحنفي وعائلة سعيد قدورة احتكرت الافتاء المالكي لأزيد من قرن ثم عائلة ابن الأمين التي احتكرته لنصف قرن، أما عائلة ابن عمار الأندلسي احتكرت نظارة أوقاف الحرمين الشريفين،⁽¹⁾ وعائلة الفكون التي احتكرت عدة وظائف بقسنطينة كمشيخة الاسلام والخطابة ونظارة الأوقاف بالجامع الكبير، وهو ما أدى إلى ظهور إقطاع ديني وعلمي متوارث.⁽²⁾
- نتيجة ارتباط البايك بأقطاب السلطة الروحية، وإظهار الاحترام والمساهمة في حبس الاقطاعات والعقارات لممتلكاتهم وغيرها من الامتيازات، أصبح أقطابها يتمتعون بوضعية مريحة ومكانة مرموقة نتيجة صلتهم بالحكام وتحكمهم في عدد كبير من الأتباع، وأدى هذا إلى ظهور طبقة أرستقراطية في المجتمع، فهذا التحالف الذي كان أساسه تبادل المصالح والوساطة وإحلال الأمن مقابل امتيازات جعل من أقطاب السلطة الروحية خاصة المتعاملين مع السلطة شريحة ذات طابع إقطاعي على حساب الفئات الاجتماعية الأخرى التي أبعدت وحرمت من حقوق كثيرة.

(1) - غطاس، القضاة الأحناف، ص374.

(2) - Gaid, Ibid, p122.

- فالسلطة الروحية ونظرا لما كانت تملكه من ثقل اجتماعي وامتداد سياسي داخل حقل السلطة نفسها، من خلال الوظائف التي تولتها كالوساطة والافتاء والقضاء الذي كان أحد الأساليب الرئيسية لإشراكهم في دواليب السياسة،⁽¹⁾ فمثلا كان بإمكانها المساهمة بشكل أساسي في تحديد وضبط أهداف السلطة، في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، كان كذلك بإمكانها أن تساهم في صياغة وتقنين الأطر الشرعية المنظمة للمجتمع، والموجهة للحكام وتولى تنفيذها.⁽²⁾

وفي الأخير يمكن القول وبالرغم من أن الظروف الداخلية للجزائر كانت كلها في صالح العثمانيين لتشكيل حكومة ذات صبغة وطنية بإمكانها الصمود أمام الأخطار الخارجية والداخلية، لكنهم لم يستغلوا الأوضاع لصالحهم بل وضعوا وسائل من شأنها أن تزيد التباعد بين فئات المجتمع⁽³⁾، بحيث لم يكن يربط بينها سوى جمع الضرائب التي عمقت الهوى خاصة في الفترة الأخيرة.

ففكرة التضامن الإسلامي التي اعتمدها العثمانيون لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الأوساط الشعبية بالتقرب إلى المرابطين وشيوخ الزوايا بمصاهرتهم ومنحهم الإمتيازات، وإن نجحوا فيها، إلا أنهم أخفقوا في خلق إطار طبيعي للاتصال بالرعية، لأنهم سرعان ما شكلوا ارسقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على أصول عنصرية احتكرت لوحدها المناصب الدينية والعلمية والسياسية والاجتماعية.

وبهذا يمكن القول أن مرحلة التحالف التي جمعت بين الطرفين مثلتها إشتراك المصالح التي شكلت ائتلاف فعلي بين السلطة السياسية والسلطة الدينية.⁽⁴⁾ استمر فترة طويلة من الزمن رغم الفتور الذي كان يعتريها أحيانا من خلال تمرد بعض هذه القوى الدينية، لكنها هذا لم يحدث القطيعة والثورة ضد السلطة إلا مع بداية القرن 19م وهذا نتيجة ظروف ومعطيات جديدة طرأت على الوضع الخارجي انعكست سلبا على الوضع الداخلي كما سنرى لاحقا.

(1)- Filali, Saintité ...p128. – Gaid, Chronique..., p123.

(2)- حسن الضيفة، المرجع السابق، ص 106.

(3)- خير محمد فارس، المرجع السابق، ص 206.

(4)- Merad Boudia, Op. Cit, p340.

القسم الرابع

السلطة الروحية من العمل السياسي إلى العمل العسكري
والثورة/ من الائتلاف والتعاون إلى التمرد والثورة

الفصل السابع: تحول العلاقات من التعاون والائتلاف إلى
التمرد والثورة

الفصل الثامن: رد فعل السلطة الروحية على تعسف
السلطة السياسية أواخر العهد العثماني ونتائجه

الفصل السابع

تحول العلاقات من التعاون والائتلاف
إلى التمرد والثورة

1- خلفيات التحول في العلاقة بين السلطتين:

إن دراسة علاقة الحكام العثمانيين بالسلطة الروحية خاصة في الفترة الأخيرة من الوجود العثماني بالجزائر، وابتداء من عام 1792م تاريخ استرجاع مدينة وهران من الإسبان، بعد زمن دام قرابة ثلاثة قرون تكتسي أهمية بالغة لأنها تساعد على فهم الاضطرابات التي شهدتها البلاد والتي لعب فيها أقطاب السلطة الروحية خاصة زعماء الطرق دورا هاما.

فالتحالف الطبيعي الذي سبقت الإشارة إليه لم يتواصل إلى نهاية الوجود العثماني بالجزائر، إذ طرأت عليه تغيرات جذرية ومنعرجات سياسية حالت دون استمرار الاعتماد على أقطاب السلطة الروحية خاصة في الوساطة بين البايك وبين السكان، هذا العنصر الذي اعتمدوا عليه منذ بداية تواجدهم بالجزائر تحول بدوره إلى أداة تحريض للسكان ضد السلطة العثمانية وهنا نتساءل حول الأسباب التي دفعت بأقطاب السلطة الروحية إلى الانتقال من صف المدافعين والمساندين للحكام إلى صف المحرضين للسكان.

وقد حاولنا تفسير هذه الأسباب فيما يلي:

- 1- السياسة الضريبية التي انتهجها العثمانيون ابتداء من القرن 18م.
- 2- علاقة السلطة بالمجتمع/علاقة الحاكم بالمحكوم.
- 3- الجلاء الإسباني عن وهران عام 1792م.
- 4- تراجع السلطة السياسية أمام تطور السلطة الروحية عسكريا واقتصاديا.

1-1- السياسة الضريبية أواخر العهد العثماني:

لقد بدأ التأثير السلبي للسلطة السياسية على الأرياف منذ القرن 17م، أي منذ عهد الباشوات الذين استنزفوا موارد الريف، وهذا راجع إلى حاجاتهم المالية، لتعويض ما دفعوه مقابل تولية منصب الباشوية،⁽¹⁾ واستمر هذا الوضع إلى غاية عهد الدايات الذي شهدت أواخره تذبذبا اقتصاديا في وقت اختل فيه التوازن بين الأسطول الجزائري والأساطيل الأوروبية، مما زاد في مطالب البايات الذي شهدت الايالة أواخره تقهقرا اقتصاديا، في وقت اختل فيه التوازن بين الأسطول الجزائري والأساطيل الأوروبية، مما زاد في المطالب المالية للبايات، الذين اشتهر معظمهم بالجشع، نتيجة مطالبة الدايات لهم بمبالغ عجز البايك

(1) - ناصر الدين سعيدوني، "تدعيم الحكم التركي بالجزائر"، الأصالة، ع32، الجزائر، 1976م، ص 593

عن توفيرها، إضافة إلى تأثر الجهاز الإداري من شح الموارد المالية،⁽¹⁾ بسبب ضعف الأسطول الجزائري، إضافة إلى أن الجزائر في هذه الفترة وقعت معاهدات مع الدول الأوربية، وهو ما قلل فرص النشاط البحري، خاصة وأن التجارة في البحر الأبيض المتوسط كانت تحمل على سفن انجليزية أو فرنسية أو هولندية، كانت الجزائر مرتبطة معها بمعاهدات، كما أن صغر السفن الجزائرية مقارنة بالسفن الأوربية، صعب على الرياس الحصول على الغنائم البحرية.⁽²⁾

أ- تأثيرات الواقع السياسي على ميزانية البايلك:

ونتيجة لتغير موازين القوى وتغير الظروف الدولية وتراجع البحرية الجزائرية، كان على السلطة إيجاد مصدر ثابت لتمويل الخزينة، وهو ما سبب لها نفورا من طرف رجال الدين الذين التحموا بالأهالي، وساد الفتور والتوتر العلاقة التي تربطهم مع السلطة إلى أن اتخذت صفة العداء والصراع، ثم الثورة بداية القرن 19م.⁽³⁾

وغني عن الذكر أن الخزينة الجزائرية كانت تعتمد كذلك على الرسوم الجمركية المفروضة على السلع والسفن عند دخول المرسى، وقد حددت الرسوم على السفن الجزائرية والعثمانية بـ 20 قرشا أما الدول التي تربطها معها معاهدات 40 قرشا أما سفن الدول التي لا تربطها علاقات معها تدفع 80 قرشا، إضافة إلى أتاوة حق الاسترشاد بفنار المرسى المقدرة بـ 12 فرنكا، والملاحظ أن حقوق الديوانة تختلف من مرسى إلى آخر ومن وقت إلى آخر قد تصل إلى 12.5% على الواردات و 2% على الصادرات،⁽⁴⁾ لكن "دوغرامو" يذكر أن حق الديوان قدر بـ 11% على كل الصادرات أو الواردات وإضافة إلى القرصنة التي تعد أهم مورد للخزينة.⁽⁵⁾

فإلى غاية القرن 18م كانت القوة المالية للجزائر ناتجة عن النشاط البحري⁽⁶⁾ الذي كان مفتاح التحالف المرابطي-العثماني، والذي بدأ يتناقص مع بداية القرن 18م، أين بدأت السلطة تتقل كاهل السكان بالضرائب،⁽⁷⁾ فخلال هذا القرن قلت غنائم البحر بحوالي

(1) - فلة القشاعي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1830م)، ماجستير تاريخ حديث، جامعة الجزائر/ 1982م، ص 81.

(2) - وولف، المرجع السابق، ص 392.

(3) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 38، 39.

(4) - سعيدوني، النظام المالي، ص 108. - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 34.

(5) - De Gramont, Op. Cit, pp50, 51.

(6) - Boyer, Introduction, p309.

(7) - Merad Boudia, Op. Cit, p342.

100 ألف فرنك فرنسي، كما تقلص عدد السفن من 24 سفينة سنة 1726م إلى ثمانية مراكب صغيرة وجليوطتين صغيرتين عام 1788م،⁽¹⁾ وبهذا بدأت القوة المالية للجزائر في التقهقر والتقلص ابتداء من عام 1750م ودام حتى بداية القرن 19م.⁽²⁾

ونتيجة لهذا التراجع في الموارد البحرية توجه اهتمام الحكام نحو الداخل، وسلطت الأضواء على العالم الريفي من أجل توفير احتياجاتهم المالية، وهو ما أدى إلى حرمان السكان من مداخل الزراعة واستغل الحكام الأهالي عامة والفلاحين خاصة،⁽³⁾ لتصبح الضرائب أواسط القرن 18م المصدر الرئيسي لدخل الخزينة، بعد تناقص الغنائم البحرية، والملاحظ على هذه الضرائب أنها غير قارة، ولا محددة لا نوعا ولا كماً، البعض يؤخذ عينا والبعض نقدا، خاصة على القطاع الفلاحي حيث أنها لم تراعى ظروف القائمين عليه، لأن السلطة تأخذ بعين الاعتبار نوعية الملكية واحتياجات الخزينة، وهو ما انعكس سلبا على الفلاحين.⁽⁴⁾

فهذه الضرائب لم تكن تراعى فيها كمية المحصول بل كانت تتم حسب الزويجة أو الجادة،⁽⁵⁾ وهذا سعيًا من السلطة إلى توفير أموال لتغطية نفقاتها، فمثلا نجد الباي محمد الكبير عندما تولى الحكم أخضع معظم القبائل المتمردة، وأرغمها على دفع الضرائب مما أدى إلى ارتفاع واردات البايلك المالية، الموجهة لتغطية رواتب الموظفين إلى درجة توفير فائض في المواد الأولية مثل الزيت، الحبوب، وغيرها وجهت للتصدير،⁽⁶⁾ وما يوضح هذا ما ذكره "ابن هطال" الذي رافق هذا الباي في حملاته نحو الجنوب، حيث أعطانا صورة حية مما حصل عليه من خلال حملته على المناطق بالأغواط: "قدخلها من غير حصار عليها ولا قتال، فانتهت جميع ما فيها من القماش والسمن وغير ذلك مما ترغب النفوس، وقد وجد فيها من القمح والشعير ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى فحملت منه الناس (الجند) الشيء الكثير وكانت الحصيلة خمسة آلاف ريال بوجو ومائة خادم ومائتين وخمسين بغيرا...".⁽⁷⁾

(1)- Julien, Op. Cit, pp289, 290. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 360.

(2)- Boyer, Introduction, p302.

(3)- غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 143.

(4)- سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 32، 33.

(5)- Alain, Op. Cit, pp 45, 46.

(6)- لواليش، المرجع السابق، ص 27.

(7)- ابن هطال، المصدر السابق، ص 55، 56.

ونتيجة لهذه الأوضاع المالية طالب الدايات، البايات بمصادر بديلة فلم يجد هؤلاء إلا مضاعفة الضرائب، والعمل على إخضاع القبائل الخارجة عن السلطة،⁽¹⁾ وهو ما يؤكد "ابن هطال" في مؤلفه عن السبب لرحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي، هو إخضاع القبائل في جهة القبلة التي لم تتلها يد السلطة، مشيراً إلى هذا بقوله: «رأى أنها ذات بلدان كثيرة، وأعراب راحلة ومقيمة غزيرة إلا أنها لم تتلها أيدي السلطة ولم يكن منها للملك مصلحة ولا منفعة».⁽²⁾

ب- أنواع الضرائب المجبأة على السكان:

إن النظام الضريبي الذي اعتمدته السلطة امتاز بنوعين حسب المناطق، فالضرائب المجبأة على سكان المدن غير الضرائب المجبأة على سكان الريف، حيث وقع ضغطاً جيانياً تعسفياً من حيث طرق استخلاصه.

ففي المدن تأتي على رأس النظام الضريبي الرسوم المفروضة على أصحاب الأنشطة التجارية^(*) حيث يتكفل أمناء الحرف أو النقابات المهنية بتزويد الخزينة بمبالغ مالية تختلف حسب أهمية النقابة، حيث تصل حتى 20 ريال أسبوعياً،⁽³⁾ وأحياناً بدل هذه الضرائب تقدم النقابات خدمات مجانية للبايلك، مثل حوانيت الحدادة بمليانة كانت تزود الانكشارية بما يحتاجونه من أسلحة وسروج وألجمة مجاناً مقابل السماح لهم بمزاولة نشاطهم وبيع إنتاجهم،⁽⁴⁾ إضافة إلى أنه كان يتوجب على كل حانوت دفع ضريبة شهرية قدرت بـ 30 سنتيماً بغض النظر عن إمكانياته كما فرضت على المدن التي بها حاميات عسكرية ما يسمى "لزمة الضيافة" أو "ضيافة دار السلطان" وتكون عند استبدال الحامية العسكرية بالمدينة، والتي تختلف من مدينة إلى أخرى حيث بلغت في المدن الرئيسية كالمدينة 3000 ريال بوجو أما المدن الصغيرة كدلس لم تتجاوز 350 ريال بوجو،⁽⁵⁾ وهذه الضريبة كانت تفرض حتى على التجار الوافدين على المدن منها ما ذكره "محمد الشويهد" أن الداوي مصطفى سنة 1700م، عندما مثل أمامه أحد الجلايين (من التجار

(1)- Boyer, Contribution, p37. - Merad Boudia, Op. Cit, p342.

(2)- ابن هطال، المصدر السابق، ص 36، 37.

(*)- للمزيد حول الضرائب المفروضة على الصناع والحرفيين بالمدن ينظر: (محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر).

(3)- غطاس، الحرف والحرفيون، ص 182.

(4)- سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 62.

(5)- غطاس، الحرف والحرفيون، ص 184، 185.

من يجلب الغنم لمدينة الجزائر)، أمر بمحاسبتهم عن 37 غرامة متوجبة عليهم قيمتها 1910 و 8/1 ريال، فدفع له الجلابين 606 ريال وبقي في ذمتهم 1301 و 8/3 ريال، كما أمر بمحاسبتهم بشأن مساهمتهم في تجهيز حامية المدن وتجهيز الأسطول بـ 1004 و 8/3 ريال.⁽¹⁾

إضافة إلى هذه الضرائب الثابتة كانت هناك ضرائب أخرى مستحدثة، مثل رسوم الأسواق التي يستخلصها "خوجة الرحبة" مقابل مبلغ مالي والجدير بالذكر أن لكل سلعة كان لها مشرف يراقب دخولها وخروجها من الأسواق، ليأخذ ما يترتب عنها من "مكس" مثل خوجة الفحم، خوجة الخشب....⁽²⁾ فمثلا قنطار من الكتان يترتب عليه 25 درهما، وحمولة تمر أو زيتون 50 درهما، أما القوافل القادمة إلى مدينة الجزائر كان يترتب عليها دفع دينار واحد على كل حمولة، وقد بلغ المكس في بعض الأسواق كسوق علي خوجة بزواوة إلى 10% من نسبة البضاعة.⁽³⁾

ففي بايلك التيطري كان الباي يتلقى من مجموع المكس 06 صاع من الحبوب ومكيال على كل حمولة صابون و 3 مكاييل على كل حمولة زيت، والقبائل التي تقصد أسواق المدينة كبني ميزاب يدفعون 01 محبوب على كل حمولة جمل و 2/1 سلطاني على كل حمولة بغل و 1 بوجو على حمولة حمار.⁽⁴⁾

يضاف إلى هذا ضريبة حق العسة: التي فرضتها السلطة على الحرفيين من أجل حفظ الأمن وذلك عن طريق إشراكهم في الحراسة الليلية فضلا عن مبلغ إجباري يختلف من حرفة إلى أخرى، إضافة إلى ضريبة إجبارية تسمى ضريبة "رأس العام"،⁽⁵⁾ منها القانون الذي وضعه الداوي شعبان خوجه (1688-1695م) سنة 1692م من أجل تنظيم الحراسة الليلية حيث حدد عدد الرجال القائمين عليها والمقدر عددهم 60 رجلا منهم 30 رجلا من الصناع و 10 من زواوة و 10 من صبايحية... وكل حسب عدد نوباته.⁽⁶⁾

لكن ما يهمننا أكثر في هذه السياسة الضريبية، الضرائب التي فرضت على الأرياف، والتي كانت لها صلة مباشرة بالثورات التي شهدتها الإيالة بداية القرن 19م،

(1) - محمد الشويهد، المصدر السابق ص 129.

(2) - Venture, Op. Cit, pp150, 151.

(3) - سعيدوني، النظام المالي، ص 108، 109. - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 62.

(4) - Aucapitaine/Federman, N11, Op. Cit, pp213, 214.

(5) - غطاس، الحرف والحرفيون، ص 184، 185.

(6) - محمد الشويهد، المصدر السابق، ص 111، 113.

والتي مثلت صورة القطيعة النهائية بين الإيالة والسلطة الروحية، وتغير موقف هذه الأخيرة من الحكام حتى الذين كانت لهم علاقات متينة معها، كصالح باي الذي أثرت سياسته سلبا على سكان الأرياف وأثارت مخاوف سكان المدن الذين تحولوا عن مساندته، وجأهروه العداء ونفر منه رجال الدين،⁽¹⁾ فأواخر عهده تغيرت سيرته وأخذ يظلم الناس دون مبرر ويفرض عليهم الضرائب المجحفة، ولا يراعي في هذا ظروفهم و أوضاعهم المعيشية الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي أدى إلى ظهور خصوم له، ناصبوه العداء، واشتكوه للداي فقام بعزله.^{(2)(*)} ثم قتله بعد ذلك

وقد استمر الوضع ببابليك الشرق في فرض الضرائب الجائرة^(**) على السكان خاصة بعد الفترة التي أعقبت موت صالح باي،⁽³⁾ وبالإضافة إلى الضرائب الشرعية كالعشور والزكاة فرضت السلطة عدة ضرائب سميت **بالضرائب المستحدثة** والتي غالبا ما يُلجأ إليها لظروف اقتصادية طارئة، من أجل سد العجز المالي، وقد لجأت إليها السلطة العثمانية بعد أن تقلصت الموارد البحرية، وفرضتها على سكان المدن والأرياف على حد سواء، لكنها كانت بالأرياف أكثر لذلك ألحقت بها أضرارا كبيرة، أدت إلى هجرة الفلاحين لأراضيهم، وهروب القبائل إلى الجبال، ثم التمرد والثورة في آخر المطاف.

منها **ضريبة اللزمة**: وهي ضريبة استثنائية، تدفعها القبائل المقيمة في المناطق الجبلية والبعيدة،⁽⁴⁾ للمساهمة في نفقات الجند بالأرياف وتكون ضريبة نقدية أو عينية،⁽⁵⁾ فمثلا بعض القبائل المجاورة لتلمسان كبني سنوس وولهاصة...، كانت تدفع لزمة نقدية و 16 حصانا، أما القبائل الجبلية، كان عليها بدفع كمية من الحياك والبرانس والتي يبيعها

(1) - سعيدوني، ورقات...، ص 125.

(2) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 65 هامش.

(*) - يبدو أن الداوي وجد في شكوى الناس من صالح باي ذريعة لعزله، لأنه في الحقيقة كان يتخوف من قوته ومدى نفوذه وقدرته على الانفصال عن الحكم المركزي.

(**) - الباوي شعبان (1688-1692م) كان يجبر القبائل على دفع الضرائب، (العنتري، فريدة مؤنسة، ص 50 هامش). من أجل دفع الدنوش مستعملا في ذلك كل الوسائل التعسفية من أجل جمعها إرضاء لباشا الجزائر.

(Vayssetes, histoire de Constantine, p89)

(3) - مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، حقيق. حساني مختار، منشورات، حلب الجزائر، 1999، ص 05.

(4) - Laraoui, Op. Cit, p45.

(5) - سعيدوني، النظام المالي، ص 97. - القشاعي، النظام الضريبي، ص 64.

الباي بثمان غال جدا، أما القبائل اليعقوبية فكان عليها دفع 10 آلاف ريال بوجو أما خليفة الباي فكان يتلقى سنويا 40 ألف ريال بوجو من القبائل الخاضعة لسلطته.⁽¹⁾ وحتى البايات كانوا ملزمين بتقديم لزمة للباشا، فباي الغرب كان ملزما بتقديم 80 ألف ريال صغيرة كوارط، وباي الشرق يدفع 80 ألف ريال كبيرة، أما باي التيطري فيدفع 14 ألف ريال صغيرة، إضافة إلى لزمة البينباشي^(*) المقدرة بـ4000 درو بجة، يدفعها البايات كل شهر، كباي الغرب أو كل ستة أشهر كباي الشرق، في ثالث يوم من تأديته الدنوش.⁽²⁾

الغرامة: وهي ضريبة تفرض على المناطق البعيدة أو الخارجة عن إرادة السلطة كالهضاب والمناطق الجبلية والصحراوية، وتسدد نقدا أو عينا، والغالب أنها كانت تؤخذ عينا في شكل مواشي ومواد غذائية،⁽³⁾ ومنها من فرضت عليها غرامة عن طريق الزويجة،⁽⁴⁾ أي على كل محراث يجره ثوران ما مقداره حمولة بغير من القمح وآخر من الشعير،⁽⁵⁾ ففي بايلك التيطري كانت القبائل تدفع الضرائب والغرامات الثقيلة والمتنوعة والتي تكون ثابتة وتدفع نقدا وعينا أو متغيرة وتدفع نقدا فقط، وتكون حسب المواسم بالصيف والشتاء.⁽⁶⁾ مثلما يوضحه الجدول:⁽⁷⁾

القبيلة	أولاد علان	أولاد حسن بن علي	ريغة	ديرة
الصيف	7.200 فرنكا	75 فرنكا	5.400 فرنكا	228.000 فرنكا
الشتاء	3.600 فرنكا	34 فرنكا	3.600 فرنكا	216.000 فرنكا

الخطية: وهي ضريبة ظرفية تفرض عادة على القبائل المتمردة عند إخضاعها أو طلبها الأمان، وقد تفرض على الأفراد كعقاب لهم عند مخالفتهم القانون أو دية للمجرمين، وهذه الضريبة شكلت ببائلك الشرق إحدى أهم مصادر الدخل، حيث قدرت بـ1/5 موارد

⁽¹⁾ - Estehazy, De la domination, pp270, 271.

^(*) - رتبة عسكرية، صاحبها تحت إمرته 1000 رجل. - الزهار، المصدر السابق، ص 59.

⁽²⁾ - نفسه، ص 46، 47.

⁽³⁾ - سعيدوني، النظام المالي، ص 95. - القشاعي، النظام الضريبي، ص 66.

⁽⁴⁾ - سعيدوني، نفسه، ص 95.

⁽⁵⁾ - مزيان وشن، مجانة عاصمة المقرانيين ثلاثة قرون من النضال السياسي والجهاد العسكري القرن 16-19م، دار

الكتاب العربي، الجزائر، 2005م، ص 92.

⁽⁶⁾ - Aucapitaine/Federman, Op. Cit, N°11, p120.

⁽⁷⁾ - Ibid, p120.

الخزينة عهد الحاج أحمد باي.⁽¹⁾ ومن أمثلة ذلك ما قام به الباي أحمد طوبال (1808-1811م) بعد قضاءه على أحمد شاوش القبائلي الذي اغتصب الحكم سنة 1808م وأفرغ الخزينة في ظرف 15 يوم، حيث فرض على السكان غرامة مالية قدرت بـ 200 ألف سلطاني، إضافة إلى 400 ألف كان يجب دفعها لتقديم الدنوش، وهو الأمر الذي أثار خوف وندم السكان، لذلك راسل الشيخ محمد بن الفكون الباشا مبينا له ندم وخوف السكان، فتم تخفيف الغرامة.⁽²⁾

أما ببايك الغرب الباي محمد الكبير عندما توجه للجنوب في إحدى حملاته، غرّم سكان الأغواط ما مقداره 5 آلاف سلطاني وعبيد و 200 ثوب و 250 بعير و 4 جياد،⁽³⁾ فالباي حسان وحسب "المزاري" فقد أكثر من العقوبات المالية (الخطية) ضد الرعية.⁽⁴⁾ وفي حالة وجود قتيل في منطقة تكلف السلطة المنطقة بالبحث عن القاتل، وإلا تفرض عليهم ضريبة تقدر بألف سلطاني،⁽⁵⁾ وإذا لم تصل السلطة للقاتل تفرض خطية جزافية على أفراد العشيرة لعدم تمكنهم من التعرف على القاتل.⁽⁶⁾

ضيفة الباي: تدفع سنويا للباي، عند مروره على أراضي قبائل الرعية،⁽⁷⁾ وهو الذي يحدد مقدارها وتكون حسب مكانة القبيلة، ومحصولها يدفع جزء منه شتاء وجزء منه صيفا، فنجد بالتيطري يدفع أولاد علان 2500 فرنك وأولاد حسن بن علي 1500 إلى 2000 فرنك وقاعدة ديرة 3600 فرنك.⁽⁸⁾

ضيفة الدنوش: ضريبة فصلية، يدفعها شيوخ القبائل للباي أو الخليفة عند توجهه لتقديم الدنوش وتكون عينا أو نقدا، حيث يشتري بها الباي هدايا ليقدمها للداي، غالبا تقدم كل 06 أشهر، حيث وفرت هذه الضريبة لخزينة الدولة من باييك التيطري وحده 248000 بوجو،⁽⁹⁾ أما ببايك الشرق فقد قدرت عشية الاحتلال بـ 800.000 فرنك عهد الحاج أحمد

(1) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 67.

(2) - Vayssettes, Histoire de Constantine, p185. – Vayssette, Histoire des derniers deys, N°04, p210.

(3) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 62.

– Gorguos, (A.), Expédition de Mohammed-el kebir- in **R.A.** N03, 1858, p188.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص 350.

(5) - حمدان، المرأة، ص 161.

(6) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 67.

(7) - Bouaba, Op. Cit, p44.

(8) - Aucasitane/Federman, Op. Cit, N°011, p211 (marge).

(9) - سعيدوني، النظام المالي، ص 98.

باي، إضافة إلى هدايا متنوعة شملت 1500 بقرة 6000 خروف 71 حصان، برانس تونسية، حياك، أغطية، جلود، 7000، 150 سلة زيتون، أقمشة 20 حمولة زبدة، 20 حمولة كسكس...⁽¹⁾

ضيفة العادة: ضريبة تدفع اعترافا بسلطة الباي وخضوعا لأوامره.⁽²⁾

حق الجيل: تدفع من كل غريب يستقر في قبيلة ما حتى وإن لم يكن من الخماسين أو من الرعاة، وتقدر ما بين 3.60 إلى 7.20 فرنك.⁽³⁾

المعونة: أنشأت منذ تأسيس الإيالة، تدفع إلى دار المونة في نفس توقيت العشور إلا أنها تختلف عن العشور حسب الجهة الموجهة إليها.⁽⁴⁾

وهي ضريبة غير محددة لا من حيث الكمية ولا من حيث الوقت، لكنها غالبا تقدم فصل الصيف بغرض تمويل الحاميات العسكرية بالمدن و فرق النوبة المستقبلية بالأرياف، وتكون على شكل أغنام أو حبوب، تين، زيتون أو فضة، وهي من النادر أن تدفع نقدا وتتميز بكونها تنخفض في حالات السلم،⁽⁵⁾ مثل معونة بلاد القبائل التي تدفعها فليسة، والمقدرة ب 500 ريال بوجو أما بوغني فتدفع 125 ريال، قائد سيباو 3 آلاف بوجو و 550 قلة زيت ثمنها 1000 بوجو و 100 حمولة جمل تين جاف ما قيمته 5000 بوجو.⁽⁶⁾

حقوق التولية: كان موظفو الإيالة يدفعون للبايات مقابل توليتهم المناصب، فالقائد أو شيخ القبيلة كان يدفع حق البرنوس عند تولي منصبه، وهو يجمع هذه الضريبة من أفراد قبيلته تحت ما يسمى "ضريبة حق الفرح" وهي ريال بسيطة (1.80 فرنك) عن كل أسرة أو خيمة أو دوار، عند صدور قرار التولية أو التجديد، كما تخصص لحامل خبر التولية ما يسمى **حق البشارة**،⁽⁷⁾ وتكاد تكون هذه الضريبة سنوية، نظرا لقصر مدة تولية المنصب، وهو ما وفر موارد هامة للخزينة، بلغت قيمتها في بايلك الشرق 20 ألف بوجو

(1) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 71.

(2) - نفسه، ص 71.

(3) - Aucapitaine/Federman, Op. Cit, N°11, p213.

(4) - Ibid, p118.

(5) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 65.

(6) - سعيدوني، النظام المالي، ص 97، 98.

(7) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 69.

(36 ألف فرنك)⁽¹⁾، فمثلا قائد حصن قسنطينة كان يدفع سنويا 928 صايمة، قائد ورقلة 928 صايمة، شيخ البلاد بمدينة الجزائر 500 صايمة، رئيس طائفة اليهود 300 صايمة، آغا زواوة 2000 صايمة، المحتسب بمدينة الجزائر 1300 صايمة، شيخ قشتولة ما بين 1000 إلى 1500 صايمة للخزينة و 2200 صايمة للديوان،⁽²⁾ آغا الديرة يدفع 4 آلاف ريال للباي، وآغا الزمالة 20 ألف ريال.⁽³⁾

مهرباشا: ضريبة تؤخذ على الخيل، لتجديد فرسان البايك التي تهلك أثناء الأوبئة التي تصيب الحيوانات أو التي لم تعد تصلح للمشاركة في الحملات العسكرية أو لنقل الدنوش، وقد وفرت لبايك الشرق ما بين 600 إلى 700 حصان سنويا.⁽⁴⁾

ويضاف إلى هذه الضرائب ضرائب أخرى منها ضريبة **العسة** التي تدفعها قبائل الصحراء عند قدومها للتل لاقتناء الحبوب التي هي في حاجة إليها، مقابل بيعها لانتاجها من التمر،⁽⁵⁾ وضريبة "عزلة زوجة الباي" التي يقدمها أهل التيطري لزوجة الباي والمقدرة بـ 170 بوجو (306 فرنك)،⁽⁶⁾ وغيرها من الضرائب الاستثنائية الأخرى، كحق الفارس، حق الجياد،... ونتيجة هذا الضغط الضريبي لجأت قبائل جرجرة كقبائل آث يني ويني يحي بوطالب وإفليس إلى صناعة عملة مزورة، مثل البوجو والسلطاني والبياستر الاسباني وغيرها من العملات الموجودة في الجزائر ودفعها للسلطة كضرائب.^(*)

هذه السياسة الضريبية المتنوعة والثقيلة جعلت البعض مثل "دوغرامو" يقول: «أن أي مادة منتجة لم تقلت من النظام الضريبي المطبق بالإيالة»،⁽⁷⁾ أما "شالر" فيقول: «أن البايات كانوا يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الأهالي عن طريق أعوانهم»⁽⁸⁾ فهذا النظام الضريبي جعل "الزهار" يقول «هكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي، والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب

(1) - سعيدوني، النظام المالي، ص 98.

(2) - Tacherifat, pp45, 46.

(3) - Estehazy, De la domination, p267.

(4) - القشاعي، النظام الضريبي، ص 67.

(5) - نفسه، ص 72. - Aucapitaine/Federman, Op. Cit, N°11, pp211

(6) - Ibid, p 214.

(*) - للمزير ينظر، فلة موساوي القشاعي، "صناعة العملة المزورة في منطقة القبائل أثناء التواجد العثماني 1515-1830م،" مجلة الدراسات العثمانية، ع34، 2006، تونس.

(7) - De Grammont, Op. Cit, p410.

(8) - شالر، المرجع السابق، ص 59.

أموال المسلمين وما وضع هذا حتى صار الناس فجارا والأمراء ظالمين»،⁽¹⁾ أما "ابن سحنون" فقد أشار إلى هذا بقوله: «وفرضوا على الناس المغارم شتاء وصيفا، وعينوا للجند عطاء مخصوصا وضربوا عليهم البعوث... تخرج كل ستة أشهر أواسط أبريل إلى عمال الجباية، فمنها من يرجع إلى الجزائر بعد أربعة أشهر، ومنها من يرجع بعد سنة». ⁽²⁾

إضافة إلى كثرة الضرائب وثقلها فإنها كانت تتم بصورة تعسفية قمعية واستغلالية، بحيث لم تكن عملية الجباية تتم بصورة عادية بل تحت الضغط والإكراه غالبا، حيث كان الحكام يرسلون الحملات التأديبية لإرغام الأهالي على دفع الضرائب في حالة تمردا وعصيانها،⁽³⁾ وهو ما أشار إليه "هابنسترايت" عندما رافق الباي في إحدى محلات الشرق، أن البايات يستعملون القوة لاستخلاص الضرائب التي لا يمكن لأي كان التهرب منها، وكل من يشتكي من الباي ومحلته للسلطة المركزية بالجزائر تعد مخاطرة له، لأنه لا أحد يستمع لشكواه،⁽⁴⁾ يضاف إلى هذا تعسف وعدم نزاهة الوسطاء من كبار الموظفين وقياد وشيوخ قبائل الذين كانوا يأخذون نصيبا لهم من مخزون الضرائب، خاصة وأنه لم تكن تدفع لهم مرتبات ثابتة، بل امتيازات عززت بدورها الرشوة والفساد،⁽⁵⁾ لذلك يقول "حمدان خوجة" إن جباة الضرائب يقومون بتجاوزات وكانوا يجمعون أكثر من اللازم،⁽⁶⁾ وهذا من أجل زيادة ثروتهم.

وبما أن علاقة السلطة العثمانية بالأهالي خاصة بالريف تمثلت أساسا بين فئتين حاكمة ومحكومة انطلاقا من النظام الضريبي وما يتصف به من سياسة جبائية مجحفة، لأن الحكام حرصوا على الانتفاع بنظام ضريبي جائر، عملوا من خلاله على الاستحواذ على أكبر قدر من الأموال، لأنه حسب البعض فإن العثمانيين عبيد الدرهم والدينار، لذلك

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 35.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 442.

(3) - سعيدوني، النظام المالي، ص 122.

(4) - أو. هابنسترايت، المرجع السابق، ص 79.

(5) - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم، ج 3، ص 303.

(6) - حمدان خوجة، المرأة، ص 144.

قال عنهم الشاعر سعيد المنداسي في قصيدة. عبثوا واستفزوا المسلمين من القرى
وقد عبدوا حمر الدنانير أوثانا⁽¹⁾

وبسبب كثرة الضرائب وتنوعها صور لنا البعض مدى استنزافها للأهالي بقوله:
«أن التركي أينما ذهب تصبح الأرض جذباء لمدة 100 سنة،⁽²⁾ ويوجد في التراث
الشعبي وصفا دقيقا لما عاناه الأهالي من ثقل الضرائب.

المسلم في فم الحيا يعطي الجزيا

والكفر يقوي يعرش

ديننا ضعيف ولي فديا لأهلي العديا

الأسعار أغلات، وحتى أمطار الصيف أرفاقوا

الحرث راه أصعب نبتة اليابس والحجر يكثر⁽³⁾

ج- الدنوش:

لقد كان كل ما يجمعه البايات يقدم في شكل دنوش للحكومة المركزية، كل ثلاث
سنوات من طرف البايات وكل ستة أشهر من طرف خلفائهم، كان هؤلاء البايات يدنشون
كل ثلاث سنوات وخلفائهم يدنشون مرتين في كل سنة فعندما يدنش البايات لا يدنش
الخلفاء.⁽⁴⁾

ويعد بايلك الشرق أكثر البياليك من حيث قيمة وكمية الدنوش المقدمة، كونه يعد
أكبرها إضافة إلى وجود أكثر الأراضي الخصبة به، والتي شكلت سنة 1763م 29% من
مداخل الخزينة و32% سنة 1822م،⁽⁵⁾ وأغلب هذه الأراضي كان مخصصا للحبوب
48000 ألف جابدة، في حين بايلك الغرب كان له 35000 جابدة،⁽⁶⁾ وقد اختلفت
الإحصائيات حول المبلغ الذي كان يقدمه البايات على شكل دنوش، ويذكر "شالر" أن كل
زيارة للبايات لمدينة الجزائر تكلفهم خاصة باي وهران وقسنطينة 300 ألف دولار،⁽⁷⁾ في

(1) - سعيد بن عبد الله المنداسي، قصيدة نونية في ذم الأتراك الحاكمين لتلمسان، مخطوط رقم D1656، المكتبة الوطنية، الرباط، المغرب، ص 114، 115. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 56.

(2) - Aucapitaine/Federman, Op. Cit, N°11, p121. - Feraud, Le sahara..., p80.

(3) - Cour (A), « Constantine en 1802 d'après une chanson populaire du cheikh Belkacem-Erahmouni », in **R.A** N°60, 1919, pp229, 231.

(4) - الزهار، المصدر السابق، ص 35.

(5) - Merad Boudia, Op. Cit, p332.

(6) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 58.

(7) - شالر، المرجع السابق، ص 46.

حين هناك من ذكر أن كل منهم يقدم 60 ألف بوجو (108000 فرنك) كل ثلاث سنوات إضافة إلى الهدايا، أما الخلفاء فيقدمون كل 06 أشهر 24 ألف بوجو،⁽¹⁾ إضافة إلى مجموعة متنوعة من الهدايا.

وقد أشار "مرسي" أن خليفة باي الشرق كان يقدم للبasha ما مقداره 100 ألف ريال بسيطة (250 ألف فرنك) 50 حصان، 100 بغل، 300 بقرة، 3000 رأس غنم، إضافة إلى هدايا أخرى كالزبدة، الكسكس، الفريك، الجلود، البرانس،....⁽²⁾

وقد وردت بعض الإحصائيات التي تبين لنا قيمة الدنوش التي كان يقدمها البايات نقدا كل ثلاث سنوات حسبما يوضحه الجدول.⁽³⁾

القرن 17م	أواخر القرن 18م	الربع الأول من القرن 19م	عشية الاحتلال	
قسنطينة	120 ألف ريال بوجو	237000 قرش	60.000 قرش	778811 فرنك
وهران	100 ألف ريال بوجو	228000 قرش	75000 قرش	622402 فرنك
التيطري	50 ألف ريال بوجو	67000 قرش	40000 قرش	141213 فرنك

أما شالر فقد ذكر قيمة الدنوش من الضرائب فقط التي دخلت الخزينة المركزية حسبما يوضحه الجدول.⁽⁴⁾

المبلغ بالدولار الإسباني	باي وهران	باي قسنطينة	07 قيادات	شيوخ البلد	الباي التيطري	قاضي المواريث	خوجة الجلد
	60 ألف	60 ألف	16 ألف	3000	4000	40 ألف	4000

(1)- Benachenhou, Op. Cit, pp152, 153.

(2)- Mercier, Histoire de Constantine..., p211.

(3)- سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 31.

(4)- شالر، المرجع السابق، ص 59، 60.

وقد أورد لنا "الزهار" بالتفصيل ما كان يقدمه البايات خاصة باي الشرق وباي الغرب من دنوش وهدايا وزكاة عندما يقدمون الدنوش.

الزكاة: (*) (1)			
باي الغرب	باي الشرق	باي التيطري	قائد سيباو
- 10 آلاف صاع قمح - 10 آلاف صاع شعير - ألفي صاع من القمح أو شعير يوزع على أصحاب الدولة - 6 آلاف رأس غنم	- 10 آلاف صاع قمح - 6 آلاف رأس غنم - نحو ألفي رأس بقر - ألف رأس بقر - القمح - التمر، الزيتون - مركب من الشحم والسمن	- زكاة غنم لبنت المال - عوائد لأرباب الدولة	- ألفي قلة زيت - 500 قلة زيت لموظفي الدولة - ألف قنطار كرموس - 100 قنطار شمع - 500 صاع قمح - 500 صاع شعير

كما ذكر لنا نموذج باي الغرب وكيفية تأديته للدنوش، فالباي لما يأتي إلى مدينة الجزائر يكون محملاً بأموال كثيرة وهدايا، من خيل وعبيد ومصوغ وأثاث، و40 بغلة على كل واحدة 40 ألفا ريال أي مجمل ما يقدمه من دنوش 82 ألف ريال صغيرة إضافة إلى 40 فرسا وأقفاص السباع والنمور، وبقر الوحش،⁽²⁾ على عكس باي الشرق الذي كان يقدم مبلغاً أكبر من باي الغرب مع البرانس والحياك والمصوغ والزراي،⁽³⁾ ويرجع هذا إلى كبر مساحة البايك وغناه مقارنة بالبيالك الأخرى، أما باي التيطري فيقدم 14 ألف ريال صغيرة،⁽⁴⁾ وفي طريقه من مقر حكمه إلى مدينة الجزائر لتأدية الدنوش يفرق الأموال على رؤوس الناس يمينا وشمالا،⁽⁵⁾ منهم من يأخذ ريال أو ريالين ويوزع عليهم الهدايا من خيل وعبيد وإماء وألبسة وبرانس وحياك، حتى يصل إلى منطقة بوفاريك أين يلتقي آغا الغرب الذي يبلغه سلام الباشا وهديته، ليقدّم بعدها العوايد لخدام الآغا (من قادة وشواش كبار) من خيل وبرانس وعبيد أو في طريقه من بوفاريك إلى مدينة الجزائر يعمل الباي

(*) - هناك من البايات من كان يجمع حتى الزكاة بالقوة مثلما فعل الباي محمد الذباح الذي حاول إجبار سكان الزواوة على تقديمها، لكنهم رفضوا لأنهم تعودوا على تقديمها لفقرائهم لا للسلطة، مما أدى إلى تمرد الأهالي عليه ثم قُتل فيما بعد. لتعويض بضريبة الزكاة. (محمد سي يوسف، القانون في بلاد القبائل، ص 279. Bontem ., Op. Cit, p68)

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 47

(2) - نفسه، ص 39.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 273.

(4) - الزهار، المصدر السابق، ص 46.

(5) - المزاري، المصدر السابق، ص 273.

على توزيع النقود إلى الفقراء ومن البايات من يوزع حتى السلطان الذهبي أو الفضة والدبلون⁽¹⁾ وأثناء تأديته للدنوش يجلب معه الباي مجموعة من العوايد والهدايا يقدمها للداي وحاشيته، منها ما ذكره "الزهار" أن صالح باي عندما قدم لتقديم الدنوش سلم للباشا أموالاً لا تحصى له وحتى لأهله.⁽²⁾ وإضافة إلى تقديم الأموال، كانت تقدم كذلك هدايا متنوعة مثل التي قدمها باي الغرب حسبما يوضحه الجدول⁽³⁾:

هدية الداي	هدية الخزناجي	هدية الباشا كاتب (الكتاب)
- 20 ألف دورو	- ألفي دورو	- العبيد
- 10 آلاف من المصوغ	- أثاث مصوغ	- حياك القرمز والحريز
- 4 من الخيل العتاق	- خيل	- الشمع
- 30 عبد كبار و20 صغار (عبيد السودان)	- عبيد	- السمن
- حياك القرمز والحريز	- كسوة	- الأرز
- البلاغي والرواحي بالذهب	- حياك القرمز	
- اشتراميات بالذهب	- البرانس	
- 20 قنطار شمع - 20 قنطار جوز	- برانس الزغداني	
- 20 قنطار عسل		
- 20 قنطار سمن		

أما باي الشرق فيقدم للداي هدية تتكون من:

- 30 ألف محبوب ذهباً.
- المصوغ والملابس.
- الشواشي التونسية.
- عطر الورد، الياسمين.
- تسابيح العنبر والمرجان.
- البرانس الحريرية (السوسدي) والجريدي والقفصي.
- الأثاث، الخيل، السمن، كسكس مجفف، المحور.⁽⁴⁾

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 36، 38.

(2) - نفسه، ص 64.

(3) - نفسه، ص 41، 45.

(4) - نفسه، ص 46.

وقد ذكر "الغالي" اعتمادا على وثيقة موجودة في أرشيف فانسان بفرنسا، نموذجا للدنوش التي كان يقدمها بايات الشرق منها: 1500 بقرة، 6000 خروف، 17 فرس، 100 بعل، 70 برنس تونسي، 50 حايك، 40 دزينة طاقيات، 32 دزينة عبر ومرجان، 14 أوقية عطر ياسمين، 30 أوقية عطر ورد، 16 كيسا خاص لحفظ الساعات، 30 قطعة من جلد النمور أو أسود، من 8-10 أسود أو نمور، 700 قفة تمر، 150 سلة زيتون، 20 حمولة من الزبدة، 20 حمولة من الكسكس، إضافة إلى مبلغ 340.000 ريال بوجو.⁽¹⁾

ومن البايات من كان يقدم هدايا حتى للسلطان العثماني، حيث ورد في دفتر التشريفات أن الباي نعمان أرسل سنة 1812م هدايا للقسطنطينية تتكون من 200 قطعة ذهبية (محبوب) و 125 بوجو و 02 برانس و 02 حايك كبار من بسكرة وحمولتين تمر وحمولتين كسكس و سلتين زيتون و 15 كبش وبغل وقنينة غاز و 12 شاشية.⁽²⁾

من خلال ما سبق يمكن أن نقول أن ما كان يقدمه البايات وحتى خلفائهم، كان معظمها عبارة عن ترضيات ورشاوي للداي وكبار القادة بمدينة الجزائر لشراء ذمتهم، لأن هذه الدنوش هي التي كانت تتحكم غالبا في مصير البايات، فمنصبهم وحتى حياتهم كان مرهونا بمدى توفيرهم للأموال لإشباع جشع الداوي وحكومته.⁽³⁾ لهذا فإن الباي حسن، وردّا على لوم أحد أفراد حاشيته على كثرة الضرائب فأجابه: "إن أهل الجزائر أكلوني بالكلية لذلك تراني أكلت الرعية، ثم صار مهما مات أحد وهو ذو مال ونفوس إلا صير نفسه واحدا من ورثته، فيأخذ حصة معهم على عدد الرؤوس"،⁽⁴⁾ وهو ما جعل "الزهار" يقول عنهم "إذا قرب وقت الدنوش يأخذون أموال الناس ظلما بالمصادرة والنهب والغزو على أموال العرب".⁽⁵⁾

وبعدما يدفع البايات هذه المبالغ الضخمة: وبمجرد رجوعهم إلى أقاليمهم يشرعون في النهب، وشن الغارات على الفلاحين الذين يدفعون ثمن رفاهية الداوي وحاشيته، فحسب "كاتكارت" فإنه لم يكن يمضي وقت حتى يسترجعوا ما قدموه للسلطة بالجزائر وعلى رأسها

(1) - الغالي ، الثورات الشعبية، ص 224.

(2) - Devoulx, Tacherifat, p43.

(3) - شالر، المرجع السابق، ص 46.

(4) - المزاري ، المصدر السابق، ص 351. - الزباني، دليل الحيران، ص 241.

(5) - الزهار، المصدر السابق، ص 160.

الداي، لكن الذين يدفعون ثمن ترفه وهداياه هم العرب الذين وضعتهم العناية الإلهية تحت سيطرته وحكمه.⁽¹⁾

وأمام هذه الأعمال التعسفية واستنزاف طاقة الأهالي، خاصة الفلاحين أكثر المتضررين الذين وجدوا في التجار الأجانب بديلا لهم، لبيع بضاعتهم بأسعار باهضة حتى تمكنهم من دفع الضرائب المفروضة عليهم وسد حاجياتهم،⁽²⁾ وغالبا ما كانوا يهربون الجلود والصوف والشموع والزيتون والحبوب بعيدا عن أعين الحكام من أجل القيام بالمبادلات التجارية حتى لا تقع تحت طائلة الضرائب.⁽³⁾ ومنهم من كان يفر نحو الجبال حتى لا تصلهم أيدي السلطة،⁽⁴⁾ أو نحو الجنوب خاصة في المواسم الفلاحية القليلة المحاصيل نتيجة لفترات الجفاف والقحط، لكن الحكام عمدوا إلى وسيلة تمنع الفلاحين من الفرار، وهذا بمباغتتهم أثناء جني المحصول فيرغمونهم على الدفع، وإن لم يدفعوا يلجئون إلى عملية أكثر تعسفا، وهي مصادرة قطعان الماشية ليعاد بيعها لهم.

وقد استمر الحكام في فرض الضرائب حتى بعد انتهاء ثورة درقاوة، مثل الباي حسن الذي واصل استخلاص الضرائب المجحفة من الأهالي، رغم المجاعة، والوباء الذي ضرب بايلك الغرب⁽⁵⁾، لهذا قال عنه "المزاري" أنه استنزف قبائل الرعية.⁽⁶⁾

إن اهتمام العثمانيين بالمناطق الداخلية بعد نقص موارد القرصنة أثار ضدهم تمرد السكان، وكانت أعنف هذه الثورات، الثورات الدينية منذ 1804م،⁽⁷⁾ التي جاءت كرد فعل على السياسة الجبائية التعسفية التي أنهكت الأهالي خاصة بعد تضاؤل دور العلماء في التوفيق بين متطلبات الحكام المالية، وبين السكان المتأثرين بنفوذهم الروحي.⁽⁸⁾ خاصة وأن العثمانيين لم يبذلوا جهدا لربط علاقات متينة مع الأهالي فالذي ربطهم بالرعية كان الجانب المالي، لهذا ركزوا طيلة وجودهم في الجزائر على تطوير الجهاز الجبائي،

(1) - كاتكارت، "مذكرات أسير الداي"، قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة إسماعيل العربي، د.م.ج. الجزائر، 1982، ص 117.

(2) - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية. للشرق الجزائري قبل الاحتلال 1972 - 1830 م، ط 1، م.و.ك.الجزائر، 1984م، ص 113.

(3) - الميلي، المرجع السابق، ص 308.

(4) - شالر، المصدر السابق، ص 59.

(5) - Boyer, Contribution, p44.

(6) - المزاري، المصدر السابق، ص 350.

(7) - Ghalem, Op. Cit, p27.

(8) - سعيدوني، النظام المالي، ص 60.

وتخصيص مصادره للمحافظة على الأمن والاستقرار وضمان مصالحهم وامتيازاتهم، لكن سياستهم ألّبت ضدهم السكان وعلى رأسهم السلطة الروحية، على الرغم من محاولة بعض الحكام التخفيف من هذه الضرائب، بهدف كسب القبائل النائرة مثلما حدث بميلة، أين خفضت الضرائب التي كانت تقدم لقائدها من 7485 ريال بوجو إلى 1060 ريال بوجو،⁽¹⁾ إلا أن التمردات تواصلت مما قضى تدريجيا على كيان الدولة.

وبالتالي فإن توجه أنظار الحكام نحو الداخل، خاصة نحو الريف، من أجل إيجاد مصادر دخل بديلة كان له عواقب وخيمة، اقتصاديا واجتماعيا انتهت بعواقب سياسية، مهدت للاحتلال الفرنسي للجزائر،⁽²⁾ وهذا لأن تحولهم نحو الداخل لم يكن يعتمد على سياسة مدروسة تعمل على عدم الإضرار بكل الأطراف، فحاجتهم إلى المال، دفعت بهم إلى انتهاج سياسة ضريبية أدت إلى توتر العلاقة بينهم وبين السلطة الروحية التي عجزت عن التوفيق بين متطلبات السلطة المالية، وبين السكان الخاضعين روحيا لها، وهو ما أدى إلى قيام الثورات الدينية بداية القرن 19م، التي وإن كانت في ظاهرها دينية إلا أن باطنها اجتماعية واقتصادية.

1-2- علاقة السلطة بالمجتمع/علاقة الحاكم بالمحكوم:

لقد دخلت الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية، لهذا كان من المفروض أن يطبق الحكام العثمانيون تعاليم الإسلام في الحكم من مساواة بين السكان، ويفسحوا لهم المجال ويستشيرونهم في الأمور، ويختلطوا بهم، لكنهم فعلوا عكس ذلك، حيث أساءوا التصرف فحكموا البلاد كقوة متميزة احتكرت واستبدت بالسلطة، واستعلوا على السكان وتعاملوا معهم معاملة المنتصر للمهزوم، لذلك كان العنف السمة البارزة لحكمهم،⁽³⁾ وبدل أن يندمجوا معهم ويتعاونوا معم لتنظيم البلاد لجعلها حصنا منيعا صعب المنال، انعزلوا عنهم حتى لا يفقدوا مكانتهم، الأمر الذي أدى إلى التمرد عليه.⁽⁴⁾ فالحكم العثماني في الجزائر لم يشكل كيانا متجانسا، لأن أغلبية السكان كانوا مهمشين، فبعض القبائل لم تكن تربطها بالسلطة سوى دفع الضرائب التعسفية،⁽⁵⁾ هذه

(1) - سعيدوني، "معجم تاريخي للأماكن والبلدان الجزائرية"، بحث، ع03، 1995، ص26.

(2) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 304.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 140-143..

(4) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ...، ص 69، 70.

(5) - Vatin (J.C.), L'Algérie Politique, Histoire Et Société, Arnault Colin, Paris, 1974, p102.

القبائل التي أطلق عليها اسم "الرعية" طبقت عليها قوانين الحرب الإسلامية التي تقع على بلد غير مسلم بعد فتحه.⁽¹⁾

ورغم أن الطبقة الحاكمة كانت عبارة عن خليط غير متجانس عرقيا، حيث كانت تتكون من أجناس مختلفة (أتراك يونانيون، مالطيون، بوشناق...)،⁽²⁾ إلا أنها ظهرت كقوة مميزة في المجتمع رغم قتلها (20 ألف نسمة)، حيث احتلت السلم الاجتماعي الذي اتخذ شكلا هرميا، وانعزلت عن السكان رغبة منها في إبقاء المناصب العليا في يدها، وهو ما جعل علاقتها بالسكان تتسم بالعدوانية والنفور المتبادل،⁽³⁾ كما ارتكزت علاقتهم بالأهالي على أسلوب تسيير استمدوا تنظيماته الموروثة من التنظيمات العثمانية المرتكزة على:

- إقرار الأمن والهدوء والطاعة ولو باستعمال القوة.
 - ضمان استخلاص الضرائب ولو بطرق تعسفية.
 - الحفاظ على وضع اقتصادي اجتماعي يضمن امتيازات الطبقة الحاكمة، ونفوذ المتعاونين معها على حساب غالبية السكان،⁽⁴⁾ الذين ازدادوا تعاسة وفقرا.
- وانطلاقا من هذا المبدأ عمل الحكام على إبقاء الأهالي بعيدين عن أية مساهمة في أمور الدولة، وهو ما حال دون اندماجهم في الأوساط الشعبية، وهذا رغبة منهم في إبقاء هيمنتهم وسيطرتهم على المناصب الحكومية.⁽⁵⁾ لهذا ضربوا حصارا حول أنفسهم وعلى مراكز القوة حتى لا يشاركونهم أحد من السكان،⁽⁶⁾ وهو ما جعل الورتيلاني يقول: "أنهم جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا".⁽⁷⁾

وحتى مؤسسة الجيش لم يسمح للجزائريين بالانخراط فيها، وهو ما دفع بالقبائل المعادية إلى اعتباره جيشا أجنبيا،⁽⁸⁾ حتى أنهم كانوا يفضلون البقاء عزابا ولا يتزوجون من أهل البلد، وهذا منذ 1720م، كما لم يكن يسمح للجند بالاختلاط بالسكان والزواج منهم، ويفضلون ذهابه لبيت الدعارة على الزواج من الأهالي، وإن حدث الزواج يحرم

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 211.

(2) - الغالي، الثورات الشعبية، ص93.

(3) - سعيدوني، النظام المالي...، ص 42.

(4) - سعيدوني، الجزائر منطلقات وأفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 174.

(5) - الغالي، الثورات الشعبية، ص94.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 145.

(7) - الورتيلاني، المصدر السابق، ص111.

(8) - Kaddache, Op. Cit, p20.

الانكشاري من عدة امتيازات تمتع بها سابقا، حتى أن من الأهالي من دفع حياته ثمنا لهذه المصاهرة ومنهم من يلجأ إلى الإجهاض حتى لا تربطه أي علاقة مع الأسر المحلية.^{(1)(*)}

لقد اعتبر العثمانيون أنفسهم أسيادا، ويرفضون فكرة المساواة مع الأهالي، لأن التركي في نظرهم خلق ليحكم والجزائري ليخضع،⁽²⁾ وهو في نظرهم عبد للدولة وكأنه خلق ليدفع الضرائب وإخلاء الطريق لمرور الانكشاري وإعطائه الأولوية في كل شيء حتى إذا أراد شرب الماء أو ملء جرتته.⁽³⁾

إن الشعور بالتفوق والتعالي الذي تمسك به العثمانيون لم يكن يسمح لهم بالانفتاح على المجتمع المحلي، وهذه السياسة الفئوية الإثنية، لم تشمل السكان فقط بل حتى الكراغلة، الذين لجأت إليهم السلطة في غالب الأحيان لمساعدتها، ورغم قبول انخراطهم في الجيش إلا أنه لم يسمح لهم بالوصول إلى المراتب العليا،⁽⁴⁾ فحتى أبناءهم الكراغلة لم يكن معترفا بهم، ولم يسمح لهم الارتقاء في المناصب، خاصة العسكرية،⁽⁵⁾ لأنهم يرون أنهم أقل مرتبة منهم لأن الكرغلي ابن عبد وليس ابن حر،⁽⁶⁾ كما تخوفوا منهم ولم يثقوا فيهم لاعتبارهم جزائريين أكثر منهم أتراكاً، لذلك جندوا الجنود من أزمير والأناضول، وهذه السياسة حالت دون اندماجهم مع السكان رغم توفر العامل الديني،⁽⁷⁾ فسياسة الإقصاء للزعامات المحلية ولفئات المجتمع، هو ما سيمهد لبروز الثورات الروحية أواخر العهد العثماني.

وقد تجلّى هذا التعالي من العثمانيين حتى في المحاكمات التي تخص الإعدام، فإن الاقتصاص من العثمانيين كان يتم سرا، حفاظا على كرامتهم،⁽⁸⁾ أما إذا كان من الأهالي فيشهر به ويشنق أمام العامة في ساحة عمومية ثم يلقي على سور مرتفعة يلتقطه

(1) - سعيدوني / البوعبدلي، المرجع السابق، ص 93.

(*) - المصاهرات بين الحكام والقوى المحلية التي تناولناها سابقا، كانت بدافع سياسي.

(2) - شالر، المرجع السابق، ص 54.

(3) - حليمي، المرجع السابق، ص 180.

(4) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 46.

(5) - غطاس وآخرون، المرجع السابق ص 142.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 145.

(7) - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم..، ج 3، ص 302.

(8) - أ. هابنسترايت، المرجع السابق، ص 39.

خطاف حاد من الحديد حتى يكون عبرة لغيره.⁽¹⁾ وهذا قرب جدار باب عزون،⁽²⁾ وقد وصل ظلمهم وتعسفهم إلى حد مصادرة أملاك الأشخاص،⁽³⁾ الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على حبس ممتلكاتهم خوفا من جشع الحكام وطمعهم.⁽⁴⁾

فتعسفهم هذا وصل إلى حد التناول على الأوقاف وخير دليل ما ذكره "الورثياني" عن مدينة بسكرة حينما دخلها الأتراك "اجتمع عليها ظلم الأتراك، وظلم الأعراب، فكانت بينهما كالكرة... غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيمًا، وما كان من المدارس والأحباس التي توجد في الأمصار هي في أيديهم يأكلون منها وينتفعون بها...".⁽⁵⁾

وبالتالي كانت سياسة العثمانيين مرتكزة على العداء والخوف والاحتقار للسكان والظلم، مما جعل البعض يصف تصرفاتهم بأنها أعمال ناتجة عن تصرفات غير إنسانية، فتميزوا بالاستبداد والقتل والتدمير وتبذير الأموال وإشباع الرغبات والاهتمام بالمصالح الخاصة وإهمال شؤون الأهالي.

فالمبدأ الذي اعتمدت عليه سياستهم كان الظلم والتكيل بالرعية لإرغامها على الطاعة والخضوع،^{(6)(*)} خاصة أواخر العهد العثماني، حيث كان هدف الدايات الاستبداد

(1) - شالر، المصدر السابق، ص 46، 47.

(2) - Laugier, histoire du royaume..., p247. Laugier, histoire d'Alger..., p242.

(3) - Boyer, La vie quotidienne, p48.

(4) - شالر، المصدر السابق، ص 50. - سعيدوني/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 176.

- سعيدوني، "مذكرة حول إقليم قسنطينة"، الأصالة، ع 84-85، 1980، الجزائر، ص 102.

(5) - الورثياني، المصدر السابق، ص 111.

(6) - Venture (De.P), Op. Cit, p129.

(*) - هذه السياسة كانت قبل تحرير وهران، حيث وردت الكثير من الأمثلة لتعسف الحكام، فالداي شعبان (1688-1695م) وحسب ما ذكره "أبو القاسم سعد الله" ونقلًا عن الشيخ "برناز" أنه كان يغتصب أموال الناس تعسفاً، رغم أنه كان لا يتخلى عن المصحف أوقات فراغه ويصوم النوافل لذا صح عليه قول الشاعر:

ما رأينا كأمر
ظلم الناس وسبح

فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح (- سعد الله، من أخبار الداوي شعبان، ص 116).

كما يذكر ابن المفتي أن الداوي مصطفى (1699-1705م) عندما تولى الحكم عمل على سلب الناس حتى منهم من نفي حافي القدمين عارياً. (ابن المفتي، المصدر السابق، ص 68). أما البايات فنجد الباي الحاج عثمان بن إبراهيم الذي ثار ضده الباي يوسف المسراتي ابن الباي مصطفى بوشلاغم، بالتعاون مع أهل تلمسان سنة 1734م ولما عاد للحكم للمرة الثانية سنة 1747م، فنكل بأهل تلمسان، ثم توجه إلى المحال نواحي الشلف قتل منهم 41 فارساً وقد سجل الشعراء ما حدث مثل الشاعر ابن السويكت السويدي (المزاري، المصدر السابق، ص 238. ينظر المهدي البوعبدلي، الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي، الثقافة، ع 97، 1987). في حين الباي دالي 1676-

بالسلطة وجمع الأموال، وليس الرقي والازدهار الحضاري،⁽¹⁾ فكانت تسلط العقوبات على القبائل خاصة المعادية، إلى درجة قطع رؤوس رجالها ووضعها أمام كبار موظفي الدولة كأغا العرب حتى يحصل الجندي على مكافئته،⁽²⁾ ومن الأمثلة التي تبرز بطش الحكام، نجد الداوي الحاج علي صلب سنة 1224هـ/1809م، 36 رجالا من موزاية لرفضهم الوشاية بالأعراب الذين قتلوا انكشاري،⁽³⁾ وحتى الأسواق استغلته السلطة واعتبرتها وسيلة لبسط نفوذ البايك على الجهات الجبلية، فامتتاع قبيلة ما الخضوع للبايك يقابله فرض عقوبات عليها كمنعها من ارتياد السوق وإن فعلوا يتعرض أفرادها وأملاكها للمصادرة مما يجبرها على قبول شروط البايك.⁽⁴⁾

أما بالبيالك فنجد من البايات من تميز بالسلوك الحسن والكفاءة في التسيير، وحاولوا المحافظة على مصالح الدولة والتكفل بأمور الأهالي، ومنهم من عرف بالقهر والاستبداد والبطش وسوء التسيير والمعاملة، فأضر بالسكان في المدن والأرياف مثل الباي أحمد شاوش القبائلي الذي أفلس الخزينة في ظرف 15 يوما، وأضر بالرعية التي تعرضت للمصادرات،⁽⁵⁾ حتى سمي "بباي رأسه، باي ذراعه، باي روحه".⁽⁶⁾ أما الباي "شاكر" ورغم مدته القصيرة في الحكم إلا أنه عرف بالبطش وسفك الدماء والاستحواذ على ثروات الناس لذا قال عنه العنتري: "شاكر باي رجل ذو بطش غالب عليه صلابة العجم فيسفك الدماء في الحق والباطل، ويأخذ أرزاق الناس بالغزو ولا ييالي بمن هو طابع أو عاصي وفي زمنه اشتهر الترك بالظلم..." إلا أنه كان كثير الصدقة وإكرام الناس، التي

1679م، فقد وصفه "العنتري" بأنه "كان رجلا قتالا يأخذ أموال الناس بالباطل" فاشتكاها الناس للباشا الذي عزله وأعدمه.

(العنتري، المصدر السابق، ص 49. - Mercier, Histoire de Constantine, p 235.)

أما الباي محمد الذباح فقد عرف بقسوته وانتهاجه سياسة الأرض المحروقة، حيث دمر العمران واستباح الأرزاق وخرب البساتين مما جلب له غضب قبائل زواوة، وحتى صهره عمر بوكوش تمرد عليه وانضم للأعراس ضده.

(Robin, Lagrande kabylie..., p 69 et 176. - Robin, note sur l'organisation..., pp368, 369.)

-وحسب وثيقة كتبها أحد مرابطي أولاد سيدي علي أو موسى أشارت إلى أنه قتل أكثر من 1200 شخص بيده.

(- Robin, note sur l'organisation..., p140.)

(1) - الغالي العربي، "الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات ثورة إبن الأحرش الدرقاوي ضد الأتراك في مطلع القرن التاسع عشر"، دراسات تاريخية، الجزائر، ع 23، 24، 1986، ص 167.

(2) - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 143.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 111.

(4) - Saidouni, Op. Cit, p231.

(5) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 77 و78 هامش.

(6) - Vayssettes, Histoire des dernies beys..N04., p209. - Vayssettes, histoire de Constantine, p185.

في الأصل من الأرزاق التي سلبها، لذلك صح عليه القول: رجل سرق وتصدق ياليتها ما سرق ولا تصدق، وقد كان أحيانا يقتل من 15 إلى 20 شخصا في اليوم،⁽¹⁾ كما ينتقد "العنتري" الباي محمد الميلي (1817-1818م) على أنه "رجل" قليل العقل يظلم الناس ويأخذ أرزاقهم بالباطل، وكان مشى إلى وطن الصحراء فصدر منه الظلم، والجور على ناس ذلك الوطن".⁽²⁾

أما بايات الغرب وحسب ابن "سحنون" قوله نقلا عن شاهد عيان على تدهور الأوضاع أواخر العهد العثماني، أن الأهالي ثاروا على الجرائم التي ارتكبتها بعض البايات السفاحين الذين ضربوا الرقم القياسي في الاستخفاف بأرواح الأبرياء، كآخر بايات وهران الذي كان يتبع رجال العلم والدين بالسجن والتعذيب والقتل، وأحدث محاكم التفتيش مثل التي أحدثت في اسبانيا بعد سقوط غرناطة،⁽³⁾ أما الباي بوكابوس فقد كان إذا أراد إهلاك أحد اتهمه بضلوعه في حرب درقاوة، فيعرضه لأشد العذاب.⁽⁴⁾ واخترع قتلا لم يصدر من أي باي قبله، منهم من يأمر بدق أعضائه حيا بالمعاول في السوق حتى الموت، ومنهم من يقلع عينه ومنهم من يقطع أعضائه حتى يموت، ومنهم من يقطع رأسه أو يقتله خنقا أو شنقا، ومنهم من يبقر بطنه.⁽⁵⁾

ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة والضغط اللذين كانا مسطين على الرعية فوصفهم المنداسي بقوله:

سمعنا حديثا صادق النقل ربه	بأن لجنس الترك في الأرض إخوانا
ولكن وراء السد عم فسادهم	وهم أفسدوا في الغرب كفرا تلمسانا
فما دب فوق الأرض كالترك مجرم	ولا ولدت حواء كالترك إنسانا
ولا ضار مثل الترك للسمع طارق	ولا وجد الشيطان كالترك فتانا
كأكل الربا من السفاح تتاسلوا	فلا ماردا إلا ويترك شيطانا ⁽⁶⁾

(1) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 81 و 82 هامش.

(2) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 86.

(3) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49، 50.

(4) - مسلم، المصدر السابق، ص 28.

(5) - المزاري، المصدر السابق، ص 328.

(6) - سعيد المنداسي، المصدر السابق، ص 114، 115. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 56.

أما مسلم بن عبد القادر وبالرغم من كونه مقرباً من الحكام حيث عمل كاتباً عهد البايع حسن فقال عنهم ما يلي:

صناديد لولا الفساد في الوري
عاثوا عثوا على الخلق وجاروا
لقلنا قلّ مثلهم فوق الثرى
فكانوا أكثر العباد وباروا
فرفع الكل الأكف ودعوا
بما به أجاب الله ورجوا⁽¹⁾

فبسبب سياستهم المجحفة ضد الأهالي اتسمت العلاقة بينهما بالنفور وعدم الثقة والعداء، لأن الرعية كانت محل استغلال من طرف الحكام من دفع الضرائب والغرامات معتمدين في هذا على أسلوبين للسيطرة على الرعية حيث:

- عملوا على التقارب والترضية والمداينة مع رجال الطرق وشيوخ الزوايا نتيجة لنفوذهم الروحي على الرعية.

- اعتمدوا على قبائل المخزن التي مثلت أداة بطش وتأديب لأي محاولة تمرد أو استقلال من طرف الرعية.⁽²⁾ عندما تخرج لوحدها أو مع الأمحال في الحملات الجبائية أو التأديبية،^(*) التي تجرد ضد القبائل الممتنعة مستعينة بما يعرف "بالشواف" الذين يرشدون المحلة لتحركات القبائل،⁽³⁾ هذه الحملات أضرت بالأهالي، حيث يتم فيها قتل الرجال المقاومين وتُعنّف النساء والأطفال وتصادر الأملاك،⁽⁴⁾ وتخرّب البيوت وتقطع أو تحرق واحات النخيل.

فالبايات وأثناء خروجهم في الحملات الجبائية أو الردعية كانوا لا يتوانون في استعمال القوة وارتكاب الجرائم في حق القبائل، خاصة الرافضة لسلطة البايك، مثلما حدث عهد صالح باي الذي قاد سنة توليه الحكم (1771م) حملة شرسة ضد أولاد

(1) - مسلم، المصدر السابق، ص 34. - الزباني، دليل الحيران، ص 273.

(2) - الغالي، التورات الشعبية، ص 57.

(*) - أثناء الحملات الردعية والجبائية كان البايات لا يتوانون في ارتكاب الجرائم في حق القبائل وهذا قبل القطيعة والخلاف بين السلطة السياسية والسلطة الروحية، من ذلك ما يذكره "مارمول" عند دخول العثمانيين إلى قسنطينة وإقامتهم حامية تليق بمقامها "لكنهم اظهروا في حكمها رعونة كبيرة" فثار عليهم الناس سنة 1568م وقتلوا قائد الحامية، وانتقاماً منهم دخلها العلي علي عنوة ونهب سكانها وأجبر أثريائها على تحصينها بأموالهم الخاصة، وجردوهم من السلاح وفرضوا عليهم 65 ريال كضريبة، (مارمول كرخال، المصدر السابق، ج 3، ص 12). البايع محمد الذباح قام بحملة ضد قبائل زواوة سنة 1158هـ/1745م بدعم من إبراهيم باشا بـ 200 جندي، نهبوا أمتعة وأموال زواوة وحرقوا مداشرهم. (ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 163).

(3) - Esterhazy, De la domination..., p251.

(4) - Saidouni, Op. Cit, p392.

نايل^(**) المتمردة على السلطة، وصادر قطعانهم وأرسل إلى الجزائر 60 رأساً لرجالها و400 زوجاً من آذانهم، مما اضطر القبيلة إلى طلب الأمان،⁽¹⁾ وفي السنة الموالية غزا أولاد عمور بالأغواط، لمعاقبتها لوقوفهم في وجه البايك دفاعاً عن قريتهم، لذلك قام بقطع رؤوس 100 رجل من السكان وأرسلها إلى قسنطينة أين علقهم على الماتريس،⁽²⁾ ونفس الأمر حدث في حملته ضد توقرت سنة 1785م التي كانت بتحريض من أحمد بن جلاب ضد ابن عمه عمر بن جلاب حاكم توقرت، أين قطع أشجار النخيل انتقاماً من أهلها لالتفافهم حول حاكمها عمر الذي خضع بعد حصار طويل دام من 25 يوم إلى ستة أشهر، باختلاف الروايات، وتم تغريمهم^(*) بدفع مليون فرنك، و1000 بوجو على كل مرحلة قطعها صالح باي من قسنطينة إلى توقرت، فهذه الحملة هي حملة انتقامية لا توسعية ذات دوافع شخصية.⁽³⁾

في حين أن الباي مصطفى الوزناجي (1795/1798) عندما غزا أولاد موسى من قبيلة عشاش بباتنة صادر قطعانهم وقتل الكثير من رجالهم،⁽⁴⁾ أما الباي شاكرك فقد خرق كل الأعراف والحقوق، حيث شن أكثر من 100 حملة على القبائل خلال حكمه الذي دام 04 سنوات،⁽⁵⁾ ويذكر "فايسات" أن في كل خرجاته لا بد أن يسفك فيها الدماء، فلما عين بايا على قسنطينة قتل في اليوم الأول شخصاً بريئاً ونفس الشيء قام به في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث قتل 02 من أولاد عبد النور لما عسكر بمنطقة كارب، وبمنطقة المجاز قتل 02 من أولاد سعيد بن سلامة وواحد بسطيف، وبلغ استهتاره إلى درجة تعيين ابنه ذو 18 سنة قائداً للعواسي لأكبر قبيلة بالحراكتة،⁽⁶⁾ وفي سنة 1821م قاد الباي أحمد المملوك

^(**) - وهي نفس القبيلة التي قاد ضدها باي التيطري إبراهيم القسنطيني (1817-1819م) واستولى على 2000 جمل و10 آلاف خروف. ألفونسو روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر. محمد بن عبد الكريم الوافي، ط1، جامعة قار يونس، 1992، بنغازي، ليبيا، ص323.

⁽¹⁾ - Mercier, Histoire de Constantine, p272. - Vayssettes, histoire de Constantine, p123.

⁽²⁾ - Mercier, Histoire de Constantine, p272. - Vayssettes, histoire de Constantine, p124, 125.

^(*) - سياسة التغريم لم تكن عند ارتكاب المخالفات والتمرد، بل حتى من أجل تعويض الخسائر بعد الغارات الأوربية ففي عهد حسين ميزومورطو شهدت مدينة الجزائر غارة فرنسية رمت 12 طلقة مدفع، وبعد تحريره للأسرى، فرض على السكان دفع مبلغ 12 ريالاً، رغم وجود من بينهم من تضرر من الغارة، مثل ابن المفتي الذي دفع الغرامة رغم أن إصلاح بيته بعد الغارة كلفه 40 ريالاً. (ابن المفتي، المصدر السابق، ص 68).

⁽³⁾ - سعيدوني، وراقات...، ص 527، 528.

⁽⁴⁾ - العنتري، فريدة مؤنسة ص 68 هامش. - Vayssettes, histoire de Constantine, p159.

⁽⁵⁾ - نفسه، ص 82 هامش. - القشاعي، النظام الضريبي، ص 146.

⁽⁶⁾ - Vayssettes, Histoire des dernies beys, N05, pp98, 100. - Vayssettes, Histoire de Constantine, pp194, 195.

حملة ضد مشيخة بني جلاب بتوقرت التي لم ترضخ للعثمانيين، إلا في عهد صالح رايس سنة 1552م و في عهد صالح باي سنة 1788م، ولما غزاها الباي أحمد المملوك أتلّف لهم 200 نخلة انتقاماً منهم، ولم يتوقف حتى أعطاه محمد بن جلاب 10.000 ريال بسيطة،(*) وقد كان هذا بتحريض من فرحات بن سعيد الذوايدي شيخ العرب الذي كان يسعى للقضاء على مشيخة بني جلاب.(1)

أما الباي محمد الكبير وفي إحدى حملاته جنوب معسكر نهب 14 أو 15 دوار واستحوذ على 67000 من الماشية و5000 جمل و633 بغل و720 بقرة وأسر منهم 60 شخصا أغلبهم نساء. وكان كل ما يحصل على غنيمة يبيعه لرجاله بالمعسكر.(2) ولما وقع خلاف حول أرض بواد جنان بديرة، بين قبائل بني سليمان وعريب سنة 1809م، هذه الأخيرة كانت تحت زعامة شيخها رابح بن طالب الذي هاجم قاعدة ديرة وبرج سور الغزلان، كلف الداوي الباي محمد بوكابوس بتأديب قبائل عريب، فأغار عليها بجيش قدره 800 زنبوط و4000 فارس من القبائل القوية، وقمع قبائل عريب بعنف فقتل عدداً كبيراً منهم وأخذ معه 200 امرأة و45 رجلاً قطع رؤوسهم في السوق وعلقها على أسوار مدينة المدية حتى تكون عبرة للمتمردين.(3)

وفي سنة 1825م عندما قدمت قبائل الحرازلية والأرباع(*) من الجنوب نحو التل لشراء الحبوب، أعطى الباشا أمر للباي بومزراق بمهاجتها تحت تهمة دعمها للثورة التيجانية، فقاد هذا الأخير حملة مكونة من 4500 فارس، تم من خلالها أسر 120 من أعيان الأرباع منهم زعيمها سليمان بن سوفة-طايرة الذي توفي حزناً بعد 05 أيام من نقلهم إلى مدينة الجزائر والحكم عليهم بالأعمال الشاقة مدة عام، كما استولى الباي على 10.700 جمل بيعت في مكانها للقبائل الحليفة، وبعد سنة من هذه الحادثة غزى أولاد مختار الشراقة(**) وسلب منهم 500 جمل و4000 خروف.(4)

(*) - لكن مرسي يذكر انه دفع له 100.000 ريال بسيطة. Mercier, Histoire de Constantine, p360.

(1) - الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 138. Feraud, le sahara..., p80.

(2) - Emerit (M), " Les aventures de Thédénat, esclave et Ministre d'un Bey d'Afrique (XVIII^e Siècles), mémoires de Thédénat ", in R.A 92, 1948, p182.. سعديوني، النظام المالي، ص 125.

(3) - Federman et Aucapitaine, Note sur l'histoire..., N°09, pp290, 293.

(*) - الحرازلية قبائل تتواجد بالأغواط، أما الأرباع قبائل تقطن ما بين الجلفة والأغواط.

(**) - أولاد مختار هي قبائل تنتشر جنوب المدية وبالجلفة وهم فرعين أولاد مختار الغرابية والشراقة.

(4) - Federman / Aucapitaine, Note sur l'histoire..., N°09, pp300, 301.

-سعديوني/البوعبدلي، المرجع السابق،...، ص 37.

إضافة إلى الحملات التأديبية عان السكان من سياسة الاحتكار التي مارستها السلطة في المجال الاقتصادي، وهذا من خلال إشرافها على قطاعات الإنتاج الرئيسية، رغبة منها في الحصول على الأرباح الوفيرة،⁽¹⁾ حيث لجئوا إلى احتكار الإنتاج وتسخير الفلاحين فالبايلك كان يشتري الحبوب بـ8.80 قرش للصاع الواحد ويبيعه للتجار الأجانب بـ26.30 قرشا، وقنطار الصوف بـ15 جنية ويعاد بيعه للأجانب بـ24 جنية ليصدره إلى مرسيليا بـ38 جنية،⁽²⁾ أما الشمع فكان يشتري من السكان بـ60 بتاك شيك ليعاد بيعه بـ163 بتاك شيك،⁽³⁾ بالإضافة إلى تعاملهم مع اليهود الذين احتكروا تجارة الحبوب مثل الداوي مصطفى الذي تعامل معهم على حساب السكان، خاصة وقت المجاعة وهو ما أدى إلى مقتله سنة 1805م.⁽⁴⁾

لقد تجمعت ثروة البلاد في يد العثمانيين، فجل الأراضي بسهل متيجة الخصب ملك للدايات وأصحاب المناصب العليا، حيث يتقاسم رجال السلطة ما مقداره 30 ألف هكتار وما تبقى تقاسمه الأثرياء من العثمانيين بالدرجة الأولى ثم الأندلسيين والأشراف، في حين أن بقية الأهالي لا تتجاوز ملكية الفرد الواحد 10 هكتارات،⁽⁵⁾ ونفس الشيء كان في بايلك الشرق وبايلك الغرب، أين كانت السلطة تحوز على أخصب الأراضي، فهذا الأخير قدرت به ملكيات البايلك بـ11250 هكتار، أما ملكيات البايلك بالشرق والتي تعرف "بالعزل" فقدرت بـ60 ألف هكتار مقابل 11250 هكتار للملكيات الخاصة.⁽⁶⁾

فهذا النظام الإقطاعي الذي انتهجته السلطة جعل الفلاح في آخر القائمة ومحل استغلال من كل الأطراف شيوخ ومرابطين قادة وخلفاء وحتى من الجنود الذين يتلقون الأوامر من البايات أو خلفائهم، خاصة أثناء جباية الضرائب التي إذا عجز الفلاح عن دفعها يصبح مخزنيا خادما للسلطة، لذلك نجد من قبائل الرعية من دخلت في صف المخزن لترقى من حالة الاستغلال إلى صفة المستغلة لغيرها، أي أصبحت أداة للاستغلال.⁽⁷⁾

(1) - سعيدوني، النظام المالي...، ص 230.

(2) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق...، ص 56 و 79.

(3) - Venture, Op. Cit p 20

(4) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 104.

(5) - حليمي، المرجع السابق...، ص 268.

(6) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق...، ص 51، 52.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 157.

ونتيجة لهذه السياسة يشير "الزياني" أن العثمانيين لما تمكنوا من حكم البلاد كثر ظلمهم وفسادهم حتى صار الناس يسألون الله أن يزيل عنهم ظلمهم» واعلم أن الأتراك لما تمهد لهم الملك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا فيه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على الألسنة غاية التواتر... وسألت الناس الله أن يزيل بهم ما حلّ من ظلمهم»⁽¹⁾ أما "مسلم بن عبد القادر" فرأى أن العثمانيين لم يكونوا أهلا للحكم أواخر عهدهم بعد انقضاء عهد الداوي محمد بن عثمان باشا ومحمد الكبير وصالح باي، لأن الحكام المتأخرين بداية القرن 19م، ولمدة 30 سنة لم تكن سياستهم رشيدة وحكمهم عادلا لذلك كثر عليهم الناقمون والمتمردون.⁽²⁾

وترجع هذه السياسة إلى افتقار العثمانيين بالجزائر إلى تصور واضح لسياسة تعمل على كسب السكان والاندماج معهم، لذلك تخوفوا منهم واحتقروهم وابتعدوا عنهم وهو ما زاد حقد الرعية ضدهم، خاصة بعدما فرضوا عليهم الضرائب الجائرة، فهذه السياسة حالت دون تحقيق اندماجهم مع الأهالي، الذي كان بإمكانهم تحقيقه باستغلالهم للمكانة التي تمتعوا بها بداية تواجدهم بالجزائر لكنهم حالوا دون ذلك بل انعزلوا عن السكان وأقاموا بينهم حواجز من الوسطاء، جلهم من علماء الدين ورؤساء القبائل وشيوخ الأعراش⁽³⁾ لمساعدتهم مع الرعية معتبرين أنفسهم السادة لهذا حكموا البلد باستبداد.⁽⁴⁾

وربما ترجع سياسة العثمانيين المبنية على العداء والتخوف والاحتقار للسكان، بسبب كونهم غرباء عن البلد وعدم وجود أية صلة أو روابط تربطهم به وبعادات سكانه، وهو الشيء الذي دفعهم إلى ارتكاب فضائح وممارسة الظلم والقسوة اتجاه الرعية.⁽⁵⁾ وازدادوا طمعا وانتشر السخط بين السكان لعجزهم عن دفع الضرائب فلجئوا إلى الثورات.⁽⁶⁾ ولهذا كان حكمهم بعيدا عن أحوال الناس حيث قلت ثقة الشعب فيهم لأنهم راعوا مصالحهم وامتيازاتهم بالدرجة الأساسية.⁽⁷⁾

(1) - الزياني، دليل الحيران، ص 253.

(2) - مسلم، المصدر السابق، ص 55.

(3) - الزبيري، التجارة الخارجية، ص 24.

(4) - Laugier, histoire de royaume, p310.

(5) - التميمي عبد الجليل، "العرب والترك في إطار الدولة العثمانية"، المجلة التاريخية المغربية، ع 17، 18، 1980، ص 91.

(6) - الزبيري، التجارة الخارجية، ص 25.

(7) - حليمي، المرجع السابق، ص 279.

وبالتالي ففكرة التضامن الإسلامي التي اعتمدها العثمانيون، لبسط نفوذهم في الأوساط الشعبية بالتقرب إلى مرابطيهم وشيوخ الزوايا، لم تمكنهم من وضع أسس متينة للاحتكاك بالرعية، لأن هؤلاء سرعان ما شكلوا أرستقراطية ذات أصول طبقية، كما أن الحكام العثمانيين لم يعملوا على دمج التنظيمات الاجتماعية من قبائل ومشيخات ومرابطين في نظام واحد وموحد.

وعلى هذا الأساس فإن هذه السياسة هي التي دفعت الرعية إلى التمرد على النظام، الذي أقصى الأهالي من إدارة شؤون بلدهم، وهمشهم تهميشا كليا عن أمور الدولة، ومارس عليهم ظلما وجورا خاصة أواخر عهده، لتبقى الميزة الإيجابية للوجود العثماني بالجزائر أنه حافظ على استقلال البلاد بعدما حررها من الخطر المسيحي.

1-3- الجلاء الإسباني عن وهران عام 1792م وانعكاساته:

لقد دخلت الجزائر في الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية حيث كان الجهاد البحري هو الدافع لوجودهم على شواطئ شمال إفريقيا، وكان الوجود الإسباني بالسواحل خاصة بوهران والمرسى الكبير مصدر التحالف بين العثمانيين والجزائريين،⁽¹⁾ فالغزو المسيحي سمح للعثمانيين بكسب مجد الجهاد المقدس، وهذا الأمر هو الذي جعل المرابطين الرافضين لهم يقفون إلى جانبهم للدفاع عن الدين الإسلامي.⁽²⁾ فعامل الدين والجهاد جعل الجزائريين يقبلون تواجد العثمانيين،⁽³⁾ ليكون لهما الدور الأكبر في تدعيم فكرة التحالف حيث كانوا في نظر الناس وممثليهم العلماء، "حماة الدين"⁽⁴⁾ خاصة وأن صراعهم مع الإسبان اتخذ صبغة دينية، هذا الأمر سمح لهم بكسب تأييد ومساعدة العلماء ولفترة طويلة،⁽⁵⁾ استمرت إلى غاية 1792م، تاريخ تحرير وهران من الغزو الإسباني.

وغني عن الذكر أن علاقة الحكام والسلطة الروحية كان يدعمها إلى غاية 1792م الجهاد ضد التواجد الإسباني، ذلك أنه إلى هذا التاريخ لازالت وهران تحت الهيمنة المسيحية، وكانت قضايا الجهاد، وخاصة تحرير وهران هي العامل المشترك بين

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص141.

(2) - Boyer, Contribution ..., p18.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص190.

(4) - الغالي، الثورات الشعبية...، ص30.

(5) - سعيدي/ البوعبدلي، المرجع السابق، ص37.

الحكام من جهة والأهالي خاصة رجال الدين والعلماء من جهة أخرى، لذا فشعبية كل من الداي أو الباي كان يحددها اهتمامه، وعزمه على تحرير مدينة وهران⁽¹⁾، لأن تحريرها كان بمثابة الورقة الراححة للحكام العثمانيين لكسب الرعية وتأييد العلماء،⁽²⁾ الذين تحالف بعضهم مع العثمانيين وقدموا لهم المساعدات وجندوا وراءهم الأهالي.⁽³⁾

وبما أن الحرب ضد الأسبان كانت المرآة العاكسة للتحالف الجزائري العثماني، وإدراك الحكام لمكانة العلماء والصلحاء لدى العامة، على أنهم دعاة الجهاد وحماة البلاد، فإذا هم لم يقوموا بالجهاد تعرضوا لسخط العلماء واتهاماتهم، لهذا وحسب الدكتور "سعد الله" فإن الباي محمد الكبير كان يضع العلماء في المقدمة عند المواجهة مع الأسبان فإن انتصروا كسب سكوتهم، وإن هزموا تخلص من نقدهم.⁽⁴⁾

ولهذا لما أحيى الرباط بوهان، طلب من العلماء المشاركة في الجهاد، كابن سحنون والشيخ محمد بن علي الشارف المازوني، الذي قدم ومعه ابنه وأخيه ونحو 200 طالب،⁽⁵⁾ وعمره تجاوز الثمانين سنة، وقد قصد وهران من معسكر ماشيا، وترك حصانه للمرضى من طلابه، وكتركهم له بنى له الباي بعد الفتح مدرسة، كما بعث بستة طلبة إلى القبائل لجمع الطلبة الراغبين في الانضمام إليه فعادوا إليه بنحو 400 طالب،⁽⁶⁾ لكن هناك من يذكر أنه انضم إليه أزيد من 500 طالب،⁽⁷⁾ كما أمر الباي قبائل أولاد خالفة بدفع 100 سلطاني لصالح الطلبة،⁽⁸⁾ ووصل به الأمر إلى منع التدريس في المدن واقتصر على الرباطات فشكلوا بهذا فرقة علمية عسكرية،⁽⁹⁾ كما أنه أعفى كل من يلتحق بالرباط من الضريبة.⁽¹⁰⁾

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 196.

(2) - سعد الله، "أربع رسائل بين باشوات..."، ص19.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 267.

(4) - نفسه، ص 206، 207.

(5) - بوعزيز، المساجد العتيقة، ص205.

(6) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص234، 235.

(7) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 20. - المزاري، المصدر السابق، ص 262.

(8) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص245.

(9) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص207.

(10) - ابن هطال، المصدر السابق، ص20. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص17.

إن ما قام به البايع هو وسيلة لجلب أكبر عدد من العلماء للمشاركة في الجهاد حتى أنه أعطى رئاسة الرباط للعلماء، فعين على رأسه الشيخ محمد بن مولود الغريسي كما كلف كل من الشيخ محمد بن عبد الله الجلاي، وقاضي العسكر الطاهر بن حواء لإعطاء الدروس للطلبة بالرباط.⁽¹⁾

ونجد ممن التحق بالرباط كذلك عبد القادر بن عبد الله المشرفي الذي ألف رسالة شهر فيها بالمتعاونين مع الأسبان سماها "بهجة الناظر..." ونجد كذلك العالم الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله بن زرقة الدحاوي، صاحب الرحلة القمرية، الذي عمل مساعدا لرئيس رباط إيفري، وخلالها كلفه البايع بجمع أحداث الفتح في مصنف، فسماه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"،⁽²⁾ كما أن العلامة أبو راس الناصري الذي سمع بالحرب ضد الأسبان، وهو عائد من الحج فأسرع للمشاركة، وبلغت به الحماسة حتى التطلع إلى فتح الأندلس،⁽³⁾ مثلما فعل الشيخ الحلفاوي الذي تطلع إلى فتح الأندلس بعد الفتح الأول لوهران سنة 1708م فقال:

فتحا يوم العروبة معا فتحا أرى في الأندلس مطمعا.⁽⁴⁾

فهذا الفتح كان جهادا مشتركا بين الانكشارية ومتطوعين من العلماء والزوايا، فكانت تركيبة الجيش مزيجا بين الانكشارية والطلبة المتطوعين، الذين فتحوا وهران تحت رايات أصحاب الزوايا (الأولياء)، كسيدي بومدين وسيدي محمد بن عودة....⁽⁵⁾

وبهذا يعتبر البايع محمد الكبير أكثر البايعات تجنيدا للعلماء ورجال الدين، الذين كانوا أكثر الفئات في المجتمع استعدادا للتضحية والجهاد، ولهم قدرة على إقناع الناس على حمل السلاح والتطوع، لذلك نجد أنه أثناء فتح وهران سنة 1792م وصل عددهم في كل من رباط المائدة ورباط إيفري 2500 ما بين عالم وطالب.⁽⁶⁾ وقد أظهر الطلبة بنسأ

(1) - ابن هطال، نفسه، ص 20.

(2) - نفسه، ص 234. - مصطفى بن زرقة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تح. مختار حساني، مخبر المخطوطات بوزريعة، الجزائر، 2000، ص 159. - يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ص 233.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 208، 209. - سعد الله، أبحاث وآراء....، ج 1، ص 87.

(4) - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 256. - مولاي بلحميسي، تحرير مدينة وهران 1708م، ص 55.

(5) - kaddache, Op. Cit, p142.

(6) - يحي بوعزيز، موضوعات...، ص 121.

شديدا ضد النصاري، "واشتدت شوكتهم على النصاري.. وتكالبوا على قتالهم حتى ضاقت عليهم جرحهم، وكثر كربهم..."⁽¹⁾ لذلك قال عنهم أبو راس النصاري في قصيدة سينية:

وطلبة أئخنوا فيهم وعاثوا فلا
أحيوا مراسم عفت من شيوخهم
تقسهم بقيس عبس ولا بهيس
أحمد ومحمد وابن يونس⁽²⁾

إن ظاهرة التحالف، والتآزر التي كانت قبل تحرير وهران فرضتها المصلحة المشتركة في السنوات الأولى، لتتحول إلى نفور وصدام في الفترة الأخيرة، خاصة بعد انحصار الجهاد الذي عرفت على إثره العلاقات تباعدا، وهذا لاختلاف المصالح،⁽³⁾ وقد ساهم استعادة وهران من الأسباب في نزع المجد والنفوذ من العثمانيين، فكان استرجاعها نقطة تحول بارزة في العلاقات بين السلطة والقوى الروحية خاصة الطرق الصوفية والمرابطين.

وباسترجاع المدينة فقد التحالف المرابطي-العثماني دعائمه الأساسية والمتمثلة في عامل الجهاد ضد الأسباب، وبانتهاء هذا الخطر أصبح كل طرف ينظر إلى الآخر بعين الحذر والشك ويتحين الفرصة لإقصائه،⁽⁴⁾ لأنه وبعد الانسحاب النهائي للأسباب من وهران، وبتقهقر القرصنة لم يعد يشغل بال الحكام سوى ترسيخ وجودهم في داخل البلاد،⁽⁵⁾ متبعين سياسة اتسمت بالعجرفة والترفع على القبائل وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية.⁽⁶⁾

ومن هنا فتحير وهران كان الحلقة الأخيرة التي حافظت على تماسك هذه العلاقة واستمرارها إلى غاية نهاية القرن 18م، لأنها كانت العامل الرئيسي في تحالف الطرفين، ولتظهر بعدها القطيعة بينهما بوضوح لتصل إلى التصادم والتصارع.

1-4- تراجع السلطة السياسية أمام تطور وتفوق السلطة الروحية عسكريا واقتصاديا:

إن التطور والتبلور الذي شهدته السلطة الروحية ممثلة خاصة في المرابطين والطرق الصوفية، التي فرضت نفسها على الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال العهد العثماني، خاصة خلال القرنين 18م و19م على وجه الخصوص كان عاملا

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 237.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص 265.

(3) - Boyer, Contribution, p17.

(4) - Merad Boudia, Op. Cit, p341.

(5) - الغالي، الثورات الشعبية...، ص 30.

(6) - نفسه، ص 30.

من عوامل تأزم العلاقة بين السلطة المركزية وأقطاب السلطة الروحية، خاصة بعد ما أصبحت مركزا فكريا وقوة روحية لجمع سكان الأرياف،⁽¹⁾ ونجحت من خلال زواياها في تكوين عالم ريفي منفصل عن نفوذ البايك عالم بإمكانه تسيير أموره المختلفة سواء كانت دينية أو اجتماعية أو اقتصادية،⁽²⁾ وهذا من خلال عملها على دمج العنصر البربري مع العنصر العربي وصهر القبائل في وحدات اجتماعية.⁽³⁾

وأمام الأوضاع المتأزمة التي مرت بها الإيالة من مجاعة أوبئة وتقهقر الاقتصاد، عملت الزوايا على مواجهة الأزمة، واستغل القائمون عليها الظروف، ونصبوا أنفسهم كحاملي الراية الشرعية الاجتماعية والسياسية،⁽⁴⁾ فهذا النفوذ الروحي وحتى السياسي الذي اكتسبه المرابطين وشيوخ الزوايا كان مدعما كذلك من طرف السلطة العثمانية، وهو ما سمح لهم بتنمية أملاكهم وظهورهم كطبقة أرستقراطية في المجتمع،⁽⁵⁾ حرص النظام على استمرارها مدة تزيد عن قرنين ونصف لخدمة مصالحه.

ونتيجة لهذا الواقع ظهر الإقطاع الديني، تحت تنظيمات طرقية صوفية،⁽⁶⁾ ومرابطية حافظت على امتيازاتها المادية ومكانتها المعنوية في المجتمع الذي عمقت فيه الفكر الروحي، فكثرت مريدوها وتوارث أجيالها التركة.⁽⁷⁾

لقد تجلت الحركة الصوفية أواخر العهد العثماني في ثوب جديد حيث كانت تهدف إلى تحقيق تجانس بين القبائل التي انضمت إليها الواحدة تلو الأخرى من أجل التخلص من ثقل البايك، وقد انضم إليها حتى المرابطون الأحرار وأصبحوا أتباعا لها لا يعملون إلا لصالحها، ولهذا فإن توسع الطريقة الصوفية لم يقتصر على عدد الأتباع، بل على مذهبها وتنظيمها، وتكيفها مع الظروف،⁽⁸⁾ وهذا ما يفسر الالتفاف الواسع للناس حولها، فالطريقة الدرقاوية والتي كانت ممثلة بباييك الشرق في شخص ابن الأحرش الذي استطاع أن يشكل لنفسه منطقة نفوذ واسعة نواحي جيجل، حيث التفت حوله قبائل المنطقة، بعد

(1)- Saidouni, Op. Cit, p306.

(2)- Ibid, p301.

(3)- صلاح العقاد، العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر 1993، ص30.

(4)- Filali, saintete..., p138.

(5)- مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 29.

(6)- Merad Boudia, Op. Cit, p340.

(7)- مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 120.

(8)- Filali, Sainteté..., p137.

ضعف نفوذ أولاد مقران بها، كما أنه اشترى سفينة ومارس بها القرصنة لصالحه،⁽¹⁾ كما استطاع التحكم في مصادر الضرائب بها بجيجل،⁽²⁾ وقد استفادت هي والطريقة التيجانية بعد انتشارهم في بايلك الغرب من دعم ومساندة أكبر وأهم القبائل الحربية.⁽³⁾

فهذه الطرق الصوفية والعائلات المرابطية لم تتوقف على إلحاق الأراضي بها، والسيطرة على القبائل، حيث نجدها بمنطقة القبائل وسعت نفوذها المحلي، من 11 إقطاعية بداية القرن 17م إلى 35 إقطاعية نهاية الفترة العثمانية، فآل المقراني أسسوا عدة زوايا وألحقوا بها العديد من القبائل إلى حد فرضوا حكمهم على 35 قبيلة و27 زاوية، حتى أصبحت تشكل إمارة تقع بين دار السلطان غربا، وقسنطينة شرقا والحصنة جنوبا، مدعمة بقبائل الحشم، التي كرست جهودها الحربية لخدمة هذه العائلة، ووصل عدد جنودها بداية القرن 18م حوالي 8000 جندي مشاة و3000 فارس،⁽⁴⁾ مقارنة بعدد الجنود الانكشارية الإجمالي بالجزائر سنة 1829م 3661 جندي^(*) منها 96 جندي بمدينة الجزائر والبقية (3565 جندي) موزعة على الحاميات بالبايلك، كوهان، معسكر، مستغانم، بسكرة، بجاية، قسنطينة، تبسة، حمزة،...،⁽⁵⁾ منها 198 جندي فقط بمنطقة القبائل التي تعد من أكثر المناطق تمردا، منها 44 جنديا ببجاية و62 جنديا في كل من برج حمزة ونفس العدد ببرج بوغني بقشتولة و30 جندي ببرج تيزي وزو،⁽⁶⁾ لهذا يذكر الورثيلاني إلى أن حكم الأتراك على أولاد مقران أواخر القرن 18م كان ضعيفا بقوله: "وأولاده على المملكة بمجانة تحت ولاية الترك غير أن حكمهم عليهم ضعيف".⁽⁷⁾

إن أسرة آل مقران ورغم كون بدايتها كانت سلطة روحية إلا أنها تحولت مع مرور الوقت إلى أسرة محاربة (الأجواد)، معتمدة على توسيع نفوذها على القوة لتصبح أكبر الأسر الإقطاعية بالبايلك،⁽⁸⁾ حيث قدرت أراضيها بمجانة وحدها بـ20.000 هكتار

(1)- Boyer, Contribution, p41.

(2)- Filali, Sainteté..., p139.

(3)- Boyer, Contribution, p46.

(4)- Filali, Sainteté..., pp132, 133.

(*)- يذكر شالر أن عدد الجنود الانكشارية في الجزائر أواخر العثماني تراوح ما بين 04 إلى 05 آلاف جندي. (شالر، المرجع السابق، ص 51).

(5)- Tachrrifat, pp34, 35.

(6)- Robin, note sur l'organisation...N11, p199.

(7)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص37.

(8)- معاشي، المرجع السابق، ص178.

بمردود سنوي قدر بحوالي مليوني فرنك عشية الاحتلال،⁽¹⁾ كما أنها امتلكت عدد كبير من الماشية والخيول الجميلة، وتجمع الضرائب من القبائل المجاورة، وهم لا يدفعون شيئا للبايلك،⁽²⁾ ونفس الشيء يقال عن فرع بتقة بن ناصر أمقران بمجانة، الذي استقر بجيجل بعدما منح سنة 1740م حق الإشراف على إدارة غابات بني فوغال، والذي تحول إلى أسرة أجياد حقيقية تتمتع باستقلال عن أي سلطة.⁽³⁾ وبهذا جمعت الأسرة بين الصفة الدينية والعسكرية والإقطاعية،⁽⁴⁾ وقد قدمت عدة خدمات للعثمانيين، حتى أنها ساعدتهم ضد ابن الأحرش، لكنها ثارت على الباي عمر آغا الذي رفض دفع الرسوم مقابل مروره على أراضيها.⁽⁵⁾ لهذا أشار "شالر" إلى أن آل مقران كان بإمكانهم تحدي جميع القوات العسكرية التركية، لكنهم لم يعرفوا استغلال ما كان عندهم من وسائل.⁽⁶⁾

كما أن جيرانهم بجرجرة مرابطو أولاد علي الشريف بشلاطة كان بإمكانهم تكوين جيش بـ 4800 بندقية،⁽⁷⁾ وامتد تأثيرهم ونفوذهم على كل الساحل خاصة على القبائل المستقلة عن السلطة مثل شلاطة، ثيفريت، ثاوريرت-عودية، اغيل أومسيد، بني سالم وغيرهم من القبائل، التي تخضع لهذه العائلة.⁽⁸⁾

ونلمس الضعف الذي دب في السلطة، مقابل قوة القوى الروحية من خلال رسالة الداوي حسين سنة 1825م لقبائل بني جناد والمرابطين، يطلب منهم مساعدته لقطع الخشب، ويتعهد لهم بدفع ثمن كل قطعة بما يرضيهم ويعرض عليهم الأراضي كامتيازات من أجل دعمه بالخشب، جاء فيها: "حفظ الله تعالى بمنه وكرمه سي بوجمعة أوقاسي المبجل وعمر وإبراهيم وكل الشيوخ أولادنا المرابطين وكل عقلاء بني جناد.... يكون أجركم عند الله عن الجهاد وتتالون امتيازات، يقسم لكم السهل للفلاحة... ولن يتعرض لكم أحد بسوء" ونتيجة رفض هؤلاء الأخيرين توالى رسائل الداوي عليهم: "إلى كل مسؤولي بني جناد وأشرافهم سلام الله تعالى وبركاته، وصلتنا رسالتكم التي تزعمون لكم فيها كامل الحقوق، بينما يحيد السلطان عن حقه وعن الصواب تجاهكم وذلك عندما تجرون رسالتكم

(1) - القشاعي، النظام الضريبي...، ص 105.

(2) - Peyssonnel/Desfontaine, Op. Cit, To2, p209.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 178، 179.

(4) - نفسه، ص 62.

(5) - Kaddache, Op. Cit, p172.

(6) - شالر، المرجع السابق، ص 116.

(7) - Filali, Sainteté, p133..

(8) - Rinn, le royaume..., p96.

من الدليل، كتابه وسنته، وحتى إجماع المذاهب الإسلامية في هذا الشأن، وواجب الجهاد في سبيل الله. إنه عنوان تطرف وغرور ومساس بشخصنا، إنكم تذكرون الشريعة كتابها وحديثها وإجماعها، وتنقضون بأفعالكم ذلك وأعمالكم معادية تماما لمبادئ الشرع... إن كنتم تخافون الله علمكم أن تنصاعوا للسلطان وتطيعوا أوامره... يجب عليكم وعلى مسؤوليكم الوقوف في وجه مرابطيكم، ولا تتبعوا غي طلبتكم الذين هم متمردون ومشوشون...." (1) فهذا النوع من الرسائل بين مدى وهن السلطة التي أصبحت تستجدي التعاون من زعماء القبائل والمرابطين، بدل أن تكون حازمة في التعامل معهم.

أما أسرة بن علي مبارك بالقلعة، فقد كانت تملك آلاف الهكتارات بمنتجة الغربية وبمليانة، وكذلك نواحي بوركيكة وعين السلطان. (2) في حين زوايا الجنوب الصحراوي والتي كانت ذات النفوذ الكبير، تحول بعضها إلى مدن كعين ماضي تماسين، وطولقة، (3) وهي زوايا تابعة للطريقة التيجانية، التي وبالرغم من حداثتها تحكمت في طرق ومحطات القوافل وراقبت تسويق التمر بين بسكرة وتوقرت والأغواط، بالإضافة إلى جبايتها للضرائب على المناطق الجنوبية الشرقية، (4) ومراقبتها لجزء من التجارة مع طرابلس، وممن انضم إليها من الطبقة الحاكمة منذ 1798م مولاي إسماعيل المغربي وباي تونس محمد باي أو حمودة باشا، والكثير من شيوخ القبائل، (5) ومن الزوايا التي كانت تنتمي إلى القبائل المرابطية التي شكلت أرستقراطية دينية خلال القرن 18م، (6) نجد أولاد سيدي الشيخ، وعلى الرغم من علاقة المجاملة المتبادلة بينهم وبين السلطة، وتمتع شيخها باحترام كبير لدى البايات، الذين كانوا عند قدومه إلى وهران يرسل الباي لاستقباله فرسا مسرجا والموسيقيين ويطلق سراح العبيد على شرفه واحتراما له، (7) إلا أنها لم تسمح بالوجود الفعلي للعثمانيين على أراضيها، فقد شكلت أرستقراطية وطريقة شبه مستقلة تحظى بنفوذ واسع حتى كان شيوخها يجمعون الضرائب لصالحهم. ولا يدفعون للبايلاك إلا مبالغ رمزية تمثلت في 6 فرنكات على كل حمولة جمل. (8)

(1) - ساحي، المرجع السابق، ص 144، 143.

(2) - Saidouni, Op. Cit p303.

(3) - بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 30.

(4) - G.Andre. (P.J), Op. Cit, p200.

(5) - Filali, Sainteté..., pp138, 139.

(6) - Merad Boudia, Op. Cit, pp339, 340.

(7) - Esterhazy, de la domination, Op. Cit, p270.

(8) - Merad Boudia, Op. Cit, p365.

فهذه الزوايا والطرق الصوفية وبعد دورها في المجتمع من نشر التعليم والإصلاح بين القبائل، بدأت في توسيع نفوذها على مناطق واسعة، حتى أصبحت عبارة عن دويلات تتمتع باستقلال ذاتي مشكلة ما يسمى "دولة داخل دولة" إذ وصل بها الحد إلى قدرتها على زعزعة الحكم.⁽¹⁾

ومما ساعد على ظهور هذه الاقطاعات الدينية كقوة عسكرية، هو أن العديد من القبائل والعائلات المرابطية وبعد استرجاع وهران خرجت بقوة عسكرية، مثل عائلة أولعربي التي شكلت جبهة مع القبائل للجهاد ضد الإسبان، وقد وصل نفوذها من دار السلطان حتى بايلك الغرب، فهذه العائلة كانت تقدر النصر والمجد، وكذلك أولاد عبد الله بواد مينا بالشلف، والتي اكتسبت هيبة ونفوذ من خلال عملها الجهادي.⁽²⁾

والشيء نفسه يقال عن عائلة آل مقران التي شكلت بدورها إمارة لها قوة عسكرية معتبرة كما رأينا سابقا، فكل زاوية أو قبيلة مرابطية لم ترق إلى صف الإمارة إلا بفضل عملها الحربي لأنها كانت في بداية أمرها عبارة عن رباطات ضد الأعداء حيث قاد المرابطون الأتباع وجندوا الأهالي للجهاد وأطعموا المجاهدين في زواياهم، وبعد تقلص الجهاد رجع هؤلاء المرابطون إلى زواياهم وازدادت صلتهم بالأهالي،⁽³⁾ حيث كانت الممثل والمترجم للرأي العام أمام السلطة التي ضعفت منذ القرن 18م،⁽⁴⁾ خاصة وأنهم اكتسبوا قوة عسكرية وتجربة حربية، حتى أصبحوا نهاية القرن 18م قوة مالية وفكرية وعسكرية بإمكانها تشكيل خطر حقيقي على السلطة، وهو ما حدث سنة 1803 بقسنطينة وعام 1805 بوهران.⁽⁵⁾

هذا دون أن ننسى تأثير الطرق الصوفية المغربية على الطرق الصوفية بالجزائر ذات الأصول المغربية،⁽⁶⁾ والتي بعد انفصال طويل بينهما نتيجة للظروف الداخلية للمغرب عادت هذه الأخيرة إلى الواجهة، لبث توجيهات وأراء الشرفاء بالمغرب، والتي كانت تلقى صداها بالجزائر،⁽⁷⁾ وهو ما حدث بالنسبة لثورة درقاوة.

(1) - Rinn, Marabouts et Khouans, p107 - G.Andre, Op. Cit, p199 et 201.

(2) - Filali, Sainteté..., p133.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص267.

(4) - André Raymond, Op. Cit, p85.

(5) - Saidouni, Op. Cit, p396.

(6) - Brosselard, les khouans..., p08.

(7) - الغالي، الثورات الشعبية، ص152.

وبهذا فالقوى الروحية المحلية أصبحت مع نهاية العهد العثماني تمثل تجمعا له مقوماته الفكرية والدينية والاقتصادية وحتى السياسية، جعلتها تكون دولة داخل دولة لها كل المؤهلات للثورة على السلطة القائمة، وبإمكانها قلب موازين القوى في الولاية. لهذا فالإشكالية المطروحة لماذا لم تقم هذه القوى بثورة لإنهاء الحكم العثماني في الجزائر؟.

2- تجليات التحول في العلاقة بين السلطتين الروحية والسياسية:

لقد تميزت سياسة العثمانيين منذ بداية تواجدهم على أرض الجزائر إلى غاية النصف الأول من القرن 17م بعدم التدخل في شؤون السكان الداخلية، مكتفية بالتعامل مع شيوخهم ومرابطيهم الذين كانوا يقدمون نيابة عن السكان ما كان يفرضه البايك من ضرائب متنوعة مقابل نيلهم العطايا والترضيات.

وقد كان اعتماد الدولة في سد حاجياتها على الموارد البحرية من غنائم و إتاوات سببا في تخفيف الضغط على الأهالي، لكن منذ أواخر القرن 17م اتجهت سياسة الحكام إلى مد نفوذهم نحو الداخل متبعين في هذا أسلوبا يعتمد على القوة، وعلى عدم مراعاة ظروف الأهالي وتجاهل رأي رجال الدين،⁽¹⁾ الذين لم يتوقفوا عن إزعاج السلطة بحجج تاريخية دينية، كونهم حماة الإسلام مدعين هذا بضعف السلطة المركزية، والمشاكل التي أضعفت المجتمع خاصة وأن الجهاد ضد العدو كان قد انتهى، فأصبحت الطرق الصوفية المساندة للإيالة سابقا منافسا غير مرغوب فيه.⁽²⁾

ولهذا اتصفت سياسة الأتراك في الفترة الأخيرة بمعاداة رجال الدين، خاصة شيوخ الزوايا، ومحاولة إخضاعهم لنفوذهم، وهو العامل الذي أدى إلى حدوث نوع من القطيعة بين الزوايا وأتباعها، وبين الحكام وهذا بعد فترة طويلة عرفت فيها السلطة كيف تكسب تأييد العلماء خاصة شيوخ الزوايا.⁽³⁾

وبما أنهم شكلوا خطرا عليها عملت السلطة على إبعادهم متخذة في هذا عدة إجراءات حتى تحد من نفوذهم،⁽⁴⁾ وإن كانت بعض هذه الإجراءات قد لجأت إليها

(1) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص36.

(2) - Filali, sainteté..., pp130, 131.

(3) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص38،39.

(4) - Vatin, Op. Cit, p104.

السلطة، حتى في فترة التوافق والتعاون بينها وبين السلطة الروحية، وهذا بالتضييق على كل من قد يشكل خطرا عليه.

2-1- إسقاط الامتيازات المادية والمعنوية:

2-1-1- إسقاط الامتيازات المادية:

أ- إلغاء حق الإعفاء من الضرائب:

منح العثمانيون السلطة الروحية امتياز حق الإعفاء من الضرائب، منذ بداية تواجدهم بالجزائر، بحيث أنها لما فرضت الضرائب على الأهالي أعفت منها أقطاب السلطة الروحية، خاصة المرابطين، لكن هذا الامتياز ونتيجة لتغير الأوضاع الاقتصادية، خاصة منذ نهاية القرن 17م، أين قامت السلطة بإلغاء الإعفاء الضريبي، ويعد صالح باي أكثر الحكام من اعتمد هذا الإجراء حيث طالب الزوايا بالتنازل عن جزء من امتيازاتها والمتعلقة بالضرائب، لكنها رفضت وهو الأمر الذي جعله يلجأ إلى شن حملات ضدها،⁽¹⁾ وحد من نفوذ شيوخ الطرق خاصة بالجنوب،⁽²⁾ لهذا يرجع بعض المؤرخين سبب اختلافه مع الزوايا إلى تراجعهم عن الإعفاءات الضريبية لصالح الزوايا، لأنه كان بحاجة للمال لانجاز مشاريعه العمرانية، فوحد نظام الضرائب الأمر الذي أزعج الشيوخ المعفيين مثل: الشيخ أحمد الزواوي ومحمد الغراب، رغم أن هناك من يرجع الخلاف إلى كون التنظيمات التي أدخلها صالح باي على المؤسسات الدينية قضى بها على استقلالية الحقل الديني الصوفي، لأنه اعتمد على علماء وفقهاء بعيدين عن التصوف والطريقة.⁽³⁾

فصالح باي لم يتراجع عن قراره رغم ما ظهر له من كرامات عند قتله للشيخ محمد الغراب الذي تحولت جثته إلى غراب، عكس الباي حسن بوحناك الذي حاول قبله جباية الضرائب من منطقة المرابط محمد بن علي من أولاد عبد النور بالقوة، لكن لما أظهر له المرابط كراماته تراجع عن قراره وأعفاه من الضرائب وصاهره ومنح زاويته الحصانة،⁽⁴⁾ ونتيجة لإجراء إلغاء الإعفاء الضريبي ورفض المرابطين له باعتباره حق لهم، مثلما فعل مرابط ميلة يدعى "الزبوشي" -من أتباع الطريقة الرحمانية- الذي قام بتحريض وتخويف الناس مما قد يحل بهم في ظل وجود العثمانيين تم إلغاء إعفائه من الضرائب، وامتيازات

⁽¹⁾ - Kaddache, Op. Cit, p164.

⁽²⁾ - مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم...، ج3، ص244.

⁽³⁾ - قشبي، قسنطينة عهد صالح باي، ص196، 197.

⁽⁴⁾ - Feraud, le sahara, p204

أخرى من طرف الباي عصمان بدل التخلص منه، خوفا من رد فعل الناس نتيجة اعتقادهم فيه، ومعتقدا أن العقوبة تمنعه من تحريض الأهالي، لذلك الزبوشي رحل إلى قسنطينة للمطالبة بما هو حقه الشرعي حسب قوله، لكنه فشل في تحقيق مطلبه فتمرد على السلطة، حتى ظهر ابن الأحرش وانضم إليه.⁽¹⁾

ب- المصادرة والتغريم:

كانت عملية المصادرة والتغريم إحدى الأساليب التي اتبعتها الحكام للبطش بالعلماء خاصة أواخر العهد العثماني، حيث نجد منهم من اتخذ من مصادرة الأملاك وسيلة إجرائية تأديبية ضد السلطة الروحية، كما أنهما كانا مصدران هامان للحصول على أموال للخرينة، لأن الأملاك المصادرة كانت تباع في المزاد العلني تحت رعاية بيت المالجي وبمساعدة العدول.⁽²⁾

فلجؤ الحكام إلى نزع امتيازات أقطاب السلطة الروحية، خاصة الطرق الصوفية والمرابطين دفع ببعضهم إلى مد يده على الأراضي أو المناطق التي كانت تابعة للإقطاع الديني المحلي، وهذا كان سببا في تراجع التحالف بينهما⁽³⁾، الذي كان مقيدا بالنفوذ والتأثير والقوة المادية لهذا الأخير.

وحسب ما ذكره "أبو القاسم سعد الله" ونقلنا عما جاء في "الشهب المحرقة" للشيخ برناز^(**) قوله أن الداوي شعبان كان محبا للمال مهينا للعلماء، حيث أهان علماء قسنطينة، وصادر أملاكهم، كما أنه رفض استقبال وفد العلماء الذي أرسله باي تونس إليه من أجل الصلح، وقد قام الباشا بمصادرة سفينتهم كما أهانهم ومنعهم من الاتصال بالناس،⁽⁴⁾ ومن عمليات المصادرة نجد أن الديوان حكم على المفتي الحنفي محمد بن مصطفى المعروف بابن المستي،^(*) سنة 1138هـ/1728م بمصادرة أملاكه والموت، لكن لم تعرف التهمة الموجهة له، لكن الظاهر أنه كان ضحية الانتقام السياسي.⁽⁵⁾ كما

(1)- Feraud, Histoire des villes, GIGILLI, p193.

- Feraud, " Zebouchi et Osman bey "in R.A n° 06, 1862, pp120, 121

(2)- عباد، المرجع السابق، ص350.

(3)- Merad Boudia, Op. Cit, p342

(**) - هو احمد بن مصطفى برناز، مؤرخ تونسي، عاصر الداوي شعبان.

(4)- سعد الله، من أخبار الداوي شعبان، ص112 وبعدها.

(*) - ذكره ابن المفتي تحت اسم الماستجي.

(5)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 418، 419.

قام الداوي حسين بمصادرة وغلق زاوية سيدي التواتي ببجاية بحجة اعتداء أحد طلبتها على فتاة من أسرة مشهورة مقربة من السلطة.⁽¹⁾

إن الامتيازات التي كان يمنحها الحكام للعلماء وخاصة المرابطين منهم، كانت أحيانا محل قلق للحكام، فبالإضافة للنفوذ الروحي للمرابطين في الأوساط الشعبية يضاف إليه نفوذهم المادي والسياسي الذي مُنِحَ لهم بفضل دور الوساطة، هذا الأمر أزعج الحكام وجعلهم يتخذون إجراءات ضدهم إذا رأوا تزايد قوتهم، وخير مثال ما فعله الباي أحمد القلي (1756-1771م) مع مرابطي بن ناصر، الذين لعبوا دورا بارزا في العلاقات بين تونس وقسنطينة وحتى في ربط السلطة بالأهالي، وبسبب تزايد قوتهم خشي منهم الباي فأقدم على مصادرة كل ثرواتهم⁽²⁾، حتى يقوض من نفوذهم ولا يشكلون خطرا عليه، وحتى صالح باي هو الآخر ورغم إنجازاته الثقافية إلا أنّ سيرته تغيرت معهم وصار يظلم رجال الدين، وفي هذا الصدد يقول العنترى "صار يظلم ناس الزاوية حتى أفضى به ذلك إلى الهلاك والهاوية".⁽³⁾

لقد عمل صالح باي على الحد من نفوذ الزوايا وشيوخ الطرق بالجنوب وشن حملات ضدها بجبال عمور وبلاد ميزاب، وتقرت،⁽⁴⁾ وهي زوايا كانت تتمتع بنفوذ كبير وسلطة تكاد تكون مطلقة، فنزع منهم هذا النفوذ والسلطة على الناس بالحلم تارة وبالقوة تارة أخرى ليخضعها لسلطته.⁽⁵⁾ كزاوية سيدي أحمد الزواوي بقسنطينة، الذي عمل مدرسا للقرآن، والذي كانت تربطه علاقات حسنة مع صالح باي، لكن فيما بعد تغيرت ونقم الشيخ على الأتراك خاصة صالح باي، الذي هاجم زاويته ودمرها وأحرقها وصادر ما فيها، لذلك فر الشيخ مع أتباعه إلى جبال أوزغار، بعدها حاول صالح باي إرضاءه لكنه رفض وظل هناك حتى وفاته.⁽⁶⁾

ولم يكتف صالح باي بهذا بل رغب في أملاك أغنى زاوية بالحنانشة وهي زاوية أولاد سيدي عبيد،⁽⁷⁾ وطالبهم بدفع ضريبة الزمة،⁽¹⁾ لكنه فشل في ذلك الأمر الذي دفعه

(1)- Feraud, histoire des villes...Bougie, p 217. Filali, Salah bey, p151.

(2)- Babes, Op. Cit, p18.

(3)- العنترى، فريدة مؤنسة، ص62.

(4)- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص244.

(5)- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا...، ص139.

(6)- Mercier, Histoire de Constantine, p283. - Vayssettes, Histoire de Constantine, pp142, 143.

- Gaid, chronique., p 41(marge)

(7)- Kaddache, Op. Cit, p 156.

إلى الاعتداء على إحدى قوافلهم عام 1791م،⁽²⁾ وصادر لها (2000 جمل) محملة بالحبوب فاشتكاه المرابط للداي، الذي أمر بقتل القايد بورنان بن زكري الذي هاجم القافلة،⁽³⁾ ولما دعى عليه مرابط القبيلة بزوال حكمه، تشاءم صالح باي من دعائه، وندم على فعلته، وأرسل إليه محاولاً إرضائه، لكن المرابط رفض وأخبره أن الأمر انتهى ولا يمكنه الرجوع عن دعائه، كما أنه سيسترجع أملاكه في عهد ثالث باي بعده،⁽⁴⁾ وهي نفس الزاوية التي اعتدى عليها شاكرباي وصادر ما لديهم من أنعام، وهذا بعد فشله هو الآخر في حملته ضد النمامشة سنة 1817م،⁽⁵⁾ لكن الرياح والثلوج أضاعتها منه فعادت إلى أصحابها،⁽⁶⁾ فالباي شاكرباي عندما تولى الحكم سنة 1814م، أمر باعتقال أعوان الباي السابق نعمان منهم: الكاتب أحمد السايح وأخويه الطيب، وعيسى وكل أفراد العائلة، ومصادرة كل أملاكهم العقارية.⁽⁷⁾

أما من الناحية الغربية فلم تذكر المصادر سوى ما قام به الباي خليل الذي اضطهد العلماء والمرابطين نتيجة بغضه لهم،⁽⁸⁾ خاصة المعادين للسلطة، فقد غزى قرية الشيخ أبو ترفاس^(*) بندرومة، وأخذ زاويته وفرق طلبته وأراد قتله،⁽⁹⁾ وهي نفس الزاوية التي خربها الباي محمد بن عثمان الرقيق (بوكابوس)، وهذا لكون الشيخ صهرا للدرقاوي.⁽¹⁰⁾ حيث قاد ضده حملة سنة 1227هـ/1813م، ففر الشيخ نحو بني سنوس بالمغرب، تاركا أمتعته وأملاكه وجماله بين يدي الباي.⁽¹¹⁾

(1) - فركوس صالح، الحاج أحمد باي قسنطينة 1826-1850، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، 1993، ص51.

(2) - Mercier, Histoire de Constantine, p285. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p144.
- Trumelet, l'Algérie légendaire, p249.

(3) - Feraud, Le Sahara..., p225. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p144.

- سعيدوني، دراسات وأبحاث - العهد العثماني -، ص 74.

(4) - Feraud, Le Sahara..., p225. - Trumelet, l'Algérie légendaire, pp249, 250. - Filali, Salah bey, p156.

(5) - Mercier, Histoire de Constantine, p346. - De Grammont, Op. Cit, p363.

- Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, p298.

(6) - Gaid, chronique, p70.

(7) - العننري، فريدة مؤنسة...، ص 81 (هامش).

(8) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 22.

(*) - له زاوية مشهورة بنواحي عين الكبيرة بندرومة.

(9) - المزاري، المصدر السابق، ص288، 287. - الزباني، دليل الحيران، ص198.

- مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص22.

(10) - المزاري، نفسه، ص332، 333.

(11) - Esterhazy, de La domination turque, pp210, 211.

أما في بايلك التيطري وعندما قاد جعفر باي سنة 1814م حملة ضد أولاد المهدي على رأس 50 جنديا وآلاف المخازنية، استولى على قافلة أولاد سيدي عيسى من الأغواط، التي كان بها عدد من الجمال محملة بالقمح، ولما ذهب المرابط "سيدي محمد بن العطروش" مطالبا بها رد عليه الباي "أنا جمل والمرابط شوك والجمل يأكل الشوك"، فدعى عليه المرابط بالعقاب من الله، فهاجمته قبائل أولاد المهدي وألحقت به خسائر كبيرة ونجى هو بصعوبة،⁽¹⁾ وفي طريقة رد الباي على المرابط إشارة منه أنها أصبحت ملكه، ودليل على تغير سلوك الحكام اتجاه المرابطين وإسقاط عامل الاحترام والتبجيل الذي أحاطوهم به سابقا، ويرجع انتهاج الحكام لمصادرة أملاك السلطة الروحية، خاصة النافذين منها بهدف إضعافها ماديا.

ومثلما تعرض أقطاب السلطة الروحية للمصادرة تعرضوا أيضا للتعزيم، الذي كان يسلط على الفرد أو جماعة، خاصة عند وقوع تمردات، حيث تغرم القبائل،⁽²⁾ وهذا الإجراء كان قبل أن تسوء علاقة السلطة الحاكمة مع السلطة الروحية بصورة واضحة أواخر العهد العثماني، حيث أشار الفكون، إلى الشيخ حميدة بن حسن الغري الذي تولى الإفتاء ونيابة القضاء الحنفي، ورغم أنه كان مواليا للسلطة ويخدم الحكام ويقدم لهم الرشوة، إلا أنه تعرض للسجن والتعزيم عدة مرات،⁽³⁾ ونفس الأمر حدث لكل من المفتين أبي زكريا يحيى بن محمد المعروف بابن محجوبة وأبي عبد الله محمد بن المسبح، فالأول كانت له محن وسجون كثيرة مع السلطة، لذلك غرم عدة مرات، لهذا كان يفر من الأوامر الصادرة في حقه للانتقام منه، أما الثاني والذي تولى الفتوى كان أميا لا علم له بالفتوى، ويعد أول من قدم الرشوة لتولي نيابة القضاء، فهو الآخر امتحن وغرم عدة مرات،⁽⁴⁾ وحتى عائلة ابن باديس التي تولت بعض الوظائف الدينية خلال الوجود العثماني بقسنطينة، والتي اتخذت موقف المحايد منه، إلا أن أفرادها تعرضوا للسجن والتعزيم مرات عدة.⁽⁵⁾

وقد كانت القبائل تتعرض للتعزيم كذلك عند ارتكاب مخالفات، وهو إجراء طبق حتى على القبائل التي بها مرابط، فلم يكن يحترم رغم سعيه دائما لحماية قبيلته، وحتى

(1)- Federman et Aucapitaine, Note sur l'histoire..., N°09, p294, 295.

(2)- صالح عباد، المرجع السابق، ص350.

(3)- الفكون، منشور الهداية، ص 75.

(4)- نفسه، ص 63 و 90.

(5)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص417.

القبائل التي تعتبر قبائل مرابطية لم تسلم هي الأخرى من التفرغيم، وما يثبت هذا الأمر رسالة مرسلّة من أحمد باي إلى الداوي حسين باشا بتاريخ 11 ذي القعدة 1243هـ-28 ماي 1828م، تبين اعتذار آل مكران عن دفع باقي الغرامة المفروضة عليهم بحجة الجراد وقلة الخصب، جاء فيها: "ونعلمك سيدي أن أولاد مكران بعثوا لنا الدفع من قبل الخطية وذلك سبعون زيلة (بغال) وخمسة وثلاثون بعيرا وحصان وفرس... كما لا يخفاك وقد اعتذروا بالجراد وقلة المطر ونحن ساعدناهم في هذا الوقت...".⁽¹⁾

كما نجد الباي حسان ببايلك الغرب لما حاصر قبيلة الشيخ التيجاني بعين ماضي سنة 1214هـ/1825م، بسبب مشاركتها في ثورته ضد السلطة المركزية، فرض عليها غرامة قدرت بـ2000 ريال سنوية وبجزية سنوية مقدرة بـ500 ريال،⁽²⁾ كما غرم قبيلة الشيخ محي الدين-الحشم-، التي شاركت التيجاني ثورته تحت زعامة أخيه سيدي على بوطالب، بـ50.000 ريال بوجو سنويا.⁽³⁾

2-1-2- إسقاط الامتيازات المعنوية:

أ- المضايقة:

تعد المضايقة من طرف الحكام لأقطاب السلطة الروحية، خاصة أواخر العهد العثماني، إحدى الأساليب التي اعتمدها الحكام بهدف التخويف والترهيب، وحتى قبل تغيير علاقة الود والتقارب بين السلطتين، كانت المضايقة وسيلة للحد من نشاط العلماء والمرابطين البارزين، فالشيخ أبي عبد الله محمد بن مزيان التواتي، تعرض للمضايقة بسبب إيوائه من استجار به من المعارضين للسلطة، لذلك هاجر من قسنطينة نحو باجة بتونس سنة 1023هـ/1614م،⁽⁴⁾ وقد وصل بالسلطة إلى درجة أن هدمت دار الشيخ محمد الكماد، وهو من الأسر العلمية بقسنطينة وذات قرابة مع عائلة الوزان، والذي تولى قضاء ونيابة القضاء لدى السلطة، التي هدمت بيته عندما كان في الحج، بعدما اشتكى منه الناس،⁽⁵⁾ وبسبب ثورة ابن الصخري تعرض للمضايقة والامتحان وكاد يحترق بفنتتها

(1) - مجموعة 1462 الوثيقة 25، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص353.

(3) - الغالي الغربي، الثورات الشعبية، ص193 و207.

(4) - الفكون، منشور الهداية، ص59 و90.

(5) - نفسه، ص44 و77،78.

كل من عيسى الثعالبي الذي فضل الهجرة إلى مصر ثم الحجاز،⁽¹⁾ وأحمد المقرئ الذي فضل هو الآخر التنقل بين مصر والقدس والشام والحجاز حتى وفاته سنة 1041هـ - 1631م.⁽²⁾

ومن الأسر المرابطية التي تعرضت لمضايقة السلطة أسرة بن ناصر التي تعاونت كثيرا مع العثمانيين، خاصة في التفاوض والصلح مع تونس، التي وطد معها شيخ الأسرة أحمد بن ناصر علاقاته، وهو ما أثار تخوف العثمانيين، خاصة بعدما بنى الشيخ حصنا في الخنفة لحمايتها من هجمات الأعراب، وبسبب تخوف السلطة منها ومما أقدم عليه الشيخ شن الباي أحمد القلي ضدها حملة، ألحق بها خسائر مادية كبيرة، وهو ما جعل باي تونس يمنحه أراض بماطر وبنزرت تعويضا له على خسائره.⁽³⁾

وببايلك الغرب نجد الشيخ ابن لولو التلمساني الذي اشتهر بالعلم تعرض للمضايقة من طرف القائد التركي حفيظ بتلمسان، مما اضطره للرحيل والاستقرار بمعسكر، رغم استرضاء هذا القائد له بعد ذلك،⁽⁴⁾ كما أن مقدم الطريقة الطيبية الحاج التهامي بن عمر تعرض لعدة مضايقات من طرف البايات، لعدم ارتياحهم لنشاطه وصلت حد سجنه، رغم أن الطريقة كانت تسترضي الحكام، وحصلت على وقف تمثل في دار اشتراها الباي حسن بـ60 مئقال ذهب سنة 1173هـ/1759م،⁽⁵⁾ فهذا الأخير عمل على التضيق على المرابطين الذين يمكن أن يسببوا له المتاعب،⁽⁶⁾ فقد تجرأ على العلماء والأولياء وأظهر لهم ظلما وطغيانا كبيرين، حيث كان يتبع أقطاب السلطة الروحية فسجن وعذب وقتل وأحدث ما يسمى "بمحاكم" التفتيش.⁽⁷⁾

وكان من جملة ضحاياه العديد من العلماء الذين أهانهم وأساء إليهم، الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، الذي كان الباي يتحين الفرصة للإطاحة به وبأسرته، وهذا بالرغم من الاحترام الذي أظهره الحكام للشيخ إلا أنهم كانوا يخشونه، والدليل ما قاله هذا الباي لجلسائه عندما جاء الشيخ لتهنئته بانتصاره على الدرقاوي "نحن لا نخشى من ابن

(1) - سعد الله، على خطي، ص 203.

(2) - نفسه، ص 212.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 97.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 420، 421.

(5) - مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 228، 229.

(6) - De Grammont, Op. Cit, p384.

(7) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

الشريف وأمثاله وإنما نخشى من صولة هذا⁽¹⁾، مشيراً إلى الشيخ الذي انتهى به الأمر إلى فرض الإقامة الجبرية عليه في وهران وكاد يلقى حتفه لولا تدخل بعض الأعيان من المخزن لصالحه⁽²⁾، لكن هناك من يرى تراجع الباي عن قتله بفضل تدخل زوجة الباي، وهي ابنة الباي بوكابوس، التي طلبت العفو على الشيخ وترحيله إلى وهران،⁽³⁾ وربما هذا ما جعل الأمير عبد القادر يتخذ موقفاً من الأتراك بالجزائر فيما بعد.^(*)

وحسب "يحي بوعزيز" فإن الشيخ محي الدين كان رافضاً للظلم الذي مارسه الحكام العثمانيون، فوشى به خصومه للباي حسن الذي فرض عليه الإقامة الجبرية بوهـران من سنة 1821م إلى سنة 1824م، ليطلق سراحه بعد ذلك بعد تأكد الباي من بطلان الوشاية، ليتوجه للحج مع ابنه عبد القادر بعد ذلك.⁽⁴⁾

وعلى إثر هذه الحادثة أرسل العلامة السنوسي بن عبد القادر السنوسي الدحاوي له قصيدة يسليه بها جاء فيها:

عول على الصبر لا تفزعك أشجان	ولا ترعك بما فاجتك وهران
تخفي الدسائس لم تظهر لها حيل	ولم تعاقدها والله أيمن
شبت على الغدر لم تعطف على أحد	إلا ومن غدرها صد وهجران
ما أنت أول من دعت ولا آخر	ولا بأوسط من خانته إخوان
انظر إلى يوسف الصديق كم لبث	في السجن نفسه لم تزره خلان
وانظر إلى ابن رسول الله ثم إلى	هلم جرا وما لاقاه عثمان
صبرا فلا غرو أن تتحل عقدة من	من أجله قد عاد عليك سلطان ⁽⁵⁾

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 116.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص292.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص361. - الجزائري محمد بن عبد القادر، نفسه، ص 115.

- سعد الله، أبحاث وآراء...، ج1، ص176. Alex-Bellermane, Op. Cit, pp19, 20.

(3) - بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري (1807-1883)، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1986، ص22.

- Fey, Op. Cit, p308 - Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, p503.

(*) - انظر حول هذا سعيدوني، "موقف الأمير عبد القادر الجزائري من بقايا السلطة التركية بالجزائر"، مجلة التاريخ، عدد خاص 1980، أو ينظر العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص103.

(5) - نفسه، ص361.

ب- إسقاط مبدأ الاحترام:

بالإضافة إلى هذا، فقد أسقطت السلطة حتى مبدأ الاحترام الذي كان أحد الامتيازات التي قدمها الحكام لأقطاب السلطة الروحية، سواء باحترامهم كأشخاص أو احترام مراكزهم واعتبارها ملاذا لكل مرتكب مخالفة أو جريمة، لكن هذا الأمر تغير مع نهاية العهد العثماني ليصبح هذا الحق وهمياً.

وحسب "ابن المفتي" فإن الحكام كانوا سابقا يققون عند دخول العلماء عليهم ويقبلون أيديهم ويودعونهم عند انصرافهم، لكن المفتي الحنفي محمد النيار، - الذي يعتبره جاهل ومرتشى- وهو من أهان العلماء عندما قام بتقبيل يد الداى أهتشي مصطفى، فجعلها الحكام عادة بعد ذلك، وأصبح العلماء هم من يقبلون يد الحكام،⁽¹⁾ الذين كان بعضهم ممن يرفض وساطة العلماء، مثل الداى شعبان ورغم حبه للعلماء فإنه أهان علماء قسطنطينة وأخذ أموالهم، كما رفض وساطة علماء تونس الذين أرسلهم محمد باي من أجل الصلح.⁽²⁾

فالاحترام الذي أظهره الحكام للعلماء غالبا ما كان يظهر على أنه احترام مصطنع، بحيث حتى الموالين لهم وأكثر المتحالفين والمتعاملين معهم، ولا يراعون فيهم حتى الخدمات التي قدموها لهم، كعائلة الفكون ورغم المكانة التي تمتعت بها فإن الداى شعبان رفض وساطة وشفاعة الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون لصالح ابن عمه الفقيه الذي حبسه الداى لتدخله من أجل إطلاق سراح ابن عمه، الذي طلب من الداى إطلاق سراح بعض أهالي قسطنطينة، ممن سجنهم في طريقه إلى تونس، وقد قدم له مقابل إطلاق سراحهم خمسمائة ريال، لكن الداى رفض طلبه ولما عاد من تونس سجنه هو الآخر.⁽³⁾ والشيء نفسه يقال عن الشيخ محي الدين الذي أهانه الباى حسان^(*) هو وابنه الأمير عبد القادر رغم كونه رئيسا لأكبر زاوية تابعة للطريقة القادرية التي يحميها السلطان العثماني.

(1) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 89.

(2) - سعد الله، من أخبار الداى شعبان، ص 112.

(3) - سعد الله، من أخبار الداى شعبان، ص 120، 121.

(*) - ينظر القسم الرابع.

وحتى مراكز السلطة الروحية التي اعتبرت أماكن مقدسة ولا يجوز المساس بحرمتها، خاصة أضرحة المرابطين التي اعتبرت ملاذا مقدسا، فأحيانا كان يسقط هذا الامتياز ويصبح امتيازاً وهمياً، لأن الحكام يحاصرون الضريح، ويمنعون المساعدة للفارين حتى الموت جوعاً،⁽¹⁾ مثال ذلك ما حدث للداي أهتشي مصطفى (1705-1799م) الذي وبعد عودته من الحملة التي قادها ضد تونس وجد دايا جديداً في مكانه، وتفادياً لقتله فر إلى ضريح سيدي علي مبارك بالقليعة، لكن خصومه تطفنوا للأمر، فأغلقوا باب الضريح حتى وصل مطارده وقتلوه خنقاً،^{(2)(*)} لأنه كان من عادة الجند عندما ينصبون دايا جديداً يقتلون من كان قبله.

أما أحمد شاوش القبائلي فعندما أراد الاستيلاء على الحكم بقسنطينة حاصر في المسجد الباي علي بن يوسف (1807-1808م) رفقة الآغا حسين قائد القوات التي أرسلها الداوي لمرافقة الباي علي في حملته ضد تونس، أين قتل الآغا حسين أما الباي فقد فر لكن قبض عليه وأعماه ليعيش بعدها على نفقات المحسنين،⁽³⁾ في حين أن الباي شاكراً لما فر سنة 1818م من الباي الجديد مصطفى قارة الذي كان آغا بالمسيلة، احتفى ببيت الشيخ الفكون، لكن الباي مصطفى انتزعه منه بالقوة وقتله،⁽⁴⁾ أما سنة 1242هـ-1826م، أعطى الباي أحمد أمر بمهاجمة زاوية شطابة بعد احتفاء 17 شخص بها، وقتلهم جميعاً إلا واحد منهم فر بنفسه.⁽⁵⁾

ويذكر "ابن سحنون" أن بعض ولاية وهران وحكامها تهاونوا واستهانوا بحرمة الزوايا حيث يقومون بإخراج من يستجير بها، من ذلك ما قام به الباي مصطفى بوشلاغم بعد تحرير وهران سنة 1120هـ/1708م، لجأ بعض الجناة إلى ضريح سيدي الهواري، فأمر بإخراجه لكنه رأى في منامه الشيخ يوبخه على تعديه على حرمة وإخراج الجاني منه، وأخبره أن النصاري سيأخذون وهران من يده في تاريخ كذا، وأعطاه علامة على غضبه،

(1)- Devoulx, Les édifices..., p09. – Venture, Op. Cit, p160.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 469.

(*)- لكن "قايسات" يذكر أنه بقي هناك حتى وفاته. – Vayssettes, Histoire de Constantine..., p97.

(3)- العننري، فريدة مؤنسة، ص84. (هامش) - Ibid, p178. – Vayssettes, histoire des derniers...N04, p132.

(4)- نفسه، ص76. (هامش). – Vayssettes, Histoire de Constantine, p204.

Vayssettes, histoire des derniers...N05, p111, 112.

(5)- Mercier, Histoire de l'Afrique..., T03, pp522, 523.

"أن ينظر إلى الجندي الذي اقتحم ضريحه"، فلما أفاق الباي وسأل عن أمر الجندي، وجد أن بطنه انتفخ حتى مات وأخذت منه وهران في اليوم الذي عينه له الشيخ.⁽¹⁾ فهذا الامتياز لم يكن ينتهك من السلطة فقط بل أحيانا حتى من الأهالي والقبائل نفسها، من ذلك لما فر الداوي مصطفى (1797-1805م) إلى ضريح الولي دادة، بعد ثورة خليفته أحمد خوجة عليه سنة 1805م، حيث قام القائمون على الضريح بغلق أبوابه في وجهه، لِمَا وصلهم من أخبار مما حدث من فوضى بالمدينة، فكان مصيره القتل،⁽²⁾ أما في عهد الباي علي (1807-1808م) ثارت قبيلة التلاغمة ضد القايد الطيب بن الحاج الذي أساء معاملة أهلها، الذين استدرجوه للتفاوض في زاوية مغالسة ولما عرف بمكيدتهم ونيتهم بقتله، احتفى بإحدى غرف الزاوية لكنهم نزعوا السطح وأشعلوا النار في الغرفة فمات القايد و 06 من حراسه.⁽³⁾

ومن مظاهر إسقاط الاحترام على أقطاب السلطة الروحية، والتي غالبا ما كانت تحمل الإهانة والإذلال لهم، ما قام به الداوي محمد بكداش الذي حجز أحمد بن سعيد قدورة وحفيده القاضي علال قبل قتلها، من الصباح حتى الغروب في مكان به دنس حتى كادا يختنقان، ونقلوا في نفس اليوم إلى سجن في القصر،⁽⁴⁾ فهذه المعاملة تعد إهانة لهما كعالمين من أسرة مرموقة، عرفت بالعلم وكانت تحظى بثقة وحب الأهالي واحترامهم وحتى الحكام أنفسهم، أما الباي محمد الكبير الذي ورغم ميله للعلماء وإيمانه بالأولياء والصالحين، إلا أنه ألقى المسؤولية على مرابطي تسالة إثر حدوث اضطرابات بتلمسان سنة 1780/1777م من طرف الدرقاويين، الأمر الذي جعله يسخر من أحد مرابطيها بحيث وضعه على ظهر حمار وطاف به داخل معسكر المحلة،⁽⁵⁾ من أجل إذلاله والحق من قيمته.

فاحترام الحكام العثمانيين للعلماء خاصة المرابطين منهم لم يكن عميقا، فإذا أخذنا ما نقله "بويي" (Boyer) عما رواه الأب هارولت "Harault" لدليل على ذلك، بحيث أن مرابطا ريفيا رأى في منامه أنه يجب عليه قتل مسيحي، فأراد شراءه من تركي، لكن هذا

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 447، 448.

(2) - الزهار، المصدر السابق، ص 89.

(3) - Seghiri(A), "L'histoire régionale de l'Algérie l'exemple de la tribu des Telaghema" in arab historical review for ottoman studies, N37-38, 2008, p321.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 106.

(5) - Boyer, Contribution, p35, p38.

التركي استخف بالمرابط حيث أعطى العبد سيفاً، واستدعى المرابط الذي فر هارباً لما رأى السيف،⁽¹⁾ وهذا يعد استهزاء به وإهانة له، ويرتبط هذا بما قاله "لوجي دوتاسي" (Laugier.D.T): "أن الأتراك لم يكن لهم حد لتصنعهم، وكانوا يقتلون المرابطين مثل البقية، عند تدخلهم في أمور الدولة".⁽²⁾

وبهذا فالاحترام الذي أظهره الحكام للسلطة الروحية أحياناً يصبح وهمياً، وهو امتياز تحكمت فيه الظروف السياسية والاقتصادية للأيالة مثله مثل امتياز الإعفاء من الضرائب.

2-2- الإجراءات الردعية واستعمال القوة:

أ- القتل:

مثلاً كانت معارضة العلماء للحكام تنتهي بهم في السجن أو النفي، كان القتل من نصيبهم كذلك، فلم يسلم أقطاب السلطة الروحية من القتل شأنهم شأن بقية الرعية فقد لقي العديد منهم مصرعهم وغالباً ما كانت الوشاية أو تدخلهم في الأمور السياسية سبباً في مقتلهم،⁽³⁾ وحسب "لوجي دوتاسي" "Laugier de tassy": فإن الأتراك لم يكن لديهم أي اعتبار للمرابطين حيث كانوا يُقتلون عند تدخلهم في أمور الدولة.⁽⁴⁾

وقد انتهج العثمانيون هذا الأسلوب ضد كل من يعارض مصالحهم وسياستهم، مع كل القوى المحلية بالجزائر روحية كانت أو قبلية، وهذا منذ بداية تواجدهم بالجزائر، وخير مثال على ذلك قتل عروج لسالم التومي سنة 1516م ولأمير الزياني أبي زيان، وعدد من أفراد عائلته ومن العلماء سنة 1517م،⁽⁵⁾ ثم تم قتل ابن القاضي سنة 1527م، وعبد العزيز أمير قلعة بني عباس سنة 1559م، ونفس المصير لقيه شيخ أسرة عبد المؤمن محمد عبد المؤمن سنة 1572م بسبب معارضته للدخول العثماني للمدينة، وجردت الأسرة من كل الوظائف والامتيازات التي منحها لها الحفصيون.⁽⁶⁾

(1)- Ibid, p 28.

(2)- Laugier, histoire du royaume, p 92.

(3)- Lepene, Op. Cit, p145.

(4)- Boyer, Contribution ..., p28. – Laugier, Histoire d'Alger, p109.

(5)- مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم....، ج3، ص 45 و 47.

(6)- ابن العطار، المصدر السابق، ص 57. – شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 134.

- سعيدوني، وراقات، ص 113. – Mercier, Histoire de Constantine..., p205.

وقد استمر قتل الحكام لمعارضيه من السلطة الروحية رغم الامتيازات والترصيات التي كانوا يمنحونها لهم خلال مرحلة التوافق بين السلطتين أي قبل حدوث القطيعة بينهما، والتي كانت أواخر القرن 18م، نتيجة زوال الغزو الاسباني، وقلة الموارد البحرية، التي دفعت السلطة إلى انتهاج سياسة ضريبية تدمر منها السكان وعلى رأسهم السلطة الروحية، وخير مثال على هذا سجن الداوي محمد بكداش للمفتي أحمد بن سيدي سعيد قدورة، ثم الحكم عليه بالموت شنقا، مع ابن آخته القاضي علال،⁽¹⁾ لكن صاحب "تحفة الزائر" يذكر أن القاضي علال هو أخوه،⁽²⁾ وحسب الباحث "شوفال" (Shuval) فإن سبب قتله هو اعتراضه لتولي محمد بكداش للسلطة⁽³⁾، لكن "أبو القاسم سعد الله" يرجع سبب قتله هو اتهام الداوي بكداش لأحمد سعيد قدورة بأن له يد في نفيه لما كان موظفا لدى الداوي حسين خوجة،⁽⁴⁾ وبهذا لم تنفع المكانة العلمية لكلا الفقيهين، ولا حتى شهرة العائلة وعلمها.

ورغم أن المفاتي الأحناف كانوا أحسن وضعاً من المالكية إلا أن السلطة لا تفرق بينهما عندما يتعلق الأمر بمصالحها، حيث يذكر "دوفو" (Devoulx) أن أحد المفاتي حكم عليه الديوان بالموت بسبب إعطائه الحق لأحد الأهالي على حساب بولكباشي، لكن الباشا إبراهيم تدخل وأنقذ المفتي خوفاً من رد فعل السلطان العثماني.⁽⁵⁾ أما المفتي الحنفي محمد بن مصطفى بن المستي فقد صودرت أملاكه ولم يسلم من القتل،⁽⁶⁾ وهذا بأمر من الديوان سنة 1135هـ/1723م،⁽⁷⁾ وهذا دون أن يذكر سببا وجيها لقتله، رغم أن "سعد الله" يعتقد أنه كان ضحية الانتقام السياسي.⁽⁸⁾

أما صالح باي وبالرغم من الإصلاحات التي أحدثها في بابليك الشرق وأعماله الجليلة التي قدمها للثقافة والدين والعلماء، إلا أنه أواخر عهده تغيرت سيرته معهم وشاع عنه الظلم والعنف، حيث أساء للكثير من المرابطين، ومن بين ضحاياه المرابط سيدي

(1) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص106. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص357 (هامش) و366.
Devoulx, Les édifices ..., p110. - Boyer, La vie quotidienne..., p78. - Touati, Op. Cit, pp124, 125.

(2) - محمد عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص103.

(3) - Shuval, Op. Cit, p121

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص357 (هامش).

(5) - Devoulx, Les édifices ..., p27.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص418.

(7) - Devoulx, Les édifices ..., p147.

(8) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص418، 419.

محمد المعروف "سيدي محمد الغراب"، وحسب ما تذكره المصادر أن سبب مقتله هو نقمته على العثمانيين وتآليه الناس ضد صالح باي الذي قام بشنقه أمام الملأ، رغم توصلات العلماء له للعدول عن قراره وعدم قتله،⁽¹⁾ ويرجع المؤرخون الأوروبيون أن سبب نقمة المرابطين على صالح باي ومناصبته العداء هو الإصلاحات التي قام بها،⁽²⁾ من أجل بعث الحركة العلمية والدينية، التي رأت فيها الطرق الصوفية ابتعادا عن مسارها الروحي الذي تستقطب به الأنصار، إضافة إلى أن هذه الإصلاحات التي قام بها تطلبت سياسة ضريبية ثقيلة، أدت إلى حرمان رجال الدين من الهدايا والزيارات التي كانوا يتلقونها من الأهالي،⁽³⁾ إضافة إلى تخليه عن سياسة الإعفاء الضريبي لصالح الزوايا لحاجته الكبيرة للمال،⁽⁴⁾ في حين نجد الباي مصطفى انجليز (1795/1798م) الذي فرض احترام السلطة في عهده، ورغم كبر سنه إلا أنه قام بعدة حملات ضد المتمردين وصادر قطعانهم وأراضيهم، حيث هاجم النهدي أو الخمير، ووصل حتى حدود القالة والجنوب في حملاته، كما هاجم أولاد سعيد وقطع رؤوس أعيان الأسرة المرابطية أولاد سي عززارة وسط القبيلة بسبب مساندتهم للقبيلة الثائرة.⁽⁵⁾

وتعد معارضة السلطة الروحية ورفضها لأعمال الحكام سببا في القتل، وخير مثال ما حدث للمفتي الحنفي فتح الله^(*) الذي رفض طلب الباي أحمد شاوش القبائلي سنة 1808م، القاضي بمكاتبة الباشا بمدينة الجزائر، وإعلامه أن اغتصاب هذا الباي للحكم كان بطلب من الأهالي، لكن المفتي رفض طلبه، الأمر الذي تسبب في نفيه إلى عنابة أولا ثم أرسل الباي رجلا فقتله في الطريق.⁽⁶⁾

(1) - Mercier, Histoire de Constantine, p283. - Vayssette, Histoire des derniers, Beys, N03, p124.

- Vayssette, Histoire de Constantine, p142. - Boyer, Contribution..., p38.

- Trumelet, L'Algérie légendaire, p256.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 220. - قشي، المدينة والمجتمع، ص106.

- قشي، صالح باي، ص196، 197.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي، ج1، ص220. (هامش)

(3) - سعيدوني، وراقات...، ص301. - سعيدوني، دراسات وأبحاث - العهد العثماني -، ص 74.

(4) - قشي، صالح باي، ص 196، 197.

(5) - العنترى، فريدة مؤنسة، ص 67. هامش. - Vayssettes, Histoire de Constantine, pp158, 159.

(*) - ولد الشيخ فتح الله بالشام، تقلد عدة مناصب بالجزائر منها كاتب لدى الباشا ومدرس بمدرسة سوق الغزل ومفتيا وناظرا للأوقاف وخطيبا بمسجد سيدي الكتاني بقسنطينة حتى وفاته.

(6) - العطار، المصدر السابق، ص 78. - شعيب، المرجع السابق، ص272.

- Gaid, Chronique, pp62, 63. - Vayssettes, Histoire des derniers beys..., N04, p205.

ولنا في علاقة بايات وهران بالقوى الدينية مثل حي عن توتر العلاقة بينهم وبين السلطة، وتغيرها من التحالف إلى التنافر، فالباي خليل (1185هـ-1192هـ/1772م-1779م) كان يكره العلماء والأولياء، ويتوعدهم بالقتل مثلما فعل مع سيدي المداني بن عطاء الله الغريسي وسيدي الحاج بن سعيد الشقروني، فدعى سيدي المداني على الباي قائلا: «الباي خليل لا ترده من ذي التغرابا يا الجيلاني بابا حلف في وقال من السور ناليك»، أما الثاني فقام الليل على رجل واحدة بكامل القرآن في ركعة واحدة، ولما ناما بشرا بهلاك الباي ويقال أن الباي مرض مرضا شديدا في طريق عودته وتوفي عند وصوله إلى تلمسان.⁽¹⁾

هذا الإجراء الذي اعتمده الحكام ضد القوى الروحية ازداد خاصة بعد حدوث الثورات الدينية التي زعزعت الحكم، والتي كانت دليلا واضحا وقاطعا على سوء العلاقة بين السلطة والعلماء، فعندما ثار ابن الأحرش تطوع مرابط يدعى "ابن بريريش" لإرشاد جنود الباي عصمان إلى مكان ابن الأحرش، لكن لما قتل العديد من جنود الباي في الطريق اتهمه هذا الأخير بالخيانة ثم قام بقتله.⁽²⁾

أما في عهد شاكر باي (1813-1817م) الذي عرف بالبطش والاستبداد، فقد تناول على العلماء حيث قام بخنق الباش كاتب محمد بن المكي الساسي، من سلالة المرابط سيدي علي الحاج، والقاضي الحنفي محمد بن العشي،⁽³⁾ لكن لم يذكر السبب الذي دفع الباي إلى القيام بهذا العمل، وقد وصل تجرؤ هذا الباي على العلماء والمرابطين إلى حد تناوله حتى على المواليين لسلطة البايلك، كأُسرة آل مقران التي اعتمد عليها البايلك ببجاية وجيجل في تهدئة الأوضاع وكسب ولاء الأهالي، إلا أن هذا الباي غدر بهم، حيث قرر سنة 1814م غزو ناحية مجانية التي كانت تقطنها هذه العائلة، ولما وصل إلى سطيف استدعى فرع أولاد بورنان من آل مقران للحضور إلى معسكره، فقدم إليه 09 رجال، لكنه غدر بهم وأعدم 08 منهم، وفر واحد منهم إلى الجبال، ثم أرسل

- Vayssettes, Histoire de Constantine..., p181.

(1) - المزاري، المصدر السابق، ص. 287، 288.

(2) - Feraud, " Zebouchi et Osman bey," in R.A n° 06, 1862, p 122.

(3) - العننري، فريدة مؤنسة، ص 82 (هامش). - Mercier, Histoire de Constantine, pp345, 346.

- Vayssettes, Histoire des derniers beys, N05..., p102. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p197.

-Mercier, Histoire de l'Afrique..., T03, p498.

الرؤوس إلى قسنطينة لتعلق على أبواب المدينة لتكون عبرة للعصاة،⁽¹⁾ هذا الحادث أدى إلى تمرد هذه العائلة ضده سنة 1815م، ولم يتم القضاء على هذا التمرد إلا بعد تعزيز قوات البايك بالحامية العسكرية الموجودة في سطيف وسور الغزلان.⁽²⁾

وقد حدث نفس الشيء عهد الباي محمد الميلي، عندما دعى سنة 1819م من أولاد مقران كل من فرع أولاد الحاج وأولاد دحمان بن القندوز إلى معسكره، حيث قتل كل وفد أولاد القندوز ونجى أولاد الحاج لأنهم لم يلبوا الدعوة،⁽³⁾ ويرجع إقدام الباي على هذا الفعل، بهدف القضاء على نفوذ هذه العائلة.

أما الباي محمد المقلش (1805-1807م) وحسب ما ذكره "فاي" (Fey) فإنه قتل ألفا من أتباع الدرقاوي وبعث برؤوسهم إلى مدينة الجزائر،⁽⁴⁾ لتكون عبرة للآخرين، واستمر في هذا حتى لقي نفس المصير عندما اتهمه الداوي أحمد باشا باستغلال حرب درقاوة لمصادرة أملاك الرعية لصالحه والانتقام من مشايخ ورجال الدين، ولهذا السبب حكم عليه بالإعدام.⁽⁵⁾

أما الباي محمد الرقيق أو بوكابوس فقد كان يقضي على كل من يشك فيه، وقد وصل قمعه للعلماء إلى درجة الفضاة، حيث كان مثالا شنيعا في القسوة والتكيل بأتباع الدرقاوي ظنا منه أنه الأسلوب المناسب للقضاء عليهم، فقد كان يعدم الناس بمجرد وشاوية أو ادعاء عليه موالاته للدرقاوي، وقد أشارت بعض المصادر إلى سياسة الباي بوكابوس اتجاه أتباع الدرقاوي، حيث كان ينتقم من أي درقاوي ظفر به بأبشع الطرق، ولا يقبل شفاعة شفيعة، وقد وابتدع قتلا لم يسبقه أحد من الحكام قبل، فمنهم من كان يأمر بإخراجه إلى السوق ودق أعضائه حيا بالمعاول إلى أن يموت ومنهم من يأمر باقتلاع عينه ويتركه أعمى من حينه ومنهم من يأمر بقطع أعضائه فإن مات وإلا فأجهز عليه فيموت... إلى ذلك من الأنواع المختلفة من المعاقب المختلفة....⁽⁶⁾

(1) - العنتري، فريدة مؤنسة، ص 82 (هامش). - Mercier, Histoire de Constantine, p343

Vayssettes, Histoire des derniers beys...N05, pp98, 99. - Vayssettes, Histoire de Constantine, p195

(2) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 03، ص 315، 317.

(3) - معاشي، المرجع السابق، ص 318، 319.

(4) - Fey (H.L), Op. Cit, p296.

(5) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 03، ص 562.

(6) - الزباني، دليل الحيران، ص 228. - المزاري، المصدر السابق، ص 328.

ولعل البايع الوحيد الذي عرف بسياسة صريحة اتجاه العلماء هو البايع حسان آخر بايعات وهران، الذي قال عنه "الزياني": "كثير عبث هذا البايع وظلمه، وتعديه واجترأه على العلماء والأولياء فأكثر من سفك الدماء في العباد...⁽¹⁾ أما "المزاري" فهو الآخر أشار إلى تعسف هذا البايع وتطاوله وتجترئه على العلماء والأولياء بقوله: "واجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء وعلى الرعية فبان منه الظلم والجور والتعدي... وكثر منه الظلم والفساد والسفك بغير موجب حق لدماء العباد...".⁽²⁾

وبالرغم من انتهاء ثورة درقاوة إلا أنه لم يسع إلى المصالحة بل استمر في إبادة العناصر الدينية وشن العديد من الحملات القمعية ضد الطرق الصوفية خاصة، حيث قام سنة 1239هـ/1823م بقتل الشيخ محمد بن أحمد الصدي من أولاد سيدي بن حليلة بعدما وشى به خاله لدى البايع واتهمه بالتخطيط للتمرد على البايع، فجلبه إلى وهران، بعدما جعله أضحوكة، ثم علقه على خشبة وقتله، وفي نفس السنة قطع رأسي الفقيهين سيدي بن عبد الله بن حواء التجيني، والشيخ فرقان الفلتي من وهران.⁽³⁾

وقد ذهب ضحية هذا البايع عدد كبير من العلماء والأولياء من بينهم الشيخ "ابن القندوز التجيني" أحد الشيوخ الذين كانوا يدرسون القرآن، له معهد بدار مينة بالبطحاء يدرس به نحو 400 طالب،⁽⁴⁾ وقد شن البايع حملة ضد زاويته، وأهانته ثم ذهب به إلى واد رهيو وقتله خنقا، سنة 1245هـ/1829م⁽⁵⁾ وقد كان لهذه الجريمة صدى واسعاً وسط تلاميذه حيث رثاه أحدهم بغوثية (قصيدة) جاء في مطلعها:

أرحم شيخي بالقندوز	مريد الشيخ المعزوز
بالقندوز المزهد	في وسط الطلبة عابد
إلى أن يقول: يارب عذب حسن	بركت بيت الله تعيان
والطلبة قعدة تنهان	وافترقوا في بكريا. ⁽⁶⁾

(1) - نفسه، ص 239. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

(2) - المزاري، المصدر السابق، ص 350.

(3) - نفسه، ص 350. - Boyer, Contribution ..., p44.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

(5) - المزاري، المصدر السابق، ص 362، 363. - مسلم، المصدر السابق، ص 31، 32.

(6) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 51.

ولم ينجوا من بطشه سوى محمد بن عبد الله البوشيخي، المعروف بابن سحنون،⁽¹⁾ وفي هذا الصدد يقول تلميذ الشيخ بن القندوز الشيخ الشارف بن تكوك:

ما رفقوش بالنفوس يخدموا غير النحوس
ماذا قتلوا من رؤوس من سادتي الصوفية⁽²⁾

وبهذا فإجراء القتل ضد العلماء والمرابطين بعد الثورات الدينية التي ظهرت، كان يتم ليس في حق المتمردين ضد السلطة فقط، بل حتى من خشي الحكام تمرده بسبب نفوذه، مثل مرابط شرشال المرابط الحاج بن عودة من عائلة المرابط سيدي الغبريني، الذي ألقى القبض عليه قائد شرشال سنة 1811م، ولم تنفع توسلات الأهالي ولا تهديدات أتباعه بالثورة فتم إرساله إلى مدينة الجزائر حيث نفذ فيه حكم الإعدام.⁽³⁾

وحسب "أبو القاسم سعد الله" فإن الباي محمد الكبير لما عين الشيخ بوجلال على رأس الرباط كان يهدف من وراء ذلك التخلص منه مثلما تخلص من الشيخ ابن حواء باستشهاده،⁽⁴⁾ وربما يرجع هذا للمكانة التي يحتلها الشيخ وسط الأهالي والطلبة. وبهذا فسياسة الأتراك ارتكزت على قتل كل من يثور ضدهم،⁽⁵⁾ وقد انطبق هذا على الكثير من العلماء والمرابطين دون مراعاة لمكانتهم، أو حتى للاعتبارات التي وضعها العثمانيون أنفسهم من أجل كسب تأييدهم وولاء السكان.

ب- النفى:

لقد كان إجراء النفى أخف الضرر بالنسبة لأقطاب السلطة الروحية، حيث طال العديد من العلماء، منهم قرياش أفندي الذي كان أول خطيب بالجامع الجديد بمدينة الجزائر، فقد قامت السلطات بنفيه إلى إسطنبول خوفا منه بعدما اجتمع حوله العديد من الناس،⁽⁶⁾ كما تعرض المفتي سعيد قدورة للعزل ثم الإبعاد إلى إسطنبول بسبب حساده، فغضب عليه حكام الجزائر لأسباب لم تذكر، لهذا نجد زميله أحمد المانجلاتي أرسل

(1) - المزارى، المصدر السابق، ص263.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص52.

(3) - Guin, Note sur la famille des R'obrini, pp453, 454.

(4) - سعد الله، المرجع السابق، ص208.

(5) - Feraud, Histoire des villes ...Bougie, p192.

(6) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص88. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص275.

- Devoulx, les édifices ...p144. - Tall, Op. Cit, p121.

بقصيدة إلى مفتي اسطنبول يعرفه بالمفتي سعيد قدورة وأنّ ما حصل له اتهام باطل وهذا لخشيته عليه من أي مكروه قد يحدث له باسطنبول،⁽¹⁾ جاء فيها:

قدم أمام بابكم فقيه الجزائر بانّت فضائله لمن لم يحسد.
أستاذنا علامة العرب الذي بعلمه يحكي سراج المسجد.
قد كلفه ركوب بحر غير من علمه بإشارة من حسد.⁽²⁾

وحسب "أبو القاسم سعد الله" لم تعرف ما هي تهمة ولا كم بقي في اسطنبول لكن المعروف أنّه عاد إلى منصبه، ولم يعرف من كان نصيره ضد خصومه،⁽³⁾ أما المفتي المالكي الشيخ المهدي بن صالح فقد حكم عليه الباشا حسين بن خوجة الشريف وهو تلميذه، بالنفي إلى بلاد غير عربية بعدما أهانه وأرغمه على رد كل الهدايا التي قدمت له، لما كان مفتيا لهذا قصده خلق كبير نحو السفينة التي نقل عليها إلى منفاه.⁽⁴⁾

لقد تعرض العديد من العلماء للإهانة، وأحيانا من دون سبب يذكر، سوى كون أحدهم له قرابة بمن تمرد على السلطة وهو حال القاضي المالكي محمد بن مالك^(*) الذي نفاه الداي مصطفى باشا عام 1757م إلى القليعة، فقد دفع هو ضريبة تعدي صهره علي خوجة على الخزانجي، ولكن فيما بعد توسط له بعض رجال الدولة فأعيد إلى منصبه للتدريس وفي هذا الصدد يذكر "الزهار" ما قاله رجال الدولة للباشا: "هذا الرجل الذي نفيت من البلد وهو من أكابر علماء المسلمين، وكان قاضي الإسلام أخرجته لأجل صهره، وفرت بينه وبين أولاده وبين الطلبة الذين يقرؤون عليه، فعند ذلك سرحه الأمير ورجع للبلد".⁽⁵⁾

أما الشيخ فتح الله فقد نفاه الباي أحمد شاوش القبائلي لعدم الرضوخ لمطلبه بمكاتبة الباشا بعدما اغتصب الحكم وقتل الباي علي بن يوسف وبعدها أرسل من يقتله في الطريق كما رأينا سابقا.⁽⁶⁾

(1) - ابن عمار، أشعار جزائرية، ص 18.

- Devoulx, les édifices ...p144. - Tall, Op. Cit, p121.

(2) - ابن عمار، المصدر السابق، ص 135، 136.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 364.

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 104. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 418.

(*) - هو الحاج محمد بن احمد بن مالك تولى. تولى قضاء المالكية سنة 1210هـ/1795م.

(5) - الزهار، المصدر السابق، ص82. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 419.

(6) - العطار، المصدر السابق، ص 78. - شعيب، المرجع السابق، ص272.

ج- السجن:

كان السجن مصير العديد من العلماء ممن عارض السلطة أو وجهت له تهمة نتيجة قوة نفوذه، وأحيانا يكون دون وجود سبب وجيه لذلك، أو لتدخله في أمور الدولة كما كان حال الفقيه ابن عم الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون الذي تدخل وطلب من الداوي شعبان إطلاق سراح بعض الناس بقسنطينة وممن سجنهم في طريقه إلى تونس، وقد قدم له مقابل إطلاق سراحهم خمسمائة ريال، لكن الداوي رفض طلبه ولما عاد من تونس سجنه هو الآخر ولم يقبل الداوي شفاعته ابن عمه الذي توسط له، وهذا بالرغم من المكانة التي يتمتع بها الشيخ بن الفكون،⁽¹⁾ وقبله تم سجن جده أبا محمد عبد الكريم بن الفكون رفقة صديقه عبد اللطيف المسبح عندما سافرا لتهنئة حاكم الجزائر محمد بن صالح رايس، لكن بعد سفرهما حدثت فتنة بقسنطينة سنة 975هـ/1567م، وتم خلع البيعة عن الأتراك بقسنطينة، لذلك أمر الباشا بإلقاء القبض عليهما عندما هما بمغادرة مدينة الجزائر، بعد وصول أخبار للباشا عن حدوث تمرد بقسنطينة^(*) ليطلق سراحهما بعد ذلك بعد التأكد من صدق نيتهما،⁽²⁾ ونفس المصير لقيه كاتب دار الإمارة عبد العزيز النفاتي علي يد الباي محمد بن فرحات الذي كان له عنده مغرم فرفض إعطائه، فقام الباي بوضعه في السجن حتى وفاته.⁽³⁾

أما شاكر باي الذي عرف ببطشه وتعسفه اتجاه السكان خاصة بالريف، فقد ذكر "مرسي" (Mercier) أنه سجن ابني الباشا كاتب محمد بن المكي بن الساسي، الذي سيصبح أحدهم قاض عند الاحتلال الفرنسي للجزائر،⁽⁴⁾ أما أبناء القاضي الحنفي محمد بن العشي فقد فروا حتى لا يقعوا تحت طائلة السجن.⁽⁵⁾

(1) - سعد الله، من أخبار الداوي شعبان، ص 120، 121. - Vayssettes, Histoire des derniers beys..., N04, p205.
- Gaid, Chronique, pp62, 63. - Vayssettes, Histoire de Constantine..., p181.

(*) - إثر هذا التمرد أرسل الباشا محمد بن صالح رايس حملة لتأديب المتمردين على الحامية التركية، ونصب الباي تشولارق رمضان بايا على المدينة سنة 1567م.

(2) - الفكون، منشور الهداية، ص 48. - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 83، 84.

- شعيب المهدي، المرجع السابق، ص 131. - معاشي، المرجع السابق، ص 119.

(3) - الفكون، نفسه، ص 60، 61. - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 422.

(4) - Mercier, Histoire de Constantine, p345, 346.

(5) - Vayssettes, Histoire des derniers beys ...N05, p102. - Vayssettes, Histoire de Constantine..., p197.

وفي نفس السياق سجن الداوي حسين عند توليه الحكم الحاج مصطفى بن الشيخ بن مالك، وابن أخيه وقد عومل بقسوة، وهذا بتهمة اختلاسه أموال الخزينة أيام صهره الداوي علي المتوفي، ولم يطلق سراحه إلا بعدما توسط له نقيب الأشراف "أحمد الشريف الزهار" بطلب من أهله، لكنهما توفيا بمجرد خروجهما من السجن، فدفن الشيخ في ضريح الثعالبي أما ابن أخيه فدفن في ضريح سيدي محمد الشريف،⁽¹⁾ وقد عثرنا على وثيقة بدون تاريخ وهي رسالة موجهة من شخص يدعى طاهر بن أبي معيزة إلى محمد بن العربي يطلب منه التوسط لدى الباش خزناسي من أجل إطلاق سراحه بسبب وشاية جاء فيها: "من الفقير إلى ربه بن أبي معزة العمري... إلى حضرة العالم التحرير... شيخ الطريقة وإمام الحقيقة أبي عبد الله سيدي محمد العربي... فإن مختار تسبب في هلاكي عند الإغاة وهو سعى في هلاكي عند الحاج أحمد وربطني الإغاة وما ظننت ذلك إلا بإذن من السلطان،... وبقيت تلك الورقة إلى أن اجتمعت بمختار وقرأتها عليه وقطعتها فاشتغل بي وصيرني رهينا... فلنكتب لخدملك حاج إبراهيم باش خزناسي وتفهمه في قضيتي...".⁽²⁾

وحتى المرابطين الذين كانوا محل احترام من طرف الحكام لم يسلموا من السجن، وخير مثال لذلك ما حدث لمرابط البليدة سيدي محمد بورقعة من بني مناد فقد سجنه القائد التركي بالبليدة حسان الطويل سنة 1825م بتهمة بث الهلع والخوف وسط الناس بسبب تنبؤاته بتهديم المدينة، واحتلالها من طرف الفرنسيين، لكن وحسب ما ذكره "تريملي" (Trumelet) فإن القائد أطلق سراحه بعدما حدثت له معه كرامة، حيث بعد سجنه للمرابط، جلس القائد يشرب القهوة حتى رأى الشيخ خارج سجنه وألقى عليه التحية.⁽³⁾

د- العزل من الوظائف ودوافعه:

لقد كان العزل إحدى الإجراءات التعسفية التي اتخذها الحكام للتخلص من رجال الدين خاصة ذوي الشهرة الكبيرة منهم، فقد ذكر "الفكون" أن جده من أمه محمد بن قاسم الشريف، الذي تولى الإفتاء ومزوار الشرفاء بقسنطينة، خضع لامتحان من العساكر العثمانيين، الذين حكموا عليه أحكاما قاسية إلى حد الحكم عليه بالقتل، ليتراجعوا عن ذلك

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص142.

(2) - مجموعة 3206 الملف 02 وثيقة رقم 14، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر. ينظر الملاحق.

(3) - Trumelet, Les Saints de l'Islam..., pp345, 346.

وينقلوه إلى مدينة الجزائر ومنعوه من دخول دار الإمارة وحمل القلم وهذه أشد عقوبة كانت عليه، ليعاد بعدها للفتوة بعد مدة، لكن الفكون لم يذكر سبب عزل جده.⁽¹⁾

لقد كان عزل العلماء من مناصبهم بمدينة الجزائر من طرف الداي، يتم هذا تبعا لرأي أو شكاوي الأهالي أو بسبب فضائح مختلفة،⁽²⁾ أو عند حدوث نزاع بين العلماء وغالبا ما كان يميل للمفتي الحنفي وأحيانا يعزل الطرفين، وقد تصدرت الوشاية أسباب العزل، مثلما حدث للمفتي محمد بن سعيد قدورة الذي عزله الداي مصطفى أهشجي عام (1090هـ/1679م) بسبب رسالة من حساده للبasha⁽³⁾، وفي عزله قال ابن المفتي في تقييده "عزل الشيخ محمد بن سعيد سنة 1090هـ... والسبب في هذا العزل رسالة من حساده للأمير،.. واتهموه بأعمال قبيحة وقلة الوقار وذلك بعيد عن الحق، فقد كان فاضلا... وهذه التهم ليست إلا أكاذيب وافتراءات من ذوي النية السيئة".⁽⁴⁾

كان الحكام غالبا ما يصدقون الوشاية دون البحث والتقصي عن الحقيقة وما حدث لأحمد البوني، ومفتي عنابة خير دليل حيث سعى خصومهما ضدهما لدى البasha الذي صدق الوشاية وعزل المفتي وأساء إلى البوني الذي استتجد برسالة بعثها إلى زميله مصطفى العنابي بمدينة الجزائر من أجل التدخل لصالحه عند البasha ومما جاء في الرسالة "ونسب لبعضنا من الكبائر والفضائح... وكفاه بث ذلك في كل ميدان، حتى أوصله لمسامع السلطان فلم نشعر إلا ومكاتب واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشهير من خطة الفتوى مع أنه ذو علم وتقوى، وتوالت علينا من يومئذ الكروب... ووصلت شوكتهم إلينا".⁽⁵⁾

وبسبب الوشاية أيضا عزل الباي محمد المقلش العلامة أبوراس الناصري الذي وشى به خصومه هو الآخر واتهموه بالضلوع في حرب درقاوة، التي لم يسلم من عواقبها حتى العلماء المواليين للسلطة، وذلك بسبب اتصالاته بالمغرب،⁽⁶⁾ ونتيجة لهذا هاجر

(1) - الفكون، منشور الهداية، ص 68. - سعد الله، شيخ الإسلام، ص 44، 45.

(2) - Boyer, La vie quotidienne ..., p78

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 393. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 281. - Delphin, Op. Cit, p192

(4) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 99.

(5) - سعد الله، تجارب في الأدب، ص 91.

(6) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 291، 292. - سعد الله، أبحاث وأراء...، ج1، ص 87.

- أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، ص 464.

الناصرى إلى المغرب الأقصى سنة 1796م،⁽¹⁾ ليضع بعدها مؤلفه "درء الشقاوة في حرب درقاوة".⁽²⁾

ومثلما كانت الوشاية ذريعة الحكام لعزل العلماء كان لاختلافهم حول القضايا الشرعية والتي غالبا ما تنتهي بمشادة سببا آخر لعزلهم، حيث يتدخل الباشا للفصل في الأمر وغالبا ما كان ينحاز إلى رأي المفتي الحنفي وخير مثال على ذلك ما حدث سنة 1706م في المجلس العلمي، حيث حدث خلاف بين المفتي المالكي أحمد بن سيدي سعيد قدورة والمفتي الحنفي محمد النيار، حول قضية سكن المرأة التي أساء إليها زوجها، فترافعا إلى الباشا الذي حضر تناظرهما مع العلماء الذين انقسموا إلى فريقين كل فريق يؤيد رأيا، وقد تغلب في النهاية فريق المفتي محمد النيار، وقام الداى بعزل المفتي المالكي أحمد بن سيدي سعيد قدورة،⁽³⁾ وحسب "دوفو" (Devoulx) فإن الداى انحاز لرأي المفتي الحنفي.⁽⁴⁾ وتم تعويضه بقريبه عبد الرحمن المرتضى، الذي عزل من طرف الداى إبراهيم سنة 1710م، وتولى بعده ابن خالته الحاج سعيد ثم تولى المهدي بن الحاج صالح، الذي عزل من الفتوى، عندما نزلت صاعقة على منارة المسجد الكبير، فاستغل الأمر شخص يدعى يوسف بن الكرتيلو، الذي أبلغ الداى أوزن علي "أن أهل البلد يقولون أن المدينة لن تهنأ مع مفتي ليس من أبناء سعيد قدورة". فكان هذا الافتراء سببا لعزل المفتي المهدي بن الحاج وتولي عبد الرحمن المرتضى للمرة الثالثة لتولي الفتوى، التي بقي فيها حتى وفاته سنة 1128هـ/1715م.⁽⁵⁾

وحتى المفاتي الأحناف فقد طالهم نفس الشيء، حيث نجد أن الداى شعبان خوجة عزل المفتي محمد خوجة وولى مكانه محمد بن النيار، الذي عزل عهد الداى حسن خوجة بعد خمس سنين و05 أشهر، ليتولى المنصب بعده محمد بن الماستجي لمدة سنة و04 أشهر، ثم عين مكانه محمد العنابي مدة ثلاث سنين، ليعزل من طرف الداى محمد بكداش، ليعوض من طرف الداى إبراهيم بمحمد النيار ثانية، لكنه بقي 04 أشهر و20

(1) - شعيب المهدي، السابق، ص 202. - أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، ص 465.

(2) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 291.

(3) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 102، 103. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 282.

- Devoulx, Les édifices..., pp107, 108. - Shuval, Op. Cit., p120

(4) - Devoulx, Ibid ..., p108.

Devoulx, Ibid, pp111, 112.

(5) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 108.

يوما، ثم عين المفتي حسين خوجة الذي بقي 15 يوما منها ثمانية أيام عهد الداوي أوزون علي الذي عزله، وولى حسين العنابي مرة ثانية لمدة شهرين، ثم عين حسين الماستجي، ثم حسين العنابي للمرة الثالثة....⁽¹⁾

ومن أسباب العزل من المنصب، الخلافات التي كانت بين العلماء، والتي غالبا كانت بسبب التنافس على المنصب، من ذلك ما حدث بين المفتي أبي عبد الله محمد بن نعمون وأبو العباس أحمد بن باديس حول وظيفة الإفتاء حيث تم التفريق بينهما لوشاية بعدما كانت تجمعهما أخوة وصداقة، أدت إلى عزل بن نعمون الذي قرر الثأر من أحمد بن باديس، فأغرى جماعة وشت بأحمد بن باديس لبائي قسنطينة الذي أغرمه مالا وسجنه مدة من الزمن،⁽²⁾ أما سنة 1226هـ/1811م فقد عزل الداوي كلا المفتين الحنفي سيدي محمد بن العنابي والمالكي سيد علي أمين، وهذا بعد نقاش بينهما داخل المجلس العلمي تبادل فيه الشتائم،⁽³⁾ فأخبر القاضي الحنفي الحاج إسماعيل بن السفنجة الباشا الذي قام بعزلهما وعوض الأول محمد بن راسيل والثاني عوضه محمد بن الحفاف، وقد كان هذا يوم 01 شعبان من عام 1226هـ/1811م،⁽⁴⁾ وحسب "بويي" فإن عزل كلا المفتين كان تحت تأثير العلماء.⁽⁵⁾

لقد كان عزل رجال الدين من مناصبهم يتم أحيانا نتيجة دوافع وخلافات شخصية كما هو حال الداوي مصطفى أهشي الذي وبالرغم من تعاطفه مع العلماء والصلحاء حسب ما ذكره "الزهار" إلا أنه قام بعزل الحاج عمر باشا كاتب بعدما اعتقله لمدة أربعين يوما وأطلق سراحه مقابل أربعين ألف محبوب، ويعود سبب قيام الداوي مصطفى بهذا العمل إلى رفض إبنة أخت الباش كاتب الزواج بالداوي بعد تطليقها مكرهة من زوجها المدعو "علي برغل" الذي نفاه الداوي.⁽⁶⁾ لتكون بهذا المسائل الشخصية أحد الأسباب لعزل العلماء من مناصبهم.

(1) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 89، 91. - Ibid, p146, 148. - Delphin, Op. Cit, p19et suit.

(2) - الفكون، منشور الهداية، ص 80، 84.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 393. - Boyer, La vie quotidienne, p79. - Tachriffat, p77.

(4) - Tachriffat, Op. Cit, p78.

(5) - Boyer, La vie quotidienne, p79.

(6) - الزهار، المصدر السابق، ص 71.

(*) - يرجع أحمد توفيق المدني سبب عزله إلى أمور إدارية كان ينتقده عليها. - نفسه، ص 90.

ولكن في غالب الأحيان كان العلماء يعزلون دون أسباب مقنعة لعزلهم، وخير مثال حدث للعلامة أحمد الزروق بن عمار خطيب الجامع الكبير الذي كان يملك ثروة معتبرة، ويقوم بترميم ما يصيب الجامع الكبير من أضرار، خاصة السور المحاذي للبحر، الذي كان دائم التعرض للسقوط بسبب الأمواج، وحسب ما جاء في تقييدات ابن المفتي فإن هذا العلامة كان يعين على رأس الجامع الكبير بهدف إصلاح الأضرار التي تصيب المسجد، وبعد الترميم كان يعزل،⁽¹⁾ كما يذكر لنا "الزهار" أن الداوي مصطفى (1797-1805م) عزل الكاتب أحمد خوجة، الذي يعتبر من الكتاب الذين كانوا يشرفون على دفاتر العسكر ومداخل الخراجات والعشور ومصاريف الإمارة، وسبب عزله هو أنه غضب منه ذات يوم، لذلك حرض أحمد خوجة الجند الذين قاموا بقتل الداوي مصطفى وولوه مكانه.⁽²⁾

وبالتالي فإن عزل العلماء من مناصبهم غالبا ما كان يخضع لأهواء الحكام، ومن خلال تقييدات ابن المفتي، وما أورده المؤرخون نلاحظ أن بعض رجال الإفتاء من بقي في منصبه مدة طويلة ومنهم من يولي عدة مرات، وما يمكن أن نفسر به هذه الظاهرة هو عدم استقرار الدايات أنفسهم في الحكم حيث كانوا يعزلون أو يقتلون غالبا، لذا كان كل داي لا يبقى على ما كان قبله. فيعزل من وجده و يعين آخر في مكانه.

3- إثارة الفتن والصراعات بين القبائل/سياسة فرق - تسد:

لقد استعمل العثمانيون التنافس والتفريق بين الصفوف، عن طريق ضرب عناصر القوة ببعضها البعض سواء كانت دينية أو قبلية، وهذا من أجل تأمين مصالحها بأقل تكلفة، فهم لا يتدخلون في الصراعات مع السكان إلا بدعم الإمارات أو الإقطاعات الدينية الشريفة، فالسلطة العثمانية عملت على توظيف التناقضات التي تشق المجتمع داخليا وهذا من أجل إخضاعه، وقد نجحت في مسعاها من خلال تفضيلها لمجموعات على أخرى،⁽³⁾ فهي لم تعتمد على هذه السياسة فقط أواخر عهدها بالجزائر، بل كانت قبل ذلك أي منذ تواجدهم في الجزائر حيث اعتمدوا سياسة التفرقة وضرب قوى بأخرى، من خلال تعاملهم مع أسرة آل القاضي وأسرة آل مقران المتنافستين على الزعامة في المنطقة،

(1) - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 96. - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 279.

(2) - الزهار، المصدر السابق، ص 88، 89.

(3) - الأرقش وآخرون، ص 205.

وتوسيع نفوذهما، حيث كانت السلطة تارة تتقرب وتتحالف مع آل مقران وتارة مع آل القاضي، وهذا بغرض توسيع نفوذها وإضعاف نفوذ الأسرتين، وقد نجحت في هذه السياسة حيث أن خير الدين استعاد مدينة الجزائر سنة 1527م بمساعدة آل مقران، وقد تكرر نفس الشيء سنة 1559م حينما استعانت السلطة بآل القاضي من أجل القضاء على زعيم آل مقران الأمير عبد العزيز، كما أنها عملت على تغذية الصراع بين الإمارتين لتضعفها عسكرياً، وقد لجأت إلى بث هذه العداوة مع مختلف العشائر، حتى لا يكون لها معارضة،⁽¹⁾ ولا يتحد الأهالي ويشكلوا قوة ضاربة قد تقضي عليهم.⁽²⁾

لقد حرص العثمانيون على عدم تحقيق التحالف والتقارب بين القبائل طوال مدة تواجدهم بالجزائر، منتهجين في ذلك سياسة التفرقة من خلال تقسيم القبائل إلى قبائل متعاونة مخزنية مرابطية لها امتيازاتها، وقبائل رعية تدفع الضرائب، وتتعرض لتعسف الجند أثناء الحملات،⁽³⁾ كما أنهم قسموا المجتمع على أساس هذا حضري وهذا بدوي وهذا براني والآخر تركي أو عربي، وكل هذا بهدف اتقاء الثورات والتمرد.⁽⁴⁾

إن استغلال العثمانيين لأقطاب السلطة الروحية، من أجل بسط نفوذهم على الأهالي، وكسب ولائهم سمح لهم بانتهاج سياسة فرق تسد،⁽⁵⁾ التي تجسدت في إثارة الأحقاد والضغائن، وتعميق الهوة بين القبائل حتى بين العلماء أنفسهم، وهذا بتحريض طرف ضد آخر من أجل الانقضاض على خصومهم بعد عزلهم عن خلفائهم.⁽⁶⁾

لقد كان الحكام في المدن يضربون العلماء بعضهم البعض، ويغلبون فريقاً على آخر وعائلة على أخرى عند الضرورة، لذلك كثر التنافس بينهم،⁽⁷⁾ وحسب "معاشي" فإن عميد أسرة الفكون الذي التقته، أكد لها أن سياسة العثمانيين كانت تعمل على نشر التفرقة والانشقاق بين الأسر العلمية بقسنطينة لإضعافها وإخضاعها جميعاً لسلطتها، وقد انتهجوا هذه السياسة منذ دخولهم إلى قسنطينة، من خلال تقريبهم لعائلة الفكون المناصرة لهم

(1) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ...، ص 62.

(2) - الزبيري، التجارة...، ص 23.

(3) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 29.

(4) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 465.

(5) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 29.

(6) - Rinn, Le royaume, pp125, 126.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 399.

ضد عائلة عبد المؤمن ذات الشهرة الواسعة، والمناصرة للحفصيين، وهو أسلوب كان مستعمل في كل الايالات العربية الخاضعة للعثمانيين.⁽¹⁾

وقد ولّد تقرب الحكام من العلماء في المدن تنافسا بينهم حول الوظائف، الأمر الذي أدى إلى انتشار الرشوة والاستهتار والتساهل في أمور الدين والتعدي على الأوقاف، والوشاية ببعضهم البعض،⁽²⁾ والتي غالبا ما كانت سببا في عزل ونفي وحتى قتل البعض منهم، لأن تنافسهم على الوظائف لم يكن يخلو من حدوث نزاعات وخلافات بسبب التحاسد وطلبا للشهرة أو للتوظيف،⁽³⁾ كما أن انحياز الحكام للعلماء الأحناف ولّد تنافسا بينهم وبين العلماء المالكية، حتى ظهر كأنه صراع مذهبي، خاصة وأنه كلما كانت مناظرة، كان الباشا ينحاز غالبا لرأي الأحناف.⁽⁴⁾ لهذا أشار "تواتي" (Touati) إلى أن المناظرات التي كان يقيمها الحكام بين العلماء كانت بغرض إحداث الشقاق بينهم،⁽⁵⁾ ليسهل التحكم فيهم وفرض نفوذهم عليهم.

بالإضافة إلى هذا فقد عرف الحكام كيف يحافظون على حكمهم بفضل الامتيازات المقدمة من طرفهم لرجال الدين بالمدن، من أجل الوقوف ضد الفرق الصوفية المرابطون الذين بدؤوا يتقربون من المدن مكان نفوذهم والموالين لهم من رجال الدين، الذين حافظوا ودافعوا على المدن، وقد تجسد هذا في دفاع الشيخ بن الفكون والعلماء على مدينة قسنطينة لما هاجمها ابن الأحرش الدرقاوي، وهو ما تثبتته الرسائل التي وجهها الداوي لابن الفكون والعلماء يشكرهم على وقوفهم إلى جانب السلطة منها الرسالة الموجهة لابن الفكون والتي جاء فيها: «فرانا نشكر خيرك من شأن وقوفك وصيانتك البلاد ونصحك وحمايتك للعباد». ⁽⁶⁾(*)

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 177. هامش

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 404.

(3) - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 281.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 404 و 393.

(5) - Touati, Op. Cit, p210.

(6) - العننري، فريدة مؤنسة، ص 72.

(*) - حول هذا ينظر القسم الثالث (المراسلات).

فالامتيازات التي كانت تمنحها السلطة كانت سببا في بث التفرقة والشقاق لهذا يقول "الورثيلاني" عندما دخل بسكرة « فريق في القرية، وهو المتمكن المعتمد بأولي الولاية من الترك، والمتمسك بجاههم إذ من تمسك بهم تفرعن على غيره...».(1)

لقد عمد الحكام على دعم علماء المدن ضد شيوخ الزوايا والمرابطين بالريف عن طريق استمالتهم بالهدايا والمرتبات وإسناد المناصب لهم،(2) خاصة علماء مدينة الجزائر المتشددون والمعادين للمرابطين ولشيوخ الزوايا بالريف، حيث عملت السلطة على تشجيعهم بالابتعاد عن الفرق الدينية واعتبار تعاليمها منافية للإسلام وقائمة على الكرامات،(3) لهذا انعدم التعاون والتكامل في الجانب الديني بين ممثلي الريف وممثلي المدن، الذين أدانوا التعليم بالزوايا الريفية وحكموا على القائمين عليها بالضلال، وما الفتوى التي أصدرها على مدينة الجزائر حول تعليم القيم الرحمانية "سيدي محمد بوقبرين" لدليل على نجاح سياسة التفرقة التي انتهجتها السلطة، وهو ما سمح بتخفيف دور المرابطين المعادين وإبعادهم عن المدينة، حتى لا يهددوا استقرار السلطة المركزية،(4) فاتهم علماء الجزائر لبوقبرين بالخروج عن الدين كان بدعم من العثمانيين، الذين أرادوا القضاء عليه، خاصة وأن دعوته كانت تبعث على إحياء الوحدة الروحية والوطنية التي طالما حاربها، العثمانيون طوال فترة حكمهم بكل الوسائل،(5) ليتم تبرئته فيما بعد نتيجة التذمر الذي ظهر بمنطقة القبائل خاصة قبيلة قشتولة التي ينتمي إليها والتي كانت معادية للعثمانيين.(6)

إن صراع السلطة الحاكمة مع القوى الدينية وحتى القبلية، فرض عليها حاجتها الدائمة لخلق أنصار جدد، وقد يصل بها الأمر إلى خلق زعامات وشيوخ جدد لضرب الأقوى والأخطر،(7) خاصة الطرق الصوفية الكبرى التي تشكل خطرا عليها، بسبب نفوذها وتأثيرها على كامل الجزائر أو على أكبر جزء منه، لهذا عمدت السلطة على إبعاد منافسيها من الطرق الصوفية التي شكلت خطرا عليها منذ القرن 17م،(8) خاصة إبعادها

(1) - الورثيلاني، المصدر السابق، ص 114.

(2) - دحومان، المرجع السابق، ص 81.

(3) - Saidouni, Op. Cit, p397.

(4) - Ibid, Op. Cit, p397.

(5) - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 41، 42.

(6) - Rinn, Marabouts et khouans, p454.

(7) - ساحي، المرجع السابق، ص 33.

(8) - Vatin, Op. Cit, p104.

عن المدن مكان تواجد السلطة، التي عملت على توجيه أنظار السكان بالريف، والأتباع نحو أضرحة المرابطين بالمدن، الذين منحهم امتيازات وركزت على إظهار مكانتهم حتى أصبحوا زعماء حقيقيين لأهم المدن، كسيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر وسيدي علي مبارك بالقلعة، سيدي أحمد الكبير بالبيدة، سيدي محمد الغيريني بشرشال سيدي أحمد بن يوسف الملياني بمليانة... وهذا حتى يسهل عليها مراقبتهم ونفس السبب نجدها نقلت ضريح سيدي محمد بن عبد الرحمان (بوقبرين) من آيت إسماعيل إلى الحامة بالجزائر،⁽¹⁾ ونقلت كذلك ضريح سيدي عبد الرحمن بن شامة من منطقة شنوة إلى مدينة شرشال بسبب كثرة أتباعه بالريف، وخشيتها منهم.⁽²⁾

ويبدو أنه ونتيجة ازدياد نفوذ الطرق الصوفية وتمردا أوعزت السلطة العثمانية المركزية إلى البايات بالشرق والغرب مهد الفرق الصوفية بإنشاء المدارس لمحاربة الزوايا،⁽³⁾ وحتى بناء المساجد كان أغلبه نهاية القرن 18م فترة تقهقر النظام السياسي، وكل هذا كان بهدف قطع الطريق أمام تزايد نفوذ الإخوان، الذين أصبحوا يهددون السلطة الحاكمة، ففي هذه الفترة قام كل من صالح باي والباي محمد الكبير ببناء المدارس والمساجد وشجعوا الفقهاء وقاموا بإصلاحات ليس للوقوف في وجه الزوايا فقط، بل كذلك من أجل خلق مراكز تواصل جديدة أقل عداءً للسلطة، فدروس هذه المراكز كانت موجهة ضد التعليم الصوفي الذي تقدمه الزاوية، فمثلا الباشا حسين خلال القرن 18م لم يجد سببا لغلق زاوية سيدي التواتي ببجاية والتي كانت تقدم العلوم الصوفية منذ القرن 15م، سوى قيام أحد طلبتها بالتعدي على بنت إحدى العائلات المنتفذة ببجاية والمقربة من السلطة.⁽⁴⁾

وبهذا ورغم تأييد السلطة للعلماء بالمدن ضد الطرق الصوفية بالأرياف فإنها لم تنجح لا هي ولا العلماء ولا المرابطين في القضاء عليها.⁽⁵⁾ بل استمرت في الانتشار على أوسع نطاق.

(1)- Boyer, Contribution, p40. - Rinn, Marabouts et Khouans, p454. - Berque, Op. Cit, p404.

- Saidouni, Op. Cit, p398.

(2)- Saidouni, Ibid, p398.

(3)- دحومان، المرجع السابق، ص 82.

(4)- Feraud, histoire des villes, ...Bougie, p 217. - Filali, Salah bey, p 151.

(5)- دحومان، المرجع السابق، ص 82.

أما بالأرياف ولما كان نفوذ المرابط لا يتعدى حدود القبيلة، مما جعل الفرد لا يحس بانتمائه للوطن بل للقبيلة، وهو الأمر الذي استغله العثمانيون وتقربوا من المرابطين لضمان تبعية السكان وعدم قيام وحدة بينهم، حيث انتهجوا سياسة التفرقة التي ظلوا يعملون بها للحيلولة دون قيام أي وحدة بين القبائل، مستغلين في ذلك حتى رغبة كل قبيلة أن يكون لها مرابط أو ضريح ولي على أراضيها مثل تشجيعهم للصراع الذي نشب بين بني صالح وبني مسعود حول أرض أقيمت عليها قبة سيدي محمد الغريب.⁽¹⁾

ونتيجة إدراك العثمانيين لخطورة اتحاد المشيخات الوراثية القوية دينية كانت أو قبلية، عملوا ما في وسعهم لإفشال مخطط الاتحاد بعدة وسائل للحيلولة دون قيامه، فعمدوا إلى خلق المناوشات والأحقاد فيما بينهم، وحتى بين أفراد البيت الواحد، والعمل على تفريق الجماعات^(*) إلى فروع متناحرة حتى يسهل عليها التحكم فيها،⁽²⁾ لذلك عملت السلطة على التفرقة في معاملة القبائل حسب القيمة الحربية والمكانة الاجتماعية والروحية للقبيلة، وسعت لبث التفرقة والشقاق بين القبائل، من خلال تشجيع العداوة بينهم^(*) لأن في اختلافهم أحسن ضمان لبقاء السلطة العثمانية وسيطرتها،⁽³⁾ فهذا الصراع القبلي اعتبر عامل توازن حافظت السلطة من خلاله على نفوذها ومكانتها لدى شيوخ وزعماء القبائل، لذا عمدت على إذكاء روح العداة بينها حتى من أجل حيازة المراعي واكتساب المياه، خاصة فترات الجفاف.⁽⁴⁾

(1)- Trumelet, Blida, T02, pp99, 100. - Saidouni, Op. Cit, p398.

(*)- لقد عمل الحكام على تشجيع التنافس القبلي العشائري المرتكز على مبدأ الصف وروح العصية وهذا حتى تبقى كلمة البايك هي الأولى كما هو الشأن في قسنطينة والأوراس والصحراء، كما عملوا على تفتيت التجمعات القبلية الكبيرة وتقسيم شيوخ موالين لهم، وإذا عجزوا عن هذا لجؤوا إلى مصادرة أراضيها وترحيل بطون منها إلى جهات أخرى من أجل إضعافها، وهو الأمر الذي دفع بالقبائل إلى الثورة على البايك. - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 40.

(2)- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم، ج3، ص 293.

(*)- لقد طبقت سياسة التفرقة حتى بين القوى القبلية منها الخلاف بين الأحرار الحنانشة نفسها فلما توفي زعيمها خالد بن ناصر سنة 1642م عمدت السلطة إلى منح المشيخة للابن الأصغر "منصر" بدل الابن الأكبر "نصر" اللذان اجتهدا كل منهما على خدمة الباي ونيل رضاه بهدف إبقاء المشيخة في أبنائه، أما أسرة بوعكاز فقد أحدث لها البايات منافسا على زعامة الصحراء تمثل في أسرة بن قانة، (معاشي، المرجع السابق، ص 272) كما أقحمت السلطة في الصراع بين العائلتين عائلة بن شنوف، التي أيد الباي حسين فرع أولاد بوضياف ضد فرع أولاد عبد الله الذي كان يرأس القبيلة، شرط تأييدهم لأسرة بن قانة ضد أسرة بوعكاز. (القشاعي، النظام الصربي، ص 127. - معاشي، المرجع السابق، ص 102.)

(3)- الزبيري، مدخل إلى تاريخ...، ص 70.

(4)- سعيدوني، ولايات المغرب، ص 137.

وبهذا يمكن القول أن السلطة عملت على إذكاء نيران الحروب بين القبائل، حتى تضمن لنفسها السيطرة مستغلة ميل هذه القبائل إلى الشقاق،⁽¹⁾ وقد أشار أحمد باي في مذكراته إلى ضرورة نشر سياسة الفرقة بين القبائل بقوله: «إن الحرب هي من عادة الأعراب و الذي يريد أن يحكمهم ويسيطر عليهم يتوجب عليه إبقاءها بينهم، وأن يحرص على إثارة المشاحنات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس، لأن حالة السلم تقرب بين العرب، وتقوي الاتحاد بينهم، وتوحدهم حول هدف واحد، وهذه الحالة لا يجب أن يطمئن لها من يريد أن يسيطر عليهم قد تأتي ظروف توحدهم، وهو ما يدفعهم للثورة وعلى العكس إن وجدت الحرب والعداوة بينهم فإن من يريد أن يحكمهم يكون متأكدا من إيجاد خلفاء يساندونه».⁽²⁾

فمثلا بمنطقة القبائل التي تعد أكثر المناطق تمردا عملت السلطة العثمانية على إحلال التفرقة، وإذكاء الصراع والانقسام بين السكان من أجل القضاء على كل تمرد ضدهم حتى باستعمال الدسائس والرشوة،⁽³⁾ وتشجيع روح الصف والتنافس بين العشائر والعائلات الكبرى ذات النفوذ من أجل حيازة الأراضي والمراعي، وهذا التنافس غالبا ما كان يأخذ شكل حروب طويلة بين الصفوف، فكل صف كان يضم عدة قبائل مما حال دون اتحادها ضد سلطة البايك والسعي نحو الاستقلال، وقد نجحت السلطة في ذلك إلى حد كبير، ففي منطقة القبائل شجعت الصراعات بين الصفوف حتى تمنع تشكيل قوة موحدة قد تشكل خطرا يهددها،⁽⁴⁾ منها تشجيعها للصراع الذي كان بين عائلة أولاد القاضي - فرع بوكوش - بين أبناء أحمد التونسي، الصف الفوقاني بزعامة أورخو (الابن الأكبر) ضد الصف التحتاني بزعامة سي علي.⁽⁵⁾

إن سياسة التفرقة التي اعتمدتها السلطة لم تكن ضد القبائل والقوى الدينية بل سعت إلى تكريسها حتى داخل البيت الواحد مثلما هو الحال لعائلة آل مقران التي انتقم منها الباي حسن بوحنك بعد مقتل خليفته الحاج بكير سنة 1149هـ/1737م على يد بورنان بن بوزيد أمقران، عندما كان مارا لتقديم الدنوش، وهذا بسبب محاولته إجبار أرملة بوزيد أمقران الزواج منه في طريقهم إلى الحج، فحرض الباي حسن بوحنك ضد أولاد

(1) - شالر، المرجع السابق، ص 115.

(2) - Emerit (M), « les mémoires d'Achmed bey, dernier bey de Constantine », in R.A, N°93, 1949, pp88, 89.

(3) - Boulifa, Op. Cit, p214.

(4) - محمد سي يوسف، القانون في بلاد القبائل، ص 280.

(5) - Robin, Note du l'organisation militaire, p136.

بوزيد (عبد ربه، الحاج، بورنان، عبد السلام) أبناء عمومته أولاد عزيز بن القندوز،⁽¹⁾ الذي كان يريد حكم الأسرة بمجانة، والتي هاجمها بمساعدة الحامية التركية، ولتسهيل دخول عزيز مجانة، عمل أعوان الباي على إثارة الشقاق بين أبناء بوزيد الذين بدعوا يتنافسون على الزعامة، فاستغل بورنان هجوم ابن عمه فقام بصدده بشجاعة ليثبت أمام إخوته أحقيته في الحكم، لكن طموحه هو وأخوه الحاج لرئاسة الأسرة أدخلهم في صراع استغله الباي وطردهم من مجانة سنة 1740م، ففترقوا بين بجاية وبني عباس ومجانة،⁽²⁾ ولم يعودوا إليها إلا سنة 1748م، بعد هزمهم الحامية التركية ببرج بوعريج وعلى إثرها راسل الحاج بن بوزيد الباشا بالجزائر ليطلب من بابات قسنطينة احترام حدود استقلال الأسرة.⁽³⁾

وبعد مقتل بورنان أمقران سنة 1197هـ/1783م من طرف قبيلة أولاد ماضي قام أبناءه بأعمال شغب فطردهم عمهم "الحاج" الذي كان يرعاهم، ليقتل هذا الأخير بعدها على يد ابن أخيه المدعو "بوزيد بن بورنان" عند مرافقته للحامية التركية، هذا الأمر أدى إلى ازدياد الصراع بين أفراد الأسرة، فاضطر عبد السلام بن بوزيد أمقران إلى محاربة أبناء أخيه بورنان الذين تحالفوا مع فرع "بن القندوز" لكنه قتل، ليظهر الأخ الرابع لهم وهو "عبد ربه" من عزلته، -لأنه ابتعد عن السياسة واشتغل (بالعلم)- ضد أبناء أخيه بورنان مستعينا بابن أخيه بوزيد بن الحاج.⁽⁴⁾

واستمر الوضع حتى سنة 1794م أين استغل الباي مصطفى الظروف وقسم العائلة بمجانة إلى فروع متناحرة ومتنازعة من أجل إضعافها، وهي أولاد الحاج، أولاد عبد السلام، أولاد القندوز، في حين نفى أولاد بورنان في الجنوب، وبهذا استفاد الباي من ثلاثة أضعاف الضرائب التي تأتيه من الأسرة التي كثرت الصراعات بين فروعها.

وقد استمر البايات على هذا النحو يحرضون كل فرع ضد الآخر مما زاد في ضعف الأسرة التي بدأ حكامها يتملقون للحكام بالهدايا من أجل مناصرتهم ضد الفرع الآخر، مثلما فعل الحاج بن عبد السلام الذي سارع إلى تهنئة الباي حتى يقف معه ضد

(1)- Feraud, Histoire des villes.... Setif, p251, p253.

Ibid, pp256, 257.

(2)- معاشي، المرجع السابق، ص 309، 310.

(3)- نفسه، ص 311.

(4)- نفسه، ص 312.

أبناء عمومته أولاد بورنان وأولاد القندوز،⁽¹⁾ ليتجدد الصراع بين فروع الأسرة سنة 1819م بين فرع أولاد عبد السلام وأولاد الحاج، وأولاد القندوز جنوب برج بوعريرج، وقد كان الباي محمد الميلي وراء هذا الصراع الذي استمر حتى 1824م أين هزم أولاد القندوز وأولاد بورنان⁽²⁾ نتيجة دعم أحمد باي لفرع أولاد عبد السلام ضد أولاد بورنان وأولاد القندوز، من أجل إبعاد الفرعين المنافسين،⁽³⁾ وربما يرجع موقف الباي من هذا الصراع، تخوفه من اتحاد فروع الأسرة التي أصبحت قوة روحية واقتصادية، وحربية أواخر القرن 18م وبهذا يكون قد طبق ما أشار إليه في مذكراته من إحلال الفرقة والشقاق بين القبائل.

ولم تنتهج السلطة هذه السياسة بين القوى الدينية فقط، بل حتى بينهما وبين القوى القبلية، بحيث أن السلطة لم تحاول فرض سيطرتها مباشرة على عدة مناطق مثل منطقة القبائل، خاصة في المناطق التي تسيطر عليها أسرة آل القاضي، فقد عملت على خلق قوى في هذه المناطق من أجل إعاقة عائلة بوكتوش (آل القاضي)، حيث وضعت على رأس كل منطقة رجال من كبار العائلات بالمنطقة التي لها تأثير على الأهالي كإسنادها قيادة سيباو لشيخ قشتولة.⁽⁴⁾

إن سياسة "فرق تسد" كانت سلاحا استعملته السلطة العثمانية في مجتمع تغلب عليه الروح القبلية، تعد من أنجع الأساليب العثمانية لحكم البلاد، واعتبرت وسيلة فعالة وضرورية للسيطرة على زمام الحكم،⁽⁵⁾ حيث عملت هذه السياسة على إضعاف الروابط القبلية والأسرية من خلال منح الامتيازات المادية والوظائف لأسرة دون أخرى وهو ما أجب فتيال الحرب بين الأسر والقبائل وحتى داخل الأسرة الواحدة.⁽⁶⁾

وربما يرجع اعتماد السلطة لسياسة التفرقة وتشجيع روح العداء وإذكاء التنافس بين العلماء، وبين العائلات الإقطاعية والدينية صاحبة النفوذ وحتى بين القبائل القوية، إلى الأزمة الاقتصادية وحتى العسكرية التي عانت منها إيالة الجزائر، خاصة أواخر العهد العثماني، بهدف مد هيمنتها على القبائل الضعيفة، واستغلالها والحد من عداء الثائرين ضد سلطة البايلك.

(1) - نفسه، ص 313، 316.

(2) - عباد، المرجع السابق، ص 225.

(3) - Rinn, Histoire de surrection, pp14, 16.

(4) - Robin, la grande kabylie, p43. - Robin, note sur l'organisation militaire, pp136, 137.

(5) - معاشي، المرجع السابق، ص 270.

(6) - نفسه، ص 271.

وبهذا فهذه السياسة التي انتهجتها السلطة، كانت تهدف من ورائها منع أي تقارب بين القبائل، التي كانت الفرق الصوفية تلعب دورا بارزا في حياتها اليومية، تقاديا لاتحادها، وبالتالي ظهور ما يسمى بنزعة الروح الوطنية، التي حرصت السلطة العثمانية على عدم تحقيقها بكل الوسائل والطرق، ومما ساعدها في هذا، التنافر الذي كان بين العلماء وبين الطرق الصوفية من جهة، والصراع بين القبائل وداخل المشيخات الوراثية القبلية أو الدينية من جهة أخرى، وهذا كله من أجل الجاه والنفوذ في ظل نظام ضرائبي مرتكز على التنوع الجبائي المرهق، وتقلص دافع الجهاد.

الفصل الثامن

رد فعل السلطة الروحية ضد تعسف
السلطة الحاكمة وانعكاساته

1- تمردات القوى الدينية على السلطة السياسية:

لقد شهدت الجزائر طيلة الفترة العثمانية عدة تمردات وحركات عصيان اختلفت في أسبابها أو دوافعها منها ما كان ذا طابع ديني أو سياسي، ومنها ما كانت دوافعه اقتصادية، أو نتيجة تمرد شخصي حبا للمغامرة والسمعة ومن هذه الثورات ما كان قصير المدى محدود المكان ومنها من كان طويل المدى واسع المجال، ومنها ما كان تحت قيادة طريقة أو قبيلة(*) كاملة، ومنها ما كان ثورة فئة اجتماعية. (**)(1) فهذه الثورات خلفت خرابا في الایالة وهو ما جعل "الزياني" الذي أقام بالجزائر أواخر العهد العثماني يقول: «وخبر ما مررنا به من الجزائر إلى قسنطينة من المدن فكله خراب.(2) ولعل هذا الخراب الذي تحدث عنه ناتج عن الاضطرابات التي حدثت في البلاد، فكان نتاج لما أفرزته التمردات ضد الحكم العثماني في الجزائر.

وما يهمننا هنا هو الثورات التي قامت بها السلطة الروحية ضد السلطة العثمانية، والتي كانت سببا في ضعف ثم زوال الوجود العثماني بالجزائر خاصة ثورات القرن 19م. فالسلطة الروحية ورغم تحالفها وتوافقها في الغالب مع السلطة السياسية منذ بداية التواجد العثماني بالجزائر، إلا أنه كان بين الفترة والأخرى تظهر تمردات لأقطاب السلطة الروحية ضد البايك طوال فترة الحكم العثماني، فبالإضافة إلى تمردات آل القاضي وآل مقران عهد البايبراي خاصة، نجد أن تمردهم ضد السلطة، وسيظهر بين الفينة والأخرى، منها ثورة أحمد بوكتوش ضد السلطة سنة 1725م، وعمرو الصغير بوكتوش سنة 1757-1758م ضد البايات بفليسة.(3)

أما آل مقران فنجدهم هاجموا سنة 1144هـ/1737م محلة خليفة الباي حسن بوحناك، عند مروره بالببيان حاملا الدنوش إلى مدينة الجزائر، وتم قتله من طرف "بورنان"

(*) - مثل ثورة ابن الصخري وثورة قبائل الزواوة، ثورة أمحال السويدي بالشلف.

(**) - مثل ثورة الكراغلة.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 210.

(2) - الزياني، الترجمانة، ص 163.

(3) - ساحي، المرجع السابق، ص 72.

الابن الأكبر للشيخ "بوزيد أمقران" وقد قضى آل مقران على معظم المحلة، وهذا كله بسبب محاولة خليفة الباي إرغام أرملة الشيخ "بوزيد" على الزواج منه أثناء رحلة الحج.⁽¹⁾ ومن الثورات الدينية التي قادها أقطاب السلطة الروحية "ثورة يحي الأوراسي" (ت1009-1600م)، الذي كان مخالطاً للحكام الذين اعتقدوا في صلاحه وكانوا يستشيرونه في كل مهماتهم، لذلك ونتيجة الوشاية من حساده الذين أشاعوا عليه خلعه البيعة، ومحاولة الثورة على السلطة العثمانية، الأمر الذي أدى بالشيخ إلى الفرار إلى جبل الأوراس مع أخيه أحمد، ودارت بينهم حروباً، فشل فيها العثمانيون من القضاء عليه إلى أن قتل غدرًا، ليستمر بعده أخاه في الثورة،⁽²⁾ أما عبد الصمد الشابي (ت 1025هـ - 1628م) لما طرد من تونس استقر بالمشرق الجزائري وخضعت لنفوذه عدة مناطق من عين البيضاء إلى تبسة حتى إلى الصحراء أين ضايق المرابط مبارك بن ناجي الذي فر إلى خنقة سيدي ناجي وأسس زاوية هناك،⁽³⁾ وقد ساعدته في توسعه قبائل "دريد" لكنه دخل في صراع مع العثمانيين المدعمين بمساعدة الحنانشة والنمامشة، وتلقى هزيمة في معركة جيبير "Guiber" التي قتل فيها ابنه، مما اضطره إلى الفرار نحو جبل ششار جنوب الأوراس أين أسس زاوية له هناك، أما أفراد عائلته وقبائل الدريد المناصرة له، فقد تفرقوا نواحي تبسة، أما النهدي والخمير، جامعي الضرائب للشابية فقد فروا إلى جبال شرق القل.⁽⁴⁾

ومنذ بداية عهد الدايات ظهرت معارضة أقطاب السلطة الروحية للحكام، فلم يسلموا من نقدهم ومنهم من تمرد عليهم، حيث يذكر "تواتي" أنه سنة 1675 م ثار سكان تلمسان وعلى رأسهم العلماء ضد السلطة، وحسب قوله أن هذه الثورة لم تكن ضده السلطة في ذاتها، بل لعدم تطبيق الشريعة، القاضية بالتضامن والعدل والمساواة،⁽⁵⁾ لهذا فإن تصرفات الحكام الغير عادلة كانت تدفع الأهالي إلى الثورة ضدهم.

(1) - معاشي، المرجع السابق، ص 307.

(2) - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص 423. - ابن الفكون، منشور الهداية، ص 54، 55.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 218. - معاشي، نفسه، ص 336.

(3) - عبد المنعم القاسمي، نفسه، ص 275. (هامش)

(4) - Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, pp204, 205.

(5) - Touati, Op. Cit, pp117, 118.

ففي سنة 1728م تعرض الداوي كرد عبيدي باشا (1724-1732م) هو الآخر إلى مؤامرة من المفتي الحنفي وبمساعدة آغا العسكر، اللذين خنقهما وعذب زوجتيهما، أملا منه في معرفة قاتل ابنه عند عودته من الحج،⁽¹⁾ في حين سنة 1181هـ/1767م تمردت قبائل فليسة، بسبب ثقل الضرائب فأرسل الداوي قوة لإخمادها، لكنها هزمت فاتهم الداوي بالآغا بالخوف والجبن وقام بقتله،⁽²⁾ لفقده 300 مقاتل، ثم عوضه بخوجة الخيل الذي زوده بـ 04 آلاف انكشاري و 12000 مخزني من التيطري ووهران، لكن الجيش العثماني هزم أمام القبائل المكونة من 40 ألف مقاتل، والتي كانت تحت إمرة المرابط سيدي أحمد السعدي، وفقد على إثرها 1200 انكشاري و 300 من المخزن، من جانب البايك، وأثناء هذا التمرد تم قتل القائد التركي و 1200 جندي و 03 مخزني، إضافة إلى إلحاقه خسائر كبيرة بالمخزن، ووصلوا إلى متيجة وحاصروا مدينة الجزائر وحاولا قتل الداوي محمد 06 مرات، ولم تخمد هذه الثورة إلا أثناء عهد صالح باي بعدما دامت قرابة سبع سنوات.⁽³⁾

أما الداوي مصطفى (1797-1805م) فقد ثار ضده أحمد خوجة أحد الكتاب لأربعة بدار الإمارة، بعدما قام بعزله، فقام هذا الأخير ببيع بستانه لقائد العرب ابن سحنون ووظف ماله في إثارة الجند ضد الداوي واعداء إياهم بزيادة رواتبهم، وعندما ثار الجند فر الداوي إلى ضريح الولي دادة، لكن القائمين عليه أغلقوا الضريح مما أدى إلى مقتله.⁽⁴⁾

أما بباييك الشرق، وخلال عهد صالح باي الذي كان على علاقة جيدة مع المرابط أحمد الزواوي شيخ الطريقة الحنصالية فقد كان صديقا له، وأرسل فرسه "الرقطاء" للمشاركة ضد حملة "أوريلي" سنة 1775م لكن لما تغيرت سياسة الباي نحو المرابطين، أصبحت زاويته مركزا للتحريض ضد الباي، الذي قاد حملة ضده فرعلى إثرها الشيخ إلى جبال أوزغار مع طلبته، وظل هناك حتى وفاته رغم محاولة الباي ترضيته،⁽⁵⁾ في حين

(1)- De Grammont, Op. Cit, p284.

(2)- سامح ألتر، المرجع السابق، ص 526.

(3)- De Grammont, Op. Cit, p320. - Mercier, histoire de l'Afrique..., T03, p396.

(4)- الزهار، المرجع السابق، ص 89.

(5)- Mercier, Histoire de Constantine, p283. - Vayssettes, Histoire de Constantine, pp142, 143.

- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 219، 220. - سعيدوني، دراسات وأبحاث -العهد العثماني-، ص 74.

المرباط محمد الغراب فقد ألب هو الآخر الناس ضد صالح باي بعد الإصلاحات التي قام بها، مما أدى بالباي إلى قتله.⁽¹⁾

أما ببايك الغرب، فقد ثار الدرقاوية ما بين (1777م/1780م) تحت قيادة الشيخ محمد بن علي الإدريسي، مرباط عين الحوت قرب تلمسان، والتي قمعها الباي محمد الكبير، ووصل حتى التراب المغربي وأخذ وجدة وتقدم حتى منطقة الريف، أين اضطر مولاي يزيد إلى طلب الصلح وأخضع الطريقة، التي تمردت مرة أخرى سنة 1783م⁽²⁾ ثم تعيد التمرد مرة أخرى عهد مولاي سليمان وبتحريض من الشيخ العربي الدرقاوي سنة 1805م، كما سنرى لاحقا.

وإضافة إلى هذه التمردات التي كانت ضد السلطة هناك من العلماء، من أخذ موقفا من السلطة، مثل سعيد المنداسي (ت1088هـ/1677م) الذي فر إلى المغرب واستقر بسجلماسة،⁽³⁾ عن طريق التشهير بهم ووصفهم بأبشع الأوصاف متهما إياهم بالفحش وحب المال وارتكاب الجرائم، ومما جاء في قصيدته في ذم الأتراك والعلماء الموالين لهم.

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا	فإن بها من قوم ياجوج عدوانا
بنى السد ذو القرنين للناس رحمة	فياليتته من شوكة الترك هنانا
سمعنا حديثا صادق النقل ربه	بأن لجنس الترك في الأرض إخوانا
فما دب فوق الأرض كالترك مجرم	ولا ولدت حواء كالترك إنسانا
عتوا واستفزوا المسلمين من القرى	وقد عبدوا حمر الدنانير أوثانا

أما ما قاله في العلماء الموالين لهم، منهم المفتي "ابن زاغو" الذي أنكر عليه مسابريته للحكام وسوخته عن ظلمهم لسكان تلمسان خاصة على يد القائد التركي حسن:⁽⁴⁾

فمنهم قرين السوء مفتي بلادهم	تود العباد للترك كانوا ولا كانا

(1) - Mercier, Ibid, p283. - Vayssettes, Ibid, p142. - Boyer, Contribution, p38. - Trumelet, l'Algérie légendaire, p256.

—قشبي، صالح باي، ص 196. — سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص220.

سامح ألتز، المرجع السابق، ص536. — الغالي، الثورات الشعبية، ص158. — Boyer, Contribution, pp35, 38. — عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، مصر، 2006م، ج5، ص 13.

(3) — سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص265.

(4) — سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص369.

فقل لابن (زاغو) في الضلالة أئمة
فإن أمير الترك فرعون قائم
أتهدم دار العلم في خانك الذي
فأنت لسان الترك والسيف لافظ
لقد كنت حبرا بالمدينة صالحا
قتلت فحول العلم صبورا ولم تزل
ألم تعلم أن الله بالترك قادر
ويقال عن المنداسي، لم يكفي بهجاء العثمانيين بل إنه استعان ضدهم بملك
المغرب مولاي إسماعيل، لكن أهل الشيخ المنداسي هم من خذل السلطان المغربي في
موقعة جديوية.⁽²⁾

1-1 - الثورات الدينية ضد السلطة السياسية:

لقد كان بإمكان الحكام العثمانيين التعاون مع السكان وإشراكهم في تسيير شؤون
بلدهم، لكنهم انعزلوا عن القاعدة الشعبية واستغنوا عن مساعدتها حفاظا على امتيازاتهم،⁽³⁾
وعملوا على وضع وسطاء بينهم وبين الرعية من أقطاب السلطة الروحية، خاصة منهم
شيوخ الزوايا الذين كانوا في بداية الأمر وراء تعبئة الناس للجهاد ضد الخطر المسيحي
الذي كان أكبر عامل وطء علاقة العثمانيين بالعلماء، لكن بزوال هذا الخطر ومع تدهور
الظروف الاقتصادية للجزائر تغيرت سياسة الحكام التي وجهت اهتماماتها للمناطق
الداخلية من أجل إيجاد مصادر دخل بديلة عن مغامرات الجهاد البحري⁽⁴⁾ فسياستهم ولدت
الحقد وحب الانتقام لدى الرعية ضد الوجود العثماني.⁽⁵⁾

لهذا اتسمت سياستهم بالتعسف وإرهاق كاهل الناس بالضرائب، الأمر الذي أدى
إلى ظهور حركات تمرد تزعمها شيوخ الطرق الصوفية التي ازداد نفوذها وخطورتها،
خاصة بعدما لم يجد النظام بدا من نقض عهدهم معهم بسبب الأوضاع الاقتصادية

(1) - سعيد المنداسي، المصدر السابق، ص 114، وما بعدها. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 56، 57.

(2) - ابن سحنون، نفسه، ص 57.

(3) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 475، 476.

(4) - الغالي، الحياة السياسية...، ص 165.

(5) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 475، 476.

الصعبة، فهمشوهم وحاولوا استغلالهم مثل بقية الرعية، لكنهم تمردوا وحرضوا الأهالي ضدهم،⁽¹⁾ لهذا يقول "مسلم بن عبد القادر" أن الأتراك لم يكونوا أهلا للحكم أواخر عهدهم فبعد انقضاء عهد محمد عثمان باشا داي الجزائر والباي محمد الكبير، وصالح باي جاء بعدهم حكاما أوائل القرن 19م، حكموا البلاد مدة 30 سنة، لم تكن سياستهم رشيدة ولا كان حكمهم عادلا فكان من الطبيعي أن تكون هناك ثورات ضدهم،⁽²⁾ لذلك كان وراء كل دعوة للجهاد طريقة وقد استمر هذا حتى فترة الاحتلال الفرنسي.⁽³⁾

كما وأن الحركات التمردية التي ظهرت قامت بدوافع دينية، الأمر الذي ساعدها على تجنيد الأهالي ضد السلطة العثمانية، لأنها كانت ترى أن المبادئ الدينية تقتضي تطبيق المساواة لا التمييز الذي فرضه العثمانيون خاصة بعد تواطئهم مع التجار الأوروبيين واليهود، لهذا رؤوا أن الثورة ضد العثمانيين شرعية وجب القيام بها،⁽⁴⁾ ومن أهم الثورات التي قامت ضد العثمانيين: الثورة الدرقاوية والتيجانية.

1-1-1- ثورة الطريقة الدرقاوية:

أ- الدرقاوية من الناحية المذهبية:

❖ تعريف الطريقة الدرقاوية: ظهرت الطريقة في المغرب الأقصى في عهد السلطان

سليمان عبد الله ابن إسماعيل⁽⁵⁾ وهي إحدى فروع الطريقة الشاذلية،⁽⁶⁾ وقد اختلف

في أصل تسمية هذه الطريقة وأرجعها إلى عدة أصول:

- أصلها إلى درقة: وهي مدينة صغيرة بفاس بالمغرب الأقصى.

- أصلها من الرقعة: وتعني الخرق، وهي كناية عن مريديها الذين يرتدون البرانس المرقعة.

- أصلها إلى درق: الذي يعني خبأ، باعتبار أن الدرقاويين يخبئون الحقيقة ويتنكرون لكل ما هو موافق لمصلحة السلطة.⁽⁷⁾ كما قيل أنها مستمد من الدرق،

(1) - عمار هلال، أبحاث ودراسات، ص25

(2) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص55.

(3) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص382.

(4) - شريط عبد الله، الملي محمد المبارك، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، م.و.ك، الجزائر، 1985م، ص163.

(5) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج5، ص 09.

(6) - Andre (P.G), Op. Cit, p 246

(7) - De Neveu, Op. Cit, pp116, 117.

وهي الترس الذي يحمله المقاتل في ذراعه اليسرى في الحرب، وقد اشتهر بهذا الاسم الجد الثامن عشر لمؤسس الطريقة،⁽¹⁾ وهو أبي عبد الله محمد بن يوسف المعروف باسم أبو درقة.⁽²⁾

❖ **جذور وأصل الطريقة الدرقاوية:** يعتبر الشيخ علي بن عبد الرحمان أول من دعى إليها، والذي يعتبر المؤسس الفعلي للطريقة الدرقاوية، المعروف "بالجمل"،⁽³⁾ وسمي بهذا الاسم نسبة إلى شدة صبره في العبادة، ومن وصايا الجمل لأتباعه: البعد عن السياسة، التمسك بالدين والإقبال عليه وممارسته يوميا، الابتعاد عن الأمور الدنيوية، الارتقاء بالسلوك والوصول لأعلى درجات الكفاء،⁽⁴⁾ وهذا لحمل راية الدرقاوية.

يعتبر علي بن عبد الرحمن الجمل من الرجال الذين نفروا من مظالم السلطة وفساد الوضع آنذاك، وبعد وفاة مولاي إسماعيل، فر من المغرب سنة 1738م، مارا بتلمسان والجزائر وبجاية قسنطينة وغيرها من المدن التي التقى فيها مع رجال العلم التصوف، ثم إلى تونس 1738م التي مكث بها عامين، أين تلقى الدروس من عدة شيوخ، ولما عاد إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، انضم للطريقة الشاذلية، بعدها قام بتشيد زاوية "الرميلة"،⁽⁵⁾ حيث جمع حوله الكثير من الأتباع من بينهم مولاي العربي الدرقاوي، الذي سيكون خليفته له، بعد وفاة الشيخ الجمل سنة 1780م عن عمر يناهز 100 سنة.⁽⁶⁾

❖ **الشيخ العربي الدرقاوي وأعماله:** هو العربي بن أحمد بن الحسين أبو عبد الله الحسيني الشريف الزروالي الدرقاوي،⁽⁷⁾ ولد سنة 1150هـ/1737م ببني عبد الله

- الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 159. - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج5، ص 09.

(1) - عبد الكريم الفيلاي، نفسه، ص 08.

(2) - عبد الله استيتيو، "الزاوية والمجتمع القبلي والمخزن -الزاوية الدرقاوية نموذجاً-"، مجلة فكر ونقد، ع 94، 2008، الرباط، المغرب، ص82.

(3) - Andre (P.G), Op. Cit, p 246

(4) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج5، ص 9 و 11.

(5) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج5، ص 9، 10.

(6) - Andre (P.J), Op. Cit, p 246

(7) - محمد بوزيان الشريف الحسيني الغريسي، كنز الأسرار في مناقب العربي الدرقاوي، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، المغرب، رقم 13905، ص 13، 14.

بيومعان،⁽¹⁾ لكن حسب حفيده الأستاذ سيدي الحاج علي بن الطيب فإنه ولد سنة 1159هـ/1746م، حيث يقول في تاريخ ولادته ووفاته:

قد ولد الشيخ أبو المعالي سنة تسعة على المنوال
من بعد خمسين على ما وجد مقيد بخط أهل الإقتداء
ثم من بعد مائة وألف وعام تسعة به توفي
بعد الثلاثين على الحقيقة شربها كاس مع الشريعة.⁽²⁾

يعتبر العربي الدقاوي، المؤسس الأول للطريقة الدقاوية، في القرن 12هـ/18م بأماط شمال المغرب،⁽³⁾ ينتمي إلى قبيلة بني زروال^(*) شمال مدينة فاس، تعلم التصوف على يد الشيخ علي بن عبد الرحمان الجمال الإدريسي الفاسي شيخ الطريقة الشاذلي.⁽⁴⁾ أسس الشيخ محمد العربي زاويته في "بوبريج"^(**) بفاس، والتي تعد أكبر وأغنى زوايا الدقاوية سنة 1201/1786م.⁽⁵⁾

واشتهر العربي الدقاوي بالزهد حيث كان يحتقر الوظائف الدنيوية، وقيل فيه: "كان قوي الحقيقة شجاعا كريما لا يكثر بالدنيا وأهلها،⁽⁶⁾ وقيل فيه أيضا: "لم يأت المغرب من أدرك الصيت الذي أدركه وعمل الأبهة للمشايخ كأبهة الملوك"،⁽⁷⁾ كان يرتدي السبحة ذات الحبات الكبيرة، التي يضعها المرید في عنقه ويحمل العصا ويلبس

(1) - محمد البشير بن عبد الله الفاسي الفهري، قبيلة بني زروال، مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، منشورات جمعية علوم الإنسان، الرباط، المغرب الأقصى، د.ت، ص 46.

(2) - نفسه، ص 46.

(3) - عبد الله استينيتو، المرجع السابق، ص 82.

(*) - قبيلة بني زروال، من القبائل الجبلية الشهيرة بشمال المغرب الأقصى، يحدها شرقا قبيلة كثامة ومزيات، غربا بنو مستارة وسطة وبنو مزجلدة وبنو رياجل، وجنوبا قبائل سلاس وفشتالة والجاية، وشمالا بنو أحمد وغمارة. وتبلغ مساحتها ألف كلم²، وعدد سكانها 40 ألف نسمة. - محمد البشير بن عبد الله الفهري، المرجع السابق، ص 08.

(4) - G. Andre, Op. Cit, pp246, 247.

(**) - زوية بوبريج، تقع بقرية بومعان بمشيخة بني عبد الله بمحل يسمى كدية العدس ينظر، محمد البشير بن عبد الله الفهري، المرجع السابق، ص 17.

(5) - Rinn, Marabouts et khouans, p 235.

- عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 11.

(6) - محمد بوزيان الغريسي، المصدر السابق، ص 13، 14.

(7) - - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 7، ص 45.

المرقعة (الثياب البالية) من الصوف، لكن تكون نظيفة،⁽¹⁾ لهذا يلقب كل من أتباعها "بالبودالي"، أي (لابس الخرق) والذين يتميزون بالحياة الطويلة والعمامة الخضراء.⁽²⁾

❖ **أعمال العربي الدرقاوي:** قام العربي الدرقاوي بعدة أعمال نذكر منها: جعل لأتباع الطريقة شعارا خاصا وهو العمامة الخضراء، كزي رسمي لهم، حتى يتعرف الناس على الطائفة الدرقاوية واقتداءً بالعلويين الأوائل منذ عهد المأمون العباسي، وهي شعار أيضا اتخذته الطريقة البكداشية.

- نظم الزوايا بطريقة جد متقنة وجعلها تتوفر على مداخيل للصيانة، كما وجه مريديه للاهتمام بها وجعل منها أندية للاجتماع بهم، حيث ترقّت وأصبحت أمكنة لإلقاء الدروس بها بمختلف اللهجات القومية.

- تميز بسلوكه الراقي الذي دفع بأتباعه بالبادية إلى التوادم والتراحم والتعاون. بينهم خاصة في الأوقات العصيبة كما وحد بينهم وجعل منهم حزبا قوى شوكتهم ضد النصارى.

- بفضل هذا التنظيم الديني الذي فرضه على الأتباع، وصلوا إلى أعلى الدرجات وحازوا على محبة العامة والأهالي، الذين تنافسوا في التبرع لهم بالزكاة والهدايا والعطايا.⁽³⁾

وقد كانت للدرقاوية عقيدة اختلفت بها عن بقية الطرق الأخرى، حيث تمثلت في:

- إرجاع المسلمين إلى مبادئ الصوفية الحقة.
- لا تعترف بالحاكمية إلا الله عز وجل، وبهذا فالطريقة تمقت كل من يمارس السلطة.⁽⁴⁾
- لكنها في نفس الوقت تكن كل الاحترام إلى الأشخاص الذين يعود نسبهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما يفسر ارتباطها بالسلطين المغاربة، الذين انطوا تحت لواءها.⁽⁵⁾ كمولاي سليمان الذي كان من أتباعها قبل أن يتولى الحكم.⁽⁶⁾

(1) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 11، 12.

(2) - م.ث. هوشما وآخرون، المرجع السابق، ج 9، ص 4881.

(3) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 7، ص 46، 51.

(4) - De Neveu, Op. Cit, p119.

(5) - الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 159.

(6) - De Neveu, Op. Cit, p119.

ومن واجبات المريد الذي تبعها:

- المشي حافيا ولبس اللباس المرقعة اقتداء بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، اعتماد الرقص عند ذكر اسم الجلالة باعتبار أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما قام بذلك، حمل السبحة اقتداء بأب هريرة رضي الله عنه، حمل العصا مثلما فعل موسى عليه السلام، العيش في البوادي والصحاري مثلما فعل عيسى عليه السلام.
- كثرة العبادة ومجاهدة النفس بالطاعات والعبادات، واتخاذ التقشف والعيش على الفقر والجوع، وقلة النوم والأكل.
- طاعة الشيخ طاعة عمياء.
- مخالطة أهل الصلاح ومجانبة كل من يمارس السلطة.⁽¹⁾
- لبس العمامة الخضراء، والصيام بكثرة، اجتناب الكذب.⁽²⁾
- قلة الكلام ولا يجب التجول في المدن إلا للضرورة.⁽³⁾

❖ **وفاة الشيخ العربي الدرقاوي:** في سنة "1239هـ/1823م" توفي الشيخ العربي الدرقاوي وقام أهله وأتباعه بدفنه بمسقط رأسه بزاوية بوبريج.⁽⁴⁾

توفي العربي الدرقاوي بعد أن نشر مبادئ الطريقة وتعاليمه، حيث أنها لا تشترط الخلوة ولا الإنزواء في المغارات والكهوف، ولا حتى في قمم الجبال كما أنها لم تقبل بممارسات الشعوذة، بل هي طريقة واقعية تؤكد على عبادة الله الحق وخشيته سرا وعلانية، كما تلزم تتبع النبي صلى الله عليه وسلم في الأفعال والأقوال والتشبث بسنته، والتخلي عن أمور الدنيا والرضي بقضاء الله وقدره والتوكل عليه وحده لا شريك له، وقد اعتبر كل من حاد عن هذه الأصول، خارج عن أصول الطريقة في الشكل والجوهر⁽⁵⁾ لذلك قال عنها "دوتي" حسب أحد أتباعها أن أحد أهداف الطريقة كان العودة إلى الإسلام الأول الصحيح.⁽⁶⁾

(1)- De Neveu, Op. Cit, p121. - Rinn, Marabuts et khaouns, p233. - Depont/Coppolani, Op. Cit, pp503, 504.

(2)- Andre (P.G), Op. Cit, p 247.

(3)- De Neveu, Op. Cit, p121.

(4)- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 230.

(5)- عبد الله استيتيو، المرجع السابق، ص 83.

(6)- دوتي، المرجع السابق، ص 18.

ب- الطريقة الدرقاوية في الجزائر:

انتشرت الطريقة الدرقاوية في مناطق من المغرب العربي، حتى أصبحت ما بين 1790-1910م، وتعد من أهم الطرق الصوفية على الإطلاق، وتأتي في المرتبة الأولى بين الطرق المتفرعة عن الطريقة الشاذلية، حيث اكتسبت مكانة كبيرة وهيبة عظيمة في الأوساط الشعبية كما حظي شيوخها بنوع من الاحترام والتقدير، وقد ترك لنا العربي الدرقاوي بعد وفاته سنة 1823م عدد كبير من الشيوخ والمريدين، أكثرهم في المغرب.⁽¹⁾ كان لها برامج وأنظمة وقواعد خاصة بها، استمدتها من الطريقة الشاذلية، ومن زاوية بوبريح انطلقت الطريقة الدرقاوية تشق طريقها في أوساط الجماهير، سواء في الموطن الأصلي المغرب أو الجهة الغربية للجزائر⁽²⁾، حيث وصل صيتها واتسعت رقعتها الجغرافية حتى بلغت الجزائر، ووصلت مشارف تونس ثم طرابلس وحتى مصر، وقد حظي شيوخها بحرمة كبيرة وهيبة عظيمة وسط الجموع الشعبية.⁽³⁾

❖ **مناطق وعوامل انتشار الطريقة الدرقاوية:** شهدت الطريقة الدرقاوية انتشار واسع في كافة أقطار المغرب العربي، من خلال الرحلات التي كانت تخرج من المغرب في تلك الفترة، التي استوجبت خروج العلماء من المغرب نحو الجهات الشرقية، وهذا ما جعل الطريقة تنتشر في كافة أقطار المغرب العربي، حتى وصلت إلى مشارف المشرق بدليل قول الشيخ العربي الدرقاوي في إحدى رسائله: "إلى كافة إخواننا وأحبائنا السادات الفقراء المغاربة والمشاركة".⁽⁴⁾

ولعل من أبرز العوامل التي ساعدت علماء الطريقة على نشر طريقتهم نجد منها:

- **قوافل الحج:** حيث كان ركب الحج المغربي يمر عبر الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز، ويتم خلاله تبادل كل ما هو ديني وروحي.

(1) - علجية مقيدش، المرجع السابق، ص 72.

(2) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 230.

(3) - عبد الله استيتيو، المرجع السابق، ص 82.

(4) - علجية مقيدش، البعد المغربي للطريقة الدرقاوية ومواقفها من السلطة المركزية والاحتلال الأوروبي - المغرب الأقصى والجزائر نموذجا 1914/1786م، رسالة ماجستير، تخصص تاريخ معاصر (غير منشورة، جامعة الجزائر، 2011، ص 80.

- **الزيارات:** لما كانت الجزائر تتقاسم حدودها المغربية مع بلاد المغرب الأقصى، كان علماء البلدين وصلحائها يتبادلون الزيارات (إما بهدف علمي أو تجاري)، حيث نجد أن شيخ الطريقة الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي، قد دخل إلى الجزائر في زيارة لابن الشريف لبابيك الغرب، كما كان لهذا الأخير عدة زيارات لشيخه في المغرب.

- **الهجرة:** لما كانت مدن الغرب الجزائري قريبة من الحدود المغربية، كان كلما مس أتباع الطريقة الدرقاوية في المغرب، من جور وتعسف الحكام ضدهم يفرون إلى المدن الغربية للجزائر.⁽¹⁾

انتشرت الطريقة الدرقاوية في بداية الأمر في مكان ظهورها، وأخذت تتوسع شيئاً فشيئاً، حتى وصلت الغرب الجزائري ودخلت وهران، تلمسان، مستغانم، معسكر سعيدة، جبال الونشريس، عين الصفراء، سعيدة وعين الفضة،⁽²⁾ التي تأثر بها الكثير من علماء الجزائر، وأصبحوا مريد لها، مثل عبد القادر بن الشريف الفلتي الذي أجازه الشيخ وأذن له نشر تعاليم الطريقة لما عاد للجزائر.⁽³⁾

عرفت الطريقة الدرقاوية انتشاراً واسعاً في الجزائر منذ بداية تأسيسها بالمغرب، وازداد عدد أتباعها وتعددت زعاماتها شرقاً وغرباً حتى أصبحوا مصدر قلق للبايات، خاصة بعدما اشتد الصراع بينهم وبين الكراغلة،⁽⁴⁾ بلغ عددهم حسب إحصاء "رين" 17574 مريد و 32 زاوية و 268 مقدم،⁽⁵⁾ وهناك من قدر عدد أتباعها بـ 9567 مريد و 72 مقدم و 10 زوايا.⁽⁶⁾

❖ **فروع الطريقة الدرقاوية في الجزائر:** وللطريقة الدرقاوية عدة فروع بالجزائر نذكر منها:

○ **الطريقة العلاوية:** هي طريقة صوفية متفرعة عن الطريقة الدرقاوية - الشاذلية، أسسها الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي سنة 1914م في مدينة مستغانم، رغم أنه ينتمي إلى التيار التصوفي إلا أنه انضم للتيار الإصلاح الإسلامي الذي دعت إليه

(1) - نفسه، ص 80، 81.

(2) - الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 157.

(3) - صلاح مؤيد العقيبي، المرجع السابق، ص 230.

(4) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 13.

(5) - Rinn, Marabouts et khouans, p 264.

(6) - Depont /Coppolani, Op. Cit, p 511.

جمعية العلماء المسلمين عهد الإمام عبد الحميد بن باديس،⁽¹⁾ لكن هناك من يشير إلى أن تأسيسها كان سنة 1920م،⁽²⁾ وقد اعتبرت هذه الطريقة من أحدث وأكثر الطرق الصوفية تنظيماً، كما استعملت أحسن الأساليب النظامية لنشر العلم والدعوة للإسلام، من إصدار للجرائد والكتب وعقد الملتقيات والمحاضرات. مثل جريدة لسان الدين التي أصدرت 14 جماد الأول 1341هـ/1923م بالجزائر، وكانت هذه الصحيفة تدافع عن لغة الإسلام.⁽³⁾ بالإضافة إلى مجلة البلاغ الجزائري، التي أصدرت 17 جماد الثاني 1345هـ-1926م، كما أنها نشرت مواضيع دينية واجتماعية متنوعة، وكان نهجها الثابت هو الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه والرد على رجال الكنيسة والشيوعيين الذين ابتلت بهم أمم الإسلام، بالإضافة إلى قضايا تمس واقع المسلمين.⁽⁴⁾

○ **الطريقة الهبرية:** أسسها الشيخ محمد الهبري، الذي تتلمذ على يد شيخه السيد محمد بن قدور، شيخ زاوية بمنطقة كركر بالمغرب،⁽⁵⁾ "بواد كيس" بمنطقة ضريبة، التي تبعد بـ 03 كلم جنوب أجروود ببني سنان بالمغرب،⁽⁶⁾ ومن تلامذته الشيخ البودالي، الذي له زاوية بعيون البرانس بدائرة بالول بسعيدة، قدر عدد أتباعها بأكثر من 05 ملايين مريد، ويعمل هؤلاء أينما كانوا على تربية الناس وتعليمهم والدعوة إلى الله تعالى، والقيام ببناء المساجد وكثير من الأمور التي يحبها الدين الإسلامي.⁽⁷⁾

○ **الطريقة المدنية:** وهي طريقة درقاوية شاذلية، أسسها محمد بن حمزه المدني،⁽⁸⁾ سنة 1820م، أصله من المدينة المنورة، تتواجد زاويتها الأم بمصراتة بليبيا، عرفت ازدهارا عهد ابنه "محمد ظافر" الذي كان المستشار الخاص للسلطان العثماني عبد الحميد، ومنذ ذلك الحين، بلور محمد ظافر مبادئ الشاذلية- الدرقاوي التي أعلن عنها الشيخ المدني، وفق طموحاته وعلى احتياجات السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية، وقد جسد هذا التحول في كتابه المعنون بـ "النور الساطع" الذي نشر في

(1) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 263.

(2) - Andre (P.J), Op. Cit, p 258.

(3) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 263.

(4) - نفسه، ص 264، 265. -

(5) - نفسه، ص 244.

(6) - Depont /Coppolani, Op. Cit, pp508, 509.

(7) - صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 244، 245.

(8) - التليلي العجيلي، المرجع السابق، ص 42.

القسنطينية عام 1885، والذي يحدد فيه الشيخ ظافر المبادئ الأساسية للطريقة الشاذلية، وسعيه إلى جعل تلاميذه أدوات دعاية لصالح الأفكار الإسلامية،⁽¹⁾ وكان وجودها في الجزائر متباين من إقليم إلى آخر، فنجد قليل بالجزائر ووهران، بينما اشد في المناطق العسكرية وبالجنوب والوسط وخاصة في منطقة أولاد نائل،⁽²⁾ بلغ عدد أتباعها بالجزائر 699 مريد و 14 مقدم وزاويتين.⁽³⁾

وتعد الدرقاوية من أشهر الطرق التي أشهت العداء ضد العثمانيين أواخر عهدهم بالجزائر، فالثورة الدرقاوية تعد من أكبر وأخطر الثورات التي شهدتها العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر، حيث برزت الثورة الدرقاوية بقوة بداية القرن 19م، والتي هددت السلطة العثمانية بالشرق والغرب الجزائري.

ج- ثورة الطريقة الدرقاوية بالشرق الجزائري:

❖ **شخصية ابن الأحرش وحياته:** إن الثورة التي قامت بالشرق الجزائري هي ثورة "ابن الأحرش" بقسنطينة، هذا الأخير لا تذكر عنه المصادر سوى القليل عن تاريخه، وقد اشتهر بالبودالي أو بالشريف المغربي، وقد أجمعت أغلب المصادر على أنه "فتى مغربي مالكي المذهب درقاوي الطريقة درعي النسب"⁽⁴⁾، أما "الطار" فقال عنه أنه "رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء فاس"⁽⁵⁾، وحسب "ناصر الدين سعيدوني" فإن انتسابه إلى المغرب لا يعني أنه فعلا من المغرب، بل جرت العادة في هذه الفترة أن كل غريب يدعي النسب ويدعو إلى الطريقة أو حركة ثورية، غالبا ما ينسب نفسه إلى الساقية الحمراء أو منطقة سوس، وهذا حتى يكسب هبة ومكانة لدى العامة.⁽⁶⁾

❖ **الظروف المساعدة على الثورة:** اشتهر أمر ابن الأحرش بعد رجوعه بقافلة الحج التي قادها من المغرب عام 1800م⁽⁷⁾، وقد صادف عند مروره بمصر الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون، حيث إنظم مع جماعة من المغاربة إلى الجنود المصريين، وقد

(1)- Depont /Coppolani, Op. Cit, p513.

(2)- علبية مقيدش، المرجع السابق، ص104.

(3)- Depont /Coppolani, Op. Cit, p519.

(4)- المزاري، المصدر السابق، ص299. - الزيان، دليل الحيران، ص27.

- مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 67.

(5)- الطار، المصدر السابق، ص46.

(6)- سعيدوني، "ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية"، **الثقافة**، ع 78، 1983م، ص201.

(7)- Garrot, Op. Cit, p621.

أكسبته مشاركته ضد الفرنسيين شهرة لما أبداه من شجاعة⁽¹⁾، وهنا تشير الروايات الفرنسية إلى بداية الإتصال بين ابن الأحرش والإنجليز الذين قدموا له عدد من السفن لنقل الحجاج المغاربة إلى بلادهم، كما أغروه بالهدايا والأسلحة للثورة ضد العثمانيين وهذا من أجل القضاء على المصالح الفرنسية بالجزائر⁽²⁾، ومن جملة ما قدم له بندقية ذات ثلاث طلقات.⁽³⁾ وهي من المخترعات الحديثة آنذاك، وحسب الأستاذ "الزيري" فإنه لا نستبعد دور بريطانيا في تشجيع ابن الأحرش لأنها كانت تحسد فرنسا على الامتيازات التي حظيت بها في الشرق الجزائري⁽⁴⁾، لأن التنافس كان شديدا بينهما بهدف اكتساب مناطق نفوذ وامتيازات في الجزائر.⁽⁵⁾

وربما ما يثبت هذا التقارب بين الانجليز وابن الأحرش، هو كون هذا الأخير كان يردد دوما أن الإنجليز أصدقاؤه وهم من حرر أرض مصر من الفرنسيين وأن الله "أمرني أن أعاملهم بالحسنى وأن أتبع خطواتهم..."⁽⁶⁾، وهذا ما طبقه فيما بعد حيث أمر أتباعه بإحترام سفن الإنجليز الذين استطاعوا إقناعه بتواطؤ الداوي مع فرنسا، لذلك عليه القيام بالحرب ضده لأنها واجب ديني وجهاد مقدس.⁽⁷⁾

وما يظهر لنا الدور الأجنبي وعلاقته بثورات القرن 18م ما تبرزه إحدى الوثائق الإسبانية: "إن حماس العرب للاستقلال هو نفسه في كل جهة، ولا يرغبون في غير ذلك معتمدين على مساعدتنا ومساعدة إنجلترا حسب الرسائل التي نتسلمها منهم، وهم يعرضون علينا مقابل هذه المساعدة تسويق جميع منتوجات هذا البلد..."⁽⁸⁾.

وحتى فرنسا التي كانت تحظى بامتيازات بالجزائر فإن قنصليتها قامت بعمليات تجارية كاستيراد الأسلحة وبيعها للقبائل القاطنة بالشرق الجزائري، تشجيعا لها على التمرد والثورة.⁽⁹⁾

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 85. - الجزائري محمد عبد القادر، المصدر السابق، ص 117.

(2) - Mercier, Histoire d'Afrique ..., p457.

(3) - Mercier, Histoire de Constantine, p309.

(4) - الزيري، التجارة الخارجية...، ص 29.

(5) - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش...، ص 215. - الغالي، الثورات الشعبية، ص 160.

(6) - Feraud, Histoire des villes...Gigilli, p19. - Feraud, "Histoire de DJEDJEL" in R.N.S.A.C, 1870, p189.

(7) - الميلي، المرجع السابق، ص 253.

(8) - بلحميسي، "الثورة على الأتراك في الجزائر"، ص 47.

(9) - الزيري، "مقاومة الجزائر للتكتل الأوربي قبل الإحتلال"، الأصالة، ع 12، 1983م، ص 14.

إضافة إلى الدور الذي لعبته فرنسا وإنجلترا فلا يمكن أن ننكر ونتجاهل كذلك الدور الذي لعبته تونس والمغرب في الثورات التي قامت ضد العثمانيين بالجزائر، رغم محاولات الدولة العثمانية التوسط لفض النزاع بين الجزائر وتونس، مذكرة إياها بضرورة الإتحاد لمواجهة الأخطار الخارجية⁽¹⁾ وفي هذا الشأن يذهب صاحب تحفة الزائر إلى القول بأن: "ابن الأحرش" عندما كان راجعا من مصر لقيه صاحبها "حمودة باشا" الذي أكرم منزلته وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر ووعده بالمظاهرة بالمال فاستكان له ابن الأحرش⁽²⁾، أما "الزهار" فيذكر أن باي تونس حمودة باشا استقبل الأحرش وأكرمه، وأوعز له بإمكانية القيام على حكومة العثمانيين ووعده بالمساعدة، وقد أورد ذلك بقوله: "وبلغ خبره الأمير تونس يومئذ حمودة باشا، فبعث له واستقدمه، فلما قدم عليه لقيه بالبشر، وعظمه... وأحسن إليه لكي يؤنسه... وكانت عند حمودة باشا دسياسة في خاطره على ملوك الجزائر... ووسوس له قائلا: أن رجلا مثلك شجاعا أو كلام بهذا المعنى يجب أن يذهب إلى ملك الترك (بالجزائر)، وينزعه من أيديهم، ونحن نمدك بما يخلصك، والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الأتراك، وكان مقصد حمودة باشا أن يشغلهم عنه لا غير.⁽³⁾

فمن خلال رواية الزهار نلاحظ أنه يفسر لنا الأسباب التي دفعت حمودة باشا إلى تحريض ابن الأحرش ضد العثمانيين حتى يصرف نظرهم عنه، وكما أننا لا نستبعد هنا أن يكون ابن الأحرش قد اطلع وتأثر بمناشير الوهابية المناهضة للعثمانيين.

❖ **الاستعداد للثورة:** بعد هذا بدأت مرحلة أخرى من حياة ابن الأحرش استهلها بالتعرف على مدينة عنابة التي نزل بها، ثم رحل إلى مدينة قسنطينة وبعدما أطلع على أحوالها توجه نحو جيجل، حيث بدأ يخطط لثورته ويتصل بالقبائل القاطنة بين جيجل والقل وميلة، ولم يلبث أن اكتسب الأنصار وكان من بين مناصريه قبائل عيودون وبني مسلم وبني خطاب.⁽⁴⁾

(1) - العقاد صلاح، المغرب العربي، ص24.

(2) - الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص117.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص85.

(4) - العنتري محمد الصالح، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم رايح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974، ص29.
-De Grammont, Op. Cit, p36. - Feraud, "L'Oued -Elkebir, et collo" in **RA** n°03 1858/59, p202.

ومما ساعده على كسب تأييد هذه القبائل لدعوته استقراره بزاوية "سيدي الزيتون" ناحية جيجل التي كان يقدم فيها دروسا لتفقيه الناس ثم تأسيسه لمعهد "بني فرقان" نواحي جيجل لتلقين العلوم الدينية، وفي هذا المعهد كشف عن مشروعه الرامي إلى الثورة ضد العثمانيين، حتى يخلصهم من ظلمهم، وكان هذا بعدما لمس المآزرة القوية من طرف هذه القبائل.⁽¹⁾

ومما زاد من شعبيته لجوؤه إلى إقناع الناس بصحة وشرعية دعوته بإعتماده لمختلف الوسائل حيث ادعى أنه المهدي المنتظر،⁽²⁾ وصاحب الوقت (ولي) وهو المنقذ لهم، وبواسطته سيمكنهم الله من العثمانيين، حيث أنه وأثناء إحتفال ديني أين تجمع فيه عدد كبير من القبائل "بواد الزهور" أوعز إلى أحد أتباعه بأن يدخل في قبر أعد خصيصا لذلك ويخاطب الناس منه لإتباع أوامره، وقد إنبعث هذا الصوت من تحت الأرض قائلا: "الوقت قد حان الله سييعد عنكم الطغاة، محمد بن الأحرش سيكون محرركم، معلم الوقت، إنهضوا جميعكم سيعيد لكم بونة قسنطينة وحتى الجزائر"، ونتيجة لهذا سقط الجميع راكعين على الأرض⁽³⁾، كما أوهم الناس أن البارود لا يصيب أتباعه بل يصير ماء في بنادقهم وأن دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيثما ذهب⁽⁴⁾، وهذا ما دفع ببعض الكتاب إلى القول أنه كان صاحب شعوذة وحيل رأت منه الناس العجائب، فأعطوه البيعة وامتلوا لأوامره.⁽⁵⁾

وزيادة على هذا فإن المصادر تشير إلى أنه كان يتصف بالحيلة والطموح، ويشتهر ببلاغة أسلوب وفصاحة لسانه في مخاطبته الناس وقدرته على الإقناع.⁽⁶⁾ كل هذه العوامل كانت وراء تقدير الناس له والتفافهم حوله، خاصة بعدما أعلن الجهاد ضد النصارى، الذين مارس القرصنة سفنهم بجيجل.⁽⁷⁾

ولهذا الغرض سلح عدة سفن بميناء جيجل لمراقبة السفن الفرنسية المترددة على سواحل القل، وجيجل لصيد المرجان والتجارة وقد تمكنت إحدى سفنه في شهر جوان عام

(1)- Feraud, "Les cherifs kabyles de 1804 -1809 dans la province de Constantine," in RA .n°13, 1869, p217.

(2)- المزاري، المصدر السابق، ص299.

(3)- Berbrugger, "Un cherif kabyle", in RA N°3, 1858, p210.

(4)- العنثري، مجاعات قسنطينة، ص29.

(5)- المزاري، المصدر السابق، ص 300. - الزباني، دليل الحيران، ص208.

(6)- سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 202. - الغالي، الثورات الشعبية، ص162.

(7)- Vayssette, Histoire des derniers beys, p259.

1803م من الاستيلاء على إحدى السفن الفرنسية وقتلوا بعض بحارتها وأسروا منهم (34) بحارا⁽¹⁾ وقد حاولت حكومة الداوي استرجاع الأسرى، لكنها فشلت وعاد بحارتها إلى مدينة الجزائر⁽²⁾، فبعث له الباوي صندوقين مملوءين بالهدايا مع شخص يدعى "الحسن بن تليلن" الذي أعماه الطمع وأراد فتح أحد الصناديق الذي انفجر بين يديه⁽³⁾، ولما سمع ابن الأحرش بما جرى اعتبرها خديعة وأعدم عددا من الأسرى⁽⁴⁾.

والواقع أن ابن الأحرش استطاع الوصول إلى هدفه باستعمال أساليب بسيطة تتوافق وعقلية سكان الريف، فاستطاع توجيهها لخدمة حركته واكتسب بذلك أتباعا مخلصين له، مؤمنين بقدراته⁽⁵⁾، حتى ذهب البعض منهم إلى القول بأنه بإمكانه تحويل التراب إلى ذهب⁽⁶⁾.

❖ الهجوم على قسنطينة عام 1803م: لما أحس ابن الأحرش أن الظروف كانت

مواتية لإعلان الثورة خاصة بعد انسحاب الحامية العسكرية من مدينة جيجل من دون أن تبدي أي مقاومة⁽⁷⁾ إضافة إلى كثرة عدد أنصاره الذين قدر عددهم بمائة ألف رجل قادر على حمل السلاح⁽⁸⁾ وأول ما قام به ابن الأحرش هو إخضاع مدينة القل، ثم مدينة عنابة التي انسحبت منها الحامية العسكرية نحو قسنطينة بعدما علمت بعزمه على مهاجمتها⁽⁹⁾.

بعدها اتجه ابن الأحرش نحو مدينة قسنطينة مستغلا غياب الباوي عصمان في إحدى حملاته لجباية الضرائب بناحية سطيف، وقد حاصر المدينة بقوة تبلغ العشرة آلاف محارب⁽¹⁰⁾ في حين قدرها "دونوفو" (De Neveu) بعدد يتراوح ما بين 10 آلاف 12 ألف محارب⁽¹¹⁾، في حين قدرها البعض بستين ألف رجل⁽¹²⁾.

(1)- Berbrugger, Op. Cit, p211.

(2)- الغالي، الثورات الشعبية، ص163.

(3)- Feraud, Zebouchi et Osman ..., p126.

(4)- الغالي، الثورات الشعبية، ص163.

(5)- سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص213.

(6)- Feraud, L'Oued .El kebir ..., p202.

(7)- الغالي، الثورات الشعبية، ص163.

(8)- مجهول، تاريخ بابايت قسنطينة، ص25. - العطار، المصدر السابق، ص46.

(9)- Berbrugger, Op. Cit, p21.

Mercier, Histoire de Constantine, p485.

(10)- العنتري، مجاعات قسنطينة، ص30.

(11)- De Neveu, Op. Cit, p126

(12)- Vayssette, Histoire des derniers beys, p263. - De Grammont, Op. Cit, p363. - Liorel, Op. Cit, p139.

ولما وصل ابن الحرش إلى مشارف المدينة أرسل إلى أهلها يطلب منهم تسليمها لكنهم رفضوا طلبه وقالوا له: "لا نسلم مدينتنا وسنقتلكم عن آخركم أو نموت عن آخرنا"⁽¹⁾، وقد خرج للتصدي له قائد الدار "الحاج أحمد بن الأبيض" الذي تراجع ومن معه عندما ازداد ضغط أنصار ابن الأحرش وتحصنوا داخل المدينة للدفاع عنها⁽²⁾، وكاد ابن الأحرش أن يستولي على المدينة لولا الفوضى التي حدثت بين أنصاره الذين انشغلوا بنهب كل ما وجدوه متجاهلين نصيحة ابن الأحرش بتجنب النهب والفوضى والاكتفاء بفتح المدينة فقط.⁽³⁾

وفي هذه الظروف شرع قائد الدار والشيخ سيدي محمد بن الفكون بإطلاق المدافع التي شنت صفوف الثائرين، وقد قدرت خسائر ابن الأحرش بحوالي مائتي رجل لهذا أمر أنصاره بإعادة الهجوم ليلا لكنه أصيب بجرح خطير مما اضطره إلى الانسحاب إلى وادي الزهور.⁽⁴⁾

❖ **معركة واد الزهور:** لما وصل خبر الهجوم على قسنطينة إلى الباي الذي كان يجوب البلاد في المحلة الفصلية⁽⁵⁾، عاد إلى المدينة بأمر بتنظيم قواته لملاحقة ابن الأحرش خاصة بعدما وصله خطاب الداوي الذي كان مهددا له، حيث يأمره فيه بالقضاء على ابن الأحرش ويشير "فايسات" (Vayssette) لما جاء في رسالة الداوي للباي من خلال قوله: "لقد عيناك بايا على المنطقة وعليها ظهر الثائر وعليك السير إليه بنفسك والإنقاذ منه... ولا تتركه حتى تأتيني برأسه أو لن تبقى في إقليمك"⁽⁶⁾ في حين "إسترهزي" (Esterhazy) يقول أن ما جاء في الخطاب وبصريح العبارة "رأسك أو رأس ابن الأحرش"⁽⁷⁾، فغادر الباي في شهر أوت عام 1804م المنطقة متجها نحو وادي الزهور على رأس قوة تقدر بـ 4000 جندي و 3500 مقاتل من القبائل المخزنية و 4

-Mercier, Histoire de Constantine, p314.

(1)- Berbrugger, Op. Cit, p212.

(2)- العنتري، "مجاعات قسنطينة"، ص30.

- سعيدوني، "ثورة ابن الأحرش"، ص 205. - De Neveu, Op. Cit, p126. - De Grammont, Op. Cit, p363.

(4)- العنتري، مجاعات قسنطينة، ص14. - شعيب، المرجع السابق، ص391.

De Neveu, Op. Cit, pp127, 128.

(5)- العطار، المصدر السابق، ص13. De Neveu, Op. Cit, p129.

(6)- Vayssette, Histoire des derniers Beys, p262.

(7)- Esterhazy, Op. Cit, p201.

مدافع.⁽¹⁾ أما ابن الأحرش فقد إنظم إليه مرابط يدعى الزبوشي،^(*) وهذا بعدما نزع منه الامتياز الذي منحه إياه بآيات قسنطينة، وقد أقسم هذا المرابط على أنه عند القبض على عصمان باي سيضع رجله على "عينه العوراء" وقد وفى بوعده حسب "فيرو" (Feraud) عندما وقع البايع بالمستقع.⁽²⁾

وبتحالف الزبوشي مع ابن الأحرش إلتفت القبائل أكثر حول هذا الأخير، وربما يعود هذا إلى كون الزبوشي ابن المنطقة وابن الأحرش غريب عنها،⁽³⁾ ثم أن البايع عصمان اغتري بكلام المرابط بن بعريش من بني صبيح وهو صديق للزبوشي، بإرشاده إلى مكان ابن الحرش وقد هون عليه أمر القضاء عليه، وأكد له نفور القبائل منه، وقد انطلت الحيلة على البايع بعدما قدم له بعض أفراد تلك القبائل الذين أظهروا له الطاعة، وطلبوا منه الإمداد وقالوا له: « ابعث معنا الخيل، نمسكو الشريف، ونأتوك به، وذلك مكر وخديعة... ». ⁽⁴⁾

فأرسل البايع فرقة عسكرية قدرت بـ 200 فارس يقودها آغا المحلة إلى ناحية واد الزهور، لكن هذه الحامية وجدت نفسها محاصرة من طرف القبائل ومات العديد منها بسبب الكمين الذي خططه لها" ابن بعريش "الذي قتل أثناء الهجوم عقابا على خيانتته.⁽⁵⁾ ولما وصل خبر محاصرة الفرقة إلى البايع سار لنجدها، وقد ساعدته على فك الحصار عنها المدافع، رغم تعرضه لمناوشات القبائل كبني عيدون وبني مسلم... ولما أراد التراجع لم يستطيع لأن الطريق كان قد سد بالأخشاب والحواجز، مما اضطره على أن يمر بسهل واد الزهور، وهنا قام ابن الأحرش بتحويل مجرى الواد نحو مُعسكر البايع، الذي تحول إلى مستقع ويصف لنا صاحب تحفة الزائر هذا بقوله: "فأمر ابن الأحرش بالنهر فسد ثم أطلق على المعسكر أول الليل فلما طلع الفجر إلا والماء قد عم السهل كله⁽⁶⁾. أما العنترى فيقول: "أنهم حولوا من ميل الواد المذكور عن مجراها... إلى المرجة

(1)- De Neveu, Op. Cit, p130 - Feraud, L'Oued - El kebir, p203.

(*) - مرابط رحمانى الطريقة مشهورة "برجاس" ناحية ميلة، كان ناقما على العثمانيين خاصة بعدما إنتزعوا إمتيازاته، توفي سنة 1810م.

(2)- Feraud, Zebouchi et Osman bey, p126. - Feraud, Histoire des villes... Gigilli, p213

(3)- Feraud, Zebouchi et Osman, p126. - Mercier, Histoire de Constantine, p317.

(4)- العطار، المصدر السابق، ص47.

(5)- Feraud, L'Oued -Elkebir, p203.

(6)- العنترى، مجاعات قسنطينة، ص33

التي بها المحلة وأهلها لم يشعروا بتلك المكيدة حتى أدركهم الغرق⁽¹⁾، وقد حاول الباي فك الحصار المضروب عليه، فلم يجد مسلكا إلا طريق ضيق وصعب يعرف بممر "بوغدر" حيث سقط، وهناك اغتتم الفرصة الزيوشي الحائد عليه وطعنه بسيفه، وداس على عينيه كما وعد لحرمانه من امتيازاته، وبقيت جثته خمسة أيام في المستنقع ثم، أخرجها أولاد عواظ من عشيرة العرابية ودفنوه، وأقاموا على ضريحه قبة صغيرة،⁽²⁾ اعتقادا في صلاحه بعدما رأى بعض الناس ضياء في المكان الذي قتل فيه،⁽³⁾ وقد قتل معه 500 جندي وثلاثة من نوابه دون إحصاء فرسان قبائل المخزن،⁽⁴⁾ إضافة إلى سلب الأموال التي أخذها معه.⁽⁵⁾

ولما وصلت أخبار مقتل الباي وتشتت قواته إلى دار السلطان، عزم الداوي مصطفى باشا الذهاب بنفسه للقضاء على ابن الأحرش، لكن غير رأيه بعدما أقنعه رجال ديوانه بعدم المخاطرة، فأرسل الحاج علي آغا على رأس جيش برفقة الباي الجديد عبد الله بن إسماعيل وكلفه بملاحقة ابن الأحرش⁽⁶⁾، وقد تمكن هذا الباي من إلحاق الهزيمة بابن الأحرش نواحي ميله، لكنه ظهر فجأة ببجاية على رأس جيش هام مؤلف من ألفين أو ثلاثة آلاف رجل من القبائل القاطن ما بين جيجل وبجاية، محاولا الاستيلاء على بجاية عام 1806م، لكنه هزم ثانية أمام العثمانيين بمساعدة آل المقراني المتحالفين معهم.⁽⁷⁾ وبعد هذه الهزيمة تضاربت الأخبار حول تاريخ ومكان وفاة ابن الأحرش فهناك من يذكر أنه قتل بمكان يسمى "الربطة" قرب سطيف على يد فرق الحامية العثمانية والقبائل المتحالفة معها تحت زعامة آل المقراني⁽⁸⁾، كما يشير "دي غرامو" (De Grammont) أنه في هذه الأثناء ظهر شخص آخر يحمل نفس الاسم ادعى أنه قريب ابن الأحرش، دعى الناس للتمرد ضد الحكم القائم، وقد استمرت حركته مدة أربع سنوات،

(1) - الجزائري محمد عبد القادر، المصدر السابق، ص 117.

(2) - العنثري، مجاعات قسنطينة، ص 32.

(3) - Feraud, Zebouchi et Osman Bey, p124.

- Berbrugger, Op. Cit, p213.

(4) - الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 118.

(5) - العنثري، مجاعات قسنطينة، ص 33.

(6) - Berbrugger, Op. Cit, p213.

(7) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 43.

- Vayssette, Histoire de Constantine, p480. - Vayssette, Histoire des derniers beys p265. - Feraud, Histoire des villes... Bougie, p215.

(8) - Vayssette, Histoire de Constantine, pp479, 480.

Feraud, Histoire des villes ...Gigilli, p210. - Feraud, Les cherifs Kabyles ..., p222.

لنتمكن بعدها القوة العثمانية من القضاء عليه⁽¹⁾، إلا أن هذا التأثير ظهر من جديد يقاتل في صفوف التأثير الدرقاوي بالغرب الجزائري، حيث شارك مع زميله المدعو الشريف في معركة "عين السدرة" بغريس قرب مدينة معسكر.. وقد أورد هذا الخبر مسلم بن عبد القادر بقوله: "دراوة اجتمعت في معركة يوم السدرة بغريس... كان قدوم ابن الأحرش على دراوة من الشرق، فازدادوا بقدومه فرحا وسرورا"، وقد شارك ابن الأحرش معه في معركة أخرى عرفت بيوم "ابن الأحرش" والذي قتل فيه جماعة من الطلبة الذين كانوا مع ابن الأحرش.⁽²⁾

أما عن موته فيذكر صاحب "التحفة" أنه قتل على يد ابن الشريف وقد ذكر هذا بقوله: "أن ابن الأحرش بعد فراره.. والتحاقه بابن الشريف في الجهة الغربية، بقي في معيته إلى أن دس له من قتله من أصحابه،⁽³⁾ لأنه كان منافسا خطيرا له، خاصة وأنه أظهر استقلاله عن شيخ الطريقة الدرقاوية مولاي العربي، ونقل جثته إلى مدينة فاس بطلب من السلطان المغربي.⁽⁴⁾

وبالتالي وبالرغم من الصدى الذي لقيته ثورة ابن الأحرش، والتفاف القبائل حوله إلا أنه فشل في مسعاه الرامي إلى الحد من تعسف وظلم العثمانيين، رغم الأساليب التي اعتمدها لكسب القبائل بالشرق الجزائري إلا أن تبنيه للطريقة الدرقاوية لم يمكنه من إيجاد أنصار أكثر ولاء له، خاصة وأن الشرق الجزائري كان أغلب سكانه ينتمون إلى الطريقة الرحمانية المهادنة للحكام العثمانيين⁽⁵⁾ فلم ينضم إليه من شيوخ الزوايا والمرابطين إلا من كان معاديا للسلطة وناقما عليها مثل المرابط الزيوشي، والمرابط بن بعريش والمرابط بن بركات الذي جند القبائل المجاورة لبجاية.⁽⁶⁾

كما وأن عدم اغتنام بن الأحرش فرصة مقتل الباي، وتشتت قواته بواد الزهور للقضاء على سلطة البايلك سمح لحكومة الدايات بإعادة تنظيم نفسها وإرسال الإمدادات

(1)- De Grammont, Op. Cit, p 364.

(2)- مسلم عبد القادر، المصدر السابق، ص95.

(3)- الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص118.

- Esterhazy, de la domination Turque, p208.

(4)- ابن سحنون، المصدر السابق، ص43.

(5)- سعيدوني، ثورة ابن الحرش، ص216.

(6)- De Grammont, Op. Cit, p364.

- التر سامح، المرجع السابق، ص 587.

إلى قسنطينة ثم عزل ابن الأحرش عن أغلب القبائل التي ساندته أول الأمر بتقديم المكافآت والهدايا لأعيان المدن وشيوخ القبائل والزوايا⁽¹⁾، إضافة إلى نفور سكان المدن من ابن الأحرش، إذ كانوا منغلقيين على أنفسهم مترفعين عن أهالي الريف، الذين كانوا يرون في سكان المدن، أعوانا للبايلك⁽²⁾، ولنا في الحوار الذي دار بين أنصار ابن الأحرش وسكان مدينة قسنطينة بعدما حاصرها وطلب منهم تسليمها وبعد رفضهم نجد هم يتبادلون الشتائم حيث أورد "العنثري" على لسان أنصار ابن الأحرش قولهم لسكان المدن "أه يالبلدية سترون ما نصنع بكم حيث عصيتم سيدي عبد الله".⁽³⁾

وبالرغم من القضاء على هذه الثورة إلا أنها خلفت آثار سلبية على أوضاع البلاد لما حل بها من محن، وهو ما يؤكد العنثري بقوله "فحصلت للناس شدة ومجاعة، قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك.. وتفرقوا بسبب الهول الواقع"⁽⁴⁾، ولا يختلف عنه الزياني ومسلم بن عبد القادر أو الزهار الذي يصفها "بنار الفتنة".⁽⁵⁾

د- الثورة الدرقاوية بالغرب الجزائري:

❖ ابن الشريف واستعداده للثورة:

التعريف بابن الشريف الدرقاوي: هو "محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي" الذي يعود أصله إلى قبيلة "كسانة" القاطنة بوادي العبد جنوب سهل غريس،⁽⁶⁾ وقد درس مبادئ اللغة العربية في مسقط رأسه في قرية "أولاد بالليل"،⁽⁷⁾ ثم التحق بمعهد القيطنة التابع للطريقة القادرية، الذي كان يرأسه الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر⁽⁸⁾، بعدما رحل إلى المغرب حيث درس بزاوية الشيخ العربي الدرقاوي ببني زروال، الذي لقنه

(1) - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 218.

(2) - نفسه، ص 219.

(3) - العنثري، مجاعات قسنطينة، ص 41.

(4) - نفسه، ص 33.

(5) - الزهار، المصدر السابق، ص 87.

(6) - المزاري، المصدر السابق، ص 302. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 49.

- ابن سحنون، المصدر السابق، ص 39.

(7) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 39. - الغالي الغربي، الثورات الشعبية..، ص 172.

- الغالي الغربي، "الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات - ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الأتراك في مطلع القرن 19م"، دراسات تاريخية، ع 23-24، 1986، ص 170.

(8) - الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 115. - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 39.

مبادئ الطريقة الدرقاوية، وبع دما أجازاه عاد إلى مسقط رأسه لتلقين مبادئ الطريقة، بعدما عينه شيخه مقدما لها.⁽¹⁾

كان عبد القادر بن الشريف في بداية أمره عالما زاهدا ورعا عرف بالصلاح، فحسب "بوزيان الغريسي" "فقد كان قوي الحقيقة شجاعا كريما لا يكثر بالدينار وأهله"،⁽²⁾ لكنه تخلى عن كل ذلك بعد رجوعه من المغرب، أين لبس الخرق المرقعة وعلق الببوش وركب الكلخ وعلق القرون المرقعة وابتدع أمورا خارجة عن الدين،⁽³⁾ لذلك قال عنه شاعر فصيح من البرجية:

لا من جاب أخبار الخير كداروا للدرقاوى انهار النطحا
داير ملببوش ازيرير وايحمش فوق العكار باني الطرحا،⁽⁴⁾
وقد أرسل بعضهم إلى علماء المغرب يستفتيهم في أمر درقاة وما يقومون به في شكل شعر جاء فيه:

يا أهل تطوان فما الحكم عندكم في أصحاب درقاوة إلى الجمل ينسب
بنص يزيل المشكلات بأسرها يتبع مطلقاً أم الترك أصوب
ومن أين ذاك الأخذ بالسند الجلب كما قرروا للشاذلي الجاه والنسب
ما أحدثوا من جلد ذيب ونحوه في لبسهم والحبل والعود يركب
وكان الجواب من علماء المغرب كالاتي:

عليك السلام يا سائلي فخذ نقولا من المعيار بالسوط يضرب
وابن هلال شدّد جدا محرراً ومن يتبع ذا الأمر إبليس يصحب
ومن يعتقد الرقص والشطح باليد عبادة ربه فزنديق يحسب
وقد خالفوا الرسول محمد ومن خالف سن النبي يعذب
إمامتهم مع الشهادة باطلة لبدعتهم حقا وصدقا مركب⁽⁵⁾

(1) - محمد بوزيان الغريسي، المصدر السابق، ص 82. - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 55.

- الغالي الغربي، الثورات الشعبية، ص 172. - الغالي، الحياة السياسية...، ص 170.

(2) - محمد بوزيان الغريسي، نفسه، ص 87.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 302.

(4) - الزيان، دليل الحيران، ص 209.

(5) - المزاري، المصدر السابق، ص 303.

وبدأ يجول البلاد يبيث تعاليمه التي وجدت صدى كبيرا في أوساط السكان، وخاصة سكان الصحراء الذين كانوا يقدمون له الهدايا والعطايا،⁽¹⁾ وفي هذا الشأن يقول "مسلم بن عبد القادر": "... وصارت كلها شيعته تهدى إليه الهدايا وتعطي العطايا..."⁽²⁾ والتي كانت تشكو له الظلم الذي أصابها من جراء الضرائب، والمغارم المفروضة عليها، وهو يمنيها بالفرج القريب، كما كان هو بدوره ينقل إلى شيخه ما كان يلقاه أتباعه من إهانة وجور وتعسف العثمانيين وقد نقل لنا "الزياني" هذا بقوله "يا سيدي إن بوطننا قوما يقال لهم الترك... يظلمون الناس، ولا يعبتون بالعلماء والأولياء، نسأل منكم أن يكون هلاكهم على يدك ليستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد فقال له شيخه: "عليك بجهادهم وقتالهم وإن الله ينصرك عليهم..."⁽³⁾ وفي رواية أخرى "للمزاري" ومسلم بن عبد القادر كان يقول له شيخه: "أنصرهم والله ينصرك عليهم"⁽⁴⁾ وكان ذلك عهد الباي مصطفى الذي تميز بنهب أموال الناس، وكرهه للمشايخ مما كان سببا في الثورة عليه،⁽⁵⁾ وكان جبانا، قليل المبادرة رغم ذكائه، مما جعله عاجزا في نظر الجند،⁽⁶⁾ وهو الذي قال فيه أحد الأولياء:

سيأتي الحاج مصطفى العصي هو فوق الكرسي والناس تعصي".⁽⁷⁾

❖ **الإعداد للثورة:** استغرقت مرحلة الإعداد للثورة، وجمع أكبر عدد من الأنصار مدة خمس سنوات (1800-1805م)، ولما أتم استعداد صائف هذا انهزام إحدى المحلات العثمانية أمام قبائل الأنجاد المتمردة ضدهم سنة 1802م، وكانت هذه هي المرة الأولى التي هزم فيها المخزن منذ وقت بعيد، حيث استولى المتمردون على كل ما كان في معسكره من أمتعة والعديد من الجياد، وقد كشفت

(1) - الزياني، دليل الحيران، ص208. - المزاري، المصدر السابق، ص302.

- مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص72.

(2) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص72.

(3) - الزياني، دليل الحيران، ص208.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص303. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص72.

-Delpech (A.), résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran de 1800-1813" in **RA** N°18,1874, p41.

(5) - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص168.

(6) - Delpech, résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua, p41.

(7) - الزياني، دليل الحيران، ص208.

هذه الهزيمة من جديد على ضعف الباي،⁽¹⁾ وفي سنة 1805م قام الباي بقتل بعض من درقاوة وأمر بالقبض على شيخهم عبد القادر بن الشريف، الذي فر إلى الجنوب ونزل بوطن الأحرار، الذين أثارهم مقتل إخوانهم ونفي شيخهم ابن الشريف،⁽²⁾ الذي اعتبر خليفة ابن الأحرش على الإقليم الغربي في الثورة على العثمانيين.⁽³⁾

استغل ابن الشريف هذا الوضع وأخذ يجمع القبائل واستباح دماء العثمانيين وأموالهم، فاجتمعت عليه الناس من كل جانب، ويعلن الثورة ضد البايلك، فتوجه برجاله نحو البطحاء قرب واد مينا^(*) حيث كان معسكره، وهنا وقعت مواجهات بينه وبين رجال الباي مصطفى المنزالي وسميت هذه الواقعة "بواقعة فرطاسة".^{(**)(4)}

❖ **معركة فرطاسة سنة 1220هـ/1805م:** كانت هذه الواقعة بداية للثورة الدرقاوية بالغرب الجزائري بحيث لما وصل ابن الشريف إلى واد مينا أذن لأتباعه نهب أموال وممتلكات محلة الباي، والقبائل المؤيدة لها ولما بلغ الخبر الباي، جمع عسكره وعاد طالبا إياه فالتقيا "بفرطاسة" عام 1805م، حيث اشتد القتال بينهما وهزم الداوي وفرق جيشه الذي طارده الدرقاوي حتى أسوار معسكر،⁽⁵⁾ وقد جسد لنا الشعر الشعبي هذه الواقعة بالأبيات التالية:

فرطاسة يومها ترى الجنود به	ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا
فالباي جاء بجيش لانفاذ له	به يريد لقاء العدو غير باغينا
فلم يحقق له مسعى ولا أمل	بل باء ضده صفر الكف باكيينا.

(1)- Mercier, histoire de l'Afrique, T03, p462. - Boyer, Contribution ..., p 42.

- Delpech, résumé historique sur Le soulèvement, p 41.

(2)- أبو القاسم الزياتي، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، المطبعة الجمهورية، باريس، 1886، ص 100.
-الناصرى السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 109.

(3)- De Neveu, Op. Cit, p132. - Esterhazy, de la domination turque, p202.

(*)- هو واد يمر عبر مدينة غليزان ويصب في نهر الشلف.

(**)- هو مكان بين واد مينة وواد العبد جنوب مدينة غليزان.

(4)- المزاري، المصدر السابق، ص 304. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 72، 73.

Delpech, résumé historique sur le soulèvement, pp41, 42.

(5)- مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 73. - الزياتي، دليل الحيران، ص 210.

- المزاري، نفسه، ص 304.

فاليوم ابن الشريف عز فيه على باي لأعاجم لولا الدين لا دينا⁽¹⁾
 كما سجل هذه الواقعة الشاعر الشعبي بوعلام الطيب السحراوي بقوله:
 كي قصة الجواد مع الأتراك لنوبة يوم أن فزعهم ابن الشريف أوجاوا
 ذوك أترك الكرسي دهرفاتوا رهبة قالوا الأجواد على حرمانا نركاوا
 إنهمزوا الأتراك أوسلموا في الضربة أهل العدة البيضاء كمل اتعروا
 والخيّل تصادي هذا يرد لذاك نحو الجزائر رسلوا برية مطبوعة
 خط الخوجة خط حديث كان أو صار الباشا مبهوت صادفته خلعة.⁽²⁾
 كما نجد أحدهم يقول:

فيوم فرطاسة يوم كبير ذلّ فيه العزيز وعز الحقيّر
 لقد هيا مصطفى جيشا كبيرا تركا ومخزنا الملك الجدير
 فلم تك ساعة إلا انهزموا من جيش قليل هياه الفقير.⁽³⁾
 أما مسلم بن عبد القادر فقد وصف هذه المعركة وما نتج عنها بقوله: "فأمسى
 الباي ومخزنه في نكد وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد...".⁽⁴⁾
 كما لخص لنا الشاعر الشيخ بوعلام بن الطيب السحراوي الخسائر البشرية التي
 خلفتها المعركة في صفوف العثمانيين.

دار الذيب العولة من لحم الأتراك لمعسكر رَوْح ذاك الشريف الحسني⁽⁵⁾
 وعلى إثر هذه الهزيمة فر الباي مصطفى إلى معسكر ثم إلى وهران وأمر بغلق
 أبواب المدينة خلفه،⁽⁶⁾ وقد ترتب عن هذا الانتصار انضمام القبائل المترددة، كما تمكن
 ابن الشريف من الدخول إلى معسكر دون أية مقاومة، حيث جعل منها مقرا له ولعائلته،
 بعدها كاتب القبائل لتعلن الجهاد ضد العثمانيين والمواليين لهم، وطلب منهم مبايعته.⁽⁷⁾

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 40. - المزارى، المصدر السابق، ص 304. - الزيانى، دليل الحيران، ص 211.

(2) - الزيانى، نفسه، ص 211. - المزارى، المصدر السابق، ص 304.

(3) - المزارى، نفسه، ص 305.

(4) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 73.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 41.

(6) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 73. Esterhazy, Op. Cit, p202.

- Delpech, résumé historique sur le soulèvement ..., p43.

(7) - Mercier, histoire de l'Afrique T03 p463. - Merad Boudia, Op. Cit, p348.

وقد جاء في "دليل الحيران..." ما نصه "قد نزعنا عنكم ظلم الترك والذل.... والمغارم والمكوس فالواجب عليكم مبايعتنا فوافقه جم غفير، وخلق كثير"،⁽¹⁾ أما "مسلم بن عبد القادر" أشار إلى أن ابن الشريف لما انتصر على الباي كاتب القبائل يهنئها ويزف لها بشائر النصر طالبا منها مبايعته مخاطبا إياهم بقوله: "إنا نرغب عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية التي هي حرام على المسلك، وقطعنا دابر الترك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا"⁽²⁾ وقد كان لهذا النداء صدى كبير لدى القبائل حيث انضمت إليه عدة قبائل، منها حتى قبائل المخزن نفسها مثل قبيلة الحشم، الزمالة، الغرابة الدواير....⁽³⁾

وقد امتد لهيب هذه الثورة من مليانة إلى غاية تلمسان، وهنا بدأت الحاميات العثمانية في الانسحاب نحو المناطق الساحلية حيث انقطعت كل الطرق ماعدا الطريق البحري الذي كان المنفذ الوحيد لوصول الإمدادات إلى وهران.⁽⁴⁾ فلهيب هذه الثورة حسب بعض المؤرخين امتد حتى وجدة.⁽⁵⁾

بعد هذه الهزيمة وعند وصول الأخبار إلى الباشا، أرسل جيشا بقيادة مستشاره "علي آغا" من أجل فك الحصار على وهران، لكن اعترضت طريقه قبائل نواحي وادي الشلف، ولم تتركه إلا بعد ما دفع لها المال، بعد تدخل شيخ العطاف، ليعود الجيش إلى مدينة الجزائر،⁽⁶⁾ دون أن يتم مهمته.

بعدها سار ابن الشريف نحو وهران، لكنه كان في طريقه نحوها ينهب ويخرب كل ما يجده في طريق، ولما وصل إلى سيق بالغرابة، نكل بأهلها فقتل وسبى وأسر، حتى سميت المنطقة "بشعبة النواح" لكثرة بكاء أهلها لما حل بهم.⁽⁷⁾

حل ابن الشريف بوهران وقت الحصاد، فسارعت القبائل لمبايعته حتى القبائل المخزنية، خشية على إفساد محاصيلهم، لكن لقوا منه عكس ما أملوا، حيث سلط عليهم

(1) - الزباني، دليل الحيران، ص 209. - المزاري، المصدر السابق، ص 306.

(2) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 73.

(3) - Mercier, histoire de l'Afrique T03 p463. - Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p44.

-Caporal (B), Oran capitale du Beylik de l'ouest 1792-1831, pp50, 51.

(4) - الغالي، الثورات الشعبية، ص 175. - الغالي، الحياة السياسية، ص 172. - Boyer, Contribution, p43

-Delpech, résumé historique sur le soulèvement ..., p43.

(5) - Esterhazy, Op. Cit, p203. - Mercier, histoire de l'Afrique T03 p464

(6) - الزهار، المصدر السابق، ص 84. - الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 115.

(7) - الزباني، دليل الحيران، ص 209، 210. - المزاري، المصدر السابق، ص 306، 307.

جنوده، خاصة على من كان منتسبا للمخزن، فأخذ أموالهم وسبا أولادهم،⁽¹⁾ وبعدها نزل ضواحي وهران طمعا في أخذ ذخائرها وتزوج أكابر نساءها، لكن أهلها دافعوا عنها، وألحقوا الهزيمة بابن الشريف رغم قتلهم وكثرة جنود الدرقاوي، لكن في هذه الفترة قطعت كل السبل التواصل البرية بين الجزائر ووهران، لذلك قام الداوي بعزل الباوي مصطفى وتولية الباوي محمد المقلش، سنة 1805م.⁽²⁾

❖ **دور المغرب:** يشير بعض المؤرخين إلى أن الشيخ العربي الدرقاوي لم يكن راضيا عما قام به ابن الشريف، بحيث لما وصلت إلى مسامع العربي الدرقاوي ما يفعله تلميذه استنكر الأمر، وطلب منه العدول عن أمره، لكنه لم يستجب له، فاضطر الشيخ للتنقل شخصيا للجزائر محاولا إقناع ابن الشريف أن يعود إلى مبادئ الطريقة، لكن هذا الأخير كان مقتنعا بضرورة مواصلة الثورة، لذلك حمل شيخه حفنة تراب ورماه في الهواء صارخا: "هكذا سيكون مستقبلك يا ابن الشريف،"⁽³⁾ ونزع منه الحجاب الذي كان قد قدمه له لما أمره بالثورة، وتبرأ منه وغادر وهو يقول له: "هذا فراق بيني وبينك يا ابن الشريف".⁽⁴⁾ وهذا الأمر يؤكد "أبو القاسم الزياني" الذي عمل سفيراً للسلطان المغربي، يشير إلى أن الشيخ لما أرسله السلطان لتهدئة درقاوة، ولما رأى ما يقوم به ابن الشريف أخبره ببطلان ما أمره به سابقا.⁽⁵⁾

لكن لو سلمنا بهذا الأمر، وأن شيخ الدرقاوية لم يكن راضيا، على أعمال مقدمه، فكيف نفسر ما ذكرته بعض المصادر، خاصة المغربية على أن ابن الشريف لما دخل تلمسان أرسل كتاب البيعة، والهدايا مع وفد يرافقه الشيخ العربي الدرقاوي؟⁽⁶⁾

في حين هناك من يذكر أنه، وبعد عجز العثمانيين عن القضاء على الثورة راسلوا السلطان المغربي مولاي سليمان للتدخل وإرسال الشيخ العربي الدرقاوي لتهدئة

(1) - الزياني، نفسه، ص 210. - المزاري، نفسه، ص 307.

(2) - المزاري، نفسه، ص 307. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 75.

(3) - عباد، المرجع السابق، ص 204. Rinn, Marabouts et khouans, pp234, 235.

(4) - Delpech, résumé historique sur le soulèvement ..., p45.

(5) - أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب...، ص 101.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 290. Delpech, résumé historique sur le soulèvement ..., p45.

(6) - الزياني، الترجمان المغرب...، ص 101. - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 110، 111.

الأوضاع،⁽¹⁾ فقام السلطان المغربي بإرسال الشيخ العربي الدرقاوي مع الحاج الطاهر بادو، ولما وصل لابن الشريف الذي شكاه له ما حل بأتباعه وبالرعية من جور وظلم العثمانيين، وربما صدر من الشيخ كلام استنكر فيه فعل العثمانيين، فازدادت العرب تمردا على السلطة العثمانية بالجزائر، وبعد هذه الزيارة وحسب ما أورده صاحب الإستقصا... "....ازدادت العرب بذاك تظاهرا على الترك وتكالبا...".⁽²⁾ في حين "عبد الكريم الفيلاي" يشير إلى أن العربي الدرقاوي لما وصل إلى محلة ابن الشريف غير موقفه وقال للناس أن أيام الترك أدبرت، وأملاكهم وأموالهم ستصبح لهم، ولن يقوم لهم سلطان بعد ذلك، وهو ما أثار الناس ودفعهم للمحاربة العثمانيين أكثر،⁽³⁾ لهذا لما علم الباي بما حدث اتهم السلطان المغربي بتحالفه مع ابن الشريف وهو الأمر الذي ينفيه المغاربة.

لكن وبالنظر إلى ما ذكره "الناصرى السلاوي" فإنه لما فتح سكان تلمسان باب المدينة إلى ابن الشريف وطائفته، أخذ البيعة بها للسلطان وخطب له على منابرهما، ووجه وفدا وهدية إلى السلطان مع شيخه أبي عبد الله.⁽⁴⁾ بعدما استولى عليها الشريف، إثر انسحاب الحامية التركية من تلمسان وانحصار الكراغلة في قلعة المدينة، مما جعلها مدينة شبه مستقلة،⁽⁵⁾ يبدو أن السلطان المغربي مولاي سليمان كان راضيا ولم يعترض على مبايعة سكان تلمسان له بالاتفاق مع ابن الشريف بعد خلع الطاعة من سلطة البايلك ومبايعة السلطان المولى سليمان.

واعتماد على الرسائل التي دارت بين السلطان المغربي وشيخ الطريقة الدرقاوية، فالسلطان كان على استعداد للتدخل عسكريا في الجهة الغربية للجزائر، سعيا منه لتحقيق أغراضه التقليدية الراضية للسيادة العثمانية، منها الرسالة التي بعثها السلطان مولاي سليمان إلى الشيخ الدرقاوي والتي جاء فيها: "...وقررت إرجاء المسألة التي تعرفها وقررت أن لا أباشر فيها إلا بعد فصل الشتاء لأن الطرق... صعبة والأودية مرتفعة

(1) - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 110. - الزباني، الترجمان المغرب...، ص 101.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 290. Delpech, résumé historique sur le soulèvement ..., p45.

(2) - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 110.

(3) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 18. / ج 7، ص 46

(4) - الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 110.

(5) - الغالي، الثورات الشعبية، ص 176. - الغالي، الحياة السياسية، ص 172.

المستوى... وفي الربيع القادم سوف آتي أنا بنفسى مرفقا بعساكري الظافرة لمتابعة مشاريعي... وعليك بإخبار سيدي عبد القادر... بالالتحاق بي حينما يسمع بوصولي إلى مدينة وجدة".⁽¹⁾

وقد رد عليه السلطان المغربي برسالة جاء فيها: "...وصلتني رسالتك واسأل الله أن يجازيك على أفعالك الحسنة اتجاه المسلمين الذين لا نرجو لهم إلا السلام والطمأنينة... وعندما تأتي لزيارتي سأطلب رأيك فيما يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي أنت فيها".⁽²⁾

وبالرغم من رفض المغاربة لفكرة دعم المغرب للثورة الدرقاوية، إلا أننا لو تتبعنا سير الأحداث منذ وصول العثمانيين إلى السواحل الغربية للبحر المتوسط، ثم استقرارهم في الجزائر، نلاحظ رفض المغاربة للعثمانيين منذ بداية تواجدهم على شمال إفريقيا، ورفضوا سيادتهم للعالم الإسلامي عامة، وحاولوا ضم الجزائر وتونس تحت رايتهم وهذا ما أشار إليه "التمغروطي" بقوله عن العثمانيين: "إنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب، الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة...".⁽³⁾

فقناعة المغاربة بشرعيتهم في الحكم في منطقة المغرب بدلا عن العثمانيين استنادا إلى نسبهم العلوي الشريف، جعلهم يستغلون المساندة الشعبية لهم بالجزائر، لذلك اعتمدوا على الطرق الصوفية التي كانت تنتشط بالجزائر، والتي كانت على اتصال بالطرق الأم بالمغرب، التي كانت تنشر سياسة سلاطين المغرب الرامية إلى استمالة العائلات الكبرى بالجزائر، والقائمة على منحهم شهادات الحصانة كضمان لهم عندما يصبحوا حكاما للجزائر،⁽⁴⁾ وربما يكون هذا ردا على محاولة العثمانيين بسط نفوذهم على المغرب ومدهم يد المساعدة للتأثرين على حكامه.⁽⁵⁾ لذلك فالسلطان المغربي مولاي سليمان، قدم كل الدعم للدرقاوية، لأنه كان يرى فيها سدا منيعا ضد العثمانيين بالجزائر، الذين بدؤوا

(1) - الغالي، الثورات الشعبية، ص176. هامش.

(2) - الغالي، الثورات الشعبية...، ص177.

(3) - التملغروطي، المصدر السابق، ص94، 95.

(4) - Cour (A.), L'Etablissement des Dynasties ..., p248.

(5) - Ibid, p244.

يقاومونهم بهدف إضعافهم،⁽¹⁾ وربما يرجع هذا إلى كون فان مولاي سليمان كان درقاوي الطريقة قبل توليه العرش، حسبما ذكره "دونوفو".⁽²⁾

وبالرغم من أن السلطان مولاي سليمان كان متورطا في هذه الثورة إلا أن المغاربة ينفون هذا، ويرون أن كل ما قام به هو المصالحة بينهم وبين السلطة العثمانية ويعمله هذا يكون قد سلك في حق الأهالي وفي حق السلطة مسلكا هو أرفق بالجميع "على حد تعبير صاحب الإستقصا"،⁽³⁾ ويبررون ذلك أن مولاي سليمان لما قدم إليه الوفد الذي يحمل بيعة سكان تلمسان، رفض بيعتهم وطلب منهم الرجوع إلى بلادهم وسيتوسط لهم لدى الباي ليعفو عنهم،⁽⁴⁾ بعدما وضح له الحاج بادو أن كل ما وقع كان بسبب الشيخ العربي الدرقاوي،⁽⁵⁾ وحسب صاحب "الإستقصا" فإن السلطان المغربي وحتى يبدد شكوك حكام الجزائر بتعامله مع ابن الشريف راسل الباي وبعث قائده "أبي السرور عياد" إلى تلمسان لتهدئة الأوضاع بعد، ولما دخلها فر ابن الشريف منها وعقد "أبي السرور" الصلح بين الباي وأهل تلمسان،⁽⁶⁾ وقد أورد "عبد الكريم الفيلاي" رسالة أرشيفية تلخص ما جرى من أحداث بين العثمانيين وابن الشريف وتدخل مولاي سليمان للصلح بينهما، تتوافق مع رواية المغاربة.⁽⁷⁾

لكن يبدو أن السلطان المغربي لما أحس بتحول ميزان القوى لصالح العثمانيين، بعد فشل لوهران حصار ابن الشريف لوهران، والذي دام 08 أشهر، نتيجة حصانة المدينة وعدم تجاوب سكانها مع الدرقاوي، بسبب ما كان يرتكبه حنوده من تخريب، لذلك أنكر مولاي سليمان مبعوثه الذي بعثه إلى الثوار وسارع إلى إرسال رسول آخر إلى تلمسان لإعادة الأوضاع، إلى سابق عهدها كما شجب تصرفات الشيخ العربي الدرقاوي

(1) - مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 231. - مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 54.
(2) - De Neveu, Op. Cit, p119.

(3) - السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 111.

(4) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 19. / ج 7، ص 46.

(5) - الزيان، الترجمان المعرب، ص 101.

(6) - الزيان، نفسه، ص 101. - السلاوي، المصدر السابق، ج 8، ص 111.

(7) - عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 5، ص 31، 32. ينظر الملاحق.

ومقدمه ابن الشريف.⁽¹⁾ وبهذا تملص السلطان المغربي من اتهام الباي بدعمه لابن الشريف الدرقاوي.

❖ **القضاء على الثورة:** يرجع التحول في الأحداث لصالح العثمانيين بعد تعيين الباي محمد المقلش سنة 1805م الذي وجد مدينة وهران تحت الحصار الذي فرضه عليها ابن الشريف وازدياد شدة الثورة بعد زيارة شيخ الدرقاوية لابن الشريف، وبعدما اطلع على ما حل بأتباعه شجعهم على مقاتلة العثمانيين، لكن الباي محمد المقلش استطاع قلب الموازين لصالحه، وكان أول عمل قام به هو رفع الحصار على مدينة وهران، وإعادة الحياة لها بعدما عاش سكانها أوضاع صعبة، بعدها شرع في إخضاع البايك ومطاردة الدرقاويين.⁽²⁾

طلب الباشا من محمد المقلش نهاية 1805م التوجه لمطاردة الدرقاوي فزوده بجيش قوامه 18 ألف جندي،⁽³⁾ لكن هناك من يذكر أنه زوده بـ50 خيمة (1150 جندي)،⁽⁴⁾ ليكون ذهابه برا فقال له: "أن ما بين الجزائر وهران لا يسلكه حتى الذبان، فكيف تأمرني بالذهاب معه "فأرسله الداوي مصطفى بحرا،⁽⁵⁾ في حين أن "الزهار" يشير إلى أن الباي سار إلى وهران برا لكن لما وجد كل السبل مقطوعة رجع إلى شرشال وركب البحر ولما وصل وجد كل أبواب المدينة مغلقة، فكاتب شيوخ العرب وأخبرهم بقدومه، وأجزل لهم العطاء والمال ثم نادى في الناس أن كل من يأتيه برأس درقاوي يأخذ 10 سلطاني،⁽⁶⁾ كما عمد في سياسته للقضاء على ابن الشريف إلى الدهاء السياسي واستعمال كل الوسائل القمعية ضد الدرقاويين، ومصاهرة القبائل الأكثر اتصالا بهذه الثورة،⁽⁷⁾ كقبيلة الحشم وكان هذا بإشارة من العلامة الأخضري المهاجي على الباي حتى يتمكن من القضاء على الثورة الدرقاوية.⁽⁸⁾ حيث تصاهر مع الشيخ قدور بن الصحراري،

(1) - الغالي، الثورات الشعبية، ص 177.

(2) - De Grammont, Op. Cit, p365.

(3) - Mercier, histoire de l'Afrique, T03, p464.

(4) - Esterhazy, de la domination turque, p204

(5) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 291.

(6) - الزهار، المصدر السابق، ص 87.

(7) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 291.

(8) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 46.

رئيس قبيلة الحشم،⁽¹⁾ التي تعد من أكبر القبائل المعادية للعثمانيين، ويرجع تحالف تصاهر زعيم الحشم مع الباي هذا إلى تخوفها من القاعدة الشعبية الواسعة المناصرة للدقاوية، خاصة إذا عرفنا أن الحشم موالية للطريقة القادرية التي كانت ترفض كل منافسة لها من الطرق الأخرى.⁽²⁾

بعد هزيمة ابن الشريف بوهران، رأى أحد أتباعه وهو قائد مخزن الغرابة أبا القاسم بن ونان رجل ابن الشريف ترتعد في الركاب ارتعاداً شديداً ارتعد معه كامل جسمه، ولما سألته عن السبب أجابه قائلاً: "لقد ذهب جميع ما كان عندي من السر الذي جئت "فرد عليه أن شيخه عما قريب سيكون عنده ويكون له النصر بعد ذلك فأجاب ابن الشريف: "أن الشيء إذا ما ذهب ليس له رجوع"، ولما سمع درقاوة بهذا أيقنوا أن مصيرهم الفشل والخذلان، لذلك لما انسحب ابن الشريف من حصار وهران، وتوجه نحو سيق قرب سيدي داوود تعرضت له الغرابة بالسب والضرب والقتل انتقاماً منه، لما فعله بهم من قتل للنساء والصبيان، ونفس الشيء لقيه بسيدي مبارك من طرف قبائل البرجية، مما اضطره للفرار نحو معسكر التي رفض أهلها ودخوله وقبضوا على أهله، ثم توجه نحو الأحرار جنوباً مسلماً بأهله وأتباعه.⁽³⁾ لكنه لم يجد الدعم الكافي من القبائل، لينتقل إلى الأغواط ويدخل في مفاوضات مع التيجانيين من أجل التحالف ضد العثمانيين، لكن التيجانيين رفضوا دعمه رغم الضغوط والمضايقة التي يتعرضون لها من طرف السلطة.⁽⁴⁾

ونتيجة للسياسة التي انتهجها الباي ألحق الهزائم بالدقاوين منها الهزيمة التي مني بها الدقاوي بعدما فر من وهران نحو معسكر التي منعه أهلها من الدخول إليها فالتجأ إلى قبائل بني عامر ومجاهر وتحالف معها. واصطدم مع جيش الباي عند قرية "سيدي بن عودة" في معركة "أولاد زائر" سنة 1807م التي راح ضحيتها عدد كبير... فكان الجندي يأتي بثلاثة رؤوس أو أربعة ويضعها بين يدي الباي كما يضع الرجال البصل...⁽⁵⁾، وقد وصل عدد الرؤوس حسب المصادر المحلية "ستمائة رأس" بعثها الباي

(1) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 291.

(2) - الغالي، الثورات الشعبية، ص 179.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 310، 311.

(4) - الغالي، المصدر السابق، ص 180.

(5) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 85. - المزاري، المصدر السابق، ص 315.

إلى الداوي،⁽¹⁾ لكن هناك من يذكر أنه قطع 1000 رأس من أتباع الدرقاوي وبعثها للجزائر، وأجبر بنات ونساء القبائل على البغاء في قصره،⁽²⁾ كما هجر عائلة الدرقاوي وأهله نحو مدينة الجزائر،⁽³⁾ كما نجده قطع 90 رأس من مجاهر المساندة للدرقاوي.⁽⁴⁾ وأما معركة جديوية قرب واد رهيو التي أفنت فيها محلة الباي درقاوة، ومعركة "عين السدرة" بغريس وهي التي شاركه فيها ابن الأحرش حيث هزم فيها الدرقاويين بعد الإمدادات التي وصلت للجيش العثماني،⁽⁵⁾ وكان عدد القتلى حوالي 1000 شخص،⁽⁶⁾ و"يوم التوتة" الذي جرح فيه الباي المقلش،⁽⁷⁾ كما هزموا هزيمة كبرى في معركة تافنة المعروفة "بيوم بن الأحرش" والتي ذهب ضحيتها العديد من الطلبة.⁽⁸⁾ وبالرغم من الضعف الذي أصبحت تتميز به هذه الثورة منذ وصول الباي المقلش للحكم، إلا أنها استمرت إلى عهد الباي مصطفى العجمي الذي تولى للمرة الثانية، حيث حاول الدرقاوي التحالف مع قبيلة الأحرار في الجنوب الوهراني وإثارتها ضد السلطة، بعدها رحل إلى "فقيق" بالصحراء، حيث رفضت التجانية استقباله لأسباب مجهولة،⁽⁹⁾ وفي عهد الباي "بوكابوس" وبعد عدة محاولات فاشلة انسحب الدرقاوي إلى "بني سناسن"، وهناك تخلى على ما كان يدعو إليه،⁽¹⁰⁾ حيث التحق بصهره "أبو ترفاس"،⁽¹¹⁾ أما أهله فقد استجاروا بجد الأمير، عبد القادر فعفى عنهم الباي.⁽¹²⁾ بعدها ثار صهره أبو ترفاس

(1) - مسلم بن عبد القادر، نفسه، ص 91.

(2) - Fey, Op. Cit, pp296 et 299.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 312.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص 314. -Mercier, histoire de l'Afrique T03 p465. -Fey, Op. Cit, p296. -Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p48.

(5) - مسلم بن عبد القادر، نفسه، ص 96. - الزباني، دليل الحيران، ص 223. - المزاري، نفسه، ص 322، 323.

(6) - Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p55.

(7) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 96. - الزباني، دليل الحيران، ص 223.

- المزاري، المصدر السابق، ص 322، 323.

(8) - مسلم بن عبد القادر، نفسه، ص 96. - المزاري، نفسه، ص 324. - Boyer, Contribution ..., p43.

(9) - Ibid, p43.

(10) - الزباني، المصدر السابق، ص 227. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 98.

(11) - Esterhaz, Op. Cit, p208. - De Neveu, Op. Cit, p133.

(12) - الجزائري محمد عبد القادر، المصدر السابق، ص 115.

سنة 1813م ضد الباي بوكابوس بجبل تزاره،⁽¹⁾ ناحية ندرومة بتلمسان، لكنه لم تستمر ثورته مدة حتى فر إلى المغرب، بعد أن قضى عليها الباي.⁽²⁾

❖ وفاة ابن الشريف الدرقاوي: يبقى تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف محل

خلاف بين المصادر سواء المحلية أو الأجنبية، فالزياني ومسلم بن عبد القادر يتفقان مع ما ذهب إليه "إسترهازي" (Esterhazy) و"دونوفو" (De Neveu) أن نهايته كانت بمزيردة بالمغرب جراء الوفاء،⁽³⁾ أما "دو غرامو" (De Grammont) فيرى أن نهايته كانت عند محاولته استعادة معسكر للمرة الثانية سنة 1809م عهد الباي محمد المقلش مع عدد كبير من أتباعه.⁽⁴⁾

إلا أن هناك بعض المصادر التي تذكر أن الدرقاوي ظهر سنة 1816م وأثار القبائل الصحراوية كقبائل الأحرار لكنه انهزم وانسحب نهائيا إلى فقيق.⁽⁵⁾

إن هذه الثورة وعلى الرغم من أنها لم تحقق هي الأخرى هدفها الرئيسي الرامي إلى الإطاحة بالنظام العثماني بالجزائر، إلا أنها ساهمت في إضعافه، حيث مهدت الطريق لسقوط الجزائر في يد الفرنسيين بعد سنوات قليلة.

فهذه الثورات أثرت حتى على الحكام، مثل الباي محمد بوكابوس (1808-1813م) الذي ورغم أنه اضطهد الدرقاوية، إلا أن هناك من يقول أنه انظم للطريقة الدرقاوية بطريقة سرية، وتحالف مع السلطان المغربي، وإسبانيا حيث طلب منهم تزويده بالذخيرة والبارود، وواعدا إياهم بامتيازات اقتصادية حال تحقق مشروعه لكنه فشل،⁽⁶⁾ فلما كان في حملة على تونس، قرر التمرد عن باشا الجزائر وإعطاء، البيعة للسلطان المغربي، وأخذ يقتل العثمانيين الذين كانوا في محلته، ولما علم الذي انتمى إليها وتحالف مع سلطان المغرب مولاي سليمان الذي ألبه ضد السلطة المركزية، لكنه هو الآخر فشل في ثورته وانتقم منه الحكام أبشع الانتقام حيث أمر الداوي، الباي الجديد قارة بغلي

(1) - Esterhazy, Op. Cit, p210. - Mercier, histoire de l'Afrique, T03 p477.
-Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p58.

(2) - الغالي، الثورات الشعبية، ص181.

(3) - Esterhazy, Op. Cit, p208. - De Neveu, Op. Cit, p133. - Fey, Op. Cit, p298.

-Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p55.

(4) - De Grammont, Op. Cit, p365.

(5) - Boyer, Contribution, p43.

- الغالي، الثورات الشعبية، ص 171، 172. - م.ث هوشما وآخرون، المرجع السابق، ج9، ص4885.

(6) - مولاي بلحميس، الثورة على الأتراك، ص 46.

(1813-1817م)، الذي أمر بدوره الآغا عمر بقتل الباي بسلخ رأسه حيا وحشوه بالقطن وإرساله إلى مدينة الجزائر.⁽¹⁾ ليعلق ليكون عبرة لغيره، كما قتل كل أبناءه وهم صغار وهذا كان سنة 1225هـ/1812م.⁽²⁾

ومن نتائج هذه الثورة كذلك أن ذهب ضحيتها العديد من رجال الدين سواء الذين استشهدوا في المعارك كالكاتب أحمد ابن هطال التلمساني والعلامة الأديب أبو عبد الله السيد محمد الغزلاوي.⁽³⁾

ومنهم من لقي حتفه نتيجة الإجراءات القمعية التي اتخذتها السلطة ضد أتباع الدرقاوي كما رأينا سابقا، هذا دون أن ننسى الخسائر الاقتصادية الأخرى التي حدثت جراء النهب والسلب الذي سلكه سواء أتباع الدرقاوي أو رجال المحلة.

وفي الأخير وبالرغم من أن هذه الثورة سواء بالشرق أو الغرب ورغم أنها رفعت شعارات دينية إلا أنها كانت منفذا للرعية للتعبير عن سخطها على الأوضاع الاقتصادية التي تعيشها جراء المغارم والضرائب التعسفية التي عانت منها، والتي أثرت سلبا على نموها الاقتصادي وتوازنها الاجتماعي.

كما أنه وبالرغم من أن قوى خارجية لعبت دورا كبيرا فيها، إلا أن هذا لا يمنع من وجود استعداد لدى الرعية للثورة ضد السلطة، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع لهذه الثورة والتفاف الناس حولها بسرعة.

1-1-2- الثورة التيجانية بالجنوب الصحراوي:

أ- حياة الشيخ أحمد التيجاني ومسيرته الدينية:

تنسب الطريقة التيجانية إلى مؤسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني المولود بعين ماضي سنة 1150هـ/1737م، وهو من الأشراف

(1) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 103، 104.

-Boyer, Ibid, p43

- Delpech, résumé historique sur le soulèvement..., p58.

(2) - نفسه، ص 28.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 304. - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 75.

يعود نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنه وفا طمة الزهراء بنت الرسول (ص)،⁽¹⁾ لقب بالتيجاني نسبة إلى قبيلة بني توجين التي استقرت قديما بعين ماضي.⁽²⁾

بدأ دراسته الأولى بمسقط رأسه على يد والده والشيخ محمد بن حمو التيجاني (ت. 1749م)،⁽³⁾ والشيخ سيدي مبروك بن بوعافية الضاوي، وقد حفظ القرآن وهو ابن 07 سنوات،⁽⁴⁾ زوجه والده وهو صغير السن ليطلقها بعد مدة، لأنه رأى أنها شغلته عن العلم والاجتهاد، ولما كبر اشترى أمتين وعتقهما، ثم تزوج بهما الأولى تدعى مبروكة وهي والدة محمد الكبير والثانية تدعى مباركة وهي والدة محمد الحبيب.⁽⁵⁾

ولما توفي والده عام 1752م خلفه في منصب التدريس لمدة 05 سنوات وعمره 16 سنة، بعدها رحل إلى مدينة فاس عام 1758م، حيث احتك بعلمائها وتعلم منهم الكثير،⁽⁶⁾ وأخذ الإجازة عنهم لتدريس مختلف العلوم،⁽⁷⁾ وبها توفي سنة 1230هـ/1815م وعمره 80 سنة، ودفن داخل الزاوية التي بناها،⁽⁸⁾ وقد مال للتصوف وعمره 21 سنة، حيث أخذ الطريقة القادرية عن أحمد بن الحسن بفاس، ثم تركها، ثم أخذ الناصرية عن الشيخ محمد بن عبد الله التزاني بمنطقة الريف، ثم تركها وأخذ الحبيبية عن الشيخ أحمد بن الحبيب السجلماسي،⁽⁹⁾ وبعد مدة انتقل من فاس إلى الجزائر سنة 1767م حيث قضى فترة في تلمسان يلقي الدروس، ليرحل بعدها سنة 1772م لتأدية فريضة الحج، وعمره 36 سنة، وعند عودته استقر بتونس أين التقى شيوخ الطريقة الحفناوية وتدارس

(1)- Siman, Op. Cit, p69 - Rinn, Marabouts et Khouans, pp421, 422.

-Arnaud (L.), "Histoire de l'ouali sidi Ahmed El-Tedjani, extrait du Kounache", in **R.A.**, N°5, 1851, p468.

-Limam (H.M.), "Tidjniya, Sanusiya and Mahdiya as studied in english Works" in **R.H.M.**, N°4, 1975, p163.

(2)- مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 175.

(3)- Arnaud, Ibid, p 468.

(4)- أبو عبد الله بن محمد بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء بفاس، تح. عبد الله

الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الرباط، المغرب، ج1، ص 197.

(5)- نفسه، ص 14، 15.

(6)- Rinn, Marabouts et Khouans, p417. - Gaid, les berbères., p136. - Arnaud, Op. Cit, p469.

(7)- Rinn, Ibid, p417. - Gaid, Ibid, p136.

(8)- الحاج أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأجباب، د.ب،

1961، ص 19، 20.

(9)- أبو عبد الله الكتاني، المصدر السابق، ص 197. - علي حراز بن العربي، جواهر المعاني وبلوغ الاماني في

فيض سيدي أبي العباس التيجاني، المطبعة المحمودية، مصر 1318هـ، ص 31.

-Rinn, Ibid, p418.

- Depont/Coppolani, Op. Cit, p416.

معهم حول تعاليمها الصوفية،⁽¹⁾ وقد مكث بالمشرق سنتين، ليعود ثانية إلى تلمسان التي لم يتمكن من الاستقرار بها لمضايقة باي وهران له، فاتجه إلى فاس،⁽²⁾ سنة 1778م وخلال تجواله في رحلة الحج تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية على يد الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الزواوي الأزهري، كما وأنه في طريق عودته من الحج اتصل ثانية بالشيخ الكردي الذي عينه مقدما للطريقة الخلوتية.⁽³⁾

بعدها عاد إلى الجزائر واتجه نحو تلمسان ثم إلى الصحراء ومنها إلى توات وقرية سيدي أبي سمغون عام 1782م، حيث اجتمع حوله الناس وبقي فيها إلى غاية عام 1786م ليرحل إلى فاس مجددا مع أبناءه ثم يبدأ بنشر طريقته.⁽⁴⁾

ب- ظهور الطريقة التيجانية:

لما استقر الشيخ التيجاني في أبي سمغون تبعد بـ 120 كلم جنوب ولاية البيض،⁽⁵⁾ حيث تذكر المصادر أن الشيخ أحمد التيجاني وقع له ما يسمى بالفتح الرباني سنة 1782م، حيث يشير "الكتاني" إلى هذا بقوله: "... ثم رجع إلى قرية بوسمغون وأقام بها واستوطن، وفيها وقع له الفتح وأذن له ثلثي الله عليه وسلم بتلقين الخلق... وعين له الورد الذي يلقيه سنة 1196هـ وعين له صلى الله عليه وسلم الاستغفار والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وهذا كان هو أصل الورد في تلك المدة إلى رأس المائة كمل له الورد صلى الله عليه وسلم بكلمة الاخلاص.."⁽⁶⁾ وحسب ما رواه الشيخ رأى الرسول (ص) يقظة لا مناما، وعين له "الورد" وأمره بتلقينه لكل للناس، ويذهب أبعد من ذلك حيث يقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره: "أن لا منة لمخلوق عليك من مشايخ الطرق فأنا واسطتك وممدك على التحقيق فاترك عنك جميع ما أخذت من جميع الطرق"،⁽⁷⁾ كما

(1)- Gaid, les berbères..., p136.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص510.

(3)- أبو عبد الله الكتاني، المصدر السابق، ص 198. - علي حراز، المصدر السابق، ص32.

- مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص46. - مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 176.

- Rinn, Marabouts et Khouans, p418. - Arnaud, Op. Cit, p469,470.

(4)- Arnaud, Op. Cit, p470.

(5)- Gaid, les berbères, p136.

(6)- علي حراز، المصدر السابق، ص 36. - علي بن محمد آل دخیل الله، مختصر التيجانية-دراسة لعقائد التيجانية

على ضوء الكتاب والسنة، ط1، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 2002، ص 08.

(7)- علي حراز، المصدر السابق، ص 36. - Andre (P.J), Op. Cit, p290. - Depont/Coppolani, Op. Cit, p417.

أخبره أنه سوف يكون وسيطه لدى الله ولدى الناس،⁽¹⁾ وبذلك أصبح الشيخ أحمد التيجاني صاحب طريقة صوفية لها مميزاتها الخاصة، فهي طريقة ليست امتدادا لأي طريقة صوفية أو مزيجا من الطرق السابقة عليها، حيث يقول: "أخذنا عن مشايخ عدة فلم يقض الله عز وجل منهم بالتحصيل المقصود وسندنا وأستاذنا في هذا الطريق هو سيد الوجود صلى الله عليه وسلم".⁽²⁾

لقد غلب على التيجانيين الكبرياء، حيث كانوا يعتبرون أنفسهم أحسن الخلق وتشتترط على من ينظم إليها أن لا يكون منخرطا في طريقة أخرى من سابقا، وإذا انخرط فيها لا يسمح له بالخروج منها وإلا يعتبر مرتدا، يستحق الطرد واللعن،⁽³⁾ وهو ما يوضحه قول أحد التيجانيين:

ما الناس سوى قوم عرفوك وغيرهمو همج همج⁽⁴⁾

ويعتقد الكثير من التيجانيين أن "صلاة الفاتح لما أغلق" أفضل من القرآن الكريم ونصها "اللهم صل على سيدنا محمد لما أغلق، والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراط المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم"،⁽⁵⁾ وهذا تبعا لما جاء في "جواهر المعاني" على لسان التيجاني أن الرسول (ص) أمره بالرجوع إلى صلاة الفاتح لما أغلق،.. فلما أمرني بالرجوع إليها سألته (ص) عن فضلها، فأخبرني أن الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيا أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح. وقع في الكون، ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير وصغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار...".⁽⁶⁾

رغم أنها لم تكن لها مريدين كثير، الذين يسمون "بالأحباب"،⁽⁷⁾ مثل الطريقة الرحمانية، إلا أنها انتشرت على نطاق واسع وصل حتى البلدان الإفريقية، وما يبرز قلة زواياها ومريديها، الإحصاء الذي أورده "رين" (Rinn) سنة 1882م بلغ عدد زواياها 17

(1)- Rinn, Marabouts et Khouans, p419

(2) - أبو عبد الله الكتاني، المصدر السابق، ص 199. -Andre(P.J), Op. Cit, p290

(3)- Rinn, Marabouts et Khouans, p419.

-مختار الطاهر الفيلاي، المرجع السابق، ص 51. - التليي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار، ص 64.

(4) - نفسه، ص 51.

(5) - علي آل دخيل الله، المرجع السابق، ص 36.

(6) - علي آل دخيل الله، المرجع السابق، ص 36. للمزيد ينظر علي حراز، المصدر السابق، ص 48 وما بعدها

(7)- Andre(P.J), Op. Citn, p291. - Limam, Op. Cit, p 166.

زاوية و 100 مقدم و 11082 مريدا،⁽¹⁾ أما " كبولاني، دوبون" يذكّر أن عدد زواياها 65 زاوية و 845 مقدم و 23253 مريد،⁽²⁾ لكن "سميان" (Simian) يذكر أنه كان لها 2500 مريدا فقط⁽³⁾، ورغم قلة أتباعها إلا أنها اتسمت بالصبغة الأرستقراطية واتبعتها عليه القوم، حيث انضم إليها بعض سلاطين المغرب،⁽⁴⁾ كمولاي سليمان الذي اعتنى بالشيخ التيجاني وآمن إيماناً كبيراً بتعاليم التيجانية، وكانت له عدة مراسلات مع الشيخ التيجاني،⁽⁵⁾ وباي تونس، ورؤساء إمارات صحراوية، إفريقية كانوا من أنصارها، أما بالجزائر فقد كان لها علاقات مع أكبر العائلات الإقطاعية كبنّي سالم بالأغواط وأولاد سيدي الشيخ جنوب وهران.⁽⁶⁾

ومن أشهر زواياها جنوب الصحراء قمار، تماسين، قورارة، بتوات، وقد امتدت زواياها حتى وسط القارة الإفريقية وبلاد السودان،⁽⁷⁾ ولتحقيق هذا الهدف، لم يقتصرُوا على إرسالهم المبشرين فقط، بل إنها كانت تشارك في تجارة هائلة، مكونة من القوافل التي يرافقها مقدمي وإخوان من زوايا عين ماضي، أبي سمغون، فاس وتلمسان. وكانت هذه القوافل تلتقي في الطريق، مع القبائل المتجهة إلى شنقيط وتمبوكتو وسيغو وفودا السنغالية، وبهذا فقد قاد أتباع التيجانية على طول الطريق، التجارة ونشر الدين.⁽⁸⁾ ويرجع سبب هذا الانتشار إلى الواسع إلى:

- كون التيجاني عاش في زمن قل فيه العلم وعم الجهل، فأقبل الناس عليه لكثرة ما أوهمهم به من كثرة الثواب وضمان الجنة بأيسر الأسباب.
- حب التيجاني للشهرة والجاه مما أدى به إلى سلوك هذا الطريق.
- مساعدة السلطان المغرب مولاي سليمان له وحمايته،⁽⁹⁾ بحيث كان لذا الدعم الأثر الكبير في ضيوع صيته وانتشار طريقته.⁽¹⁾

(1)- Rinn, Marabouts et Khouans, p451.

(2)- Depont/Coppolani, Op. Cit p438.

(3)- Simian, Op. Cit, p69.

(4)- Rinn, Marabouts et Khouans, p110.

(5)- أحمد الأزمي، "نشأة الزاوية التيجانية وانتشار تعاليم طريقته بفاس" سلسلة أعمال وحدات التكوين والبحث -رباطات وزوايا في المغرب-، ع02، 2007، جامعة شعيب الدكالي، المغرب، ص 134. حول المراسلات ينظر، كشف الحجاب.

(6)- Merad Boudia, Op. Cit, p370. (Marge)

(7)- التليلي العجيلي، دور بعض مشايخ الطرق، ص 147.

(8)- Depont/coppolani, Op. Cit, p424.

(9)- علي آل دخيل الله، المرجع السابق، ص09.

ج- علاقة التيجانية بالسلطة:

نتيجة للمكانة الواسعة التي كان يتمتع بها أحمد التيجاني وسط الصحراء، تخوف منه الحكام، لذا اتسمت العلاقة بينه وبينهم منذ البداية بالنفور والعداء، هذا بالإضافة إلى كون عين ماضي بعيدة عن أعين السلطة المركزية وهو ما سمح لسكانها الإحساس بنوع من الاستقلالية، ولما حاولت السلطة إخضاعها والنيل من خيارات الطريقة تولد لديها عداء ضد النظام العثماني.⁽²⁾

وقد كانت الحملة التي قادها الباي محمد الكبير سنة 1783م نحو الجنوب الصحراوي، وفرضه إتاوة سنوية ثقيلة على الطريقة،⁽³⁾ بداية النفور بين الطريقة والسلطة، كما عاد إلى عين ماضي في حملة ثانية سنة 1784، حيث لما دخلها قدم له سكانها الولاء والطاعة، ودفعوا له الخيل والخدم والمال، ما مقداره 5 آلاف سلطاني ذهبي ومائة عبد وأربعة أحصنة،⁽⁴⁾ كما فرض عليهم ضريبة سنوية تقدر بـ 188 ريال،⁽⁵⁾ وقد وصف "ابن هطال" نزول الباي عند عين ماضي قائلاً: "فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت وجنوده قد أقبلت فزعت قلوبهم وطاشت عقولهم أغلقوا الديار... وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم، مقدمون النساء أمامهم وتلك كانت عاداتهم فلما دخل المحلة أذن السلطان (الباي) للعلماء في التقدم فتقدموا... وسألوه أن يرفق ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى (الضريبة)... فإنهم لا طاقة لهم بدفعها فلما سمع كلامهم استقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة أقل من الأولى... وبالغد أصبح أهل عين ماضي يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدرهم".⁽⁶⁾

أما "ابن سحنون" فقد قال: "ثم بلغه بعد ذلك عنهم أنهم نقضوا الطاعة وخالفوا الجماعة، فغزاهم أيضا غزاته المشهورة، فقاتلوه قتالاً شديداً حتى نفذ الرصاص من جنده، واحتاج إلى أن دفع لهم ما في كنانته، وضاق عليه الأمر بذلك، فلم يشعر إلا وبغال قادمة عليه فسألهم ما عليها فقليل رصاص أتاك من الجزائر ففرقها على الجند، وما غربت

(1) - أحمد الأزمي، المرجع السابق، ص 135.

(2) - De Neveu, Op. Cit, p 101. - Esterhazy, Op. Cit, p199.

(3) - G.Andre(P.J), Op. Cit, p291.

(4) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 53. - Mercier, l'histoire de l'Afrique, T03, p422.

(5) - Rinn, Marabouts et Khouans, p420.

(6) - ابن هطال، المصدر السابق، ص 73، 74.

الشَّمْس حَتَّى ملك القرية، وجمع نساءها وأولادها، ثُمَّ مَنَّ عَلَى أهلها بها وارتحل عنهم بعد أن عادوا لحكمه والتزموا له بمال يُؤدونه كُلَّ سنة.⁽¹⁾ وبعد سنة فقط أي عام 1785م غزاها صالح باي بعد تمرد جبل عمور فاحتلها عنوة وأرجعها تحت سلطة البايك،⁽²⁾ ونفس الشيء قام به عثمان بن محمد باي بعد سنتين أي سنة 1787م ليأخذ الضريبة التي فرضها والده عنوة من أهلها،⁽³⁾ والتي قدرت بـ17 ألف ريال^(*) مع كمية من البرانس والحيك.⁽⁴⁾

وبسبب هذه الحملات طلب أهل عين ماضي من الشيخ أحمد التيجاني، الذي كان بأبي سمغون، تزويدهم بالأسلحة لمواجهة الباي، لكنه رفض لحاجته للمال لشراء الزرع الذي يلزمه، ونصحهم بمسالمة الباي ودفع الضريبة له،⁽⁵⁾ وهذا من خلال رسالة بعثها لهم جاء فيها: "... من كاتبه إليكم أحمد بن محمد التيجاني... يليه إعلامكم كما كتبتم به إلي فأما انتقالي إليكم من هذه البلدة قد حان... لكن الأسباب الإلهية قد أعجزتني عن الانتقال إليكم لكوني ثقيل الحمل ولا يحملني إلا سبعون أو ثمانون بعيرا، ولا أجد هذا عندي ولا عندكم... أما ما طلبتم مني بعثه لكم من البارود والرصاص فلا وجود له في هذه البلاد أصلا، وكان قبل هذا يوجد في بلاد فجيج... والطريق بيننا وبينهم مخوفة... وقد عاجلني في هذه الساعة السفر إلى بلاد أنقاد لأجل شراء الزرع الذي أنا محتاج إليه.... لكثرة ما يلزمني من أكل الطعام.⁽⁶⁾

أما فيما يخص الباي فقد نصحهم بقوله: "أما أمر الباي معكم فاسمعوا مني النصيحة... فسيروا إليه في بلاده وأعطوه ما تقدرون عليه من المال ولا تقاتلوه فإنه لا خير لكم في قتاله... ثم إياكم أن تقاتلوه أو تخالفوه فقد حدث الأمر من عند الله... وكل

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص138.

(2) - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص139.

(3) - Rinn, Marabouts et Khouans, p420.

- عمار هلال، الطرق الصوفية، ص 125.

(*) - ما يعادل 31620 فرنك فرنسي. لكن احمد توفيق المدني يذكر أنه ما يعادل 150 ألف فرنك.

(4) - Esterhazy, de la domination....., p199. - Mercier, histoire de l'Afrique, T03, p450.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 288. - أحمد توفيق المدني، محمد بن عثمان باشا، ص55.

(5) - بن يوسف تلمساني، الطريقة التيجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني-الأمير عبد القادر-

الادارة الاستعمارية 1782-1900م) رسالة ماجستير، تاريخ حديث ومعاشر، جامعة الجزائر، 1988م، ص 133.

(6) - سكيرج، المصدر السابق، ص 403، 404.

تدبير عندكم في القتال والخلاف فاتركوه ولا تدبروا إلا في الصلح بينكم وبين هذا الباي... وإن خالفتكم قولي فقد ألقيتم بأنفسكم إلى الهلاك...⁽¹⁾

ونتيجة للضغوط التي تعرض لها الشيخ رحل نهائيا إلى فاس سنة 1798م،⁽²⁾ خاصة بعدما لم يكتفي الباي بما فرضه من ضرائب على سكان عين ماضي، وراح يهدد ويتوعد سكان أبي سمغون إذا لم يخرجوا الشيخ التيجاني من عندهم وهو ما جعل الشيخ يغاردها،⁽³⁾ رفقة تلاميذه وأولاده نحو فاس، التي لما وصلها استأذن السلطان مولاي سليمان بالإقامة فيها، وأعلمه أن سبب رحيله هو "جور الترك وظلمهم" فاستقبله السلطان ومنحه دار من دوره كان ينفق في عمارتها نحو عشرين ألف مقال ورتب له ما يكفيه.⁽⁴⁾

وترجع مطاردة البايات للتيجانية في الغالب إلى العامل الاقتصادي، بحيث وفي مدة قصيرة استطاعت الطريقة التيجانية أن تجمع ثروة طائلة بفضل سيطرتها على الطرق التجارية الصحراوية وما كانت تجمعها من الزيارات، هذه الثروة أثارت طمع البايات خاصة وأن طوره التيجانية تزامن مع التدهور الاقتصادي للآيالة، الأمر الذي دفع بالبايات إلى شن حملات وفرض ضرائب ثقيلة عليها،⁽⁵⁾ إضافة إلى العلاقات الودية التي كانت تربط بين التيجاني والمغرب الذي كان دائم السفر إليه، وكذلك علاقة التيجانية مع تونس، فنجد باي تونس حسين باي قدم ما قيمته 80 ألف فرنك لخليفة الشيخ التيجاني بتماسين الحاج علي من أجل بناء بيت مسجد وفرن وحمام بتماسين،⁽⁶⁾ فهذه العلاقات نظرت إليها السلطة بعين الريبة خوفا من تحالفه معهم ضدها.

ويذكر "أحمد سكيرج" أن الشيخ أحمد التيجاني في بداية تواجده بفاس سنة 1798م، كان يلتقي مرديه في داره وأحيانا في بعض مساجد مدينة فاس، نتيجة ازدياد الوافدين على الشيخ من مناطق بعيدة، وتضاعف عدد مرديه، اضطر الشيخ إلى حتمية

(1) - نفسه، ص 405. - عبد الرحمن الجبالي، المرجع السابق، ج 3، ص 288.

- بن يوسف تلمساني، المرجع السابق، ص 135.

- أحمد الازمي، المرجع السابق، ص 131، 132. - Rinn, Ibid, p421.

(3) - بن يوسف تلمساني، المرجع السابق، ص 136.

(4) - السلاوي الناصري، المصدر السابق، ج 8، ص 105. - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ص 557. - Cour, L'Etablissement des dynasties, p234.

(5) - بن يوسف تلمساني، المرجع السابق، ص 127.

(6) - De Neveu, Op. Cit, p107. - نفسه، ص 129.

بناء الزاوية، حيث اشترى خربة مهدمة وما جاورها بالمكان المسمى "حومة الدرداس" المعروفة اليوم "بالبليدة" بفاس القديمة، وحسبما ورد في كتابه "كشف الحجاب": "كانت خربة مهدمة من ملك أولاد أقومي وكانت فيها كرمة كبيرة وبموضعها دفن وتلك الخربة كانت مهيبية لا يقدر أحد أن يدخلها وحده وقد بلغني على لسان الثقة أنه كان يسمع فيها بعض الأحيان كأن جماعة يذكرون فيها وكان يقصدها غالب مجازيب فاس، وكان بناؤها سنة 1215هـ/1800م.⁽¹⁾

وبعد مغادرة التيجاني لعين ماضي واستقراره بفاس التي لم يغادرها إلا مرة واحدة سنة 1813م عندما زار مسقط رأسه عين ماضي، التي لم يمكث فيها إلا أياما قليلة وعاد أدراجه إلى فاس،⁽²⁾ بعدها اتسمت العلاقات بين السلطة وسكان عين ماضي بالهدوء إلى غاية عودة ابني التيجاني إليها بعد وفاة أبيهم عام 1815م،⁽³⁾ فعملا على نشر تعاليم الطريقة مما جعلها تكسب نفوذ كبير في أوساط السكان وهو ما أثار مخاوف الحكام الذين كانوا يتربصون أية حركة دينية خاصة وأن التيجانية ظهرت في وقت اشتد فيه الضغط على النشاط الديني، لهذا قرر الباي حسن القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها فجهز جيشا سنة 1820م وتوجه به نحو عين ماضي، التي دخلها بعد حصار دام أربعة عشرة ساعة،⁽⁴⁾ إلا أن سكانها لم يأخذوا بنصيحة شيخهم بعدم مقاتلة الباي لأنه يعلم أنهم غير قادرين على مواجهته، وأمام هذا الوضع عرض سكانها على الباي مبلغا قدره 100.000 بوجو فضي مقابل رفع الحصار وتأمين أرواحهم.⁽⁵⁾

وفي سنة 1822م هاجمها باي التيطري لكنه فشل في دخول المدينة،⁽⁶⁾ ونتيجة ازدياد نفوذ الطريقة، الأمر دفع بسلطات البايك إلى تجهيز حملة أخرى بقيادة الباي حسن سنة 1825م، حيث حاصرت قواته المدينة مدة شهر كامل انتهى بعقد الصلح بين الطرفين تحت وساطة كاتب الباي الحاج محمد بالخروبي القلعي، مقابل دفع غرامة تقدر بـ 2000 ريال كانت تدفع عينا و 500 ريال كغرامة سنوية،⁽⁷⁾ ولم يكتف العثمانيون بهذا بل

(1) - سكيرج، المصدر السابق، ص 20، 21.

(2) - Rinn, Marabouts et Khouans, p422.

- عمار هلال، الطرق الصوفية، ص 125.

(3) - Simian, Op. Cit, p77.

(4) - Ibid, pp77, 78.

(5) - Rinn, Marabouts et Khouans, p423.

-الغالي الغربي، الثورات الشعبية، ص 189.

(6) - Boyer, Contribution, p45. - Rinn, Ibid, p423.

(7) - الزياتي، دليل الحيران، ص 242. - المزارى، المصدر السابق، ص 353.

عملوا على مراقبة "محمد الكبير التيجاني"، بحيث لما كان عائداً من الحج أمر الداي "حسين باشا" من باي قسنطينة أن يعترض طريقة ويلقي القبض عليه لكنهم فشلوا في ذلك.⁽¹⁾

ح- مرحلة التصادم والمواجهة:

أمام الضغوطات التي تعرض لها محمد التيجاني لم ير سبيلاً إلا إعلان الثورة على العثمانيين حتى يثار لما حل بنفسه وبأهلها من قبل الباي حسن لهذا يقول "الزياني": "أن التيجاني لما رأى ما حل به بغير موجب حق ظهر له مقاتله التراك والغزو على الباي حسن فاتصل بسكان غريس الذين بايعوه واتفقوا معه على محاربة الباي حسن"،⁽²⁾ فسار إليه بوهرا ن سنة 1826م، في جيش يضم الأرباع أولاد نايل سكان القصور، لكن اعترضت طريق قبائل زغدو قرب فقيق، وأصيب التيجاني إصابة خطيرة، ونقل إلى عين ماضي أين مكث مدة شهرين بين الحياة والموت.⁽³⁾

وفي السنة الموالية أي سنة 1827م ولتحقيق خطته بالإطاحة بحكم العثمانيين، كاتب الشيخ محمد التيجاني القبائل الرافضة للسلطة العثمانية مثل بني عامر، البرجية، الزمالة، والدوار لكنها رفضت الدخول معه خوفاً من الهزيمة لعدم تأكدها من قوة التيجاني،⁽⁴⁾ بعدها اتصل بقبيلة الحشم التي انضمت إليه، فقام الباي حسن بقتل 11 رجلاً من قادة قبيلة الحشم، وفرض عليهم غرامة كبيرة،⁽⁵⁾ التي شاركت التيجاني ثورته تحت زعامة الشيخ سيدي علي بوطالب بـ 50.000 ريال بوجو سنويا.⁽⁶⁾ بعدها زحف التيجاني بجيش قدر بـ 600 رجل نحو معسكر، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها نظراً للمقاومة العنيفة التي لقيها من طرف سكانها وتمكن الباي حسن من هزيمة التيجاني بعد انسحاب قبيلة الحشم، وهذا وحسب ما ذكره "الزياني" بعدما اشترى أعيان القبيلة وكافة

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 159.

(2) - الزياني، دليل الحيران، ص 242 243. - نفسه، ص 159.

(3) - Rinn, Marabouts et Khouans, p423. - Arnaud, Op. Cit, pp 473,474.

(4) - الغالي، الثورات الشعبية، ص 192.

(5) - المزاري، المصدر السابق، ص 354. - الزياني، دليل الحيران، ص 243. - Boyer, Contribution, p 46.

(6) - الغالي الغربي، الثورات الشعبية، ص 193 و 207.

العرب بالمال ويقال أن الباي أعطى الأعيان وكافة العرب أموالا كثيرة فأوقعوا به الهزيمة وفروا منه".⁽¹⁾

ورغم الخديعة إلا أن محمد التيجاني صمد ولم ينسحب حتى قتل هو رفقة ثلاثمائة رجل،⁽²⁾ ويصف لنا "الزهار" ما حل بهم بقوله "فقطعوا رؤوسهم وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس وبعثوا برأس الحاج محمد... ومعه بعض الرؤوس الأخرى للجزائر وأتوا بسيفه وبعض الحجابات (التمايم) التي كانت عليه... وجعلوا رأس ولد التيجاني في عمود وصلبوه... وعلقوا الرؤوس الأخرى حوله، ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود الثاني يبشرونه بقتله، وبعثوا له بسيفه والحجب التي كانت معه واحتوى الباي على أنقال التيجاني وأمواله ورجع إلى وهران...".⁽³⁾

وبقتل محمد التيجاني انتهت هذه الثورة، لأن أخاه محمد الحبيب فضل المسالمة على المواجهة العسكرية عملا بنصيحة والده وخليفته بتماسين الحاج علي.⁽⁴⁾ وبالتالي فالثورة التيجانية هي الأخرى تعد ثورة ضد الظلم والتعسف الذي مارسه العثمانيين، رغم أنها لم تحقق هي الأخرى أهدافها، حيث استطاع الباي القضاء عليها بسهولة، وفي وقت قصير، وربما يرجع فشلها إلى كونها جاءت عفوية ولم تتسم بالتنظيم الذي شهدته الثورة الدرقاوية بالشرق والغرب الجزائري.

2- نتائج الثورات:

رغم أن هذه الثورات جاءت كرد فعل من أجل تحسين الأوضاع الداخلية إلا أنها خلفت عواقب وخيمة على الرعية والسلطة على حد سواء، وفي جميع الجوانب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

(1) - الزيانى، نفسه، ص 247. - الزهار، المصدر السابق، ص 159. - المزارى، نفسه، ص 355. - الحاج بن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، تح. أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 88، 98.

(2) - الجزائري محمد بن عبد القدر، المصدر السابق، ص 125. - الزهار، نفسه، ص 159.

(3) - الزهار، نفسه، ص 160. - المزارى، المصدر السابق، ص 360. - الزيانى، دليل الحيران، ص 247.

-Esterhazy, de la domination, p224.

(4) - بن يوسف تلمساني، المرجع السابق، ص 154.

2-1- سياسيا وعسكريا:

لقد كان لهذه الثورات الأثر السلبي على السلطة السياسية، حيث سقطت مكانة العثمانيين في أعين الناس، لأنه ولأول مرة وقع تحدي قوى لسلطتهم منذ عهد بعيد،⁽¹⁾ لهذا فقدت السلطة ثقة الرعية والقبائل الموالية، مما أضعف وجودها، فانتسعت الفجوة أكثر بين الحكام والسكان وازدادت معها مدة التوتر، خاصة مع رجال الدين والعلماء، بحيث لم يسلم من مخلفات هذه الثورات حتى القوى الدينية الموالية للسلطة، كأسرة آل مقران التي ورغم مشاركتها في إخماد ثورة ابن الأحرش، إلا أنها تعرضت سنة 1814م لحملة من طرف الباي تشاكر الذي قتل غدا 08 من أفرادها وفر واحد منهم فقط نحو الجبال.⁽²⁾ وغيرهم من رجال الدين الذين قتلوا بعد الثورات كما رأينا سابقا.

فهذه الثورات دفعت بالحكام إلى الانقلاب على أقطاب السلطة الروحية المؤيدين لها، وبدأوا يتوجسون خيفة منهم، ويضيقون الخناق عليهم،⁽³⁾ وصاروا يكيلون التهم لجميع الزعماء الدينيين، حيث لم يعد عندهم فرق بين المنتسبين لدرقاوة أو لغيرها من الطرق الصوفية الأخرى، ولم ينج من التهم حتى الموالين لهم مثل أبوراس الناصري الذي عزل من منصب الإفتاء والقضاء، نتيجة اتهامه بضلوعه في حرب درقاوة وهو ما جعله يؤلف كتابه "درء الشقاوة في فتنة درقاوة" بعد هجرته إلى المغرب،⁽⁴⁾ والذي ينفي فيه تورطه فيها حيث يقول: «عمتنا فتنة درقاوة وإنا لم نكن فيها... وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة،.... فاتصلت علينا أواصر الشبكات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد دموع».⁽⁵⁾

وحتى بالنسبة للطريقة القادرية التي كانت تحت حماية السلطان العثماني لم يسلم أتباعها من تبعات الثورة الدرقاوية، خاصة عهد الباي حسن آخر بايات وهران الذي مست سطوته الفقهاء ورجال الدين التابعين للزوايا الموالين لهم، الذين ضيقوا الخناق، والدليل ما

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 223.

(2) - العننري، فريدة مؤنسة، ص82 (هامش). -Mercier, Histoire de Constantine, p343

Vayssettes, Histoire des derniers beys...N05 pp98, 99. -Vayssettes, Histoire de Constantine, p195.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 223.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 47. - عبد الرحمن الجيلالي، ج3، ص 291. - سعد الله، تاريخ الجزائر

الثقافي، ج1، ص 222.

(5) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 47.

حدث للشيخ محي الدين وابنه الأمير عبد القادر الذي فرضت عليه الإقامة الجبرية خوفاً منه وهو ما يشير إليه قول الباي حسان لجلسائه، عندما قصده الشيخ لتنهنته بانتصاره على الدرقاوي بأنه لا يخشى الدرقاوي بل يخشى من الشيخ إذا ثار.⁽¹⁾

فالباي حسان يعد من أشهر البايات الذين تتبعوا أقطاب السلطة الروحية، وصبوا عليهم جم غضبهم ونكلوا بهم، فقد عذب وقتل وأحدث محاكم التفتيش الشبيهة بالتي أحدثها الإسبان ضد الأندلسيين، والتي راح ضحيتها الكثير من العلماء،⁽²⁾ مثل قتله كل من الفقيه محمد بن أحمد الصدمي وعبد الله بن حواء التجيني والسيد فرقان الفليتي كما منع الشيخ محي الدين من الحج سنة 1827م، وفرق طلبة الشيخ بن قندوز الذي قتله.⁽³⁾ إن تخوف السلطة من أي ثورة أخرى قد تحدث ضدها، لذلك نجدها منعت التجمعات وفرضت المراقبة على كل من يخوض في الأمور السياسية في اجتماعاتهم الخاصة أو أمام الملاء، وهو ما قضى على الكفاءة عند رجال أهل البلد، وخلق حذراً في المجتمع استمر حتى مجيء الفرنسيين، وقد أشار "حمدان خوجة" إلى هذا الوضع بقوله: «لقد بلغت الإهانة التي كانت تسلط عليهم إلى درجة أن سكان الجزائر من كراغلة وغيرهم لم يعودوا يهتموا بالسياسة لا في اجتماعاتهم ولا أمام الملاء وفي اجتماعاتهم الخاصة ولقد قضى هذا النوع من المراقبة على جذور الكفاءة عند رجال أهل البلد، وخلق في المجتمع حذراً عاماً استمر حتى مجيء الفرنسيين».⁽⁴⁾

لقد عملت الثورات على زعزعة الحكم العثماني في الجزائر،⁽⁵⁾ وتوسعت فجوة الخلاف بين السلطة والقبائل التي ظهرت في أوساطها حركة تمرد واسعة - أعقبت هذه الثورات - ضد السلطة المركزية وأوامرها وقد ظهر هذا جلياً من خلال رفضها دفع الضرائب،⁽⁶⁾ فهذه القبائل اقتتعت بإمكانية الثورة على البايلك، لذلك تعرضت عدة مدن للخطر كالمدية، مليانة، تنس، التي رفضت القبائل فيها دفع الضرائب فتمردت ورفعت

(1) - المزاري، المصدر السابق، ص 361. - الجزائر محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 115.

- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 292.

(2) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 350 و 361.

(4) - حمدان خوجة، المرأة، ص 157، 158.

(5) - Feraud, histoire des villes ...Gigilli, p184.

(6) - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 217.

السلاح في وجه العثمانيين، منها محاصرة القبائل لمدينة المديّة والاستيلاء على برج سور الغزلان مركز الحامية التركية، ونقطة العبور بين قسنطينة والجزائر.⁽¹⁾

كما ظهرت عدة تمردات ببايك الشرق كثورة النمامشة التي عاصرت ثورة ابن الأحرش (1803/1804م) وثورة جرجرة سنة 1810م،⁽²⁾ وتمرد الحضنة التي امتدت حتى سطيف والمديّة بسبب مجازر الباي شاكر،⁽³⁾ الذي تمرد عليه أولاد مقران سنة 1815م ضد الباي شاكر بعد قتله لثمانية من زعمائها سنة 1814م، ولم يتم القضاء على التمرد إلا بعد الاستعانة بالحامية العسكرية الموجودة بسطيف وسور الغزلان،⁽⁴⁾ وتمرد عمراوة سنة 1819م والذي قمعه الآغا يحيى،⁽⁵⁾ ليتجدد تمردا سنة 1820م من أجل التأثير لمقتل شيخها محمد أوقاسي،⁽⁶⁾ لكن تم إخمادها بطريقة تعسفية، حيث حوصرت القرى والمداشر وأحرقت المنازل،⁽⁷⁾ ثم ثورات الأوراس والنمامشة، وواد سوف ما بين 1818م و1823م وثورة جرجرة سنة 1823م.⁽⁸⁾ وفي نفس السنة ثارت قبائل الساحل ناحية بجاية، والتي قتل فيها العديد من الناس، وعجز الآغا يحيى القضاء عليها، رغم تدخل المرابطين، ليسير بعدها بنفسه ويقضي على تمرد هذه القبائل.⁽⁹⁾

أما بالتيطري وفي عهد الباي إبراهيم القسنطيني، فقد تمردت قبائل أولاد نايل سنة 1818م،⁽¹⁰⁾ التي كانت رفضت دفع الضرائب، فقام الباي بشن حملة على عرش أولاد الضاية من أولاد نايل، وبتحريض من أولاد مختار وقد غنم الباي 2000 جمل و10 آلاف رأس غنم، وقطع العديد من رؤوس المتمردين التي حملت إلى مدينة المديّة في 03

(1) - سعيدوني، وراقات، ص 334. - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 221.

- عبد الكريم الفيلاي، المرجع السابق، ج 05، ص 14.

(2) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 40.

(3) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 3، ص 295.

(4) - نفسه، ص 315، 317.

(5) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية، ص 207.

(6) - Boulifa, Op. Cit, pp301, 306. - Robin, Note du l'organisation, pp198, 199.

- Robin, Note sur yahia..., pp70, 73.

(7) - Saidouni, Op. Cit, p349. - سعيدوني، الشبكة الدفاعية، ص 207.

(8) - سعيدوني، النظام المالي، ص 59. - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 40.

(9) - Robin, Note sur Yahia, pp89, 95. - صالح عباد، المرجع السابق، ص 225.

(10) - Mercier, Histoire de l'Afrique, T03, p503.

شواريات،⁽¹⁾ خاصة كما تعرض في نفس السنة برج بوغني للهدم من طرف قبائل قشتولة وبني صدقة وانسحبت منه الحامية التركية تحت حماية مرابطي الرحمانية.⁽²⁾

والأمر نفسه حدث ببابيك الغرب أين تمردت عدة قبائل منها قبائل بني راشد، تاشة، حميس، بني مادون العطاف، بني زقزوق، وغيرهم،⁽³⁾ وثورة أولاد سيدي الشيخ جنوب وهران وثورة بالأغواط،⁽⁴⁾ وثورة ولهاصة التي ثارت سنة 1828م على الباي حسن بتحريض من حاكم وجدة أبي العلي إدريس، ورفضت دفع الضريبة فأرسل لهم الباي محلة نصبت لهم كمينا أبادتهم، هذا الأمر دفع بالقاضي محمد بن سعيد التلمساني للخروج لتهدئة الأوضاع لكنه اتهم بتواطئه مع الأهالي، ففر إلى المغرب.⁽⁵⁾

لذلك وفي الوقت الذي كانت فيه الجنود الجزائرية منشغلة باخماد التمردات تعرضت لحملة مغربية، قادها السلطان المغربي مولاي سليمان على فقيق عام 1805م، ثم غزى بعدها قورارة، وتوات سنة 1808م، وانتزع من العثمانيين جميع الأراضي بالجنوب الوهراني،⁽⁶⁾ ومدينة وجدة وإقليمها،⁽⁷⁾ كما ازداد التنافس الانكليزي الفرنسي على الامتيازات بالجزائر،⁽⁸⁾ وهو ما أدى إلى تعرض الجزائر إلى حملة انجليزية سنة 1816م بقيادة اللورد اكسموث مشكلة من 40 سفينة و 100 مدفع وبعمارة بها قنطار بارود،⁽⁹⁾ وقد خلفت هذه الحملة خسائر على الأسطول الجزائري الذي تضرر أكثر كما ألحقت أضرار كبيرة بالبنائيات ومات بسببها أكبر بحارة الجزائر في القرن 19م، الرئيس حميدو.

(1) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 222. - Federman/Aucapitaine, Note sur l'histoire..., N°09, pp296, 297.

(2) - سعيدوني، الشبكة الدفاعية، ص 209.

(3) - Robin, Note sur yahia..., p62. - De Grammont, Op. Cit, p 383. - Mercier, histoire de l'Afrique..., p503.

(4) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

(5) - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 295.

(6) - عبد المجيد نعيمة وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830-1945م، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص 375، 376.

(7) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 55. - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 295.

(8) - م.ث هوشما وآخرون، المرجع السابق، ج9، ص 4884.

(9) - عبد الله شريط/مبارك الملي، المرجع السابق، ص 84.

(8) - سعيدوني، وراقات، ص 334. - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 221.

(9) - عبد الرحمن بن باديس التتلائي التواتي، رحلة من توات إلى الجزائر، مخطوط خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، الجزائر، ص 05.

إن هذه الثورات استنزفت الطاقات البشرية للإيالة بسبب عدد القتلى الذين راحوا ضحيتها، وعملت على إضعاف سلطة البايلك بالأرياف وانعزال الحكام بالمدن، وهذا بسبب ما خسروه في صراعهم مع المتمردين خاصة ابن الأحرش الذي لم ينج من تمرده إلا القليل من جند البايلك وفرق زواوة، إضافة إلى ضياع البنادق والمدافع التي ترك منها 04 في الميدان وضياع خزانة الباي التي حملها معه،⁽¹⁾ فثورة ابن الأحرش وحسب "فيرو" فقد كلفت وفاة أكثر من 2000 تركي وعدد من الفرسان العرب،⁽²⁾ دون حساب من قتل من أتباع ابن الأحرش، أما ثورة ابن الشريف الدرقاوي وحسب "الزهار" فقد مات فيها من العرب عدد لا يحصى حتى اجتمع رؤوس بني آدم مثل الجبال،⁽³⁾ وهذا دليل على حجم وعدد القتلى الذين يعتبرون دعم بشري خاصة من جانب الجيش العثماني الذي أضعف مما جعل يفشل في صد الهجمات المسيحية خاصة الاحتلال الفرنسي على الجزائر.

وبالتالي فبسبب هذه الثورات وما انجر عنها من تمردات تم إضعاف قدرات الجزائر الحربية وتردت أوضاعها السياسية مما أدى إلى سقوطها فريسة الاحتلال الفرنسي، لذلك هناك من يرجع انهيار دولة الأتراك بالجزائر إلى ثورة درقاوة، التي مهدت للاحتلال الفرنسي،⁽⁴⁾ حيث استنفذت وأنهكت القوى الحربية للعثمانيين وأضعفت الجيش الذي فقد قوته وصولته، كما كان سابقا، فهذه الحروب لم تكن في صالح الوطن، حيث تراجعت القوى الجزائرية شيئا فشيئا حتى عجزت عن صد الاحتلال،⁽⁵⁾ كما أن الإجراءات التي قامت بها السلطة بعد الثورات وقبلها أضرت بالسكان، وربما هو الأمر الذي أدى إلى خلق نوع من الكراهية واللامبالاة لدى السكان، وهما عاملان سيساعدان على انخدع الجزائريين بالدعاية الفرنسية، ولا يشاركون في صد الغزو الفرنسي سنة 1830م،⁽⁶⁾ لهذا نجد الباي حسن سارع بتسليم وهران للفرنسيين لأنه كان يعلم أنه ولا الطريقة القادرية ولا التيجانية ولا غيرها يمكن أن تقف معه وتسانده.⁽⁷⁾

(1) - سعيدوني، ثورة ابن الأحرش، ص 220. - Feraud, Oued el kebir, p205.

(2) - Feraud, histoire des villes ...Gigilli, p207.

(3) - الزهار، المصدر السابق، ص 87.

(4) - الزباني، دليل الحيران، ص 19.

(5) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 57.

(6) - الزبيري، مدخل إلى تاريخ، ص 79.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 515.

فظلم العثمانيين حسب "مسلم بن عبد القادر" كان سبب في انهزامهم وضياح البلاد في أيدي الفرنسيين، وقد سجل هذا في قصيدة جاء فيها:

أدبهم ربهم لما طغوا عرفهم بقدرهم لما بغوا
كانهم ما كانوا في عز وما تملكوا دهرًا طويل المنتهى
فاشتغلوا بالظلم ليس من عدل فأخذوا أخذًا وبيلا بالمهل⁽¹⁾

وبهذا فالثورات الدينية كانت سببا في إضعاف الحكم العثماني والإسراع في إنهائه، نتيجة الاضطرابات التي أحدثتها والتمردات التي خلفتها والتي زادت في التفكك الداخلي، والوهن العسكري مما فسخ المجال للاحتلال الفرنسي.

2-2- اجتماعيا:

أدت هذه الثورات إلى اتساع الهوة بين الحكام والأهالي (الرعية) بسبب سياسة القمع التي انتهجتها السلطة أثناء وبعد الثورات، وهو ما أدى إلى هجرة قبائل بأكملها،⁽²⁾ من بايلك الغرب نحو المغرب الأقصى، خاصة عهد الباي حسن نتيجة التعسف الضريبي والنهب والقمع كقبائل بني عامر التي يقول عنها "مسلم بن عبد القادر" «وتركت أوطانها قفرة... والذئاب أهلها، دخلوا بلاد المغرب، وفارقوها من غير اختيار إلى أن رجعوا إليها في دولة الباي محمد بوكابوس»،⁽³⁾ أما "المزاري" فيقول: «فأخلا بعض البلدان، حتى من المسافرين وأجلا عنها أهلها، كبني عامر فإنهم ذهبوا وتركوا بلادهم خاوية قفرا، وزهرهم غبرا وللطيور وكرا ولا يلقى فيها سالكها أنسا ولا أنيسا، ولا يجد بها حسنا ولا حسيسا إلا اليوم والذئاب تعوي فيها ليلا ونهارا وهي خراب، ولم يرجعوا إليها إلا في تولية والي كابوس»،⁽⁴⁾ في حين يشير "السلامي" إلى هجرة سكان تلمسان جراء ثورة ابن الشريف الدرقاوي بقوله: «وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب بسبب القحط، وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم». وعندما أراد السلطان المغرب إرجاعهم إلى بلدهم رفضوا وقالوا له: "تذهب لبلاد النصارى ولا نجاور الترك فتجتمع علينا الجوع والقتل"،⁽⁵⁾

(1) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 34، 36. - الزباني، دليل الحيران، ص 273.

(2) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 38.

(3) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 93.

(4) - المزاري، المصدر السابق، ص 321.

(5) - الناصري السلامي، المصدر السابق، ج 8، ص 111. Mercier, histoire de l'Afrique, T03, p465.

فقبل السلطان عذرهم وتكفل بهم وجعل لهم خراجا، وصار يقدم لهم العطايا والصدقات، حتى رجعوا إلى بلادهم.⁽¹⁾

فالباي حسان ونتيجة لتعسفه ضد الرعية، وحتى العلماء والمرابطين دفع بالكثير من أقطاب السلطة الروحية إلى الهجرة نحو المغرب، مثل القاضي محمد بن سعيد التلمساني الذي هرب إلى المغرب بعد اتهامه بتواطئه في تمرد ولهاسة سنة 1828م،⁽²⁾ فهذا الباي تجرأ على العلماء والأولياء والرعية، فظهر منه الجور والظلم وأكثر منه الظلال وهتك المحارم وكثرة فسادة وسفكه للدماء بغير حق.⁽³⁾

إن الانفصال الذي حدث بين السلطتين الروحية والسياسية جعل العثمانيين يتوجسون خيفة من زعماء الطرق والعلماء ويتابعون تحركاتهم، وهو ما انعكس سلبا حتى على الموالين لهم، فبسبب هذه الثورة بطش الباي محمد المقلش بالدرقاويين، فقد قطع رأس 1000 من أتباع الدرقاوي وبعثها للجزائر، واجبر بنات ونساء القبائل على البغاء في قصره،⁽⁴⁾ كما هجر عائلة الدرقاوي وأهله نحو مدينة الجزائر،⁽⁵⁾ كما نجده قطع 90 رأس من قبائل مجاهر،⁽⁶⁾ فهذا الباي شملت سطوته حتى الفقهاء ورجال الدين الذين لا ينتمون للزوايا وللطرق الصوفية،⁽⁷⁾ كان يصادر أملاك الرعية ورجال الدين، لصالح خزائنه وهو ما كان سببا في إعدامه من طرف الباشا،⁽⁸⁾ كما أن الباي بوكابوس كان يقتل كل درقاوي ظفر به، وقد ابتدع في ذلك طرقا شنيعة كدق عظامه وهو حي بالمعاول حتى الموت وقلع عينهن وقطع أعضائه إضافة إلى الذبح والشنق والخنق وحتى بقر البطن،⁽⁹⁾ فقد كان إذا أراد إهلاك شخص اتهمه بالدرقاوية ليقبض عليه ويعذبه شر أنواع العذاب.⁽¹⁰⁾

(1) - الناصري السلاوي، نفسه، ص 111. - أبو القاسم الزباني، الترجمان المغرب، ص 102.

(2) - عبد المجيد بن نعمة وآخرون، المرجع السابق، ص 375، 376.

(3) - المزاري، المصدر السابق، ص 350.

(4) - Fey, Op. Cit, pp296 et 299.

(5) - Fey, Op. Cit, p296. - المزاري، المصدر السابق، ص 312.

(6) - المزاري، المصدر السابق، ص 314. - Mercier, histoire de l'Afrique T03 p465. - Fey, Op. Cit, p296.

(7) - ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج3، ص151.

(8) - Esterhazy, de la domination turque ..., p209.

(9) - المزاري، المصدر السابق، ص 328. - الزباني، دليل الحيران، ص 228.

- ابن سحنون، المصدر السابق، ص 47.

(10) - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 28.

أما الباي حسان آخر بايات وهران الذي عذب وقتل وأحدث محاكم التفتيش الشبيهة بالتّي أحدثها الإسبان ضد الأندلس، والتي راح ضحيتها الكثير من العلماء،⁽¹⁾ ونتيجة حقه على العلماء فقد رمي زوجتا العالم محمد بن قريد الغربي في البحر، اللتان ذهبتا إليه شاكيتان مقتل زوجهما على يد لسان، وهو ما خلف تدمرا من طرف السكان، في حين نجا اللسان من القصاص حتى عهد الأمير عبد القادر الذي أمسك بأحدهما وقدمه لعائلة العالم فاقتصوا منه،⁽²⁾ كما أنه قتل سنة 1826م 11 شخصا من قادة الحشم عندما أمنوه وجاءوا للضيافة عنده وهذا بسبب شكه أنهم متعاونون مع التيجاني.⁽³⁾ وقد استمرت هذه السياسة ضد الرعية حتى عهد أحمد باي الذي أعطى لكل فارس مخزي يأتيه برأس رجل من قبيلة عبد النور 30 ريالا (60 فرنكا) و 10 ريالات لكل من يغنم بندقية مع الاحتفاظ بما غنموه.⁽⁴⁾

2-3- اقتصاديا:

لقد خلفت هذه الثورات الدينية التي ظهرت بداية القرن 19م ضد العثمانيين آثارا اقتصادية مزرية، فتورة ابن الأحرش ببائك الشرق وغيرها من الثورات القبلية كثورة الأوراس والناماشة التي دامت من 1818 إلى 1823م، هذه الثورات أدت إلى انطواء الأرياف على نفسها، وقطعت الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر مما قطع التمويل عنها،⁽⁵⁾ كما اشتدت عملية استنزاف الأرياف من خلال المحلات التي كانوا يوجهونها نحوها منها حملة الباي أحمد المملوك سنة 1816م على بني جلاب بتوقت، أين قطع 200 نخلة وخرب المدينة، ولم يتوقف عن تعسفه إلا بعدما دفع له السكان 10.000 ريال بوجو، أما الباي إبراهيم فهو الآخر استولى عام 1822م على 40 ألف رأس غنم.⁽⁶⁾ كما أنه وبسبب ثورة ابن الأحرش عان بايلك الشرق من أزمة مالية، حيث غنم ابن الأحرش أموالا لا تحصى، عندما استولى على خزينة الباي عثمان الذي حملها معه خوفا

(1) - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 49.

(2) - مسلم، المصدر السابق، ص 32. - المزارى، المصدر السابق، ص 366.

(3) - المزارى، نفسه، ص 354. - الزيانى، دليل الحيران، ص 243. - Boyer, Contribution, p46.

(4) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 38.

(5) - نفسه، ص 40.

(6) - نفسه، ص 37، 38.

من غدر الخزناجي،⁽¹⁾ وقد أشار العنتري إلى هذه الحادثة بعد مقتل الباي عثمان سنة 1804/12198م وما حل بالأموال التي حملها معه «... ولما مات عثمان باي، وتلفت خزائنه، وكل ما احتوت عليه محلته من أرزاق ومال ونحو ذلك...»⁽²⁾، فهذه الثورة كانت لها انعكاسات وخيمة على الأهالي خاصة وأنها تزامنت مع ظهور الجراد والجفاف، وانتشار الأوبئة، الذي ضرب بايلك الشرق، وهو ما أدى إلى قلة الإنتاج، الذي تسبب في انتشار المجاعة،⁽³⁾ لهذا نجد العنتري يعتبر أن ثورة ابن الأحرش كانت سبب في المجاعة التي حدثت بالشرق الجزائري «وهاته الواقعة مشهورة بواد الزهور، وجلبناها هنا لما أنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب، من كثرة الهول واضطراب الرعية، بموت الباي، وتشيت أهل محلته، فإن أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضا بالتهب والفساد، ومن أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضا، وفي جهات كثيرة، وانفقدت حبوب الزرع بقيام الهول وقل من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ» إلى أن يقول «فحصلت للناس شدة ومجاعة، قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك، خصوصا بعض نواحي القبلة، فإنهم تشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل، من يسبب الزرع وعدم الحرث، ونزول القحط والفتن... حتى صاروا يقتاتون على الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتياته...»⁽⁴⁾.

ونتيجة لهذه الأوضاع ارتفعت الأسعار، وصعبت المعيشة حتى وصل سعر القمح إلى 10 ريالات للصاع الواحد والشعير 07 ريالات للصاع الواحد،⁽⁵⁾ وقد جسد لنا الشعر الشعبي هذه الأوضاع المزرية جاء فيها:

تحرزمت رجالي للفتن التل يخلي وتزول منه الذخائر
وتصير النخلة رخلة ولاشك تخلي الجزائر⁽⁶⁾

(1) - الزهار، المصدر السابق، ص 86.

(2) - العنتري، مجاعات، ص 33.

(3) - مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، ص 05.

(4) - العنتري، مجاعات، ص 33، 34.

(5) - نفسه، ص 34.

(6) - Feraud, Zebouchi et osman bey..., p125. (Marge)

إضافة إلى ما خلفته هذه الثورات الحملات التعسفية التي وجهها البايات نحو القبائل. وقد جسد لنا الشاعر الشعبي بلقاسم الرحموني الحالة التي كانت تعيشها قسنطينة في القرن 19م حتى قبل الثورات والتي ازدادت سوءا بعد الثورات في قصيدة شعرية جاء فيها:

عام مكبره هاي سيدي بالكساد وغلالت النعما
كيف نخبرها هاي سيدي بالفساد في كمان حومة
باح كل شيء بلا كتما في بلد قسنطينة الدهما
واش تنتظر هاي سيدي

واش تنتظروا فيها هلكت راهي فسدت ما بقات تسمى بلدة⁽¹⁾

أما ببايلك الغرب والذي كان يعج بأحداث ثورة درقاوة التي ذهبت بالأخضر واليابس، وأحدثت خرابا في المنطقة واضطرابا كبيرا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا،⁽²⁾ ودفعت بالبايات إلى صب جام غضبهم على الرعية وأكثروا من عملية التحريم، مثل الباي حسن الذي أكثر من الخطية على الناس ولما رأى ضعفهم على دفع المال، وغنى عماله وقادته، توجه بأنظاره نحوهم ففضى عليهم أحجية في مجلسه قائلا: «حاجيتكم أيها السادات الكرام الدايرين بي في هذا المقام، إني هزلت من اليدين والرجلين وسمنت من الأذنين والعينين» فلم يفقهوا شيئا من كلامه حتى قال لهم الحاج محمد المزاري أنه يريد باليدين والرجلين الرعية أما أذنيه وعينيه فأعوانه وقادته، لما كثر مالهم فيما عليكم إلا دفع المال أو يصيبكم الأذى منه.⁽³⁾

وكنتيجة لهذه الثورات كثر الفساد والسرقة والسطو في الطرق، حيث عمت الفوضى والسرقة والنهب بين الناس والفساد لذلك، ولم تعد الطرق آمنة لذلك انعدمت الحراثة والذهاب إلى الأسواق مخافة ما قد يحدث،⁽⁴⁾ كما أنها خلفت خرابا عاما بالايالة.

⁽¹⁾ - Cour, Constantine en 1802, p227.

⁽²⁾ - يحي بوعزيز، ثورات القرنين 19-20م، ص 357.

⁽³⁾ - المزاري، المصدر السابق، ص 351.

⁽⁴⁾ - العنتري، مجاعات، ص 33.

وفي الأخير ما يمكن أن نستخلصه هو أن:

1- الجهاد ضد الوجود الإسباني (العدو المشترك) على السواحل خاصة وهران كان يمثل الورقة الرابحة التي دعمت التحالف بين السلطتين رغم السياسة الضريبية الثقيلة المفروضة على الأهالي، منذ عهد الباشوات، إضافة إلى سياسة الحكام وطبيعة علاقتهم السطحية مع الرعية المبنية على التهميش والإبعاد عن المناصب المهمة في الحكم ورغم هذا فقد تقبل الجزائريون العثمانيين نتيجة بقاء وهران في يد الإسبان، لكن بمجرد استرجاعها ظهر الخلاف والتمرد ضد السلطة، لأنه لم يكن هناك داع للتحالف مع العثمانيين الذين انتهجوا استغلالية الأهالي خاصة أواخر العهد العثماني.

2- إن العثمانيين فشلوا في وضع سياسة تمكنهم من الصمود أمام التحولات الاجتماعية المحتملة، لهذا فافتقارهم لهذه السياسة متينة الأسس قلب عليهم الموازين بصورة فجائية تحول معها موقف أقطاب السلطة الروحية من موقف المؤيدين لهم إلى موقف المحرضين ضدهم، خاصة بعد الحملات الجبائية التي أثقلت كاهل الرعية ومست شتى المتعاملين مع السلطة كالمرابطين والطرق الصوفية الذين لم يستطيعوا تجاهل شكاوي الأهالي، ضد تعسف الحكام، خاصة وأنهم هم الممثلين للأهالي، وهو ما أدى إلى إعلانهم الثورة ضد السلطة، وبهذا فسياستهم الضريبية كانت سببا في تحول السلطة الروحية، خاصة الطرق الصوفية إلى صف المناهضين لهم.

3- هذه الثورات التي تزعمها أقطاب السلطة الروحية خاصة أتباع الطرق الصوفية لم تقضي على نفوذ البايك -السلطة- أو تحد من مظالم الحكام وترغمهم على تغيير سياستهم، وهذا راجع إلى تعدد هذه الطرق وتباين ميولها، وانحصر بعضها في مناطق معينة، إضافة إلى ارتباط بعضها الآخر بجهات خارجية، فالدقاوية ارتبطت بالمغرب وارتكزت في الجهة الغربية، والشاذلية انحصرت في الجهة الشرقية مع ميلها وتواصلها مع تونس، والتيجانية انعزلت جنوبا والرحمانية انحصرت في الوسط والجهة الشرقية مع اتخاذها موقفا محايدا.⁽¹⁾

(1) - سعيدوني/البوعبدلي، المرجع السابق، ص 39. - سعيدوني، النظام المالي، ص 60.

4- على الرغم من الانتشار الواسع لهذه الثورات، والذي يرجع إلى كون زعمائها كان لهم النفوذ الروحي والمادي في أوساط الرعية، إلا أنها فشلت لعدم وجود تناسق ووحدة بينها، فاختلافاتها المذهبية باعدت بينها، ففشلت في تحقيق أهدافها ولهذا فإن ابن الأحرش لم يلق الدعم الكاف، لأن الشرق الجزائري كان خاضعا للطريقة الرحمانية، وعلى غرار ابن الأحرش فالتيجاني لم يجد الدعم هو الآخر من طرف القادرية بالجنوب، فهذا التنافر بينهما سمح للدايات بانتهاج سياسة التفرقة بينها سواء بالمال أو بالمداينة أو المصاهرة أو بإثارة الشقاق والتفرقة بينها.

5- إن عدم التنسيق والتعاون بين الطرق الصوفية، هو الأمر الذي يعاب عليها، فعدم توحيدها حال دون تحقيق وحدة وطنية ضد الظلم وحتى ضد المعتدين الأجانب لاحقا، حيث نجد التيجانية تحالفت مع الفرنسيين ضد الأمير عبد القادر الذي اضطر للدخول في صراع مع زعمائها.

6- كانت هذه الثورات مدعمة من طرف قوى خارجية، ذات المصالح بالجزائر، فتونس، أراد حاكمها إبعاد أنظار العثمانيين، وعدم تدخلهم في شؤونها الخاصة، أما المغاربة وبحكم نسبهم الشريف كانوا يعتقدون أنهم أولى بالحكم من العثمانيين لهذا اتخذوا الطرق الدينية كمنفذ لكسر الأطماع التوسعية للأتراك في المغرب ومحاولة فرض حكمهم على الجزائر. أما الدول الأوروبية فقد كانت لها أغراض سياسية لذا فبإثارتها الفتنة كان بإمكانها الوصول إلى مساعيها والحصول على امتيازات.

7- ثورات السلطة الروحية ورغم كونها مدعمة من طرف قوى خارجية، إلا أنها لم تلق الدعم الفعلي منها، ورغم ظهورها على أنها ثورات نتيجة أعمال السلطة التعسفية، وليس ضد الحكم في حد ذاته، على الرغم من أن بعض زعمائها كان ينادي بتخليص الأهالي من العثمانيين، وبالتالي فهي ثورات ضد أوضاع وظروف معينة، حيث تحول معها أقطاب السلطة الروحية من مساندين للسلطة إلى مدافعين عن الأهالي ومترجمين لرأيهم وتذمرهم من سياسة الحكام.

8- لقد حملت هذه الثورات شعارات دينية وقد جاءت كرد فعل على إخلال العثمانيين بالقاعدة الدينية التي بنوا عليها وجودهم في الجزائر، والتي تقتضي المساواة التي تتناقض مع التمييز الذي مارسه العثمانيون، فهذه الثورات كانت بمثابة ردود أفعال

لتصرفات السلطة الجائرة، وبالتالي كانت تعبيراً لغضب الرعية عن الظروف الاجتماعية التي كانت تعاني منها لا ضد السلطة بحد ذاتها، خاصة بعد توطأ بعض الحكام مع الأجانب واليهود، فهذه الثورات كانت تهدف إلى وضع حد لاستنزاف خيرات الأهالي خاصة بالريف من طرف السلطة وتصدير منتوجات الريف بأسعار زهيدة لصالح الامتيازات الأجنبية والاحتكارات اليهودية خاصة في عهد الداوي مصطفى باشا الذي سمح لليهود باحتكار تجارة الحبوب بالجزائر، لهذا رأت السلطة الروحية أن الثورة على العثمانيين هو واجب ديني.

9- ساهمت هذه الثورات في إحداث القطعية النهائية بين السلطة وقوى الروحية بالمجتمع، وسقطت معها مكانة العثمانيين في نظر العامة باعتبار القائمين عليها هم ممثليهم من فقهاء شيوخ طرق مرابطين، وهو ما أضعف نفوذهم خاصة بالأرياف فأدى إلى ظهور حركات تمرد واسعة بين القبائل أعقبت هذه الثورات ورفضها دفع الضرائب، مما اضطر السلطة إلى اتخاذ إجراءات تعسفية حتى ضد الموالين لها كالقادرية، واستنزفت معها القوة العسكرية للجزائر مما جعلها فريسة سهلة للاحتلال الفرنسي.

خاتمة

في الأخير فإن الإجابة على تساؤلات الإشكالية المطروحة جعلتني أتوصل إلى المقاربات والاستنتاجات الآتية:

1- إن الافتقار لحكم مركزي قوي مطلع القرن 16م، لجمع شتات القبائل المتناحرة، والمدن الخاضعة للغزو الإسباني هي من فجرت البديل عن السلطة الزمنية المتهاكة (الزيانيين والحفصيين)، فهذا التقهقر السياسي هو من أوجد وأظهر السلطة الروحية كبديل لتسيير الأمور وقيادة المجتمع الذي نفر من القيادة السياسية، وبدأ البحث عن قيادة أخرى تجسدت في القيادة الروحية بزعامة المرابطين والفقهاء وشيوخ الطرق الصوفية، الذين غدوا الروح الوطنية التي كانت منعدمة في ذلك الوقت عن طريق التحريض وقيادة الأتباع للجهاد الذين كانوا يسارعون لذلك، وهذا الفراغ السياسي وعدم وجود حكم مركزي قوي لجمع شتات البلاد المنقسمة والمدن الخاضعة للغزو الإسباني، هي من فجرت البديل عن السلطة المركزية المتهاكة وأوجدت البديل العثماني منذ القرن 16م والذي استمر حتى القرن 19م.

2- السلطة الروحية وفي ظل انعدام حكم مركزي وانعدام ما يسمى "بالحس الوطني" بمفهومه المعاصر، كانت المظلة التي جمعت شتات القبائل المتناحرة، للجهاد والدفاع عن الأرض، بدافع "الحس الروحي" الديني الممزوج بالتصوف، فالجهاد الذي تبناه المرابطون والطرق الصوفية من أجل حماية الإسلام ودياره، غالبا ما كان يجمع ويوحد القبائل المتناحرة، وبهذا يمكن القول أن الحركة المرابطية والصوفية كانت البوادر الأولى للوعي الوطني.

3- عملت السلطة الروحية على الحفاظ على تماسك المجتمع الجزائري وانسجامه الثقافي وتلاحمه الاجتماعي، من تعليم وإعانة للفقراء والمحتاجين، وإحلال السلم والأمن الداخلي، وبهذا فالسلطة الروحية احتوت مختلف الشرائح الاجتماعية في ظل غياب السلطة المركزية، وظهرت أفراد المجتمع في مؤسساتها خاصة الزوايا التي كانت ملتقى الناس باختلاف انتمائهم العرقي والجهوي والمهني.

4- إن حماية السلطة الروحية للأهالي خاصة بالأرياف، -أين كانت القبائل بحاجة للأمن، نتيجة الاضطرابات والصراعات- أدى إلى انتعاش الحياة بها وشعورهم

بالاطمئنان والحماية من أي اعتداء داخلي أو خارجي وهو ما جعلهم يلتفون حولها ويوقفون لها الأوقاف، لأنها كانت الملجأ الذي يقصدونه وقت الأزمات والاضطرابات مثلما يلجئون إليها وقت الأفراح، فهيمنة ونفوذها وجد كنتاج للصراعات الداخلية التي استغلها المرابطون خاصة لإظهار نفوذهم وشرعية سلطتهم خاصة في الأوساط الريفية.

5- استطاعت السلطة الروحية بفضل الأدوار التي لعبتها في المجتمع أن تؤثر فيه وتوجه أفراد المرتبطين بها ارتباطا روحيا، مما جعلهم يلتفون حولها وهو ما جلب أنظار العثمانيين الذين أدركوا المكانة التي يحتلها أقطاب السلطة الروحية، وهو ما جعلهم يتقربون منها.

6- بفضل السلطة الروحية وجد العثمانيين حولا للشؤون الثقافية والدينية وهذا من خلال مداخل المؤسسات التابعة لها والتي كانت تعتني بالثقافة والتعليم وبصيانة مؤسسات العبادة والتعليم، وبالرغم من أن السلطة الروحية خاصة المرابطين وزعماء الطرق أنقلوا كاهل الأهالي بما يقدمونه لهم من هدايا وزيارات ووعدات إلا أنهم كانوا البديل عن السلطة العثمانية في المجال التعليمي.

7- لقد تحكم في نفوذ السلطة الروحية خاصة المرابطين منهم وشيوخ الزوايا، شخصية المرابط ومكانته العلمية، ونسبه الشريف، فقد كان بإمكانه توجيه الناس نحو المسعى الذي يريده وهذا بسبب الاعتقاد والثقة العمياء التي كان يضعها المرید في شيخه وفي المرابط، وحتى في علاقته مع السلطة السياسية نجد أن هذه العلاقة اختلفت باختلاف مكانه ونفوذ القوى الروحية في المجتمع ومن خلال شخصية المرابط أو الفقيه أو الشيخ وعدد أتباعه وقوة تأثيره، فمنذ القرن 15م تغيرت مفاهيم القوى التي كانت قائمة على العصبية القبلية، وعلاقة الدم، وتطور المفهوم إلى الشرف والمرابطية والتصوف (الطرقية)، لذلك أصبحنا نجد قبائل بأكملها تنسب إلى مرابط وحتى من لم يكن أصلها شريفا، تتخذ مرابط لها تنتسب إليه.

8- ولقد اتسم العهد العثماني بانتشار التصوف الذي لم يكن حكرا على الأشراف ولا المرابطين ولا على الطلبة والعلماء، بل لم يميز بين الأنساب والألوان والمستويات الاجتماعية والثقافية، التي أصبحت مزيجا بين العلم والجهل والخرافات، وليسيطر

التصوف على توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بصورة لم يسبق للبلاد أن عرفت مثيلاً لها، فمنذ القرن 15م تغلغلت الحركة الصوفية في أوساط العامة، وهذا من خلال الخدمات التي قدمها المتصوفة للمجتمع، وكذلك من خلال الخطاب العامي، الذي انتهجه شيوخ الزوايا الذين استطاعوا اختصار مبادئ وتعاليم الطريقة بطريقة بسيطة تتوافق مع ذهنيات الطبقات الشعبية البسيطة وهذا لاستقطاب الأتباع، فطبعوا الفكر الصوفي بالأساطير والخرافات والممارسات ومعتقدات تفتقر إلى العقلانية، وبالتالي ورغم ما كسبته هذه الطرق من خلال اتساعها الجغرافي فقدته من ناحية التعمق الفكري لذلك بقيت الحياة فكرية تحمل في جوانبها ركوداً فكرياً واضحاً في الفترة العثمانية.

9- إن اعتقاد الناس في المرابطين وشيوخ الزوايا، جعل هؤلاء الأخيرين يستغلون جهل الناس وضيق تفكيرهم واعتقاداتهم البدائية، لبسط نفوذهم والحفاظ على مكانتهم التي كانوا يتوارثونها، من خلال معتقدات نشرها بين الناس، كامتلاكهم البركة وحصول الكرامات على أيديهم كإشفاء المرضى ومنح العناية والحماية للأشخاص وحتى للقبائل والمدن سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، حتى منهم من ارتبط اسمه بأسماء المدن التي نسبت إليهم كمدينة الجزائريين تسمى مدينة سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ومدينة وهران مدينة سيدي الهواري...

10- لقد وظّف العثمانيون العاطفة الدينية والجهاد ضد الإسبان لتثبيت وجودهم في الجزائر، فاعتبار العثمانيين على أنهم حماة الدين، جعل الأهالي وعلى رأسهم السلطة الروحية يتقبلون الوجود العثماني ويستنجدون به، لأنه لولا الهجمات التي شنتها إسبانيا ضد السواحل الجزائرية لما كان هناك داع للوجود العثماني بالجزائر.

11- لهذا يعد الجهاد أكبر عامل لربط السلطة الروحية بالسلطة السياسية العثمانية كما أنه هو الذي وحد الأهالي حول السلطة الروحية متجاوزين كل التناقضات لتصبح وسيلة لتجنيد الأرياف ضد الخطر المسيحي، نتيجة لهذا الخطر دعمت السلطة الروحية العثمانيين في الغالب تلقائياً دون إغراء أو مصلحة خاصة في بداية تواجدهم بالجزائر.

12- رغم أن الحكم العثماني الفعلي في الجزائر لم يتعد وجوده 1/6 البلاد، ورغم أنهم استعصت عليهم بعض المناطق التي تقطنها قبائل شديدة المراس، على إلا أنهم مكثوا في الجزائر أكثر من ثلاث قرون، واستفادوا من مداخل مناطق شاسعة لا تخضع لهم خضوعا مباشرا، وهذا لأنهم عرفوا كيفية الاستفادة من الواقع الاجتماعي والسياسي الذي وجدوه بالجزائر، مطبقين بذلك سياسة الوسائط التي أثبتت نجاعتها في توطين حكمهم عن طريق القوى المحلية القبلية كقبائل المخزن. والمشيكات الوراثية التي لما فشلت السلطة في إخضاعها حافظت على استقلالها مشكلة كيانات مستقلة لها حكامها وأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بهدف الحصول على دعمها أو مراقبتها أو على الأقل حيادها. والتي كانت قوة داعمة للسلطة خاصة أثناء التمردات وجباية الضرائب أو من خلال التقارب مع السلطة القوى الروحية ممثلة في المرابطين وزعماء الطرق الخاصة الذين كان نفوذهم جليا على الأوساط الشعبية، وهذا مقابل امتيازات وبهذا فالتحالف الذي جمع بين الطرفين حتى وإن كان مبنيا على تبادل المصالح سمح بإخماد العديد من الثورات والحركات المعادية للسلطة، ومد نفوذ البايلك على أقسام شاسعة من البلاد، وعمل على ربط الأرياف والمناطق غير الخاضعة بالسلطة المركزية. لهذا فسياسة التقارب بين الحكام ورجال الدين لم تكن بدافع ديني فقط بل بدافع سياسي مصلحي وهو بسط نفوذهم وسيطرتهم على البلاد وجباية الضرائب بسهولة.

13- فسياسة الوسائط التي اعتمدها الحكام بينهم وبين الأهالي سمح لنا بالقول أن علاقة الحكام بالسكان كانت تقوم أساسا على فئة معينة من المجتمع تمثل أساسا في القوى المحلية القبلية أو المخزنية أو الإقطاعية، وخاصة القوى الروحية، هذه الوسائط التي كانت تعمل على جمع الضرائب وإحلال الأمن مقابل إعفاءات وامتيازات، لذلك فالعثمانيون لم يحدثوا تغييرات في أنظمة الحكم، بل أقلموا نظامهم على ما هو موجود إلا ما فرضته الظروف عليهم والجغرافية، حيث نظام وتسيير المدن يختلف على نظام إدارة الريف، وبهذا فإن لسياسة التي انتهجوها سمحت لهم بخلق أرضية للعمل المشترك.

14- عمل العثمانيون على كسب السلطة الروحية بمنحهم امتيازات وصلاحيات واسعة ومتنوعة مادية ومعنوية، وربطوهم بمناصب إدارية وشرقية توارثوها لعدة عقود، لتصبح هذه الامتيازات رابطا بينهم وبين السلطة السياسية التي حافظت على امتيازاتها، إلى فترة متأخرة من الوجود العثماني، لأن المحافظة على امتيازاتها يعني المحافظة على ولائها وتعاونها مع السلطة، ليتحول بذلك أقطاب السلطة الروحية إلى أداة تخدم الحكام.

15- نتيجة الامتيازات التي قدمت لبعض العائلات العلمية والمرابطية مقابل خدمات سياسية وعسكرية وحتى إدارية، ومع مرور الوقت أصبحت هذه العائلات تشكل أقطاعات دينية، مثل عائلة الفكون وعائلة آل مقران أعطى لها طابعا إقطاعيا اعتمد على العائلات الكبرى صاحبة الإمتيازات على حساب التجمعات الريفية وهذا من خلال الإمتيازات التي منحت لهذه الأطراف المتعاملة مع السلطة، فتركز قسم من الثروات بالأرياف بأيديهم، كما قدمت لها السلطة صلاحيات واسعة كاستخلاص الضرائب وتحصيل المغارم، إضافة إلى التسهيلات المقدمة لها فيما يخص حيازة الأرض، حتى أصبحت مراكز الزوايا ومقرات الشيوخ والعائلات الكبرى وغيرهم من المتعاملين مع البايك شبه مخازن للثروات وأماكن لتكديس المحاصيل الزراعية، وبهذا أصبحت هذه المراكز والأطراف من طرق صوفية وزوايا مرابطين قوة مالية وفكرية واجتماعية بإمكانها زعزعة السلطة، وجعلها في خطر مثلما حدث في الفترة الأخيرة أو مرحلة القطيعة، مما أجبر العثمانيين على التفاوض والتفاعل معها بمنطق الند للند .

15- وبهذا ونتيجة الرغبة في الحصول على مكانة مرموقة في المجتمع كانت وراء ادعاء البعض للنسب الشريف، وهو ما جعلنا نجد أن أصول المرابطين متعددة ما بين عربية أمازيغية تركية رومانية، وزنجية، أو منهم انتصب للمشيخة، وأقام الحضرة والوعادات وجمع الأتباع حوله ناشرا بذلك البدع والخرافات، نتيجة افتقاره للوازع الدين ولمبادئ علم التصوف.

16- وبهذا فإن تقرب الحكام من السلطة الروحية، سمح فتح المجال لظهور البدع والمدعين للولاية الذين تشجعهم السلطة، مما خلق تنافسا بينهم من أجل إظهار

كراماتهم تقربا من الحاكم فانتشرت البدع والخرافات، وتحول المرابط والمتصوف من زاهد إلى راغب في الدنيا ومن طالب للآخرة إلى مبتز للرعية باسم الدين والكرامات، أما تقرب الحكام من الفقهاء هو الآخر خلق تنافسا بينهم على المناصب، مما أدى بالبعض منهم إلى طلبها وهو عاجز عن أدائها وكل هذا رغبة في الجاه والمال مما أدى إلى التحاسد والوشاية ببعضهم البعض.

- إن استغلال العثمانيين لهذه القوى الروحية لبسط سلطتهم على الأهالي كان عائقا حال دون قيام وحدة وطنية⁽¹⁾ وهو الأمر الذي حرص العثمانيون على عدم تحقيقه طول مدة تواجدهم بالجزائر منتهجين في هذا سياسة التفرقة وتقسيم السكان إلى قبائل متعاونة مخزنية أو مرابطية لها إمتيازات وقبائل غير متعاونة أي قبائل رعية محكومة وعديمة الحقوق، تدفع الضرائب وتتعرض لتعسفات الجند خاصة أثناء الحملات.

17- إلى غاية القرن 18م عرف العثمانيون كيفية كسب رجال الدين بفعل عامل الدين والجهاد ضد المسيحيين، إلى جانب بقاء نفوذهم في المدن وضواحيها ولم يهتموا بالموارد الداخلية كثيرا لوجود غنائم البحر التي كانت يخصص جزء منها لبعض أقطاب السلطة الروحية، لكن لما تقلصت موارد البحر، تأثرت بها امتيازات السلطة الروحية ومحاولة الحكام إخضاعها لسلطة البايك بعد وتوجههم للداخل، الذي تزامن معه زوال الخطر الاسباني، كل هذا احدث توترا بين السلطتين الذي انتهى بالنفور والعداء والتصادم بداية القرن 19م بعد فترة طويلة من كسبهم تأييد ومساندة أقطابها لهم.

18- إن التحول الاقتصادي والأزمة المالية التي شهدتها الجزائر نهاية القرن 18م، وتوجه السلطة نحو الداخل، ومضاعفتها للحملات العسكرية على القبائل، التي لم تراعي فيها السلطة ظروف السكان، هذه الحملات التي أثارت تذمر المرابطين وشيوخ الزوايا الذين أثر فيهم التحول الاقتصادي، كما كانوا يتلقون شكاوي الأهالي، نتيجة كثرة الضرائب وإخلال العثمانيين بالقاعدة الدينية وتواطئهم مع التجار الأجانب واليهود.

(1) - الفيلالي، المرجع السابق، ص 29.

19- التحالف العثماني مع السلطة الروحية لم يستمر حتى نهاية العهد العثماني بالجزائر بل إنه زال بزوال دوافعه خاصة زوال عامل الجهاد، ضد التواجد الإسباني الذي انتهى باسترجاع مدينة وهران والتفاف الحكام إلى ترسيخ وجودهم نحو الداخل خاصة بعد تفهقر الموارد البحرية، التي دفعت بهم إلى فرض الضرائب الجائرة وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور ثورات وحركات تمرد كانت تعبيرا لرفض السياسة الجبائية المفروضة على أبسط وأقفر الفئات الاجتماعية، هذه الثورات كانت عبارة عن رد فعل عنيف من طرف الرعية تحت زعامة الطرق الصوفية ضد الإجراءات الضريبية التعسفية التي انتهجها الدايات والبايات ضد السكان وهذه الإجراءات كانت نتيجة للتغيير المفاجئ الذي طرأ على الإيالة بعد نقص مواردها البحرية.

20- السلطة الروحية كانت أداة فعالة لترسيخ الحكم العثماني بالجزائر والتي استمر التعاون بينها وبين السلطة العثمانية لفترة طويلة من الزمن، إلا أن هذا التعاون والتحالف لم يستمر حتى نهاية العثماني نتيجة تضارب المصالح، وبالتالي يمكن القول أن التحالف بينهما أملت المصلحة الشخصية، والحظوة التي نالها أقطاب السلطة الروحية لم تكن راسخة بل تخضع لمزاج الحكام وأحيانا ولمدى خضوع القوى الروحية لهم، وأحيانا تتحكم فيها الظروف، خاصة المالية والسياسية.

21- برهنت هذه الثورات على صلة الأهالي بالقوى الروحية، أكثر من صلتهم بالسلطة التي سقطت مكانتها عند السكان، باعتبار القائمين عليها هم رجال الدين، لذلك اتسمت بالشمولية والتنظيم النسبي والشعبية وهو ما أكسبها سرعة الانتشار، ورغم أنها كانت مدعومة من قوى خارجية كتونس والمغرب وبريطانيا إلا أن هذا لا يستبعد أن يكون سكان الجزائر على استعداد للثورة ليس ضد العثمانيين بل ضد السياسة التي انتهجها هؤلاء الحكام الذين تفهقروا مكانتهم لدى الجزائريين، وتضاءلت مصداقيتهم أمام الفئات الشعبية المحرومة.

22- على الرغم مما ألحقته هذه الثورات على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أنها لم تتمكن من القضاء على الوجود العثماني في الجزائر، وهذا لتعدد الطرق الصوفية في الجزائر، مما جعل من الصعب أن تفرض طريقة

ما نفوذها على كامل البلاد، وتعدد حتى الطرق الصوفية الداعية لها واختلاف توجهات زعمائها، وجهات تمركزها، حيث كانت كل طريقة متمركزة في جهة معينة الرحمانية في الوسط والشرق، الدرقاوية غربا، التيجانية جنوبا. وفي الأخير يمكننا القول أن التحالف الذي جمع بين الطرفين مثله اجتماع المصالح المشتركة التي شكلت ائتلاف عثمانى- ديني فعلي لكن هذا الائتلاف لم يدم، بل زال بزوال أسبابه لتتحول السلطة الروحية (شيوخ زوايا- وطرق صوفية) في النهاية إلى قوة فعلية مضادة للسلطة بعدما كانت متعاونة معها وحليفاتها على حساب المحكومين المغلوبين عن أمرهم، كما وأن الظروف الداخلية للجزائر كانت في صالح العثمانيين لتشكيل حكومة ذات صبغة وطنية بإمكانها الصمود أمام الأخطار الخارجية، لكنهم فلم يستغلوا الوضع لصالحهم، بل عملوا على تعيين وسائط زادت من التباعد بينهم وبين السكان، كما أن فكرة التضامن الإسلامي التي اعتمدها وتقربوا بها من السلطة، خاصة الروحية المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية الذين سرعان ما شكلوا «أرستقراطي دينية»، احتكرت لنفسها عدة مناصب، شكلت فيما بعد قوة مالية وفكرية وعسكرية هددت استقرار الحكم العثماني بالجزائر وأضعفته مما فصح المجال لأن تقع الجزائر فريسة الاحتلال الفرنسي.

هذه بعض المقاربات التي توصلت إليها وهي لا تعتبر أحكاما مطلقة ونهائية بل هي قابلة للمناقشة والإثراء، وعسى أن تشكل منطلقا لدراسات مستقبلية مكملة لهذا الجهد العلمي المتواضع.

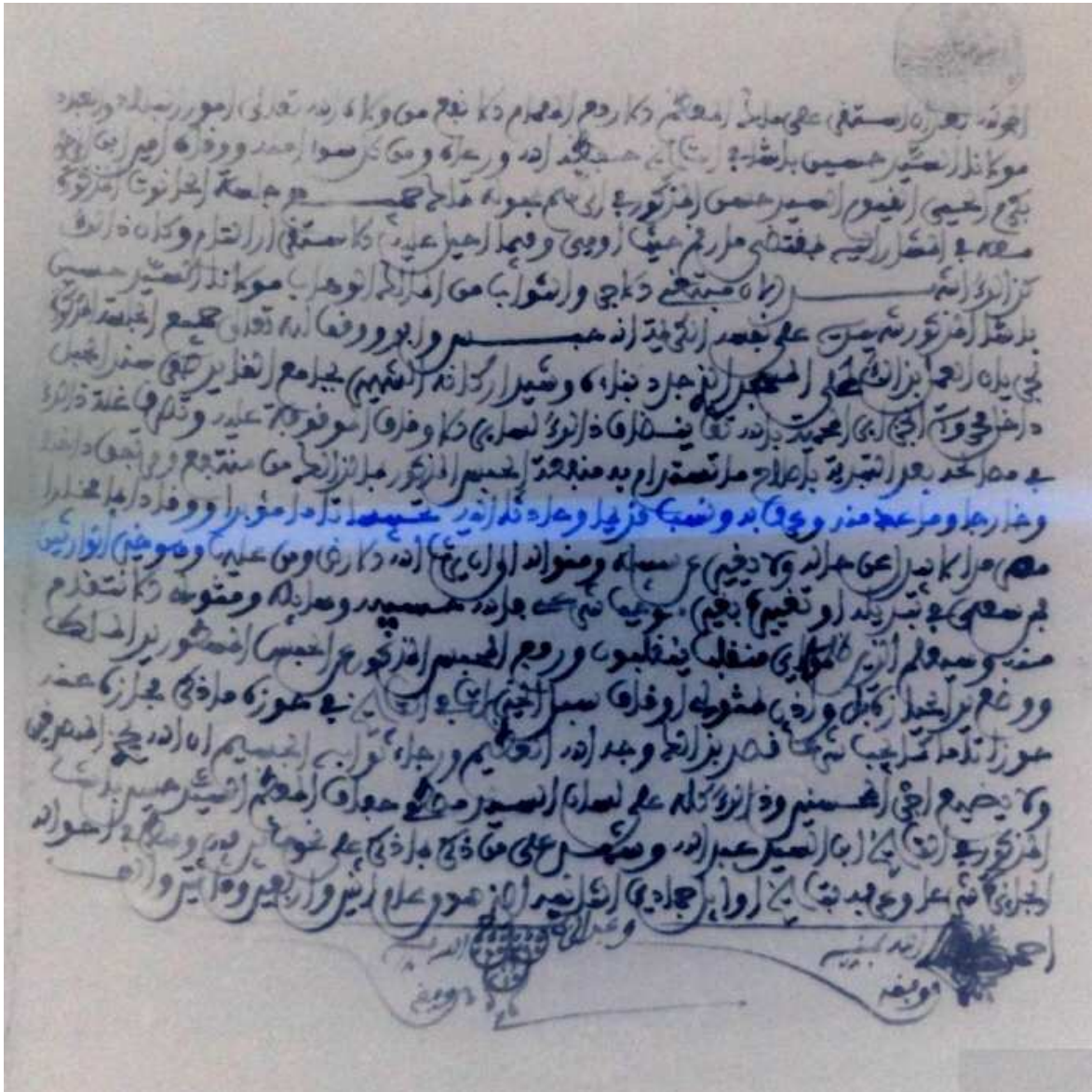
الملاحق

فهرس الملاحق:

- الملحق رقم (01): وثيقة تخص تجديد وحبس جلسة حانوت على جامع صفر من طرف الداوي حسين سنة 1242هـ / 1826م.....ص611
- الملحق رقم (02): عقد تحببس يثبت تجديد الداوي حسين للمسجد الواقع قرب القصبة الجديدة سنة 1234هـ/1818م.....ص612
- الملحق رقم (03): عقد تحببس ذري خاص بعائلة سيدي أحمد بن يوسف الملياني تبرز كذلك تولي الحاج محمد بن عبد الواحد بن سيدي أحمد بن يوسف إمارة ركب الحج.....ص613
- الملحق رقم (04): رسالة من الباي أحمد إلى الداوي حسين تثبت اعتذار أولاد مقران عن دفع باقي الغرامة المفروضة عليهم بسبب الجراد وقلة الخصب.....ص614
- الملحق رقم (05): وثيقة تثبت استشارة الدي للعلماء حول معاوضة أرض وقفية تابعة للجامع الكبير مع ليهود.....ص615
- الملحق رقم (06): وثيقة تحببس لصالح زاوية سيدي لكل.....ص616
- الملحق رقم (07): أمر من السلطان العثماني إلى البايبراي العلي من أجل مساعدة الأندلسيين.....ص617
- الملحق رقم (08): أمر من محمد باشا إلى العمال والسكان في بجاية بعيين الشيخ محمد بن السيد الحسين قاضيا مالكيًا في بجاية.....ص619
- الملحق رقم (09): وثيقة تبين طلب وساطة عالم من أجل إطلاق سراح سجين.....ص620
- الملحق رقم (10): وثيقة تبين إعفاء بعض العلماء من الضرائب.....ص621
- الملحق رقم (11): وثيقة تحببس /مصاهرة بين الداوي شعبان وأحد العلماء.....ص622
- الملحق رقم (12): وثيقة تثبت أمر من الحكام باحترام المرابطين.....ص623
- الملحق رقم (13): وثيقة تثبت تلقي بعض علماء الجزائر إعانات من تونس.....ص624
- الملحق رقم (15): نموذج من القصيدة "النونية" لسعيد المنداسي في ذم الأتراك.....ص625
- الملحق رقم (16): رسالة تبين ما حصل بين الدرقاويين وحكام الجزائر ودور مولاي سليمان...ص626
- الملحق رقم (17): مخطط لهيكل السلطة الروحية.....ص627
- الملحق رقم (18): مخطط حول تطور العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة السياسية.....ص628

الملحق رقم (01)

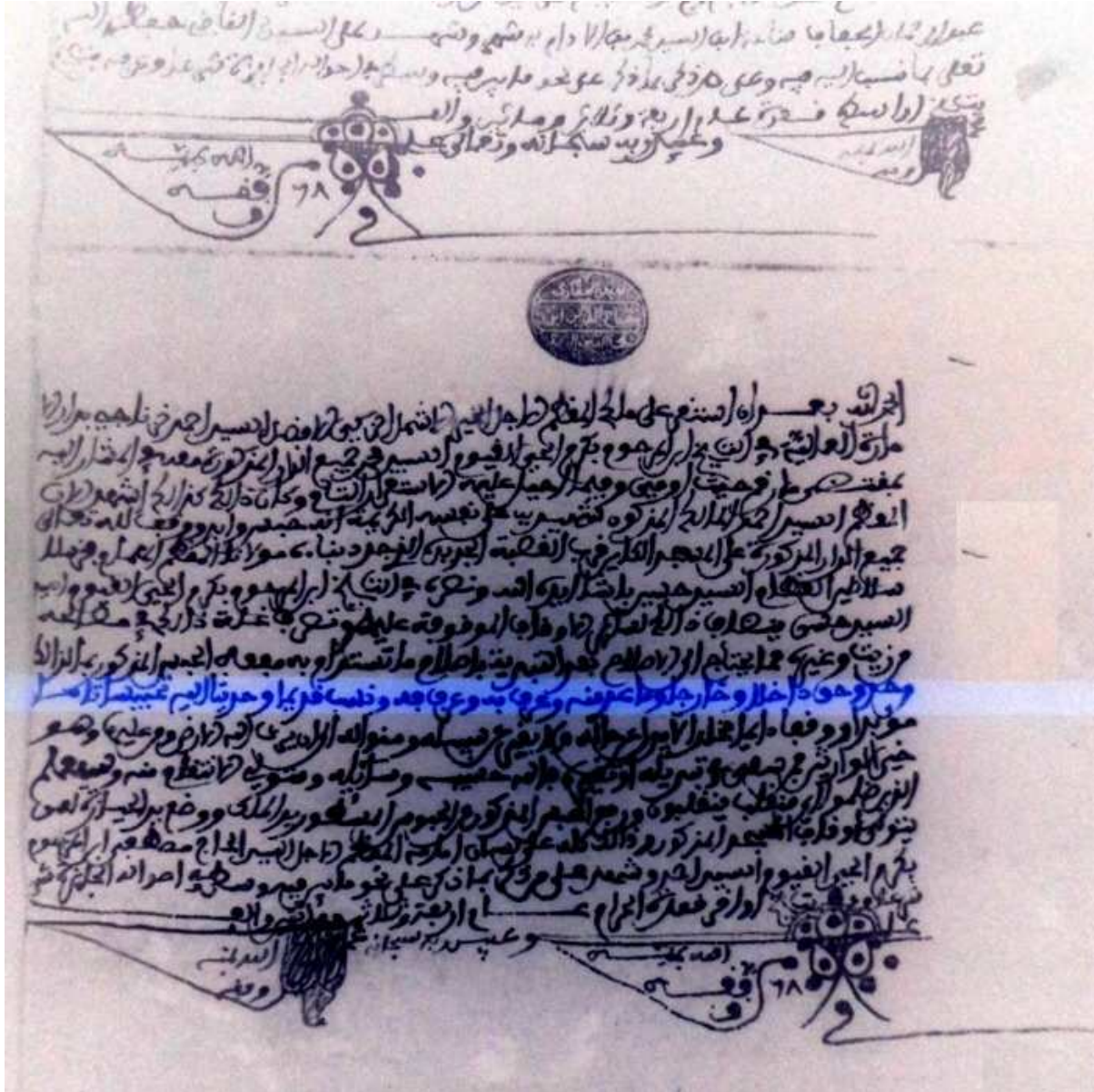
وثيقة تخص تجديد وحبس جلسة حانوت على جامع صفر من طرف الداى حسين



- الأرشيف الوطني الجزائري: سلسلة المحاكم الشرعية:

الملحق رقم (02)

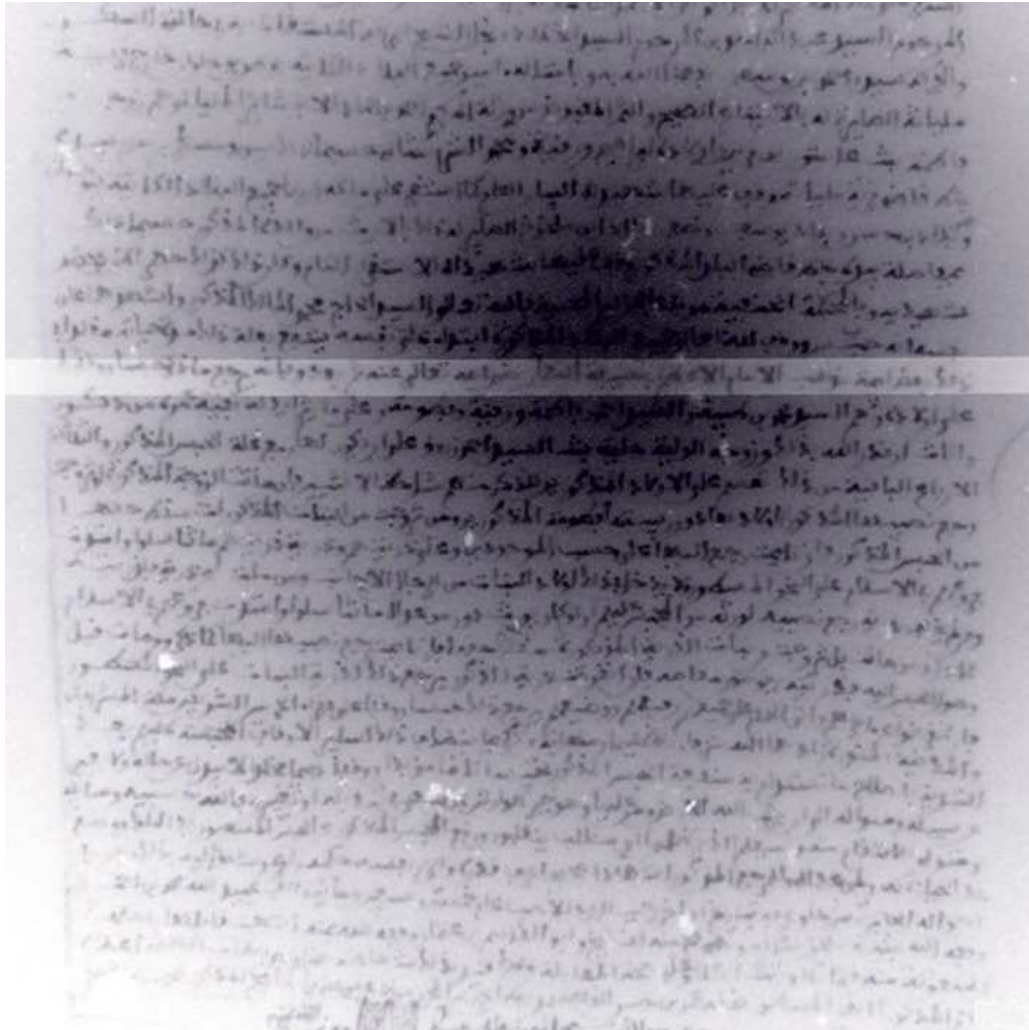
عقد تحبیس یثبت تجدید الدای حسین للمسجد الواقع قرب القصبة الجديدة



- الأرشيف الوطني الجزائري: سلسلة المحاكم الشرعية:.

الملحق رقم (03)

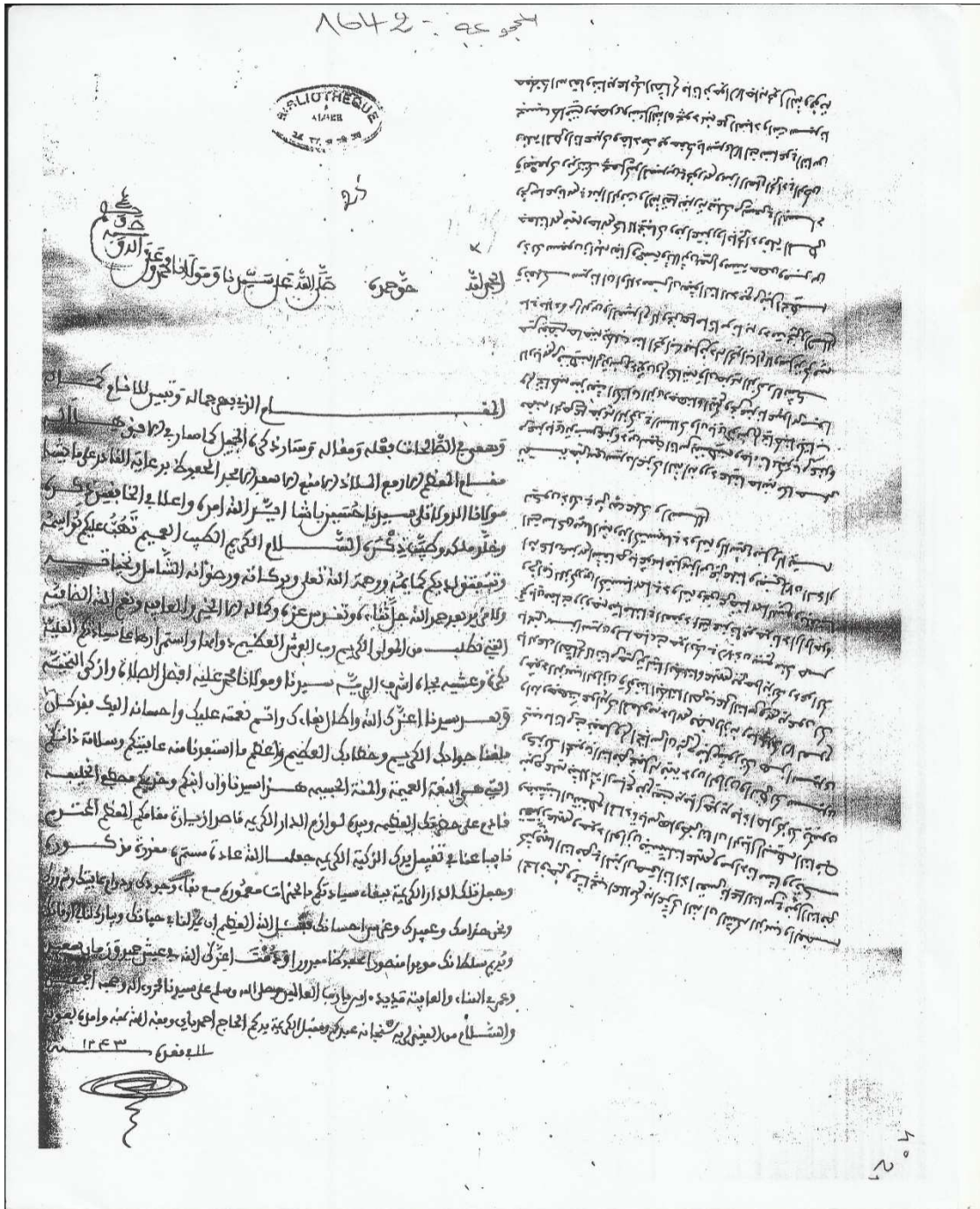
عقد تحبیس ذری خاص بعائلة سيدي احمد بن يوسف الملياني تبرز كذلك تولى الحاج محمد بن عبد الواحد بن سيدي أحمد بن يوسف إمارة ركب الحج



-الأرشيف الوطني الجزائري: سلسلة المحاكم الشرعية:

الملحق رقم (04)

وثيقة رسالة من الباي أحمد إلى الداوي حسين تثبت اعتذار أولاد مقران عن دفع باقي الغرامة المفروضة عليهم بسبب الجراد وقلة الخصب



- المكتبة الوطنية الحامة، قسم المخطوطات

الملحق رقم (05)

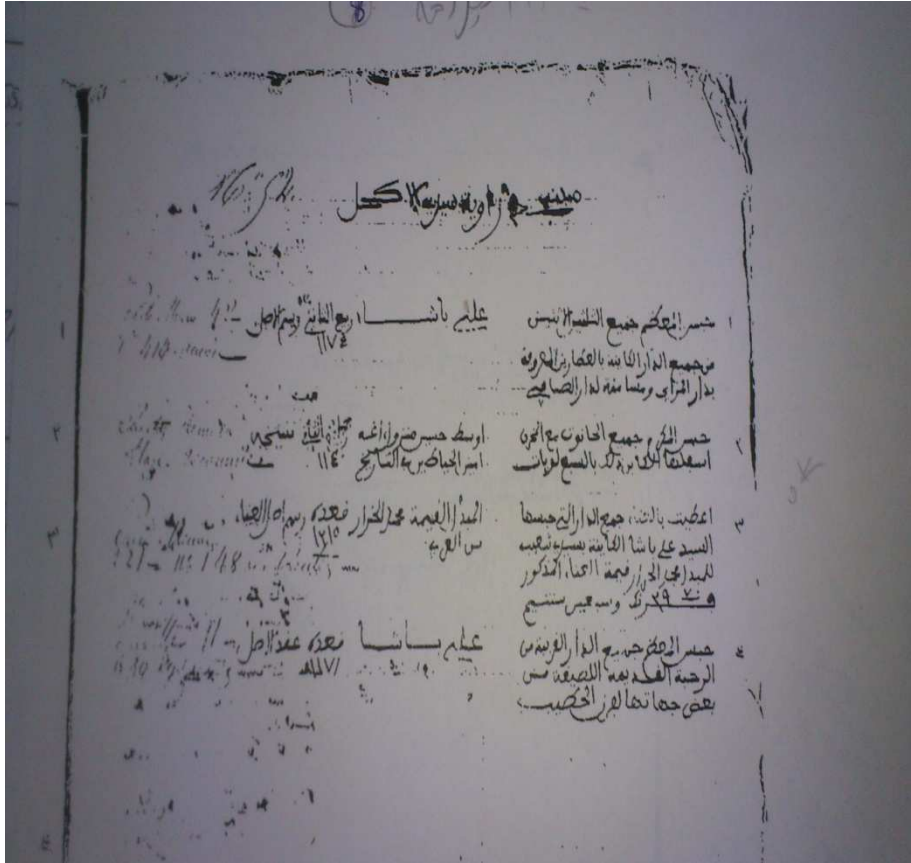
وثيقة: وثيقة تثبت استشارة الدي للعلماء حول معاوضة أرض وقفية تابعة للجامع الكبير مع

اليهود

[illegible]

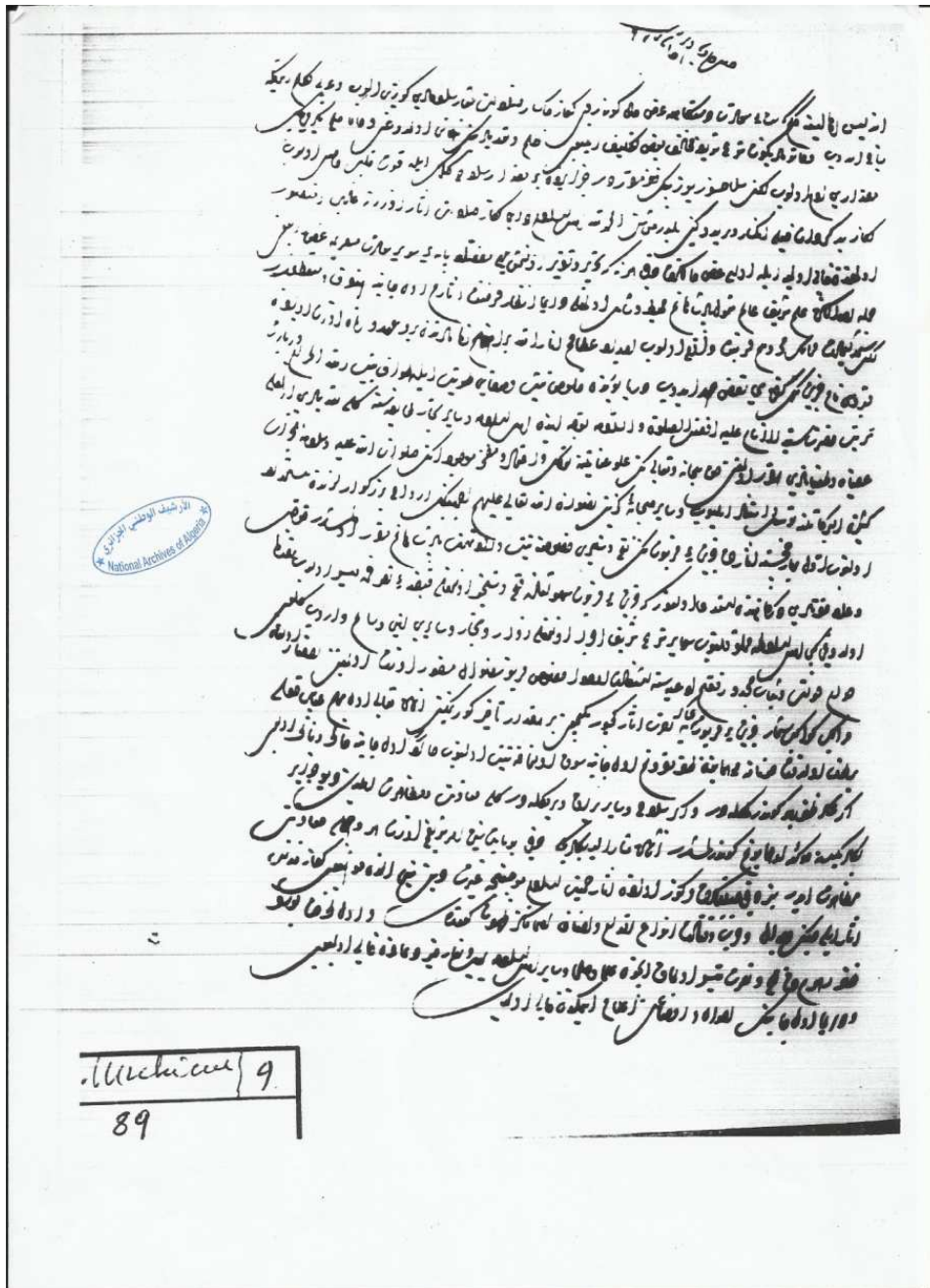
- المكتبة الوطنية الحامة قسم المخطوطات .

الملحق رقم (06): وثيقة تحبیس لصالح زاوية سيدي لحل



- سجل بيت المال والبايلك رقم .

الملحق رقم (07): وثيقة: أمر من السلطان العثماني إلى البايبراي العليج علي من أجل
مساعدة الأندلسيين



الأرشيف الوطني الجزائري: دفتر مهم،

الوثيقة مترجمة:

الجزائر في :

حكم رقم 231

صفحة 89

مهمة دفترى رقم 9

بتاريخ / 24 / 10 / 977

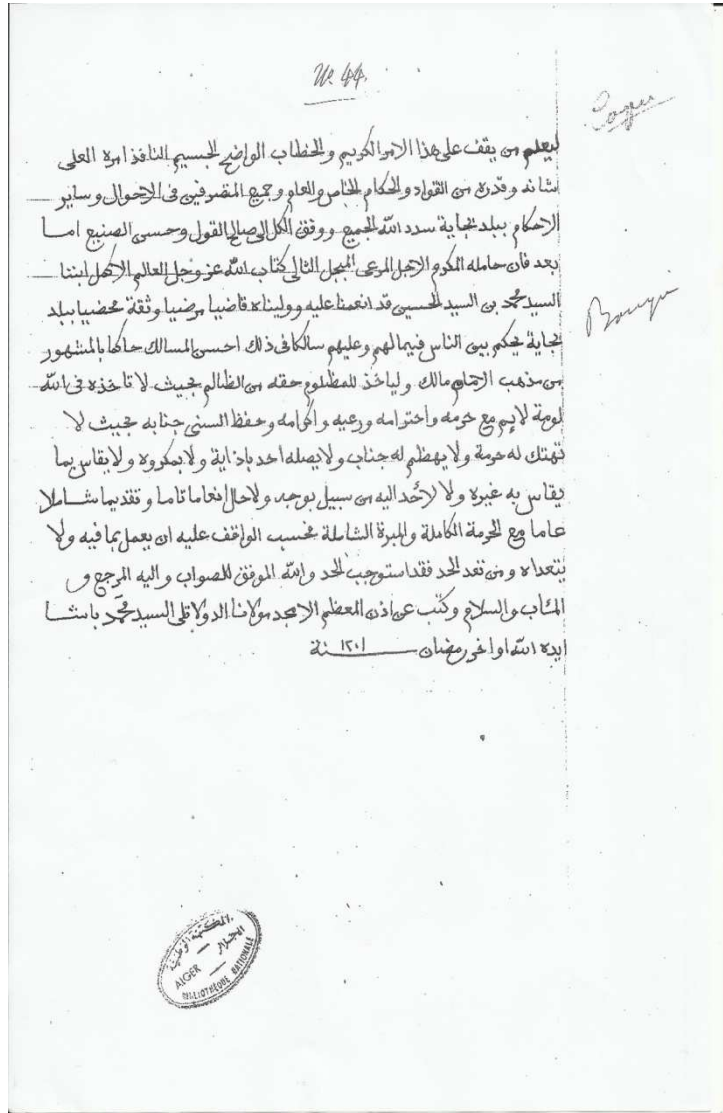
اعطى الى خليل جاون في 10 ذوالقعدة



حكم الرئاسي ايهالي الاندلس .
وصل الى استانة سعادتنا عرضا لكم الذي جاء فيه بان الكفار
اعصابهم الدمار ، وجعل الضلالة لهم شعار قد سلبوكم ابلحتكم ومنعوكم
من تحدث العزيمة ، وانهم تعرضون لنسائكم ، ويمارسون كل انواع الظلم
والتعدي عليكم . وتعلمون انه يوجد حاليا لديكم عشرين الف رجل مسلح
كما ان هناك مئة الف رجل قادر على حمل السلاح . علمنا باستلامكم مقدارا
من السلاح من الجزائر وان ذلك قد رسط على قلوبكم وتمكنتم بذلك من تكبيد
الكفار العديدين من الخسائر فالحمد لله ولنصير اهل الاسلام ، ويكتب لهم
الفوز الدائم على الكفار جعل الضلالة لهم شعار .
وقد عرضنا بالتفصيل كل ما جاء في عرضا لكم من تحريرات تقريرات
علي سوير سعادتي ، واحاط علي الشريف الملوكي وشمل كل ما يتعلق
بأحوالكم واخباركم وان انظارى منصرفة دائما نحوكم ولكن كفرة جزيرة قيسر
القرية من حمالكم المحروسة والتي كانت على العهد والامان منذ زمان رية
اجدادى العظام انار الله براهينهم الا انهم نقضوا تلك العهود ، واخذوا
بالتعدي على التجار واهل الاسلام المسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام
وزيارة تربة حضرة سيد الانام ، عليه افضل الصلوة والسلام نجلوسا لنية و صفا
الطوبى / الطوبى وبذلك فانهم مصرور على العصيان والظن ان لذا فبعد
الترك والاعتماد على علو غاية الحق سبحانه وتعالى ، والتوسل والاستئذان
الى المعجزات الكريمة البركات لخير الموجودات صلوات الله عليه وسلامه ، و
كذلك بالاستعداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله
تعالى اجمعين فقد ستقرت نيتي الملوكية على قح وتخير الجزيرة العزيرة
في الربيع الخير القادم ونضرت الى عتبة حضرة الحق جلي وعلان بيسر لنا فتح
وتخسير تلك الجزيرة وان ييسط ايدينا عليها حتى تاهل باهل الاسلام
كما كانت عليه وكى تمام فيها شعائر الشر الشريف وحتى ينامن التجار و
يسلموا في غدوهم ورواجهم وينضروا للدعاء وثبات ومجد ورنة الدولة
وبما ان الوضع على هذا المنوال ، فان ارسال الاسطول الهمايوني المظفر
لحمايتكم سيتا خريشما يتم اصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة
المنصورة وسيتم ذلك انما الاسطول لمعنته بعناية الحق وقد ارسل امرى

الملحق رقم (08): وثيقة أمر من محمد باشا إلى العمال والسكان في بجاية بعيين الشيخ

محمد بن السيد الحسين قاضيا مالكا في بجاية



- المكتبة الوطنية الحامة قسم المخطوطات

- المكتبة الوطنية الحامة قسم المخطوطات

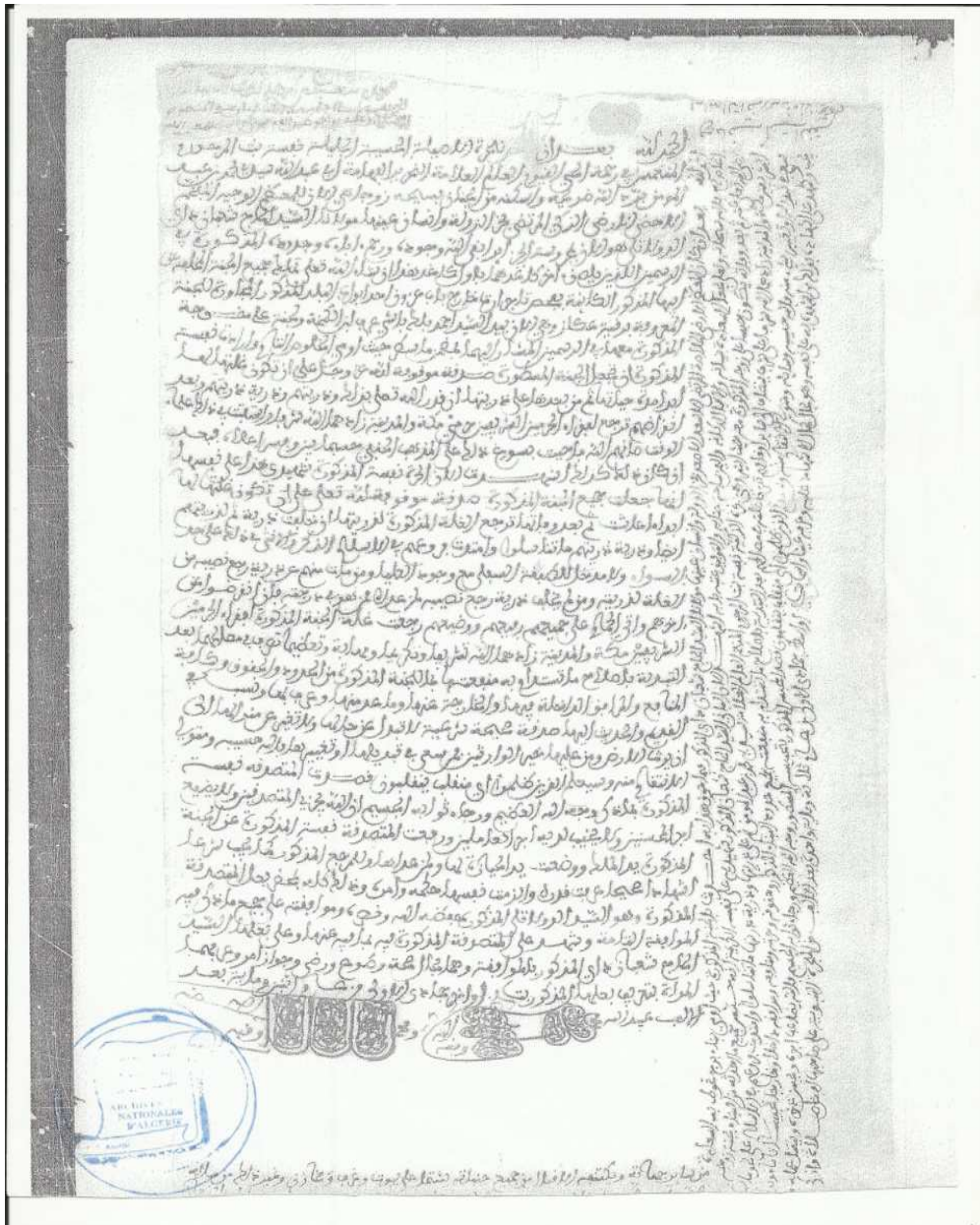
620

الملحق رقم (10): وثيقة تبين إعفاء بعض العلماء من الضرائب

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
 ليعلم الواقف عليه على هذا الأمر الشريف والخطاب الواضح الجسيم النافذ والعلوي
 شتاً له وفدراً من الفوائد والعمال والخاص والعام من سائر المصروفين والأحوال ببلدتنا
 الجارية المحمية بالله تعالى من سوء الدواب وسائر كمالاتها سجد لله الجميع ووقف الكل
 إلى صالح القول وحسن الصنيع أما بعد فقد أتقوا أمرنا الشريف وعزمتنا العلية
 السديدة على أن نأخذ أنعمنا على السادات الأبرار والعلماء الأفاضل البغية
 لأجل التقوى أفضل التآله كتاب الله عز وجل بسبيل محمد بن زبب وميسر العرب
 وميسر الصواري والنسب عابد ومأجدة أولاد سيده الحاج عبد الهادي
 أنعمنا تماماً شاملاً عاماً وحررناهم أي رفعنا عنهم أو الكمال المخرجه
 خليلها وجليها عليه وعلى ألقابها وألقابها حتى رث الله الأرض
 ومن عليها وهو خير الوارثين لأنه ثبت لدينا أنهم شرفاً، النسب ووافر مرفع
 أيهم الأرمي مع التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد وعظنا
 عنهم الخطاب الخيرية فلت أوجلت لأنهم لذلك أهل لهم إيجاب اهل عصبة الله
 ومن عاوا أحسنهم صنعا وأولاهم عهداً وأصدقهم وعداً فلا يسم أحد بسوء
 خوار ولا يحال ومن تعرض لهم فقد حلت عليه عفوشتنا الشديدة وتجر عليه
 احكامنا بحيث لا يفرجه منا مانع ولا يشجع له شجاع وعلى هذا يكون
 أمر ولا تالاسم الباطل الخصام من فاض ومعت وكلام وقد أوصينا وأكدها
 لهم بالتعظيم والاحترام والمهابة والكرام وقد أنعمنا عليهم أنعماً تاماً شاملاً
 عاماً محسب الواقف عليه العلم بمعية ولا يخالفه أحد ولا يتعدى عليهم
 والله الموفق للصواب واليه المرجع والشاب رب غيب ولا معبود سواه والأمر
 كله لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام التام إلى الأبد والختام
 وتحت على أذن المفتح الأربع الهام لا نفع مؤاناة الدنيا من السور حسبي فاست
 انحاء الله من الخيرات ما يشاء آمين آمين آمين آمين آمين آمين آمين آمين
 الف وهو من عام ١٢٣٥
 ونص الخاتمة
 المتولى على الأمر
 عبد الحسين بن
 حسن بن محمد

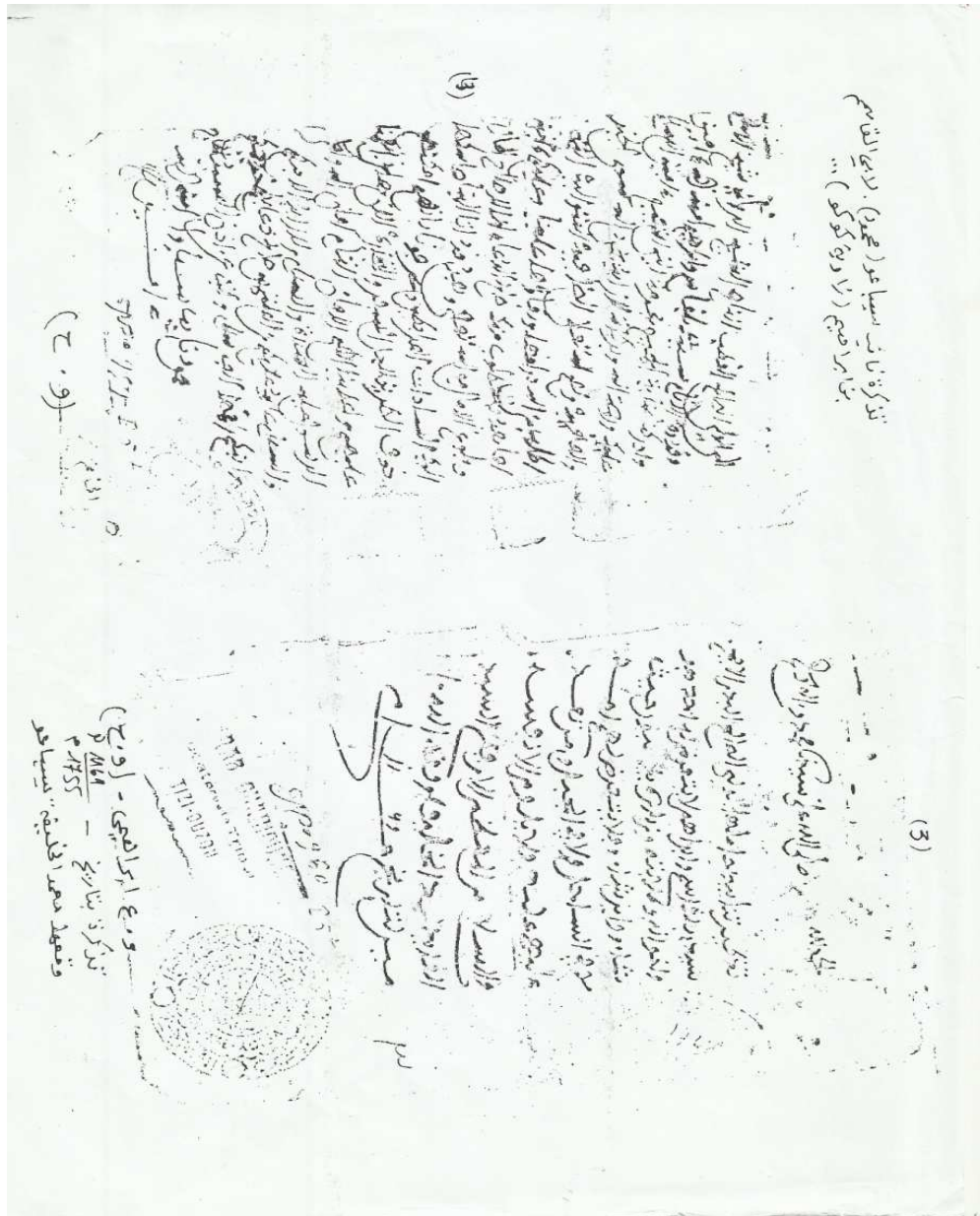
المكتبة الوطنية الحامة، قسم المخطوطات،

الملحق رقم (11): وثيقة تحبيس /مصاهرة بين الداوي شعبان وأحد العلماء



سلسلة المحاكم الشرعية،

الملحق رقم (12): وثيقة تثبت أمر من الحكام باحترام المرابطين

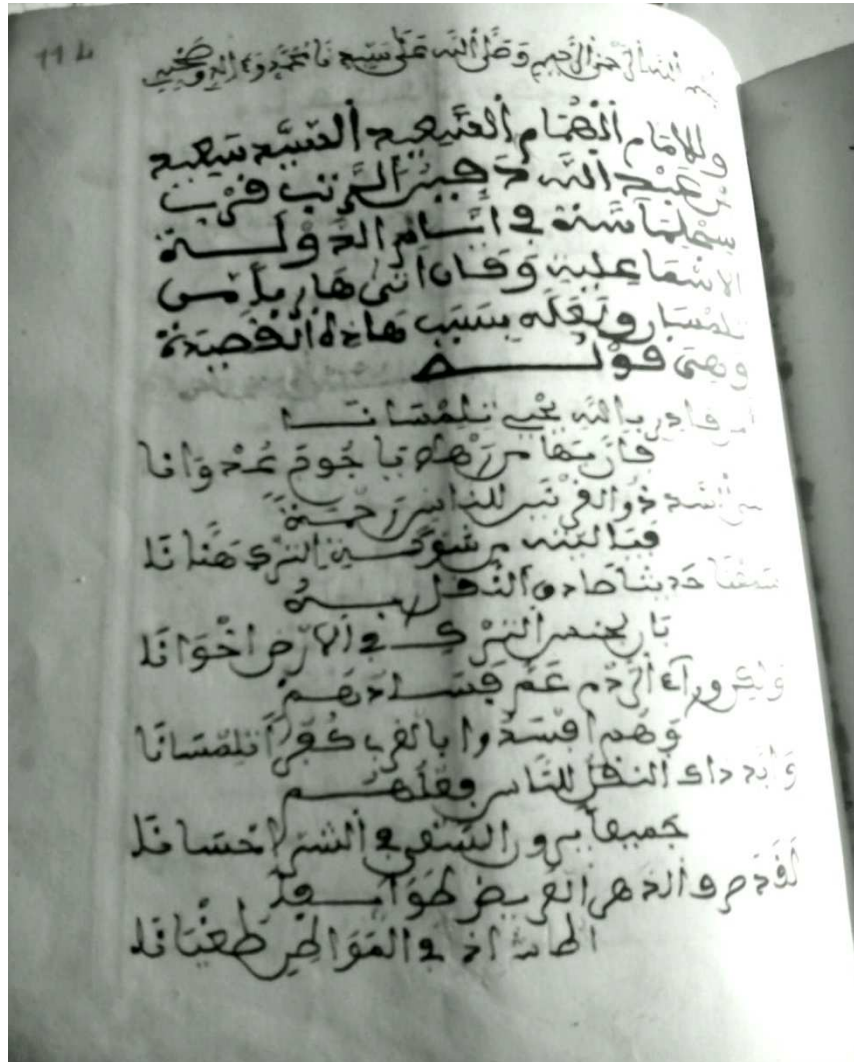


- نموذج من الوثائق (ملك لعائلة براهيمية) والتي تخص
إمارة كوكو، سلمت لي من طرف الأستاذ أرزقي شويتام

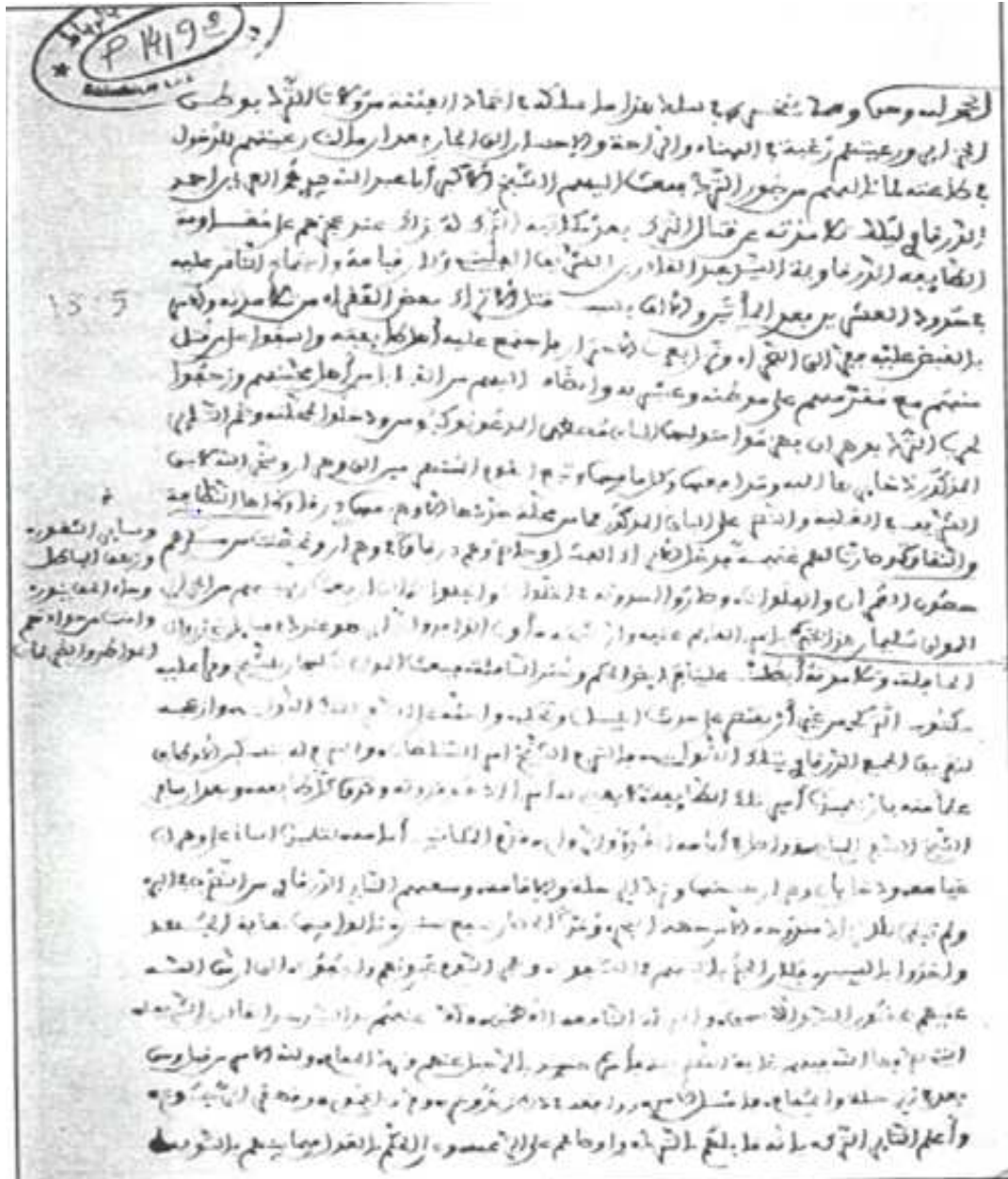
الحاشية لفلسطين وملكها		١٥١٤
١	١٥١٤	١٥١٤
٢	١٥١٤	١٥١٤
٣	١٥١٤	١٥١٤
٤	١٥١٤	١٥١٤
٥	١٥١٤	١٥١٤
٦	١٥١٤	١٥١٤
٧	١٥١٤	١٥١٤
٨	١٥١٤	١٥١٤
٩	١٥١٤	١٥١٤
١٠	١٥١٤	١٥١٤
١١	١٥١٤	١٥١٤
١٢	١٥١٤	١٥١٤
١٣	١٥١٤	١٥١٤
١٤	١٥١٤	١٥١٤
١٥	١٥١٤	١٥١٤
١٦	١٥١٤	١٥١٤
١٧	١٥١٤	١٥١٤
١٨	١٥١٤	١٥١٤
١٩	١٥١٤	١٥١٤
٢٠	١٥١٤	١٥١٤
٢١	١٥١٤	١٥١٤
٢٢	١٥١٤	١٥١٤
٢٣	١٥١٤	١٥١٤
٢٤	١٥١٤	١٥١٤
٢٥	١٥١٤	١٥١٤
٢٦	١٥١٤	١٥١٤
٢٧	١٥١٤	١٥١٤
٢٨	١٥١٤	١٥١٤
٢٩	١٥١٤	١٥١٤
٣٠	١٥١٤	١٥١٤
٣١	١٥١٤	١٥١٤
٣٢	١٥١٤	١٥١٤
٣٣	١٥١٤	١٥١٤
٣٤	١٥١٤	١٥١٤
٣٥	١٥١٤	١٥١٤
٣٦	١٥١٤	١٥١٤
٣٧	١٥١٤	١٥١٤
٣٨	١٥١٤	١٥١٤
٣٩	١٥١٤	١٥١٤
٤٠	١٥١٤	١٥١٤
٤١	١٥١٤	١٥١٤
٤٢	١٥١٤	١٥١٤
٤٣	١٥١٤	١٥١٤
٤٤	١٥١٤	١٥١٤
٤٥	١٥١٤	١٥١٤
٤٦	١٥١٤	١٥١٤
٤٧	١٥١٤	١٥١٤
٤٨	١٥١٤	١٥١٤
٤٩	١٥١٤	١٥١٤
٥٠	١٥١٤	١٥١٤
٥١	١٥١٤	١٥١٤
٥٢	١٥١٤	١٥١٤
٥٣	١٥١٤	١٥١٤
٥٤	١٥١٤	١٥١٤
٥٥	١٥١٤	١٥١٤
٥٦	١٥١٤	١٥١٤
٥٧	١٥١٤	١٥١٤
٥٨	١٥١٤	١٥١٤
٥٩	١٥١٤	١٥١٤
٦٠	١٥١٤	١٥١٤
٦١	١٥١٤	١٥١٤
٦٢	١٥١٤	١٥١٤
٦٣	١٥١٤	١٥١٤
٦٤	١٥١٤	١٥١٤
٦٥	١٥١٤	١٥١٤
٦٦	١٥١٤	١٥١٤
٦٧	١٥١٤	١٥١٤
٦٨	١٥١٤	١٥١٤
٦٩	١٥١٤	١٥١٤
٧٠	١٥١٤	١٥١٤
٧١	١٥١٤	١٥١٤
٧٢	١٥١٤	١٥١٤
٧٣	١٥١٤	١٥١٤
٧٤	١٥١٤	١٥١٤
٧٥	١٥١٤	١٥١٤
٧٦	١٥١٤	١٥١٤
٧٧	١٥١٤	١٥١٤
٧٨	١٥١٤	١٥١٤
٧٩	١٥١٤	١٥١٤
٨٠	١٥١٤	١٥١٤
٨١	١٥١٤	١٥١٤
٨٢	١٥١٤	١٥١٤
٨٣	١٥١٤	١٥١٤
٨٤	١٥١٤	١٥١٤
٨٥	١٥١٤	١٥١٤
٨٦	١٥١٤	١٥١٤
٨٧	١٥١٤	١٥١٤
٨٨	١٥١٤	١٥١٤
٨٩	١٥١٤	١٥١٤
٩٠	١٥١٤	١٥١٤
٩١	١٥١٤	١٥١٤
٩٢	١٥١٤	١٥١٤
٩٣	١٥١٤	١٥١٤
٩٤	١٥١٤	١٥١٤
٩٥	١٥١٤	١٥١٤
٩٦	١٥١٤	١٥١٤
٩٧	١٥١٤	١٥١٤
٩٨	١٥١٤	١٥١٤
٩٩	١	

624

الملحق رقم (15): نموذج من القصيدة "النونية" لسعيد المنداسي في ذم الأتراك

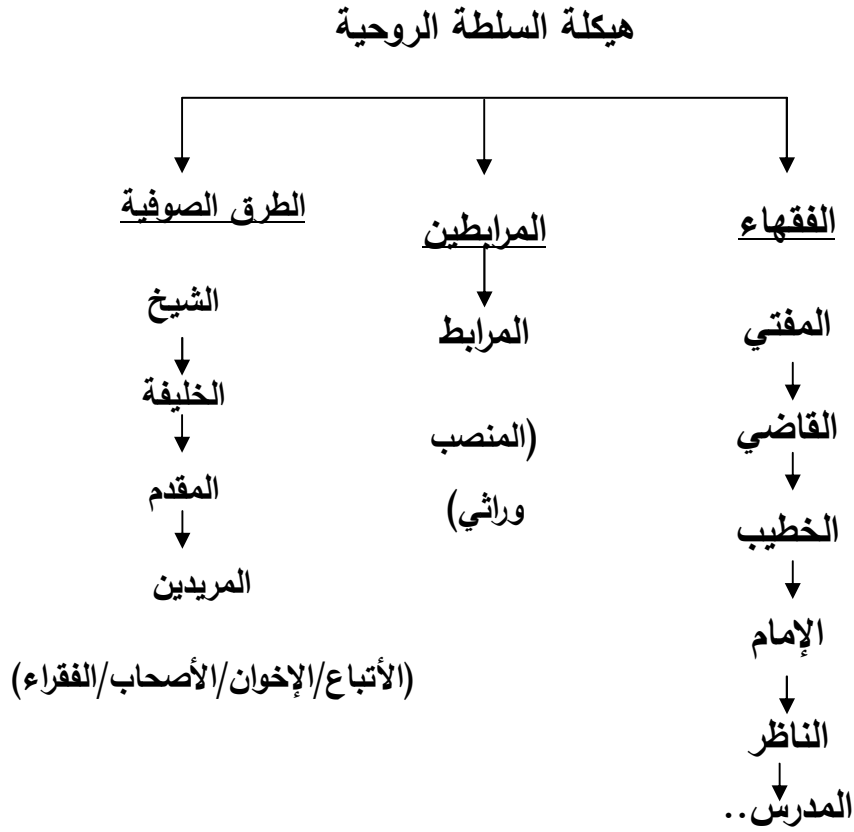


المكتبة الوطنية، الرباط، المغرب،

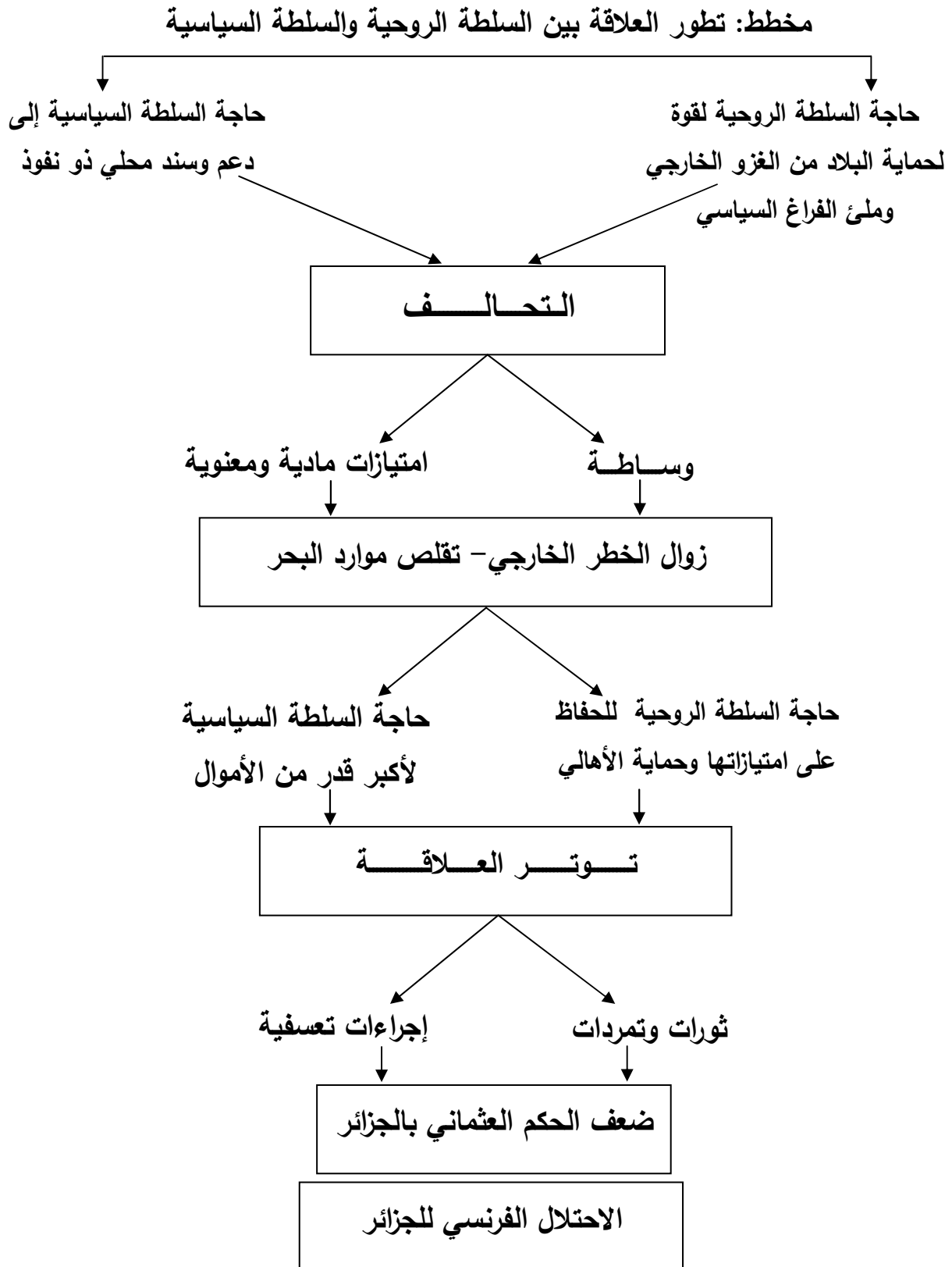


عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة ، مصر، 2006م، ج5

الملحق رقم (17): مخطط لهيكل السلطة الروحية



الملحق رقم (18)



البيبيوغرافيا

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم والأحاديث الشريفة:

السورة	رقم الآية	السورة	رقم الآية	السورة	رقم الآية
الحجرات،	13	الجن	11 و 16	المائدة	02
البلد	8 و 11	النساء	168	طه	104
النحل	43 و 99	الأَنْفَال	60	يونس	62
آل عمران	200 و 92	البقرة	257	النمل	40

2- الوثائق الأرشيفية:

أ - قسم المخطوطات، المكتبة الوطنية الحامة:

مجموعة 1462 الوثيقة 25	مجموعة 3206 ملف 02 وثيقة رقم 14
المجموعة 3205، الملف 03، الوثيقة 44.	المجموعة 3206 ملف 02، وثيقة رقم 5 ¹
المجموعة 1462 وثيقة رقم 04 .	المجموعة 1462، وثيقة رقم 13
المجموعة 1641 -وثيقة 58 +وثيقة 61	المجموعة 3205، ملف 02، وثيقة 53،
المجموعة 1 641 وثيقة 125	المجموعة 3190، الملف 01، الوثيقة 53.

الأرشيف الوطني الجزائري بئر خادم:

1- دفاتر مهمة: - دفتر مهم، رقم 09، صفحة 89 حكم رقم 231.

- دفتر مهم، رقم 09، صفحة 77 حكم رقم 204.

2- سجلات البايك وبيت المال: - سجل رقم 335.

- سجل رقم 109.

- سجل رقم 68، علبة 12.

3- سلسلة المحاكم الشرعية:

العلبة/الوثيقة	العلبة/الوثيقة	العلبة/الوثيقة
علبة 132، 133، و 05.	علبة 129 و 38	علبة 132. 133 و 76
علبة 76، و 92	علبة 129 و 50	علبة 132/133 و 78
علبة 55، و 49.	علبة 61 و 37	علبة 132. 133 و 88

علبة 02 و 2/18	علبة 40 و 61	335، و 13.
علبة 100/ 99	علبة 133. 132	علبة 1، و 16.
علبة 42 و 141	علبة 133. 132 و 62	علبة 133-132، و 04.
علبة 129	علبة 133. 132	علبة 1/27 و 46
علبة 14 و 60	علبة 03 و 61	علبة 129
علبة 16 و 1/19	علبة 50 و 58	علبة 129 و 33
علبة 10 و 34	علبة 55	علبة 133. 132 و 31
علبة 36 و 102 / 101	علبة 14 و 60	علبة 23 و 60

ج- الأرشيف التونسي، دفتر 2144، ورقة 156 / 160 / 176.

د- الأرشيف الفرنسي، أرشيف ما وراء البحار (A.O.M.Aix-En-Provence)، سلسلة Z21 علبة 01، وثيقة 53.

هـ- الأرشيف الخاص، 04 وثائق ملك بعائلة براهيمى بتيزي وزو، تخص إمارة كوكو قدمت لي من طرف الأستاذ أرزقي شويتام.

3- المخطوطات:

1- الأخضري عبد الرحمن، المنظومة القدسية أو منظومة سيد الرحمن الأخضري في رد على المبتدعة، مكتبة جامعة الرياض، السعودية، رقم 2062.

2- التتلائي التواتي عبد الرحمن بن باديس، رحلة من توات إلى الجزائر، مخطوط خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، الجزائر.

3- الثعالبي عبد الرحمن، وصية الثعالبي، مخطوط رقم 13354، الخزانة الحسنية، المغرب.

4- الصباغ محمد بن علي، بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط رقم 1707، قسم المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر.

5- الغريسي محمد بوزيان الشريف الحسيني، كنز الأسرار في مناقب العربي الدرقاوي، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، المغرب، رقم 13905.

6- الفكون عبد الكريم، محدد السنان في نحر إخوان الدخان، مخطوط رقم 6929،
الخزانة الحسنية، المغرب.

7- المنداسي سعيد بن عبد الله، قصيدة نونية في ذم الأتراك الحاكمين لتلمسان،
مخطوط رقم D1656، المكتبة الوطنية، الرباط، المغرب.

8- الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار مخطوط رقم 1632، قسم
المخطوطات، مكتبة الحامة، الجزائر.

4- المصادر بالعربية:

1- الإفرائي محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة إنجي،
د.ب، 1888م.

2- الألوسي شهاب الدين محمود، الفيض الوارد في شرح مرثية مولانا خالد، د.د، د.ت.

3- البوني أحمد بن قاسم، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح. سعد بوفلاقة،
منشورات بونة لبحوث والدراسات، بونة، الجزائر، 2007م.

4- التغمروطي علي بن محمد الجازولي، النفحة المسكية في السفارة التركية 1589،
تقديم سليمان الصيد، دار بوسلامة، تونس، 1988م.

5- ابن تيمية تقي الدين أحمد:

- مجموعة فتاوي، جمع عبد الرحمن بن محمد قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد
لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1415هـ، ج 11.

- الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، تح. عبد الرحمن عبد الكريم اليحي،
دار الفضالة، الرياض، السعودية، د.ت.

6- الجامعي عبد الرحمن، فتح مدينة وهران، تحقيق د.حساني مختار تاريخ تحرير
مدينة وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال
مخطوطين، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، 2003م.

7- الجوزي عبد الرحمن، تلبيس إبليس، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.

8- الحاج بن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية،
تح. أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

9- ابن حرازم علي بن العربي، جواهر المعاني وبلوغ الاماني في فيض سيدي أبي
العباس التيجاني، المطبعة المحمودية، مصر 1318هـ.

- 10- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ط2، تر. محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ج1، ج2.
- 11- ابن حمادوش عبد الرزاق، لسان المقال في النبأ عن النسب والحال، تح. أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1983م.
- 12- ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمن،
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تقديم، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000م، ج06.
- المقدمة، فصل 29 "البيعة"، تح. عبد الله محمد درويش، ط1، دار يعرب، دمشق، سوريا، 2004م، ج1.
- المقدمة، تح. عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار البلخي، دمشق، سوريا، 2006م، ج2.
- 13- خوجة حسين، صفحات في تاريخ تونس، تق. وتح. حمادي الساحلي بن الحاج يحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
- 14- خوجة حمدان بن عثمان،
- المرأة، لمحة تاريخية وإحصائية لإيالة الجزائر، تح. وتع. محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975م.
- إتحاف المنصفين والأدباء ففي الاحتراس من الوباء، تق وتح. محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.
- 15- الرازي محمد بن أبي بكر شمس الدين، حقائق الحقائق، تح. وتقديم، سعيد عبد الفتاح/ ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002م.
- 16- الرازي يحي بن معاذ، جواهر التصوف، شرح وتعليق، سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2002م.
- 17- ابن رقية التلمساني محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النيرة بما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جند الكفرة، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع03، 1967م.
- 18- ابن زرفة مصطفى، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تح. مختار حساني، مخبر المخطوطات بوزريعة، الجزائر، 2000م.

- 19- الزهار أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشرف الجزائر، تقديم أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1972م.
- 20- الزواوي أبو يعلى، تاريخ الزواوة، تق. سهيل الخالدي، ط2، وزارة الثقافة، الجزائر، 2005م.
- 21- الزياني أبو القاسم، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، المطبعة الجمهورية، باريس، فرنسا، 1886م.
- 22- الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح. عبد الكريم الفيلاي، ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991م.
- 23- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تح. وتقديم. المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م.
- 24- ابن سحنون أحمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح. وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1979م.
- 25- السلاوي الناصري أبو العباس بن أحمد، الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى، تح. وتع. جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ج4، ج5، ج7، ج8.
- 26- السلمي أبو عبد الرحمن، الطبقات الصوفية، ط2، تح. أحمد الشرباصي، مؤسسة دار الشعب، د.ب، 1998م.
- 27- الشويهد عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ / 1695-1705م)، ط1، تح. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006م.
- 28- العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية، تق. سعيد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007م.
- 29- ابن العطار أحمد بن المبارك، تاريخ بلد قسنطينة، تح. تع. رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982م.
- 30- ابن عمار أبو العباس أحمد،
- أشعار جزائرية، تح. تقديم. أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1988م.
- نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا، 1903م، الجزائر.

- 31- العنتري محمد الصالح،
- مجاعات قسنطينية، تح. رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م.
- فريدة مؤنسة في حال دخول الأتراك بلد قسنطينية، مراجعة وتقديم وتعليق د. يحي بوعزيز، دم.ج، الجزائر، 1991م.
- 32- العياشي سكيرج الحاج أحمد بن الحاج، كشف الحجاب عن تلاقي مع الشيخ التيجاني من الأحاب، د.ب، 1961م.
- 33- العياشي عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية 1661-1663م، ط1، تح. سعيد الفاضلي -سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006م.
- 34- الغزالي أبو حامد محمد، إحياء علوم الدين، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- 35- ابن الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح. وت. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م.
- 36- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تح. عبد الحليم محمد، محمود بن الشريف، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1989م.
- 37- ابن قنفذ أحمد أبو العباسي، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق. تح. محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- 38- كاتكارت، "مذكرات أسير الداى"، قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة إسماعيل العربي، دم.ج،
- 39- كريخال مارمول، إفريقيا، تر، من الفرنسية، محمد حجي وآخرون، المعرفة، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ج2، ج3.
- 40- ابن عسكر الشفشاوني محمد ، دوحة الناشر لمن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ط2، مطبوعات دار المغرب، الرباط، المغرب، 1977م.
- 41- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولاية الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي،، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989م.

- 42- مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، حقيق. حساني مختار، منشورات، حلب الجزائر، 1999.
- 43- مجهول، غزوات عروج وخير الدين تصحيح وتنع، نور الدين عبد القادر، مطبعة الثعالبة، الجزائر، 1934م.
- 44- مذكرات خير الدين خير الدين بربروس، تر، محمد دراج، ط1، الأصالة للنشر، الجزائر، 2010م.
- 45- مريم التلمساني محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
- 46- المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا أواخر القرن 19م، تح. ودراسة يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990م.
- 47- مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح وتنع، رابح بوثر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م.
- 48- المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان من الأعراب كبني عامر، تح. وتق. محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.
- 49- ابن المفتي حسين بن رجب، تقييدات بن المفتي، تح. فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2009م.
- 50- المقرري شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب الأقصى، 1939م، ج3.
- 51- المقرري شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، ج4.
- 52- المكناسي محمد بن عبد الوهاب، رحلة المكناسي، تح. محمد بوكبوط، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت، لبنان، 2003م.
- 53- ابن ميمون الجزائري محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981م.

- 54- الناصري محمد أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح. محمد بن عبد الكريم، م.و.ك، الجزائر، 1986م،
- 55- النبھاني يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، تح. إبراهيم عطوة عوض، ط1، مركز هلنسة، بركات رضاك معجزات الهند، ج1، 2001م.
- 56- ابن هطال محمد التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي، تح. محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1969م.
- 57- الورثيلاني الحسين، نزھة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1908م.

5- المراجع:

- 1- إبراهيم نبيلة، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار قباء للنشر والتوزيع، مصر، 1992م.
- 2- الإبراهيمي محمد البشير، الطرق الصوفية، ط1، مكتبة الغرباء الأثرية، الجزائر، 2008م.
- 3- أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م.
- 4- اسماعيلي محمد، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط4، دار الهدى، ميلة، الجزائر، 2001م.
- 5- أشنھو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972م،
- 6- أكرم كيدو، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، تر. هاشم الأيوبي، ط1، منشورات جروس برس، طرابلس، لبنان، 1992م.
- 7- آل دخیل الله علي بن محمد، مختصر التيجانية-دراسة لعقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة، ط1، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 2002م.

- 8- أَلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر، د. محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م.
- 9- أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني.ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر تونس طرابلس 1145هـ/1732، تر. وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007م.
- 10- إيفون توران، المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (1830- 1880م)، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة، الجزائر، 2005م.
- 11- بركات حليم، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1998م.
- 12- بل ألفرد، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي إلى اليوم، تر.عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981م.
- 13- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م.
- 14- بنوجيت يوسف ، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر ميلادي، تر. سامية سعيدة عمارة، تق. محفوظ قداش، دار دحلب، الجزائر، 2009م.
- 15- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م.
- 16- بورويبة رشيد، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، تر، إبراهيم شبوح، ش.م.ن.ت، 1979م.

17- بوعزيز يحي

- - ثورا ثورات الجزائر في القرنين 19-20، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001م، ج1.
- المساجد العتيقة بالغرب الجزائري، E.N.E.P، الجزائر، 2002م.
- الموجز في تاريخ الجزائر، دم.ج، الجزائر، 2009م، ج2.

- بن حموش مصطفى

- فقه العمران من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549م-1830م، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2000م.

- المدينة والسلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في العهد العثماني"، ط1، دار البشائر، دمشق، سوريا، 1999م.

18- بن خروف عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2006م.

19- بن خير الدين محمد، مذكرات، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985م، ج1.

20- ترمنجهام سبنسر، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراوي، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1994م.

21- التميمي عبد الجليل، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين، مركز الدراسات والبحوث العثمانية، والمورسكية والتوثيق والمعلومات زغوان، تونس، 1989م.

22- الجزائري أبو بكر جابر، إلى التصوف يا عباد الله، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، 1990م.

23- جلال يحيى، المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981م.

24- الجمل شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب)، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1977م.

25- جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تع. محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م.

26- جوليان، إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر. سليم المنجي وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

27- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط2، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965، ج2، ج3.

28- حركات إبراهيم

- التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
- المغرب عبر التاريخ، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ج3، 1985م.
- 29- حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الإسباني، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م، مج2، ج3.
- 30- حقي عدنان، الصوفية والتصوف، ط2، دمشق، سوريا، 1992م.
- 31- حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر ونشأتها وتطورها قبل 1830م، المطبعة العربية، الجزائر، 1972م.
- 32- حوراني ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م، تر. كريم عزقول، دار النهار، بيروت، لبنان، 1968م.
- 33- الخطيب عبد الكريم، التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام، ط1، دار القلم العربي، بيروت، لبنان، 1980م.
- 34- خنوف علي، السلطة في الأرياف الشمالية لبابلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مطبعة العناصر، الجزائر، 1999م.
- 35- دحماني محمد، حكايات كرامات الأولياء بمنطقة الشلف، ماجستير في الآداب، جامعة بن خدة الجزائر، 2006م.
- 36- دحومان الحسيني كمال، أشرف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، ط1، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 37- دلندا الأرقش وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، ميدياكوم، تونس، 2003م.
- 38- دوتي إدموند، الصلحاء، تر، محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، المغرب، 2014.
- 39- الزبيري محمد العربي
- مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، مطبعة بن بولعيد، الجزائر، 1976م.

- التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال 1830/1972م، ط2، م.و.ك، الجزائر، 1984م.
- 40- الزحيلي وهبة، الوصايا الوقف في الفقه الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1998م.
- 41- زيادة خالد، الكاتب والسلطان من الفقيه إلى المثقف، ط1، الدار المصرية للسانية، القاهرة، مصر، 2013م.
- 42- زيغور علي، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، ط1، الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979م.
- 43- ساحي أحمد، الزواوة من القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، عهد إمارة كوكو 1767/1512م، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2015م.
- 44- سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتغ، عبد القادر زيادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980م.
- 45- سعد الله أبو القاسم،
- المفتي الجزائري بن العنابي رائد التجديد الإسلامي 1775-1850، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1976م.
- تجارب في الأدب والرحلة، م.و.ك، 1983م.
- شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
- الحركة الوطنية (1930-1945)، ط3، م.و.ك، الجزائر، 1986م.
- الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ج2.
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج1، ج3.
- تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008م، ج1، ج2، ج4.
- على خطى المسلمين، حراك في التناقض، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.

46- سعيدوني ناصر الدين،

- النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م.

- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، م.و.ك، الجزائر، 1985م.
- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، م.و.ك، الجزائر، 1988م.

- ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.

- الجزائر منطلقات وأفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
- دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2001م.

- دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م.

- ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

- في الهوية والانتماء الحضاري، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

47- سعيدوني ناصر الدين/المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، م.و.ك، 1984م.

48- شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م، تع. إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982م.

49- شريط عبد الله/الميلي محمد المبارك، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، م.و.ك، الجزائر، 1985م.

50- شعيب محمد المهدي، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980م.

51- شلوصر فندلين، قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837م، تر. أبو العيد دودو، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.

- 52- الشناوي عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1980م، ج1.
- 53- صادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، دم.ج، الجزائر، 1964م.
- 54- صالح عبد المحسن، الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، مطابع الرسالة، الكويت، 1971م.
- 55- الضيقة حسن، الدولة العثمانية، الثقافة، المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1997م.
- 56- طقوس محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2013م.
- 57- العامري نللي سلامة، الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لأفريقية في العهد الحفصي، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2001م.
- 58- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، ط3، دار هومة، الجزائر، 2011م.
- 59- عبد الرحيم عبد الرحمن، المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798م، دراسة تأثير الجاليات المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، دم.ج، الجزائر، 1982.
- 60- عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، مصر، 2006م، ج5، ج7.
- 61- عبد الله عبد الرزاق، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2004م.
- 62- عبد المنعم جاد الله منال، التصوف في مصر والمغرب، منشأ المعارف، الإسكندرية، مصر.
- 63- عبد الوهاب محمد حلمي، ولاية وأولياء السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط، تقديم رضوان السيد، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2001م.

- 64- العجيلي التليلي، الطرق الصوفية والإستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1881-1939م، ط2، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، 2009م.
- 65- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ج3.
- 66- عزام صلاح، أقطاب التصوف الثلاثة، أحمد البدوي، أحمد الرفاعي، عبد الحليم القناوي، تقديم. عبد الحليم محمود، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، 1968م.
- 67- العسلي بسام، الجزائر والحملات الصليبية (1571-1791)، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1986م.
- 68- العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1993م.
- 69- العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002م، ج1.
- 70- عمار هلال
- الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، م.و.ك، للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 1988م.
- أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830م-1862م) دم.ج، الجزائر، 1995.
- 71- غطاس عائشة وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.
- 72- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م مقارنة اجتماعية اقتصادية، ANEP، الجزائر، 2012م.
- 73- فراد أرزقي، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية 1749م-1949م، دكتوراه: التاريخ الحديث والمعاصر: جامعة الجزائر2. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: جامعة الجزائر2 : 2011.
- 74- فرج محمد الصغير، تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى 1954م، منشورات زرياب، الجزائر، 2002م.

- 75- فركوس صالح، الحاج أحمد باي قسنطينة 1826-1850، د.و.ج، قسنطينة، الجزائر، 1993م.
- 76- فركوس صالح، المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م إلى 1962م، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
- 77- الفيلاي مختار الطاهر، نشأة المرابطون والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الغرافيكس، الجزائر، 1976م.
- 78- قسوم عبد الرزاق، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978م.
- 79- قشي فاطمة الزهراء، قسنطينة عهد صالح باي، ميديا بلوس، الجزائر، 2008م.
- 80- قنان جمال،
- نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1987م.
- معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، طبعة خاصة لوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007م.
- 81- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر. نبيلة أمين فارس منير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م.
- 82- كوثراني وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1988م.
- 83- كوران أرجمند، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط2، تونس، 1994م.
- 84- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، تر. جمال حمادنة، د.م.ج، الجزائر، 2007م.
- 85- لوثرروب ستيوارت، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شقيب أرسلان، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج2، 1971م.
- 86- ليفشز رايموند، تكايا الدراويش الصوفية والفنون والعمارة في تركيا العثمانية، تر. عبلة عودة، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2011م.

87- ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، التصوف، تر. إبراهيم خورشيد وآخرون، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1984م.

88- المحافظة علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914م، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1978م.

89- محمد أركون،

- الفكر العربي، ط2، تر. عادل العوّا، د.م.ج، الجزائر، 1982م.

- الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، تر. وت. هاشم صالح، م.و.ك، د.ت، الجزائر.

90- محمد أسود عبد الرزاق، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ط1، دار القومية للموسوعات، بيروت، لبنان، مج02، 1981م.

91- محمد البشير بن عبد الله الفاسي الفهري، قبيلة بني زروال، مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، منشورات جمعية علوم الإنسان، الرباط، المغرب الأقصى، د.ت.

92- المدني أحمد توفيق،

- حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1965م.

- محمد عثمان باشا إلى الجزائر 1766-1791م، م.و.ك، الجزائر، 1986م.

93- مريوش أحمد وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.

94- مزيان وشن، مجانة عاصمة المقرانيين ثلاثة قرون من النضال السياسي والجهاد العسكري القرن 16-19م، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2005م.

95- معاشو بوشمة، تراث وثقافة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2002م.

96- معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق في القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م، د.م.ج، الجزائر، 2001م.

97- الملي محمد بن مبارك،

- رسالة الشرك ومظاهره، تح. تع. أبي عبد الرحمن محمود طه، دار الزاوية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 2001م.

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ج2، ج3.

98- النجار عامر، الطرق الصوفية في مهم نشأتها ونظمها وروادها، الرفاعي الجيلاني، البدوي، الشاذلي، الدسوقي، ط05، دار المعارف، مصر، د.ت.

99- النجمي عبد الله، التصوف والبدعة بالمغرب، طائفة العاكزة ق16-17م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 2000م.

100- نسكايا إيرينا سميليا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، تر. يوسف عطا الله، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1989م.

101- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر.

102- نيقولايف إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، تر. يوسف عطا الله، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م.

103- هاملتون جيب وهارولد باون، المجتمع لإسلامي والغرب، تر. أحمد عبد الكريم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1971م، ج1.

104- هانوتو/لوتورنو، منطقة القبائل والأعراف القبائلية، تر. مخلوف عبد الحميد، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ج2، ج3.

105- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ترجمة أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1973م.

106- هلايلي حنفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، 2008م.

107- هويدي يحي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، 1966م، ج1.

6- المعاجم:

1- بوعزيز يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995م، ج1، ج2.

- 2- الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف مطبعة ببيير فونتانا الشرقية، 1906 الجزائر، ج 1-2.
- 3- الحكيم سعاد، المعجم الصوفي، ط1، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م.
- 4- الحنفي عبد المنعم، معجم المصطلحات الصوفية، ط2، دار المسيرة، بيروت، لبنان، 1987م.
- 5- سعيدوني ناصر الدين ، من التراث التاريخي والجغرافي في الجزائر، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999م.
- 6- الشرقاوي حسين، معجم الفاظ الصوفية، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1978م.
- 7- صبان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات التاريخية العثمانية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، 2000م.
- 8- أبو عبد الله بن محمد بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء بفاس، تح. عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الرباط، المغرب، ج1.
- 9- عبد المجيد نعيمة وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830-1945م، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.
- 10- أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995م.
- 11- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، جروس برس، بيروت، لبنان، 1988م.
- 12- القاسمي عبد المنعم، أعلام التصوف في الجزائر من البدايات إلى الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2007م.
- 13- م. ث هوشما وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998م، ج9، ج22.

- 14- محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، د.ب، 2000م.
- 15- محمد شفيق غريال وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 2001م، ج2.
- 16- المنجد في اللغة والأعلام (من حرف الياء إلى الصاد)، ط43، الطبعة المئوية الأولى، دار المشرق، بيروت، لبنان، د.ت.
- 17- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ج07، ج09، ج10، ج11، ج15.
- 18- نويهض عادل، معجم علام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980م.
- 19- وجدي محمد فريد، دائرة المعارف القرن العشرين، مج10، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1971م.

7- الأطروحات والرسائل الجامعية:

- 1- بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايلك، ماجستير، جامعة الجزائر، 2007.
- 2- ابن تونس مخلوف ساجية، المواجهة الاجتماعية بين المرابطين والقبائل في منطقة القبائل، تحليل نفسي- اجتماعي للعلاقات بين الفئتين، ماجستير علم النفس الاجتماعي، جامعة الجزائر، 1998م.
- 3- جيجيك زروق، المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر من خلال كتابات الفرنسيين، ماجستير تاريخ حديث ومعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2001م.
- 4- حماش خليفة، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798-1830م، ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر، 1988م.
- 5- سي فوضيل منى، الزوايا والأولياء الصالحون في الجزائر، دراسة سوسيولوجية وصفية لسيدي نايل، دكتوراه علم الاجتماع الثقافي، جامعة الجزائر 02، 2011م.

- 6- شطة عطية، البعد التربوي والروحي للزوايا، زاوية سيدي بولراح كنموذج للزوايا العلمية للطريقة الرحمانية، رسالة ماجستير (علم الاجتماع الديني)، جامعة الجزائر2، 2008م.
- 7- عقاق نورة، بنية النص في جامع كرامات الأولياء، ماجستير قسم اللغة والأدب العربي، تيزي وزو، الجزائر، 2011م.
- 8- علجية مقيدش، البعد المغاربي للطريقة الدرقاوية ومواقفها من السلطة المركزية والاحتلال الأوروبي- المغرب الأقصى والجزائر نموذجاً 1786/ 1914م، رسالة ماجستير، تخصص تاريخ معاصر (غير منشورة، جامعة الجزائر، 2011).
- 9- الغالي الغربي، الثورات الشعبية أثناء العهد التركي، ماجستير، جامعة دمشق، سوريا، 1985م.
- 10- فراح زينب، الزيارة النسوية للأضرحة، مقاربة أنتروبولوجية بضريح سيدي قادة بن المختار بولاية معسكر، رسالة ماجستير (علم اجتماع الأديان والممارسات الدينية)، جامعة وهران، 2011م.
- 11- القشاعي فلة موساوي
- النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1830م)، ماجستير تاريخ حديث، جامعة الجزائر / 1982م.
- الصحة والسكان في الجزائر من العهد العثماني إلى أوائل الاحتلال الفرنسي 1515-1870م، (دكتوراه دولة)، جامعة الجزائر، 2004م.
- 12- قشي فاطمة الزهراء، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة (من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر)، دكتوراه دولة، جامعة تونس، 1998م.
- 13- لواليش فتيحة، الحياة الحضرية ببابلك الغرب، ماجستير جامعة الجزائر، 1992.
- 14- نقروش محمد، الظاهرة المرابطية في ظل التغيير السوسيوثقافي في منطقة القبائل، ماجستير علم الاجتماع الديني، جامعة الجزائر 02، 2008م.
- 15- بن يوسف تلمساني، الطريقة التيجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر (الحكم العثماني-الأمير عبد القادر-الإدارة الاستعمارية 1782-1900م) رسالة ماجستير، تاريخ حديث ومعاصر، جامعة الجزائر، 1988م.

8- المجلات:

- 1- أحمد الأزمي، "نشأة الزاوية التيجانية وانتشار تعاليم طريقته بفاس"، سلسلة أعمال وحدات التكوين والبحث-رباطات وزوايا في المغرب-، ع 02، 2007، جامعة شعيب الدكالي، المغرب.
- 2- استيتيو عبد الله، "الزاوية والمجتمع القبلي والمخزن-الزاوية الدرقاوية نموذجاً-"، مجلة فكر ونقد، ع94، 2008م، الرباط، المغرب.
- 3- أشرف صالح محمد السيد، "المراكز الثقافية في دار السلطان الجزائر أواخر العصر التركي" أمارياك، مجلة علمية عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، ع07، 2013م.
- 4- بلحميسي مولاي،
- "تحرير مدينة وهران 1708م"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع9، 1970، المغرب.
- "إرشاد الحيران في أمر الداوي شعبان"، دراسات تاريخية، ع 2، 1986، الجزائر.
"الثورة على الأتراك في الجزائر"، شواهد مشتقات من رسائل إسبانية منشورة، الثقافة، عدد 48، 1978م.
- 5- بودريعة ياسين، "زاوية الشرفة 1769-1848م نموذجاً للمؤسسات الاجتماعية بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني"، الدراسات التاريخية، ع15-16، 2013م.
- 6- بوسليم صالح /محمد الزين، «حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات»، الحوار المتوسطي، ع05 مارس 2013، سيدي بالعباس، الجزائر.
- 7- البوعبدلي المهدي،
- "الرباط والفداء في وهران والقبائل"، الأصالة، ع 13، 1973.
- "عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988-1075م)، والتعريف بكتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، الأصالة، ع51، 1977م، الجزائر.
- عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988-1073هـ) والتعريف بتأليه منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية"، الأصالة، ع 51، 1977م، الجزائر.

8- بوعزيز يحي،

- "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، الثقافة، ع63، 1981.

- "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19-20م"، الثقافة، ع63، 1981م.

9- بونار رابح، "الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر"، الأصالة، عدد 8، 1972م.

10- حدوث مدرسة الكتاني، جريدة المبشر، 1961/ ميكرو فيلم رقم 20. مكتبة الحامة، الجزائر.

11- دويذة نفسية، المعتقدات والطقوس الخاصة بالأضرحة في الجزائر خلال العهد العثماني، إنسانيات، ع68، 2015م، وهران، الجزائر.

12- زيادة خالد، "السلطة المدنية من خلال وثائق المحاكم الشرعية"، المجلة التاريخية المغربية، ع39، 40، 1980م، تونس.

13- السحنوني علي أمقران، "المجهول أبو زكريا العيدلي"، مجلة الدراسات التاريخية، ع4، 1988م.

14- سعد الله أبو القاسم،

- "قصيدة خطية لابن ميمون"، الثقافة، ع15، 1973م.

- "بن حمادوش ورحلته لسان المقال"، الأصالة، ع38، 1976م.

- "أربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة"، الثقافة، ع51، 1979م، الجزائر

- "أشعار ومقامات ابن حمادوش"، الثقافة، ع49، 1979م، الجزائر

15- سعيدوني ناصر الدين،

- تدعيم الحكم التركي بالجزائر"، الأصالة، ع32، 1976م.

- "وضعي عشائر المخزن الاجتماعية والآثار المترتبة عليها"، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، 1977م، زغوان، تونس.

- "ثلاث رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال"، التاريخ، ع07، 1977م، الجزائر

- "ثلاث رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال" التاريخ، ع07، 1979م.

- "موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغاربية، ع05، 1980م.
- "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني"، دراسات تاريخية، ع05، 1981م. المقال منشور كذلك في مجلة الأصالة، ع89-90، 1981م.
- "موظفو الإيالة الجزائرية أوائل القرن 19م وصلاحياتهم الإدارية، ومهامهم الاقتصادية والاجتماعية"، المؤرخ العربي، ع31، 1987م.
- "الأوقاف بفحص مدينة الجزائر"، دراسات إنسانية، عدد خاص بالوقف، ماي 2001م.
- الإدارة العثمانية في الأرياف الجزائرية نموذج مقاطعة دار السلطان"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع05-06، فيفري 1992م.
- "وضعية المراكز الإقليمية بالجزائر نموذج حصن القالة"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع09-10، 1994م.
- الشبكة الدفاعية العثمانية حول بلاد القبائل"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع20، أوت 2004م.
- "تدعيم الحكم التركي بالجزائر"، الأصالة، ع32، الجزائر، 1976م.
- "معجم تاريخي للأماكن والبلدان الجزائرية"، بحوث، ع03، الجزائر، 1995م.
- مذكرة حول إقليم قسنطينة"، الأصالة، ع84-85، 1980م، الجزائر.
- "ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية"، الثقافة، عدد 78، 1983م.
- صفحات من ماضي الجزائر المجيد، البحرية الجزائرية: ظروف نشأته وعوامل تطورها وأسباب ضعفها، الدراسات التاريخية، الجزائر، ع10، 1997،
- "مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية لنموذج بلاد القبائل"، عمل نشر في: International congression learning education in the ottomane world, Istamboul, April 1999
- 16- سيدهم فاطمة الزهراء، "مكانة التصوف في الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، بلعباس، الجزائر.
- 17- الشابي علي، مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية، المجلة التاريخية المغاربية، ع13-14.

18- شويتام أرزقي،

- "إمارة كوكو (1511-1767) فعاليات إمارة كوكو بتيزي وزو، 30 سبتمبر 2010م.

- "دور القوى المحلية في الجزائر في ظل الحكم العثماني"، الملتقى الدولي حول ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي، بسكرة، 1-2 سبتمبر 2010م، الجزائر.

19- صحراوي عبد القادر، "الدور السياسي والعسكري للطرق الصوفية في الجزائر"، الحوار المتوسطي، ع3-4، 2011/2012م.

20- ضيف الله عقيلة، "النظام القانوني ونظم تطبيق الشريعة في العهد العثماني" بحوث، ع4، 1997، الجزائر.

21- عبد الجليل التميمي،

- "منشورات تركية غير منشورة لضرب مدينة الجزائر 1816" في R.O.M.M.N°05 (1968).

- "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني 1541م"، المجلة التاريخية المغربية، ع03، 1975م، تونس.

- "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م"، المجلة التاريخية المغربية، ع06، 1976م.

- "رسالة السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، 1977م.

- "من أجل كتابة تاريخ الجامع الأعظم"، المجلة التاريخية المغربية، ع19-20، 1980، تونس.

- وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، المجلة التاريخية المغربية، ع05، 1980م.

- "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، ع23-24، 1981م.

- "العرب والترك في إطار الدولة العثمانية"، المجلة التاريخية المغربية، ع17-18، 1980م.

- 22- عبد القادر فكاير، "دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الإسباني على الجزائر"، المواقف، عدد خاص أبريل 2008م.
- 23- العجيلي التليلي، "دور بعض مشايخ الطرق الصوفية ومساعدة الفرنسيين على استكشاف الصحراء الإفريقية" المجلة التاريخية المغربية، ع 53-54، 1989م.
- 24- العقاد صلاح، "الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية في الجزائر قبل الغزو الفرنسي"، المجلة التاريخية المصرية، العدد 12، 1965، مصر.
- 25- عقيل جميل، حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر، أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية، دراسات إنسانية، عدد خاص بالوقف، ماي 2000م، الجزائر.
- 26- العيد مسعود
- "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، سرتا، ع 03، 1980م، قسنطينة، الجزائر.
- "المرابطون والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني"، سرتا، ع 10، 1988م، قسنطينة، الجزائر.
- 27- الغالي العربي، "الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات ثورة ابن الأحرش الدرقاوي ضد الأتراك في مطلع القرن التاسع عشر"، دراسات تاريخية، الجزائر، ع 23-24، 1986م.
- 28- غطاس عائشة
- القضاة الأحناف بمدينة الجزائر"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع 17-18، 1998م، تونس.
- "الصادق بمدينة الجزائر 1672-1854"، إنسانيات، ع 4، جانفي/أفريل، 1998م، وهران، الجزائر.
- 29- فركوس صالح، "الباي محمد الكبير ودوره في بعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب"، الثقافة، ع 71، 1982، الجزائر.
- 30- قداش محفوظ، "الجزائر في العهد التركي"، الأصالة، ع 52، 1977م، الجزائر.

31- محمد العربي الزبيري، "مقاومة الجزائر للتكل الأوربي قبل الاحتلال"، الأصالة، عدد 12، 1983م.

32- محمد سي يوسف ،

- "نظام التعليم في بلاد الزواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني" الحياة الفكرية في الولايات العربية، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990م، ج1.

- "من خصائص النظام الإداري في بايلك التيطري خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع05-06، فيفري، 1992م.

- القانون القانون في بلاد القبائل خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع17-18، 1998م.

- "المرأة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع25، أوت 2002م.

33- مزيان عبد الحميد،

- "طريق الذهب وطريق الثقافة" الأصالة، ع3، 1971م، الجزائر.

- "المؤسسات الثقافية قبل الاستعمار"، مجلة التاريخ، ع22، 1986.

34- موساوي القشاعي فلة، "صناعة العملة المزورة في منطقة القبائل أثناء التواجد العثماني 1515-1830م"، مجلة الدراسات العثمانية، ع34، 2006م، تونس.

35- موسى كاظم نورس علاء، "مدى مسؤولية الإنكشارية في تدهور الدولة العثمانية" المجلة التاريخية المغربية، ع25، 26، 1982م.

9- المصادر باللغة الأجنبية:

1- Devoulx(A),

- Tachrifat, recueil de notice historique sur l'administration de l'ancien régence d'Alger, pub par Devoulx imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.

2- Haedo (F.D.),

- de Topographie et l'histoire général d'Alger, imprimé À Valladolid EN 1612 Trad. de l'espagnol par MM. le Dr.Monnereau et A.Berbrugger, 1870
- Histoire des rois d'Alger, trad, H. DE.grammont, adolphe Jourdan, 1881.

10- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Alain(M), Histoire de la grande Kabylie XIX^{ème}- XX^{ème} siècle, anthropologie, historique du lien social dans les communautés villageoises, Ed. Bouchene, Alger, 2001.
- 2- André Raymond, Grandes villes arabes à l'époque ottoman, Sindibad, Paris, 1985.
- 3- Babes (L), Saints, tribus, et pouvoir politique dans le constantinois sous la domination Turque, Université d'Oran, S.D.
- 4- Berque (J), l'intérieur du Maghreb du 16^{ème} 19-^{ème} siècle, Gallimard, Paris, 1978.
- 5- Brosselard (H.), Les khouans, la constitution des orders religieux musulmans en Algérie, H.Bourget, Alger, 1859.
- 6- De Neveu, les khouans ordre religieux chez les musulmans de l'algerie 2ème Ed, Imp.A.Guiyot ;Paris 1846
- 7- Depont (O), Coppolani (X), Les confréries religieuses musulmanes, A.Jourdan, Alger, 1897
- 8- Devoulx(A), Notice sur les corporations religieuses d'Alger, typographies et lithographies Bastide Alger, 1862
 - Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870.
 - Le rais Hamidou;Adolphe Jourdan; Alger.1859.
- 9- Dr shaw, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais par J.Mac.Carthy 2ème ed. Bouslama, Tunis ,1980.
- 10- Bel (A),
 - Histoire et historiens de l'Algérie, Alcan, paris, 1931.
 - La religion musulmane en barbarie de XII au XX siècle, librairie To1, Orientale, Paris, 1938.
- 11- Belhamissi, Histoire de Mazouna, Des origines à nos jours. Imp. Ahmed Zabana, Alger, 1982.
- 12- Bellermane Alex, "Abd-El-Kader sa vie Politique Et Militaire", librairie Hachette et Cie, Paris, 1863.
- 13- Ben Mensour Abd-El-Hadi, Alger au XVI^{ème} -XVII^{ème} siècle, Bastide, 1998,
- 14- Benachenhou (A.H), Connaissance du Maghreb, Nations d'éthnographie d'histoire et de sociologie, Ed. Populaire de l'année, Alger, 1971.
- 15- Berbrugger (A),
 - Les époques militaires de la grande kabylie, bastide, Alger, 1857.
 - Les turcs en kabylie, rafat, ed, Tizi ouzou, Algérie.

- 16- Bontems (C), Manuel des institutions Algériennes de la domination turque à l'indépendance, Cujyas, Paris, 1976.
- 17- Bouabba (y.), Les Turcs au Maghreb Central du 16ème au 19ème siècle, S.N.E.D, Alger, 1972.
- 18- Boulifa (S.A), Le djurdjura à travers l'histoire depuis l'antiquité jusqu'à 1830, J.Bringou, Alger, 1925.
- 19- Boyer, la vie quotidienne à Alger a la veille de l'intervention française, Imp, nationale Monaco, 1964.
- 20- Caporal (B), Oran capitale du Beylik de l'ouest 1792-1831, pp50, 51.
- 21- Carret (J), Le maraboutisme et les confreries religieuses musulmanes en Algerie. Impr. d'Alger, 1959.
- 22- Chaillon (L), Algérie en 1781, mémoire de consul, C. Philipe vallièr, Imp, nouvelle, Toulon, 1974
- 23- Charles (R), Etude de l'insurrection du Dahra 1845-1864, typographie, Abesancenez, Alger, 1846.
- 24- Cour, L'Etablissement des dynasties des Cherifs du Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger, Leroux, Paris, 1904.
- 25- Daumas (E),
 - La vie arabe et la société musulmane, Michel Levy frères, Paris, 1869,
 - Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Intrd. de Abd-delkader djeghloul, Ed. ENEP, Alger, 2006.
- 26- De Grammont Henri, Histoire d'Algérie sous la domination Turque (1515-1830), E. Leroux, Paris, 1887.
- 27- Dermenghem (E),
 - Le culte des saints dans l'islam maghrebin, Gallimard, Paris, 1984.
 - Vie des saints musulmans, ed, Bacconies, Alger, 1942,
- 28- Dhina atallan, les états de l'occident musulman au 13-14-15^{ème} siècle, op.cit, Algérie, S.D.
- 29- Emerit (M.), l'Algerie à l'époque d'Abd-El Kader, la Rose, Paris, 1951
- 30- Encyclopédie de l'islam, T.5.
- 31- Esterhazy (W),
 - de La domination turque dans la régence d'Alger, Gosselin, Paris, 1840.
 - Notice historique sur le maghzen d'Oran, perrier, Oran, Algérie, 1849.
- 32- Ferand (CH), le sahara de constantine notes et souvenirs, adolphe jourdon, Alger, 1897.
- 33- Feraud (C.H),
 - Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Arnolat, Paris, 1869

- Histoire des villes de la province de Constantine, Gigilli, L. Arnolat, Paris, 1870.
- Histoire des villes de la province de Constantine, Setif, Bordj-Bouariridj, Mesila et Boussaâda, L. Arnault, Constantine, 1872.
- Histoire de Bougie, présentation de Nedjema Abd-El-Fatah, Ed. Bouchene, 2001.
- 34- Filali (K), l'Algérie mystique des marabouts fondateurs aux khwan insurgés XV-XIX^e ed. publisud, Paris, 2002.
- 35- G.Andre (P.J), Contribution à l'étude des Confréries religieuses musulmanes, maison du livre, Alger, 1956.
- 36- Gaffarel (P), l'Algerie, histoire, conquete et colonisation; aImp.de l'institut, Paris, 1883.
- 37- GAID (M.),
 - Chronique des Beys de Constantine, O. P.U, Alger, S.D.
 - Les Bérberes dans l'histoire, les Marabittines d'hiers, et les Marabouts d'aujourd'hui, Imp, Marouche Alger, S.D,
- 38- Galibert (L), l'Algérie ancienne et moderne, Gallimard, Paris, 1844.
- 39- Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Imp. Cresienzo, 1910.
- 40- Genty de Bussy (P), De l'établissement des français dans la régence d'Alger, et des moyens d'en assurer la prospérité, T02, Fisman didot, Paris, 1839
- 41- Gsel S. Marçais .G et G. Yver, Histoire d'Algérie, Bovin, Paris, 1927
- 42- Henri Léon Fey (H-L), Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole, Adolphe Perrier, Oran, 1858.
- 43- Ismail Hamet, Histoire du Maghreb, Ed Ernest leroux, Paris, 1923.
- 44- Julien Charler (A), Histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe à 1830, To2, S.N.E.D, Alger, 1978.
- 45- Kaddache (M), l'Algerie Durant la période ottoman, O.P.U, Alger, 1991.
- 46- Klein (H), Feuilletts d'Eldjezair, Fountana, Alger, 1937.
- 47- Laugier (DE.T), Histoire d'Alger et du bombardement de cette ville en 1816, piltan librairie, Paris, 1830.
- 48- Laroui (A.), Histoire du Maghreb, Maspero Paris, 2 vol, 1976.
- 49- Layer (E), Confreries religieuses musulmanes et marabouts leur etat et leur influence en Algerie Imp. CAGNIARD1916.
- 50- Liorel (J), Kabylie du jurjura, Ed. Leroux, Paris, 1982.
- 51- Louis petit (R.P), Les confréries musulmanes, librairie B. Bloud, Paris, 1902.
- 52- Mercier (E),

- Etude sur la confrérie des Khouans de sidi Abd-El-Kader El-Djellani, L.Arnolet, Constantine, 1869.
- Constantine, au XVI^e siècle, elevation de la famille el-Fegoun, typographie, L.Arnolet, 1879.
- Histoire de l'Afrique septentrionale, T03, E.Leroux. Paris, 1868.
- Histoire de Constantine, J. Marle Et F. Biron, Imprimeurs-Editeurs ,1903
- 53- Nacib (y), "signalisation d'une pédagogie confrérique dans la poésie orale-kabyle" in ann-afr.n, n°331994.
- 54- Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, Librairie de Gide, Paris, 1838,T01,T02
- 55- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, etude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884.
- 56- Rinn, Le Royaume d'Alger sous le dernier dey,A.jourdan, Alger ,1900
- 57- Saidouni Nacereddine, L'algérois rural à la fin de l'époque ottomane de (1791-1830), Dar al-Gharb al-Islami, Beyrouth, Liban, 2001.
- 58- Simian M , Les confréries islamiques en Algérie (Rahmaniya-Tidjaniya), A-Jourdan, Alger, 1910
- 59- Tahar oussedik, Le royaume de Koukou-ENAG, Algérie, 2005.
- 60- Tall Shuval, la ville d'Alger vers la fin du 18^{ème} siècle, C.N.R.S, Paris, 1988.
- 61- Touati (H), Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorciers au Maghreb (17^e siècle), Paris, Ed, E.H.E.S.S, Paris, 1994.
- 62- Trumelet(C),
 - Les saints de l'islam les saints de tell,,Didier,Paris,1881
 - L'Algérie légendaire, A. Jourdan, Alger, 1892,
- 63- Vatin (J.C.), L'Algérie Politique, Histoire et Société, Arnault Colin, Paris, 1974.
- 64- Vayssettes, Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837 présentation de Ouarda Siari Tengour, Ed Bouchene, Alger, 2002.
- 65- Venture de paradis, Alger au XVIII^e siècle (1788-1790), E. Fagnan, 1898.

11 – المقالات باللغة الأجنبية:

- 66- Aboubekr abdesselam ben choaib, "les marabouts guérisseurs " in **R.A** N51 ,1907
- 67- Arnaud (L.) , "Histoire de l'ouali sidi Ahmed El-Tedjani, extrait du Kounache", in **R.A**, N°5, 1851...
- 68- Aumerat (F), "La propriété urbaine à Alger" in **R.A**, N°41, 1897.
- 69- Berbrugger (A), « Notes relatives à la révolte de bensakhri », in **R.A**, N°10, 1866.

- 70- Berbrugger (A),
 - "Les Algériens demandent un Roi français en 1572", **R.A.**, N05, 1861.
 - "Un cherif kabyle" in **RA** N°3, 1858.
- 71- Bodin (M)
 - "traditions indigenes sur Mostaghanem", in **B.S.G.A.O.**, 1925.
 - "Note sur sidi M'hammed ben chaâ, patron de beni zeroual d'Algérie ", in **B.S.G.A.O.**, N°51, 1930.
- 72- Boyer (P),
 - Introduction a une histoire interieure de la régence d'Alger, in. **R.H.**, avril, juin, 1966.
 - Contribution à l'étude politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger" in, **R.O.M.M.**, N°01, 1966.
- 73- Braudel (F), "Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 a 1577", **R.A.**, T69, 1928.
- 74- Brossellard (ch), "les inscription arabes de Tlemcen" in **R.A.**, N°03, 1858.
- 75- Canal (J.), " Monographie de L'Arondissement de Tlemcen" in **B.S.G.A.O.** N°VII 1887.
- 76- Cour (A), « Constantine en 1802 d'après une chanson populaire de cheikh Belkacem-Erahmouni », in **R.A.** N°60, 1919, pp229, 231.
- 77- Delpech (A),
 - "Un diplôme de Mokadem de la confrérie religieuse RAHMANIA" in **R.A.**, N°18, 1874.
 - résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran de 1800-1813" in **RA** N°18, 1874.
 - la Zaouia de Sidi Ali Ben Mousa ou Ali N' Founas", in **R.A.**, N°18, 1874.
- 78- Delphin, (G), Histoire des pachas d'Alger de 1515-1749" in **J.A.**, Avril. Juin, 1922.
- 79- Dermenghem (E),
 - "les confréries noires en Algérie-diwan sidi blal", in **R.A.**, N°97, 1953,
 - "L'Algérie religieuse" in **Initiation à l'Algérie**, Maison neuve, Paris, 1957.
 - "Essai sur le hadra, des aissaoua d'algérie", in **R.A.**, N°95, 1951.
- 80- Devoulx (A),
 - "AHAD AMAN, règlement politique et militaire", in **R.A.**, N°04, 1859/60.
 - "Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger " in **R.A.**, N°4, 1859 -N° 05, 1861- N°6, 1862,

- letters adressées par les marabouts arabes au pacha d'Alger" in **R.A.**,N18,187
- "Notes historiques sur les mosques et autres édifices religieux d'Alger", in **RA** N° 5, 1861.
- 81- Djamil Aissani, « Les royaumes des ath-abbas et de Koukou » , influence du mouvement intellectuel des Bibans, **journée d'étude sur le royaume de koukou**, maison de la culture Mouloud Mammeri, Tizi Ouzou, 30 Septembre 2010.
- 82- Dr Monnerau, "des inscriptions d'Oran et de Mers-Elkebir" par le général C.X de sandoval, trad, de l'espagnol, in **R.A.**, N°15 ,1871.
- 83- Emerit (M),
 - "Les a ventures de Thédenat, esclave et Ministre d'un Bey d'Afrique (XVIII^e Siècles), mémoires de Thédenat", **in R.A.** N92, 1948.
 - les mémoires d'Ahmed bey, dernier bey de Constantine », in **R.A.**, N°93, 1949.
 - "l'Algérie Turque" in Initiation à l'Algérie, 1957.
 - "L'état Intellectuel, et moral de l'Algérie en 1830 " in **R.T.A.S.M.P.**, 2^{ème} semestre 1954.
- 84- Federman(H) et Aucapitaine(H), "Notice sur l'histoire et l'administration du beylik de Titteri", **R.A.** N°09,1865-N°11, 1867.
- 85- Fella Moussaoui- El Kechai ,
 - Wakfs et Habous des Andalous à Alger durant la période ottomane, Rôle caritatif et humanitaire». Communication présentée lors du colloque Intl. "Sur le rôle des fondations Pieuses..." Aix. En.Provence. M.M.S.H C.N.R.S 13-15 Juin 2002.
 - "les insurrections dans l'Algerie ottomane 1515-1837",congrès international, Monastir, Tunisie,novembre,2012.
- 86- Feraud (CH), "Epoque de l'établissement des turcs a Constantine", in **R.A.**, N° 10, 1866, p 195.
- 87- Feraud (CH),
 - "Les chorfas du Maroc", **R.A.**, N°21, 1877.
 - "Les Harar, seigneurs des Hanencha. Études historiques sur la province de Constantine", in **R.A.**, T18, 1874.
 - "Les Ben-Djellab sultans de Tougourt. Notes historiques sur la province de Constantine", **in R.A.**, N°27, 1883
 - "la Conquête de Bougie par les espagnols" in **R.A.**, N°12 ,
 - les cherifs kabyles de 1804a 1809" in **R.A.**, 1869.

- letters arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie", in **R.A**, N° 17, 1873.
- "exploitation des forets de la karasta dans la kabylie orientale sous les turcs" in **R.A**, N12, 1868 .N13, 1869.
- "Les anciens établissement religieux Musulmans de Constantine", in **R.A** N°12, 1886
- "Un voeu d'Hussein Bey de Constantine, 1807". In **R.A** N°7, 1863.
- "Zebouchi et Osman bey" in **R.A** n° 06, 1862.
- "Histoire de DJEDJEL" in **R.N.S.A.C**, 1870.
- "L'Oued –Elkebir, et collo" in **RA** n°03 1858.
- Les Cherifs Kabyles de 1804-1809 dans la province de Constantine", in **RA** .n°13, 1869.
- 88- Filali(K), sainteté maraboutique et mysticisme Et Mysticisme, Contribution A L'étude du mouvement Maraboutique en Algérie sous La Domination Turque, in **Insanyyat**, N°3, 1997.
- 89- Genevois (H), Légende des Rois de Koukou, le fichier périodique, N°121, 1974
- 90- Ghalem (M), Histoire de l'Algérie de ses origines à 1830, **in Algérie**, Casbah, 2000.
- 91- Gorguos (A.),
 - "Notice sur le Bey d'Oran Mohamed El Kebir", in **RA**, N°1, 1856.
 - "expedition de Mohammed el -kebir, bey de Mascara dans les contrées du sud", in **R.A** N°03, 1858
- 92- Grin, " Notes historiques sur les Nezlioua," **R.A**, N°06, 1862.
- 93- Guin (M), "notice sur le cheikh bel Gassem des Guechtoula "**in R.A**, N05, 1861.
- 94- Guin, " Note historique sue Nezlioua ", in **R.A**, N06, 1862.
- 95- Joly (A),
 - " Légende de sidi Ali Ben Malek ", in **R.A**, N° 52, 1908.
 - "Etude sur la shadouliya "in **R.A**, N50, 1906.
- 96- Laloe (F.), "A propos des manuscrits arabes de Constantine" **in R.A**, N°66, 1925.
- 97- Limam (H.M.), "Tidjniya, Sanusiya and Mahdiya as studied in english Works" **in R.H.M**, N°4, 1975, p163.
- 98- Papier (AD), « Les mosquées de Bône », in **R.A**, N°33, 1889.
- 99- Patorni (F) " De libération de l'année 1749 dans la grande kabylie ", in **R.A**, N39, 1895.

- 100- **Robin (J.N)**,
 - La Grande Kabylie sous le régime turc, Ed, Bouchene, Alger, 1998.
 - "note sur le bey Mohammad dit ed-delah", in **R.A**, N°17, 1863.
 - "Le bey Mohamed Ben Ali ED-DEBBAH" in **R.A** N°17, 1873.
 - "note sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande kabylie" in **R.A**, N17·1873.
 - "Note sur Yahia agha" in **R.A**, N18, 1874.
- 101- **Salhi (M. B)**, "Confreries religieuses et champs religieux en grande Kabylie au milieu du XX^{ème} Siècle, La Rahmanyia ", in **ANN.AFr .N** N°33, 1994.
- 102- Seghiri(A) "L'histoire régionale de l'Algérie l'exemple de la tribu des Telaghema" in **arab historical review for ottoman studies**, N37-38, 2008.
- 103- Stambouli (F.) /Zghal (A.), « La vie urbaine dans le Maghreb précolonial », in **ANN .AFR,N**, N°11 , 1972.
- 104- Vayssette (E), "Histoire des dernier beys de Constantine depuis 1793 jusqu'au la chute d'Ahmed bey" in **R.A**, N°3, 1858, N° 04.
- 105- Watbled (E), "Expédition du duc de Beaufort contre Djidjeli 1664" in **R.A**, N17, 1873.

الفهارس

1- فهرس الأعلام والعائلات

- أبو بكر الحفصي، 28	-أ-
-أبو بكر بن عبد الرحمن، 179	-إبراهيم باشا، 54، 116، 120، 128،
- أبو ترفاس،	410، 444
-أبو حسون، 13	-إبراهيم بن قانة، 128، 166،
- أبو حمو الثالث (أبو قلمون)، 24، 34،	-إبراهيم شركان، 130
174، 175، 345	-إبراهيم الغبريني، 384
- أبو راس الناصرري، 733، 76، 78، 234،	-إبراهيم الغرياني، 428
240، 292، 497، 526	-إبراهيم كجوك، 125
-أبو زيان /أبا	-إبراهيم الملياني، 431
يان، 13، 25، 33، 147، 175، 16، 175	- أبو عبد الله محمد الخروبي، 426
-أبو زيان الثالث (المسعود)، 24، 34،	-ابن الأحرش، 400، 433، 452، 130، 312،
-أبو زيد عبد الرحمن الحلفاوي، 323	554، 555، 556، 557، 558، 561، 562،
- أبو سعيد عثمان (سلطان)، 13، 14،	591، 587، 559، 560، 565، 574
-أبو العباس احمد بن باديس، 257، 528،	-ابن باديس (عائلة)، 43، 349، 350، 509،
- أبو العباس بن أبي محلى، 25، 251، 325،	-ابن بريريش/بعريش (مرابط)، 561، 559، 519،
-أبو العباس بن عبد العزيز، 552،	-ابن الحاجة أبو العباس، 428،
- أبو العباس بن الحسن الغربي، 259، 509،	-ابن سحنون، 430، 440، 460، 477، 496،
-أبو العباس الغبريني، 180، 182،	563، 514، 542، 522،
-أبو عبد الله الجوطي المريني، 15،	-ابن الشريف الدرقاوي، 380، 520، 562، 563،
- أبو عبد الله الحفصي، 27، 363،	575، 573، 572، 571، 569، 568، 567، 565،
- أبو عبد الله بن مبارك، 305	592، 591، 588
- أبو عبد الله محمد بن سعد الزعل، 24،	- ابن الصخري أحمد، 160، 510، 389، 360،
- أبو عبد الله محمد الموفق، 315،	-ابن القندوز التوجيني، 521
-أبو عبد الله محمد بن المغوفل، 235،	-ابن للو التلمساني، 511
-أبي عبد الله محمد بن مزيان التواتي، 510،	-ابن النيقرو، 260، 428،
-أبي مدين شعيب، 219، 341، 333، 270،	-ابن محجوبة، 509
-أبي البقاء خالد بن يحيى، 183،	-ابن ملوكة، 218، 352،
-أبي الحسن علي الشاذلي، 453، 457، 340،	

- أحمد الكفيف، 189	- آث أورابح(عائلة)، 43
- أحمد المانجلاتي، 524	- أحمد أمقران، 7، 104، 154، 158، 164، 181، 384، 398، 500
- أحمد المكي(مرابط)، 385، 432، 433	- أحمد باشا(دائي)، 116، 123، 126، 400
- أحمد المملوك، 492	- أحمد باي، 150، 405، 428، 474
- أحمد نكروه(مرابط)، 275	- أحمد بن الأبيض، 312
- إدريس بن عبد الكمال، 262	- أحمد بن باديس، 257
- إسماعيل بن مصطفى، 140	- أحمد بن بلقاسم لمداني(مرابط)، 405
- الأشرف (سلطان) 19	- أحمد بن جلاب، 491
- آل القاضي، 17، 43، 104، 263، 358، 431	- أحمد بن سعيد قدورة، 240، 527
- آل/أولاد الموهوب (عائلة)، 309، 417	- أحمد بن الطيب/بوطيبة، 423
- ألكسندر السادس، 23	- أحمد بن عبد الرحمن، 177، 178
- ألكسندر الكورسيكي، 345، 352	- أحمد بن علي بوعكاز، 110
- أمحمد بن حالة، 292، 396	- أحمد بن قاسم ساسي البوني، 71، 217، 233، 389، 398، 400، 517، 526
- أنطونيودي رافادينا، 180	- أحمد بن قاضي، 28، 176، 180، 182، 183، 362، 363، 364
- أورخو، 186، 535	- أحمد بن يوسف الملياني، 167، 173، 249، 253، 271، 273، 278، 279، 340، 341
- أوزون علي باشا، 528	- 344، 345، 346، 371، 411، 412، 414
- أولاد بشتارزي، 259، 414	- 416، 422، 439
- أولاد بورنان، 536، 537	- أحمد التونسي بوكتوش، 186، 535
- أولاد بوزيد، 536	- أحمد التيجاني، 230، 336، 576، 577، 5782، 580، 583، 230
- أولاد بن تشيكو، 414	- أحمد خوجة(دائي) 381
- أولاد الحاج، 520، 536، 537	- أحمد شاوش القبائلي، 390، 400، 474، 518، 523
- أولاد دحمان بن القندوز، 520، 537	- أحمد الزواوي(مرابط 287، 288)
- أولاد سالم بن ابراهيم، 175	- أحمد الزروق بن عمار، 220، 274
- أولاد سيدي الشيخ، 43، 59، 97، 166، 174، 263، 302، 308، 384،	- أحمد القلي، 71، 160، 164، 396، 420، 433
- أولاد صولة، 353، 370، 512	
- أولاد عبد السلام، 175، 536	
- أولاد القندوز، 520، 536، 537	
- أولاد مقران، 17، 43، 392، 395	

-بوطيبة اللمداني422،	-إيزابيلا،،،23،22،18
- بيدرو نافرو179،25	-ب-
-بيري رايس،348،344،343،190	-بابا حسن(داي)،132،124
- ت -	-بابا علي،127،125
تاج العارفين،-428	-بايزيد الثاني،19
-ث-	-بتقة بن ناصر أمقران،453،360،181
-ثعلب بن علي،174	-بلقاسم بن ميرة،417،414
-ج-	-بلقيدوم بن قانة،166
-جان أنتوان دي فاليا،455	-بن جلول(عائلة)،437،396
جعفر باي،509	-بن بركات (مرابط)،561
جوهانا،23	- بن الفكون/آل الفكون(عائلة): 257،110،43
-ح-	424،421،414،370،353،351،350،349،
-الحاج بن قانة،165	450
- الحاج عيسى(مرابط)،288	- بن فيالا(عائلة) ،43
-خمينس(كاردينال)،25	-بن القاضي / آل القاضي(عائلة)،104،43،17
-حاجي بكداش،330	366،431،398،368،360،358،263
-الحاج علي (داي)،127	-بن قانة(عائلة)، 18، 164،160،156،154
الحاج الموفق بن سعيد الشقراني	174، 395،
البوشيخي،283	-بن زعمون(عائلة)،155
-حسان باي،510،482،474،336،411	-بن منصور (عائلة)،418
521،588،593،594	-بن نعمون(عائلة)،259
-حسن آغا 350،114	-بن ناصر(عائلة)،426،421،452
-حسين بن رجب شاوش،48،450	- بني الأحمر(عائلة)24
-حسين	-بوتميزين181
كلياني(بوكمية)،437،418،411،164	-بورنان بن بوزيد المقراني،541،536
- حسين الورثيلاني،292،234،221	-بوزيد بن الحاج أمقران396،182
-حناش بن بعرة،161	-بوعزيز بن نصر،163،164
-حناش بن فناش،161	- بوعكاز(حاكم) ،357،18
الحسن بن خيرالدين، 181،145،115،114	-بولخراص بن قانة،166
279،355،358،366،393	-بوطيبة بوزيان،،،422

ز- -الزبوشي(مرابط)، س- -سالم بن إبراهيم بن نصر 174،175 -سالم التومي،362،175،31،27،18،16 369،392،516 -سباع بن ثعلب،174 - سعيد بن أحمد بن سعيد قدورة،240 سعيد قدورة،292،258،240،221،73 392،407، - سليم الأول،362،36،35 -سليم الثالث،132 -سليم الثاني،20 -سليمان صوفة طايعة،492 - سليمان القانوني352،167،20، -سليمان المجذوب(مرابط)،106، - سيدي أحمد أومالك،311،305 - سيدي أحمد أودريس،311،305 -سيدي أحمد الزواوي،271 -سيدي أحمد السعدي،542 -سيدي أحمد الكبير،436،405،،264310 533 سيدي بتقة /أبو التقى،287،285،274 -سيدي البركاني،309 -سيدي بلاحة(مرابط)،325 -سيدي بلقاسم بن محمد،337،204 -سيدي بلقاسم وإبراهيم(مرابط)،405 سيدي بلقاسم بن إبراهيم(مرابط)،405 - سيدي بن عودة الغبريني(مرابط)،300 406،522، -سيدي بوترفاس محمد الساحلي،283	-الحسن بن تليلين،557 -حسن بوحنك،534،452،414،411،381، 540 -حسن قارة (قائد)،363 -حسن قورصو،357،356،114 -حسن ميزومورطو،399،132،124 -الحسن الوزان،50 -حسين باشا،444،436،120،116،107، -حسين(داي)328 382،394،401،403،404، 428،501 -حسين بن صالح(باي)،384 -خ- -خسروف باشا،185 -خضر باشا،119،118،117 -خليل(باي)283 -خمينيس،25،23 - خيرالدين بربروس،113،36،35،29،27،20، 159،184،312،335،349،351،352،355 362،363،519،530 -د- -دالي أحمد باشا،116 - ديبغودي فيرا،33 -دي سالي،454 -ذ- -ذباح بن بوعكاز،166 -ر- -الرايس حميدو،590،132،105 -رجب باي،437،417 -رمضان بولكباشي،123 - رمضان تشولاقي150

-سيدي منصور الجنادي(مرابط)،305،184، 311 سيدي هني (عائلة)،91 -سيدي الهواري(مرابط)،283،281،62 -سيدي يعقوب،271 -سيدي يوسف الزنجي(مرابط)،285 -سيمون دانسا،119 -ش- -شاكر باي،508،488،431،419،414 524،587،289 -شارلكان،331،287 -شعبان باشا،443،360،327،131،117 449 -شعبان الزناقي،439 -الشليحي(مرابط)،452،419،414،441 -ص- -صفا(قائد)،356،114 - صالح باي، 391،282،152،129،72 396،412،433،446،490،542 - صالح رايس،356،352،160،114،113 357،358،366،371،375،394 -ط- - الطاهر بن حواء،440،81 -ع- -عبد الرحمن الاخضري،448،418،284، 450 -عبد الرحمن الإدريسي،186،176 عبد الرحمن الثعالبي،220،189،188،175 271،280،341،410 -عبد الرحمن الفرقاني،433	-سيدي بوقدور(مرابط)،274،285،287 -سيدي الجودي(مرابط)،385،386 -سيدي الحاج بن سعيد الشقروني،519،283 -سيدي الحاج محي الدين بن مبارك(مرابط)،310 -سيدي الحبشي،مرابط،103 -سيدي خالد (مرابط)،312 سيدي دحو(مرابط)،110 -سيدي زكري(عائلة)،110 -سيدي السعيد بن طالب،245 -سيدي السكلاوي(مرابط)،415 -سيدي سينا(مرابط)،298 -سيدي عبد القادر أمقران،416 -سيدي علي بن عيسى المغربي،230 - سيدي علي الندرومي(مرابط)،282،253 -سيدي عيسى (مرابط)،288،255،110 - سيدي علي أو موسى(مرابط)،451،288 -سيدي علي بن عمر(مرابط)،403،108،107 404، -سيدي علي العريان(مرابط)،439 -سيدي علي مبارك (مرابط)،406،309 سيدي الغبريني (مرابط)،309 -سيدي مالك البركاني(مرابط)،397 -سيدي مبارك بن ناصر،303 -سيدي محمد البخاري(مرابط)،412 - سيدي محمد بن عبد الجبار الفجيحي،292 -سيدي محمد بورقعة،مرابط،279 - سيدي محمد بن عالية(مرابط)،281 -سيدي محي الدين بن علي مبارك،452 -سيدي المداني بن عطا الله،519 113

-علي بن عمر (مرابط)، 108، 403، 404،	-عبد الرحمن المرتضى، 527
-عثمان بن ابراهيم باي، 380	-عبد الرحمن الفكون، 450، 451
-العربي الدرقاوي، 549، 548، 546، 551، 550	-عبد الرحمن اليعقوبي، 352، 314، 279
561، 568، 569، 571	-عبد السلام بن مشيش، 340، 244
-عروج، 323، 192، 176، 33، 30، 29، 28	-عبد السلام المقراني، 396
361، 349، 347، 346، 345، 342، 341	-عبد الصمد الشابي، 541، 255
2،	-عبد العزيز (أمقران)، 180، 179، 178، 176
363، 3888، 392، 526	354، 192، 181، 355، 356، 359، 366، 354
-العلاج علي، 429، 393، 185، 115، 20	370، 530، 541
-علي بن أحمد المجاجي (أبهلول)، 315، 190	-عبد العزيز النفائي، 524
-علي باشا، 384، 130	-عبد القادر (الأمير)، 293، 234، 167، 159، 73،
-علي باشا بورسالي، 128	333، 513
-علي بتشين، 394، 381، 185، 120	-عبد القادر أمقران، 432، 416
-علي بن عبد الرحمن (الجمال)، 547، 546	-عبد القادر بن مبارك القلعي، 233
-علي بن عيسى، 230	-عبد القادر الجيلاني، 333، 244، 234، 218
-علي بن النيقرو، 260	-عبد القادر الراشدي، 438، 391، 259
-علي بوعكاز (مرابط)، 106	-عبد القادر المشرفي، 497، 316، 234
علي بوعكاز بن الصخري، 160، 159، 1598	-عبد القادر بوسماحة/السماحي، 278، 167
-علي خوجة، 143	-عبد الكريم الفكون (الجد)، 353، 1290، 351، 233
-علي شاوش، 125	-عبد الكريم الفكون الحفيد، 226، 221، 57، 50
-علي الغسال، 126	282، 259، 257، 250، 246، 244، 233، 227،
-عمار بوكتوش، 396،	350، 351، 387، 390، 407، 423
-علي شاوش (داي)	-عبد الله بن حواء، 521، 440، 391
-علي العابد الشابي، 254، 244	-عبد الله بن عبد الغفار النفزي، 427، 426
-عمار المستغانمي (مفتي) 54	-عبد الله بن محمد السعدي، 344
-عمر آغا، 501، 409، 128	-عبد الله القندوز، 182
-عمر بن ادريس، 182،	-عبد الله المغوفل، 348
-عمر بن جلاب، 491	-عبد اللطيف بن المسبح، 351
-عمر بن القاضي، 367، 188، 184، 18، 179	-عبد المؤمن، (عائلة)، 353، 349، 257، 43
368	354، 370
-عمر الوزان، 398، 352، 350، 233	-عبدني باشا، 436، 124

394،421،516،349	-عيسى الثعالبي،511،407
-محمد أوقاسي،144،143،140	-غ-
-محمد باشا(داي)،463،343،128،51	-الغبريني (عائلة)،406
-محمد باشا التريكي(داي)،124	الغوث بن مر،221
-محمد بكداش،384،327،324،128،92	-ف-
401،403،408،457،392،398	-فتح الله،523،518
- محمد باشا تكرلي،114	-فرحات باي،417
-محمد باي،405	- فرحات بن علي بوعكاز،164
-محمد بن بلقاسم التاجديوي،366	- فرديناند،31،24،23،18
-محمد بن حواء التوجيني،418	-فليب الثالث،23
- محمد بن الحاج الصحرابي(مرابط)،254،97	-ق-
-محمد بن زعموم،140	- قاسم ابن أم هاني،254،251،97
-محمد بن سعيد قدورة،389	- قاسم بن هاني(عائلة)،417
-محمد بن سوري،450	-قانة بن سليمان،164
محمد بن عثمان باشا،519،494،140	-قدورة (عائلة)،240،70،50
-محمد بن العشي،412	-قرياش أفندي،522
-محمد بن شعاعة،416،348،346،344	-ك-
- محمد بن عاشور الراشدي،316	-كرد عبدي باشا،542
-محمد بن عبد الجبار الفجيحي،،250،248	- كمال رايس،348،344،343،
،416،348،	-كوبرلو محمد باشا،123،121
-محمد بن عبد الرحمن أزهرى(بوقبرين)،204	-ل-
252،،230،336،305،266،256	-اللورد إكسموث،139
337،339،415،	-م-
- محمد بن عبد الرحمن الأدغم السويدي،281	-مبارك بن قاسم بن ناجي،541،255،
382	- محامد بن يحي(مرابط)،452
-محمد بن عبد الله التزاني،577	-محمد أفغول،344
محمد بن عيسى اللمداني،397	-محمد بن أبي دية الضرير،391
--محمد بن عبد الكريم لفكون،401،400،	-محمد بن أحمد الحلفاوي،324
425،431،513،424،458	- محمد بن آقوجيل/القوجيلي،325،258،118
-محمد بن عبد الواحد الخلافي،423	327،429
-محمد بن عبد المؤمن،354،326،257	-محمد أمقران،415،181

- محمد ساسي البوني	محمد بن علي أبو طالب المازوني، 440، 78
- محمد الشريف بن عبد القادر،	- محمد بن علي بوكتوش، 186
- محمد الشيخ الوطاسي،	- محمد بن علي الحضري المزغنائي، 426، 427
- محمد عثمان باشا، 381، 338، 126	- محمد بن علي الخروبي، 426
- محمد العنابي، 429، 430، 528	- محمد بن علي السنوسي، 73
- الغراب (مرابط)، 412، 505، 518، 543	- محمد بن علي الشارف المازوني، 440، 78
- محمد الفاتح (سلطان)، 19	- محمد بن علي العبدلي، 311، 315، 450
- محمد الكبير، 71، 73، 77، 81، 109	- محمد بن محمد بن القاضي، 365، 366
409، 430 149، 327، 390، 413	- محمد بن علي المجاجي (أبهلول)، 190، 315
494، 441، 431، 494	- محمد بن كانون، 140
- محمد الكماد، 510	- محمد بن محمد الثابتي، 14، 345
- محمد كوسة، 119	- محمد بن محمد بن المسعود، 425
- محمد المسعود الشابي، 255	- محمد بن محمد الطيب، (مرابط)، 427
- محمد المصطفى بن زرفة، 81، 497	- محمد بن مصطفى الماستجي، 506، 517
- محمد مصطفى الرماصي القلعي، 26	- محمد بن هدي، 260
- محمد المناماني، 419	- محمد بن مرزوقة، 346
- محمد المهدي (سلطان)، 115	- محمد بن المكي ساسي، 519
- محمد الملي (باي)، 520	- محمد بوجلال، 81
- محي الدين الغريسي، 488، 511، 512	- محمد بوكابوس، 397، 409، 489، 508، 520
- مسعود بن مرداس، 158	- محمد التواتي، 190، 240، 279، 343، 348
- مصطفى	420، 437، 492،
باشا،	- محمد الجزولي، 311، 315
54، 71، 10، 125، 128، 129، 381، 394	- محمد الذباح، (باي)، 75، 138، 141، 142،
40، 432، 454، 528	382، 452
- مصطفى باشتارزي، 337	- محمد الذباح بوعكاز، 166
- مصطفى بن عبد الرحمن، 401	- محمد الزيتوني، 289، 450
مصطفى بن مختار الغريسي، 234، 334، 409	- محمد ساسي البوني، 250، 254، 383
- مصطفى بوشلاغم، 238، 380، 439، 514	389، 398، 402، 403، 407
- مصطفى العنابي، 526	- محمد الشريف بن عبد القادر، 4232، 454
- مول الشقفة (عائلة)، 43	- محمد الشيخ الوطاسي، 15
- مولاي الشقفة (عبد الله) مرابط، 97، 263، 324	

-مولاي اسماعيل، 131، 150، 426، 502، -ي- -يحي آغا، 143، 453، -يحي الأوراسي، 233، 257، 258، 390، 541، -يحي بن ثابت، 25، -يفرن بن حناش، 161، - يحي العيدلي، 178، 288، -يحي بن الفكون، 350، 351، -يوسف باشا، 116، 117، 118، 383، 384، 389، 402، 407، 417، 429	-مولاي عثمان الحفصي، 173، -مولاي سليمان، 546، 548، 568، 569، 570، 571، 575، 580 -المولى محمد الشريف، 426، 427، -الموهوب بن محمد الحاج، 309، 495، -ه- - هبيغو دو منكادا، 33، 34، -و- -الولي داداة، 274، 285، 287،

2- فهرس الأماكن -البلدان

15,16,17,22,30,31,80,114,119	أ-أ-
159,179,180,181,183,184,188,190	-ابن أعراب (زاوية)، 75
221,292,310,323,347,348,352,361،	-أزفون، 119
-البرتغال، 23	- الأزهر (جامع)، 70,78
-البرواقية، 144	-اسبانيا، 2223,53,116,132,180،
-بسكرة، 158,160,302,337,359,370,483	-
-البطحاء، 110	اسطنبول، 20,47,50,53,120,123,125،
-بغداد، 333	429,430,130,258,330,331,411
-البرانية (مسجد)، 439	- آسفي، 15
-برج بوليلة، 145	-الأشراف (زاوية)، 74,92,272،
-برج الكيفان، 145	-الأغواط، 158,288,302،
-برج الفرنسي، 145	-آقبو، 288/
-برج النجم، 145	-امدوكال، 97,421,425
-بريطانيا، 53	-انجلترا، 119
-بلزمة، 154,159,178،	-الأندلس (زاوية)، 74،
-البليدة، 264,279,310,533،	-أورير، 184,185،
-البندقية، 120	-أولاد جلول (زاوية)، 74،
-بنطوس، 418	-أولاد الفكون (زاوية)، 74،
-بوسمغون، 302	آيث اسماعيل (عرش)، 143,256,336,533،
-بونة (رباط)، 79،	- آيث سعدان، 305،
-بوغني (برج)، 137,142,394,453،	-آيث ايراثن (زاوية)، 99،
-بوقيرين (زاوية)، 143,410،	-آيث اليوسي، 305،
-البيبان، 18,144,355,360,370،	-ايفري (رباط)، 497،
-بني بوشعيب، 104	-ايلولة، 104،
-بني راشد (جبل)، 74	- إيمولا، 420,455،
- بني راشد (قلعة)، 34,345،	ب-ب-
-بني سليمان، 144	-باب الجزيرة (مسجد)، 435،
-بني سنوس، 508	-باب عزون، 359,443،
	-البابور، 156,178

-باتنة، 97	-تيزي وزو (برج)، 143
-بني عايشة، 355	-تيطوان، 13، 15
-بني عباس (جبال)، 176	-تيميمون، 111
-بني عيدل، 82	-ج-
- بني ورثيلان، 82	-الجامع الكبير (الأعظم)، 48، 70، 88، 89
-بني يحي، 104	110، 338
-البننيون (حصن)، 115، 355	-الجامع الجديد، 70
-البويرة، 144، 355، 357	- الجبل الاخضر، 15
-ت-	-جديوية، 28
-تافيلالت، 16، 169	-جربة، 28
-تاهرت، 340	-الجزائر، 15، 17، 32، 35، 36، 41، 42، 47، 48
-تازة، 340	132، 138، 144، 149، 150، 173، 196
-تازروت، 420	، 220، 310، 323، 331، 364، 478،
-تبسة، 18	483، 551، 553
-تروال، 245	-الجزائر (مدينة)، 16، 22، 31، 45، 48، 49،
-	، 70، 72، 77، 87، 89، 91، 92، 94، 114
تلمسان، 13، 16، 17، 25، 26، 34، 71، 115،	116، 121، 123، 130، 133، 131، 141، 145
130، 137، 173، 221، 242، 258، 271، 2	233، 247، 258، 270، 275، 276، 279
73	، 287، 289، 295، 300، 312، 324،
275، 276، 283، 287، 298، 310، 340، 3	363، 38، 339، 348، 353، 355، 360، 361
44	1، 382، 389، 393، 408، 542
348، 349، 388، 408،	- جماعة السحاريج (مسجد)، 437
-تمازيرت، 99، 263	-الجنائز (مسجد)، 435
-تنس، 25، 32، 35، 179، 191، 388،	- جنوة، 29
- توقرت، 154، 160، 302، 451،	جيجل،
-تونس، 15، 29، 54، 126، 128، 130،	29، 30، 31، 43، 77، 123، 184، 192، 312، 432
، 133، 162/131132،	456،
163، 173، 183، 227، 235، 242، 294، 3	-جبلان (جبل)، 333
17، 337، 382، 424، 451، 514	-ح-
-تيجمونين، 245	-الحاج محي الدين بن مبارك (زاوية)، 297
- تيزي راشد (زاوية)، 75	-الحامة، 256

-	- الحضنة، 177، 357، 18، 44
-سليمان المجذوب (زاوية)، 431	-الجعافرة (معمرة)، 82
-سور الغزلان، 137، 144	-حلق الواد، 28، 29
-السودان، 366، 337	-حمزة (برج)، 137، 142، 355، 394
-السيدة (مسجد)، 436	-خ-
-ت	-خضر باشا (مسجد)، 0، 435
-سيدي محمد بن أحمد الزهار (ضريح)، 279	-خنقة سيدي ناجي، 255، 302، 382، 422، 427
-سيدي ادريس (زاوية)، 43	-د-
-سيدي بتقة (زاوية/ضريح)، 204، 331	-دبدو، 15
-سيدي بغديش (زاوية)، 43	-دلس، 138، 179، 302
-سيدي بوقدور، ضريح 331	-ديرة، 144
-سيدي التواتي (زاوية)، 73	-ر-
-سيدي جامه (مسجد)، 90	-رجاص، 164
-سيدي الجودي (ضريح)، 92، 94	-الركروك/الرقروق (مسجد)، 204
-سيدي الحبشي (زاوية)، 297	-ز-
-سيدي الرحبي-الرهبي- (مسجد)، 90	-الزاب/الزيبان، 159، 175، 178، 359
-سيدي عبد الرحمن الأخصري (زاوية)، 418	-زمورة (برج)، 145، 355، 357، 359
-سيدي عبد الرحمن الثعالبي (زاوية/ضريح)، 73	-الزواوة، 43، 142، 178، 303، 309
87، 92، 94، 106، 109، 271، 272، 275	366، 396،
436/298، 299، 331، 377، 381، 410، 413	-الزيتونة (جامع)، 70، 78
-سيدي عبد الرحمن اللولي (زاوية/معمرة)، 73، 82	-س-
-سيدي علي أموسى (زاوية)، 94، 437	-الساقية الحمراء، 62، 196، 262
-سيدي علي الزواوي (ضريح/زاوية)، 275	-ستي مريم (مسجد)، 90
-سيدي علي بن يحيى (معمرة)، 82، 294	-سوسة (رباط)، 79
-سيدي علي الفاسي (ضريح)، 109	-سبباو (برج)، 137، 138، 405
-سيدي علي مبارك (زاوية)، 94، 381، 436	-سيدي لخضر (مسجد/مدرسة)، 437
-سيدي عمار التنسي (ضريح)، 92، 93، 95، 109	-سيدي محمد بن عودة (ضريح)، 294
272، 299، 444	
-سيدي فرج (ميناء)، 155	
-سيدي فليح (ضريح)، 274	
-سيدي الكتاني (مسجد/مدرسة)، 77، 272، 410، 447	

-عريب، 147، 144	سيدي كانون (ضريح)، 276
-عزازقة، 182	-سيدي هلال (ضريح) 94، 92
- علي أوموسى (معمرة)، 82	-سيدي منصور (زاوية) ، 92، 73
-علي بتشين (مسجد)، 444، 435	-سيدي الهواري (مسجد)، 441، 413
-علي خوجة (جامع)، 91	- سيدي يحي العيدلي (معمرة)، 82
-عناية/بونة، 254، 244، 139، 119، 114، 71	-سيدي اليدون (مسجد)، 441
364	-سيدي يعقوب (ضريح) 272، 109، 93
-عين الحوت، 439، 418	-سيدي يوسف الزنجي (ضريح)، 331
-عين الحمام، 184	-سطيف، 360، 355، 312، 159، 154،
-عين ماضي 302	451، 457
-غ-	-سيدي محمد بن عودة (ضريح)، 380،
- غرناطة، 18، 190، 24، 20	413، 439
- ف -	-ش-
-فاس، 279، 34، 15، 14	-شبارلية (جامع)، 70
-فرجيوة، 178، 154	-شرشال، 406، 397، 384، 31، 27، 25
- فريجة (معمرة) ، 82	- شعبان باشا (جامع)، 90، 70
-فقيق، 111	-شعبة النواح، 567
-فرنسا ، 427، 132، 115	-شلاطة، 258، 501، 420
-ق-	- الشلف، 348، 18، 16
-القبائل (مسجد)، 435	- شيخ البلد (زاوية)، 74
-القرويين (جامع)، 78، 70	-ص-
-قسنطينة، 110، 97، 77، 71، 58، 50، 18، 16،	-صفاقس (رباط)، 79
111، 114، 139، 142، 144، 145، 150، 154، 15	-صفر (جامع)، 444، 435، 90، 70
، 5، 158، 159، 163، 163، 175، 179، 180	-ط-
233، 259، 300، 360، 361، 364، 381، 382، 40	-طرابلس، 179، 132، 131، 116،
8، 427، 438، 438، 478، 514	227، 294، 302، 340، 429
-القشاش (زاوية)، 92، 74	-طولقة (زاوية)، 359، 158، 75
-القشاشية (مدرسة)، 77	-ع-
- القصر الكبير، 15	-عبد القادر الجيلاني (زاوية/
- القل، 75، 437، 355، 123، 71، 43	ضريح)، 413، 221، 74
	- عبيدي باشا (مسجد)، 435، 90

-قرومة(زاوية)	-القنادسة،310
-المغرب الأوسط،16،175،193،221،551	-ك-
-مكة،244،431،338	-كتشاوة/كتجاوة(جامع/زاوية)،91،92،93،
-مليانة،16،174	435،436،443،
-المنستير(رباط)،79	-كرزاز(زاوية)،94
-المنيعه،111	-كريشئل،345
-الميلية،43	-كوكو(قرية)،176،183،185،355،
-ميلة،153،411	-م-
-مولاي الحسن(زاوية)،92،93،297	-المائدة(رباط)،497
-ميزومورطو(مسجد)،90	-مازونة(مدرسة)،78،91،114،
-ن-	-مالطا،115،381،440،
-نقاوس(زاوية)،73	-متيلي،111
-النمامشة،130	-متيجة،174،175،405،
-ه-	- محمد المجاجي/أبهلول(زاوية)،190
-هولندا،1	- مجانة،145،181،264،360،370،396،
-و-	-محمد بن علي الشريف(زاوية)،255،
-واد آث عيسى،143،397	-المحمدية(مدرسة)77
-واد بوقدورة،143،397	-المدية،16،108،174،
-واد تليلات،391،413	-مرجاجو(برج)،145
-واد الحامل،347	-المرسى الكبير،24،25،26،80،344،
-واد سوف،154	-مرسيليا،119
-واد مينا،421	-المسيلة،159،355،357،
-ورقلة،159،160،	-مستغانم،27،32،173،
- وهران،21،22،26،27،34،80،94،114،	- مشراس،263
،	- مصر،19،121،234،294،336،
132،145،148،149،273،282،289،324،32	-معانقة،82،139،204،
5،328،335،344،345،406،451،553	-معسكر،71،77،114،176،275،
-ي-	292،334،
-يسر،130،309	- المغرب الأقصى،14،15،57،110،131،
	،132،169،173،173،244،262،294
	340،341،344،352،366،371،423

3- فهرس - المشيخات - القبائل - الإمارات.

-أ-	-أولاد عبدوس، 176
- أبو فارس (إمارة)، 15	-أولاد عبيدي، 156
-آث ايراثن، 139، 184، 263، 362	-أولاد /بني عبيد، 431، 283، 412
-آث دواله، 139	-أولاد عطية، 151، 148
- أراغون (مملكة)، 23، 18	-أولاد قاسم، 154
- آل رحو (إمارة)، 15	-أولاد منديل، 297
- آل فرحون (إمارة)، 15	-أولاد ميرة، 147
-أولاد إبراهيم، 281	-أولاد نايل، 553، 491، 150
-أولاد أورابح، 455	-أولاد يعقوب، 151، 451
- أولاد بلعفو، 97	-آيت أوركاق، 263
-أولاد بوضياف، 154، 156	-آيت أوقراو، 263
-أولاد بوعزيز، 154، 156	-ب-
-أولاد جبار، 110، 412، 452،	-برباشة (عرش)، 415
-أولاد حناش، 176	-البرجية، 148
- أولاد خالفة، 139	- بنو أحمد، 97، 146
-أولاد الخلف، 453	- بنو بلقايد، 97
-أولاد خليف، 151	-بنو عامر، 25، 27
-أولاد زرقان (إمارة)، 16	-بني بوشعيب، 104، 184
- أولاد ساعد، 97	-بني بترون، 244، 305
-أولاد سيدي أحمد الكبير، 264	-بني ثور، 139
- آل شنتوف (إمارة)، 15	-بني جناد (عرش)، 311، 367، 501
-أولاد صولة، 370 لا	-بني سنوس، 314، 472
-آل عبد الحميد (إمارة)، 15	-بني شقرون، 148
-آل المنظري، 15	- بني راشد (إمارة)، 15
-أولاد عبد السلام، 174	-بني زقزوق، 147
- أولاد عبد الله، 27	-بني سليم، 139
-أولاد عبد النور، 156، 148، 411، 395، 412	-بني سليمان، 492، 147، 144، 494
414، 419، 491، 505،	- بني صالح، 453

-الحنانشة،175،174،163،160،158،150، 255	-بني صدقة،141، 452، 453
-حميان،27	- بني عامر (إمارة)،15
-د-	-بني عامر، 17، 25، 27، 131، 150، 326،
- دبدو،15	- بني عباس،145، 177، 181،179،
-ذ-	360، 182،183
-الذواودة،175،174،163،160،158،17، 255	- بني عباس (إمارة/قلعة)،114، 174،
-ز-	354،356
-الزمول،152،149	- بني عريف،139
-الزرارة،151	-بني عمروس،244، 432، 433
-الزواتنة(مخزن واد الزيتون)،150،148،145،	-بني عيدل،305،288
-ش-	-بني الغبري/آث الغبري،309،183،182،139
-شعانية،151	-بني فوغال،433،432
- شفشاون (إمارة)،15	-بني مسعود،534،454،416
-ع-	-بني مناصر،406
-عبيد شمال (مخزن)،139	-بني ميمون،433،432
-عريب،492،150،147،144	-بني واسيف،305،288
-عمرارة،589،148،147،143،141،140	-ت-
-غ-	-تجمونين،254
-الغرابية،168	-تترارة،352،314
- غمرة،26	-التلاغمة،148
-ف-	- توارقة،139
- فراوسن،362	-تروال،245
-فرجيوة	-ث-
-فليسة أو مليل،397،140،139	- الثعالبية،174،18
-فليسة البحرية،139	-ح-
-ق-	- حدو (إمارة)، 15
-قشتالة (مملكة) ،23،18	-الحشم/هاشم،148، 356،181،179،
-قشتولة،452،338،252،151،147،141	567،572،573،585،594
	-الحراكتة،150،148، 156،154،163، 255
	541،

- ن - -نزليوة، 141، 147، 420- -النمامشة، 18، 154، 255، 413، 508، 541- - ه - -هواره، 161- - و - -ولهاصة، 472-	- قيزة، 27 - ك - كوكو (إمارة)، 104، 114، 174، 177، 183، 185، 347، 367، 3 94، 396 - م - - مولاي الإدريس الهنتاتي (إمارة)، 16

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الإهداء

شكر وتقدير

01.....	مقدمة
36-13.....	الفصل التمهيدي
21-13.....	1- الأوضاع الجيوسياسية لمنطقة المغرب الإسلامي نهاية القرن 15م
13.....	1-1- انهيار دويلات المغرب الإسلامي وظهور الخطر الإسباني
21.....	1-2- الهجرة الأندلسية والغزو الإسباني للسواحل الجزائرية
36-24.....	2- أوضاع المغرب الأوسط مطلع القرن 16م
24.....	2-1- الغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط
28.....	2-2- ظهور الإخوة بربروس وإحاق الجزائر بالدولة العثمانية

القسم الأول: السلطة الروحية والسلطة السياسية

111-39.....	الفصل الأول: السلطة الروحية مميزاتا وصلاحياتها
39.....	1- السلطة الروحية مفهومها، أقطابها ووظائفهم، مراكزها
39.....	1-1- مفهوم السلطة الروحية
44.....	2-1- أقطاب ووظائف السلطة الروحية بالمدينة والريف
67.....	3-1- مراكز السلطة الروحية
82.....	2- الموارد المالية للسلطة الروحية
170-113.....	الفصل الثاني: النظام السياسي مراحله وأهم دعائمه
113.....	1- أنظمة الحكم العثماني في الجزائر
113.....	1-1- نظام البايلربايات (1519-1587م)
115.....	2-1- نظام الباشوات 1587-1659م مميزاتا وانعكاساته
120.....	3-1- نظام الآغوات 1659-1671م مميزاتا وتأثيراته السلبية
124.....	4-1- نظام الدايات 1671-1830م ومميزاتا
133.....	2- دعائم السلطة السياسية
133.....	2-1- المحلة والأبراج

- 2-2- قبائل المخزن.....145
- 2-3- المشيخات الوراثية.....153

القسم الثاني: السلطة الروحية والمجتمع.

الفصل الثالث: الأسس التاريخية والسوسيوثقافية للسلطة الروحية.....173-237

- 1- الأسس التاريخية والاجتماعية لبروز السلطة الروحية/أثر الأوضاع السائدة في بروز السلطة الروحية....173
- 1-1- الفراغ السياسي وظهور الزعامات المحلية مطلع القرن 16م 173
- 1-2- السلطة الروحية ودورها في مواجهة الغزو الإسباني.....187
- 1-3- مصطلحات متعلقة بالسلطة الروحية.....192
- 2- التجربة الرئيسية للسلطة الروحية.....211
- 1-2- التصوف وانتشاره في الجزائر خلال العهد العثماني.....211
- 2-2- تأثر الفقهاء بالتصوف وبروز الصوفي على الفقيه.....228
- 2-3- الفرق بين المتصوف والمرابط.....231

الفصل الرابع: التنظيم الاجتماعي للسلطة الروحية بالجزائر.....239-318

- 1- موقع وركائز السلطة الروحية في المجتمع.....239
- 1-1- السلطة الروحية ومكانتها في المجتمع.....239
- 1-2- العلاقة بين أقطاب السلطة الروحية خلال العهد العثماني.....245
- 1-3- ركائز السلطة الروحية في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني.....261
- 2- وظائف و أدوار السلطة الروحية في المجتمع:.....290
- 1-2- الدور التعليمي والديني.....291
- 2-2- الدور الاجتماعي والاقتصادي.....296
- 2-3- الدور الإصلاحي والقضائي.....303
- 2-4- الدور الأمني والجهادي.....308

القسم الثالث: السلطة الروحية من التنظيم السوسيوثقافي إلى العمل السياسي

الفصل الخامس: الإستراتيجية العثمانية اتجاه السلطة الروحية.....321-373

- 1- دوافع التحالف العثماني مع السلطة الروحية.....321
- 1-1- العمل الجهادي أو الجهاد ضد العدو المشترك.....321

- 1-2- المعتقدات والخلفية الدينية لدى العثمانيين.....329
- 1-3- مكانة السلطة الروحية في المجتمع.....341
- 2- بداية العلاقة بين السلطة الروحية والعثمانيين: 343
- 1-2- الاتصال بين السلطة الروحية والسلطة العثمانية قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية....343
- 2-2- موقف السلطة الروحية من الوجود العثماني بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية
(عهد البايلرييات).....348
- 2-3- ازدواجية السلطة أو الخضوع للأمر الواقع.....369
- الفصل السادس: امتيازات السلطة العثمانية للسلطة الروحية ونتائجها.....378-464**
- 1- الامتيازات المعنوية.....378
- 1-1- الاحترام والمشورة.....379
- 2-1- المصاهرة.(الزواج السياسي).....392
- 3-1- المراسلات والزيارات.....398
- 4-1- الاعتقاد في أقطاب السلطة الروحية والتقرب منهم.....407
- 2- الامتيازات المادية/العون المادي.....414
- 1-2- منح الإقطاعات (الأراضي) والإعفاء من الضرائب.....414
- 2-2- المناصب.....420
- 3-2- مساهمة الحكام في بناء المراكز الدينية والتعليمية والأوقاف.....434
- 3- نتائج السياسة العثمانية اتجاه السلطة الروحية.....448
- 1-3- الوساطة.....448
- 2-3- تقرب أقطاب السلطة الروحية من الحكام العثمانيين.....456

القسم الرابع: السلطة الروحية من العمل السياسي إلى العمل العسكري

والثورة/ من الائتلاف والتعاون إلى التمرد والثورة

- الفصل السابع: خلفيات التحول في العلاقة بين السلطتين.....467-538**
- 1- خلفيات التحول في العلاقة بين السلطتين.....467
- 1-1- السياسة الضريبية أواخر العهد العثماني.....467
- 2-1- علاقة السلطة بالمجتمع/علاقة الحاكم بالمحكوم.....484

1-3-	الجلء الإسباني عن وهران عام 1792م وانعكاساته.....	495
1-4-	تراجع السلطة السياسية أمام تطور وتفوق السلطة الروحية عسكريا واقتصاديا.....	498
2-	تجليات التحول في العلاقة بين السلطتين الروحية والسياسية.....	504
1-2-	إسقاط الامتيازات المادية والمعنوية.....	505
2-2-	الإجراءات الردعية واستعمال القوة.....	516
2-3-	إثارة الفتن والصراعات بين القبائل/سياسة فرق - تسد.....	529
الفصل الثامن: رد فعل السلطة الروحية على تعسف السلطة السياسية أواخر العهد		
العثماني ونتائجه.....540-599		
1-	تمردات القوى الدينية على السلطة السياسية.....	540
1-1-	الثورات الدينية ضد السلطة السياسية.....	544
1-1-1-	ثورة الطريقة الدرقاوية.....	545
1-1-2-	الثورة التيجانية بالجنوب الجزائري.....	576
2-	نتائج الثورات.....	586
1-2-	سياسيا وعسكريا.....	587
2-2-	اجتماعيا.....	592
2-3-	اقتصاديا.....	594
الخاتمة.....		
الملاحق.....		
البيلوغرافيا.....		
الفهارس.....		
فهرس الموضوعات.....		